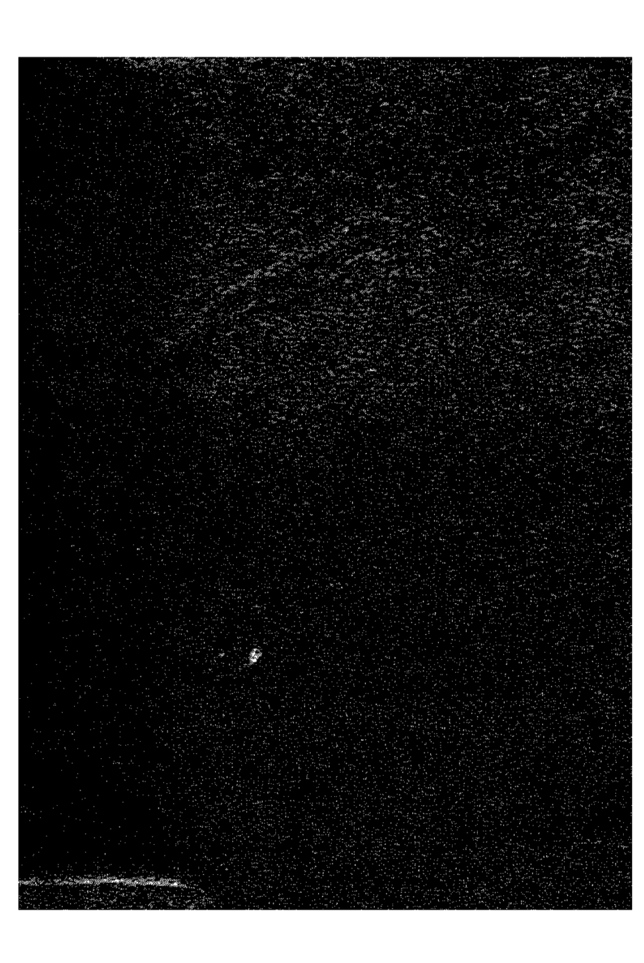






كتاب الهلال

المعتزلة والثورة

دكتور محمد عمارة

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمى

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٤٠١ – شعبان ١٤٠٤ – مايو ١٩٨٤

No. 401 — May 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية اربعة جنيهات مصرية و ٨٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات او مايعادلها بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــــلاف بريشة
الفنانة سميحة حسنين

دكتور محمد عمارة

المعتزلة والثورة

دار الهلال

كلمة

فى هذا القسم ـ الثالث ، والاخير ـ من دراستنا عن « فلسفة الحكم فى الاسلام » يأتى حديثنا عن الجانب التطبيقى للفكر النظرى الذى عرضنا له بالدراسة فى القسم الاول ، والقسم الثانى ..

ففى القسم الاول رأينا تجربة العرب المسلمين فى تكوين « الدولة والسلطة » ، وعرضنا لدلالة هذه التجربة التى تجسدت فى « دولة الخلفاء الراشدين » وما صاحب قيامها من فكر نظرى فى حقل السياسة وفلسفتها .. ومن شهدته من صراع على السلطة ، ولدلالة والاسباب التى ارتبطت بذلك الصراع .. .

كما عرضنا للدلالة السياسية لنشأة كل التيارات الرئيسية فى حياة المسلمين السياسية والفكرية ..

وفى القسم الثانى من هذه الدراسة عرضنا لصلب القضية .. قضية فلسفة الحكم فى الاسلام .. وآراء الفرقاء المختلفين حول طبيعة السلطة العليا فى المجتمع ، وشروطها وصفاتها ، والطريق لقيامها ، والمؤسسات السياسية والدستورية اللازمة لاكتمال بنائها ..

وفى هذا القسم ـ الثالث والاخير ـ نعرض بالدرس

لقضية هامة تؤكد لنا دراستها أن « المعتزلة » ـ وهم أخطر تيارات الاسلام الفكرية ـ لم يكونوا مجرد مفكرين نظريين ، وانما كانت لهم جهود سياسية تطبيقية عملاقة ، حاولوا من خلالها وبواسطتها وضع فكرهم السياسى النظرى فى التطبيق ، وتجسيد فلسفتهم السياسية فى المجتمع الذى عاشوا فيه ..

فبعد ان حددوا طبيعة السلطة ، ميزوا بين ماهو اختصاص للسلطة العليا وماهو حقوق للامة .. ثم مارسوا الدعوة لسيادة هذه الحقوق والحصول عليها فى المجتمع العربى الاسلامى ، منذ تبلور تيارهم الفكرى وحتى المحنة الكبرى التى اصابتهم بها قوى المحافظة والتخلف والجمود فى العصر العباسى ..

وسيرى الباحث والقارىء من خلال صفحات هذا القسم مكان قضية « الثورة » فى فكرنا السياسي الاسلامى ، وموقف التيارات الفكرية الاسلامية المختلفة من هذه القضية « القديمة ـ الجديدة » .. كما سيلمس عظم العطاء الذى تقدمه دراسة هذه الصفحات من تراثنا حتى للعصر والمجتمع الذى نعيش نحن فيه !

د . محمد عمارة

الثورة
والنشاط السّياسِى

الفصل الاول

ماذا للإمام؟ وماذا للأمة؟

ان عملية اختيار الامام ، وترشيحه وتمييزه من بين من يتفقون معه فى التحلى بصفات الامامة وشروطها ،ومبايعته بالامامة ، تمثل تعاقدا دستوريا حقيقيا بكل مقاييس هذا التعبير ، فهناك أهل الاختيار ، بواسطة ممثليهم المعبرين عن ارادتهم والحائزين لثقتهم ، طرف أول ؛ وهناك الامام الذى بايعه وعقد له هؤلاء الممثلون ، طرف ثان ، ولكل من الطرفين شروطه المحددة ، وصفاته المنصوص عليها ، وكما لا تصح البيعة تحت ظروف من الاكراه والقسر للطرف الاول ، والا خرج الامر من الامامة الى سلطة التغلب ، فكذلك لابد من قبول الطرف الثانى للمنصب الذى اختاروه له ، وذلك تفاديا من تولى من لديه صفات مستترة تقدح فى أهليته للمنصب ، قد لا يعلمها الناس ولا أهلَ الاختيار ، « فلابد من قبول الامام للعقد .. لانه أعرف بنفسه وبباطنه منهم ، فربما علم بما يقتضى تحريم دخوله فى الامامة .. فلابد من اعتبار الرضا والقبولَ فيه » (١) .. وحتى اذا لم يكن به مايمنع من

(١) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٧٠ .

توليه المنصب ، وأراد الاعتذار عن القبول ، كانت له حرية
الاعتذار ، مع تبيان سبب اعتذاره ، ولا ترقى البيعة الى
مستوى التكليف والالزام الا اذا كانت صفات الامامة غير
مجتمعة فى أحد سواه ، عند ذلك يغلب الالزام والتكليف
جانب حريته واختياره ، وتعلو ارادة الامة على رغبته في
الاعتذار عن عدم القبول .. (٢) ..

وهكذا تكتمل لهذه المهمة السياسية والدستورية
مقومات « التعاقد الدستورى » بين الامة وحاكمها :
وكما يقول الماوردى ، فان الامامة يعهد بها الى « اكثرهم
فضلا ، واكملهم شروطا ، ومن يسرع الناس الى طاعته :
ولا يتوقفون عن بيعته .. فان أجاب اليها بايعوه عليها ..
وان امتنع لم يجبر عليها ، لانها عقد مراضاة واختيار
لا يدخله اكراه ولا اجبار (٣) .. » .. ولان الولايات أجمع
لابد فيها من الاختيار .. » (٤) ، كما يقول قاضي القضاة
.. والامر الذى يؤكد المضمون الاجتماعي لهذا العقد هو
لزوم طاعة الرعية للامام فيما هو من طاعات الله ، لانا
لا يستطيع أن ينجز المهام التى فوضت اليه انجازها الا
بطاعتها له فى تنفيذها ، وأعانتها له على هذا التنفيذ ...
فهى اذ تطيعه ، فى غير المعاصى ، تنزل عن قدر من
حريتها الخاصة ، وتقيد اطلاق هذه الحرية فى مقابل
نهوضه بتنفيذ ما فوضت اليه تنفيذه من المهام :
وهذه القاعدة الجوهرية فى « العقد الاجتماعى » ، يعبر

(٢) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٥١ .
(٣) (الاحكام السلطانية) ص ٧ .
(٤) (المغني) جـ ٢ ق ١ ص ٢٧٠ .

عنها القاضي عبد الجبار عندما يقول : « .. ومن جملة ما يدخل في الامامة : أنه يلزم سائر الناس طاعته فيما ليس فيه معصية ولا اقدام على محظور ومحرم .. فيجب ان يطاع في ذلك الباب . وهذا مما يختص به دون غيره . لان الطاعة لا تجب . على هذا الوجه . الا له .. فمن لم يطعه فهو مخطيء . وان كان مشاقا له فهو فاسق ... لانه ـ « اى الامام » ـ قد لزمته للامة أمور لا يمكنه القيام بها الا بغيره ، فلو لم نقل : ان طاعة غيره له لازمة لم يتمكن مما ذكرناه » من المهام المفوض اليه انجازها .. (٥) .

فهو « عقد اجتماعي » ، قائم على المراضاة والاختيار .

فاذا تم عقد المراضاة هذا ، تم التكليف وقام الالتزام بالنسبة للامام ، ولذلك امتنع عليه أن يستقيل من منصبه ويتخلى عن مهامه طالما لم يوجد مايمنع من نهوضه بتنفيذ ما فوضت اليه الامة ، ويستدلون على ذلك بما روى من « أن ابا بكر لما فرغ من قتال اهل « الردة » قام في الناس خطيبا ثلاثة ايام ، يقول : اقيلوني .. » فرفض المسلمون استقالته ، فاستمر في النهوض بمهام الخلافة (٦) . وان كان البعض يجيز استقالته استنادا لتلك الواقعة ، اذ لو لم يعلم ابو بكر جوازها لما عرضها .. واستنادا الى خلع الحسن بن على نفسه ، ولانه وكيل المسلمين ، وللوكيل عزل نفسه .. (٧) .

---

(٥) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٧٤ .
(٦) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٤٦ .
(٧) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢١٢ ، ٢١٤ .

اما طبيعة الامور التى تفوضها الامة الى الامام ، وتبايعه كى يختص بنظرها والقيام عليها وتنفيذها ، والتى هى مجموع سلطاته ، وفيها نطاق اختصاصه ، فانها تجعل دولة الامامة دولة أقرب الى ما نسميه فى عصرنا « بالدولة الشمولية » ، اى التى لا يقف سلطانها عند حد الحكم بين الناس فيما يترافعون به اليها من المنازعات ، وحفظ الامن الداخلى ، والدفاع عن البيضة والحوزة والاستقلال فقط ، ثم ترك ماعدا ذلك لمبادرات الناس الذاتية وحريتهم الخاصة ، وانما هى دولة تمتد بنشاطها ونفوذهاوسلطانها الى كل مجالات الحياة ذات الطابع العام المتصل بمجموع الناس وجماعتهم ، فكرية كانت تلك المجالات او اقتصادية او اجتماعية ، ولا تدع للفرد ان يحتكر لذاته وحريتـــه الخاصة من المجالات الا مايختص بذاته ، دون تأثير على المجموع ، حال كونه قادراعلى النهوض بما تختص به هذه الذات الفردية ، فاذا عجزت عن الوفاء بحق عالمهـــا الخاص امتدت يد الدولة لتدبر لها شؤونها الذاتيـــــة الخاصة ، وعدت عندئذ من المجالات العامة التى تشملها سلطة الدولة والامام ..

والحسن البصرى يقول ان الاسلام قد اعطى من شؤونه ومجالاته الى السلطان اربعة مجالات ، هى : « الحكم ، والفىء ، والجمعة ، والجهاد » فهذه « اربعة من الاســلام الى السلطان » (٨) .. وفى الحكم ، كما هو ظاهر ،وكما حدث فى التجربة ، يدخل التنفيذ بأجهزته ، والقضـــاء

(٨) (عيون الاخبار) لابن قتيبة . مجلد ١ ص ٢ . طبعة دار الكتب . القاهرة .

بأجهزته ، وفى الفىء يكون دور الدولة فى المال والاقتصاد، وفى الجهاد يكون دورها العسكرى ، وفى الجمعة يأتى دور الامام فى القيادة الدينية والروحية ، كقدوة حسنة ترعى شعائر الاسلام وتنتصر لاخلاقيات الدين الحنيف ..

وهذه المهام الاربع نجدها مفصلة بعض التفصيل عند الماوردى ، حين يقول : « .. والذى يلزم سلطان الامة من أمورها سبعة أشياء :

أحدها : حفظ الدين من تبديل فيه ، والحث على العمل به ، من غير اهمال له .

والثانى : حراسة البيضة ، والذب عن الامة من عدو الدين أو باغى نفس أو مال .

والثالث : عمارة البلدان باعتماد مصالحها ، وتهذيب سبلها ومسالكها .

والرابع : تقدير مايتولاه من الاموال بسنن الدين ، من غير تحريف فى أخذها واعطائها .

والخامس : معاناة المظالم والاحكام ، بالتسوية بين أهلها ، واعتماد النصفة فى فصلها .

والسادس : اقامة الحدود على مستحقها ، من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها .

والسابع : اختيار خلفائه فى الامور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها ، والامانة عليها .. » (٩) .

ثم يرتفع هذا العدد الى عشرة ، عند الماوردى أيضا ، وعند أبى يعلى ، ولكن دون الخروج عن هذه الاصول لهذه

(٩) (أدب الدنيا والدين) ص ١٣٩ .

المهام التى هى حدود تفويض الامة فيمـــــا فوضـــت للامام .. (١٠) .

ونحن نلاحظ أن المهمة السابعة التى « تلزم » السلطان من أمور الامة ، هى اختيار الخلفاء والاعوان ، من الامـراء والحكام والقضاة ، وباقى أجهزة الحكم والتنفيـــذ ، والقضاء ، والامن .. الخ .. الخ .. على أن يكونوا مـــن أهل الكفاية والامانة .. أى أن تصور الفكر السياسى هنا خاص بالحديث عن « دولة » و « جهاز دولة » ، وليس عن « امام فرد » وكفى .. فمبحث الامام والامامة هـــو عنوان لمبحث الدولة وسلطة الحكم فى البلاد .. وكل ذلك مندرج ومعنى عند بحث ما يتعلق بالامامة والامام ... وسنرى أن لبعض هذه الاجهزة نوعا من الاســـــتقلال ، يجعلها أحيانا خارج سلطة الامام ، على نحو ما ، رغم أنه هو الذى يوليها ويقيمها كى تباشر ما لها من مهام ..

كما نلاحظ أيضا أن المهام المالية والاقتصادية للدولة قد شغلت أمرين من الامور السبعة ـ الثالث والرابع ـ حيث تقرر أن للدولة سلطانا فى عمارة البلدان ، أى دورا فى الاقتصاد ، حفظا ، وتجديدا ، وانشاء .. كما أن عليها أن تقدر الحدود بين ماتتصرف فيه من الاموال وما تدع التصرف فيه للفرد وفق حريته الخاصة .. وهـــــــو ما سنتناوله بعد قليل ..

ومادامت الامامة عقد مراضاة واختيار ، عهدت الامة

---

(١٠) (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ١٥ ، ١٦ . و (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ١١ ، ١٢ .

بموجبه الى الأمام أن يتصرف فى هذه الامور السبعة من امورها ، بحيث يعلو فيها سلطانه على سلطان الفـــرد والافراد الذين تتكون منهم هذه الامة ، فان بحث العلاقة بين الانسان الفرد وبين الدولة ، هو أمر هام ، وتحديد الحدود التى لكل منهما هو المدخل لبحث سلطات الامام .. وماذا له ؟ وماذا للامة ؟؟..

ولقد حدد المعتزلة الفواصل بين اختصاص الفـــرد واختصاص الدولة تحديدا دقيقا ، وابرزوا وجهة نظرهم فى هذا الموضوع على نحو يستحق الاعجاب .. فعندهم:

أولا : ان دوافع الامام وغاياته ، سواء فى أمور الدين او الدنيا ، يجب أن تحكم بمبدأ اساسى وهام وهو : تحقيق مايعود بالنفع ، وما يندفع به الضرر .. اى جلب المصالح ، ودرء المفاسد .. هذا هو المبدأ الاساسى والغاية العامة التى تستهدفها الدولة والامام ..

ثانيا : ان سائر مجالات النفع العام ، وميادين النشاط التى يتحقق عنها عائد على الجماعة هى من اختصاصات الدولة والامام .. على سبيل الوجوب ، لا الجواز .. فالدولة مكلفة بالنهوض بمهام تلك المجالات .

ثالثا : ان جلب المنافع ودفع المضار فى الامور التىتخص الفرد ، للفرد أن يسعى فيها وفى تحصيلها ، دون الدولة، على أن يكون اختصاصه بها مشروطا بأن يكون ذلك السعى « بالوجوه المعقولة » .. وهذا الاختصاص هو على سبيل الجواز لا الوجوب ..

رابعا : ان على الدولة ان تتدخل ، بدلا من الفرد ،

للنهوض بالامور التى هى من اختصاصه كفرد ، اذا عجز عن القيام بها ، أو قام بها على نحو غير كامل . .

خامسا : ان للدولة والامام ، فوق كل ذلك ، حق التدخل والتداخل فى « مواضيع مخصوصة » وأوقات مخصوصة فيما للفرد خصوص السعى فيه . .

وهذا التحديد لعلاقة الفرد بالدولة ، ودور كل منهما : وهو التحديد الذى يميل ، كما قلنا ، الى طابع « الدولة الشمولية » ، يقدم له القاضى عبد الجبار صياغة دقيقة التعبير عندما يقول : « ان الامام مدفوع ، فيما يتصل بأمر السياسة ، الى امرين : احدهما : امر الدين ،والآخر امر الدنيا . وفى كل واحد منهما يلزمه النظر من وجهين : أحدهما : ما يعود بالنفع ، والآخر : ماينـدفع به الضرر . وانما نصب لهذه الامور التى ذكرناها ، اذا كانت عائدة على الناس ، لان ما يخص كل واحد من اجتلاب المنفعة ودفع المضرة ، بالوجوه المعقولة ، قد يجوز له السعى فيه ، الا فى مواضع مخصوصة . وانما يراد الامام لما لم يجز للانسان السعى فيه ، ولمن لا يكمل التصرف فى منافعه ومضاره ، ولما يعود النفع والضرر فيه على الكافة دون الاعيان المخصوصة . . » (١١) .

تلك هى الحدود العامة بين ما للفرد ، خاصا به ، وبين ما للدولة والامام . .

اما المهام التى فوضت الامة أمر انجازها للامام ومن يوليه ، أى للدولة وجهازها ، فانها كثيرة ، تتناسب فى الكثرة والاتساع مع « الطابع الشمولى » الذى مال اليه

---

(١١) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٩٧ .

هذا الفكر السياسى .. ومن هذه المهام ما تختص الدولة بتدبيره وانجازه وحدها .. ومنها ماتقوم فيه بدور المدبر مع الاستعانة بالامة على انجازها . لما لهذه المهام من طابع عام لا تستطيع الدولة بجهازها القيام بها وحدها من دون الجمهور ..

فمن النوع الاول مهام مثل :

١ ـ القيام على الاحكام اللازمة فى المنازعات والاختلافات بين الرعية .. اذ الفصل فى هذه القضايا ، والقطع فيها هو من اختصاص الامام والدولة ؛ لان فى هذه الاحكام جبرا للبعض على رد حقوق للبعض الآخر ، وتنظيما للاشهاد . وتعديلا للشهود ؛ وغير ذلك من الامور التى لا يحق لغير الامام ودولته التصدى لها .. (١٢) .

٢ ـ اقامة الحدود وتنفيذ العقوبات .. ولقد منع المعتزلة أن يتولى ذلك أحد غير الامام وجهاز دولته ، لان العقوبة اذا كانت حقا لله فالامام أو من ينيبه هو المتولى لانزالها ، وأن كانت حقا لفرد أو جماعة من الامة فانزالها حق الامام الذى فوضوا اليه هذه المهام .. حتى لقد فرقوا وميزوا بين النهى عن المنكر والمنع منه ، الذى هو واجب عامة المسلمين ، وبين اقامة الحد على مرتكب المنكر ، فأوجبوا الاول على الكل وخصوا الامام وأعوانه بالثانى ، لان « النهى عن المنكر : هو مايجرى مجرى المنع منه ، فأما اقامة الحد فجار مجرى الجزاء على المنكر ، واحد الامرين يخالف الآخر » وضربوا لذلك مثلا بأن على الانسان أن يمتنع عن المنكر بأمور أكثر واشد من تلك التى يمنع

(١٢) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٦١ .

بها غيره من المنكر ، ومع ذلك فلا يجوز للمرء أن يقيم الحد على نفسه ! ..

واختلفوا مع الذين جعلوا لمالك الرقيق اقامة الحد عليه ، وتأولوا الحديث النبوى الذى جاء فيه ان للرجل اذا زنت أمته أن يجلدها .. وقالوا : يجب أن يحمل على معنى : « أنه يتوصل الى جلدها بأن يحملها الى الامام ، كما يقال فى الامام : انه يجلد ، على سبيل ذلك » .

واستأنسوا لموقفهم هذا بالاجماع على أن شهود اثبات الزنا ، مثلا ، لا يحل لهم ان يقيموا الحد ، مع أنهم هم شرط اقامة هذا الحد ..

كما جعلوا للامام وحده قتل المرتد .. وقالوا : ان اهدار دم المرتد ، وسقوط القود عمن يقتله ، اذا قتله ، لا ينفى أن حق قتله خاص بالامام ..

ولم يجعلوا لمولى الدم تنفيذ القصاص ، وانما له المطالبة به ، كما له العفو عنه ، أما استيفاء القود فحق الامام ؛ لا يجوز لغيره أن يفعله ..

وميزوا بين ذلك وبين أن يقتل الانسان من أراد نفسه أو ماله ؛ لانه عندئذ يكون دافعا للضرر عن نفسه وماله ، وحتى فى مثل تلك الحالات فانه لا يحل له قتل المعتدى اذا استطاع منعه بما هو دون القتل ..

ورأى المعتزلة أن اختصاص الامام وأعوانه باقامة الحدود وتنفيذ العقوبات هو الذى يجعل الامام حاكما لا مجرد حكم بين الناس ، والقول بغير ذلك يفتح الباب للفوضى عندما تتحول هذه المهام من اختصاص الامام

الى امور عامة يمارسها الناس كما يمارسون حقوقهم المشتركه .. (١٣)

٣ ـ تكوين جهاز الدولة .. فذلك الامر خاص بالامام، وأى وال او امير او حاكم لا يكتسب « الشرعيه » فى ولايته . فيحق له التصرف : الا اذا كانت اقامته من قبل الامام .. ولذلك فان الولاة والامراء الذين يوليهم السلطان المتغلب المغتصب للسلطة لا شرعية لولاياتهم ولا لتصرفاتهم واحكامهم ، حتى لو توفرت فيهم شروط الولاة وجرت تصرفاتهم على مقتضى السنة والقانون .. « لان ذلك ليس الا للامام ، وما يفعله غيره لا يؤثر » ؛ واذا مضت فى الناس تصرفات ولاة السلطان المتغلب كانت هذه التصرفات مثل مشورة الحكم يتوقف امضاؤها وتنفيذها على رضى طرفى النزاع ، ومن هنا فارقت حكم الحاكم الشرعى المتولى من قبل الامام ..

وهؤلاء الولاة والحكام الذين يوليهم الامام ، لهم نفس شرعيته وسلطاته ، فمن كان منهم صاحب ولاية مطلقة كانت له سلطة الامام المطلقة فى ولايته ؛ ومن كان صاحب ولاية خاصة فله فيها سلطات الامام كذلك ، ولهم على الرعية الطاعة فى الاحكام .. (١٤) .

أما هذه الولايات التى يختص بها الامام فهى أربعة اقسام :

القسم الاول : أولئك الولاة الذين تكون ولاياتهم عامة فى الاعمال العامة ، كالوزرء ..

---

(١٣) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٥٢ ـ ١٥٧ .

(١٤) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ و (ادب القاضى) جـ ١ ص : ١٣٩ ..

والقسم الثانى : الولاة الذين تكون ولاياتهم عامة فى اعمال خاصة ، كحكام الاقاليم ..

والقسم الثالث : الولاة الذين تكون ولاياتهم خاصة فى الاعمال العامه ، كقاضى القضاه ، والقائد العام للجيش ..

والقسم الرابع : الولاة الذين تكون ولاياتهم خاصة فى الاعمال الخاصه ، وهم الذين يتولون الوظائف المحلية ، كقاضى الاقليم ، وجامع الضرائب فيه (١٥) .

٤ ـ تولية القضاة ، ورعاية أعمالهم .. فليس لغير الامام ، أو من ينيبه ، تولية القضاة . ومثلهم مثل الولاة والحكام لا تحصل الشرعية لولايتهم وتصرفاتهم الا باستنادها الى الاختيار الحر من الامام .. وتقليد القضاء فى الدولة واجب وفرض متعين على الامام ، لانه لا يصح الا من قبله ، ولانه داخل فى عموم ولايته وسلطاته .. (١٦) .

ومع أن القضاة يتولون مناصبهم من قبل الامام ، وتتوقف شرعية احكامهم وقوتها على هذه التولية منه ، فان لهم من الاستقلال والسلطان مايضمن لمنصبهم واحكامهم أداء مانيط بهم من مهام العدل بين الناس ... فالقاضى بعد توليه القضاء ، يصبح نائبا عن الامة مستنابا فى حقوقها ، لا نائبا ووكيلا عن الامام ، ومن ثم فانه لا ينعزل بعزل الامام ولا بموته ، بل ان لجهاز القضاء ثباتا مستمدا من استمرار الامة وسلطتها .. « فالخليفة

---

(١٥) (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ٢١ . و (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ١٢ .

(١٦) (أدب القاضى) جـ ١ ص ١٣٧ .

يستنيب القضاة فى حقوق المسلمين ؛ فلم ينعزلوا بموته وتغير حاله ... ولذلك لا يجوز للخليفة أن يعزل القاضى بغير موجب » .. كما يقول الماوردى .. وليس له عزله الا بموجب يقتضى ذلك . كأن يظهر ضعفه فى عمله ، أو لوجود من هو أكفأ منه وأقدر على اشاعة العـــدل فى الاحكام ، ولا يكون عزله الا باجتهاد .. فاذا خالف الامام ذلك ، وعزل القاضى بلا اجتهاد وبلا موجب ، كان مخالفا للاولى ، وهذا العزل يمضى ـ لانه حكم من أحـــكام الامام ـ اذا لم يخالف نصا أو اجماعا ، والا رد العـــزل وأوقف تنفيذه ، رغم أنه حكم السلطة العليا فى البلاد (١٧)!

ويؤكد استقلالية القضاء انه ـ رغم تولى رجـــاله امرهم من قبل الامام ـ هو جهة الفصل فى القضايا التى يكون الامام طرفا فيها ، لانه جهاز له من الاستقلال مايجعله مستنابا فى حقوق المسلمين لا فى حقوق الامام .. «فاذا أراد الامام محاكمة خصم جاز أن يحاكمه الى قضاته ؛ لانهم ولاة فى حقوق المسلمين ، وان صـــدرت عنـــه ولاياتهم .. » .. أما اذا اراد أن يجعل النظر فى هـــذه الخصومة الى من يتولاه من خارج الجهاز القضائى ـ كما يشهد عصرنا فى المحاكم الاستثنائية والعسكرية أحيانا ـ فاذا صدر أمر الامام بتقليد القضاء لذلك المتولى قبـــل رفع هذا النزاع الذى هو طرف فيه ؛ مضـــت جهـــة التقاضى هذه فى نظر القضية والفصل فيها دون أن يكون لخصم الامام حق الاعتراض عليها ، أما اذا حدث الترافع فى النزاع ، ثم أنشأ الامام جهة التقاضى هذه بعد ذلك ؛

(١٧) المصدر السابق . جـ ٢ ص ١٤٢ ، ٣٩٩ .

فلا يحق لها الفصل فى الخصومة الا برضا الخصم ، اذ يكون له عندئذ حق الاعتراض عليها .. وكما يقول الماوردى : فانه « ان حاكم الامام خصمه الى واحد من رعيته جاز ، ثم نظر : فان قلده خصوص هذا النظر صار قاضيا خاصا قبل الترافع اليه ، فلم يعتبر فيه رضا الخصم ، وان لم يقلده النظر قبل الترافع اعتبر فيه رضا الخصم .. » (١٨) ، فالمحاكم الخاصة التى يشهدها عصرنا ، والتى تتألف بقرارات تصدر بعد وقوع الحدث موضع التجريم ، لخصوم الدولة والامام – حسب راى المعتزلة – ردها والاعتراض عليها !؟..

٥ – مدخل الامام فى الشؤون المالية والحياة الاقتصادية .. ويمثل هذا الجانب من جوانب سلطات الامام ومهامه احد القضايا التى تدل على نظرة المعتزلة التى اختارت « الطابع الشمولى » للدولة ، كما يقدم نموذجا للتوازن الذى حاولوا اقامته بين حقوق الفرد وحرياته وحقوق المجتمع وحرية الدولة والامام .. فهى مبحث هام فى موضوعنا هذا ، من زاوية فلسفته الاجتماعية ودلالاتها ، ومن زاوية تحديد طابع الدولة التى نحا نحوها فكر المعتزلة ..

لقد قرر المعتزلة حق الامام فى التدخل فى الاموال الخاصة بالافراد ، سواء بالاضافة لهم والتمليك اياهم ، او بالاخذ منهم والازالة عنهم .. وقالوا : « ان للامام مدخلا فى مال اهل التمييز والعقل .. لانه قد نصب

(١٨) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

لتدبير خاص وعام فى النفوس والاموال وما يتبعهما ..» هذا من حيث المبدأ العام والقاعدة الكلية .

وهم يميزون بين نوعين من الاموال :

١ ـ الاموال الظاهرة ، ٢ ـ والاموال الباطنة ...

وبين نوعين من التصرف :

١ ـ التدبير . ٢ ـ والملكية ..

فالاموال الظاهرة : هى التى تأتى الى بيت المال وخزانة الدولة ، ثم تخرج منها الى مصارفها المحددة .. وفى هذه الاموال للامام مدخل ، فله ان يملك أصحاب الحقوق فى هذه الاموال حقوقهم فيها ، بأن يصرف لهم أنصبتهم وسهامهم .. كما أن له ان يأخذ من هذه الحقوق والسهام ما للغير .. فالارض العشرية أو الخراجية ، مثلا هى نموذج لهذه الاموال الظاهرة ، والامام يأخذ منهما العشور أو الخراج ، وهذا هو الاخذ والازالة .. كما أنه يضيف الى القائمين عليها ويدع لهم ما سوى الحقوق المقررة فيها ، وهذا هو التمليك والاضافة ..

وليس هناك خلاف على أن للامام هذه الحقوق فى هذه الاموال الظاهرة ..

أما الاموال الباطنة : فهى القائمة فى حوزة الافراد .. وفيما يتعلق بتدبير هذه الاموال والتصرف فيهما و « تشغيلها » فيما نسميه « بالدورة الاقتصادية » والتكسب بها فى أنواع المكاسب المختلفة ، لا خلاف على أن ذلك كله حق مصون لاصحابها وحائزيها اذا كانوا : عاقلين ، مميزين ، قادرين على ادارة التصرف الرشيد

(١٩) (المغنى ـ جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٧ .

فى هذه الاموال .. اذ « العاقل المميز هو أملك بتدبير نفسه وماله ، فى اجتلاب المنافع اليها ودفع المضار عنها ، فلا مدخل للامام فى هذا الباب » .

أما اذا فقد الحائز للمال هذه الصفات « كالصبى ، والمجنون ، ومن لا تمييز له أصلا » أو امتنع عليه القيام بهذا النشاط الاقتصادى لمانع يمنعه من ذلك ويحول بينه وبينه ... فان للامام مدخلا فى حفظ ذلك المال وتشغيله ..

هذا عن « تدبير » الاموال الباطنة .. وهو أمر متفق عليه ، ولا خلاف فيه ..

بقيت قضية « الملكية » فى هذه الاموال الباطنة ، لمن هى ؟ اللامام والدولة ؟ أم للافراد الحائزين ؟؟ .. اذ اختلفوا فى هذا الموضوع .. فمنهم من أجراها مجرى الاموال الظاهرة ، فجعل حق الملكية فيها للامام والدولة ، ومنهم من جعل ملكيتها للحائزين لها .. وبعبارة القاضى عبد الجبار فانهم « اختلفوا فى الاموال الباطنة ، فمنهم من يقول : تجرى مجرى الاموال الظاهرة — « فتكون ملكيتها للامام » — وفيهم من يقول : قد جعل المالك مرتهنا به » ، أى بمدبرها وحائزها ..

والذين قالوا انها ملك للحائزين لها اختلفوا فى أصل ملكيتهم لها ومستند هذه الملكية ، وفى نوعها ، ومداها كذلك .. فقال فريق منهم قولا يجعل من هذه الملكية ملكية « منفعة » لا ملكية « رقبة » ، لانهم جعلوا الحق فى هذه الاموال للامام ، وجعلوا الحائز وكيلا فى هذه الاموال عن الامام .

وبعض من هذا الفريق قال ان مستند هذه الوكالة عن الامام هو عقد أمام سابق ، هو عثمان بن عفان الذى أقطع الصوافى والاموال العامة وأباح للعرب تملك الارض المفتوحة بعد أن منع ذلك عمر بن الخطاب .. فتصرف عثمان هو العقد الذى يمثل مستند هذه الوكالة فى الاموال الباطنة .. ومنع هذا البعض فسخ هذا العقد ، أى منع تغيير الوكيل ونزع صفة الحيازة عنه وحرمانه من التصرف الحر فى حيازته .. لانه « صار وكيل الامام بعقد امام متقدم لا يجوز فسخه » .

والبعض الآخر ، من هذا الفريق ، وافق على : أن الحق فى هذه الاموال هو للامام ، وعلى أن للحائز صفة الوكيل عن الامام فيها .. ولكنه خالف فى تأبيد هذه الوكالة ، وقال : ان « للامام أن يعزل رب المال ، ويصير عند ذلك هو أحق ، لان عثمان هو الذى جوز ذلك فى أرباب الاموال ، فليس فعله بقضية واجبة على كل الحكام ! .. »

هذا عن الفريق الذى جعل ملكية « الرقبة » فى هذه الاموال للامام .. اما الفريق الثانى فهو الذى قال بأن حيازة هذه الاموال الباطنة انما هو على سبيل أن ملكية رقبتها للحائزين لا للامام ، فهم يقومون فيها « على طريق الوكالة ، لانهم أولى بذلك » من الامام ..

هذا هو رأى المعتزلة فى مدخل الامام والدولة وتدخلهم فى الاموال : ففى الاموال الظاهرة : الملكية والتصرف للامام .. وفى الاموال الباطنة : له مزية ومدخل ، يتراوحان بين الملكية ، عند البعض ، وبين الرعاية لضمان

« التشغيل » بواسطة أصحابها اذا استطاعوا والا فبواسطة الدولة ، عند البعض الآخر .. (٢٠) .

فاذا اضفنا الى ذلك ماقاله المعتزلة عن تفويض الامة لامامها ، بموجب عقد الامامة ، النهوض بعمارة البلدان، صيانة وتجديدا وانشاء ، وذلك باعتماد مصالحهـا ، وتهذيب سبلها ومسالكها .. (٢١) ، علمنا مقدار ما للامام من حقوق في الاموال والاقتصاد ..

تلك نماذج من المهام التي يختص الامام بمباشرتها ، بنفسه وبجهاز دولته ..

وهناك مهام يختص الامام بتدبيرها ، لكن ليس وحده ، ولا بجهاز الدولة فقط ، وانما بواسطة الامة ككل ، وهى تلك التى يكون تدبير الامام فيهـا داخلا فى نطاق المسائل التى تعم الامة ، فلا يتيسر انجازها بجهاز الدولة وحده ، وذلك مثل : الجهاد ضد أعداء الدين المعاندين له ، والغزاة الطامعين فى نفس الوطن أو ماله ، وحفظ البـلاد « والمحاماة عليها والدفع عنها وعن أهلها .. (٢٢) » .. ففى هذه المهام يجتمع تدبير الامام والدولة الى الجهـد العام للامة لتحقيق الغايات المرجوة فى تلك الميادين ...

***

وقضية أخرى عرض لها المعتزلة فى مبحثهم الخـاص بمهام الامام وسلطاته واختصاصاته ، وهى التى نسميها

(٢٠) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ . ص ١٥٧ ـ ١٥٩ .
(٢١) (أدب الدنيا والدين) ص ١٣٩ .
(٢٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٦٣ .

فى فكرنا الدستورى المعاصر بقضية « الفصل بين سلطات الدولة الثلاث » : التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية .

ولقد اشرنا من قبل الى ذلك الحق فى الاستقلال الذى تقرر للقضاء ، ونشير هنا الى أنهم قد قرروا لسلطة التشريع أيضا استقلالا يميزها عن سلطة الامام ، التى هى فى الاساس سلطة تنفيذ .. ولقد مرت بنا نصوص كثيرة تحدث فيها المعتزلة عن أن الامام تنصبه الامة لتنفيذ الاحكام واقامة الحدود .. وليست مهمة التشريع من بين المهام التى تفوضها له الامة بموجب عقد الامامة ، ولم يذكرها المعتزلة فى الامور السبعة التى اعطت الامة امامها الحق فى تدبيرها ..

صحيح ان شرط الامام ان يكون مجتهدا ، ولكنه واحد من المجتهدين ، وليس الوحيد فى الاجتهاد ، « والتشريع يصدر عن الكتاب والسنة ، او اجماع الامة ، او الاجتهاد، وهو بهذا مستقل عن الامام ، بل هو فوقه ، والامام ملزم ومقيد به . وما الامامة فى الحقيقة الا رئاسة السلطة التنفيذية .. » (٢٣) .. وكما يقول المستشرق جيوم : فان الامام « لا يملك أية مقدرة على تحوير القانون ، بل هو مضطر الى تطبيقه بحذافيره .. » (٢٤) .

والقاضى عبد الجبار يحدد الطبيعة التنفيذية لمنصب الامام فيقول : « اعلم أن الامام انما يحتاج اليه لتنفيذ هذه الاحكام الشرعية ، نحو اقامة الحد ، وحفظ البلد ، وسد الثغور ، وتجييش الجيوش ، والغزو ، وتعديل

(٢٣) (النظريات السياسية الاسلامية) ص ٣٣٥ .
(٢٤) (القانون والمجتمع) ص ٤٣٦ .

الشهود ، وما يجرى هذا المجرى .. » (٢٥) ، وهو فكر كان موضع التطبيق فى الفترات العادلة من تاريخ الحكم فى الدولة العربية الاسلامية ، عندما التزم بعض الخلفاء حدود المهام المفوضة اليهم ، على نحو ما فعل ، مثلا ، عمر بن عبد العزيز ، الذى يقول فيما يرويه عنه انس بن مالك : « لست بقاض ، ولكنى منفذ ، ولست بخير من أحد ، ولكنى أثقلكم حملا ! .. » (٢٦) .

تلك هى اختصاصات الامام ، كما رآها المعتزلة ، وهذه هى حدود التفويض الممنوح له من الامة بموجب « العقد الاجتماعى » ، عقد الامامة .. فللفرد نطاق وحرية وتدبير .. وللامام نطاق وحرية وتدبير ، وهناك محاولة لايجاد توازن بين الطرفين .. ولكن كفة الميزان فى هذه المحاولة ، ومن خلال فلسفة المعتزلة فى الحكم ، تميل لصالح الامام والمجتمع و « الدولة الشمولية » ، كما اتضح من النماذج التى اشرنا اليها ، وخاصة نموذج الاموال والاقتصاد .

***

وبديهى أن سلطات الامام هذه مرهون ممارسته لها بانتفاء عجزه عن هذه الممارسة ، ولذلك فليس فى فكر المعتزلة أو غيرهم تحديد لمدة معينة تنتهى بانتهائها ولاية الامام ، فعقد التراضى غير مشروط بمدة زمنية ، وانما هو مشروط ، ضمنا ، بصلاح الامام وقدرته على انجاز

---

(٢٥) (شرح الاصول الخمسة) ص ٧٥٠ .
(٢٦) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧١ .

ماهو مفوض اليه من أعمال .. ولذلك فان المرض ، مثلا ، يقدح في امامته اذا أثر في الصفات التي يجب توافرها فيه . أما اذا لم يؤثر في تمكنه من مهامه وقدرته عليها فلا يحول بينه وبين الاستمرار في الامامة .. فلا يخرج الامام الصالح القادر عن منصبه الا الموت أو الامر الذي يحل محل الموت بالنسبة له كامام . لا كفرد يحيا الحياة بمعناها اللغوى .. ومثل الموت في ذلك مايعرض له من : «الجنون ، وبطلان الاعضاء والحواس ، والخرف ، والكبر .. الى غير ذلك . لان في مثل هذه الاحوال يتعذر عليه القيام بما يختص الامام ، فتصير حياته كموته في وجوب الاستبدال به . وذلك واجب من جهة العقل ، لا يحتاج فيه الى سمع . لان المقصد باقامته اذا كان مما يبطل ويزول بهذه الامور ، فلابد من أن يخرج من كونه اماما .. » (٢٧) .

أما اذا عجز الامام عن النهوض بمهام الامامة لاسباب خارجة عن ذاته ، مثل أن يغلب عليه البغاة والخوارج أو يقهره الاعداء ، فان صفة الامامة وحقوق الامام لا تزول عنه بذلك القهر ، ولا يصح أن يتخذ الناس لهم اماما جديدا .. « لان ذلك يجرى مجرى العارض المانع من التصرف » .. ، لانهم لو أقاموا اماما جديدا مع بقاء القهر والتغلب كان حاله حال الامام المغلوب ، وان أقاموه بعد زوال القهر والتغلب كان الاول هو الامام ، لبقائه على صفاته وحقوقه في الامامة ، اذ لا يصح تنصيب امامين في وقت واحد .. أما تصريف الامور وتسيير مصالح

---

(٢٧) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢٠ ص ١٦٩ .

الناس وأحكامهم فى فترة القهر والتغلب ، حال كـــون الامام مقهورا ، او محبوسا ، أو أسيرا ، مثلا ، فانه يتم عن طريق تعيين من ينوب عنه فى القيام بذلك ، كنائب عن الامام ، وليس كامام جديد.. وذلك مشروط بأن يكون القهر والتغلب خاصا بذات الامام وشخصه ، أما اذا كان عاما للأمة فان تعيين من ينوب عنه فى تسيير أمور الامامة لن يكون مجديا ، اذ لن يسمح به المتغلبون والاعداء .. والجهة التى تقوم بتعيين النائب هو الامام المقهور ، اذا استطاع ، فان عجز ، سواء بالقول أو الكتابة ، كان لاهل الاختيار أن يختاروا من بينهم من ينوب عن الامـــام فى تسيير أمور الحكم حتى يزول العارض الذى يمنع مـــن تصرف الامام ..

وعلى حالة القهر هذه قاس بعض المعتزلة وضع البـــلاد اذا أتى عليها حين من الدهر تعذر فيه نصب الامـــام ، لاستمرار الفتن والخروج وتمكن الخارجين ، أو للافتقار الى من تتوفر فيه صفات الامامة ، فقالوا : ان « للمسلمين ان يقيموا ، والحال هذه ، حاكما أو أميرا ممن يصـلح لذلك ، لان هذا الحال حال عذر وضرورة ... » (٢٨) .. هذا عن حال الامام وتصرفه عنـــد حدوث القهـــر له والتغلب عليه ..

أما حكم المتغلب وتصرفه ، فان المعتزلة ترفضـــه وترفض اعطاءه أية شرعية مهما تكن الظروف فليس هناك مجال لتجويز تصرفاته ، بل الواجب هو منعه من بغيه وتسلطه وابطال ماهو عليه ، وبطلان تصرفاته نابع مـــن

(٢٨) المصدر الســـابق . جـ ٢٠ ق ١٦٥ — ١٦٧ . و (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ١٩ ، ٢٠ .

استناده فيها الى أمر باطـــل وهو البغى والقهـــر والاستيلاء ..

لكن القضية التى فصل فيها المعتزلة ، بل واختلف البعض منهم مع جمهورهم فيها ، هى الكلام فى حـــكم التصرفات التى قام بها المتغلب ، والتى أنجزها بالفعل ، رغم عدم جواز ذلك له ومنه ، هل تجزى هذه التصرفات وتبرىء ذمة الناس اذا كانت زكاة جمعها منهم مثلا ، أو قودا وقصاصا انزله بمستحقه ، أو احكاما فصل فيها ؟ وهل يجوز للناس الذين وقعوا تحت تغلبه أن يستعينوا به فى الترافع عنده والاحتكام اليه ؟ .. أى ان القضـــية هى : ماحكم التصرفات الواقعية والفعلية التى تنجـــزها سلطة المستبد ودولته ؟ وماموقف الناس من جهاز دولة الاستبداد والتغلب ؟

ان بعض متأخرى المعتزلة الذين عاشوا فى زمن أصبح التغلب فيه هو الطابع الغالب على المجتمعات الاسلامية ـ مثل الماوردى « ٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ ـ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨ م » ـ قد مالوا الى القول بامضاء تصرفات المتغلب ، اذا جـــرت وفق أحكام الدين ومقتضى العدل ، حتى لا تتوقف مصالح الناس وتفسد حياتهم ، فأدخلوا حالة الضرورة القائمة ، وشبه العامة ، فى الاعتبار ، ولكنهم ظلوا على التزامهم بأن هذه السلطة ليست هى الامامة وان صاحبها «متغلب» وليس بامام .. وفى ذلك يقول الماوردى : انه ينظر فى أفعال المستبد المتغلب الذى « يستبد بتنفيذ الامور » ، من غير تظاهر بمعصية ولا مجاهرة بمشاقة .. فان كانت جارية على أحكام الدين ومقتضى العدل جاز اقـــراره

عليها ، تنفيذا لها واقرارا لاحكامها ، لئلا يقف من الامور الدينية ما يعود بفساد على الامة . وان كانت افعاله خارجة عن حكم الدين ومقتضى العدل لم يجز اقراره عليها » .

أى أن الماوردى يجيز امضاء أحكام المستبد المتغلب وتصرفاته بشرطين :

١ — أن يكون تغلبه واستبداده بحيث لا يلغى كلية سلطة الامام ومنصب الامامة ، بل يترك الامامة والامام — ولو من الناحية الشكلية — كما كان الحال على عهده مع خلافة بغداد بالنسبة للدول التى تغلبت على النواحى — وخاصة البويهيين — فلا يجاهر الامام بالمشاقه والمعاندة . .

٢ — أن تجرى الاحكام والتصرفات على قاعدة الدين ومقتضى العدل والانصاف .

أما اذا تخلف هذان الشرطان ، أو أحدهما ، فلا شرعية لاحكامه وتصرفاته ، وعلى الامام أن يسعى لازالة سلطة المتغلب ، « وأن يستنصر من يقبض يده ويزيل تغلبه . . » (٢٩) .

ورأى الماوردى هذا ليس برأى جمهور المعتزلة ، لانه قد عاش فى عصر غلبت عليه سلطة المستبدين ، حتى لقد عجز هو عن أن يعلن مذهبه فى الاعتزال . . أما جمهور المعتزلة فانهم يختلفون مع هذا الرأى ، فهم يمنعون اجازة أحكام المتغلب وتصرفاته فى كل مالا يجوز التصرف فيه الا للامام . . فليس له ، ولا لمن يستنيبهم ، أن يحاكم الناس ويقضى بينهم ، وليس له أن يحبس الناس

(٢٩) (الاحكام السلطانية) ص ١٩ ، ٢٠ .

حبس عقوبة . ولا أن يقيم الحدود . ولا أن يتدخل فى الاموال تدخل الامام .. فاذا حدث وقام بشىء من ذلك فان كان مما يمكن تداركه واعادة انجازه كان ماقام به فيه باطلا غير مجزىء ؛ اما اذا لم يمكن تداركه فانه يمضى ويكون مجزئا .. فاذا أخذ من اموال الناس بعضها وصرفها فى المصارف التى حددها ؛ كان ذلك بمثابة الاغتصاب ؛ واذا اخذ منهم زكاة اموالهم لم تجز هذه الزكاة الا اذا ضمن دافعها ، بالتتبع والمراقبة ، وصولها الى مستحقيها ؛ وامضاؤها والحكم باجزائها فى تلك الحال نابع من كون حالها كحال ما اذا كان صاحبها هو الذى اخرجها وصرفها فى مصرفها ؛ دون المستبد المتغلب ..

أما اذا اقام حدا لا يمكن تداركه : كأن قطع عضوا مثلا ، أو أعدم للقصاص ، فان الحد والقصاص يسقط باقامة المستبد له .. أما اذا كان الحد مما يمكن تداركه واستئنافه : كالجلد مثلا ، فانهم اختلفوا فيه ، فمنهم من يقول : سقط الحد ، لان الاستيفاء من الظهر قد حصل ، ومن حق الحدود أن تدرأ بالشبهات ، ومنهم من جعل ذلك بمنزلة الضرب الذى يصيب عامة الناس من سلطة الاستبداد ، فوجوده — فى مقام الحد والقصاص — كعدمه ، لا يجزىء ولا يسقط الحد عن من وجب عليه ..

وفى الاحكام والترافع والمقاضاة ، منع جمهور المعتزلة من أن يستعين الناس بالبغاة ، ولم يجيزوا امضاء الاحكام والترافع اليهم الا اذا كانت الحالات لا تحتاج الى الاجتهاد كأن يكون الحق معلوما ، ولا شبهة فى عدالة البينة ،

او كان هناك اقرار بموضوع النزاع .. فالاستعانة بهم جائزة في الحالات التي يستطيع فيها الانسان أن يتناول حقه بنفسه ، لانتفاء الحاجة الى الاجتهاد ، وفي الحالات التي هي موضع اتفاق .. وذلك على شرط أن لا يكون في هذه الحالات ما يجري مجرى الحدود والعقوبة ، لان ما كان كذلك فغير جائز الاستعانة فيه بالمتغلب بأى حال من الاحوال (٣٠) .. بل لقد منع اكثر المعتزلة من الصلاة خلف الامام الجائر ، جمعة كانت الصلاة أو غير جمعة ، وأوجبوا على من صلى خلفه اعادة الصلاة (٣١) !! .. ذ الموقف منه هو وجوب خلعه وازالته والثورة عليه ..

ولقد قالت الزيدية والخوارج بقول المعتزلة هذا ، فدعوا الى الخروج على المتغلبين وازالة سلطتهم ..

أما أهل السنة ، سواء أكانوا من أصحاب الحديث ، او الاشعرية ، أو الماتريدية ـ ومعهم في هذا الموقف الشيعة الامامية ـ فانهم وان استنكروا الاستبداد والتغلب من حيث المبدأ ، الا أنهم رجحوا كفة الاعتبارات العملية الداعية الى امضاء الاحكام واقامة الحدود ، وتصريف الشؤون حتى تستمر حياة الناس وتستقيم على نحو ما من الاستقامة ، رجحوا كفة هذه الاعتبارات العملية ، وطوعهم الواقع الذي سادت فيه ظاهرة التغلب ، فأقروا المستبدين على السلطة ، وقالوا بشرعية تصرفاتهم ، واستنكروا الخروج عليهم بالثورة والسيف والقتال ... قالوا بذلك ، وأن تفاوتت مواقف فرقهم واعلامهم بين

---

(٣٠) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣١) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٣٩ .

التشدد والاعتدال والاستسلام لسلطان المستبدين ..

فأبو يعلى ، من أصحاب الحديث ، يقف نفس موقف الماوردى : فيجيز اقرار المستبد وامضاء احكامه ، واعطاءها الشرعية بشروط سبعة :

احدها : ان يحفظ منصب الامامة ، فلا يغيرها ولا يلغيها .

والثانى : أن يظهر الطاعة للامام ، دون العناد والمباينة .

والثالث : ان يؤدى موقفه الى جمع كلمة المسلمين ، لا تفرق كلمتهم .

والرابع : أن تظل عقود الولايات التى عقدها الامام جائزة ، واحكام قضاته نافذة فى هذه الولايات .

والخامس : ان يبرا المستبد من اغتصاب المال ، أو اخذه بغير حقه ..

والسادس : أن يتم فى بلاده استيفاء الحدود بحق ..

والسابع : أن يكون المستبد حافظا للدين ، يأمر بحقوق الله ، ويدعو الى طاعته من عصى !!

فاذا اكتملت للمستبد هذه الشروط اوجب ابو يعلى على الامام أن يقلده الولاية ، فان لم تكتمل الشروط جاز للامام اظهار تقليده الولاية ، مداراة له واستدعاء لطاعته، وحسما لمخالفته ومعاندته .. واجتهد الامام فى أن يستنبب من ينهض بالاحكام والحدود (٣٢) .

---

(٣٢) (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ٢١ ، ٢٢ .

ونفس موقف الماوردى يقفه ابن خلدون كذلك ، بل يستخدم معظم الفاظه ونفس صياغته .. (٣٣) ، مما يزكى القول القائل بأستاذية الماوردى لابن خلدون .. (٣٤)

اما ابن حنبل فانه يدعو المسلمين الى مبايعة المستبد المتغلب بامرة المؤمنين ، برا كان أو فاجرا ، فالعدالة ليست شرطا فى الامامة عنده ، والخروج على ائمة الجور منكر و « لا يحل - « عنده » - لاحد يؤمن بالله أن يبيت ولا يرى من غلبهم بالسيف اماما ، عادلا كان أو فاجرا ، فهو أمير المؤمنين ! » .. (٣٥) . واذا قام أكثر من مستبد ، وتنازعوا ، وانقسم الناس ، فابن حنبل يدعو أن تكون صلاة الجمعة - ومن ثم التأييد - « مع من غلب » ! (٣٦) .

والغزالى ، من الاشعرية ، يرى خلع المستبد الذى لم يستكمل شروط الامامة اذا أمكن تمام ذلك دون قتال - ولست أدرى كيف يتصور امكان ذلك ، مع استبداده بالقوة والسيف ؟! والا فالرأى عنده هو : وجوب طاعته ، والحكم بامامته .. فيقول : « والذى نراه ونقطع : انه يجب خلعه أن قدر على أن يستبدل عنه من هو موصوف بجميع الشروط من غير اثارة فتنة وتهييج قتال وان لم يكن ذلك الا بتحريك قتال وجبت طاعته وحكم بامامته » ثم يجادل الذين يقولون بعدم شرعية نظام المستبد وبطلان تصرفاته فيقول : أى القولين أحسن ،

(٣٣) (المقدمة) ص ١٥٣ .
(٣٤) أنظر مقدمة محقق كتاب (أدب الدنيا والدين) .
(٣٥) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢١٢ .
(٣٦) (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ٦ .

قول من يقول : ان « القضاة معزولون ، والولايات باطلة، والانكحة غير منعقدة ، وجميع تصرفات الولاة فى أقطار العالم غير نافذة ، وانما الخلق كلهم مقدمون على الحرام؟؟ أو أن يقول : الامامة منعقدة ، والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار ؟؟ .. » (٣٧) .. وهو يقف مع وجوب طاعته والحكم بامامته ، وكما يقول : « فان السلطان الظالم الجاهل متى ساعدته الشوكة ، وعسر خلعه ، وكان فى الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق، وجب تركه ، ووجبت الطاعة له ، كما تجب طاعة الامراء ، اذ ورد فى الامر بطاعة الامراء ، والمنع من سل اليد عن مساعدتهم ، أوامر وزواجر ! » .

وهو يكتفى من المستبد باقليم من الاقاليم بأن يخطب للخليفة على المنبر ويضع اسمه على السكة ، ويفضل طاعته عن الثورة عليه اذ « كيف نفوت راس المال فى طلب الربح ! » (٣٨) ، كما يقول .

ونفس الموقف يقفه ابن جماعة « ٦٣٩ — ٧٧٣ هـ — ١٢٤١ — ١٣٣٣ م » عندما يصور الامر كما لو كان غاية تجب الطاعة فيها للاقوى من المستبدين حتى لو كان جاهلا فاسقا ، فاذا أطاح به جاهل فاسق آخر كان هو الامام المطاع .. يقول : انه « ان خلا الوقت عن امام ، فتصدى لها من هو ليس من أهلها ، وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو استخلاف ، انعقدت بيعته ولزمت طاعته ، لينتظم شمل المسلمين وتجتمع كلمتهم ، ولا يقدح فى ذلك كونه جاهلا او فاسقا ، فى الاصح . واذا

(٣٧) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٣٨) (احياء علوم الدين) ص ٨٩٣ ، ٨٩٤

انعقدت الامامة بالشوكة والغلبة لواحد ، ثم قام آخر فقهر الاول بشوكته وجنوده أنعزل الاول وصار الثانى اماما ! .. » (٣٩) .. وهو بذلك يطوع الفكر للاوضاع التى سادت فى عصر المماليك الذى عاش فيه .. وهذا الفكر هو الذى جعل بعض الفقهاء يقولون : « من يحكم يطع ! » .. (٤٠) .

والتفتازانى يرى أن التغلب والاستبداد الذى ساد فى عصر الاتراك ، وان أخل بأمر الدين ، ومنع قيام الامامة الكاملة ، الا أنه قد حقق بعض النظام فى أمورالدنيا. (٤١) كما مر بنا رأى الاشعرى الذى طالب باقرار المستبدين على سلطانهم ، وان كان قد طلب تسميتهم بالملوك بدلا من الخلفاء ! .

ولقد اتفقت الشيعة الامامية مع أهل السنة فى موقفهم هذا ، فقالوا : « ان تصرف الغاصب لامر الامة اذا كان عن قهر وغلبة ، وسوغت الحال للامة الامساك عن النكير ، خوفا وتقية ، يجرى فى الشرع مجرى تصرف المحق فى باب جواز أخذ الاموال التى بقيت على يده ، ونكاح السبى ، وما شاكل ذلك ، وان كان هو بذلك الفعل موزورا ومعاقبا .. » (٤٢) .. فهم يبررون للخضوع بالتقية ، ويمنعون الثورة والخروج الا خلف الامام الغائب المنتظر عندما يظهر ، وذلك ما جعلهم يتفقون مع أهل السنة ، رغم الاختلافات القائمة بين الفريقين ..

(٣٩) (دراسات فى حضارة الاسلام) ص ١٨٨ (والنص منقول من (تحرير الاحكام) ، بلا تصرف) .

(٤٠) (القانون والمجتمع) ص ٤٣٠ .

(٤١) (شرح العقائد النفسية) ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(٤٢) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ٢ ص ١٥٨ .

ولقد تكون لهذه المبررات العملية التى ساقها أهـــل السنة حظوظ من الوجاهة في بعض المواقف والملابسات. ولكن الامر السلبى الذى ادى اليه هذا الموقف هو أنه : اعطى الشرعية لنظام الاستبداد بالسلطة ولحكم المستبدين حتى صار هو القاعدة ، وصار الخضوع له والطاعة لاهله هو الشريعة والقانون ، وأصبح الحديث عن الامامـة بشروطها وصفات القائم بها لا يتجاوز نطاق المبـــاحث الكلامية والفقهية في أرض الواقع والتطبيق ، كمـــا اصبحت الثورة والخروج على أئمة الجور والاســتبداد منكرا يوصف اصحابه بالخروج والمروق .. اى أن هذا الفكر المبرر لسلطة الاستبداد واستبداد المتسلطين قـد جعل حكم الطغاة هو القاعدة ، ونظام الخلافة الاســلامية الشورية هو الشذوذ والاستثناء ! ..

***

عندما اشتدت حملة الثائرين على عثمان بن عفــان ، واتهموه بالضعف الذى بلغ حد ترك خاتمه لكاتبه مروان ابن الحكم ، كى يكتب الى عامل مصر ان يقتل القـــوم الذين ثاروا ، بينما عثمان قد وعدهم خيرا ، وحملهم وعودا برفع المظالم التى منها يشكون ، ثم يختم مروان الكتاب بخاتم عثمان ، ويرسله على راحلته ومع غلامه .. عند ذلك طلب الثائرون من عثمان اعتزال الخـلافة ، لانه ان كان قد علم بنبأ الكتاب فقد فسق ، وان لم يكن يعلم فقد ضعف عن تولي ما فوض له المسلمون من المهام .. فرفض عثمان ، وقال قولته الشهيرة : انى « لن انزع

لهم رداء الله الذى كسانى ! (٤٣) » ، وعند ذلك تسوروا عليه داره وقتلوه ..

منذ ذلك التاريخ ، وتلك الواقعة ، نستطيع القول بأنه قد ظهرت فى دولة الخلافة ، وفى الفكر الاسلامى نظريتان :

الاولى : ترى أن الامام ، حتى بعد بيعته والعقد له ، لا يزال خاضعا لرقابة الامة ، وحسابها ، ومن ثم فان حقها فى عزله والثورة عليه قائم لا تبديل فيه ولا تغيير ، ولقد كانت هذه هى نظرية الذين طالبوا باعتزال عثمان لامر المؤمنين ..

والثانية : ترى ان الخلافة قميص سربل الله به الامام، وان الرعية التى اختارت لم يعد من حقها أن تعزل ، وهذه النظرية التى هى أقرب الى القول « بالحق الالهى » منها الى القول « بالحق الطبيعى » هى التى قال بها عثمان ابن عفان .....

ولذلك فاننا نستطيع القول أن المعتزلة ، وكل الذين دافعوا عن حق الامة الدائم فى الرقابة على الامام ، وفى خلعه اذا أحدث أو حدث له مايوجب الخلع ، كانوا الامتداد الفكرى والعملى لتلك النظرية والموقف الذى نشأ على عهد عثمان ، كما كان خصوم هذا الحق من حقوق الامة الامتداد لفكر عثمان وموقفه من هذا الموضوع ..

ولقد قال المعتزلة بأن خلع الامام حق من حقوق الامة، لان فلسفة الاختيار الذى يتم من الامة تقتضى أنه : كما

---

(٤٣) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٣٣ ، ٣٧ .

أن لها أن تولى فان لها ان تعزل وتغير .. فبينمـا قالت الشيعة : انه يولى ـ « بفتح اللام المشددة » ـ من قبل الله ، ومن ثم فلا يعزل .. قالت المعتزلة : « انه يولى ـ « بفتح اللام مشددة » ـ وينصب كالامير ، وان أهـل الصلاح والعلم ينصبونه اماما (٤٤) .. وأنه يسـتند الى جماعة المسلمين الذين لهم اقامته (٤٥) » .. فمصـدر سلطته ، اذا ، هي الامة ..

كما أقروا حق الامة فى الرقابة عليه ، بل وتأديبـه والاخذ على يديه ، وذلك ردا على الشيعة الذين أنكروا حق الامة فى ذلك ، وردا كذلك على من قال ، من أصحاب الحديث ، قولا يجعل الخضوع المطلق والاستسلام الدائم للامام هو الموقف الاسلم والسليم .. قال المعتزلة : ان « الامام يأخذ على يده العلماء والصالحون ، ينبهونه على غلطه ، ويردونه عن باطله ، ويذكرونه بما زل عنه ، وان زاغ عن طريق الحق استبدلوا به .. أما قول من قال : انه يأخذ على يد غيره ، ولا يؤخذ على يده ، ولا يعزل ، فغير مسلم .. » (٤٦) .

ولما منعت الشيعة أن تكون سلطة الامة أعلى من سلطة الامام ، فى التأديب والعزل ، وقالوا : انه هو الذى يحاكم الناس ، فلا يصح اخضاعه لسلطة تحاكمه ، والا كـان محتاجا لامام آخر يحاكمه ، وهكذا يحتاج الآخر الى ثالث .. الخ .. الخ .. قالت المعتزلة : ان حق الامـة

(٤٤) (المغنى) ج ٢٠ ق ١ ص ٩٢ ، ٩٣ .
(٤٥) المصدر السابق ج ٢٠ ق ٢ ص ١٦٦ .
(٤٦) المصدر السابق ج ٢٠ ق ١ ص ٩٦ .

فى عزل الامام يجب أن لا ينازع ، أما محاكمته فيجب أن يعهد بها الى الامام الجديد ، لان ذنب الامام اذا بلغ حد الفسق أو استوجب اقامة الحد عليه وجب عزله ، وكانت محاكمته الى الامام الجديد .. (٤٧) ، لانه « اذا كانت الامة تقيمه اماما ليقيم الحدود ، فما الذى يمنع اذا وقع منه ما يوجب الحد أن تقيم اماما سواه ، فيقيم عليه الحد ؟ ثم كذلك أبدا يفعل فى الاوقات اذا عرض عليه هذا الفعل ، فلا يؤدى ذلك الى أئمة لا نهاية لهم » (٤٨) ، كما زعمت الشيعة ..

بل لقد مثل المعتزلة حال الامام اذا وقع منه ماينافى منصبه ومهامه وشروطه بحال الامام اذا مات ، فكما ان الموت يجعل منصب الامام شاغرا ، فكذلك الحدث المخل بمنصب الامامة يجعل هذا المنصب شاغرا ، مما يستوجب اقامة امام جديد بعد عزل الامام السابق .. وذلك عندهم امر مجمع عليه « لانه لا خلاف أنه متى ظهر من الامام مايوجب خلعه ، ان الواجب على المسلمين اقامة امام سواه ، وان ذلك بمنزلة موته ! » (٤٩) .

هذا عن حق الامة فى عزل الامام ، من حيث المبدأ .. أما عن الاسباب التى تجعل هذا الحق للامة ، أو ، بمعنى ادق ، التى تخرج هذا الحق من دائرة « القوة » الى دائرة « الفعل » فهى وقوع حدث يستوجب الخلع ، اذ لا عزل الا بحدث ، ولا يمكن أن يكون العزل متروكا

---

(٤٧) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٥٣ .
(٤٨) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٣١٠ .
(٤٩) المصدر السابق جـ ٢٠ ق ٢ ص ٤١ .

للاهواء ، ولا للافراد ، وانما هو حق لاهل الاختيار ، ينهض به ممثلوهم ، على نحو مايحدث فى الاختيار والترشيح والبيعة والعقد .. هذا ما اتفق عليه كل الذين اعترفوا للامة بهذا الحق .. فالباقلانى ، من الاشعرية ، يسأل :

ــ « هل تملك الامة فسخ العقد على الامام من غير حدث يوجب خلعه ، كما أنها تملك العقد له » ؟

ــ ويجيب : « لا .. » (٥٠) .

وأبو يعلى ، من أصحاب الحديث ، يقول : « والامامة اذا انعقدت لم يكن لاحد فسخها من غير أن يكون هناك حادث يوجب الفسخ .. » (٥١) ، كما يقول القاضى عبد الجبار : ان الشرع قد أوجب في الامام « انه لا يخلع الا عن فسق » وهو فى ذلك يفارق منصب الامارة والامير وغيره من المناصب ، التى يجوز فيها العزل دون فسق او حدث ، فلقد « ثبت بالشرع ، في الامامة ، ان الخلع والازالة لا تجوز من غير حدث .. وان خلعه لا يجوز مع السلامة ، لاجماعهم على ذلك » .. أما الدليل الشرعى الذى يقدمه القاضى عبد الجبار ، فهو ماحدث على عهد عثمان ، لانهم قد انقسموا يومئذ الى فريقين اثنين : الذين رأوا أنه قد أحدث أحداثا تستوجب الخلع طالبوا بخلعه ، والذين أنكروا احداثه لاحداث تستوجب الخلع أنكروا طلب خلعه ، ولم يكن هناك فريق ثالث .. يقول القاضى : « .. لانهم اختلفوا فى أيام عثمان على قولين ، لا ثالث لهما : اما من يقول : انه أحدث مايوجب خلعه . واما من

---

(٥٠) (التمهيد) ص ١٧٩ .

(٥١) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢١٣ .

يقول : لم يحدث حدثا ، فلا يجوز خلعه . فمـا خرج من هذين القولين فهو باطل بالاتفاق .. » (٥٢) .

ولقد قلنا : ان خلع الامام يجب أن يتم بطريق منظـم ، كما يتم اختياره وترشيحه والعقد له بطريق منظم ، ورغم ندرة الحديث عن الهيئات والتنظيمات الدستورية فى الفكر الاسلامى ، واختفائها من الواقع العملى للحياةالسياسية التى غلب عليها الاستبداد بالسلطة ، الا أن المعتزلة يشيرون الى ضرورة ذلك التنظيم واختصاصه بخلع الامـــام : فيقولون ردا على الشيعة الذين ينكرون مبدأ وقوع الخطأ من الامام ، ومن ثم ينكرون عزله : « .. فيجوز فى الامام أن يخطىء ، ويكون هناك من ينبهه ويقومه ، وهم الامة والعلماء الذين يبينون له موضع الخطأ ويعدلون به الى الصواب . ولسنا نعنى بذلك اجتماع الامة ، وانما نريد فرقة ممن يقرب منه ، ويحضره من العلماء ، ومن يعرف موضع الغلط والتنبيه عليه ، لان ذلك عندنا يقوم مقـــام تنبيه الامة ، لانه لابد من دليل ظاهر على موضع الخطأ منه . لانه لا يخلو ما أخطأ فيه من أن يكون من بـــاب الاجتهاد ، فما هذا حاله لا ينسب فيه الى الغلط ، بل يجوز أن يكون مصيبا ، وان كان مخالفا لغيره من المجتهدين وان كان من باب الادلة فلابد من ان يكون الدليل ظاهرا . فاذا نبهه العلماء صار ذلك تقويما له ، واســـتدرك على نفسه ، فان لم يفعل خرج عن كونه اماما ، ولزم اقامـة غيره .. » (٥٣) ..

---

(٥٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٥٣) المصدر السابق . جـ ١٥ ص ٢٥١ .

فالمطلوب هنا هو : فرقة وجماعة وهيئة قائمة فى العاصمة ، وقريبة من الامام ، ومن أعضائها : العلماء ، وأهل الخبرة والاختصاص فى المواطن والفروع التى تحدث فيها أخطاء الامام . أى « من يعرف موضع الغلط والتنبيه عليه » .. ولهذه الهيئة ان تنظر ، فان كان الحدث عن اجتهاد . فلا يجب أن يؤاخذ الامام ، والا فان لها أن تنبه وتحذر وتنذر ، فان استجاب استمر على امامته ، والا خرج عن كونه اماما ولزم أقامة غيره ..

ولقد اتفق المعتزلة على أن الاحداث التى ينعزل لها الامام هى التى تبلغ درجة الفسق أو مايجرى مجرى الفسق ، واستندوا فى ذلك الى اجماع الصحابة ، وقالوا: لقد « ثبت باجماع الصحابة أن الامام يجب أن يخلع بحدث يجرى مجرى الفسق ، لانه لا خلاف بين الصحابة فى ذلك وانما اختلفوا فى أمر عثمان : هل أحدث حدثا يوجب خلعه ؟ أم لم يحدث ؟ » (٥٤) .

وليس ضروريا أن يبلغ فى الفسق حد الكفر ، كما اشترط ذلك نفر من أصحاب الحديث ، لان مادون الكفر من الفسق يقدح فى عدالته (٥٥) ، فالنهى عن المنكر ، مثلا ، واجب عليه ، فاذا ترك النهى عنه كان ذلك فسقا يوجب عزله .. (٥٦) ، وكما يكون الفسق بالذنب الكبير يقترفه بجوارحه كذلك اعتبر المعتزلة ان الاعتقاد الفاسد المجانب لمذهب اهل الحق يعد فسقا ينعزل له الامام .. (٥٧) .

(٥٤) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٠٣ .
(٥٥) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٧٠ .
(٥٦) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ٣٢٣ .
(٥٧) (المغنى) جـ ٢٠ ق ص ١٧٠ .

ولما كان عزل الامام يتم بواسطة ممثلى الامة ، فان هذا العزل يتم بظهور الفسق عليه ومنه ، لا بنفس الفسق اذا كان خفيا مستترا ، لانه لا سبيل عندئذ الى طرح قضية عزله على الامة وممثليها (٥٨) .. وفى حال ما اذا ظهر منه الفسق ، ثم تاب منه قبل أن تعزله الامة وتختار لها اماما جديدا ، فمن المعتزلة من يرى ضرورة امضاء عزله ، ومنهم من يعتبر توبته مبررا لاستمراره فى الامامة .. (٥٩) .

ومثل الفسق ، فى وجوب عزل الامام : النقص فى بدنه ، الذى يؤثر فى الصفات اللازمة لتمكنه وقدرته على أداء ما فوضت له الامة من المهام . وهذا النقص كما يكون فى الحواس يكون فى الاعضاء وفى التصرف .. (٦٠).

وكذلك يجب عزل الإمام اذا خرج عن العدل الى الجور ، لانه « أن حكم بالحق استديمت امامته ، وان حكم بالجور انتقض أمره ، وتعين خلعه .. » (٦١) ، لان المعتزلة يتفقون ، ومعهم غيرهم كثيرون ، على وجوب عزله ، بل والثورة عليه اذا لم يعتزل ..

كذلك قال المعتزلة بخلع الامام اذا ضعف عن أمر الامة ، وقالوا انه حتى الصحابة الذين لم يقولوا بفسق عثمان ، ومنهم على بن أبى طالب ، ولم يرتبوا القول بعزله على الفسق ، فانهم قالوا بضعفه « عن تدبير الخلافة ،

(٥٨) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٧٠ .
(٥٩) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٧١ .
(٦٠) (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ١٧ .
(٦١) (شرح نهج البلاغة) جـ ٩ ص ٢٩٤ .

وان أهله غلبوا عليه ، واستبدوا بالامر دونه ، فاستعجزه المسلمون ، واستسقطوا رأيه ، فصار حكمه حكم الامام اذا عمى ، او اسرد العدو ، فانه ينخلع من الامامة » (٦٢) !

وفى استدلال المعتزلة على مشروعية عزل الامة لامامها اذا حدث منه شيء من ذلك استشهدوا ، وهم يردون على الشيعة ، باحدى خطب على بن أبى طالب فى أهل العراق عندما قال : « ... وليس يجب انكار امامة من عقدت له الامامة ، الا : أن يجور فى حكم ، أو يعطل حدا ، أو يضعف عن القيام بها .. » (٦٣) .

فهو هنا يذكر من الاسباب الموجبة لعزل الامام عن الامامة : الجور ، وتعطيل الحدود ، والضعف عن النهوض بما فوضت له الامة من أمورها .. وهو ماقالت به المعتزلة وانكرته الشيعة فى قضية عزل الامام ..

وعلى حين اتفقت كلمة المعتزلة فى هذه القضية فان اهل السنة ، من الاشعرية وأصحاب الحديث قد اختلفوا فيها .. فالايجى ، فى « المواقف » والجرجانى فى شرحها يقولان بخلعه وعزله من قبل الامة اذا حدث منه « مايوجب اختلال احوال المسلمين وانتكاس أمور الدين ، كما كان لهم نصبه واقامته لانتظامها واعلائها .. » ، وفى حالة ما اذا كان خلعه لا يتيسر الا بفتنة — « ثورة » — وقتال اختار الناس أدنى الضررين ، فان كان ضرر القتال أخف من ضرر بقائه اختاروا خلعه بالقتال ، والا تحملوه مخافة الضرر الاشد .. (٦٤) ، والبغدادى يقف مع حق الامة

---

(٦٢) المصدر السابق . جـ ٩ ص ١٥٤ .

(٦٣) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٦٤) (شرح المواقف) مجلد ٣ ص ٣٦٧ .

فى عزله ، وكما أن الزيغ عن العدل يوجب عزل الولاة والعمال والقضاة ، فهو كمثلهم .. (٦٥) . وبذلك يقول الجويني أيضا .. (٦٦) ، وهو مذهب ابن حزم ، من الظاهرية ، الذى يقول : ان على الامام أن يحكم بالكتاب والسنة « فان زاغ عن شيء منهما منع من ذلك ، واقيم عليه الحد والحق ، فان لم يؤمن أذاه الا بخلعه خلع وولي غيره منهم .. (٦٧) ، فهو يضيف الى الحالات التى يخلع فيها الامام ، غير الفسق .. الخ .. ما اذا خيف منه الاذى ، ولم تأمن الامة أذاه الا بخلعه .. كما قال الشافعي بعزله للفسق والجور ، لان الفاسق ليس من أهل الولاية، فكيف ينظر لغيره اذا كان لاينظر لنفسه ؟! (٦٨) .

اما الذين أنكروا خلعه ، فيشير الباقلانى الى مذهبهم بقوله : « وقال الجمهور من أهل الاثبات ــ « الصفاتية والمشبهة » ــ وأصحاب الحديث : لا ينخلع بهذه الامور ــ « الفسق والظلم وتعطيل الحدود » ــ ولا يجب الخروج عليه ، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته فى شيء مما يدعو اليه من معاصى الله .. » كما يقول : « وعند أصحابنا ان حدوث الفسق فى الامام ، بعد العقد له ، لا يوجب خلعه ، وان كان مما لو حدث فيه عند ابتداء العقد لبطل العقد له ووجب العدول عنه .. » (٦٩) .

---

(٦٥) (أصول الدين) للبغدادى . ص ٢٧٨ .

(٦٦) (كتاب الارشاد) ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٦٧) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٠٢ .

(٦٨) (شرح العقائد النفسية) ص ٤٨٨ .

(٦٩) (التمهيد) ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

فالفسق الظاهر ، والظلم ، وغصب الاموال ، وتنـاول الناس بالضرب والاذى ، وتناول النفوس المحـــرمة ، وتضييع الحقوق ، وتعطيل الحدود ، لايوجب خلع هذا الامام الذى يأتى كل ذلك ، عند هؤلاء .. بل يقـولون بوعظه ، وبترك طاعته فى « شىء » مما يدعو اليه من معاصى الله .. اى أنهم يبيحون طاعته فى « شىء » من المعاصى ، وترك طاعته فى « شىء » منها ؟!..

ويذهب النسفى ، من الماتريدية ، هذا المذهب ، ومعه التفتازانى ، شارح عقائده ، ولكنهما يمعنان فى الغرابة عندما يعللانه بشيوع الجور والفسق فى البلاد بعد الخلفاء الراشدين ، فيقولان : « .. ولا ينعزل الامام بالفسق: اى بالخروج من طاعة الله تعالى ، والجور : اى الظلم على عباد الله تعالى ، لانه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الائمة والامراء بعد الخلفاء الراشدين ، والسلف كانوا ينقادون لهم ، ويقيمون الجمع والاعياد باذنهم ، ولا يرون الخروج عليهم (٧٠) » . فيتجاهلان اجماع سلف الامة على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومذهب اغلب هؤلاء السلف فى وجوب الخروج والسيف لتحقيق هـــذه الغاية الشريفة .

ويذهب هذا المذهب نفر آخرون من اهل السنة ، ولكنهم يمعنون فى نوع آخر من الاغراب ، عندمايتجاهلون قول من قال منهم بعزل الامام بالفسق والجور ، او يهونون من رأى هذا الفريق ، فيقول النووى « ٦٣١ ــ ٦٧٦ هـ ١٢٣٣ ــ ١٢٧٧ م » : « واجمع اهل السنة انه

(٧٠) (شرح العقائد النسفية) ص ٤٨٨ .

لا ينعزل السلطان بالفسق ، وأما الوجه المذكور فى كتب الفقه لبعض أصحابنا انه ينعزل ـ وحكى عن المعتزلة أيضا ـ فغلط من قائله ، مخالف للاجماع .. وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه مايترتب على ذلك من الفتن واراقة الدماء وفساد ذات البين ، فتكون المفسدة فى عزله أكثر منها فى بقائه .. » . وينقل النووى عن القاضى عياض « ٤٧٦ ـ ٥٤٤ هـ ١٠٨٣ ـ ١١٤٩ م » قوله : « وقال جماهير أهل السنة ، من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين : لاينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ، ولا يخلع ، ولا يجوز الخروج عليه بذلك ، بل يجب وعظه وتخويفه ، للاحاديث الواردة فى ذلك » ..

ويحاول أصحاب هذا المذهب ، مذهب الاجماع على الخضوع والطاعة لائمة الجور الفسقة الظلمة ، يحاولون تفادى حجة من احتج بخروج الحسين وابن الزبير وأهل المدينة على بنى أمية ، وخروج « جماعة عظيمة من التابعين والصدر الاول على الحجاج مع ابن الاشعث » فيقولون : ان هذا الخروج على الحجاج لم يكن لمجرد الفسق ، بل لتغيير الشرع ومظاهرة الكفر .. ولكنهم لم يقولوا : هل كان ذلك هو حال يزيد وعبد الملك بن مروان ، اللذين خرج عليهما الحسين وابن الزبير ؟!.. كما يسلكون للخروج من هذا الحرج سبيلا آخر عندما يزعمون ان الاجماع على عدم العزل والخروج ، قد تم بعد ذلك العصر الذى خرج فيه : الحسين ، وابن الزبير وابن الاشعث مع أهل الصدر الاول والتابعين !! (٧١) .

(٧١) (شرح النووى) على (صحيح مسلم) جـ ٢ ص ٢٢٩ .

والى مذهب هذا الفريق من الاشـــعرية والماتريدية ذهب اصحاب الحديث ، الذين انكروا عزل الامام بالجور او الفسق ، سواء اكان فسق جارحة أم فسق اعتقاد .. « لان فسقه لا يخرجه عن الملة ؛ ولا يمنعه من النظر فيما نصب له ؛ فلا يجب خلعه سواء أكان الفسق متعلقا بأفعال الجوارح ، وهو ارتكاب المحظورات .. كأخذ الاموال ، وضرب الابشار ، وتناول النفوس المحرمة ، وتضـــييع الحقوق ، وتعطيل الحدود ، وشرب الخمور ، ونحـــو ذلك .. أو كان متعلقا بالاعتقاد ؛ وهو المتأول لشـــبهة تعرض يذهب فيها الى خلاف الحق .. » .

ومن عجب أن أصحاب هذا المذهب يوجبون عـــزل الامام اذا ضعف بصره (٧٢) ، ولا يوجبون عزله اذا جرحت عدالته ففسق وفجر ، وذهب فى الناس مذهب الجـور والظلم والاستبداد !؟ ..

وغنى عن التعليق أن هذا المذهب ــ كما يبدو صراحة من تعليل التفتازانى بأن الجور والفسق قد عم بعد عهد الخلفاء الراشدين ــ مستمد من الواقع الظالم والظـــلم الذى ساد فى فترات معينة ومواطن محددة فى التــاريخ السياسى للعرب والمسلمين ، وليس مستمدا من روح الاسلام وتعاليمه .. فيظل المعتزلة ، ومن وافقهم ، فرسان الدفاع عن الفكر الاسلامى النقى فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر عندما يوجبون عزل الامام بالفسق ، والجور ، والضعف عن القيام بأمر المسلمين ..

(٧٢) أبو يعلى (كتاب الامامة) ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ . و (الاحكام السلطانية) ص ٤ ــ ٦ .

أما عن استخدام القوة ، وخاصة القوة المسلحة كسبيل لعزل الامام الفاسق والجائر ـ وهى القضية التى كانوا يسمونها : « السيف » ـ فان الخلاف من حولها يماثل الخلاف على خلع هذا الامام وعزله .. والاشعرى يلخص مقالات الاسلاميين فى هذه القضية على هذا النحو :

١ ـ مقالة المعتزلة والزيدية والخوارج وكثير من المرجئة:

التى أوجبت استخدام السيف فى عزل الامام والثورة عليه ، عند حدوث الاحداث ، بشرط التمكن من الثورة التى تزيل البغى وأهله ، وتقيم النظام الحق .. ولقد استدلوا على مقالتهم فى السيف بقول الله سبحانه : « وتعاونوا على البر والتقوى » (٧٣) ، وقوله : « فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » (٧٤) . وقول الله لابراهيم عندما سأله عن مكان ذريته من ولاية الامر : « لا ينال عهدى الظالمين » (٧٥) .. (٧٦) ..

والمعتزلة يوجبون الخروج على ائمة الجور ، بل ويرون نصرة الخارجين عليهم « وان كانوا ضالين فى عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلت عليهم » لان الضال بشبهة أعدل واقرب الى الحق من الفاسق المتغلب بغير شبهة ، ولذلك فهم يرون نصرة الخوارج على معاوية ، لانهم كانوا ملتزمين بالدين بينما لم يظهر على معاوية مثل ذلك (٧٧) .. واشترط ابو بكر الاصم أن يكون الخروج

---

(٧٣) المائدة : ٢ .
(٧٤) الحجرات : ٩
(٧٥) البقرة : ١٢٤ .
(٧٦) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٤٠ .
(٧٧) (شرح نهج البلاغة) جـ ٥ ص ٧٨ ، ٧٩ .

مع أمام عادل قد عقد الثوار له البيعة كي يقـــودهم فى الخروج .. (٧٨) . والقاضى عبد الجبار يعبر عن رأى المعتزله هذا ، ويربطه بتراث المسلمين فى الثـــورة على أئمه الجور ، فيقول :

« وما يحل لمسلم أن يخلى أئمة الضلالة وولاة الجور اذا وجد اعوانا ، وغلب فى ظنه انه يتمكن من منعهم مـــن الجور ، كمـــا فعل الحسن والحسين ، وكما فعل القراء حين اعانوا ابن الاشعث فى الخروج على عبد الملك بن مروان ، وكما فعل أهل المدينة فى وقعة الحرة ، وكمـــا فعل أهل مكة مع ابن الزبير حين مات معاوية ، وكما فعل عمر بن عبد العزيز ، وكما فعل يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فيما أنكروه من المنكر .. (٧٩) .

والزيدية بأجمعها قالت بقول المعتزلة هذا ، واشترطوا فى الثائرين أن يبلغ عددهم عدد أهل بدر ، ثلثمائة وبضعة عشر ثائرا ، ولقد طبقوا مقالتهم هذه عمليا ، فبـــــدات فرقتهم بثورة زيد بن على بالكوفة ، ثم ابنه يحيى بن زيد بخراسان (٨٠) ، واستمرت ثوراتهم حتى لقد جعلوا من الخـــروج واشهار السيف البديل عن العقد بالنســـبة للامام ..

وذهبت الخوارج كلها ، كذلك ، هذا المذهب ، فقالوا بوجوب « ازالة أئمة الجور ومنعهم أن يكونوا أئمة ، بأى

---

(٧٨) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٧٩) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٧٤ ، ٣٧٥ .

(٨٠) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٥٠ . و (ثورة زيد بن على) ص ١٣٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٧٣ ، ١٩٧٣ .

شيء قدروا عليه ، بالسيف أو بغير السيف .. » (٨١) .

وعند الخوارج أن الخروج يجب اذا بلغ المنكرون على ائمة الجور أربعين رجلا ، وهذا هو حد « الشراة » ، وعليهم الخروج : « حتى يموتوا أو يظهر دين الله ويخمد الكفر والجور .. » ولا يحل لهم المقام الا اذا نقص عددهم عن ثلاثة رجال .. فان نقصوا عن الثلاثة قعدوا ، وكتموا عقيدتهم ، وكانوا على مسلك « الكتمان » ، اذ مسالك الدين عندهم اربعة : الظهور : وهو قيام دولتهم ونظامهم تحت قيادة امام الظهور .. والدفاع : وهو التصدى لهجوم الاعداء ، تحت قيادة امام الدفاع ، كما حدث يوم النهروان عندما قادهم عبد الله بن وهب الراسبي ضد جيش على بن ابى طالب . والشراء ــ وذكرنا معناه ــ واخيرا : الكتمان .. (٨٢) .

٢ ــ **مقالة الشيعة ، من غير الزيدية :**

وهم يرفضون استخدام السيف ، بل والخروج أصلا الا مع امامهم الغائب المنتظر عندما يظهر (٨٣) ..

٣ ــ **مقالة اصحاب الحديث واهل السنة :**

الذين أنكروا الخروج بالسيف على ائمة الجور ، حتى لو قتل هؤلاء « الائمة » الرجال واسترقوا الذرية وسبوها وقالوا بامامة الفاجر والفاسق !! (٨٤) .

هذه هى مقالات فرق الاسلام فى السيف ، اى فى

---

(٨١) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ٢٠٤ .
(٨٢) (مقدمة التوحيد وشروحها) ص ٥٠ ــ ٥٥ .
(٨٣) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٤٠ .
(٨٤) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٤٨ ، جـ ٢ ص ١٤٠ .

الثورة والخروج المسلح على ائمة الجـــور والفســق والفساد ..

***

وقضية اخرى قد ارتبطت فى الفكر الاسلامى بقبـول فكرة الثورة او رفضها ، وجودا وعدما .. تلك هى قضية « المهدى المنتظر » ، الذى سيأتى كى يملأ الارض عـدلا بعد أن ملئت جورا ..

ومعلوم ومشهور أن هـذه الفكرة هى أقدم فى التراث الانسانى من ظهور الاسلام وظهور الخلاف على الامامة بين أهله .. فلقد عرفها الفرس .. بل وقامت على أساسـها عقيـدة « المسـيح والمخلص » فى التراث الدينى للعبرانيين ..

والجانب الذى نريد أن نشير اليه هنا من فـكرة « المهدى والمهدية » هو ان الطابع المثالى الذى صـورت به قصة المهدى وظهوره ، والعدل المطلق الذى سيتحقق على يديه ، قد كان رد فعل للظلم والجور الذى استشرى فى تلك المجتمعات ، فـكانت « المهدية » حلم الانسـان المقهور فى مجتمع سدت فيه سبل العدل والانصاف .. ولما عجز هذا الانسان عن تحقيق حلمه فى العدل على أرض الواقع ، تعلق بهذا الحلم الذى سيحققه ذلك المنتظـر فى يوم من الايام .. ولذلك انتشرت فكرة « المهـدى والمهدية » فى صـفوف الفرق التى رفضت الخروج على ائمة الجور ، وعارضت استخدام الثورة والسلاح كسبيل لتغيير المظالم التى يئن منها الناس .. لقد استبدلت هذه الفرق الحلم المثالى بالثورة التى رفضتها ، على حين لم

تنتشر تلك الفكرة المثالية فى صفوف الفرق التى مارست محاولات التغيير وسعت سعيا عمليا لاستبدال المظالم بقدر من العدل ييسر الحياة للانسان ..

فالخوارج ، والزيدية ، لم يعيروا التفاتا لهذه العقيدة، لان ائمتهم الذين شهروا سيوفهم وقاتلوا كانوا هم المهديين الحقيقيين ، بينما انتظر الاخرون مخلصيهم ، ولايزالون حتى الآن ينتظرون ! . وكذلك لم يكن لهذه العقيدة شأن يذكر فى فكر المعتزلة وحركتهم .. أما الشيعة الاثنى عشرية ، وأولئك الذين حرموا الخروج ورفضوا السيف من اهل السنة ، فان قعودهم عن استخدام سبيل الثورة فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر جعلهم يحولون طاقات السعى الى العدل عندهم من ميدان الواقع والتطبيق الى ميدان الحلم والوهم والخيال .. (٨٥) .

بل لقد تعدت هذه الظاهرة نطاق الفرق الى مجال القبائل العربية التى استبعدتها العصبية القرشية عن ميدان السلطة وميزات الحكم ومغانمه .. فالقحطانيون ينتظرون « القحطانى المنتظر » ، والمضريون ينتظرون « التميمى » ، وكلب تنتظر « الكلبى » (٨٦) .. الخ .. الخ .. لانهم جميعا قد استبعدهم النسابون من القرشية فأغلقوا أمامهم الطريق الى الخلافة ، نظريا ، كمااستبعدهم الامويون فأغلقوا طريق الحكم فى وجوههم عمليا ..

---

(٨٥) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٧ .

(٨٦) (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) ص ١٢١ ، ١٢٢ .

فصعدوا احساسهم بالظلم والقهر والاحباط فى شكل هذه العقيدة المثالية التى شاعت فى صفوفهم فى ذلك الحين .

بل ان هناك فرقا بعينها تراوحت عقيدتها فى «المهدى» وتغيرت بتغير موقفها من الثورة وسل السيف ضد ائمة الجور .. فالكيسانية ، على عهد محمد بن الحنفية ، ثارت بقيادة المختار الثقفى ، وفى ذلك العهد كان ابن الحنفية ينكر فكرة المهدى ، ويرفض تلقيبه بالمهدى ، بالمعنى المثالى الذى يتحدث عن المخلص المنتظر ، فلقد قال عندما سلم عليه البعض بقولهم : سلام عليك يا مهدى : « أجل انا مهدى ، أهدى الى الرشد والخير ، اسمى اسم نبى الله، وكنيتى كنية نبى الله . فاذا سلم احدكم فليقل : سلام عليك يامحمد ، السلام عليك يا أبا القاسم (٨٧) » . فهو يطلب منهم أن لا يسلموا عليه باسم المهدى ، ويغلق الباب امام هذه العقيدة كى لا تنتشر فى الكيسانية ..

وعندما فشلت ثورة المختار ، ومات ابن الحنفية ، وساد الاحباط واليأس فى الكيسانية ، كغيرها من فرق الشيعة التى اتخذت الامامة امامة دينية ، ورفضت الثورة والخروج ، عند ذلك سادت عقيدة « المهدى والمهدية » فى الكيسانية ، وقالوا : ان مهديهم هو محمد ابن الحنفية ، وانه حى لم يمت ، فى جبل رضوى ، سيعود ليملأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا .. وقرانا أبيات كثير التى تقول :

هو المهدى خبرناه كعب
اخو الاحبار فى الحقب الخوالى

---

(٨٧) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٦٨ ، ٦٩ .

اقـــر الله عينى اذ دعـــانى
امين الله يلطف فى الســؤال

واثنى فى هـــواى على خـــيرا
وساءل عن بنى وكيف حالى (٨٨)

اما الذين قبضوا على زمام السلطة واستأثروا بالخلافة فانهم سخروا من هذه العقيدة واصـحابها ، وراوا أن المهدى هو من بيده السلطة وتحت أمرته الجيوش ... وعن هذا الموقف يعبر على بن الجهم ، شاعر المتوكــل العباسى ، عندما يقول :

ورافضة تقول : بشــعب رضوى
امــام . خاب ذلك من امــام !

امــام من له عشـــرون الفــا
من الاتراك مشرعة الســهام ؟! (٨٩)

هكذا تفاوت الموقف من عقيدة « المهــدى » بتفاوت الموقع من السلطة والموقف من هذه السلطة أيضا :

* فالذين استأثروا بهــا سخروا من هــذه العقيدة واصحابها ، وراوا أن القوة فى الدولة والجيش لا فى هذا الحلم العقيم .

* والذين اعتنقوا عقيدة الثورة والخروج على ائمــة الجور راوا فى ثوراتهم وقادتهم السبيل الوحيد والمعقول للخلاص ، فرفضوا ذلك الحلم أيضا ..

* اما الذين أصابهم الظلم والاضطهاد ، وفى ذات الوقت نكصوا عن طريق الثورة والخروج المسلح لتغيــير

---

(٨٨) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٦١ .
(٨٩) (الاغانى) جـ ١٠ ص ٣٦٦٩ .

واقعهم ؛ فانهم تعلقوا بهذا الوهم ، وعلقوا امالهم في الخلاص على « المهدى » وعقيدة « المهدية » ، وقالوا . « ان طبيعة الوضع الفاسد فى البشر ، البالغة الغاية فى الفساد والظلم .. تقتضى انتظار هذا المصلح « المهدى » لانقاذ العالم مما هو فيه » .. (٩٠) ، وذلك بدلا من ان يقولوا : ان طبيعة هذا الوضع الفاسد تقتضى الثورة عليه لتغييره واستبداله بوضع أقرب الى العدل والانصاف .

والامر الذى يؤكد أن النكوص عن طريق الثورة ، والخوف من مخاطرها هو الذى دفع هذا الفريق الى ذلك الموقف هو ما عللوا به فكرة غيبة « المهدى » ، وأسبابها ، فهم يجيبون عن سؤال : « ما السبب المانع من ظهوره ؟ والمقتضى لغيبته ؟؟ » . بقولهم : « يجب أن يكون السبب فى ذلك هو الخوف على النفس ، لان ما دون النفس من الآلام يتحمله الامام ، ولا يترك الظهور لاجله .. » (٩١) .

فالفارق بين هذا الموقف الذى يخشى صاحبه على نفسه ، وبين موقف الخوارج فى ثورتهم المتصلة ، والزيدية فى خروجهم المتكرر ، و المعتزلة فى الثورات التى سنتحدث عنها بعد قليل .. هو الفارق بين الذين سلوا السيف كى يغيروا الواقع ، دون وجل من الموت أو رهبة من الحرب ، وبين الذين حولوا الامامة الى عقيدة روحية ، وعلقوا الآمال فى التغيير على عقيدة المهدى وظهوره عندما يأذن الله له بذلك الظهور ! ..

---

(٩٠) (عقائد الامامية) ص ٧٨ .

(٩١) (تلخيص الشافى) جـ ١ ص ٩٠ ، ٩١ .

الفصل الثانى

حقيقة المعارضة لبنى أمية

يخطىء البعض عندما يعتقد أن المعتزلة كانت فرقة دينية وفلسفية أكثر منها سياسية ، ولقد شاع هذا الخطأ حتى أصبح القارىء الذى يقرأ عن أصل « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » يظن أن ذلك أمر يتعلق بالموعظة الحسنة والدفع بالتى هى احسن فى ميدان الاخلاق الفردية ، أو الاجتماعية على أكثر التقديرات تعميما ... وان أصل « المنزلة بين المنزلتين » هو جزء من جدل عقيم يجب أن يوضع حيث توضع آثار العصور القديمة ، وليس فيه مايستحق الاستلهام والاستيحاء .. وان أصل « العدل » والقول بالاختيار ، وان كان هاما فيما يتعلق بالحرية ، الا انه قد اقتصر فى البحث والتناول على حرية الفرد ازاء خالقه ، وسلطان الخالق على الناس ، دون أن تمتد أبعاد هذا المبحث لتشمل المجتمع بما فيه من علاقات متعددة الميادين والمجالات ..

وهذا الخطأ الشائع ليس وقفا على المثقفين غير المتخصصين فى الدراسات والعلوم الاسلامية ، بل لقد أصاب بعض الدراسات الهامة التى ظهرت فى هذا الميدان .. فعندما نقرأ مثلا : « ان المعتزلة ينبغى أن ينظر اليهم

ــ أولا ــ على أنهم فرقة دينية فلسفية ، ثم سياســـية بعد ذلك » وان مراجعة أصولهم الخمسة تجعلنا لا نجد منها « ما يمكن أن يعتبر مبدأ سياسيا الا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، ومع ذلك فان هذا الاصل ليس سياسيا تماما ، لانهم تناولوه وقالوا به باعتباره « جزءا من الايمان » ، كما ان « بحث مرتكب الكبيرة ــ « المنزلة بين المنزلتين » ــ لم يبدأ لذاته ، وانما كان فرعا عن البحث فى حقيقة الايمان .. » .

عندما نقرأ ذلك نقول : ان هذا الخطأ الشائع قد أصاب مثل هذه الدراسة ، ولن يشفع لها أن تقول ، بعـــد تجريد أصول المعتزلة من الطابع السياسى ، والحكم بأن هذه الفرقة « دينية » أولا ، ثم سياسية بعد ذلك ، لن يشفع لهذا الخطأ القول بأن « المعتزلة قد أبدوا آراءهم السياسية فى أكثر المسائل التى كانت موضع بحث فى هذا العصر ، واشتركوا أيضا فى السياسة العملية ، فــكان أثرهم اذن فى ناحيتى السياسة النظـــرية والعمليـــة أثرا خطيرا .. » (٩٢) .

ولقد كان باستطاعتنا ان نحيل فى نقض هذا الخطأ على ما قدمناه فى القسم الاول من هذه الدراسة عن المعتزلة ، ونشأتهم السياسية ، وأن نسهم فى تبديد هذا الوهم ، ما ثبت فى هذا البحث ، من ان نشأة كل الفرق الهامة فى الاسلام انما كانت نشأة سياسية ، وان السياسة ، والامامة بالذات ، هى التى فرقت المسلمين فرقا ، ووحـــدت الجماعات والافراد فى فرقة او مذهب متحد ، وان المسائل

(٩٢) (النظريات السياسية الاسلامية) ص ٦٥ .

الدينية المحضة لم تكن سببا فى نشأة فرقة من الفرق الاساسية فى يوم من الايام ، فقضية « التشبيه والتنزيه » ، رغم أهميتها وحساسيتها ، لتعلقها بتصور الناس لذات الههم ، لم تفرق المسلمين كما فرقتهم الامامة .. بل وجدنا فى صفوف الشيعة « مجسمة » و « منزهة » ، جمعهم مذهب واحد فى الامامه ، ولم يفرق بينهم التشبيه والتنزيه ، حتى كان هشام بن الحكم من رؤوس المجسمة ، وامامه جعفر الصادق من المنزهين .. ووجدنا فى صفوف الخوارج أغلبية تقول بالاختيار ، وأقلية لا تقول به ، ولكن جمعهم مذهب واحد فى الامامة والسياسة والخروج على أئمة الجور والفساد ..

فلقد كانت السياسة ، اذن ، والامامة بوجه اخص ، هى المحك الذى ولد شرارات الفرق والمذاهب فى الاسلام ، ولقد ثبت من اشاراتنا الى أصول المعتزلة الخمسة فى القسم الاول من هذه الدراسة الطبيعية السياسية فى هذه الاصول ، والعامل السياسى فى نشأتها وتبلورها وتطورها ..

كما أن الابواب والفصول التى عرضنا فيها نظرية الامامة وفلسفة الحكم واصوله عند المعتزلة ، مقارنة بها عند الفرق الاخرى ، تثبت دور العامل السياسى فى نشأة هذا الفكر ، وتجعل منه دورا أساسيا ، وليس ثانويا أو تابعا ، كما توحى الافكار الخاطئة التى شاعت فى هذا الموضوع .

وكما قدمنا ، فلقد كان باستطاعتنا ان نحيل فى نقض هذا الخطأ على ما قدمناه فى هذا البحث .. وكان ذلك

كافيا فى تصحيح التصور لدور المعتزلة فى الفكر السياسى الاسلامى .. ولكننا لو وقفنا عند هذا لكان كافيـــا فى ابراز دور المعتزلة كمفكرين سياسيين ، لهم فى السياسة وقضاياها الاساسية فلسفة ونمطا من أنماط التفكير . وتبقيت بعد ذلك ثغرة تتمثل فى غياب الاجابة على هــذا السؤال : هل كان المعتزلة ــ كساسة ــ مجرد فلاسـفة سياسيين ؟ احترفوا صناعة الفكر السياسى عندما عرضوا لقضايا السياسة ؟ أم كانوا مشتغلين بالســـــياسة ، خرجوا بفكرهم من ميـــدان النظـر الى حيز الواقـع والتطبيق ؟؟

وعلى سبيل المثال .. فهم عندما قالوا بوجوب خلـع الامام الجائر والثورة عليه .. هل قالوا ذلك ابراء للذمة فقط ، وكنوع من أنواع « الترف الفكرى » ــ فى حقـل الثورة ــ بتعبيرنا المعاصر ؟ أم أنهم مارسوا العمل الثورى ، وكان لهم شرف محاولة وضع فلسفتهم السياسية موضع التطبيق والتحقيق ؟؟.

ونحن نعتقد أن الاجابة على هذا السؤال ، وســـد الثغرة التى تتمثل فى بقائه دون اجابة ، هو وحده الـكفيل بتصحيح الخطأ الذى شاع فصنف المعتزلة فى الفـــرق الدينية الفلسفية أولا ، والسياسية ثانيا ، ومن ثم فهو السبيل لتصحيح صورة المعتزلة ، واكتمال عناصرها فى تصور الباحثين بهذا الميدان .. وهذه هى مهمة هـــذا القسم من اقسام هذا البحث ..

***

لقد نشأت المعتزلة فى العهد الاموى ، وكان لابد لها أن

تقيم عملية انتقال السلطة من دولة الخلافة الراشدة الى بنى امية ، خصوصا وان ذلك الانتقال قد غير فى طبيعة السلطة وشكلها ، فطبعها بطابع الملكية الوراثية، واستبدل مضمون الشورى بالجبرية والاستبداد ..

ووسط ذلك الصراع الذى احتدم حول هذه القضية ، بين الخوارج والشيعة والمرجئة ، ادلى المعتزلة بدلوهم فى هذا الامر ..

كانت الخوارج قد حكمت بكفر بنى أمية ــ كفر شرك او كفر نعمة ، على خلاف فى ذلك ــ لانهم مرتكبو كبيرة ، بل كبائر ..

وكانت الشيعة قد حكمت بكفر كل الصحابة فيما عدا النفر القليل الذين مالت قلوبهم لتنصيب على اماما ، وفيما عدا الشيعة التى تكونت من بعد ..

وكانت المرجئة قد لجأت الى وضع الاحاديث النبوية كى تبرر انتقال السلطة لمعاوية ، وتضع له فى الاسلام مركزا فريدا يبز به أئمة الشيعة ، بمن فيهم على بن أبى طالب .. فنسبوا الى ابن عمر انه قد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله لمعاوية : « يا معاوية أنت منى وانامنك ، لتزاحمنى على باب الجنة كهاتين .. وأشار بأصبعه الوسطى والتى تليها » ! وكأنهم قد أرادوا بهذا الحديث الموضوع الرد على تفسير الشيعة ــ أو وضعها ــ لحديث النبى الى على بقوله : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى .. الخ » ، وحديث الغدير : « من كنت مولاه فعلى مولاه .. » !

ونسبوا الى أبى الدرداء رواية يقول فيها : دخــل

الرسول على أم حبيبة وعندها معاوية ــ وهى زوج الرسول وأخت معاوية ــ فقال لها الرسول : « أو تحبينه يا أم حبيبة ؟ فقالت : أى والله يارسول الله ، قال : فأحبيه ؛ فانى احب معاوية ، وأحب من يحبه ، وجبريل وميكائيل يحبان معاوية ؛ والله عز وجل اشد حبا لمعاوية من جبريل وميكائيل » ! .. وهم يردون بذلك على الاحاديث المشابهة التى روتها الشيعة فى مناقب على ، والتى لا تختلف إلا فى استبدال اسم معاوية بعلى ، تقريبا ؟!..

ونسبوا الى العرباض بن سارية أنه سمع الرسول يقول : « اللهم علم معاوية الكتاب ، ومكن له فى البلاد ، وقه العذاب » .. فأشاروا الى أن النبى دعا له بالخلافة والحكم ؟!..

ونسبوا الى عبد الله بن عمر قوله : كنت مع رسول الله فقال : « يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة» فطلع معاوية . ثم قال من الغد مثل ذلك ، فطلع معاوية ، فقال رجل : يارسول الله هو هذا ؟ قال : نعم » !

ومن الطريف فى قصة وضع الاحاديث انه قد جاء من نسب الى عبد الله بن عمر ذاته قوله : « كنت مع رسول الله ، فقال : « يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أمتى يبعث يوم القيامة على غير ملتى ــ أو على غير سنتى ... فطلع معاوية . فقال : هو هذا » !

كما قد جاء من نسب الى ابن مسعود قوله : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا رأيتم معاوية على منبرى هذا فاقتلوه ! » (٩٣) .

---

(٩٣) أنظر فى كل هذه الاحاديث (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٠٨ ــ ٢١٠ (فصل فى امامة معاوية) .

وسط هـــذا الصراع الفكرى ـ الذى امتهنت بعض اطرافه قدسية الحديث وعقول الامة ، والذى بلغ حـــد الحرب والثورة الخارجية المستمرة ، حاول المعتزلة ، بالعقل والمنطق ، ان يقدموا تقييما للدولة الاموية، ويحددوا الموقف منها ، فى ضوء أصولهم الفكرية التى كونت مذهب فرقتهم وتيارهم الفكرى .. ولقد جاء تقييمهم لهـا فى سياق تقييمهم لتطور قضية السلطة والخلافة منـذ ان نشأت عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .. وهم قد قسموا ذلك التطور الى « طبقات » ، أى اجيال ومراحل وفترات ..

فهناك عصر النبوة وابى بكر وعمر والسنوات الســت الاولى من حكم عثمان .. وهو عصر التوحيد ، والالفة ، واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ..

ثم عصر الاحداث التى أتاها عثمان ، والتى انتهت بقتله .. وتنصيب على بن ابى طالب خليفة على المسلمين ..

ثم عصر على ، الذى تميز بالفتن المتصلة والحروب المترادفة ، والذى استمر حتى استشهد على يد أشـقى الخلق : ابن ملجم ..!

ثم عصر الدولة الاموية ، الذى بدأ رسميا عندما تنازل الحسن بن على لمعاوية بن أبى سفيان عن الامرة ، فيمـا سمى « بعام الجماعة » ، والجاحظ يوجز تقييم المعتزلة، الذى اتفقوا عليه جميعا ، لهذا العصر فيقول : « فعندما استوى معاوية على الملك ، واستبد على بقية الشورى ؛ وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين فى العـام الذى سموه عام الجماعة ، وما كان عام جماعة ، بل كان

عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذى تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا ، والخلافة غصبا قيصريا ، ولم يعد ذلك أجمع : الضلال والفسق ..! (٩٤) » .

فدولة بنى أمية وحكامها وولاتها ، يحكم عليها المعتزلة ــ فى الجملة ــ بالضلال والفسق ، لانها قامت على ذنب من الذنوب الكبائر ، وهو تحويل الخلافة الشوروية الى ملك وراثى عضود . ولانها مارست من المظالم والكبائر ما امتلأت به صحائف آثار كثيرة من كتب أهل الاعتزال ..

فمعاوية : استلحق زياد بن سمية ، فخالف قول الرسول عن أن الولد للفراش .. وقتل حجر بن عدى وصحبه .. وأعطى مصر لعمرو بن العاص طعمة واقطاعا لقاء مكره واياه بعلى بن أبى طالب فى صفين وقبلها وبعدها .. وعطل الحدود بالشفاعة والقرابة .. واستبد بأموال الامة فتصرف فيها اعطاء ومنعا كما شاء .. وأورث الملك لابنه يزيد .. فأحدث بذلك : ومثله كثير معه ــ حسب قول الجاحظ ــ : « أول كفرة كانت فى الامة » ! وممن كل ذلك ؟ ممن يدعى امامتها ، والخلافة عليها ؟!.. » .

ويزيد بن معاوية : كان منه ماكان ، غزا مكة ورمى الكعبة وهدم بيت الله الحرام .. وقتل الحسين .. وعاث فى الدولة فسادا طفحت به كتب التاريخ ..!

وكذلك صنعت المروانية ، خلا عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن الوليد « الناقص » ..

هذا هو تقييم المعتزلة لمعاوية ، واغتصابه سلطة الخلافة ، وتغييره مضمونها وشكلها ، وما أحدث فى البلاد

---

(٩٤) (رسائل الجاحظ) جـ ٢ ص ٧ ــ ١١ ، ١٤ ــ ١٦ ، ١٨٩ .

من أحداث ، وتقييمهم للدولة الاموية .. وهو تقييم قد اتفقوا عليه ، لانه كان منبع أصل « المنزلة بين المنزلتين » الذى هو أحد أصولهم الخمسة ..

فالخياط يقول عن الحكم بفسق معاوية وبنى أمية والبراءة منهم : « هذا قول لا تبرأ المعتزلة منه ، ولاتعتذر من القول به ! » (٩٥) .

وابن أبى الحديد يقول : « لقد اتفقت المعتزلة على أن امراء بنى أمية كانوا فجارا ، عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن الوليد .. » (٩٦) .

وأبو على الجبائى ، يفسقهم ، ويعجب من فرقة « النوابت » ، أهل الحشو ، الذين ينكرون البراءة منهم .. (٩٧) . ويرى أن بيعة الحسن بن على لمعاوية باطلة لانها « وقعت على حد الاكراه ، لظهور أهل الشام وقهرهم ، وخوف القتل لو وقع الامتناع عن البيعة .. » (٩٨) .

والقاضى عبد الجبار ينكر أن يكون « عام الجماعة » وما تم فيه من البيعة لمعاوية مسوغا لشرعية خلافته ، لانه مفتقد لشروط الامامة ، مرتكب لامور تستوجب فسقه ، أهمها اغتصاب السلطة بالقتل والقتال .. ولان الاجماع المزعوم لم يقع ، فكان هناك من ينكر عليه حتى فى حضرته وكان هناك الحسن والحسين ومحمد بن على بن الحنفية

---

(٩٥) (الانتصار) ص ٩٨ .

(٩٦) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ٣٠٩ .

(٩٧) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٧٨ .

(٩٨) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٤٦ .

وابن عباس واخوته ، وغيرهم كثيرون يظهـــرون ذمــه والوقيعة فيه ..

كما روى القاضي عن شيوخه ، وقال هو كذلك : ان فسق معاوية ودولة بنى امية لا خلاف فيه ، وانمـــا الخلاف هو فى كفر معاوية ، اذ أن البعض يشـــكك فى اسلامه ؟! (٩٩) .

والمعتزلة وان اختلفوا مع الخوارج ، الا انهم فى تقييمهم للفرق والمواقف السياسية فضلوا الخوارج — بمـــا لا يقارن — على الامويين ، فالخوارج كانوا زهادا خشنين فى الدين ، ملتزمين بناموسه ، ينهون عن المنكر ، ويوجبون الخروج على ائمة الجور ، ويطلبون الحق ، ويحامون عن عقيدة اعتقدوها ، وان اخطأوا فيها .. اما معاوية : فلم يكن يطلب الحق ، ولا يحامي عن اعتقاد ، بل كان همــه توطيد الملك ، حتى سلك الى ذلك كل سبيل .. (١٠٠) .

وبينما كانت الخوارج تدعو الى المساواة على أساس الدين والعقيدة ، وتزهد فى عرض الدنيا ، عمل الامويون على استرقاق جمهور كبير من المسلمين ، بالعصبيةالقبلية طورا ، وبالاستعباد المالى طورا آخر ، فكانوا يختمون اعناق المسلمين ، من الموالى ، ويوسمونهم كما توســـم الخيل ، علامة لاستعبادهم ، وكانوا يبيعون النـــاس فى الدين ، ان هم عجزوا عن الوفاء به ، كما كان الامر فى الرق عند الرومان ! بل لقد باع الحجاج بعض خصـــوم سلطته السياسيين كما يباع الرقيق .. وعندما جـــاء

---

(٩٩) المصدر السابق جـ ٢٠ ق ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ . و جـ ٢٠ ق ٢ ص ٧٠ ، ٧١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٠ .

(١٠٠) (شرح نهج البلاغة) جـ ٥ ص ٧٨ ، ٧٩ ، ١٢٩ .

مسلم بن عقبة ، والى المدينة ، ليأخذ بيعة أهلها ليزيد بن معاوية ، جعلهم يبايعون ــ فى مسجد رسول الله ــ « على ان كلا منهم عبد قن لامير المؤمنين يزيد بن معاوية ! » ولم يستثن من ذلك الا الحسين بن على الذى بايعه على أنه أخوه وابن عمه ! (١٠١) .

وجدير بنا أن نتنبه الى أن هذا التقييم هــو تقييم سياسى ، لدولة سياسية ، نبع من أسباب سياسية ، فنقطة انطلاق المعتزلة فى ادانتهم للدولة الامــوية هى اغتصاب الامويين للسلطة ، وتحويل الخلافة من خــلافة شوروية الى ملك وراثى عضود ارتكبوا فى ظله ما يرتكبه الملوك وصنعوا ما يصنعه الجبارون ..

فلم يكن خلاف المعتزلة مع بني أمية على توحيد الله أو نبوة رسوله ، اذ هم يقولون : « ان الملوك من بنى أميــة ما كانوا ملحدة ولا زنادقة ولا اعداء لرسول الله ، بل كانوا على ملة الاسلام ، ويحبون رسول الله ودينه ، ويبرؤون من أعدائه » .. ثم يحدد المعتزلة نقطة الخلاف ، فيقولون عن هؤلاء الملوك : « ولكنهم شابوا ذلك بحب الدنيــا ، وايثار العاجلة ، وقتل من يأمرهم بالقسط من الناس ، وغير ذلك من الكبائر والمناكير التى ارتكبوها .. »

وهم لا يبخســون معاوية حقه فى العمل الذى نهض به فى الدولة ، قبل اغتصابه السلطة ، فيعترفون بأن«معاوية قد استعمله رسول الله ، واستعمله غير واحــد من الخلفاء بعده على ثغور الروم ، فضبطها ، وفتح الفتوح ، وغزا معه فى تلك المغازى خلق كثير من المهاجــرين

---

(١٠١) المصدر السابق . جـ ١٥ ص ٢٤٢ .

والانصار والبدريين ، وكانت فيه عفة عن أموالهم . وكان عمر كثير التصفح لاحوال العمال والاستبدال بهم ، فما وجد عليه ولا استبدل به . فلما مضى عثمان كان من أمر معاوية ما كان من الخلاف على أمير المؤمنين « على » .. فأحبط عمله ، وضل ضلالا بعيدا .. » (١٠٢) .

فهو تقييم سياسي ، من منطلق سياسى ، يراهم ملوكا وولاة وأمراء ، فسقة ، فقدوا شرط العدالة ، ومن ثم فان الخروج عليهم ، والثورة ضدهم ، عند التمكن . واجب على المسلمين ..

ذلك هو تقييم المعتزلة لدولة بنى أمية .

***

ولم تكن نشأة هذا التقييم تالية ولا مصاحبة لانشقاق المعتزلة عن أصحاب الحسن البصرى وعامة الذين شاركوهم القول بالعدل والتوحيد ، أى أن هذا التقييم ، الذى يرى عدم صلاح الامويين للحكم ، لم يكن خاصا بمن قال « بالمنزلة بين المنزلتين » ، لاننا نجد الحسن البصرى - وهو الذى يقول بنفاق مرتكب الكبيرة - يقف من الدولة الاموية موقف النقد والاتهام والعداء ، وان اختلف مع بعض المعتزلة فى الموقف من بعض الثورات التى شبت ضد الامويين ، والتى أيدوها وتحفظ الحسن بشأن تأييدها ونصرتها .. أما العداء للسلطة الاموية ؛ والقول باغتصاب الامويين للسلطة ، وتحويلهم لها من خلافة الى ملك ، وادانة ظلمهم ، وفضح مظالمهم ، فالحسن

---

(١٠٢) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

وعامة من قال بالعدل والتوحيد يتفقون فيها مع المعتزلة كل الاتفاق ..

فهو يرى أن الذى « أفسد أمر هذه الامة اثنان : عمرو ابن العاص ، يوم أشار على معاوية برفع المصاحف ، والمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد ، ولولا ذلك لكانت شورى الى يوم القيامة » (١٠٣) ... فيتفق مع المعتزلة ، أو يتفق معه المعتزلة فى ادانة اغتصاب السلطة ، وتغيير شكلها ومضمونها على يد الامويين .

وهو يدين معاوية عندما يقول : « أربع خصال كن فى معاوية لو لم تكن فيه الا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الامة بالسيف حتى اخذ الامر من غير مشورة : وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه بعده ابنه ، وادعاؤه زيادا ، وقتله حجرا واصحاب حجر . فيا ويلا له من حجر ، يا ويلا له من حجر وأصحاب حجر !! » (١٠٤) .. فيشخص انتقال السلطة الى بنى امية نفس التشخيص الذى يراه المعتزلة ..

وهو يدين الفئة من الفقهاء الذين حسنت علاقتهم بنى أمية ، فالتمسوا لها مايبرر مظالمها وفسوقها ، بينما شغلوا أنفسهم وأرادوا أن يشغلوا الناس بالبحث فى توافه المسائل وصغائر الامور ، ويدين معهم بنى أمية سادتهم : فعندما يأتيه وكيع بن أبى الاسود ليسأله : « يا أبا سعيد

---

(١٠٣) (النظريات السياسية الاسلامية) ص ٦٨ (والمرجع ينقل عن (تاريخ الخلفاء) للسيوطى . ص ٧٩) .

(١٠٤) المرجع السابق . ص ٦٨ ، ٦٩ (والمرجع ينقل عن تاريخ ابن الاثير ج ٣ ص ٢٠٩) .

ماتقول فى دم البراغيث يصيب الثوب ، ايصلى فيه ؟ » يجيب الحسن ، على مسمع من اصحابه فيقول :«ياعجبا ممن يلغ في دماء المسلمين كأنه كلب ، ثم يسأل عن دم البراغيث !! » وعند ذلك ينهض وكيع فيغادر مجلس الحسن « يتخلج (١٠٥) فى مشيته كتخلج المجنون »فيشيعه الحسن ، مشيرا اليه ، بقوله : « ان الله فى كل عضو منه نعمة فيستعين بها على المعصية . اللهم لا تجعلنا ممن يتقوى بنعمتك على معصيتك ! » (١٠٦) .

وهو يرسم صورة لملوك بنى امية وعمالهم وولاتهم على البلاد ، وما استأثروا به من الترف الى درجة التخمة ، وما امتازوا به من المجافاة لخلق الاسلام ، فيقول ، بعد أن تلا قول الله سبحانه : « انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال .. (١٠٧) الآية ، يقول : «ان قوما غدوا فى المطارف (١٠٨) العتاق ، والعمائم الرقاق، يطلبون الامارات ، ويضيعون الامانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه فى عافية ، حتى اذا اخافوا من فوقهم من أهل العفة ، وظلموا من تحتهم من أهل الذمة ، أهزلوا دينهم، واسمنوا براذينهم (١٠٩) ، ووسعوا دورهم ، وضيقوا قبورهم ، ألم ترهم قد جددوا الثياب ، وأخلقوا الدين ؟! يتكىء احدهم على شماله ، فيأكل من غير ماله ، طعامه غصب ، وخدمه سخرة ، يدعو بحلو بعد حامض ، وبحار

---

(١٠٥) يتحرك ويتمايل حركة المضطرب .

(١٠٦) (الحيوان) جـ ١ ص ٢٢٥ .

(١٠٧) الاحزاب : ٧٢ .

(١٠٨) هى الاثواب من الخز ، تزينها أعلام .

(١٠٩) دواب الحمل .

بعد بارد ، ورطب بعد يابس ، حتى اذا أخذته الكظة ، تجشأ من البشم (١١٠) ، ثم قال : ياجارية ، هاتي حاطوما (١١١) يهضم الطعام ! يا أحيمق ! لا والله ، لن تهضم الا دينك . أين جارك ؟! أين يتيمك ؟! أين مسكينك أين ما أوصاك الله ، عز وجل ، به ؟! .. » (١١٢) .

وعندما يتسلط الحجاج على العراق ، ويبدا فيه سيرته الشهيرة بجعلبته الاشهر ، ياخذ الحسن في نقده وذمه ، ولا يكف عن ذلك ابدا ، فيقول فيه : « مازال النفاق مقموعا حتى عمم الحجاج عمامه ، وقلد سيفا ! ... فعد اتانا اعيمش اخيفش ، له جميمة يرجلها ، وأخرج الينا بنانا قصارا والله ماعرق فيها عنان في سبيل الله ، فقال: بايعوني ، فبايعناه ، ثم رقى هذه الاعواد — « المنبر » — ينظر الينا بالتصغير ، وننظر اليه بالتعظيم ، يامرنا بالمعروف ويجتنبه ، وينهانا عن المنكر ويرتكبه !.. » ..

ولما بنى الحجاج قصره المسمى « بالخضراء » بمدينة « واسط » دعا الناس كي يطوفوا بالقصر ويدعوا له بالبركة ، فخرج الحسن مع من خرج ، ولكنه أراد أن يسب الحجاج على الملأ ، ثم خشى بطش جنده وانتقامه ، فغادر المكان عائدا الى البصرة ، وهو يقول : « لقد نظرنا يا أخبث الاخبثين ، وافسق الفاسقين ، فأما اهل السماء فمقتوك ، وأما أهل الارض فغروك . ثم قال : ابى الله تعالى للميثاق الذى اخذه على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه .. » (١١٣) .

---

(١١٠) التخمة .

(١١١) أى هاضوما يهضم الطعام .

(١١٢) (امالى المرتضى) ق ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(١١٣) المصدر السابق . ص ١ ص ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

وهو يرفض احتجاج ولاة بنى أمية بأن مايقترفونه من آثام انما هى بحق الطاعة التى لزمتهم للخلفاء والبيعة التى لهم فى أعناق الولاة .. فعندما قدم عمر بن هبيرة ، والى على العراق : من قبل يزيد بن عبد الملك استدعى الشعبى والحسن البصرى للقائه بمدينة « واسط » ،وقال لهما : « ان يزيد بن عبد الملك عبد أخذ الله ميثاقه ، وانتجبه لخلافته ، وقد أخذ بنواصينا ، واعطيناه عهودنا ومواثيقنا وصفقة أيدينا ، فوجب علينا السمع والطاعة ، وانه يعثنى الى عراقكم ، غير سائل اياه ، الا أنه لا يزال يبعث الينا فى القوم تقتلهم ، وفى الضياع نقبضها ، أو فى الدور نهدمها ، فنوليه من ذلك ما ولاه الله ! فما تريان ؟ » .

ويروى الرواة أن الشعبى اجاب جوابا فيه بعض اللين، أما الحسن فانه قال له : « ياعمر ، انى أنهاك عن الله أن تتعرض له ؛ فان الله مانعك من يزيد ، ولا يمنعك يزيد من الله . أنه يوشك أن ينزل اليك ملك من السماء ، فيستنزلك من سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك ، ثم لا يوسعه عليك الا عملك . ان هذا السلطان انما جعل ناصرا لدين الله ، فلا تركبوا دين الله وعباد الله بسلطان الله ، تذلونهم به ، فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق جل وعز ! » (١١٤) .

ولقد كان يرى أن ملوك بنى أمية وولاتهم قد أذهبوا آخرتهم بدنياهم ، وأنهم مفلسون يوم القيامة من الحسنات والطيبات ، فعندما يسأله رجل قد تحرج من أخذ عطائه

(١١٤) المصدر السابق . ق ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

من هذه السلطة : « يا أبا سعيد ، آخذ عطائي ؟ أم أدعه حتى آخذه من حسناتهم يوم القيامة ؟؟ » يجيبه الحسن: « قم ، ويحك ! خذ عطاءك ، فان القوم مفاليس من الحسنات يوم القيامة ! » (١١٥) .

وعندما كان البعض يحاول وقف حملة الانتقادوالهجوم على بني أمية ، بدعوى أن ذلك نوع من « الغيبة » التى نهي عنها الله في قوله سبحانه : « ايحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ! » (١١٦) ، كان الحسن يرفض ذلك القول ، ويعلن أن المقام مختلف ، لانه « ليس للفاسق المعلن غيبة ، ولا لاهل الاهواء والبدع غيبة ، ولا للسلطان الجائر غيبة ! » (١١٧) ، فيفتح للناس ، بفتواه هذه ، باب النقد والتجريح في بني أمية والفسقة والمبتدعة من الامراء والولاة والعمال ..

كان هذا هو موقف الحسن البصرى من الدولةالاموية، نقدها ، وادانها ، واطلق في ملوكها وأمرائها ، ومظالمهم ، لسانه الذي كان من أمضي أسلحة عصره ، لما كان له من المكان الذي تفرد به وانفرد عن الاقران والانداد ..

ولقد أصاب الحسن من بني أمية ما أصاب الذين عارضوا حكمهم واستبدادهم بالامر .. فحاربوه في رزقه، ومنعوا عنه عطاءه حتى اعاده اليه عمر بن عبد العزيز(١١٨) واضطرته مطاردتهم له وطلبهم اياه الى الاختفاء عن أهله ومنزله ، حتى لقد ماتت ابنته وهو متوار ، فلم يستطع

---

(١١٥) المصدر السابق . ق ١ ص ١٥٩ .
(١١٦) (أمالي المرتضى) ق ١ ص ١٦٠ .
(١١٧) المصدر السابق . ج ٧ ق ١ ص ١٤٨ .
(١١٨) الحجرات ق ١٢ .

ان يحضر الصلاة عليها ودفنها ، ويروى ذلك « ثـابت البناني » فيقول : « ماتت ابنة للحسن ، وهو متوار ، فأتيته ، فقال : افعلوا كذا ، وافعلوا كـذا .. واذا اخرجتموها فمروا محمد بن سيرين يصل عليها ! »(١١٩)

ولكن « معارضة » الحسن للدولة الاموية لم تصـل الى حد « الثورة » عليها ، والدعوة « للخروج » بالسيف والقوة ضد ولاتها وامرائها .. وهنا موطن من مـواطن خلافه مع نفر من المعتزلة ونفر آخر ممن قال بالعـدل والتوحيد .. فهو قد وقف عند حد « المعارضـة » و « النقد » و « الادانة » ، ورفض « الثـورة » و « الخروج » و « السيف » ، بل ونهى الناس عن سلوك سبيلها فى التغيير .. فهو لم يدع الى « الرضا » بحكم الامويين ، ولم يطلب « الاستكانة » لهم ، وانما طلـب السعى للتغيير ، ولكن عن غير طريق « الثورة والسيف والخروج والقتال » .. فهو قد ولى القضاء فى ظـل الدولة الاموية ، ولكنه لم يأخذ على قضائه أجرا .. (١٢٠) وفى الوقت الذى دعا فيه كثير من أهل العدل والتوحيد، والمعتزلة كلهم ، الى الثورة والسيف لتغيير الدولة الاموية رفض الحسن ذلك ..

ولقد كانت مكانة الحسن ، التى لم تبلغها مكانة أحد من معاصريه ، تجعل من موقفه المعادى للثورة والخروج عقبة كبيرة فى طريق الذين اعلنوا الثورة ضد الامويين ..

ففى ثورة عبد الرحمن بن الاشعث « ٨٥ هـ ٧٠٤ م »

---

(١١٩) (طبقات ابن سعد) جـ ٥ ص ٢٥٦ .

(١٢٠) المصدر السابق . جـ ٧ ق ١ ص ١١٦ ، ١٢٥ .

ضد الحجاج وعبد الملك بن مروان ، شارك نفر من أهل العدل والتوحيد ، بل وشارك فيها أخو الحسن : سعيد بن أبي الحسن ، كما شارك فيها الجعد بن درهم، ولكن الحسن نهى الناس عن الخروج مع ابن الاشعث ، ولما طالت أيام الثورة دون أن تحقق نصرا حاسما ، ذهب نفر من تلاميذ الحسن ـ الذين ثاروا ـ اليه يدعونه لتأييدها ، وقالوا له : « يا أبا سعيد ، ماتقول في قتال هذا الطاغية ـ « الحجاج » ـ الذى سفك الدم الحرام ، وأخذ المال الحرام ، وترك الصلاة ، وفعل وفعل ؟ فقال الحسن : أرى أن لاتقاتلوه ، فانها ان تكن عقوبة من الله فما أنتم برادى عقوبة الله بأسيافكم ، وان يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .. »فرفضوا قوله ، وخرجوا من عنده يسبونه ويقولون : « تطيع هذا العلج ؟! » ومضوا الى القتال مع ابن الاشعث حتى استشهدوا جميعا !

ولقد طلب الثوار من ابن الاشعث أن يكره الحسن على الخروج معهم ، لان خروجه سيكسب الثورة تأييدا بغير حدود ، وسيجعل الجماهير تقاتل من حوله وتقتل بين يديه كما كان الحال من حول جمل عائشة يوم قتالها لعلي بن أبي طالب ! ، فقالوا لابن الاشعث : « ان سرك ان يقتلوا حولك كما قتلوا حول جمل عائشة فأخرج الحسن ، فارسل اليه فاكرهه » على الخروج .. ولكنه غافلهم ، وفر منهم ، بان القى بنفسه في بعض الانهار « حتى نجا منهم ، وكاد يهلك يومئذ ؟! » .

والامر المؤكد أن الامويين قد استفادوا من موقف الحسن هذا من الثورات التى أشعلها ضدهم ابن الاشعث ويزيد

ابن المهلب ، بالرغم من انه لم يكن يدعو الى تأييد دولتهم .. فلقد سأله سائل : « يا أبا سعيد ، ما تقول فى الفتن ، مثل يزيد بن المهلب وابن الاشعث ؟ فقال : لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء » فسأله واحد من اهل الشام ــ أنصار بنى أمية ــ : « ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟! » فقال : « نعم .. ولا مع أمير المؤمنين ! » .

ولكن ، مهما يكن الامر ، فلقداستفاد الامويون من تخذيل الحسن عن الثورة ، ودعوته للتغيير بواسطة « الصبر والسكينة والتضرع » ... وقوله لمن دعوا الى الخروج على الحجاج : « انه ، والله ، ما سلط الله الحجاج عليكم الا عقوبة ، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع ! .. فلو أن الناس اذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يفرج عنهم ، ولكنهم يجزعون الى السيف ، فيوكلون اليه ، فوالله ما جاءوا بيوم خير قط .. ان الله انما يغير بالتوبة لا بالسيف ! » ..

فهل كان صحيحاأن الحسن اتخذ هذا الموقف خوفا من الحجاج وحبسه ، كما قال له اخوه ؟! » (١٢١) .. ربما .. أم هل كانت معرفته الغزيرة بتاريخ الحروب والفتن والثورات هى التى جعلته يخشاها ، فلقد كان ، كما يروون : « من رؤوس العلماء فىالفتن والدماء »(١٢٢) اى الثورات والحروب ؟؟! ربما ايضا ..

أم هل كانت « نوعية » الثوار وقيادتهم غير جائزة

---

(١٢١) المصدر السابق . ج ٧ ق ١ ص ١١٨ ــ ١٢١ ، ١٢٥ .
(١٢٢) المصدر السابق . ج ٧ ق ١ ص ١٨ .

لرضاه ؟؟ ربما ، كذلك .. فلقد خطب فى الناس ينهاهم عن الخروج فى ثورة يزيد بن المهلب ضد يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ، فقال : « أيها الناس ، ألزموا رحالكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضا .. انه لم تكن فتنة الا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التيه والخيلاء ؛ وليس يسلم منها الا المجهول الخفى والمعروف التقى .. » (١٢٣) .. وهل كان بذلك يعبر عن رأى « الارستقراطية الفكرية » فى الثورة كعمل عنيف يستهوى العامة والجماهير أكثر مما يستهوى الصفوة المستنيرة ، حتى لو أنكرت الظلم والاستبداد ؟؟ ربما كان الامر كذلك أيضا ..

وربما كانت هذه الاسباب ، مجتمعة ، قد لعبت دورا أساسيا فى تشكيل هذا الموقف الذى وقفه الحسن البصرى من الثورة كطريق للتغيير ..

ولكن ثوار عصره قد هاجموا موقفه هذا ، وقالوا : ان مصالحه الخاصة لو أضيرت لهب ثائرا ، قال ذلك مروان ابن المهلب ، عندما خطب فى الناس ، فتحدث عن الحسن دون أن يسميه ، فقال : « لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى يثبط الناس . والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه ! أينكر علينا ، وعلى أهل مصرنا ، أن نطلب خيرنا وأن ننكر مظلمتنا ؟! والله ليكفن أو لانحين عليه مبردا خشنا !. فقال الحسن : والله ما أكره أن يكرمنى الله بهوانه ! فقال ناس من

(١٢٣) (تاريخ الطبرى) جـ ٨ ص ١٥٣ .

أصحاب الحسن : لو ارادك ، ثم شئت لمنعناك !. فقال لهم : فقد خالفتكم اذا الى مانهيتكم عنه ! آمركم الا يقتل بعضكم بعضا مع غيرى ، وادعوكم الى ان يقتل بعضكم بعضا دونى ؟! » (١٢٤) .

فهو ضد القتال والسيف حتى لو كان دفاعا عنه وعن نفسه ! .

ولكن .. مهما تكن الاحتمالات التى حاولنا ان نفسر بها موقف الحسن من الثورة ضد بنى أمية فاننا نشعر انها غير كافية ، ونشعر ان فى موقفه المعادى لثورة ابن الاشعث ويزيد بن المهلب ما يتناقض مع عدائه للدولة الاموية وتقييمه لظالمها ، وهو التقييم الذى تحدثنا عنه ..

ولما كان أمر اهل العدل والتوحيد ــ حتى ذلك التاريخ الذى قامت فيه هذه الثورات ــ كان امرا موحدا ولم يكن انشقاق المعتزلة قد حدث بعد ، فان موقف الحسن هذا يعنى انه كان موقف جمهور أهل العدل والتوحيد ، فبم نستطيع أن نفسره التفسير الذى يطمئن اليه العقل ؟

اننا نقدم لذلك التفسير مفتاحا يتمثل فى تلك العبارة التى ذكرها « ابن سعد » فى طبقاته عندما يقول : «حدثنا شعبة ، قال : قلت لقتادة : عمن كان يأخذ الحسن : انه لا يجيز الخلع الا عند السلطان ؟ قال : عن زياد » .. (١٢٥) .

فهذه العبارة تعنى : أن الحسن كان يقول بخلع الامام

(١٢٤) المصدر السابق جـ ٨ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
(١٢٥) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ١ ص ١١٦ .

الجائر ، ككل أهل العدل والتوحيد ، وكل الخوارج .
ولكنه كان لا يجيز ذلك ، أو بالاصح لا يوجبه ، الا عند السلطان ، أى عندما يكون للثوار سلطان يمكنهم من خلعه وارساء نظام مستقر عادل بدلا من نظامه الجائر .. وهذا هو مبدأ المعتزلة وشرطهم للثورة والخروج لخلع الامام الجائر ، كما أشرنا اليه فى القسم الثانى من هذه الدراسة ..

فلم يقف الحسن اذا من الثورة موقف الرفض المبدئى والمطلق ، ولكنه رفض تلك الثورات التى شهدها عصره ، وقال فيها تلك الاقوال التى اشتبهت على كل الذين سجلوها ورووها .. فهو مع الثورة ، بشرط التمكن من التغيير ، وضدها اذا كانت امكانيات نجاحها وضمانات العدل فى البديل الذى تقدمه غير باعثة على الاطمئنان ..

ولكن موقف الحسن هذا لم يمنع نفرا من أصحابه ، اهل العدل والتوحيد ، وفيهم أخوه ، من الاشتراك فى ثورتى ابن الاشعث ويزيد بن المهلب ، ضد الامويين .. فمعبد الجهمى شارك فى ثورة ابن الاشعث (١٢٦) ، وكان يومها زعيم القائلين « بالقدر » فى البصرة ، وعندما هزمت الثورة حبسه الحجاج ، وحرم عليه الطعام سوى خبز الشعير والملح والكراث ؟! .. ثم قتله .. (١٢٧) ، والجعد ابن درهم شارك فى ثورة يزيد بن المهلب ..(١٢٨)

ولم يكن الحسن البصرى فى موقفه هذا ، من الدولة الاموية ، معبرا عن موقف ذاتى ينفرد به وحده ، بل كان

---

(١٢٦) (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٥٥ .
(١٢٧) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٠ .
(١٢٨) (تاريخ الطبرى) جـ ٨ ص ١٥١ ، ١٥٢ (حوادث سنة ١٠٢ هـ)

موقفه هو موقف تيار أهل العدل والتوحيد ، الفكرى والسياسى . اذ كانوا جميعا على عداء لهذه الدولة . .

فمحمد بن سيرين — وكان تاجر بز — كان لا يتعامل فى تجارته . بيعا أو شراء ، بالدراهم الحجاجية التى ضربها الحجاج بن يوسف ! وذلك تعبيرا عن ادانته لامارة الحجاج ، على نحو ما نسميه فى عصرنا « بالمقاطعة الاقتصادية » ! (١٢٩) . وكان — كالحسن البصرى — وغيره من اهل العدل والتوحيد قد قطعت الدولة عنه العطاء وضيقت عليه سبل الارتزاق (١٣٠) .

وعمرو بن عبيد يقيم امراء الدولة الاموية وحكامها فيراهم عصبة من اللصوص يسرقون حقوق الناس علانية وجبرا ، فلقد مر يوما بجماعة يعكفون على شىء ويتجمهرون من حوله ، فسأل : ماهذا ؟ فقالوا له : انه سارق يقطعون يده ، فقال : لا اله الا الله ، سارق السر يقطعه سارق العلانية (١٣١) !

وهكذا اتفق موقف أهل العدل والتوحيد ، فى تلك المرحلة ، على النقد والادانة للدولة الاموية ، كما اتفقوا على وجوب خلع امراء هذه الدولة وقلب مظالمهم عند التمكن والسلطان . . ولكنهم اختلفوا : حول أهلية ثورات ابن الاشعث وابن المهلب وحظهما من النجاح وضمان العدل فى التغيير . . فحجب عنهما الحسن وفريق تلك الاهلية ، ومن ثم رفض المشاركة فيهما ، وخذل الناس عن الانخراط فيهما . . بينما ظن فريق من أصحابه

(١٢٩) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ١ ص ١٤٧ .
(١٣٠) المصدر السابق . جـ ٥ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
(١٣١) (عيون الاخبار) مجلد ١ ص ٥٦ .

أهلية هاتين الثورتين للتغيير المطلوب ، فشـــارك فيهما واستشهد فى معاركهما .. فهو خلاف فى التقـــدير والحساب داخل معسكر فكرى واحد ، هو معسكر أهل العدل والتوحيد ..

***

والامر الذى يؤكد أن معارضة المعتزلة للدولة الاموية لم تكن تذكيها عوامل قبلية أو عرقية ، وانهــا كانت نابعة من الخلاف الفكرى وتباين المواقف ازاء قضـــية العدل فى الحكم بين الناس ، هو مـــوقف المعتزلة من خلافة عمر بن عبد العزيز « ٩٩ ــ ١٠٢ هـ ــ ٧١٧ ــ ٧٢٠ م » فهذا الخليفة لم يختره المعتزلة ، بل وصل الى منصبه بنظام الوراثة الذى أدانه ويدينه المعتزلة ، ولكنه سلك فى الناس سلوكا كان أشبه مايكون بالثـــورة على أوضاع الامويين ومبراثهم ، فلقد أعاد النظر فى حيـازة امراء بنى أمية للثروة التى انتهبوها منذ أن اســـتبدوا بالخلافة ، فألغى اقطاعاتهم ، وصادر ثرواتهم ، واعادها جميعا الى بيت مال المسلمين ، وكما يقـــول صـــاحب « الاغانى » : انه قد « بدأ بلحمته وأهل بيته ، فأخـذ ما كان فى أيديهم ، وسمى أعمالهم « المظالم » .. » . ولما فزع أمراؤهم وعامتهم ، واتمروا فى الذى حل بهم ، بعثوا اليه عمته فاطمة بنت مروان تطلب اليه الرجـوع عما بدأ فيه ، فأفضى اليها بحديث حدد فيه نهجـــه فى الاموال ، عندما أنبأها أن هذه الثروة هى ثروة عامــة الامة ، وانه لا يحل لاحد ان يحوزها دون أصحابهــا ، الذين هم عامة المسلمين « فالله تعالى بعث محمدا رحمة، لم يبعثه عذابا ، ثم قبضه اليه ، وترك للناس نهــرا

شربهم فيه سواء ، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم ولى عمر فعمل على عمل صاحبه ، فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهرا ، ثم ولى معاوية فشق منه الانهار . ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان ، حتى أفضى الامر الى ، وقد يبس النهر الاعظم ، ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود اليهم النهر الاعظم الى ماكان عليه » !

فلما سمعت عمته مقالته قالت له : « قد أردت كلامك ومذاكرتك ، فأما اذا كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئا ابدا » . ورجعت الى قومها فأنبأتهم النبأ ، وعابت عليهم تزويجهم آل عمر بن الخطاب ، ذلك الزواج الذى أثمر فى الشجرة الاموية من أعاد سيرة عمر بن الخطاب فى الاموال والعدل بين الناس (١٣٢) !

فهو خليفة أموى ، تولى الخلافة بالتوارث الملكى ، ولكنه يقيم تطور العدل والظلم فى الامة ، تاريخيا ، كما يقيمه المعتزلة ، بل والخوارج ، مع اختلاف فى المنطلق والتفاصيل .. ولذلك وجدناه يعلن فى الدولة ما يمكن أن نسميه بمبدأ « السلام العام » .. فهو قد أوقف الفتوح التى كانت قد فقدت صلتها بحرب الدعوة الى الاسلام وحمايتها ، وتحولت الى غزو تجمع به المغانم وتستنفذ به طاقات القبائل حتى لا تثور أو تتمرد ! .. واوقف جباية الجزية ممن دخل فى الاسلام من شعوب البلاد التى فتحها المسلمون .. ثم التفت الى ثورة الخوارج المستمرة ، فطلب الى اصحابها أن يحل « سلام الهدنة » بينهم وبين الدولة ، ريثما يتحاورون ويتناظرون ، فكتب

(١٣٢) (الاغانى) جـ ٩ ص ٣٣٧٥ ، ٣٣٧٦ .

الى زعيم ثورتهم على عهده : شوذب ـ بسطام اليشكرى « انه بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولنبيه ، ولست أولى بذلك منى ، فهلم أناظرك ، فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان فى يدك نظرنا فى أمرنا ! » .. فاستجاب بسطام ، ووضعت الحرب أوزارها ، ودخل ممثلون عن الخوارج الى دمشق يناظرون الخليفة ، وانتهت المناظرة الى أن طلبوا منه خلع يزيد ابن عبد الملك من ولاية العهد بعده ، فلما قال لهم : لقد ولاه غيرى ، قالوا له : أرأيت لو وليت مالا لغيرك ، ثم وكلته الى غير مأمون عليه ، أتراك كنت أديت الامانة الى من ائتمنك ؟! فطلب منهم المهلة ليقرر قراره فى نظام توارث الملك ، أى فى الاساس الذى يقوم عليه حكم الامويين ! (١٣٣) .

ثم التفت الى الاضطهاد الذى كان واقعا على العلويين والهاشميين ، فأوقفه ، ومنع السنة التى سنها معاوية بلعن على بن ابى طالب على المنابر فى المساجد ، حتى مدحه شاعر الشيعة كثير عزة بقصيدة مطلعها :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف
بريا ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذى قلت بالذى
فعلت ، فأضحى راضيا كل مسلم ! (١٣٤)

ثم التفت الى أهل العدل والتوحيد ، فبدأ معهم حوارا تولاه معه غيلان الدمشقى ، الذى قال له : « اعلم

---

(١٣٣) (تاريخ الطبرى) جـ ٦ ص ٥٥٦ (طبعة المعارف ـ أحداث سنة ١٠٠ هـ) .

(١٣٤) (الاغانى) جـ ٩ ص ٣٣٧٨ .

ياعمر ، انك أدركت من الاسلام خلقا باليا ، ورسما عافيا .. وربما نجت الامة بالامام ، وربما هلكت بالامام، فانظر أي الامامين انت ، فانه تعالى يقول : « وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا » (١٣٥) ، فهذا امام هدى ، ومن اتبعه .. واما الآخر فقال تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار » (١٣٦) .. » (١٣٧) .. وانتهى الحوار بان طلب عمر من غيلان أن يضم أهل العدل والتوحيد جهودهم لجهوده ، قائلا له : « أعنى على ما أنا فيه ! »، فقبل غيلان ، وطلب من عمر أن يعهد اليه ببيع الاموال والتحف والنفائس التى صادرها من أمراء بنى أمية — « المظالم » — فكان يدعو الناس اليها قائلا : « تعالوا الى متاع الخونة .. تعالوا الى متاع الظلمة .. تعالوا الى متاع من خلف الرسول فى أمته بغير سنته وسيرته .. من يعذرنى ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى ، وهذا يأكل والناس يموتون من الجوع ؟! » (١٣٨) .

ولقد سأل غيلان يوما عمر بن عبد العزيز : « ان اهل الشام تزعم أنك تقول فى المعاصى : انها بقضاء الله تعالى ؟! فقال : ويحك ياغيلان ! أو لست ترانى أسمى مظالم بنى مروان ظلما ؟! » (١٣٩) .

واراد عمر أن يرد على زعماء أهل العدل والتوحيد أعطياتهم التى حبسها عنهم أسلافه ، فكتب الى رؤوسهم

---

(١٣٥) الانبياء : ٧٣ .

(١٣٦) القصص : ٤١ .

(١٣٧) ابن المرتضى (المنية والامل فى شرح كتاب الملل والنحل) اللوحة ٤٨ . مخطوط مصور بدار الكتب المصرية .

(١٣٨) المصدر السابق . اللوحة ٤٨ .

(١٣٩) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٥ .

بدلك ، فقبل بعضهم ـ مثل الحسن البصرى ـ ورفض بعضهم حتى يكون ذلك الامر عاما فى كل أهل العدل والتوحيد لا خاصا بزعمائهم فقط ! اذ أجابه محمد بن سيرين بقوله : « ان فعل ذلك بأهل البصرة فعلت ، واما غير ذلك فلا ! » وأجاب خارجة بن زيد : « ان لى نظراء . فان أمير المؤمنين عمهم بهذا عمهم ، وان هو خصنى به فانى أكره ذلك له ! » فاعتذر اليهم عمر بأن « المال لا يسع ذلك ، ولو وسعه لفعلت ! » (١٤٠) .

هكذا ساد السلام فى الدولة الاموية ، فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، الذى لم يطل به العمر ، وهكذا تولى وأيد أهل العدل والتوحيد ، لاول مرة ، خليفة من بنى امية ، لم يصل الى منصبه بالاختيار والبيعة والعقد ، وانما وصل اليه بالميراث ، ولكنهم غضوا الطرف عن ذلك ، وقالوا : انه قد أصبح للخلافة أهلا بالعدل الذى اشاعه ، وقال عمرو بن عبيد يشخص ذلك « الوضع الدستورى » الفريد : لقد « أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها ، ولا باستحقاق لها ، ثم استحقها بالعدل حين أخذها ! » .. (١٤١) . وعبر أبو على الجبائى عن تولى المعتزلة ، جيلا بعد جيل ، لعمر بن عبد العزيز ، وتشخيصهم لعلة ذلك التولى فقال : « ان عمر بن عبد العزيز كان اماما ، لا بالتفويض المتقدم ، لكن بالرضا المتجدد من أهل الفضل ! » .. (١٤٢) .

---

(١٤٠) (طبقات ابن سعد) جـ ٥ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ . و جـ ٧ ق ١ ص ١٤٧ .

(١٤١) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ١٥٢ .

(١٤٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٥٠ .

ويشير المؤرخون الى ان بني مروان قد دسوا لعمر بن عبد العزيز السم ، عندما أدركوا عزمه على تغيير نظـــام وراثة العرش والملك ، فلم يلبث بعد طلبه مهلة من ممثلي الخوارج « الا ثلاثا حتى مات » .. (١٤٣) ، وبمـــوته انقضى عهد « السلام العام » في الدولة الاسلامية ، وعادت الحروب الخارجية سيرتها الاولى ، بل أشد من سيرتها الاولى ، وشهد أهل العدل والتوحيد ـ خاصة في عهد هشام بن عبد الملك « ٧١ ـ ١٢٥ هـ ٦٩٠ ـ ٧٤٣ م » ـ اضطهادا لم يسبق لهم به عهد من قبل .. فلقد كان هشام صغيرا عندما سمع غيلان يسب أسلافه وهو ينادى على مظالمهم بدمشق زمن عمر بن عبد العزيز ، فقال يومها . « هذا يعيبنى ويعيب أجدادى ، والله ان ظفـرت به لاقطعن يديه ورجليه » .. فلما ولى الحكم ، طلـــب غيلان ، ففر من دمشق ، ثم وقع في قبضتهم ، فأدخلوه السجن مع صاحب له يدعى « صالح » .. وكانت بطانة مروان وحاشيته حافلة بالعلماء من أصحاب الحديث ، فأفتوه بقتل غيلان وصاحبه .. وبعد مناظرة بين غيلان وبينهم قال هشام : « لا أقالنى الله ان لم أقتله » فأمر به وبصاحبه فرفعا على الصليب عند « باب كيســـان » بدمشق ، ثم قطعت أيديهما ، ثم أرجلهما ، ثم ألسنتهما ، حتى فارقا الحياة ! .. (١٤٤) .

وعم الاضطهاد أهل العدل والتوحيد ، واتخذ لهـــم هشام منفى ينفيهم من الارض اليه في جزيرة « دهلك » ـ

(١٤٣) (تاريخ الطبرى) جـ ٦ ص ٥٥٦ (طبعة المعارف ـ أحداث سنة ١٠٠ هـ) .

(١٤٤) (المنية والامل) اللوحة ٤٨ .

بفتح الدال وسكون الهاء وفتح اللام ـ قرب مصوع(١٤٥) .. وهى جزيرة ببحر اليمن « ضيقة حرجة حارة » يضرب بها المثل فى البعد عن العمـران ، حتى ليقـول الشاعر عن حبيبته :

ولو أصـبحت خلف الثريا لزرتهـا
بنفسى ولو كانت بدهلك دورها (١٤٦) !

ولقد زاد من عداء هشام لاهل العدل والتوحيـد اسهامهم النشط ، بل الاساسى ، فى الثورة التى قادهـا ضده زيد بن على سنة ١٢١ هـ ـ والتى سنتحدث عنها فى الفصل القادم ـ ولقد استمر هـذا النفى وذلك الاضطهاد على عهد الوليد بن يزيد .. وعندما كلمه البعض فى السماح لهم بالعودة الى أوطانهم ، رفض ، واصـر على الالتزام بما فعله فيهم هشام بن عبد الملك ، بل واعتبر هذا العمل « مما ترجى منه المغفرة لهشام !»(١٤٧)

وفى عهدى هشام والوليد بن يزيد أخذ النـاس يستسرون بقول العدل والتوحيد ، فيسأل سائل أبا واثلة اياس بن معاوية : « ما يمنعك ان تصف القول فى القدر، وقد ابصرته ؟ فيقول : قد ، والله ، ناظرت غيـلان ؛ وأبصرت الحق والعدل ، ولكنى أكره ان أصـلب كما صلب ! » (١٤٨) ، ويشهد عمرو بن دينار ، بمكة ، رجلا

---

(١٤٥) فلهوزن (تاريخ الدولة العربية) ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٣٤ . ترجمة د. محمد عبد الهادى أبوريده . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(١٤٦) صفى الدين البغدادى (مراصـد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع) تحقيق على البيجاوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

(١٤٧) (تاريخ الدولة العربية) ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(١٤٨) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٧ .

من أهل العدل والتوحيد تقوده الشرطة الى السجن .
فيسأل : « ما لهذا ؟ فيقول الناس له : يتكلم فى القدر .
فيقول : أليس أضاف الخير الى ربه ، والشر الى نفسه ؟!
قالوا : بلى . قال : فهو أولى بالحق منكم ، فيقولون له:
فما يمنعك أن تتكلم ؟! فيقول : أخشى أن يصنع بى ما صنع
بهذا ! » .. (١٤٩) ، وتظل هكذا حال أهل العـــدل
والتوحيد حتى تقوم ثورتهم التى يقتلون فيها الوليد بن
يزيد ، ويرفعون بها الى منصب الخلافة خليفة منهم هو
يزيد بن الوليد سنة ١٢٦ هـ .

---

(١٤٩) المصدر السابق . ص ٣٢٣ .

الفصل الثالث

حقبة الثورة على بنى أمية

فى بدايات العقد الثالث من القرن الثانى الهجرى بدات ثورات المعتزلة ضد حكم الامويين وبالتحديد فى سنة ١٢٢ هـ .. وكانت معارضتهم قبل ذلك لم تتعد النقد والرفض والادانة .. أما حقبة الثورة هذه فهى التى بدات بثورة زيد بن على ضد هشام بن عبد الملك سنه ١٢٢ هـ .

ولقد كانت ثورة زيد بن علي – وهو راس الشيعة الزيدية بعد ذلك – اولى ثورات المعتزلة ، كما كانت ثورة اعتزالية خالصة ، وذلك لانه لم تكن هناك فى ذلك التاريخ فرقة زيدية ، بالمعنى الذى حدث ووجد بعد ذلك .. وانما كان هناك – من فرق المعارضة – خوارج ، وشيعة امامية يتزعمهم جعفر الصادق ، اتحدوا الامامة امامة دينية ، ورفضوا طريق الثورة بالخروج على بنى امية ، فى انتظار ان يأذن الله بزوال ملكهم ، ولم يروا الثورة طريقا لزوال هذا الملك .. وكانت هناك المعتزلة يتزعمها فى العراق واصل بن عطاء ، وفى الشام غيلان الدمشقى ...

وكان زيد بن على أحد فتيان آل البيت الذين اعتنقوا مذهب المعتزلة ، وتتلمذ على يدى واصل بن عطاء

عندما ذهب الى المدينة يبشر بالاعتزال .. وكان لزيد اخ هو محمد الباقر ، وكان أخوه الباقر وجعفر الصادق ـ « ابن الباقر » ـ على خلاف معه بسبب دخوله فى الاعتزال .. ولم تكن نقطة الخلاف الجوهرية بين زيد وبين جعفر هى قضية العدل والتوحيد ، فلقد كانوا فيها متفقين ، على وجه الاجمال ، وانما كان الخلاف حول قضية الثورة والخروج .. فالمعتزلة يوجبون الخروج المسلح والثورة على أئمة الجور ، بينما جعفر وانصاره ينكرون ذلك ، ويحذر جعفر انصار الثورة من آل البيت فيقول لهم : « ان بنى أمية يتطاولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها ! وهم يستشعرون بغض أهل البيت ، ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم ! » (١٥٠) .

ولكن فتيان أهل البيت وشبابهم قد بدأ يتبلور فيهم تيار ثورى ، يرفض تحول الامامة على يد جعفر الصادق الى عقيدة روحية ، ويستنكف الخنوع لمظالم الامويين ، وفريق من هذا التيار انفصل عن الامامية ، فيما بعد ، وكون الحركة الاسماعيلية ، التى نهجت نهج المقاومة بالثورة (١٥١) ، والفريق الآخر انضم الى المعتزلة يقوده زيد بن على زين العابدين ..

ومما يؤكد ان هذا الانشقاق فى صفوف أهل البيت كانت قضية الموقف من الثورة والخروج هى سببه الاول والاساسى ، ذلك الاعتراض الذى أثاره محمد الباقر فى

(١٥٠) (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٨٥ .
(١٥١) (أصول الاسماعيلية) ص ١٠٦ ، ١١١ .

وجه أخيه زيد بن على عندما قال له أن متابعته لمذهب واصل بن عطاء فى الخروج والثورة ، وقوله بأن ذلك هو طريق الامامة ، ينفى عن أبيهم على زين العابدين صفة الامامة ، وبعبارة الباقر لزيد : انه « على قضية مذهبك، والدك ليس بامام ، فانه لم يخرج قط ، ولا تعرض للخروج .. » ... (١٥٢) . ولقد كان هذا هو بالفعل مذهب واصل ، فلم يكن يرى فى الامامة الروحية المهمة الحقيقية للامام ..

ولقد كان المعتزلة ، وفيهم هذا الفريق الثائر من اهل البيت ، بزعامة زيد بن على ، يتهمون جعفرالصادق وأنصار الامامة الروحية بالضعف والخوف من تبعات الثورة ، والركون الى حياة الدعة والهدوء ، والاشتغال بأمور الدنيا والكلف بها .. ولقد دارت مناظرة بين الفريقين شارك فيها واصل وزيد وجعفر الصادق ، .ذلك عندما ذهب واصل الى المدينة ، ونزل بمنزل على ابن ابراهيم بن أبى يحيى ، وعقد مجلسا حضره نفر من أهل البيت الذين انخرطوا فى مذهب الاعتزال ، وفيهم: عبد الله بن الحسن ــ وهو والد محمد وابراهيم ، اللذين سيقودان ثورتين من ثورات المعتزلة ضد بنى العباس ــ وأخوة عبد الله بن الحسن ، وزيد بن على ، ومحمد بن عجلان ، وأبو عباد اللهبى .. وغيرهم ... ولقد جاءهم جعفر الصادق مع فريق من أنصاره . وفى المناظرة بينهما قال جعفر لواصل مشيرا الى ذلك الانقسام الذى حدث فى صفوف أهل البيت بدخول فريق من أبنائه الاعتزال : « .. انك ، ياواصل ، أتيت

---

(١٥٢) (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ .

بأمر تفرق به الكلمة ، وتطعن به على الائمة ! » فـرد عليه واصل بكلام جاء فيه : « .. انك ، ياجعفر ، وانى الهمة ، شغلك هم الدنيا ، فأصبحت بها كلفا ، ومـا اتيناك الا بدين محمد .. فان تقبل الحق تسعد به ، وان تصدف عنه تبوء بائمك .. ! » .. وشارك زيد ابن على فى المناظرة فأغلظ القول لجعفر ، وقال له فيما قال : « ... انه مامنعك من اتباع واصل الا الحسد لنا ! » (١٥٣) .

فهذا الفريق من أهل البيت ، هم اذن معتزلة ، ولم تكن للزيدية فرقة ولا مذهب فى ذلك التاريخ ، ومن ثم فان ثورة زيد بن على هى ثورة معتزلية لحما ودما .. ولقد ظل امر ماسمى بعد ذلك بالزيدية هكذا زمنا طويلا . فزيد قد « اقتبس الاعتزال من واصل بن عطاء ، وصارت أصحابه كلها معتزلة » ... (١٥٤) ، وابنه يحيى كان من قبل ثورة أبيه ومن بعدها ، وقبل خروجه هو وحتى صلبه فى خراسان على مذهب المعتزلة ، وقبل أن يصلب « فوض الامر بعده الى محمد وابراهيم » ابنى عبد الله بن الحسن (١٥٥) ، وهم معتزلة كذلك .. بل لقد ظلت الزيدية ، حتى بعد تبلورها كفرقة ، معتزلية فيما يتعلق بالاصول ، وكما يقول الشهرستانى : فانهم « فى الاصول يرون رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة (١٥٦) ، ويعظمون ائمة الاعتزال

---

(١٥٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٥ و (باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والامل ص ٢٠ ، ٢١) .
(١٥٤) (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٨٣ .
(١٥٥) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٨٥ .
(١٥٦) القذة : ريشة السهم .

أكثر من تعظيمهم ائمة اهل البيت .. ! » (١٥٧) .. اى ائمة الشيعة الامامية . ومن هنا يصبح القول بأن الزيدية قد « سبقوا المعتزلة فى الظهور ، سواء على مسرح السياسة أو فى ميدان المعتقدات » (١٥٨) هو قول بين الشذوذ !!

وكان الفريق القاعد من أهل البيت يعترض على زيد بن على بأن ثورته وطلبه البيعة بالامامة له فيها اغتصاب الامامة من أخيه محمد الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق ، فنفى ذلك الاتهام بأن الباقر لم يدع الامامة لنفسه ، ولم يدعها أبوهما على بن الحسين ، زين العابدين لان الامامة لمن يحارب ائمة الجور لا للقاعدين عن الثورة والقتال ، وفى ذلك يقول زيد : « هؤلاء يقولون : حسدت اخى وابن اخى ، احسد أبى حقا هو له ؟ لبئس الولد أنا من ولد ! انى لكافر أن جحدته حقا هو له من الله ؛ ما ادعاها على بن الحسين ولا ادعاها أخى محمد بن على منذ أن أصبحت حتى فارقنى .. ! » (١٥٩) .

وكان بدء ثورة زيد بن على بالكوفة ضد هشام بن عبد الملك ليلة الاربعاء لسبع بقين من المحرم سنة ١٢٢هـ ، وكان البعض يجادله فى سبب خروجه على الامويين ، ويقولون له : اذا كان أبو بكر وعمر قد استأثرا بالخلافة دون أهل البيت ، ومع ذلك فانت لا تبرأ منهما ، وتتولاهما ،

(١٥٧) (الملل والنحل) جـ ١ ص ١٦٢ (طبعة القاهرة ، بتحقيق محمد سيد كيلانى ، سنة ١٩٦١ م) .
(١٥٨) (ثورة زيد بن على) ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
(١٥٩) المرجع السابق . ص ١٤٢ (والمرجع ينقل عن (الحور العين) ص ١٨٨) .

وتترحم عليهما ، فماذا فعلت بنو أمية أكثر من ذلك ؟!
فكان يجيب : « ان هؤلاء ليسوا كأولئك ، ان هؤلاء ظالمون لى ولكم ولانفسهم ! » (١٦٠) .

وكان نص البيعة التى بايعه الناس عليها يقول : « انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ، ورد الظالمين ، واقفال المجمر (١٦١) ، ونصره اهل البيت على من نصب لهم وجهل حقهم .. (١٦٢) .

وكان زيد يقول للناس : « انه لو لم أكن الا أنا وابنى لخرجت على هشام .. فليس الامام منا من أرخى عليه ستره ، وانما الامام من شهر سيفه ..! » (١٦٣) .

ولقد شاركت العامة فى هذه الثورة الاعتزالية ، لانها لم تخش العقوبات الاقتصادية التى هدد بها هشام بن عبد الملك الثوار ، فلقد كتب هشام الى عامله على الكوفة يوسف بن عمر يقول له : « .. فادع اليك اشراف أهل المصر ، وأوعدهم العقوبة فى الابشار واستصفاء الاموال، فان من له عقد أو عهد منهم سيبطىء عن زيد ، ولا يخف معه الا الرعاع ، وأهل السواد ، ومن تنهضه الحاجة ، استلذاذا للفتنة .. فبادهم بالوعيد ، وأعضضهم

---

(١٦٠) (تاريخ الطبرى) جـ ٨ ص ٢٧٢ (أحداث سنة ١٢٢ هـ) .

(١٦١) يقال : جمر الامير الجند ، أى ابقاهم فى ثغر العدو ولم يرجعهم الى أوطانهم .

(١٦٢) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ١٧٢ (طبعة المعارف ـ أحداث سنة ١٢١ هـ) .

(١٦٣) (ثورة زيد بن على) ص ١٠٤ ، ١٤١ .

بسوطك ، وجرد فيهم سيفك ، وأخف الاشراف والاوساط قبل السفلة ! » (١٦٤) .

ولقد أفلحت خطة هشام هذه مع الثوار ، فانصرف عن زيد من بايعه من الاشراف ، الذين خافوا على اموالهم أن يستصفيها هشام ، ثم أرادوا تبرير تكوصهم عن الثورة ونكثهم بيعة زيد ، فقالوا : ان الامامة كانت فى على بن الحسين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم ابنه جعفر الصادق ، ولذلك فنحن نرفض امامة زيد ، لانه لا حق له فيها ، قالوا ذلك ليموهوا على الناس ، وهم انما رفضوه « لما بلغهم أن سلطان الكوفة يطلب من بايع زيدا ، ويعاقبهم ، فخافوا على انفسهم ، وخرجوا من بيعة زيد ، ورفضوه مخافة من هذا السلطان » (١٦٥) ... فسماهم زيد « بالرافضة » ، وجرت هذه التسمية على الامامية ، فى بعض الدوائر ، منذ ذلك التاريخ .. ولقد كان خذلان الرافضة لثورة زيد بن على سببا فى فشلها بعد يومين من القتال ضد جيش هشام ، مما جعل الزيدية ، بفرقها وفروعها يرددون دائما قولهم : « أن الرافضة أضر علينا وانكأ فينا من الحرورية ــ « الخوارج » ــ وبنى امية الذين ولغوا فى دمائنا ! » (١٦٦) .

ولقد قاتل زيد بن على بشجاعة الائمة وعزم الثوار ، وكان يتمثل ، وهو مقبل على الموت بقول الشاعر :

أذل الحياة وعز الممات

وكلا أراه طعاما وبيلا

---

(١٦٤) (تاريخ الطبرى) جـ ٨ ص ٢٢٦ . (احداث سنة ١٢١ هـ) .

(١٦٥) يحيى بن الحسين (رسائل العدل والتوحيد) جـ ٢ ص ٨١ . دراسة وتحقيق محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

(١٦٦) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٣٥ .

فان كـــان لابد مـــن واحـــــد
قسيروا الى الموت سيرا جميلا (١٦٧) !

ولما قتل ، دفنه أصحابه سرا ، ثم اكتشف الامويون مدفنه ، فنبشوا قبره ، وصلبوه ، واحتزوا راســـه فبعثوا بها الى هشام بن عبد الملك ، حيث نصبت على باب دمشق ، ثم طيف بها فى المدن الكبرى ، مثـــل المدينـة ومصر ، زجرا للثوار .. ثم احرقت جثته والقى رماده فى نهر دجلة (١٦٨) !

ولقد ظلت المعتزلة تذكر زيدا كواحد من أئمتها « لانه كان صالحا للامامة ، لما أوتيه من الصلاح والعلم والفضل ، ولانه قد بايعه فريق من أهل العلم والفضل ، فيجب أن يكون اماما » (١٦٩) ..

بل لقد بكته الخوارج ، ورثوه ، وأسفوا على فشـل ثورته ، ونعوا على الرافضة خذلانهم له ، وقال شاعرهم حبيب بن جدرة الهلالى ، يرثيه ويصف غـــدر أهـل الكوفة به :

يا أبا حســـين ، والامور الى مـــدى
أولاد درزة اســـلموك وطـــاروا
يا أبا حســين ، لو شـــراة عصـابة
علقتك كـــان لوردهم اصدار (١٧٠) !

اما ابنه يحيى فلقد قال ، يرثى أباه ، ويستنهض الناس لثورة ثانية :

---

(١٦٧) (عيون الاخبار) مجلد ١ ص ١٩١ .
(١٦٨) أنظر احداث هذه الثورة مفصلة فى كتاب (ثورة زيد بن على) .
(١٦٩) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٤٩ .
(١٧٠) (ثورة زيد بن على) ص ١٢٧ .

خليلي ، عني بالمدينة بلغا
بني هاشم أهل النهى والتجارب
فحتى متى مروان يقتل منكم
خياركم ، والدهر جم العجائب
وحتى متى ترضون بالخسف منهم
وكنتم أباة الخسف عند التجارب
لكل قتيل معشر يطلبونه
وليس لزيد بالعراقين طالب (١٧١) !

ثم انسحب يحيى بن زيد ببقايا الثوار الذين نجوا من القتل ، الى خراسان ، فأقام بالجوزجان « منكرا للظلم وما عم الناس من الجور ».. وفي أواخر سنة ١٢٥ هـ أو أوائل سنة ١٢٦ هـ — على خلاف في ذلك — أعلن الثورة على الوليد بن يزيد ، — وكان أمير خراسان نصر بن سيار — وبعد معارك عديدة دخلها مع أنصاره من المعتزلة والثائرين من أهل البيت ضد جيش الوليد الذي قاده سلم بن أحوز المازني ، قتل يحيى بن زيد ، وفعل الامويون بجسده فعلهم بجسد أبيه ، اذ احتزوا رأسه فبعثوا بها الى الوليد بن يزيد ، وصلبوا جسده بالجوزجان ، فظل على صليبه حتى قامت ثورة أبي مسلم الخراساني ، فأنزل جثته وصلى عليها ووارى عظامه في قبره هناك .. وكما يقول المسعودي : ان أهل خراسان قد انفجر حزنهم على يحيى بن زيد ، وفي العام الذي دالت فيه دولة بني أمية لم يولد بخراسان مولود الا وسماه أبواه يحيى أو يزيد ؟! .. (١٧٢) .

(١٧١) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ١٣٩ .
(١٧٢) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ١٦٧ .

وبعد عام من فشل ثورة يحيى بن زيد ، خرج بالكوفة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب في محرم سنة ١٢٧ هـ .. وذلك فى عهد مروان بن محمد، فحاربه عامل مروان عبد الله بن عمر ، فهزمه .. وفى هذه الثورة كان المعتزلة والزيدية معا فى القتال ضد الامويين . فالطبرى يذكر فيمن بايع عبد الله بن معاوية اسم «منصور ابن جمهور» ، وهو من قادة أهل العدل والتوحيد الذين برزوا فى الثورة ضد الوليد بن يزيد ـ التى سنتحدث عنها بعد قليل ـ ويذكر أن خروج عبد الله بن معاوية كان مع الزيدية (١٧٣) ، وكما قلنا فلقد كانت الزيدية أسما يطلق على فريق أهل البيت الذين انشقوا عن امامة جعفر بن محمد ، واختاروا طريق الثورة على طريق الامامة الدينية والروحية ، وانضموا لذلك الى الاعتزال ..

وهكذا شهدت العراق وخراسان ثلاث ثورات قام بها المعتزلة ضد الحكم الاموى فى المدة من سنة ١٢٢ حتى سنة ١٢٧ هـ .. قاد الاولى : زيد بن على « سنة ١٢٢هـ» والثانية : يحيى بن زيد « سنة ١٢٦ هـ » ، والثالثة : عبد الله بن معاوية « سنة ١٢٧ هـ » .

***

أما فى الشام ، حيث مقر الخلافة الاموية ، فقد حدثت فى سنة ١٢٦ هـ أكثر المحاولات الثورية الاعتزالية توفيقا ونجاحا ضد الامويين ، وذلك عندما نجحت ثورتهم ضد الوليد بن يزيد ، فقتلوه فيها ، ونصبوا بدلا منه

---

(١٧٣) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ (طبعة المعارف) و جـ ٩ ص ٤٨ ـ ٥٢ (الطبعة الاولى) (أحداث سنة ١٢٧ هـ) .

خليفة معتزليا امويا هو يزيد بن الوليد « ٨٦ ـ ١٢٦ هـ ٧٠٥ ـ ٧٤٤ هـ م » ..

كان اختلال حال الدولة الاموية قد قارب بها على دور الانهيار ، وذلك عندما انتقل خليفتها الوليد بن يزيد « ٨٨ ـ ١٢٦ هـ ٧٠٧ ـ ٧٤٤ م » بالفسق والفجور والمجون ، بل والزندقة من دور الاسرار الى دور الجهر والاعلان ، فلقد كان ـ كما يقول ابن قتيبة ـ : « ماجنا سفيها ، يشرب الخمر ، ويقطع دهره باللهو والغزل ، ويقول أشعار المغنين ، ويعمل فيها الالحان ! » (١٧٤) .. كما كان « أول من حمل المغنين من البلدان اليه ، وجالس اللهين ، واظهر الشراب والملاهى والعزف ، وفى أيامه كان ابن سريج المغنى ، ومعبد ، والغريض ، وابن عائشة ، وابن محرز ، وطويس ، ودحمان (١٧٥) . وغلبت عليه شهوة الغناء ، في أيامه ، وعلى الخاص والعام ، واتخذ القيان ، وكان متهتكا ماجنا خليعا .. » (١٧٦) .. وفى مصادر التاريخ من أشعاره فى المجون والفسق ماياْبى ذوق عصرنا وعرفه أن يثبته المرء فى كتاب !

ولقد تعدى الوليد نطاق الفسق والمجون الى الزندقة والجهر بفلتات لسان لا يرضاها المجتمع المسلم ، خاصة من أمير المؤمنين .. فالرواة يروون أنه قد عزم على أن يبنى اعلى الكعبة فى البيت الحرام قبة يشرب فيها الخمر ، ويشرف منها سكران منتشيا على الطائفين ببيت الله العتيق ! .. ولما رأى فى المصحف ، يوما ، آيات تتحدث

---

(١٧٤) (المعارف) ص ٣٦٦ .

(١٧٥) أنظر أخبار هؤلاء المغنين فى كتاب (الاغانى) .

(١٧٦) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

عن الحساب والجزاء والعقاب ، رمى المصحف بالسهام ، وهو ينشد :

تذكرني الحساب ولست ادرى
احقا ما تقول من الحساب
فقل لله يمنعنى طعامى
وقل لله يمنعنى شرابى !

ومرة ثانية ، فتحه ، فوجد قول الله سبحانه : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » (١٧٧) ، فخرق صحائفه بسهمه ، وأنشد :

أتوعد كل جبار عنيد
فها أنا ذاك جبار عنيد
فان لاقيت ربك يوم حشر
فقل : يارب خرقنى الوليد (١٧٨) !

وكان لابد لبلاط ملك هذا مبلغ ترفه ونزقه ومجونه ان يتجه الى أموال الناس وثرواتهم بالمصادرة والسلب والنهب والاستنزاف .. ولقد عرفت اوروبا فى العصور الوسطى من يبيع ــ بالحق الالهى ــ صكوك الغفران ، وعرف الشرق فى عصره الحديث من يبيع الرتب والنياشين .. أما الوليد بن يزيد فكان يبيع الولايات والعمالات فى الدولة ، بما فيها من ثروة ومن فيها من بشر وموظفين وامكانيات .. ! فلقد باع ، مثلا ، لنصر ابن سيار ولايته على خراسان ، ثم بدا له أن يبيعها مرة ثانية لمن يدفع اكثر ، فباعها ، بما فى ذلك واليها وعماله ، الى يوسف بن عمر ..! وتحدث المؤرخون عن « الهدايا »

---

(١٧٧) ابراهيم : ١٥ .

(١٧٨) (أمالى المرتضى) ق ١ ص ١٢٨ ــ ١٣٠ .

التى جاءت اليه من خراسان ، وكيف قسم الوالى على أهل البلاد جمع مكونات « قافلة الهدايا » التى ستذهب الى بلاط دمشق « فلم يدع بخراسان جارية ولا عبدا ولا برذونا فارها الا أعده » لحمل « الهدايا » وضمت هذه « الهدايا » : ألف مملوك ، مسلحين ، محمولين على الخيل ، وخمسمائة وصيفة ، وأباريق من ذهب وفضة، وتماثيل للظباء ورءوس السباع والايايل .. الخ .. الخ .. ولما خرجت القافلة فى طريقها الى دمشق ، استعلم الوليد : هل فى محتوياتها ما يبغى من أدوات اللهو والطرب ؟ وخاصة « البرابط » و « الطنابير » ؟ ... فاستدرك الوالى وضمنها مراد أمير المؤمنين !.. وقال البعض يومئذ فى ذلك شعرا :

ابشر أمين الله أبشر بتباشير
بابل يحمل المال عليها كالاباير
بغال تحمل الخمر حقائبها طنابير
ودل البربريات بصوت البم والزير .
وقرع الدف أحيانا ونفخ بالمزامير
فهذا لك فى الدنيا وفى الجنة تحبير (١٧٩) !

واذا كان هذا حال بلاط الخليفة ، فان عماله وولاته لابد أن يكونوا على دين ملوكهم فى السلب والنهب والمصادرة والتبذير .. وكان للوليد طفلان ، لم يبلغا الحلم بعد ، فاكره الناس على البيعة لهما بولاية العهد من بعده ،

(١٧٩) (تاريخ الطبرى) جـ ٨ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

واحدا بعد الآخر ، وبعث بذلك رسالة طويلة الى الامصار والنواحي في رجب سنه ١٢٥ هـ ، تعكس سطورها فلسفة الحكم في عصره ودولته ، اذ لا تتحدث الرسالة الا عن الطاعة الواجبة على الناس لحكامهم . ولا تذكر من القرآن الا الآيات التي تدعو الى الطاعة والخضوع والتسليم ، لان « الله علم أن لاقيام لشيء ولا صلاح له الا بالطاعة .. فمن اخذ بحظه منها كان لله وليا ، ولامره مطيعا ،ولرشده مصيبا .. ومن تركها أضاع نصيبه ، وعصى ربه ، وخسر دنياه وآخرته .. وكان ممن غلبت عليه الشقوة التي تورد اهلها افظع المشارع ، وتقودهم الى شر المصارع .. فالطاعة راس هذا الامر وذروته ، وسنامه وزمامه ، وملاكه وعصمته ، وقوامه بعد كلمة الاخلاص ! » ثم تمضي الرسالة لتتحدث عن العهد للطفلين : الحكم وعثمان ، باعتباره « من تمام الاسلام ... وان أمير المؤمنين لم يكن منذ استخلفه الله بشيء من الامور أشد اهتماما وعناية منه بهذا العهد .. فبايعوا للحكم .. ولاخيه من بعده ، على السمع والطاعة .. فاعلموا ذلك وافهموه ! » .. (١٨٠).

ولقد علم الناس ذلك ، وفهموه ، وأطاعوه .. فبايعوا للحكم وعثمان ..

وبينما كان الوليد بن يزيد يعالج شيخوخة الدولة الاموية واضطراب امر خلافتها هذا الضرب من العلاج ـ اذا جازت تسميته علاجا ـ كانت المعتزلة تنشط وتجمع امرها وتدبره ، وكانوا يرفعون شعارهم الداعي الى اعادة أمر الخلافة شورى بين المسلمين .. وكان الامير الاموي

(١٨٠) المصدر السابق . جـ ٨ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧ . وانظر (الاغاني) جـ ٧ ص ٢٥١٠ ، ٢٥١١ .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك ـ « الملقب بالناقص » ـ احد الذين دخلوا مذهب الاعتزال ، فعرض على الوليد بن يزيد أن ينزل على رغبة الداعين الى اعادة الامر شورى ... فرفض ، بل ورفض أن يطلق سراح القدرية ـ « المعتزلة» ـ المنفيين فى جزيدة « دهلك » منذ عهد هشام بن عبد الملك .

وكانت صفات يزيد بن الوليد على الضد من صفات الوليد بن يزيد ، حتى لقد نسجت مصادر التاريخ حول صفاته وأخلاقه وسجاياه بعض الاساطير ، فابن قتيبة ، الذى قدمنا بعض وصفه للوليد ـ يقول عن يزيد : انه « كان محمود السيرة ، مرضيا .. ويقال : أنه مذكور فى الكتب المتقدمة بحسن السيرة والعدل ، وفى بعضها : يامبدد الكنوز ، ياسجادا بالاسحار ، كانت ولايتك رحمة ووفاتك فتنة ، أخذوك فصلبوك ! » (١٨١) .. وكان اللقب الاثير لديه : « الشاكر لانعم الله » .. (١٨٢) ، حتى لقد ذهب عدله ، بعد أن اقترن بعدل عمر بن عبد العزيز ، مثلا من أمثلة علماء النحو ، فقالوا : « الناقص والاشج أعدلا بنى مروان ! » (١٨٣) .

ولقد تم تدبير الثورة والبيعة ليزيد بن الوليد بالخلافة خارج دمشق ، فى المدن والقرى والنواحى التى غلب عليها الاعتزال ، حول طريق التجارة الذاهب منها الى حلب ـ

---

(١٨١) (المعارف) ص ٣٦٧ .

(١٨٢) القلقشندى (مآثر الاناقة فى معالم الخلافة) ج ١ ص ١٥٩ . تحقيق عبد الستار فراج . طبعة الكويت سنة ١٩٦٤ م .

(١٨٣) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٨٣ (هامش) . (والاشج هو عمر بن عبد العزيز) .

وهى التى تحدثنا عنها من قبل — .. وفى ليله الخميس. لثلاث ليال بقيت من جمادي الآخرة سنة ١٢٦ هـ تنكر يزيد فى ثياب بدوية . وركب حمارا ، وصحب نفرا قليلا من خاصته ، ودخل دمشق . وكانت قد عقدت له بيعة اغلب أهلها سرا ، وكان هنـــاك بمسجد دمشـــق سلاح كثير قد أحضر من أرض الجزيرة ، فدخل الثـــوار الى المسجد . وأدوا مع الناس صلاة العشاء . ثم أخذ الناس ينصرفون . والثوار يبطئون ، فلما استعجلهم حـــراس المسجد كي يغلقوا أبوابه أخذوا يخرجون من باب ويعودون للدخول من باب آخر ، حتى انفردوا بحراس المسجد ، فقتلوهم . واستولوا على مابه من سلاح ..!

وفى صبيحةيوم الخميس زحفت قوى الثوار تقودها المعتزلة على ابواب دمشق ، فقتلوا من اعترضهم مـــن الحراس ، ودخلوها من جميع الابواب ، لانهم قد أتوا من كل المدن والقرى المحيطة بها .. فدخل عبد الرحمن بن مصاد ، من باب الجابية ، ومعه ألف وخمسمائة بسلاحهم .. ودخلت السكاسك من الباب الشرقى ، يقودهم يزيد ابن عنبسة .. ودخل أهل داريا ، بقيادة يعقوب بن هانىء العبسى . من باب دمشق الصغير .. ودخل أهل دومة وحرستا ، بقيادة عيسى بن شبيب التغلبى ، من باب توما .. ودخل أهل دير المران وسطرا والارزة ، يقودهم حميد ابن حبيب اللخمى ، من باب الفراديس .. ودخل أهـــل جرش والحديثة ودير زكا ، يقودهم النضر بن عمـــر الجرشى ، من الباب الشرقى .. ودخل بنو عذرة وسلامان يقودهم ربعى بن هاشم الحارثى ، من باب توما . ودخلت جهينة ومن والاهم ، يقودهم طلحة ابن سعيد .. وكانت

اعلام الثوار الزاحفين على دمشق تحمل العباره التى بايع الناس عليها يزيد بن الوليد ، وهى : « انا ندعوكم الى كتاب الله وسنه نبيه ، وان يصير الامر شورى ! » ..

وكان مقصد الجميع ومقر جميعهم حول يزيد بن الوليد بمسجد دمشق .. وعند ذلك انتدب الخليفه الجديد جماعه من فرسان القوم المبرزين فيهم ، فحاصرت قصر الوليد بن يزيد ، وتسوروه عليه بعد أن رفضوا توسلاته ، وقتلوه ، وحمل رأسه منصور بن جمهور — احد فرسان القدرية وقادتها — الى الخليفة الجديد ، فقالوا له : « أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الفاسق الوليد، وأسر من كان معه » ! ..

ولما استقر الامر ليزيد ، صعد المنبر ، وخطب فى الناس خطابا أعلن فيه نهج الحكم الجديد .. فقال فيما قال :

« أيها الناس ، والله ماخرجت اشرا ولا بطرا ، ولا حرصا على الدنيا ، ولا رغبة في الملك .. ولكنى خرجت غضبا لله ولدينه ، وداعيا الى كتاب الله وسنة نبيه ، لما هدمت معالم الهدى ، وأطفىء نور أهل التقى ، وظهر « الجبار العنيد » ، المستحل لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة ، مع أنه ، والله ، ما كان يؤمن بيوم الحساب ، وانه لابن عمى فى الحسب ، وكفئى فى النسب .. أيها الناس ، ان لكم على الا أضع حجرا ، ولا اجرى نهرا ، ولا اكتنز مالا ، ولا أعطيه زوجة ولا ولدا ، ولا أنقل مالا من بلد الى بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله ، بما يغنيهم . فان فضلت فضلة نقلته الى البلد الذى يليه ممن هو احوج اليه . ولا اجمركم فى ثغوركم

فأفتنكم وافتن أهاليكم .. ولا أغلق بابي دونكم . فيأكل قويكم ضعيفكم . ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم . وينقطع نسلهم . ولكن : لكم أعطياتكم في كل سنة . وأرزاقكم في كل شهر . حتى تستدر المعيشة بين المسلمين . فيكون أقصاهم كأدناهم . فان أنا وفيت لكم بهذا فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمكانفة ، وان لم أوف لكم به ، فلكم أن تخلعوني . إلا أن تستتيبوني . فان تبت قبلتم مني ، وان رأيتم أحدا أو عرفتموه بالفضل والصلاح . يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم . فأردتم ان تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه . ويدخل في طاعته .

أيها الناس . لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم » (١٨٤) !

ومما يلفت النظر في هذه الثورة ، وخطاب خليفتها عدة أمور :

أولها : انها أول ثورة تحدث في الشام ضد حكم بني أمية . الذي استند الى أهل الشام ، حتى لقبت دولتهم بدولة أهل الشام . . فلقد جاء دور الشام في الثورة ، بعد أن كانت قاصرة على العراق وأطراف أخرى بعيدة عن العاصمة دمشق . .

ثانيا : ان القبائل اليمنية التي كانت ، تقليديا ، سند

---

(١٨٤) أنظر في أحداث هذه الثورة : (الامامة والسياسة) جـ ٢ ص ١٠٨ ـ ١١٢ . و (تاريخ الطبري) جـ ٩ ص ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ . ٦٠ ، ٦١ . و (المعارف) ص ٣٦٧ . و (تاريخ الدولة العربية) لفلهوزن . ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ـ ٣٥٣ ، ٣٥٥ ـ ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ . و (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١٢ . ١١٣ .

الدولة الاموية قد أسهمت بقسط وافر فى هذه الثورة ، مما سلب بنى أمية « السلاح القبلى » الذى استخدموه فى ضرب القبائل المناوئة وأحداث التوازن فى البــلاد لمصلحة دولتهم ..

ثالثها : انه لاول مرة منذ عهد الخلافة الراشدة يختار الناس خليفتهم بالبيعة والاختيار ، خارجين بذلك عن نظام الوراثة الذى أرساه فى الدولة معاوية بن أبى سفيان.

رابعا : ان المضمون الذى عبر عنه يزيد بن الوليد فى خطابه أعاد الى منبر الخلافة تلك الاقوال والمعانى التى افتقدها هذا المقام منذ عهد الخلافة الراشدة ، مما يذكر بكلمات ابى بكر الصديق .. فهو يقرر حق الامة فى خلع الامام اذا لم يف بعهده ومهامه ــ وهو مبدأ المعتزلة ــ ويذكر ان الاكثر فضلا وصلاحا هو الاولى .. الى جانب الحديث عن العدل الاجتماعى ، والمساواة بين النــاس ، والعدل فى اهل الذمة « حتى يكون اقصاهم كأدناهم ، وحتى تستدر المعيشة بين المسلمين » ..

فهى ثورة ، تمثل عهدا جديدا ، له منهج جديد .. بل وغريب اذا قيس بنهج بنى أمية فى حكم الناس ..

اما دور المعتزلة فى قيادة هذه الثورة ، فلقد تحدثت عنه واشارت اليه كل المصادر التى عرضت لها ، تقريبا ، فهم يسلكون يزيد بن الوليد فى سلسلة الائمة الذين يعترفون بامامتهم « لانه كان بصفة من يصلح للامامة ، وبايعه طبقة من أهل الفضل » (١٨٥) .. وهم يرونه أفضل من عمر ابن عبد العزيز .. فعندما بايعه قيس بن هانىء العبسى قال له : « يا أمير المؤمنين ، اتق الله ، ودم على ما انت

(١٨٥) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٥٠ .

عليه ، فما قام مقامك أحد من أهل بيتك . وان قالوا : عمر بن عبد العزيز ، فأنت أخذتها بحبل صالح ، وان عمر أخذها بحبل سوء !» (١٨٦) .. يشير بذلك الى أن يزيد وليها بالاختيار ، اما عمر بن عبد العزيز فقد ورثها وراثة الملك ..

وعندما سأل عيسى بن حاضر عمرو بن عبيد عن رأيه فى يزيد بن الوليد ــ الذى لقب بالناقص لنقصه أعطيات بنى أمية ــ أضفى عليه عمرو بن عبيد صفات الامام كما تراه المعتزلة ، وكما حددها الحسن البصرى ، فقال عنه: « انه الكامل ! عمل بالعدل ، وبدأ بنفسه ، وقتل ابن عمه فى طاعة الله ، وصار نكالا على أهل بيته ، ونقص من أعطياتهم ما زادته الجبابرة ، وجعل فى عهده شرطا ولم يجعله جزما . والله لكأنه ينطق عن لسان أبى سعيد » (١٨٧) !

ومن الذين شهدوا القتال فى هذه الثورة قوم بلغوا فى الاعتزال المقام الذى جعلهم يذكرون فى كتب الطبقات ، مثل أبى وهب الكلاعى ، عبيد الله بن عبيد « المتوفى سنة ١٣٢ هـ » ، وأبى عبد الله هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشى « المتوفى سنة ١٥٦ هـ » .. فلقد ذكر الجاحظ انهم من أهل الشام الذين شهدوا « الوقعة مع يزيد بن الوليد فى جمهور الغيلانية » (١٨٨) .

وانتساب جمهور هذه الثورة ، من أهل الشام ، الى

(١٨٦) (تاريخ الطبرى) جـ ٩ ص ٢٧ .
(١٨٧) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١٣ . (وابوسعيد هو الحسن البصرى) .
(١٨٨) (المصدر السابق) . ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

عالم المعتزلة الدمشقى : أبى عبد الله — او ابى أيوب ؛ أو أبى مسلم — مكحول بن عبد الله الشامى « المتوفى سنة ١١٦ هـ » جعل خصومها — بعد موت يزيد وخلافة مروان ابن محمد — يرجمون أهلها ، ودورهم ، ويرددون عبارة : « هذا فى كبد فكحول » (١٨٩) !! لانهم كانوا على مذهبه فى الاعتزال .

وأبو القاسم البلخى ، يذكر فى أقدم تاريخ للطبقات والفرق عند المعتزلة ، تحت عنوان : « خروج أهل العدل » قوله : « وخرجت الغيلانية مع يزيد بن الوليد ابن عبد الملك ، فى سنة ست وعشرين ومائة .. » (١٩٠)

والخوارزمى يذكر فى احدى رسائله ، كيف أنه كان لكل فرقة دولة ، فيقول : « ليس من فرق الاسلام فرقة الا وقد هبت لاهلها رويحة ، ودالت لهم دولة ، كما اتفق لمختار بن عبيد الله للكيسانية ، ويزيد بن الوليد للغيلانية ، وابراهيم بن عبد الله للزيدية ، والمأمون لسائر الشيعة ، والمعتصم والواثق للمعتزلة ، والمتوكل للنواصب والحشوية .. » (١٩١) .

والمسعودى يقول عن هذه الثورة : « وكان خروج يزيد ابن الوليد بدمشق مع شائعة من المعتزلة ، وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق ، على الوليد بن يزيد ، لما ظهر من فسقه ، وشمل الناس من جوره .. » ... ويتحدث عن يزيد بن الوليد فيقول : ان « المعتزلة تفضل فى الديانة يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز .. وكان

---

(١٨٩) المصدر السابق . ص ٩٦ .
(١٩٠) المصدر السابق . ص ١١١ .
(١٩١) (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٥٢ ، ٥٣ .

يزيد يذهب الى قول المعتزلة وما يذهبون اليه فى الاصول الخمسة : من التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والاسماء ، والاحكام ـ وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين ـ والامـر بالمعروف والنهى عن المنكر .. » (١٩٢) .

فهى ثورة معتزلية ، قام بها أساسا معتزلة الشام ، اما معتزلة العراق فانهم ايدوها كل التأييد ..

فالخطبة الشهيرة التى خطبها واصل ، وأسقط منها حرف الراء الذى كان لا يحسن نطقه ، خطبها عند عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز ، الذى ولى البصرة من قبل يزيد ابن الوليد .. وكـان معه نفر من ائمـة معتزلة العراق .. (١٩٣) .

بل لقد همت معتزلة العراق ، أن تسير جيشا يقوده عمرو بن عبيد لنصرة يزيد بن الوليد ، لولا أن الاجـل عاجله ، اذ لم تزد خلافته عن اشهر خمسة الا قليلا .. والبلخى يروى عن عمرو بن عبيد قوله لاصحابه : «تهيأوا حتى نخرج الى هذا الرجل فنعينه على أمره » .. وبينما عمرو وأصحابه على ذلك الاستعداد والاعداد « اذ ورد عليه خبر موت يزيد .. » (١٩٤) .

واول والٍ ولاه يزيد بن الوليد على العراق كان هـو منصور بن جمهور ، الذى نقول عنه خصوم المعتزلة : انه « كان اعرابيا جافيا غيلانيا ... وأنه انما صار مع يزيد

(١٩٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٢ .
(١٩٣) انظر (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ . وأنظر هذه الخطبة فى (نوادر المخطوطات) المجلد الاول ص ١٣٤ ـ ١٣٦ جمع وتحقيق عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
(١٩٤) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١٣ .

لرأيه فى الغيلانية ... فشهد لذلك قتل الوليد بن يزيد ، ... ويزكيه يزيد بن الوليد ويدافع عنه ، فيقـــول : « اذا لم أول منصورا فى حسن معاونته فمن أولى»(١٩٥)؟

والحارث بن سريح « ١٢٨ هـ ٧٤٦ م » ذلك الذى قاد ثورة ضد بنى أمية على عهد هشام بن عبد الملك شـــارك فيها تيار الارجاء الذى قال أصحابه بالعدل والتوحيد ــ كما سبق أن ذكرنافى الحديث عن المرجئة بالقسم الاول من هذه الدراسة ــ والذى ظل هاربا من الدولة ببـــلاد الترك ، بعث اليه يزيد بن الوليد بالامان له ولمن معـــه ، وكتب له بذلك كتابا يقول فيه : « أما بعد ، فانا غضبنا لله اذ عطلت حدوده ، وبلغ بعباده كل مبلغ ، وســـفكت الدماء بغير حلها ،وأخذت الاموال بغير حقها ، فأردنا أن نعمل فى هذه الامة بكتاب الله وسنة نبيه .. فقد أوضحنا لك عن ذات أنفسنا ، فأقبل آمنا أنت ومن معك ، فانكم اخواننا وأعواننا » .. ثم كتب الى عامله على العـــراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ان يرد الى الحـــارث وأنصاره كل ماكان قد استصفى من أموالهم وسبى مـــن ذراريهم .. فعاد الحارث وأنصاره الى « مرو »..وعاش مع أنصاره آمنين ، حتى مات يزيد ، وخلفه مروان بن محمد ، فقال الحارث : « انما آمننى يزيد بن الوليـــد ، ومروان لا يجيز أمان يزيد ، فلا آمنه .. فدعـــا الى البيعة .. » وحارب جيش مروان بن محمد حتى هزم وصلب سنة ١٢٨ هـ .. (١٩٦) .

فهى ، اذا ، ثورة ، قام بها المعتزلة ، وحاولوا فيهـــا

(١٩٥) (تاريخ الطبرى) جـ ٩ ص ٢٧ ، ٢٨ .
(١٩٦) المصدر السابق . ٩ ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ٧٣ .

تطبيق نظريتهم فى الامامة والعدل بين الناس - وامنوا فى عهدها الثوارالذين خرجوا من قبل منكرين على أئمـــه الجور والفســاد ..

ولكن مروان بن محمد كان يتربص بهذه الثورة الدوائر منذ قيامها ، وكان يقبع فى أرض الجزيرة يتحين الفرص، ويراسـل من بقى من‌أمراء بنى امية .. بل انه لم يكن قد بايع ليزيد الا بعد تلكؤ ، وبعد ان بعث اليه يزيد يقـول له : « اما بعد ، فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، فاذا اتاك كتابي هذا فاعتمد على ايتهما شئت. والسلام! »(١٩٧) ... وكان مروان قد كتب الى اخي الوليد بن يزيد ، بعد مقتله ، يقول : « .. اني مطرق الى ان ارى غيرا فأسطو بانتقام ... ولم اشبه محمدا ولا مروان .. ان لم اشمر للقدرية ازارى واضربهم بسيفي جارحا وطاعنا ! . وما اطراقى الا لما انتظر مما يأتيني عنك ، فلا تهن عـــن ثارك بأخيك !... » (١٩٨) .

ولم يطل الانتظار بمروان بن محمد ، اذمات يزيد بن الوليد فى ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ « ٢٥ سبتمبر سنه ٧٤٤ م » ، بعد خلافة لم تزد عن مائة واثنين وســتين يوما ... (١٩٩) ، فوثب مروان على الخـلافة ، وازال آثار يزيد بن الوليد ، بل نبش قبره وصــــلبه على باب الجابية ، وقتل كثيرا من المعتزلة وانصار يزيد ، وفر من دمشق ابراهيم بن الوليد (٢٠٠) الذى كان يزيد قـــد

(١٩٧) (عيون الاخبار) مجلد ١ ص ١٩٧ .
(١٩٨) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٣٤ ، ٣٥ .
(١٩٩) (تاريخ الدولة العربية) ص ٣٥٥ .
(٢٠٠) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٥٤ .

عهد اليه بعد طلب الناس ومشورتهم .. وعزل ولاة يزيد، وبعث الي العراق النضر بن سعيد ، ليخلف عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ... وعند ذلك جمع منصـــــــور بن جمهور أنصاره من المعتزلة ، وقاتلوا جيش مروان ، بل وتحالفوا مع الخوارج على حربه .. وظل منصور هذا يقاتل مروان وبنى أمية من موقع الى آخر ، ومن معركة الى أخرى ، ومن بعدهم اخذ يقاتل بنى العباس ، حتى لجأ الى الهند ، ولما هزم ، مضى الى الصحراء فمات عطشا وسط الرمال (٢٠١) سنة ١٣٤ هـ .

ولكن فشل ثورة يزيد بن الوليد فى الاستمرار ، وتولى مروان بن محمد الخلافة ، لم يزد الدولة الامـــوية الا اضطرابا وتدهورا ، فأخذت المعتزلة تستعد لتجمـع أمر المسلمين ، أو أكثرهم على امام منها هو محمد بن عبدالله ابن الحسن « النفس الزكية » ، وذلك حتى تعود الخلافة « شورى بين المسلمين » ، ويليها من تتوافر فيه شروطها .. واجتهدوا كي يضموا الى موقفهم هذا الشيعة الامامية ولكن جعفر الصادق ظل على رأيه فى رفض الخـــروج والشورى ، متمسكا بالامامة الروحية ، وانتظار أن يزيل الله ملك بنى أمية ويعطى الخلافة لآل بيت الرسول عليـه الصلاة والسلام ..

ولقد عبر عمرو بن عبيد عن سعى المعتزلة هذا عندما خطب فى جمع من انصار المعتزلة وانصار الامامية فقال : « ... اننا قد نظرنا ، فوجدنا رجلا له دين وعقل ومروءة ومعدن للخلافة ، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن ...

(٢٠١) المصدر السابق . جـ ٩ ص ٦١ ، ٦٢ ، ١٥٠ ، ١٥١ .

فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه ؛ ثم نظهر أمرنا معه ،وندعو الناس اليه . فمن بايعه كنا معه وكان معنا ؛ ومن اعتزلنا كففنا عنه ؛ ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ونرده الى الحق وأهله ... » (٢٠٢) .

فكانوا بذلك يستعدون لثورة جديدة يضعون بواسطتها أفكارهم فى الامامة والسياسة موضـــــع التطبيـق والتحقيق .

(٢٠٢) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ (والمرجع ينقل عن كتاب المظفرى (الامام الصادق) جـ ١ ص ٢٣٢) .

الفصل الرابع

حقبة الثورة على بنى العباس

فى المقال الذى كتبه المستشرق الاستاذ الدكتورنيبرج عن المعتزلة فى « دائرة المعارف الاسلامية » عرض لعلاقتهم بالحركة العباسية فى أواخر الدولة الاموية ، وذهب الى « انه خلال الفترة الاخيرة للدولة الاموية كان « واصل » واتباعه يعملون بنشاط فى خدمة القضية العباسية ، وان مذهب « واصل » ومذهب المعتزلة الاوائل كان هـــو المذهب الكلامى الرسمى للحركة العباسية » (٢٠٣) .

ورغم الخطأ الكبير والكلى فى هذا التقييم ، فانه هـو الاعتقاد الشائع فى كل الدراسات التى تشير الى هـــذه القضية حتى الآن . ونحن نقول : ان هذا التقييم خاطىء كلية ، لان المعتزلة لم يكونوا يعترفون بأن هناك ما يسمى « بالحركة العباســـية .. » ، ولم يـــكونوا يرون ان « للعباسيين » حقا يورث فى الخلافة والامامة ، لانهم ضد الميراث والتوارث فى هذا المنصب ، كما انهم لم يعترفوا فى يوم من الايام بأن هناك اماما عباسيا تتم له الدعوة كى يخلف فى الحكم بني مروان .. بل على العكس من ذلك ، فعندما ظهرت دعوة « العباسيين » ، ووثبوا الى الحكم

(٢٠٣) د. نيبرج (دائرة المعارف الاسلامية) مادة (المعتزلة) .

اعتبر المعتزلة ذلك اغتصابا للسلطةمنهم ؛ اذ كانت العدة تعد والامور تهيأ ليتم نقل السلطة من الدولة الامـــوية الملكية الى خلافة شوروية يتولاها امام معتزلى ، دعا له المعتزلة ، وعقدوا له البيعة ، وبايعه فيمن بايع خلفـــاء العباسيين الاول : ابو العباس السفاح وابو جعفر المنصور وهذا الخليفة المعتزلى الذى تمت بيعته بمكة عنـــــدما اضطرب امر الدولة الاموية هو : محمد بن عبد الله بن الحسن ـ المعروف بالنفس الزكية ـ « ٩٣ ـ ١٤٥ هـ ٧١٢ ـ ٧٦٢ م » ..

فالمعتزلة كانوا يسعون لاعادة الامر والحـــــكم الى الشورى بين المسلمين ، وكانوا يديرون احداث الصـــراع بحيث تفضى الى هذه الثمرة ، وكانوا قد اعدوا البيعـــة لامام منهم هم ؛ ومن ثم فانهم لم يكونوا عاملين فى خدمة القضية العباسية بحال من الاحوال .. وذلك هـو الذى يفسر ثورتهم ، بل ثوراتهم ضد العباسيين الاول ، وماظلوا يتعرضون له من السجن والاضطهاد حتى بدء عصـــر المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) ..

أما تفصيل هذه الحقيقة الهامة ، والوقائع التى تكون لبنات بنائها فانها تتجلى لنا من خلال هذه النقاط :

أولا : ان دعوى العباسيين فى الخلافة ترتكز الى ان محمد بن الحنفية « ٢١ ـ ٨٠ هـ ٦٤٢ ـ ٧٠٠ م » ، قد أوصى بالخلافة الى ابنه ابى هاشم « ٩٩ هـ ١٧٧ م » ؛ وأن أبا هاشم أوصى بها الى على بن عبد الله بن العبـــاس ابن عبد المطلب « ٤٠ ـ ١١٨ هـ ٦٦٠ ـ ٧٣٦ م » وان عليا بن عبد الله بن العباس أوصى بها الى ابنه محمـــد بن على « ٦٢ ـ ١٢٥ هـ ٦٨١ ـ ٧٤٣ م » ، وان محمدا ـ

الذى يلقب بأبى الخلفاء ـ أوصى بها الى ابنـــه ابراهيم « ٨٢ ـ ١٣١ هـ ٧٠١ ـ ٧٤٩ م » ، الذى كان أول من لقب من هذه السلسلة بلقب الامام ، واشتهر به . وان ابراهيم الامام ، أوصى بها ـ عندما ساقته جنـــود مروان بن محمد للموت ـ الى أخيه أبى العباس عبد الله ابن محمد بن الحارثية « السفاح » « ١٠٤ ـ ١٣٦ هـ ٧٢٢ ـ ٧٥٤ م » ، وهو اول من ظهر وعقدت له البيعة ، ثم عهد بها الى أخيه ابى جعفر المنصور عبد الله بن محمد ابن على « ٩٥ ـ ١٥٨ هـ ٧١٤ ـ ٧٧٥ م » ، الذى عهد بها الى ابنه المهدى « ١٢٧ ـ ١٦٩ هـ ٧٤٤ ـ ٧٨٥ م » .. وهكذا دخل الامر فى بنى العباس .. (٢٠٤) .

تلك رواية العباسيين ، وفرقتهـــم « الراوندية » ، والسلسلة التى أفضت بالامامة اليهم دون بنى على وغيرهم من الهاشميين .. ونحن نلاحظ أن هذا المنطق مرفوض بمقاييس المعتزلة الفكرية ، فليس هناك فى هذه السلسلة قبل السفاح ، من يعترف المعتزلة له بحق فى هذا الامر ، لان احدا من هؤلاء لم يحدث له اختيار وبيعة وعقد ، وهو الطريق الوحيد للامامة عند المعتزلة .. كما أن فكرة أن يوصى واحد الى ولده ، أو اخيه ، أو أن يوصى بها لاى من الناس ، هى فكرة مرفوضة من المعتزلة ، لانهـــا هى فكرة الشيعة الامامية فى عقيدة « التفويض » التى هدمتها المعتزلة بمذهبها فى الاختيار والعقد والبيعة كطريق مفرد لتنصيب الامام .. ولا يمكننا ان نفترض هذه الوصـــية نوعا من ولاية العهد ، وعقد الامام بالامامة لمن بعـــده ، وان نعلل عدم اشهار العهد واستكماله بالبيعة بظـروف

(٢٠٤) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ١٨٨ .

السرية التى سادت على عهد الاضطهاد الاموى ، لان أول هذه السلسلة العباسية ، وهو محمد بن الحنفية ، لم يكن اماما اختاره الناس وعقدوا له البيعة ، وهو عند المعتزلة ، مثله مثل ابنه ابى هاشم لا يعدو أن يكون علما من اعلام آل محمد ، الذين قالوا بالعدل والتوحيد ، وتتلمذ عليهم المعتزلة ، واخذوا عنهم الاصول ، ونظروا اليهم نظرة الحب والتقدير والاجلال .. فلم يكونوا ائمة فى الحكم والسياسة حتى تكون لهم الوصية فيها والعهد بها الى من يتلقاها عنهم بعد الممات ..

اذن ، فهذه « الشرعية » العباسية مرفوضة من المعتزلة بحكم الفكر الذى قام عليه مذهبهم فى الامارة وامارة المؤمنين ..

ثانيا : ان المعتزلة لا ينكرون علاقة محمد بن على بن عبد الله بن العباس بأبى هاشم ، فهم يقولون أن أباه ارسله الى ابى هاشم فتتلمذ عليه ، وأخذ عنه العلم « ومكث عنده الى أن فارق الدنيا » .. (٢٠٥) .. وكما كان محمد بن على تلميذا لابى هاشم كذلك كان واصل ابن عطاء تلميذا لابى هاشم ، فرأس السلسلة العباسية هذا كان زميلا لواصل فى التلمذة على أبى هاشم ، وينكر المعتزلة ان يكون هناك ماهو أكثر من التلمذة فى العلم ، خصوصا وهم لا يعترفون « لامامهم » أبى هاشم بما هو أكثر من « الامامة » فى العدل والتوحيد .. ولم يدعوا له امامة فى الحكم والسياسة على ماهو معروف فى هذا المبحث .

(٢٠٥) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢١٣ .

ثالثا : ان مصادر التاريخ تؤكد على ان سنة ١٠٠ هـ . كانت السنة التى شهدت بدء الدعوة العباسية ، اذ فيها وجه محمد بن على بن عبد الله بن العباس الرسل والدعاة .. (٢٠٦) .. وهذه السنة هى التالية لوفاة ابى هاشم سنة ٩٩هـ « ٧١٧ م » .. ولكن وضع محمد ابن على فى هذه الحركة وذلك النشاط لا يمكن أن يكون وضع « الامام » ، بمقاييس المعتزلة ، لما قدمنا من اسباب ولسبب آخر هو أن الحاكم الاموى الذى كان يحكم يومئذ كان اماما عند المعتزلة ، وبمقاييسها ، قالوا بامامته وتولوه ، وهو عمر بن عبد العزيز « ٦١ - ١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٢٠ م » . كما سبق أن قلنا .. فلو كان محمد بن على اماما ، على رأى المعتزلة ، لكانوا قد اعترفوا بامامين ، احدهما علنى - وهو عمر بن عبد العزيز - والآخر سرى - وهو محمد بن على - وهذا مناقض لمذهبهم فى وحدة الامام .

رابعا : ان المعتزلة بايعت زيد بن على سنة ١٢٢ هـ بالامامة ، وتولته ، واعترفت به اماما . ثم بايعت ابنه يحيى ابن زيد سنة ١٢٥ هـ وتولته واعترفت به اماما .. ثم بايعت يزيد بن الوليد سنة ١٢٦ هـ ، وتولته واعترفت به اماما .. وذلك ينفى اعترافهم بامام عباسى ، بل وحتى وجود تلك السلسلة العباسية التى اخترعها العباسيون واصطنعت الراوندية لها دعوى الوصية بالامامة ، لأن هذه السلسلة العباسية ، لو اعترف بها المعتزلة وبامامة اصحابها لكانت هناك سلسلتان متوازيتان للائمة ، سلسلة

(٢٠٦) تاريخ الطبرى) جـ ٦ ص ٥٦٢ (طبعة المعارف - أحداث سنة ١٠٠ هـ) .

بني العباس ، والاخرى التى انتظم فيها زيد بن على ، وابنه يحيى ، ويزيد بن الوليد .. وذلك ، كما قلنا ، ضد مذهب المعتزلة فى وحدة الامام ..

خامسا : ان الدعوة التى كانت تناهض الدولة الاموية، باسم الهاشميين ، كانت حتى انهيار الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ تتم باسم « آل محمد » ، لا باسم العلويين ، او العباسيين ، ولقد كان رؤوس هذه الدعوة مستورين ، اما قادتها العلنيون فكان احدهما يسمى « وزير آل محمد » وهو ابو سلمة حفص بن سليمان ، مولى السبيع ،والثانى كان يدعى « أمين آل محمد » ، وهو ابو مسلم الخراسانى .. وكانت الدعوة تتم لحساب « الرضى من آل محمد » .. ومن ثم فان الحديث عن أئمةعلويين او ائمة عباسيين فى تلك الفترة هو دعاوى اخترعت بعد ذلك لتبرير استئثار العباسيين بالحكم ، ولتبرير معارضة العلويين لهذا الاستئثار .. وان كان نفى وجود « ائمة » للطرفين او لاحدهما لا يعنى نفى وجود مطامع وآمال ومساعى من كلا الجانبين لجنى ثمار النجاح الذى يمكن أن تحققه المعارضة للامويين والثورة عليهم .. ولا ينفى كذلك وجود بلاد يغلب عليها حب بنى فاطمة واخرى سعى اليها دعاة بنى العباس (٢٠٧) .

سادسا : أن المعتزلة عندما اضطرب أمر الدولة الاموية وبعد انقضاء عهد ثورتهم سنة ١٢٦ هـ بموت يزيد بن الوليد، سعوا الى تدبير أمر الامامة كى تعود شورى بين المسلمين ، واخذوا يجمعون الكلمة حول امام منهم ، وهو

(٢٠٧) المصدر السابق جـ ٧ ص ٤٩ ، ٥٠ (طبعة المعارف ـ احداث سنة ١٠٩ هـ) و (شرح نهج البلاغة) جـ ١٥ ص ٢٩٣ .

فى ذات الوقت من آل محمد ، وكان قد سبق واشترك فى ثورة زيد بن على سنة ١٢٢ هـ . وقاتل فيها .. ثم خلف يحيى بن زيد فى قيادة الثورة بعد مقتله سنة ١٢٥ هـ .. وهذا الامام هو محمد بن عبد الله بن الحسن ، الذى كان هو واخوته وأبوه وأعمامه معتزلة ، أخذوا الاعتزال عن واصل بن عطاء بالمدينة مع زيد بن على ، وكونوا التيار الثورى فى آل البيت ، كما سبقت اشارتنا من قبل ... ولقد سعت المعتزلة لاقناع الشيعة الامامية ، التى كان يتزعمها جعفر الصادق ، بالبيعة لمحمد بن عبد الله ، ودعوا جعفرا وعددا من شيعته الى اجتماع تحدث فيه عمرو ابن عبيد عن اضطراب أمر أهل الشام ، وضرب الله بعضهم ببعض، وتشتت أمرهم ، ثم قال : اننا قد « نظرنا ، فوجدنا رجلا له دين وعقل ومروءة ومعدن للخلافة ، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن ، فأردنا ان نجتمع معه فنبايعه ، ثم نظهر امرنا معه ، وندعو الناس اليه ، فمن بايعه كنا معه وكان معنا ، ومن اعتزلنا كففنا عنه ، ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ، ونرده الى الحق وأهله » .. ثم وجه حديثه لجعفر الصادق فقال : « وقد أحببنا أن نعرض عليك ، فانه لا غَناء لنا عن مثلك ، لفضلك ، وكثرة شيعتك .. » (٢٠٨) ... ولكن جعفر الصادق أبى ، لانه كان يعارض الخروج والقتال والثورة ، ويرى الصبر على بنى امية « وأن لا يخرج واحد من أهلَ البيت حتى يأذن الله بزوالّ ملكهم » (٢٠٩) ؛

---

(٢٠٨) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ (والمرجع ينقل عن : المظفرى فى كتابه (الامام الصادق) جـ ١ ص ٢٣٢)

(٢٠٩) (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٨٥ .

ولانه كان يعارض مبدأ الشورى والبيعة ، ويقول بالوصية والنص .. ولم يكن محمد بن عبد الله بن الحسن مكتوبا في الكتاب الذى زعموا انه نزل من السماء بالائمة الاثنى عشر ؟! .. فعندما سأل عبد الملك بن أعين جعفر الصادق قائلا : « ان الزيدية والمعتزلة قد طافوا بمحمد بن عبد الله .. فهل لهسلطان ؟ قال جعفر : والله ان عندى لكتابين فيهما تسمية كل نبى وكل ملك يملك الارض ، لا والله مامحمد بن عبد الله فى واحد منهما (٢١٠) .

فالمعتزلة ، اذن ، قد رشحوا النفس الزكية اماما ، وسعوا الى جمع الكلمة عليه ، وعقد البيعة له ، وطلبوا ذلك حتى من التيار الشيعى الذى وقف عند حدود الامامة الدينية والروحية ؛ طلبا لنفوذه وتأييده .. ولكن هذا التيار تحفظ ورفض البيعة للنفس الزكية ..

سابعا : ان هناك حقائق لا تقبل التشكيك على أن المعتزلة مضوا فى امر البيعة للنفس الزكية ، وانهم عقدوا له البيعة ؛ وعقدها له كذلك ــ فيمن عقدها ــ الزيدية ، وكذلك العباسيون ، ومن ثم فان الحديث عن « ائمة » عباسيين كانت تتسلسل فيهم وعنهم الامامة فى تلك الفترة هو أمر مرفوض ، والمقولة الصادقة الوحيدة هى أن التدبير والاعداد كان قد تم ، بقيادة المعتزلة ، كى ينقضى بانهيار الدولة الاموية نظام الملك ووراثة الحكم ، وتعود الخلافة شورى يبايع بها الناس من يختارون ، وأن الأمر قد استقر على تنصيب محمد بن عبد الله بن الحسن اماما على المسلمين ..

---

(٢١٠) (الكافى) جـ ١ ص ٢٤٢ .

أما الحقائق التى تشهد بصدق هذه المقولة ، فمن اهمها :

أ ــ ان السفاح والمنصور ، اللذين وليا الامر فى بداية الدولة العباسية كانا عضوين فى تنظيم المعتزلة . . وبعبارة القاضي عبد الجبار : فان « السفاح والمنصور كانا على هذا المذهب » (٢١١) . . ويؤكد ذلك قول عمرو بن عبيد للمنصور ، بعد أن انشق العباسيون على المعتزلة ووثبوا على السلطة واستأثروا بها ، قوله للمنصور : « ألست قد عرفت رأيى فى السيف أيام كنت تختلف الينا ؟! »(٢١٢) . . . وكذلك صحبة المنصور لواصل بن عطاء ، وحديثه بحديث أهل العدل والتوحيد ، والاعراب عن شوقه لانتصار المعتزلة . . فلقد رووا أن المنصور ذهب الى واصل ابن عطاء ، فحدثه أنه قد سمع ابياتا لسليمان بن يزيد العدوى ــ وكان معتزليا يلثغ لثغة واصل فى الراء ــ (٢١٣) وانه يود سماعها منه ، فذهبا الى منزل سليمان بن يزيد فأنشدهما أبياته :

حتى متى لا نرى عدلا نسر به
ولا نرى لدعاة الحق أعوانا

مستمسكين بحق قائلين به
اذا تلون أهل الجور ألوانا

يا للرجال لداء لا دواء له
وقائد هو أعمى قاد عميانا !

---

(٢١١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢١٣ .
(٢١٢) المصدر السابق . ص ٢٣٣ .
(٢١٣) (الحيوان) جـ ٦ ص ١٩١ .

فقال ابو جعفر : وددت انى رايت يوم عدل ثم مت » (٢١٤) !

فوجود السفاح والمنصور عضوين فى تنظيم المعتزلة يستتبع ، استنتاجا ، ان يشتركا فى البيعة للامام الذى عقدت له المعتزلة .

ب ـ ان امر بيعة العباسيين ، ضمن المعتزلة لمحمد ابن عبد الله لا تقف عند « الاستنتاج » ، ذلك أن الطبرى يذكر ان محمد بن عبد الله كان يذكر دائما « ان أبا جعفر « المنصور » ممن بايع له ، ليلة تشاور بنو هاشم فيمن يعقدون له الخلافة ، حين اضطرب امر بنى مروان ، مع سائر المعتزلة الذين كانوا معهم هناك » .. وان ذلك كان من اسباب زيادة همه باختفاء محمد بن عبد الله ، لان له فى عنق المنصور بيعة تجعله صاحب الحق الشرعى دون المنصور ! ... (٢١٥) .

فمحمد بن عبد الله يؤكد اشتراك العباسيين ،والمنصور بالذات ، فى البيعة له ، مع المعتزلة وغيرهم ..

جـ ـ وغير قول محمد بن عبد الله ، يروى الطبرى عن احد رواته ، وهو صالح صاحب المصلى ، قوله : « .. فكان شده هرب محمد من أبى جعفر : ان أبا جعفر كان عقد له بمكة فى اناس من المعتزلة .. » (٢١٦) .

د ـ وعثمان بن خالد ، تلميذ واصل ، واحد اعلام المعتزلة ، وكبار التجار فيها ، يواجه المنصور بهذه

---

(٢١٤) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢١٥) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٥١٧ (طبعة المعارف ـ احداث سنة ١٤٤ هـ) .

(٢١٦) المصدر السابق . جـ ٧ ص ٥٢٤ (طبعة المعارف ـ احداث سنة ١٤٤ هـ) .

الحقيقة ــ بعد مقتل محمد بن عبد الله بقليل ، ويؤكد له أن خلافته غير شرعية ، وأن الامام هو محمد بن عبد الله، وان له فى عنق المنصور بيعة عقدها له مع المعتزلة بمكة .. فالطبرى يروى عن محمد بن عروة بن هشام بن عروة قوله : « انى لعند أبى جعفر ، اذ أتى فقيل له : هذا عثمان بن خالد قد دخل به . فلما رآه أبو جعفر قال : أين المال الذى عندك ؟ قال : دفعته لامير المؤمنين ، رحمه الله ! قال : ومن أمير المؤمنين ؟! قال : محمد بن عبدالله. قال : أبايعته ؟! قال : نعم ، كما بايعته ! » .

وفى رواية محمد بن عثمان بن خالد ــ الذى اعتقل مع والده ، وشهد هذا الحوار ــ يذكر أن المنصور أقبل على أبيه عثمان بن خالد فقال له : « هيه يا عثمان ! أنت الخارج على أمير المؤمنين ، والمعين عليه ؟! فقال عثمان ابن خالد : بايعت أنا وأنت رجلا بمكة ، فوفيت بيعتى ، وغدرت بيعتك ! قال : فأمر به فضربت عنقه » (٢١٧) !

هـ ــ والى هذه البيعة استند مالك بن أنس فى فتواه بأحقية محمد بن عبد الله فى الخلافة ، شرعا ، « بمقتضى العهد الذى كان بينه وبين العباسيين » (٢١٨) ، ودعوته الناس الى الثورة معه ضدأبى جعفر وابراء ذمتهم من البيعة لبنى العباس لان يمين هذه البيعة كان يمين اكراه !.

فالبيعة اذن قدتمتللنفس الزكية ، لا لبنى العباس..

ثامنا : لكن .. اذا كان الامر كذلك .. فكيف وثب

---

(٢١٧) المصدر السابق . جـ ٧ص ٦٠٧ ، ١٠٨ (طبعة المعارف ــ أحداث سنة ١٤٥ هـ) .

(٢١٨) (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) ص ١٩٣ . و (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٣٨٢ .

العباسيون على السلطة ، فازاحوا النفس الزكية، وانشقوا على المرزنه ، واستاثروا بالخلافة ، وساروا فيها على سيرة بنى امية فى وراثتها ملكا عضودا بعد أن ارادتها المعتزلة خلافة شوروية كما كان حالها على عهد الخلفاء الراشدين ؟! ..

حتى تتضح لنا الحقائق التى تجيب على هذا السؤال، لابد أن نتنبه الى ان الحركة التى كانت تسلك سبيل الثورة لتغيير السلطة وقلب الدولة الاموية ، كانت قاعدتها العريضة ، وكذلك قيادتها تشهد وجود تيارين :

احدهما : تيار شعوبى ، ينطلق فى عدائه للدولة الاموية ـ الى جانب رفضه لمظالمها ـ من منطلق العداء لعصبيتها العربية التى بلغت حد التعصب ، ولقد تصاعد به هذا الموقف من العداء للعصبية العربية الى العداء للعرب كجنس ، وكذلك العداء للاسلام كدين عربى ، بواسطة اصحاب العقائد المانوية والمجوسية الذين أظهروا الاسلام وأخذوا يكيدون له فى الخفاء .. وكانت فارس ، وخاصة خراسان ، موطن هذا التيار الشعوبى فى حركة الثورة والتغيير ، كما كان قائده هو أبو مسلم الخراسانى « ١٣٧هـ ٧٥٤ م » « أمين آل محمد » .

ولقد كانت المواريث السياسية لهذا التيار تجعله يميل الى مبدأ توارث الحكم ، لانه ابن للحضارة الفارسية ، عاش فى ظل فلسفة الملك الكسروى .. واذا كان الاسلام لم يمح من فكر الصحابى سلمان الفارسى آثار هذا الميراث ، فانطلق منه الى ما راى من جعلها فى بيت محمد، يتولاها على بن أبى طالب ، الذى هو من معدنه .. اذا كان ذلك أمر الصحابى سلمان ـ كما سبقت اشارتنا ـ فان

سلطان هذا الميراث الملكي على العامة وقائدهم أبى مسلم الخراسانى غير غريب ..

وثانيهما : تيار يرفض الشعوبية ، ويرى فى العروبة حضارة تجمع كل الذين أصبحوا يستظلون بها ، بصرف النظر عن أصولهم العرقية ومواريثهم الحضارية .. وكان المعتزلة فى هذا التيار ، بل على رأسه ، كما أن فكرهم فى الشورى ومذهبهم فى الامامة بالاختيار يجعلهم ضد الميراث الفارسى فى توارث الملك والسلطان ..

ولما كان أبو مسلم الخراسانى ، « أمين آل محمد » ، ممثلا للتيار الشعوبى فى حركة التغيير ، فاننا نستطيع أن نفهم خلافه ، بل وتدبيره اغتيال ابى سلمة حفص بن سليمان الهمدانى الخلال « المقتول سنة ١٣٢ هـ سنة ٧٥٠ م » ، « وزير آل محمد » ، والذى كان عربيا ينتسب الى همدان ، وهم عرب قحطانيون .. (٢١٩) ، ومن ثم ـ وهو الاهم ـ أن نفهم لم كان أبو سلمة يرى أن يصير الامر الى الامام الذى بايعته المعتزلة ، محمد بن عبد الله ابن الحسن ، بكل مايمثله ذلك من رفض للشعوبية ونصرة للشورى ، بينما اختار ابو مسلم الخراسانى أن تكون الامرة لابى العباس السفاح ، بكل مامثله ذلك من ازدهار الفكر الشعوبى وتغيير أشخاص الاسرة الاموية بالعباسية مع بقاء نظام الوراثة فى الحكم ، واستبدال العصبية العربية الاموية بسيطرة الفرس على بلاط العباسيين ومقدرات الدولة فى سنواتها الاولى ..

فنحن ، اذن ، أمام تيارين مختلفين فى اطار حركة

---

(٢١٩) ابن الاثير الجزرى ، عزالدين (اللباب فى تهذيب الانساب) جـ ٣ ص ٣٩١ . طبعة دار صادر . بيروت .

التغيير : أحدهما شعوبى ملكى ، والآخر قومى شوروى.

اما كيف التقى التيار الشعوبى الخراسانى بالعناصر العباسية فى حركة الهاشميين ، فاننا نعتقد أن العباسيين كانت لهم آمال فى الاستئثار بالسلطة ، وأن حظهم من الشرعية التى تكتسب بالقرب من الرسول لم يكن كحظ العلويين ابناء فاطمة عليها السلام ، وانهم كانوا يبحثون لهم عن انصار يرتكزون عليهم فى الوثوب الى السلطة ، خصوصا بعد أن تمت البيعة لعلوى هو محمد بن عبدالله ابن الحسن ، فكان التيار الشعوبى الملكى هو المتناقض فكريا وقوميا مع التيار الذى بايع للنفس الزكية ، فاتجه العباسيون الى هذا التيار .. وفى الرسالة التى كتبها محمد بن على بن عبد الله بن العباس ـ الذى استهل دعوة العباسيين ـ الى دعاته ونقبائه دليل على هذا الذى نقول : فهو قد استعرض المدن والاقاليم فلم يجد موطنا للدعوة العباسية يمكن أن تقبل فيه وتكتسب الانصار سوى خراسان .. فالكوفة : شيعة على وولده والبصرة : تدين بجميع الفرق ، ولا يعينون احدا .. والجزيرة : غلبت عليها الخوارج .. والشام : يدينون بطاعة الامويين .. ومكة والمدينة : اغلب أهلها على الولاء لذكرى أبى بكر وعمر ثم خلص الى قوله لدعاته : « .. ولكن ، عليكم بخراسان » (٢٢٠) !

وفى اهل خراسان هؤلاء ، خاصة تيار ابى مسلم الخراسانى ، كان الفكر الشعوبى الطاقة المحركة فى ثورتهم ضد بنى أمية . فقحطبة بن شبيب ، احد قواد ابى مسلم

---

(٢٢٠) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٥ ص ٢٩٣ .

يخطب فى جنده سنة ١٣٠ هـ ، فيقول : « يا أهل خراسان ، هذه البلاد كانت لآبائكم الاولين ، وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن تدبيرهم ، حتى بدلوا وظلموا ، فسخط الله عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم اذل أمة كانت فى الارض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واسترقوا أولادهم، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم ، ثم بدلوا وغيروا وجاروا فى الحكم ، وأخافوا اهل البر والتقوى من عترة رسول الله ، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ، لانكم طلبتموهم بالثأر » (٢٢١)!

فهذا الفكر الشعوبى الملكى يقدم هنا فلسفة غريبة لاسباب الفتح والصراعات التى أدت اليها الفتوحات .. فالفتح العربى واذلال العرب للفرس ، كان عدلا ، لانه عقاب للفرس على جورهم وظلمهم ! وانتصار الشعوبية الفارسية على العرب واذلالهم هو عدل ، لانه انتقام من جور بنى أمية ،وحرمان آل الرسول من حقهم فى الملك .. وسيكون الانتقام الشعوبى اشد لانه ، الى جانب أسبابه تلك ، فهو انتقام من فتح العرب واذلالهم للفارسيين ؟!..

هذا هو منطق حركة أبى مسلم الخراسانى ، التى وضع العباسيون آمالهم فيها ، كى يجدوا لقدمهم مكانافى الصراع على السلطة والسلطان .. ولذلك نراهم يلتقون مع هذا التطرف الشعوبى فى العداء للعرب ، فيكتب ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، الذي كان أول من تلقب بالامام ، يكتب الى أبى مسلم الخراساني سنة

(٢٢١) (تاريخ الطبرى) جـ ٩ ص ١٠٦ .

١٣٢ هـ يوصيه باستئصال العنصر العربي من خراسان، ويقول له : « ان استطعت الا تدع بخراسان أحدا يتكلم بالعربية الا وقتلته فافعل ! وأيما غلام بلغ خمسة أشبار، تتهمه ، فاقتله ! وعليك بمضر ، فانهم العدو القريب الدار ، فأبد خضراءهم ، ولا تدع على الارض منهم ديارا !؟ » (٢٢٢) .

ولما وقعت هذه الرسالة في يد مروان بن محمد ، وساق ابراهيم الامام الى الموت بسببها ، أوصى ابراهيم — كما قيل — بالامر الى أخيه أبي العباس السفاح (٢٢٣) ، رغم ان السفاح كانت في عنقه يومئذ بيعة لمحمد بن عبد الله ابن الحسن ..

هكذا وجد التيار الشعوبي ، الذي قاده بخراسان : أبو مسلم الخراساني ، وجد لنفسه قيادة من آل محمد، في صورة الفريق العباسي الهاشمي .. وبدات مهمة استبدال الدولة الاموية بالعباسية تلح على التنفيذ ، وبدات محاولة التجاوز عن البيعة التي عقدت للنفس الزكية يسعى بها ابو مسلم وانصاره لازاحة التيار القومي الشوروي من الطريق ..

فبعد القبض على ابراهيم الامام في « الحميمة » ،رحل أبو العباس السفاح مع أهل بيته الى الكوفة ، سرا ونزل على « وزير آل محمد » ابو سلمة حفص بن سليمان الهمداني الخلال .. وعلم أبو سلمة بموت ابراهيم الامام

---

(٢٢٢) المصدر السابق . جـ ٩ ص ١٢٣ . و (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٢٢٣) (تاريخ الطبري) جـ ٧ ص ٤٢٣ (طبعة المعارف — احداث سنة ١٣٢ هـ) .

على يد مروان بن محمد ، فعزم على جعل الامر فى آل على أى فى محمد بن عبد الله بن الحسن ، بدلا من بنى العباس وكما يقول الطبرى : فلقد أراد أبو سلمة « تحويل الامر الى آل أبى طالب . . وبدا له ـ « من البداء بمعنى اعادة النظر والعودة والتراجع » ـ فى الدعاء الى ولد العباس، واضمر الدعاء لغيرهم . . » فانزل السفاح وآله ، سرا ، بدار الوليد بن سعد ، مولى بنى هاشم ، « وكتم امرهم نحوا من أربعين ليلة عن جميع القواد والشيعة . . » . .
ولكن انصار أبى مسلم فى الكوفة علموا خبر وجود السفاح وما اضمره أبو سلمة ، فسعوا الى منزل الوليد بن سعد، ودخلوا على بنى العباس ، وسلموا على السفاح بالخلافة وامارة المؤمنين . . ولما فشا الامر ، وأدرك أبو سلمة أن تدبيره قد انتقض ، دخل هو الآخر على السفاح وسلم عليه بالخلافة ، فأعلنه أنصار ابى مسلم بأنهم قد كشفوا تدبيره ، وأن بيعته للسفاح انما هى تسليم بالأمر الواقع ، وقال له أحدهم ـ أبو حميد ـ : « على رغم انفك ياماص بظر أمه » (٢٢٤) !

وأدرك السفاح والمنصور أن هناك خلافا على جعل الامر فيهم ، ولكن خشيتهم كانت من أن يكون أبو مسلم قد تحول عنهم كما هى حال أبى سلمة ، وقال رجل منهم : « ما يدريكم ، لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأى أبى مسلم ! » فخافوا جميعا ، ولم يجب أحد ، وقال السفاح ان كان الامر كذلك فنحن معرضون للبلاء . . ثم عزم على ان يبعث المنصور الى أبى مسلم ، فركب قاصدا « مرو »

---

(٢٢٤) المصدر السابق جـ ٧ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ . (طبعة المعارف ـ أحداث سنة ١٣٢ هـ) .

فاستقبله أبو مسلم ، وبعد ثلاثة أيام قضاها فى ضـــيافة
أبى مسلم ، سأله : « ما اقدمك ؟ » فأخبره بفعـــل ابى
سلمة ، فقال أبو مسلم : « فعلها أبو سلمة ؟! أكفيكموه! »
ثم طلب من مرار بن انس الضبى أن ينطلق الى الكوفة ،
وقال له : « اقتل أبا سلمة حيث لقيته » ، فكمن مرار
لابى سلمة وهو خارج من سمره لدى أبى العباس السفاح
فقتله « وقالوا : قتله الخوارج ! » (٢٢٥) ، فطابت نفس
بنى العباس واطمأنت لتأييد أبى مسلم وانصاره لهم ضد
المعتزلة ومحمد بن عبد الله بن الحسن . .

وكان أمر « مروان بن محمد » لا يزال قائما ، فلم
يكن قد فر ولا قتل بعد ، وجيوشه كانت لا تزال تحارب
الثائرين . . وكان مركز مقاومة بنى أمية للثورة فى العراق
متمثلا فى الجيش الذى يقوده ابن هبيرة ، والذى كـــان
يواجه فى « واسط » حصارا من جيش الثائرين الذى
يقوده الحسن بن قحطبة ، ولما طال الحصار ، وملت
القبائل المحاربة مع ابن هبيرة حربها لحساب مروان بن
محمد ، فكر ابن هبيرة فى أن يبايع هو وجيشه لمحمد بن
عبد الله بن الحسن ، وكما يقول الطبرى : « فلقد هم ابن
هبيرة أن يدعو الى محمد بن عبد الله بن حسن ، فكتب
اليه ، فأبطأ جوابه » . . وفى تلك الاثناء عاد المنصـــور
من رحلته الى « مرو » ، فوجهه السفاح الى « واسط »
« وجرت السفراء بين المنصور وابن هبيرة » ، وعرض عليه
الامان ، وان يكتب بذلك كتابا يمضيه الخليفة السفاح . .

---

(٢٢٥) المصدر السابق جـ ٧ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، (طبعة المعارف ـ احداث سنة ١٣٢ هـ) .

ولما كان جواب النفس الزكية قد ابطأ ؛ واخذ السفاح يرسل الرسل الى القبائل اليمانية من أصحاب ابن هبيرة، يعدهم ويمنيهم ، فلقد قبل ابن هبيرة البيعة لبنى العباس (٢٢٦) ، فانتقلت بقايا القوة والشرعية الخاصة بالدولة الاموية فى العراق الى صف العباسيين ، وانطلقوا بعد ذلك يطاردون مروان بن محمد ، فأجهزوا على بقايا دولته بالشام ، ولحقوا به فى مصر فقتلوه .. وتم لهم الامر الذى اغتصبوه !

***

هكذا نشأت الدولة العباسية ، كانتصار للتيار الشعوبى الملكى فى حركة التغيير التى شبت ضد الامويين، وهو الانتصار الذى تحقق ضد التيار القومى الشورى الذى كان يعبر عنه المعتزلة ومن معهم من الذين بايعوا لمحمد بن عبد الله بن الحسن كامام تعود به الخلافة شورى بين المسلمين كما بدأت على عهد الخلفاء الراشدين .

ومن هنا .. وبذلك وحده نستطيع أن نفسر موقف المعتزلة من الدولة العباسية ، منذ قيامها وحتى عصر المأمون .. ذلك الموقف الذى تمثل فى رفض هذه الدولة ، وحجب الشرعية عن خلافتها وخلفائها ،ثم تراوح بعد ذلك بين الرفض والمقاطعة وبين الثورة والخروج بالسيف لانتزاع السلطة منها ..

أما الرفض والمقاطعة فلقد ساد حتى مات عمرو بن عبيد سنة ١٤٤ هـ .. واما الثورة والخروج فلقد حدث فى سنة

(٢٢٦) المصدر السابق . جـ ٧ ص ٤٥٤ . (طبعة المعارف ـ احداث سنة ١٣٢ هـ) .

١٤٥ هـ بثورة المدينة التى قادها محمد بن عبد الله بن الحسن ، صاحب البيعة الشرعية .. ثم ثورة البصرة التى قادها اخوه ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، ضد ابى جعفر المنصور ..

المعارضة والمقاطعة :

لم تطل مدة حكم ابى العباس السفاح أكثر من أربع سنوات ، كانت فترة اجهاز على بقايا الامويين أساسا ، وتوطيد لاركان الحكم العباسى بالعسف والارهاب ، حتى لقد كان محمد بن عبد الله بن الحسن دائم التمثل بقول الشاعر :

يا ليت جور بنى مروان دام لنا
يا ليت عدل بنى العباس ما كانا !

وفى عهد السفاح قضى جيشه على مقاومة منصور بن جمهور الذى ظل يقاوم فى العراق وفارس والهند منذ حكم مروان بن محمد سنة ١٢٧ هـ حتى هزيمته امام جيش السفاح سنة ١٣٤ هـ ..

اما حكم المنصور فلقد دام اكثر من عشرين عاما ، وهو الذى شهد الوان المقاومة الاعتزالية لبنى العباس ، من المعارضة والرفض والمقاطعة الى الثورة والخروج بالسلاح ...

ولقد عاش عمرو بن عبيد فى حكم المنصور نحوا من ثمان سنوات ـ وكان موقفه ، وموقف المعتزلة تحت قيادته هو موقف المعارضة والمقاطعة للمنصور وحكمه ودولته .. وذلك بعد ان كان المنصور تلميذه « ايام كان يختلف الى

المعتزلة » كأحد أعضاء تنظيمها ، بل لقد كان عمرو بن عبيد اثيرا جدا لدى المنصور ، فكانت نفقة عمرو يجمعها له المنصور ، ثم تغير الوضع بعد اغتصابهم السلطة من الامام المعتزلى محمد بن عبد الله بن الحسن .. وبعبارة القاضي عبد الجبار ، فان المنصور « كان اذا دخل البصرة ينزل على عمرو بن عبيد ، ويجمع له نفقته ، ويحسن اليه ، فعند الخلافة شكر له ذلك » (٢٢٧) ؟!

ولقد بذل المنصور محاولات كثيرة وكبيرة لجذب المعتزلة الى خدمة الدولة العباسية وتأييدها ، وزاد من اجلاله لزعيمها عمرو بن عبيد ، وحاول تقريبه منه والحفاظ على علاقاته السابقة به ، ولكنه فشل فى ذلك تماما ... فعندما طلب من عمرو أن يأمر المعتزلة بالتعاون مع الدولة رفض بحجة أنها دولة ظالمة .. قال المنصور :

ـ « يا أبا عثمان ، أثتنى بأصحابك أستعن بهم .

ـ قال عمرو : اظهر الحق يتبعك أهله ـ « والحق هنا معناه واسع يشمل اعطاء الإمامة لصاحبها الشرعى ! » ـ ومر عمالك بالعدل والانصاف .

ـ فقال المنصور : انى لأكتب لهم بالطوامير (٢٢٨) ، فآمرهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فاذا لم يعملوا فما عسانا نفعل ؟!

ـ قال عمرو : بمثل اذن الفارة يجزيك عن الطومار ، وانك لتكتب فى حوائجك فينفذونها ، وتكتب اليهم فى طاعة الله فلا ينفذون . انك لو لم ترض من عمالك الا بالعدل لتقرب به اليك من لا نية له فيه . ان الملوك بمنزلة السوق

(٢٢٧) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٣٤ .

(٢٢٨) صحائف الورق .

وانما يجلب الى السوق ما ينفق فيها .. ان حاشيتك اتخذوك سلما لشهواتهم ؛ فأنت كالآخذ بالقرنين ، وغيرك يحلب ! ان هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئا ...

ــ فقال المنصور : ــ وقد نزع خاتمه ــ هذا خاتمي . خذه ؛ وول من شئت ؛ وائت بأصحابك أولهم !

ــ قال عمرو : ان أصحابي لا يأتونك وهؤلاء الشياطين على بابك ؛ فان هم أطاعوهم اغضبوا الله ؛ وان عصوهم اغروك وألبوك عليهم ــ « والشياطين الذين عناهم عمرو هم الخراسانية جند أبي مسلم واتباعه » .. أدعنا بعدلك تسخ انفسنا بعونك . ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم انك صادق !

ــ فقال المنصور : وقد رغب عمرو في الانصراف ــ أمرنا لك بعشرة آلاف .

ــ قال عمرو : لا حاجة لي فيها .

ــ فقال المنصور : والله لتاخذنها .

ــ قال عمرو : والله لا آخذها .

ــ فقال المهدي : ــ وكان حاضرا ــ يحلف أمير المؤمنين، وتحلف أنت ؟!

ــ فقال عمرو : من هذا الفتى ؟

قال المنصور : هذا محمد ابني ، وهو المهدي ، وهو ولي عهدي .

ــ فقال عمرو : اما والله لقد ألبسته لباسا ماهو من لباس الابرار ، ولقد سميته باسم ما استحقه عملا ، ولقد مهدت له أمرا أمتع ما يكون به ؛ اشغل ما يكون عنه ! ــ ثم التفت الى المهدي وقال ــ : نعم يابن اخي ،

اذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لان اباك اقوى على الكفارات من عمك ؟!

ـ قال المنصور : بلغني أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب اليك كتابا !

ـ فقال عمرو : قد جاءني كتاب يشبه ان يكون كتابه .

ـ قال المنصور : اجبته ؟

ـ فقال عمرو : ألست قد عرفت رأيي في السيف أيام كنت تختلف الينا ؟

ـ قال المنصور : أفتحلف ؟

ـ فقال عمرو : ان كذبتك تقية لاحلفن لك تقية ؟!

ـ قال المنصور : انت والله الصادق البار ! .. فهل لك من حاجة ؟

ـ فقال عمرو : نعم ، لا تبعث الى حتى اجيئك ! .

ـ قال المنصور : اذا لا تلقني ابدا !

ـ فقال عمرو : هي حاجتي !

فاستودعه الله ، ونهض ، فاتبعه المنصور ببصره ، وقال :

كلكم يمشي رويـــــد كلكم يطلـــــب صـــيد
غير عمرو بن عبيد ! » (٢٢٩)

وكان عمرو بن عبيد لا يتسامح مع أحد من المعتزلة ان هو عمل في خدمة العباسيين ، وعندما ولي ولاية الاهواز احد أصحابه ـ وهو شبيب بن شبة ـ قاطعه عمرو ، فلما زاره يوما رفض أن يكلمه .. ويروى الرواة أن شبيب

(٢٢٩) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥ . و (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ و (عيون الاخبار) مجلد ١ ص ٣٠٩ ، مجلد ٢ ص ٣٣٧ . و (امالي المرتضى) ق ١ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

عطس فى حضرة عمرو ، فلم يقل له : يرحمك الله ؛ فجعل شبيب يرفع صوته بعبارة : الحمد لله ، ثم يكررها، فقال له عمرو : « لو أعدتها حتى تخرج نفسك ماسمعت منى : رحمك الله » (٢٣٠) .

وكان فريق من فتيان المعتزلة ورجالاتها يحبذون مناجزة العباسيين بالقتال والخروج عليهم بالسيف ، ولكن مذهب عمرو فى التمكن ، واستكمال شروط الخروج ، وربما تجارب الفشل أيام زيد بن على سنة ١٢٢ هـ ويحيى بن زيد سنة ١٢٥ هـ ويزيد بن الوليد سنة ١٢٧ هـ كلها كانت تزيد من اصراره على الوقوف فى تلك المرحلة عند المعارضة والمقاطعة للعباسيين ، ولقد انتقد أبو عمرو الزعفرانى موقف عمرو بن عبيد هذا ، بل هاجمه قائلا له :

ـ « انى اخالك جبانا !

ـ فقال عمرو : ولم ؟!

ـ قال الزعفرانى : لانك مطاع ، ولا تناجز هذا الطاغية !

ـ فقال عمرو : ويحك ! هل الجند أشد من جندهم ؟ ورجالى أشد من رجالهم ؟! اما رايت صنيعهم بفلان ، وخذلانهم لفلان ؟! .. والله لوددت أن سيفين اختلفا فى بطنى حتى يبلغا منحرى ، كلما انتهيا الى ذلك أعيدا ، وان الناس أقيموا على كتاب الله وسنة نبيه » (٢٣١) !

وقال أيوب الفزارى يوما لعمرو بن عبيد : « ما تقول فى رجل رضى بالصبر على ذهاب دينه ؟! فقال : انا ذاك !

---

(٢٣٠) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٣٦ .

(٢٣١) المصدر السابق . ص ٢٣٦ .

فقال أيوب : وكيف ، ولو دعوت اجابك ثلاثون الفا؟! فقال عمرو : والله ما أعرف موضع ثلاثة اذا قالوا وفوا ، ولو عرفتهم لكنت رابعهم » (٢٣٢) !

ويقال أن عمرو بن عبيد كان يشترط لتمام التمكن من الخروج أن يجتمع له ثلثمائة وبضعة عشر رجلا من نوعه هو ، وهم عدة الذين قاتلوا مع الرسول فى غزوة بدر فهزموا أضعافهم من المشركين .. ويقال كذلك أن اشتراطه هذا النوع من الرجال — المماثل له — قد أدخل الطمأنينة على أبى جعفر المنصور ، حتى قال ردا على من أنبأه : « أن عمرو بن عبيد خارج عليك .. فقال : هو لا يرى أن يخرج على الا اذا وجد ثلثمائة وبضعة عشر رجلا مثل نفسه . وذلك لا يكون » (٢٣٣) ؟!

ولقد كان ذلك هو ماحدث بالفعل .. فلما مات عمرو ابن عبيد سنة ١٤٤ هـ ، بدأت ثورة المعتزلة ضد العباسيين سنة ١٤٥ هـ .

ثورة المدينة :

قاد هذه الثورة محمد بن عبد الله بن الحسن ، وهو الامام الذى عقدت له المعتزلة والزيدية وغيرهما الامامة عندما اضطرب أمر الامويين زمن مروان بن محمد ، والذى بايعه العباسيون قبل أن ينكثوا بيعتهم له ويغتصبوا السلطة منه ومن المعتزلة وعامة المسلمين ..

---

(٢٣٢) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٥٢٢ (طبعة المعارف — أحداث سنة ١٤٤ هـ) .

(٢٣٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٣٢ . و (باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والامل) ص ٢٤ .

وكان النفس الزكية ، واخوه ابراهيم قد اختفيا عن أعين بني العباس منذ سنة ١٢٢ هـ .. وكان السفاح يلح في طلبهما ، ويكتب الى أبيهما عبد الله بن الحسن يقول له عنهما ماقاله الشاعر :

أريد حياته ويريد قتلي
عذيرك من خليلك من مراد (٢٣٤) !

ولكن طلب المنصور لهما كان أشد من طلب السفاح .. وكان نفر من بني هاشم يخففون الامر على المنصور بقولهم : ان اختفاء محمد راجع الى معرفته بأنك قد بايعته من قبل بالخلافة ، فهو « يعلم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم ، فهو يخافك على نفسه ، ولا يريد لك خلافا » ... ولكن نفرا آخر حذر المنصور ، وانبأه أن النفس الزكية يستعد للخروج ، وقال له : « والله ما آمن وثوبه عليك ، وانه لا ينام ! فر رأيك فيه ! » .. ولقد اطلع المنصور عبد الله بن الحسن على كتاب بعثه النفس الزكية الى هشام بن عمرو التغلبي يدعوه فيه الى نفسه ؛ فحاول عبد الله بن الحسن ، عبثا ، أن يهدىء من مخاوف المنصور .. (٢٣٥) .

وكان المنصور يعلم ما للنفس الزكية من سمعة حسنة بين المسلمين ، وما له في اعناق الكثيرين من بيعة تمت بالشورى والاختيار ، كما كان يعلم مذهب المعتزلة في الاستعداد للتمكن من النجاح في الثورة والوثوب .. ولقد استقر في نفوس الناس ، حتى عامتهم أن خروج النفس الزكية أمر محتم حتى قيل : انهم « كانوا يجدون خروجه

---

(٢٣٤) (الاغاني) جـ ٢٤ ص ٨٣١١ .
(٢٣٥) المصدر السابق . جـ ٢٤ ص ٨٣١٢ ، ٨٣١٣ .

على أبى جعفر فى الرواية » (٢٣٦) والمأثورات ؟! .. ولذلك قرر المنصور أن يحارب هذه الثورة المنتظرة بخطة ذات شعب ثلاث :

أولاها : أن يدس فى صفوفها العيون كى يختبر المواقف والاشخاص .. فلقد أرسل يوما رسولا الى عمرو بن عبيد ، بكتاب على لسان النفس الزكية ؛ فقرا عمرو الكتاب ، ثم وضعه ، ولما طلب الرسول الجواب قال له : ليس له جواب ، قل لصاحبك : دعنا نجلس فى هذا الظل ونشرب من هذا الماء البارد حتى تأتينا آجالنا في عافية ! ولم تجز عليه حيلة المنصور ودسيسته (٢٣٧) .

ولكن حيلة مثل هذه جازت على عبد الله بن الحسن - والد النفس الزكية ، فلقد بعث اليه المنصور عقبة بن سلم بن نافع بن الازدر الهنائى ، بكتاب على لسان المعتزلة القاطنين ببعض قرى نواحي خراسان ، والح عقبة - وهو متنكر - على عبد الله بن الحسن أن يكتب له جوابا الى الانصار الذين أرسلوه .. فقال له عبد الله بن الحسن : « أما الكتاب فانى لا اكتب الى أحد ، ولكن أنت كتابى اليهم ، فأقرئهم السلام ، وأخبرهم أن ابنى خارج لوقت كذا ... وكذا .. » فأسرع عقبة الى المنصور ، واخبره الخبر .. (٢٣٨) .

وثانيتها : أن يضيق عليهم الخناق ويرهقهم من امرهم عسرا .. فجند العيون والجواسيس من رقيق الاعراب ،

---

(٢٣٦) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٥٥١ (طبعة المعارف - أحداث سنة ١٤٤ هـ) .

(٢٣٧) (عيون الاخبار) مجلد ١ ص ٢٠٩ .

(٢٣٨) (الاغانى) جـ ٢٤ ص ٨٣١٤ .

وجعل لاحدهم البعير والآخر البعيرين ، وانطلقوا فى مظان النفس الزكية واخيه ، فى صورة عابرى السبيل والضالين ووارديى المياه ؛ يظهرون فجأة ويفرون سريعا،ويتجسسون .. (٢٣٩) حتى اضطر النفس الزكية الا يقيم بمـــوطن الا بقدر مسير البريد من موطنه هذا الى العراق (٢٤٠) ..
ولقد اضطرته المطاردة والتضييق الى أن يذرع أقطـــار الارض من المدينة الى مكة الى الكوفة الى البصرة الى عدن الى السند ؛ راكبا البحر حينا وسالكا الصحارى وشعاب الجبال احيانا ، حتى لقد سقط منه ابنه الصغير من فوق قمة جبل بالحجاز فى احدى المطاردات ، فمات !.. وحتى اضطر الى التنكر بالعمل فى رفع الماء من بعض آبار المدينة « يناول أصحابه الماء ، وقد انغمس فيه الى راسه » ..
وحتى اضطر أخوه ابراهيم الى الاختفاء من المنصور فى الكوفة عندما هجمها بحثا عنه ، فلما ضاقت عليه الارض فلم يجد ملجأ اضطر الى التنكر والجلوس على مائدة طعام المنصور ؟! .. (٢٤١) .

وثالثها : العمل على التعجيل بثورتهم وخروجهم قبل أن يكتمل لهم التمكن والاستعداد . ولتحقيق ذلك كان يطمعهم ويغريهم بالكتب المزورة على السن قواده وأنصاره الى النفس الزكية « يدعونه الى الظهور ، ويخبرونه أنهم معه ، فكان محمد ــ « يصدق ذلك » ــ ويقول : لو التقينا

---

(٢٣٩) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٥١٩ (طبعة المعارف ــ أحداث سنة ١٤٤ هـ) .
(٢٤٠) المصدر السابق . جـ ٧ ص ٥٣٤ (طبعة المعارف ــ احداث سنة ١٤٤ هـ) .
(٢٤١) المصدر السابق . جـ ٧ ص ٥٥٢ . (طبعة المعارف ــ أحداث سنة ١٤٥ هـ) .

مال الى القواد كلهم » (٢٤٢) ! وأيضا باعتقاله اباهم عبد الله بن الحسن ، واعمامهم : حسن بن الحسن ، وداود بن الحسن ، وابراهيم بن الحسن ، ومحمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان ــ وهو اخوهم لامهم : فاطمة بنت الحسين ــ وعددا كبيرا من آل على ، شدهم المنصور فى الوثاق ، ومعهم نحو من اربعمائة من القبائل الموالية لهم بالمدينة مثل جهينة ومزينة وغيرها ، ساقهم الى السجن بالهاشمية فى العراق ، حيث سجنوا فى ظلام دامس ودائم حتى كانوا لا يعرفون مواقيت الصلاة « الا بأحزاب كان يقرؤها على بن الحسن » ! .. ثم بدأ يقتلهم واحدا ، بعد واحد ، بالتدريج ..

وعندما قتلوا محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أخذوا رأسه فطافوا بها فى المدن ، وكانوا يحلفون للناس انها رأس محمد بن عبد الله ، موهمين اياهم أنه النفس الزكية ، حتى يتحلل الناس من بيعتهم له ، ويقلعون عن تعلقهم به وانتظارهم لخروجه وثورته على المنصور ! ..

ولقد أثمرت هذه الخطة ، ذات الشعب الثلاث : التعجيل بخروج محمد بن عبد الله بن الحسن قبل اتمام الاستعداد ، حتى قال البعض عن ذلك : « ان محمدا احرج فخرج قبل وقته الذى فارق عليه أخاه ابراهيم » وان الحاح المنصور وعامله على المدينة رياح بن عثمان ابن حيان المرى « احرج محمدا حتى عزم على الظهور» (٢٤٣) !

(٢٤٢) المصدر السابق . جـ ٧ ص ٥٥٩ (طبعة المعارف ــ أحداث سنة ١٤٥ هـ) .
(٢٤٣) المصدر السابق . جـ ٧ ص ٥٥٢ (طبعة المعارف ــ أحداث سنة ١٤٥ هـ) .

هكذا اجبرت خطة المنصور النفس الزكية على اجهاض الاستعداد للخروج .. فأعلن ثورته بالمدينة فى أول رجب سنة ١٤٥ هـ - ويقال لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة - ولقد اهتزت المدينة لظهوره فيها - وكانوا ينادون عليه : المهدى ! المهدى ! - واضطرب الامر حتى اسرع النـــاس لشراء الطعام . فباع البعض حلى نسائه ! .. وهجم محمد ابن عبد الله بأنصاره على السجن فأفرج عمن فيه ، ووضع الوالى وأصحابه مكانهم - واستولى على بيت المال ... وخطب فى الناس خطبة أدان فيها اغتصاب العباســيين للحكم والخلافة ، واعلن « ان أحق الناس بالقيام بهــذا الدين أبناء المهاجرين الاولين والانصار المواسين » .. وكان شعاره وشعار ثورته اللون الابيض ، فبيض وبيض الناس. على حين كان السواد شعار العباسيين .. وأعلن فى الناس ان البيعة قد تمت له ، وانها عامة وشاملة ، وقال : «والله ماجئت وفى الارض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذ لى فيه البيعة .. » .. وجعل فى ولاية المدينة : عثمان بن محمد ابن خالد بن الزبير ، وعلى قضائها : عبد العزيز بن المطلب ابن عبد الله المخزومى ، وعلى شرطتها : أبا القلمس عثمان ابن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعلى ديوان العطاء : عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المســور ابن مخرمة .. وافتى بالخروج معه وتأييده مالك بن أنس ولما سأله الناس : ان فى أعناقنا بيعة لابى جعفر ؟ قال : « انما بايعتم كارهين ، وليس على كل مكره يمين ! » فأسرع الناس الى بيعة النفس الزكية .. (٢٤٤) ، وبايعه

(٢٤٤) المصدر السابق . جـ ٧ ص ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦ - ٥٦٠ (طبعة المعارف - أحداث سنة ١٤٥ هـ) .

العلويون ، وولد جعفر وعقيل ابنى أبى طالب ، وولد عمر ابن الخطاب ، وولد الزبير بن العوام ، وسائر قريش ، وأولاد الانصار .. (٢٤٥) ، وشرع يرسل الولاة من قبله الى المدن والاقاليم ، ويرسل الرسل والدعاة الى الانحاء ؛ فولى على مكة الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وعلى اليمن : القاسم ابن اسحاق ، وعلى الشام : موسى ابن عبد الله .. وولى أمر السلاح : عبد العزيز بن الداراودى .. (٢٤٦) ، وكان قد بعث باخوته وأولاده الى البلاد دعاة لبيعته ومبشرين بظهوره وامامته ، فبعث الى مصر ، على بن محمد ، والى خراسان : عبد الله بن محمد ، والى اليمن : الحسن بن محمد ، والى الجزيرة : موسى بن عبد الله ، والى الرى : يحيى بن عبد الله ، والى المغرب : إدريس بن عبد الله .. كما أن البصرة كان بها أخوه ابراهيم بن عبد الله بن الحسن .. (٢٤٧) .

ولقد وصل خبر ظهور النفس الزكية الى المنصور وهو بمكان على نهر دجلة يدعى « الخلد » ، فاستشار أصحابه ، فبشروه بفشل ثورة محمد بن عبد الله ، لان المدينة لاتملك مقومات الصمود والصبر على الحصار ، فهى بلد لا مال فيها ولا رجال ، ولا سلاح ولا كراع ، أهلها « ليسوا بأهل حرب ، بحسبهم ان يقيموا شأن انفسهم ! » ، وطلبوا منه أن يوجه جيشه ويجمع جموعه لما سيحدث بالبصرة ، مركز الاعتزال وشيعة العلويين .. فشرع المنصور فى ذلك

---

(٢٤٥) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٢٣٣ .

(٢٤٦) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٥٦١ (طبعة المعارف ــ أحداث سنة ١٤٥ هـ .

(٢٤٧) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٢٣٤ .

لساعته .. كما شرع فى حصار المدينة اقتصاديا ، فمنع الطعام والحبوب التى تأتى المدينة من الشام عن طريق حصارها عند وادى القرى (٢٤٨) ، وطلب الى والى مصر أن يسد خليج أمير المؤمنين الذى حفره عمرو بن العاص عام الرمادة سنة ٢٣ هـ كى تصل عن طريقه الحبوب والغذاء من مصر الى بحر القلزم : أمر بسده حتى لايأتى الى المدينة مدد من أنصار النفس الزكية بمصر (٢٤٩) .. ثم كتب الى كل أمراء البلاد أن يرسلوا اليه الاجناد : بحيث يتوالى وصولها كل يوم ، وكانت الكوفة مركز التجمع والاستعداد لخروج البصرة وثورتها المنتظرة ..

أما المدينة فلقد أرسل اليها جيشا من جند خراسان، يقوده عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، ومعه محمد بن أبى العباس السفاح .. وجهز هذا الجيش تجهيزا عاليا : وأغدق عليه المال والميرة والسلاح والخيل والبغال ..

ولقد أدرك النفس الزكية حرج مركزه فى المدينة . وضعف امكانياتها فى الصمود والقتال ؛ فاستشار أنصاره: فحبذ البعض الخروج عنها الى مصر ، وقالوا له : « ألست تعلم أنها أقل بلاد الله فرسانا وطعاما وسلاحا ، واضعفها رجالا ؟ فقال : بلى ، فقالوا : تعلم أنك تقاتل اشد بلاد الله رجالا وأكثرها مالا وسلاحا ؟ فقال : بلى : فقالوا : الرأى أن تسير بمن معك حتى تأتى مصر ، فوالله لا يردك راد ؛ فتقاتل الرجل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله

---

(٢٤٨) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٥٧٨ (طبعة المعارف ــ احداث سنة ١٤٥ هـ) .

(٢٤٩) القلقشندى (صبح الاعشى) جـ ٣ ص ٢٩٨ .

وماله » .. ولكن نفرا من أهل المدينة استعاذوا بالله من الخروج منها ، فهى مدينة الرسول ، وروى أحدهم عن الرسول حديثا يقول فيه : « رأيتنى فى درع حصينة ، فأولتها : المدينة » .. وطلبوا منه أن يبقى فى مدينة الرسول ، فهى الدرع الحصينة !

ولم يكن أنصار النفس الزكية يشكون من قلة ، فالى جانب أهل المدينة ، عامة ، كانت معه كل القبائل التى تحيط بها ، ومن بينها : جهينة ، ومزينة ، وسليم ، وبنو بكر ، وأسلم ، وغفار .. ولكن المدينة لم تكن صالحة للصمود فى الحصار ، خاصة بعد أن قطعت عنها امدادات مصر والشام ..

ولقد بدأ جيش المنصور حصاره لها فى اليوم الثانى عشر من رمضان سنة ١٤٥ هـ ، فسد منافذها بالخيل والرجال والسلاح الا منفذا واحدا فى ناحية مسجد أبى الجراح كى يفر منه من يرغب فى الهرب من جيش محمد ابن عبد الله أو أهل المدينة .. ولما اشتد الحصار خطب النفس الزكية فى أنصاره ، وقال : « أيها الناس ، ان هذا الرجل ــ « عيسى بن موسى » ــ قد قرب منكم فى عدد وعدة ، وقد حللتكم من بيعتى ، فمن أحب المقام فليقم ، ومن أحب الانصراف فلينصرف ! فتسللوا حتى بقى فى شرذمة ليست بالكثيرة » بعد أن كانوا نحوا من مائة ألف !

ودار القتال شديدا بين الفريقين ، وأبلى أصحاب محمد ابن عبد الله بلاء حسنا ، وكان على راياتهم شعار النبى يوم حنين : « أحد ، أحد ! » ولكنهم هزموا فى يوم الاثنين ، الرابع عشر من رمضان سنة ١٤٥ هـ ، وقتل النفس الزكية ، وقطعت رأسه فأرسلت الى المنصور ،

حيث طيف بها فى الآفاق .. أما أصحابه الذين صمدوا معه فى القتال فقتلوا ، ثم صلبوا صفين على جانبى الطريق مابين « ثنية الوداع » حتى دار عمر بن عبد العزيز . ووقف أمام كل صليب حارس يحول دون الجثة ودون أهلها حتى لا يواروها التراب ، ودام ذلك ثلاثة أيام ، حتى تأذى الناس من الرائحة ، فأمر عيسى بن موسى بالجثث فألقيت من فوق جبل سلع لتسقط فى « المفرح » مقبرة اليهود (٢٥٠) !

وهكذا أخفقت هذه الثورة التى قادها النفس الزكية كى يعيد بها الخلافة شورى ، وأجهضت عندما فقدت شرط التمكن الذى كان عمرو بن عبيد شديد الحرص على التمسك به والتأكيد عليه .

ثورة البصرة :

لم تكن ثورة البصرة التى قادها ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، أخو النفس الزكية ، مستقلة عن ثورة المدينة التى تحدثنا عنها ، بل كانت جزءاً منها وتابعة لها .. فلقد كان محمد وابراهيم معا ، يدبران ويختفيان ، كما كانا عضوين فى تنظيم المعتزلة ومن أئمة هذا التنظيم .. ولقد كان الاجل المضروب بينهما لاعلان الثورة فى الحجاز والعراق فى آن واحد لم يحن بعد عندما نجحت خطة المنصور فى اجبار النفس الزكية على التعجيل بظهوره واعلان ثورته بالمدينة ، ولذلك يروى البعض أن نبأ ظهور

(٢٥٠) (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٥٧٧ ـ ٥٨٥ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ (طبعة المعارف ـ أحداث سنة ١٤٥ هـ) .

النفس الزكية عندما جاء الى ابراهيم بالبصرة ، مع امره له بالظهور واعلان الثورة هو أيضا ، أصاب ابراهيم الرعب والغم والوجوم .. ولكن أصحابه سهلوا عليه الامر .. (٢٥١) ، وكان ابراهيم مختفيا قبل ذلك فى البصرة ، يتردد بينها وبين الكوفة ، ويأخذ البيعة لاخيه النفس الزكية بامرة المؤمنين .. وكان والى البصرة من قبل ابى جعفر المنصور - سفيان بن معاوية - يميل الى غض الطرف عن نشاطه الثورى ضد الدولة ، بل لقد قيل أنه بايعه سرا ، وضلل اثنين من قادة المنصور كانا قد حضرا يرقبان الامر ويتجسسان أخبار ابراهيم ، وفى الليلة التى ظهر فيها ابراهيم - أول ليلة من رمضان سنة ١٤٥ هـ - دعاهما سفيان عنده ، فاحتبسهما حتى يسهل لابراهيم الخروج، فخرج ابراهيم بأنصاره ، واقتحم السجن فأخرج من فيه من المعارضين ، وكانت عدة جند جيش ابراهيم الذين يأخذون العطاء من ديوانه يوم خرج اربعة آلاف ، فيهم كوكبة من فرسان المعتزلة وابرز المقاتلين الذين قاتل بعضهم فى ثورة يزيد بن الوليد وما بعدها من الوقائع وأيام اللقاء ..

ولقد استقر الامر لابراهيم فى البصرة والاهواز وفارس واكثر سواد العراق ، ولما بلغه خبر مقتل النفس الزكية، حول انصاره البيعة بالامامة له ، وازدادت عزيمتهم وتصميمهم على قتال المنصور ، لان من يقتل النفس الزكية لابد أن يكون جديرا بالعداء مستوجبا للقتال ، وبعبارة الطبرى : فان ابراهيم لما اتاه نعى أخيه .. « أخبر الناس

---

(٢٥١) المصدر السابق . جـ ٧ ص ٦٢٨ (طبعة المعارف - أحداث سنة ١٤٥ هـ) .

.. فازدادوا فى قتال ابى جعفر بصيرة ! » وعند ذلك خرج ابراهيم بجيشه « فى المعتزلة وغيرهم من الزيدية ، يريد محاربة المنصور » (٢٥٢) ، وكان ذلك بعد العيد ..

والتقى ابراهيم بجيشه مع جيش المنصور فى «باخمرى» من أرض « الطف » على مسافة ستة عشر فرسخا من الكوفة (٢٥٣) ، وكان على جيش المنصور عيسى بن موسى ، الذى قاتل النفس الزكية بالمدينة فى رمضان .. وكاد النصر أن يكون من نصيب ابراهيم وجيشه ، بل لقد بدأ أصحاب عيسى بن موسى فى الفرار .. وكان الحر شديدا ؛ فتضايق ابراهيم من « قبائه الزرد » ؛ ففك أزراره ، فنزل الزرد الى ما تحت ثديه ، وحسر عن لبته (٢٥٤) ، فاتته نشابة عائرة – « أى نبل لا يدرى من رمى به » – فأصابته فى لبته ، فعانق فرسه ، وتقهقر ، فاستدار أصحاب عيسى بن موسى ؛ وشغل أصحاب ابراهيم بأمره ، فدارت الدائرة عليهم ، « فقتل ابراهيم وقتلوا عن آخرهم وقتلت المعتزلة بين يديه صبرا وكان فيهم بشير الرحال – من أئمة المعتزلة – يقاتل بين يدى ابراهيم ، وعليه مدرعة صوف ، متقلدا سيفا حمائله تسعة ، تشبها بعمار ابن ياسر ! .. وكان بشير زاهدا ؛ سمى بالرحال لانه كانت له رحلة للحج كل عام ، وهو القائل يعبر عن بغضه للمنصور : ان فى قلبى حرارة لا يسكنها الا برد العدل

---

(٢٥٢) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ١٥٤ .
(٢٥٣) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٢٣٥ .
(٢٥٤) اللبة : موضع القلادة من الصدر .

أو حر السيف ! (٢٥٥) .. » . ولقد أسكنها حر السيف عندما قاتل ثم قتل مع وجوه أصحابه فى يوم الاثنين لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ ، اى بعد ظهور ابراهيم فى البصرة بثلاثة اشهر الا خمسة ايام ..

والدور الذى نهض به قادة المعتزلة فى ثورة البصرة يتحدث عنه قتال رجالاتهم فى معارك هذه الثورة ، وخاصة يومها الاخير ، كما تتحدث عنه دورهم فى الجهاز الادارى والعسكرى الذى أقامته هذه الثورة منذ اعلانها ، فكانت قيادة الشرطة فى المعتزلة ، تولاها ابراهيم بن نميلة العشمى ، وكان خليفة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن . وكان على القضاء عباد بن منصور .. اما مقدمة الحشر، فكان عليها المضاء بن القاسم الثعلبى .. وكان صاحب راية القتال عبد الله بن خالد بن عبيد الله الحدلى ... وكان الوالى على فارس : عمرو بن شداد .. كما كان هناك كثيرون من الفرسان، ورماة الحدق (٢٥٦) ، الذين تحدث عنهم البلخى والجاحظ والقاضى عبد الجبار .. ولما انهزمت الثورة فر عدد من الذين نجوا من القتل الى بلاد المغرب ــ وفيهم بعض أولاد بشير الرحال ــ فلحقوا بمعتزلتها ، وأسهموا فى نشر الاعتزال هناك (٢٥٧) .

---

(٢٥٥) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ١٥٤ . و (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١٣ .

(٢٥٦) الحدق ــ تضبط بفتح الحاء والدال ــ والحدقة : سواد العين الاعظم . والمراد : مهرة الرماة .

(٢٥٧) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢١٢ ــ ٢١٥ . و (تاريخ الطبرى) جـ ٧ ص ٦٢٢ ــ ٦٢٤ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٣ ــ ٦٣٨ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ . (طبعة المعارف ــ احداث سنة ١٤٥ هـ) . و (باب ذكر المعتزلة ــ من كتاب المنية والامل) ص ٢٤ .

هكذا قامت ثورة المعتزلة ضد المنصور سنة ١٤٥ هـ.
فاستمرت مابين المدينة والبصرة خمسة اشهر قبل ان
تهزم امام تفوق جند الخراسانيين . وهكذا أضاف
المعتزلة الى قائمة الائمة الذين استحقوا الامامة بالاختيار
والبيعة ، والعقد : محمد بن عبد الله بن الحسن ، واخاه
ابراهيم . لانهم — كما يقول القاضي عبد الجبار — : « ثبت
فى جملتهم من يصح ببيعته اقامة الامام ، خصوصا ابراهيم
فان عامة أصحابه كان من المعتزلة » (٢٥٨) .

---

(٢٥٨) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٤٩ .

الفصل الخامس

حقبة المعارضة والتأييد

كانت ثورة المعتزلة سنة ١٤٥ هـ هى آخر ثورات المعتزلة المسلحة ، ونهاية نشاطهم المسلح ضد العباسيين، وبعدها تميز نشاطهم من نشاط الزيدية ، وبدأت الزيدية تواصل مسيرة الخروج والمقاومة المسلحة ، منفردة بقيادة ذلك النمط من أنماط التغيير للسلطة ، ومحتفظة فى ذات الوقت بعلاقات فكرية تربطها بالمعتزلة ، ومتمتعة ، فى نشاطها هذا ، بتأييد قطاع من المعتزلة ، هم مدرسة البغداديين على وجه التحديد ..

ففى خلافة المأمون خرج وثار الامام الزيدى محمد بن ابراهيم بن طباطبا « المتوفى سنة ١٩٩ هـ سنة ٨١٤ م» .. وبعد موته بايعت الزيدية لمحمد بن محمد بن زيد بن على .. كما ظهرت فى بلاد الطالقان بخراسان دعوة زيدية قادها محمد بن القاسم بن عمر بن على بن الحسين سنة ٢١٩ هـ ، وبايعته الزيدية أماما مهديا ... وفى سنة ٢٥٠ هـ ظهر فى الكوفة يحيى بن عمر بن الحسين بن عبد الله بن اسماعيل بن جعفر بن ابى طالب ، وقاد الزيدية فى ثورته وثورتهم ضد العباسيين .. وفى نفس التاريخ قامت دولة زيدية ، كثمرة لثورة زيدية ، فى

طبرستان « ٢٥٠ — ٣١٦ هـ » .. وفى سنة ٢٨٨ هـ تأسست فى صنعاء ، باليمن أشهر دول الزيدية وأهمها : عندما بويع بالامامة يحيى بن الحسين سنة ٢٨٨ هـ .. (٢٥٩) . وهى الدولة التى ظلت قائمة حتى اسقطتها ثورة اليمن سنة ١٩٦٢ م .

كان هذا هو الاستمرار الزيدى فى المقاومة المسلحة والخروج .. اما المعتزلة فانهم سلكوا للمقاومة سبلا أخرى لم يكن من بينها الخروج المسلح : ربما لفقد شرط التمكن وتخلف ضمان النجاح ؛ وربما لعبرة الفشل فيما تقدم لهم من ثورات ؛ وربما لتزايد النشاط الفكرى والعقلى الذى استدعاه قيام التحديات الفكرية التى ظهرت من الشعوبية وفرق المانوية والمجوس ، وكذلك الغنوصية والنساطرة ثم النصارى واليهود .. وما تطلبه ذلك من الاهتمام بالفلسفة ، وفلسفة اليونان خاصة ، وأدوات الجدل العقلى ، ومنطق أرسطو بالذات : مما طبع المعتزلةبالطابع الفلسفى الغالب ؛ وكثر فى صفوفها الفلاسفة والحكماء . وباعد بينها وبين جماهير العامة ؛ فابتعد بها عن امتلاك وقود الثورة ، وأثقل خطاها على درب الثورة بقيود الحكمة والرزانة التى هى شأن الفلاسفة وطابع أصحاب النظر العقلى وديدن الحكماء .

أما السبل التى سلكتها المعتزلة فى معارضة الدولة العباسية ، فلقد كانت كثيرة ومتنوعة ..

* فهم قد تصدوا للفكر الشعوبى الذى أسفر عن وجهه ، وكذلك الذى استتر بمذاهب الفرس وفكرها الدينى القديم ، وما أدخله اصحاب هذا الفكر فى المجتمع

---

(٢٥٩) (ثورة زيد بن على) ص ١٥٦ — ١٦٢ .

العباسي من زندقة وتحلل والحاد ومجون . استخدموها كأسلحة لتسفيه أحلام العرب وهدم عقائد الاسلام .. ومن يقرأ الجزء الخامس من « المغنى » لقاضي القضاة عبد الجبار ابن أحمد يعلم جهد المعتزلة في محاربة الفرق التي ظهرت في ذلك العصر كي تجتث العروبة والاسلام من الاساس ..

* وهم قد ظلوا على موقف النقد والمعارضة للعباسيين مما جر عليهم الاضطهاد والسجن والتعذيب ، ولقد استمر ذلك حتى عهد المأمون « ١٩٨ ــ٢١٨ هـ ٨١٣ ــ ٨٣٣م » فدخل السجن فى عهد الرشيد أبرز قادة المعتزلة ومفكريهم سجنهم بالجملة ، وأصدر أوامره بمنع فكرهم والجدل فى نظرياتهم ، وتحريم علم الكلام ، الذى كانوا هم فرسانه وأول من أنشأه فى الثقافة الاسلامية ، حتى اضطر ــ كما سبق أن ذكرنافى القسم الاول من هذه الدراسة ــ الى الافراج عن نفر منهم كى يناظروا « السمنية » فى بلاط ملك السند عندما تحدى فكر الاسلام ، وأرسل بذلك الى الرشيد ... ومن الذين سجنوا فى ذلك العهد بشر بن المعتمر ، وثمامة بن أشرس .. وغيرهما كثيرون ..

* على أن أهم مظهر يجسد معارضة المعتزلة للعباسيين فى ذلك العصر كان تأسيس مدرسة المعتزلة البغداديين .. تلك المدرسة التى كان تأسيسها فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، أى عقب فشل ثورة سنة ١٤٥ هـ والتى كان مؤسسها بشر بن المعتمر « المتوفى سنة ٢١٠هـ ٨٢٥ م » .

وكل الذين أرخوا للمقالات ، وكذلك الذين أشاروا فى دراساتهم الى المعتزلة ومدارسها وتياراتها ، يتحدثون عن

وجود مدرستين في صفوف المعتزله .. على العهـــــد العباسي . مدرسه البصريين ومدرسه البغداديين .. دون أن يدر واحد منهم الأسباب التى اوجدت تلك الخلافات الفكريه . مما استتبع قيام مدرستين فى اطار الاعتزال ..

وقبل أن تقدم تفسيرا لهذه الظاهره ، نود أن ننبه الى أن هذه التسميات ـ البصريين والبغداديين ـ لا تعنى ان هذا التمايز والاختلاف قد حكمته أسباب جغرافية ، فمن بين من عاش ببغداد من أئمة المعتزلة من كان فى تيــــار المعتزلة البصريين . ومن بين المعتزلة البغداديين من لم يكن مستقره فى بغداد .. فهما مدرستان تتمايزان فكريا ، لا جغرافيا .. أما سر تسمية احداهما بالمعتزلة البصريين، والثانية بالبغداديين فراجع الى القضية التى من أجلهــا تم هذا التمايز والاختلاف فى اطار الاعتزال ..

فلقد مر فى الحديث عن الفضل ، والافضـــــل ، والمفضول ـ بالقسم الثانى من هذه الدراسة ـ ... ان قدامى المعتزلة ، أى أولئك الذين سبقوا عصر تأســيس بغداد « ١٤٥ هـ ٧٦٢ م » على يد المنصــور العبــاسى . كانوا يفضلون : ابا بكر ، فعمر ، فعليا ، فعثمان ... وان مدرسة المعتزلة البغداديين ، أى الذين ظهروا فى العصر العباسى ، بعد تأسيس بغداد ، قد أجتمعوا على تفضيل على بن أبى طالب على سائر الصحابة .. فتفضيل على كان هو القضية التى أوجدت ماسمى بمدرسة المعتزلة البغداديين ، وهى قضية أثارها هذا النفر من أئمة المعتزلة فى العصر العباسى ، أى عندما اغتصب العباســيون السلطة ، وضربوا وقهروا الثورة المعتزلية التى كــــان العلويون يحاربون فيها مع المعتزلة ، ثم استمروا فى قهر

ثورات العلويين ، زيدية وغير زيدية .. ومارسوا ضدهم ما مارسه الامويون ضد الهاشميين .. فكان تفضيل مدرسة البغداديين المعتزلية لعلى بن ابى طالب موقفا سياسيا تعاطفت فيه وبه هذه المدرسة مع العلويين المضطهدين ، واتخذت به موقفا مناوئا ومعارضا لسلوك العباسيين هذا ، بعد أن عجزت عن المناواة والمعارضة بالثورة والسيف والخروج .. فهو اذا موقف سياسى ، وليس مجرد جدل عقيم حول قضية عقيمة عفى عليها الدهر وتجاوزها الزمان .. !

أما مدرسة المعتزلة البصريين فانها هى التى استمر اعلامها يرون فى التفضيل ، وترتيب الصحابة فيه ، نفس مذهب أسلافهم الذين عاشوا قبل تأسس بغداد ، اى قبل العصر العباسى ، وسميت « بالبصريين » ، لان البصرة كانت فى ذلك التاريخ السابق موطن قيادة المعتزلة الذين قرروا هذا المذهب فى التفضيل ..

فهذا التمايز والخلاف الذى حدث بين المعتزلة ، كان المظهر المجسد للموقف السياسى الذى اتخذوه من الدولة العباسية ، عندما كان رفضهم للحكم العباسى يعبر عنه تأسيس مدرسة البغداديين الرافضة لقهر بنى العباس لثورات العلويين ونشاطهم السياسى ، وهو الرفض الذى استمر فى التعبير عن الموقف العام للمعتزلة ، حتى جاءت أواخر سنوات حكم الرشيد ، فبدأ فى المعتزلة تيار يهادن العباسيين ، ثم يمنحهم قدرا متزايدا وناميا من التأييد ، فتبلور هذا التيار فى مدرسة المعتزلة البصريين ..

واذا كانت نشأة مدرسة المعتزلة البغداديين قد ارتبطت بالسياسة ، كما أشرنا ، فان الحال كان كذلك

أيضا فى نشأة مدرسة المعتزلة البصريين .. فلقد أشرنا من قبل الى أن اغتصاب العباسيين للسلطة والدولة والثورة من المعتزله كان ثمرة لغلبة تيار العنصر الشعوبى الخراسانى . الذى قاده أبو مسلم الخراسانى ، على التيار القومى العقلانى الذى كان يمثله المعتزلة ومن والاهم ، ولم يؤد قتل المنصور لابى مسلم « ١٣٧ هـ ٧٥٤ م » الى تخليص الدولة من نفوذ ذلك التيار . وانما الذى حدث هو استبدال قبضة أبى مسلم العسكرية الفظة فى تعاملها مع الخلفاء الذين صنعهم ، بقبضة البرامكة الناعمة المترفة التى تملك الوزارة والنفوذ ، وتحتضن التيارات الفكرية الشعوبية ، وترعى أصحاب العقائد القديمة والنحل التى ناصبها المعتزلة العداء .. ولذلك فاننا نريد أن نلفت النظر الى ذلك العام ١٨٨ هـ ـ سنة ٨٠٣ م الذى تخلص فيه الرشيد من نفوذ هذه الاسرة وحكمها بما سمى « بنكبة البرامكة » ، وأن نؤرخ به لعهد جديد بدأ فيه العباسيون مرحلة حاولوا فيها الافلات من قبضة التيار الشعوبى الخراسانى الذى صنع خلافتهم ، وأن يقيموا نوعا من التوازن بين عناصر الامة والاصول الحضارية لاجناس رعاياها ، وذلك طلبا لاسترداد السلطة والنفوذ الذى استأثرت به الاسرة البرمكية ، وتقربا الى العناصر المعارضة والثائرة ، واستهدافا لبلورة الشخصية الموحدة للامة الواحدة ، مستفيدين من حالة الرخاء والامن التى سادت عصر الرشيد ، والتى جعلت الدولة لا تحتاج كثيرا ، كما كان الحال فى الماضى ، للقبضة الخشنة للجند الخراسانيين .

ونحن نريد أن نربط بين التخلص من نفوذ البرامكة ،

وبين افراج الرشيد ، بشكل جماعى ، عن ائمة المعتزلة المسجونين ، فليس ماتقدمه كتب المقالات والفرق من سبب لذلك بالمقنع وحده ، فهى تقول : انه أفرج عنهم ليناظروا رجلا من السمنية فى بلاط ملك السند (٢٦٠) ! وتلك ، لعمرى ، مهمة لا تحتاج للافراج عن حزب سياسى وفرقة مذهبية بكاملها ، وتخفيف مافرض عليهاوعلى فكرها ونشاطها من قيود .. اذ ان ذلك الهدف المتواضع يكفى فيه الافراج عن مناظر أو اثنين ، مثلا ، أما اطلاق سراح المعتزلة ، اعداء الشعوبية ، والذين قاتلوا ضد سيطرة الجند الخراسانى على الدولة العربية الاسلامية ، فاننا نراه ثمرة من ثمرات الجهد الذى بذله الرشيد لتخليص الدولة من تلك السيطرة التى كانت للشعوبية عليها بنكبته للبرامكة سنة ١٨٨ هـ .

ويؤكد مذهبنا هذا أن الرواية تذكر أن الرشيد قد اعتقل بشر بن المعتمر لانه قيلَ له : ان بشرا « رافضى »، اى علوى شيعى ، فلما قال بشر فى سجنه شعرا يوضح مذهبه ، وجاء فى هذا الشعر قوله عن مذهب المعتزلة :

لسنا من الرافضة الغلاة
ولا من المرجئة الجفاة
لا مفرطين ، بلَ نرى « الصديقا »
مقدما والمرتضى « الفاروقا »
نبرا من عمرو ومن معاوية

ونقل هذا القول الى الرشيد « أفرج عنه » (٢٦١) !. فهو افراج سياسى ، لاسباب فكرية وسياسية ، وهو

(٢٦٠) (باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والامل) ص ٣١ .
(٢٦١) المصدر السابق . ص ٣٠ .

تعبير عن تحول جزئي في موقف الدولة من المعتزلة ، جاء ثمرة لضرب النفوذ الشعوبي الذي كان البرامكة يمثلونه حقيقة ويرعونه عمليا في أوساط الفكر والادب ودواوين الحكم ببغداد ومختلف الاقاليم ..

ونحن نقول : ان هذا التحول في موقف الدولة العباسية كان جزئيا ، ولم يكن كليا ، لاننا نقيسه بمقاييس المعتزلة الفكرية والسياسية ، فهم قد ظلوا على موقفهم من أن نظام الحكم العباسي ملكي وراثي ، وليس بالخلافة الشورية ، وعلى موقفهم من معارضة قهر العباسيين للعلويين واستبعادهم لهم من مراكز الحكم ودوائر النفوذ والتأثير .. ولذلك فان اطلاق الرشيد لسراح المعتزلة لم ينه معارضة المعتزلة للحكم العباسي ، اذ استمرت المعارضة، بل والرفض ، قائمين في صفوف المعتزلة البغداديين ، على حين بدأ تيار المهادنة والتأييد لبني العباس ، في صفوف المعتزلة ، ينمو ويتبلور في شكل مدرسة المعتزلة البصريين ، وخاصة في عهود : المأمون « ١٩٨ ــ ٢١٨ هـ ٨١٣ ــ ٨٣٣ م » والمعتصم « ٢١٨ ــ ٢٢٨ هـ ٨٣٣ ــ ٨٤٢ م » والواثق « ٢٢٨ ــ ٢٣٣ هـ ٨٤٢ ــ ٨٤٧ م » وهم الخلفاء الذين تعاطفوا مع الفكر الاعتزالي ، وبلغ نفوذ المعتزلة على عهدهم قمة مابلغه من ازدهار ..

واذا شئنا أمثلة نضربها لمعارضة المعتزلة البغداديين ، بل ورفضهم لسلطة الدولة العباسية ، ومقاطعتهم أجهزة دولتها ووظائف دواوينها وادانتهم لنمط الحياة فيها .. فان هناك الكثير من هذه الامثلة .. فمنها ، على سبيل المثال :

١ ــ موقف أبي موسى عيسى بن صبيح المردار « المتوفى

سنة ٢٢٦ هـ سنة ٨٤٠ م » على عهد المعتصم ـ ولقد كان المردار زاهداً عابداً ، حتى لقب براهب المعتزلة ـ وكان موقفه من العباسيين ، بمن فيهم المعتصم ، الذى كـــان معتزليا ، هو موقف الرفض والادانة ، بل لقد أفتى بكفر من يخدم الدولة وسلطانها ، وحكم انه لايرث ولا يورث ! على حين أن غيره من البغداديين المعتزلة كان يقول ، فقط بفسق « من لابس السلطان » حتى من المعتزلة البصريين!.

والبغدادى يحكى هذا الرأى عن المردار ، ويعجب كيف لم يقتله العباسيون ، فيقول : « والعجب من سلطان زمانه ، كيف ترك قتله ، مع تكفيره اياه وتكفير من خالطه؟!»(٢٦٢).

٢ ـ موقف أبى محمد جعفر بن مبشر الثقفى « المتوفى سنة ٢٣٤ هـ سنة ٨٤٨ م » ، على عهد الواثق ـ الذى كان معتزليا أيضا ـ فلقد رفض ابن مبشر أن يتعاون مـع الدولة ، أو أن يلى القضاء فيها ، واستنكر قبول هداياها بل ورفض أن يستقبل الوزير المعتزلى أحمد بن أبى دؤاد .. ولما قال الواثق لابن أبى دؤاد : « لم لا تولى أصحابى ـ « أى المعتزلة » ـ القضاء ، كما تولى غيرهم ؟! » قال ابن أبي دؤاد : « يا أمير المؤمنين ، ان أصحابك يمتنعون من ذلك ، وهذا جعفر بن مبشر ، وجهت اليه بعشـــرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها ، فذهبت اليـــه بنفسى ، واستأذنت ،فأبى أن يأذن لى ، فدخلت من غير اذن ، فسل سيفه فى وجهى ، وقال : الآن حل لى قتلك ! ... فانصرفت عنه . فكيف أولى القضاء مثله ؟! » (٢٦٣) .

(٢٦٢) (الفرق بين الفرق) ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢٦٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٦٩ . و (باب ذكر المعتزلة) ص ٤٤ .

٣ ــ ومثل جعفر بن مبشر ، فى موقفه ، موقف ابى الفضل جعفر بن حرب الحمدانى « ١٧٧ ــ ٢٣٦ هـ ٧٩٣ ــ ٨٥٠ م » ، فعندما تمذهب بمذهب المعتزلة البغداديين، ترك مناصبه فى الدولة ، وكانت من كبار المناصب ، وتخلص من الاموال التى احتازها اثناء ملابسته لخدمة الدولة ، حتى ماكان منها ملابس يستر بها جسده .. فى قصص تروى عن موقف دونه مواقف القديسين (٢٦٤)!

٤ ــ موقف ابى عمران موسى بن الرقاش ــ « من الطبقة السابعة فى طبقات المعتزلة » ــ ، وكان يقيم الدولة العباسية تقييما يرى به أن دارها « دار كفر » ، ويحرم « المكاسب » التى تأتى فى ظلها وظل سلطتها وسلطانها (٢٦٥) ! .

٥ ــ موقف محمد بن اسماعيل العسكرى « من الطبقة السابعة فى رجالات المعتزلة » ــ .. وكان يناوىء الدولة العباسية ، ويحقر شأنها ، الى الحد الذى وصف فيه كتاب السلطان بقوله : « هذا الكتاب أهون على من التراب » (٢٦٦) !

٦ ــ موقف سعيد بن حميد بن بحر ــ « وكان وجها من وجوه المعتزلة » .. فلقد ادت معارضته لاحمد بن ابى دؤاد الى دخوله السجن عندما اتهمه ابن أبى دؤاد

---

(٢٦٤) آدم متز (الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى) جـ ٢ ص ٨٦ • ترجمة د• محمد عبد الهادى ابوريدة • طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م •

(٢٦٥) (باب ذكر المعتزلة) ص ٤٤ •

(٢٦٦) المصدر السابق • ص ٤٠ •

بالشعوبية والزندقة .. ولقد هجا ابن أبى دؤاد بقصيدة قال فيها :

لقـــد اصـــبحت تنسب فى ايـــاد
بأن يـكنى ابـــوك : ابـــا دؤاد
فلو كـــان اســمه عمـــرو بن معدى
دعيـــت الى زبيـــد أو مـــــراد
لئن افســدت بالتخـــويف عيشى
لمـــا اصـــلحت أصـــلك فى أيـــاد
وان تك قـــد أصبت طـــريف مـــال
فبخلك باليسير مـــن التـــلاد (٢٦٧) !

فهذه أمثلة من مواقف المعتزلة البغداديين الذين ظلوا على رفضهم للسلطة العباسية ، والمعارضة لهـــا ، والمقاطعة لجهـــاز حكومتها ، والذين كان تفضيلهم لعلى ابن أبى طالب وتقديمهم له ، وتعاطفهم مع العلويين ــ حتى سموا شيعة المعتزلة ــ موقفا سياسيا رفضوا به سـلطة بنى العباس وسلطانهم ..

***

أما تيار المعتزلة الذى ظل ، فى قضية التفضيل ، على مذهب قدماء المعتزلة من أهل البصرة ، والذى سمى لذلك بالمعتزلة البصريين ، تمييزا له عن تيار المعتزلة البغداديين، فلقد اتخذ من الدولة العباسية ، خاصة فى عهود المأمون، والمعتصم ، والواثق موقف المساندة والتأييد .

ولم يكن تأييده هذا يعنى التخلى عن فكر المعتزلة فى الامامة ورفض النظام الملكى فى توارث الخلافة ، لان عهد

(٢٦٧) (الاغانى) جـ ٢٠ ص ٦٩٣٩ ، ٦٩٤٠ .

المأمون ــ من وجهة نظر هذا التيار ــ كان يمثل تغييرا أساسيا فى طبيعة السلطة يستدعى ، بالتبعية ، تغييرا أساسيا فى الموقف منها والتقيم لها .. ونحن نستطيع ان نكشف هذا التغيير الذى طرا على السلطة فى حقيقتين رئيسيتين :

الاولى : ان موقف السلطة من نظام توارث العرش قد طرأ عليه تغيير يبتعد بها عن طبيعة النظام الملكى ... فلقد مر بنا رفض عمرو بن عبيد لعهد المنصور لابنه المهدى بولاية العهد ، لانه لا يصلح لها ، ولانه فى اطار الوراثة . وهو الامر الذى يرفضه أغلب مفكرى الاسلام ، كما أشرنا عند الحديث عن ولاية العهد ، اذ منعوا أن يعهد الامام بها الى أحد من أصوله أو فروعه ، وجعلوا امضاء ذلك مشروطا برأى أهل الاختيار ، أى جعلوا العهد كلا عهد ..

أما التغيير الذى أحدثه المأمون فكان ذلك الذى قام به فى سنة ٢٠٢ هـ سنة ٨١٧ م عندما أنهى الموقف العباسى التقليدى الذى يمارس الاضطهاد والقهر ضد العلويين . فعقد ولاية العهد الى أمام علوى هو على بن موسى الرضا، وعقد له على ابنته كذلك (٢٦٨) .. حتى لقد ثار ضده أمراء بنى العباس ، واتهموه بالتشيع ، وقالوا فى ذلك شعرا هجوه به .. فقال فيه عمه ابراهيم بن المهدى ــ المعروف بابن شكلة ــ :

اذا الشيعى جمجم فى مقال
فسرك أن يبوح بذات نفسه
فصل على النبى وصاحبيه
وزيريه وجاريه برمسه !

---

(٢٦٨) (تاريخ الشعوب الاسلامية) ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

فرد عليه المأمون هاجيا اياه بقوله :

اذا المـــرجى ســـرك أن تـــراه
يمـــوت لحينـــه من قبـــل موته
فجـــدد عنـــده ذكـــرى على
وصل على النبي وآل بيته (٢٦٩) !

ولن يقدح فى موقف المأمون هذا أن على بن مـــوسى الرضا قد مات قبل المأمون ، فلم يل الخلافة ، وأن العهد بها قد كان من نصيب المعتصم العباسى ، لان العهد اذا ماتم عن رضا من أهل الاختيار فهو غير مردود ولا مـــرفوض فى مذهب أهل العدل والتوحيد .. فنحن أمـــام تغير حقيقى فى موقف السلطة من العلويين ..

كما لا يقدح فى موقف المأمون أن طريقه الى الخلافة لم يكن الاختيار والبيعة والعقد على النحو الذى يقول به المعتزلة ، لاننا قد سبق وأشرنا الى توليهم لعمر بن عبـــد العزيز ، عندما قالوا أنه استحق الامامة بعدله وان كـــان قد نالها بعهد من سبقه من أمراء الجور الامويين ..

والثانية : ان المأمون كان على مذهب المعتزلة ، ومن هنا فان تقييمهم لسلطته ودولته كان طبيعيا أن يكون ايجابيا وبالتأييد والمساندة .. وأبو الهذيل العلاف « ١٣٥ ــ ٢٣٥ هـ ٧٥٢ ــ ٨٤٩ م » يحدث المأمون فيقول له : ان تأييدهم له راجع ، فقط ، الى قوله بالعدل والتوحيد .. يقول : « يا أمير المؤمنين ، انى ما اتيتك لمرزية دينار ولا درهم ، ولكن لنفيك الشبهين عن الله : شبه الخلق ، وشبه الجور .. » (٢٧٠) .

---

(٢٦٩) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
(٢٧٠) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢١٣ .

ولقد انعكس هذا الموقف المذهبي للمامون فى تقريبه المعتزلة . وتوليته المشوره لاحمد بن ابى دؤاد . تم توسيمه من بعده باستمرار المشورة فيهم وبقائها بيد ابن ابى دؤاد .. فلقد جاء فى وصية المأمون للمعتصم : « .. وابو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد . لا يفارقك الشركه فى المشوره فى كل أمرك ، فانه موضع ذلك ، ولا تتخذن بعدى وزيرا .. » (٢٧١) .

ولقد انعكس هذا التغير الذى حدث فى موقف السلطة من المعتزلة والعلويين . وهو التغير الذى ارتبط بتمذهب المأمون بمذهب المعتزلة ، انعكس في تبلور مدرسة المعتزلة البصريين التى أيدت وساندت دولة العباسيين ..

فهشام بن عمرو الفوطى ، الشيبانى « المتوفى ٢١٨ هـ ٨٣٣ م » ـ وهو من ائمتهم المقدمين ـ كان مقربا الى المأمون عظيم القدر لديه « حتى كان اذا دخل على المأمون يتحرك حتى يكاد يقوم ! » .. (٢٧٢).

وعندما كان المأمون بمدينة مرو ، وادركه الحيرة فى ماهية الموقف الصواب فى قضية الامامة ، وعلاقة كل من العباسيين والعلويين بها، دعا المفكرين الى الكتابة فيها . وان يرفعوا اليه ابحاثهم ، فيما يشبه ما تنظمه الدول الحديثة من مسابقات ، فاشترك الجاحظ « ١٥٩ ـ ٢٥٦هـ ٧٧٥ ـ ٨٦٩ م » ـ من المعتزلة البصريين ـ فى التأليف فيها ، ورفع كتابه الى المأمون ، فوافق مذهب المعتزلة ما كان يبحث عنه المأمون ، واستدعى الجاحظ للقائه ،

---

(٢٧١) د. البير نصرى نادر (فلسفة المعتزلة) . جـ ١ ص ٢٩ . طبعة الاسكندرية .

(٢٧٢) (باب ذكر المعتزلة) ـ من كتاب المنية والامل) ص ٣٥ .

وكتب الجاحظ عن ذلك يقول : « .. ولما قرأ المأمون كتبي فى الامامة ، فوجدها على ما أمر به ، وصرت اليه ـ وكان قد أمر اليزيدى بالنظر فيها ليخبره عنها ـ قال لى: قد كان بعض من نرتضى عقله ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة ، فقلت له . قد تربى الصفة على العيان ، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة ، فلما فليتها أربى الفلى على العيان، كما أربى العيان على الصفة ، وهذاكتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ، ولا يفتقر الى المحتجين عنه ، قد جمع استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل ، والمخرج السهل فهو سوقي ملوكى ، وعامى خاصى » (٢٧٣) !

ولقد كان مذهب الجاحظ في الامامة ـ كنموذج لفكر مدرسة معتزلة البصرة فيها ـ يقوم على السخرية من الدعوى القبلية فيها وادعاء احياء قريش لها .. ولقد سلك لذلك طريقا غريبا غمض مقصده من سلوكه على كثير من الباحثين .. فهو قد صنف كتابا فى « امامة ولد العباس » ينتصر فيه لمذهب الراوندية التى قالت : انها لولد العباس خاصة دون بطون قريش واحيائها .. وهو قد صنف « كتاب العثمانية» ينقض فيه حجج الشيعة العلويين الذين يفضلون عليا على أبى بكر ، وينتصر فيه لمذهب المعتزلة فى أن أبا بكر هو الافضل ، وان امامته هى الحق ـ ونلاحظ أن ذلك يتعارض مع مذهب الراوندية ويهدمه من أساسه .. وهو قد صنف كتابا فى

---

(٢٧٣) (البيان والتبيين) جـ ٣ ص ١٨٦ . (طبعة المطبعة السلفية) .

امامة امير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان » ذكر فيه رجال المروانية ودافع عن حق بني اميه فى الامامة ـ وهو مايخالف مذهب كتابيه السابقين ـ !

ولقدأثارت كتب الجاحظ هذه جدلا كثيرا ، فنقضها الشيعة ـ وممن نقضها منهم المسعودي ـ ونقضها المعتزلة البغداديون ـ وممن نقضها منهم أبو جعفر الاسكافى ـ .. وفسر المسعودي تأليف الجاحظ لكتب فى الامامه لاتحوى مذهبه بأن نوعا من « التماجن والتطرب » هو الذي دعاه الى أن يؤلف كتبا لم تكن على مذهبه ولا يمثل فكرها اعتقاده ... (٢٧٤) . ولكننا نعتقد أن الجاحظ قد اراد من وراء نصرة كل المذاهب التى تنطلق الى الامامة من منطلق عرقي وقبلي أن يقول : ان كل هذه المذاهب باطلة ، بدليل أن نصرتها جميعا ممكنة ، وهدمها جميعا ممكن ، وبما أن الحق واحد ، فلابد أن يكون الحق غيرها جميعا ، فليست الوصية بطريق للامامة ، سواء أكانت مدعاة لعلي أو لابي بكر أو للعباس .. وليس الملك ، على مذهب الامويين والمروانية ، بالمذهب الحق ، وانما الحق فى هذا الامر هو الشورى والاختيار والعقد والبيعة كسبيل لتمييز الامام وتنصيبه ، كما قال ويقول أهل العدل والتوحيد ..

واذا كنا قد ذكرنا موقف المعتزلة البغداديين ومذهبهم فى مقاطعة الدولة العباسية ، حتى على عهود : المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، فان موقف يوسف بن عبد الله بن اسحاق الشحام « ١٥٣ ـ ٢٣٣ هـ ٧٦٧ ـ ٨٤٧ م » هو

(٢٧٤) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

نموذج لتأييد المعتزلة البصريين لهذه الدولة ، فى تلك العهود ، بل واشتراكهم فى جهاز حكمها ، فمـــا رفضه جعفر بن مبشر قبله ونهض به الشحام .. فلقد « روى أن الواثق « ٢٢٨ – ٢٣٢ هـ ٨٤٢ – ٨٤٧ م » أمر أن يجعل مع أصحاب الدواوين رجال من المعتزلة ومن أهـل الذين والطهارة والنزاهة ، لانصاف المتظلمين من أهل الخراج ، فاختار ابن أبى دؤاد أبا يعقوب الشحام فجعله ناظرا على الفضل بن مروان ، فقمعه ، وقبض يده عن الانبســاط فى الظلم » (٢٧٥) !

وأبو معن ثمامة بن أشرس النميرى « المتوفى سنة ٢١٣هـ سنة ٨٢٨ م » كان من مدرسة المعتزلة البغداديين ، وكان ينتقد المأمون ويتهمه بالبخل ، ولما عاتبه المأمون فى ذلك قال له : « يا أمير المؤمنين ، انى ما تكثرت بك من قلة ، ولا تعززت بك من ذلة ، وما بى وحشة من الله الى أحد !» (٢٧٦) .. ومع ذلك فلقد اجتهد المأمون فى تقريبه منـه والاستعانة به ، فكان ينهض بتفقد أمور الدولة فى الاقاليم ، وتصفح أحوال البريد والعمال والخراج ... الخ .. الخ ثم يتقدم الى المأمون باقتراح مايراه سبيلا للاصـلاح ، فيأمر المأمون بتنفيذ مايقترحه من اصلاح (٢٧٧) .

هكذا شهدت الدولة العباسية ، فى تلك الفترة مدرسة اعتزالية تعارض وتقاطع وتتبرأ ، وأخرى تؤيد وتسـاند وتدفع الدولة أكثر فأكثر نحو مذهب أهـــل العــــدل والتوحيد ..

---

(٢٧٥) (باب ذكر المعتزلة – من كتاب المنية والامل) ص ٤٠ .
(٢٧٦) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٨ .
(٢٧٧) (رسائل الجاحظ) جـ ٢ ص ٢٦٦

ولقد استمر هذان الموقفان والنهجان فى صفوف المعتزله حتى ولى الحكم المتوكل العباسي سنة ٢٣٣ هـ سنة ٨٤٧ م ..

***

اما منذ عهد المتوكل ، وبعد الانقلاب الفكرى والسياسى الذى أحدثه ، وأزاح به المعتزلة والعلويين من مراكز الدولة وأجهزة حكمها فان موقف المعتزلة ـ جميعا : بصريين وبغداديين ، قد عاد الى التوحد والاتفاق على معارضة الدولة ورفض سلطتها ومناوأة سلطانها ، وازداد التقارب فى تلك الحقبة الزمنية بين المعتزلة والزيدية ـ الذين كانوا يواصلون الثورة والخروج ـ وكذلك الشيعة العلويين ..

وشاعر المتوكل على بن الجهم يعبر عن عدائه وعداء حزبه للمعتزلة ـ الذين يسميهم أحيانا « بالواثقية » ، نسبة للواثق ! ـ وعدائه للشيعة كذلك ، فيقول :

تضافرت الروافض والنصارى
واهل الاعتزال على هجائى
وعابونى وما ذنبى اليهم
سوى علمى بأولاد الزناء
انا المتوكلى هوى ورأيا
وما « بالواثقية » من خفاء

وعندما نفى المتوكل زعيم المعتزلة أحمد بن ابى دؤاد : هجاه على بن الجهم ، شامتا ، فقال فيه وفى المعتزلة :

يا أحمد بن أبى دؤاد دعوة
بعثت اليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التى سميتها
بالجهل منك العدل والتوحيدا !

أفسدت أمر الدين حين وليته
ورميته بأبي الوليد وليدا (٢٨٠)

وعندما يمرض ابن أبي دؤاد ، يشمت فيه على بن الجهم ، ويتحدث عن انتصار « أصحاب الحديث » على المعتزلة بانقلاب المتوكل عليهم ، فيقول :

لم يبق منك سوى خيالك لامعا
فوق الفراش ممهدا بوساد
فرحت بمصرعك البرية كلها
من كان منهم موقنا بمعاد
كم مجلس لله قد عطلته
كي لا يحدث فيه بالاسناد
ولكم مصابيح لنا أطفأتها
حتى يزول عن الطريق الهادى
ولكم كريمة معشر أرملتها
ومحدث أوثقت في الاقياد
ان الاسارى في السجون تفرجوا
لما أتتك مواكب العواد (٢٨١)!

وهكذا .. فمنذ حدوث ذلك الانقلاب الفكرى والسياسى الذى أخرج أصحاب الحديث من السجون ، ووضع مكانهم المعتزلة والعلويين .. علت نبرة النقد والرفض للدولة العباسية جميع دوائر الاعتزال .

فأبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى

---

(٢٨٠) يشير الى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد .. الذى ولى الامر بعد والده .

(٢٨١) (الاغانى) جـ ١٠ ص ٣٦٧٠ ـ ٣٦٧٢ ، ٣٦٨١ ، ٣٦٨٢ ، ٣٦٩٤ .

الكعبى « المتوفى سنة ٣١٩ هـ » ـ من الطبقة التاسعة للمعتزلة ـ استقال من خدمة الدولة على عهد المقتدر « ثم تاب من ذلك واصلح ؟! » (٢٨٢) ، كما يتوب الانسان من الذنب تقترفه يداه ..!

ومحمد بن عمر الصيمرى ـ « من الطبقة التاسعة » ـ قد حكم على المجتمع العباسى الذى غلب عليه الجبر والتشبيه بأنه « دار كفر » ، واتفق مع مذهب « البدوية الزيدية » ـ أتباع يحيى بن الحسين ـ فى هذا التقييم .. (٢٨٣)!

ولقد بلغ انقلاب الدولة على المعتزلة الى الحد الذى اسقطت فيه شهادتهم أمام القضاء، اى جردتهم من « حقوقهم المدنية » ، بتعبيرنا الحديث ؟! .. فكان أبو محمد عبد الله بن العباس الرامهرمزى ـ « من الطبقة التاسعة » ـ يبذل للقضاة الاموال كى يقبلوا شهادات المعتزلة ويرونهم متصفين بالعدالة اللازمة للشهود !!كما بنى لنفسه منزلا فى مزرعة نائية ، سماه « الرباط » ، كان يلجأ اليه عند الخوف من السلطان (٢٨٤) .

ولقد امتثلت الدولة الغزنوية وقائدها محمودالغزنوى (٣٩٠ ـ ٤٨١ هـ ٩٩٩ ـ ١٠٣٠ م) لاوامر الدولة العباسية باضطهاد المعتزلة ، فأخذ الغزنوى يجمع المعتزلة من البلاد ليضعهم فى سجن اتخذه لهم فى

---

(٢٨٢) (باب ذكر المعتزلة) ـ من كتاب المنية والامل) ص ٥٢ .
(٢٨٣) المصدر السابق . ص ٥٧ .
(٢٨٤) (فضل المعتزلة وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

« عزدار » .. (٢٨٥) ، فكان ممن اعتقل من نيسابور : أبو الفتح الاصفهانى ، وامام مسجدها الجامع : أبو الصادق ، وعالم النحو : أبو الحسن الصابرى ، ـ وهم من الطبقة الثانية عشرة ـ فحبسوا حتى ماتوا هناك (٢٨٦) ! .

وكما عم انقلاب المتوكل المعتزلة بالاضطهاد ، فلقد شمل به الشيعة العلويين كذلك . فالامويون قد قتلوا الحسين ، والمتوكل هدم قبره وسواه بالتراب ، ثم حرث أرضه وزرعها كي لا يزوره احد من الناس !! مما جعل ابن السكيت يقول :

بالله ان كانت امية قد اتت
قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتته بنو ابيه بمثله
فغدا لعمرك قبره مهدوما
اسفوا على الا يكونوا شاركوا
فى قتله ، فتتبعوه رميما (٢٨٧) ؟!

كما أصدر ابن المتوكل « محمد المستنصر » أوامره ، بعد موت ابيه ، بالتضييق على العلويين اقتصاديا ، ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية ! فكتب كتابا الى الامصار بمنعهم من « تقبل الضياع » أى منعهم من وضع « الملتزمين » وحرمانهم من حقوق « الالتزام » ،

---

(٢٨٥) وهى قلعة (عز) ، فى رستاق برذعة ، بنواحى اران ، شمالى اذربيجان ، بعد نهر الرس .. أنظر (مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع) .

(٢٨٦) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٦٧ .

(٢٨٧) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٣٩٢ (والبيت الاخير نرى انه لو انتهى بكلمة (رميما) لكان أوفق !) .

والا يركبوا الخيل ، والا يغادروا مدينة الفسطاط ، والا يزيد مايملكه أحدهم من الرقيق على عبد واحد ، والا تقبل شهاداتهم فى الخصومات ، وان تقبل شهادات خصومهم دون أن يطالبوا ببينة على هذه الشهادات (٢٨٨) !!

ولعل هذا هو الذى جعل نفرا من المعتزلة ــ منهم ابو على الجبائى ــ يفكر ويسعى كى يوحد صفوف المعتزلة والشيعة ؛ لان الاضطهاد قد عمهم معا ، وقال : « لقد وافقونا فى التوحيد والعدل ، وانما خلافنا فى الامامة؛ وواجب أن نجتمع حتى نكون يدا واحدة ! .. » (٢٨٩)

ولقد توجت الدولة العباسية اضطهادها هذا للمعتزلة ؛ وكرسته ، وجعلته قانونا وفكرا رسميا للدولة بذلك الكتاب الذى اشرف على وضعه الخليفة القادر « ٣٨١ ــ ٤٢٣ هـ ٩٩١ ــ ١٠٣١ م » وسماه « الاعتقاد القادرى » وجعل علماء السنة واصحاب الحديث يوقعون عليه ، ثم امر به فعمم فى الاقاليم ، وقرىء فى الدواوين ، وتلى على المنابر .. ولقد ادخل هذا الكتاب ــ الذى صدر ليحرم فكر المعتزلة ويجرمه ــ فى الاسلام « كهنوتا » اعتقاديا مستعارا من قرارات المجامع الكنسية ، غريبا عن روح الاسلام وطبيعته .. وفى هذا « الاعتقاد القادرى » صدرت أوامر الخليفة بأن :

١ ــ يمنع تدريس علم الكلام والمناظرة فى مسائله ،

---

(٢٨٨) (خطط المقريزى) ج ٣ ص ٢٧١ .

(٢٨٩) على فهمى خشيم (الجبائيان : ابو على وأبو هاشم) ص ٢٩٤ . طبعة ليبيا سنة ١٩٦٨ .

خاصة الاعتزال ومقالات أهله . وأنذر المخالفين بالعقوبة والنكال .. قتلا ونفيا وسجنا ..

٢ ـ يلعن المعتزلة على منابر المساجد ، حتى يصير ذلك سنة متبعة من سنن الاسلام !

٣ ـ تحريم قول المعتزلة فى « التوحيد » ، حيث يثبت « الاعتقاد القادرى » لله الصفات التى ينفيها عنه تنزيه المعتزلة وتوحيدهم ، فيقول عن الله سبحانه وتعالى : انه « هو القادر بقدرة ، والعالم بعلم أزلى غير مستفاد ، وهو السميع بسمع ، والمبصر ببصر ... متكلم بكلام .. وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله فهى صفة حقيقية لا مجازية... وأن كلام الله تعالى غير مخلوق ، تكلم به تكليما ، وأنزله على رسوله على لسان جبريل بعدما سمعه جبريل منه .. ولم يصر بتلاوة المخلوقين مخلوقا ، لانه ذلك الكلام بعينه الذى تكلم الله به ، فهو غير مخلوق .. ومن قال انه مخلوق ، على حال من الاحوال ، فهو كافر ، حلال الدم ، بعد الاستتابة منه !» .

٤ ـ تحريم قول المعتزلة فى « العدل » والاختيار ، حيث يقول « الاعتقاد القادرى » : ان الله « هو مدبر السماوات والارضين ومدبر ما فيها ومن فى البر والبحر ، لا مدبر غيره ... والخلق كلهم عاجزون .. » سواء منهم : « الملائكة والنبيون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون » .

٥ ـ تحريم قول المعتزلة فى « المنزلة بين المنزلتين » ، وذلك بتقرير « الاعتقاد القادرى » ، لمذهب المرجئة فى

معاوية وصحبه عندما يقول : اننا « لا نقول فى معاوية الا خيرا ... » .

ولقد أصدرت الدولة هذا الكتاب باعتباره « اعتقاد المسلمين . ومن خالفه فقد فسق وكفر ! » (٢٩٠) ، فجعلت من اضطهاد المعتزلة ونفيهم من المجتمع الرسمى ودوائر الفكر والتوجيه والتأثير وابادة تراثهم . جعلت من ذلك قانونا وعقيدة دينية على الجميع أن يراعوها ويضعوها موضع التطبيق .. فكانت تلك قمة المحنة الفكرية والسياسية التى حرمت الحضارة العربية الاسلامية من الثراء الفكرى الذى تمثل فى الفكر العقلانى الذى مثله المعتزلة ؛ ومن الفكر السياسى الذى قدموه . والذى تمثل أول ما تمثل ، وأكثر ما تمثل فى فكرهم عن الامامة وفلسفة الحكم ، سواء منه الجانب النظرى أو تلك الجهود التى بذلوها لوضع هذا الفكر فى التطبيق .

ولكن هذا الاضطهاد الذى أصاب المعتزلة منذ عصر المتوكل العباسى لم يفلح فى اجتثاث فكرهم العقلانى من أرض الحضارة العربية الاسلامية ، فعاش نفر من أعلامهم يفكرون ويبشرون ويكتبون دون أن يعلنوا على الملأ مذهبهم فى الاعتزال ، واذا تحدثوا عن أسلافهم سموهم « بعلماء الكلام » أو « متكلمى البصرة » ! ؛ وهكذا ، كما صنع أبو الحسن الماوردى « ٣٦٤ — ٤٥٠هـ ٩٧٤ — ١٠٥٨ م » وأمثاله .. كما أن التناقضان

---

(٢٩٠) (الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى) جـ ١ ص ٣٨١ — ٣٨٣ .

الفكرية والسياسية التى قامت بين خلافة بغـداد وبين
بعض الدول الاسلامية التى قامت وقوى نفوذها على
حساب نفوذ الخلافة العباسية قد أتاح للمعتزلة قدراً
من الحرية ـ كما حدث فى ظل الدولة البويهية « ٣٣٤ـ
٤٤٧ هـ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م » ـ مما مكن فكر المعتزلة من
صحوة ازدهر فيها انتاج أعلامهم وعطاؤهم الفلســـفى
والسياسى ، وهى الصحوة التى يعد القاضى عبد الجبار
ابن أحمد الهمذانى « المتوفى سنة ٤١٥ هـ » علمـا
عليها .. وهو الامر الذى حفظ لنا تراث المعتزلة الحديث
بعد أن باد تراثهم القديم ، فأصبح بالامكان أن ندرس
المعتزلة ونقيم فكرها من خلال تراثهم هم ، لا من خلال
ماكتبه عنهم الخصوم والاعداء .

خلاصة البحث

لن نجعل من الحديث عن خلاصة هذا البحث مناسبة لايجاز الافكار الرئيسية التيعرضناها فى أبوابه وفصوله. ففى ذلك تكرار لا نحمده ، وترديد لا تدعو اليه الحاجة .. ونؤثر على ذلك أن تكون الخلاصة اشارة مركزة الى أن الصراع الفكرى الذى خاضته فرق الاسلام حول قضية الامامة وأصول الحكم وفلسفته ــ وهو الصراع الذى عرض له هذا البحث ــ قد دار حول قضية رئيسية كانت هى المحور والمنبع والملتقى .. تلك هى قضية : طبيعة السلطة فى المجتمع .. أدينية هى ؟ أم مدنية ؟؟ ..

وبعبارات الاسلاف : هل الامامة ركن من أركان الدين؟ والسماء هى التى تختار الامام وتعينه ؟ وهل هو وكيل الله ، يحكم نيابة عنه ، وينطق بقانونه ؟؟

أم أن الامامة من الفروع ، وليست من الاصول ، ولذلك فهى ليست من أركان الدين ؟ والامام يستند الى جماعة المسلمين ، الذين يختارونه وينصبونه ويحاسبونه ويعزلونه ؟ فهو حاكم باسم الامة ، يقضى بشريعتها ، وتفوضه فيما هو من مصالح دنياها ؟؟..

حول الاجابة على هذه الاسئلة اختلفت فرق الاسلام، وبالتحديد نشأ التياران الرئيسيان فى هذا التفكير .. فقالت الشيعة بنظرية : الوصية والتعيين من الله للامام وسلبت الامة حقها فى تقرير مصير الحكم فى مجتمعها ... وذلك عندما جعلت طبيعة السلطة دينية ، بأن قاست الامامة على النبوة ، وقررت أن طبيعتهما واحـــدة ، ومهمتهما واحدة ، والغايةمنهما واحدة ، فوقفت مـع ما نسميه اليوم : الحكم « بالحق الالهى » ، والقـول « بالدولة الدينية » !

وترتيبا على هذا الموقف المحورى قالت الشـــيعة بعصمة الائمة قياسا على عصمة الانبياء والمرسلين ... وبالعلم اللامحدود الذى يتصف به الامام .. وباتصال نبأ السماء وأخبارها بالامـــام ، بواســـطة « روح القدس » ، على نحو يضمن له ما ضمنه الوحى للانبياء ! ومن ثم فلقد فسرت الصراع على السلطة فى المجتمـع الاسلامى تفسيرا دينيا ، فكفرت الصحابة الذين قـدموا أبا بكر فى الخلافة على على بن أبى طالب ، ونزعت صفة الايمان والاسلام عن كل خصوم الشيعة السياسيين !

تلك هى الفكرة المحورية فى الفكر الشيعى عن الامامة واصول الحكم وفلسفته : القول بالحق الالهى ، والدولة الدينية ، ووحدة السلطتين : الدينية والزمنية فى ذات الامام وحكمه .. وعلى هذه الفكرة رتبوا كل النتــائج التى توصلوا اليها ، وانطلاقا منها وصلوا الى كل الاحكام التى أصدروها ، مما عرض له هذا البحث فيما تقدم من صفحات ...

وكان المعتزلة على وعى تام بأن تلك هى القضـــية

الاساسية والفكرة المحورية فى الصراع ، ومن ثم فلقد ساقوا حججهم وأدلتهم وبراهينهم لتفنيدها ، ولاثبات مذهبهم فى مدنية السلطة والحكم ، بما يترتب على هذه الفكرة من نتائج وتؤدى اليه من أحكام ... فكانت نظريتهم فى هذا المقام ، كما عرض لها هذا البحث ، متمثلة فى عدد من النقاط ، أهمها :

١ ـ ان دولة الخلافة الراشدة كانت نظاما سياسيا اسهم المسلمون بارادتهم البشرية فى بنائه ، ومن ثم فان الطابع السياسى ، وليس الدينى ، هو الذى يطبع بناءها .. فمصطلحات مبحث الامامة .. وشؤون التشريع السياسى .. والصراع على السلطة .. كانت مباحث وقضايا سياسية ، واجتهادات انسانية ، تمت فى اطار وصية الدين العامة بالعدل واداء الامانات الى أهلها ،ومن ثم فلا حق لمسلم ان يتخذ منها سبيلا للقول بكفر خصمه لان الخلاف والاتفاق فى هذه الامور قد تم وحدث بين ابناء الدين الواحد والملة الواحدة والقبلة الواحدة .

٢ ـ ان نشأة البحث النظرى فى نظرية الامامة ، وخاصة القول بالنص والوصية على مذهب الشيعة ، قد حدث بعد انقضاء عهد دولة الخلفاء الراشدين ... وليس فى كتاب الله ولا سنة نبيه الصحيحة ولا فى تراث الصحابة ما يشهد لهذه النظرية الشيعية أو يصححها أو يوافقها .. فهى لا تعدو أن تكون نظرية سياسية طرات على الفكر الاسلامى ، واجتهد أصحابها كى يجدوا لها سندا من الدين ، وذلك حتى ينتقلوا بمبحثها من اطار الفروع والسياسة الى اطار الاصول والدين .

ولكن النشأة السياسية لكل الفرق الاسلامية الكبرى

ومن ثم الطبيعة السياسية لفكرها الاساسى تقف دون محاولة الشيعة المزج بين نظريتهم فى الامامة وبين اصول الدين .

٣ ـ ان الطبيعة المدنية والاجتماعية لاى مجتمع يتكون من أية جماعة بشرية تتطلب قيام سلطة تفوضها هذه الجماعة القيام بعدد من المهام التى تتنازل عنها هذه الجماعة لهذه السلطة بمقتضى عهد الرضا وعقد التفويض ـ ومن هنا فان الامام قائم لمصلحة الدنيا وانتظام امرها ـ على حين أن الدين قد قام بالنبوة التى اختتم طورها محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا زال قائما بالكتاب والسنة المتواترة والاجماع المستند اليهما ـ وجماعة المسلمين ، التى تختار الامام بواسطة ممثليها ، هى سند هذا الامام وقاعدة قوته وشوكته وسلطته ، ولها مراقبته ، وحسابه ، والاخذ على يده ، وكذلك خلعه اذا أخل بشروط عقد التفويض ، أن سلما وان بالثورة والقتال حسب ما تقتضيه مصلحة الناس .. فالثقة فى الامة ، والعصمة لها وحدها !..

٤ ـ ان الطبيعة المدنية والسياسية للمهام التى ينصب الامام لانجازها هى التى تحدد صفاته والشروط التى يجب أن تتوافر فيه .. فهو حاكم اعلى فى الدولة ، تشترط فيه شروط الحاكم التى تضمن له التمكن من تنفيذ الشريعة والقانون ، وليس صاحب سلطان دينى نتطلب فيه العصمة والاتصال بنبأ السماء . بل أن التقدم فى السياسة والحرب ورباطة الجأش مقدم فى صفات الامام عن الصلاح والتقوى والفقه فى الدين وزيادة النسك وكثرة العبادات ، لان طبيعة المهام الموكولة

اليه هى التى تحدد الشروط المطلوبة فيه والصفات التى لابد وان يتصف بها .

٥ ـ ان سلطة الامام والدولة لا تقف عند حد : حماية بيضة الامة والدفاع عن استقلاليا وحريتها ، وكذلك حفظ أمنها الداخلى ؛ والقضاء فى المنازعات والفصل فى القضايا التى يترافع بها الناس الى القضاة .. بل ان لهذه السلطة مدخلا فى الكثير من أمور المجتمع والافراد . فلها السلطة والسلطان فى كل ماهو عام ، يمس مصلحة المجموع ، ولها كذلك أن تتدخل فى شؤون الفرد اذا عجز عن تسييرها على النحو الاصلح له وللمجتمع .. فالطابع « الشمولى » يغلب على اختصاصها والمدى الذى يذهب اليه سلطانها ..

٦ ـ ان الفكر النظرى الذى قدمه المعتزلة فى الامامة وأصول الحكم وفلسفته قد تعدى نطاق البحث والفكر والجدل ؛ وذلك عندما حاولوا وضعه موضع التطبيق ، بالسلم حينا وبالثورة حينا آخر .. وذلك لانهم لم يكونوا مجرد فلاسفة الهيين ومفكرين نظريين ، بل كانوا كذلك ساسة وثوارا ، أقاموا تنظيما « فكريا ـ سياسيا »تسلح بالعقل ، وناضل فى سبيل دولة : يحل فيها الفكر القومى القائم على الحضارة محل العصبية القبلية والتعصب الشعوبى .. ويسود فيها العقل على الخرافة ؛ ويتقدم على غيره من الأدلة وسبل الاستدلال .. ويصبح فيها « اهل الاختيار » الذين يكونون « الرأى العام المستنير » هم سند الدولة وقوتها ، وهم كذلك الرقباء عليها والمحاسبون لها .. دولة تسود فيها أصول المعتزلة الخمسة ، وترتفع فيها رايات أهل العدل والتوحيد .!

كلمة عن مصادر هذا البحث

كانت طبيعة هذا البحث هى المعيار الذى حـــكم اختيارنا لمصادره ، وحدد لنا طبيعة المراجع التى بحثنا عن مادته فيها .. وحتى يكون لهذه العبارة المجملة معنى واضـــحا ، وكذلك حتى تكون قائمة « المصادر » التى يذيل بها البحث ذات قيمة للناظر فيها ، فلقد آثرنا أن نلقى بعض الضوء على المعيار الذى حدد اختيارنا لهذه المصادر دون غيرها ، والعطاء الذى قدمته لنا هـــذه المصادر فى بحثنا الذى قدمناه عن : الامامة وفلســـفة الحكم وأصوله .

وهذه الاضواء التى نود تسليطها على هذه المصـادر توجزها هذه النقاط !

أولا : فى بحث يرتاد ، للمرة الاولى ، دراسة فـكر المعتزلة فى الامامة وفلسفة الحكم وأصوله ، كان لابد وان نستقى هذا الفكر من منابعه الاصلية والاصيلة ، وهو الامر الذى تطلب منا أن نرجع الى كل ماتيسر حتى الآن للباحثين من آثار المعتزلة ، مطبوعة كانت تلك الاثار أم مخطوطة .. وذلك بالاضافة الى ماورد عن ارائهم فى كتب المقالات .

ولقد كان فى مقدمة المصادر الاعتزالية التى رجعنا اليها موسوعة قاضى القضاة عبدالجبار بن أحمد الهمذانى « المتوفى سنة ٤١٥ هـ » : « المغنى فى أبواب التوحيد والعدل » وهى أوفى مصدر يضم آراء المعتزلة ويبسط القول فى أصولهم الفكرية الخمسة ، ويجادل الفرق المخالفة لهم : اسلامية كانت تلك الفرق أو غير اسلامية ...

و « المغنى » كتبه القاضى عبد الجبار فى عشرين جزءا، اكتشف منه وطبع حتى الآن اربعة عشر جزءا ، تقع فى ستة عشر مجلدا .. ولقد اختص الحديث عن الامامة بمجلدين من مجلداته هما الجزء العشرون بقسميه : الاول والثانى ، كما تناثرت آراء وأحاديث عنها فى مختلف أجزائه الاخرى ، ومن ثم كانت كل أجزاء « المغنى » مصدرا رئيسيا من مصادر بحثنا هذا ، لانها قد احاطت بكثير من الاصول والقضايا التى تتصل بمبحث الامامة على نحو من الانحاء ..

أما القضايا الرئيسية التى توزعت على اجزاء هذا المصدر فانها تتضح من هذا الثبت بهذه الاجزاء .

١ ــ الجزء الرابع : ويضم مباحث « أصل التوحيد » من مثل : عدم جواز الحاجة على الله ، ونفى الرؤية عنه، واثبات وحدانيته .. الخ .

٢ ــ الجزء الخامس : ويضم مباحث : الفرق غير الاسلامية وحجج المعتزلة ضد مقالاتها .. ثم البحث فى أسماء الله سبحانه وتعالى .

٣ ــ الجزء السادس : ــ ويقع فى مجلدين ــ يضم

الاول مبحث : « التعديل والتجوير » ، ويختص الثاني بمبحث : « الارادة » .

٤ ـ الجزء السابع : ويضم مبحث : « القرآن » والخلاف حول خلقه وقدمه ونظرية المعتزلة فى هـذا المبحث .

٥ ـ الجزء الثامن : ويضم مبحث : « المخلوق » الذى يتناول أفعال الانسان وحريته واختياره .

٦ ـ الجزء التاسع : ويضم مبحث : « التوليد »الذى يتصل بمبحث الجزء الثامن فى الحرية والاختيار .

٧ ـ الجزء الحادى عشر : ويضم مباحث : « الآجال والارزاق ، والاسعار والرخص والغلاء ، والتكليف » ، وهى تتصل بمبحث الاختيار .

٨ ـ الجزء الثانى عشر : ويضم مبحث : « النظر والمعارف » .

٩ ـ الجزء الثالث عشر : ويضم مبحثى : « اللطف ، والآلام ».

١٠ ـ الجزء الرابع عشر : ويضم مباحث : «الأصلح، واستحقاق الذم ، والتوبة » .

١١ ـ الجزء الخامس عشر : ويضـــــم مبحث : « النبوات » .

١٢ ـ الجزء السادس عشر : ويضم مباحث :«الاخبار ونسخ الشرائع ، وثبوت نبوة محمد عليه الصـــلاة والسلام ، واعجاز القرآن » .

١٣ ـالجزء السابع عشر : ويضم مبحث : « اصول الفقه » ..

١٤ ـ الجزء العشرون : ـ ويقع فى مجلدين ـ يضمان مبحث : « الامامة » .

وغير موسوعة « المغنى » هذه رجعنا الى اثار القاضى عبد الجبار الاخرى ، مثل : « شرح الاصول الخمسة » و « المجموع المحيط بالتكليف » ـ فى أسفاره المخطوطة ـ و « تثبيت دلائل النبوة » ـ بجزئيه ـ و « فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة » و « مختصر أصول الدين » .

كما رجعنا الى ماكتبه المحدثون عن القاضى عبد الجبار ، وكذلك ماكتبوه عن الجبائيان : أبى على وأبى هاشم ، وهما من شيوخ القاضى عبد الجبار .

ومما يجدر التنبيه اليه أن كتابات القاضى عبد الجبار تعرض لآراء المعتزلة جميعا ، وتحكى مقالات البصريين والبغداديين منهم ، ولكن موسوعة ابن أبى الحديد « شرح نهج البلاغة » ـ التى تقع فى عشرين مجلدا ـ تهتم أكثر من غيرها بعرض مقالات المعتزلة البغداديين ، ولذلك كانت هذه الموسوعة ـ مع نقض الاسكافى لعثمانية الجاحظ ـ من أهم مصادرنا التى استقينا منها اراء هذا الفريق من المعتزلة . .

أما مقالات المعتزلة البصريين فيعرضها ويدافع عنها الجاحظ ، ومن هنا كان رجوعنا الى كل آثاره الفكرية ، تقريبا ، وفى مقدمتها :

١ ـ رسائل الجاحظ : بجزئيها . . ففيها تناثرت اراء المعتزلة ومقالاتهم فى عدد من أهم مباحث الامامة وقضاياها.

٢ ـ العثمانية : وهو الكتاب الذى جعل منه طابعه الجدلى مصدرا من مصادر الامامة الهامة عند الجاحظ .

٣ ـ الحيوان : بأجزائه السبعة ، اذ تناثرت فيه عدة آراء ومباحث فى الامامة وقضاياها .

٤ ـ التاج فى أخلاق الملوك : باعتباره من كتب السياسة التى تعرض فيها الجاحظ لشؤون الحكم .

٥ ـ البيان والتبيين : الذى يعرض لامور سياسية بين ثنايا الروايات والقصص الادبى .

كما رجعنا الى كتاب الخياط « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد » . وهو الكتاب الذى عرض لمقالات المعتزلة من خلال دفع تهم خصومهم عنهم ..وكذلك كتاب أبى الحسين البصرى : « المعتمد فى أصول الفقه » الذى يمثل لونا متميزا من فكر المعتزلة غير علم الكلام .

كذلك رجعنا الى كتاب ابن المرتضى « المنية والامل فى شرح كتاب الملل والنحل » وكتاب الحاكم بن كرامة الجشمى « شرح عيون المسائل » ، وهما يعرضان لمقالات المعتزلة وطبقات رجالهم .. وكذلك لكتاب البلخى عن طبقاتهم التى عرض لها فى مؤلفه : « مقالات الاسلاميين » .. وكذلك كتابات الصاحب بن عباد فى « رسائله » ورسالته عن « الابانة عن مذهب أهل العدل » ... وأيضا كتب الماوردى : « الاحكام السلطانية » و «أدب القاضى » و « أدب الدنيا والدين » ..

وأخيرارجعنا الى كتابات المحدثين عن المعتزلة ومقالاتهم وأعلامهم ، سواء منهم العرب أو المستشرقين .

هذا عن المصادر الاصلية لفكر المعتزلة التى اعتمدنا

عليهن فى استيفاء مقالاتهم فى الامامة واصــول الحــكم وفلسفته ..

ثانيا : وبنفس المعيار ذهبنا نستقى مقالات الشــيعة ومذهبها فى الامامة . فعمدنا الى أوثق مصــــادرها التى كتبها ائمتها وأعلامها .. فرجعنا الى مصادر الشــيعه الامامية الاساسية . وفى مقدمتها :

« الاصول من الكافى » للكلينى .. وهو أوثق مصدر شيعى روت فيه الامامية أحاديث أصولها ومقالاتها عــن أئمتها .. و « الغدير فى الكتاب والسنة والادب » الذى ضمنته الامامية كل شاردة وواردة روتها هى أو سواها عن الوصــية وأحاديثها .. و « مجمع البيان فى تفسير القرآن » للطبرسى . وهو نموذج للتفسير الشــيعى الامامى للقرآن الكريم ..

و « تلخيص الشافى » للطوسى « أبى جعفر » الذى يمثل رد الامامية على المعتزلة ، وبالذات على « المغنى » للقاضى عبد الجبار .. و « تجريد الكلام » و « تلخيص المحصل » للطوسى « نصير الدين » .. و « اثبــــات الوصية » للمسعودى .. و « منهاج الكرامة فى معرفة الامامة » لابن المطهر الحلى ..

كما رجعنا الى اثار امام الشيعة فى عصره : الشريف المرتضى ، من مثل « أمالى المرتضى » بقسميها ،ومخطوط « المجموع من كلامه » ورسالته عن « انقاذ البشر مــن الجبر والقدر » ، وهى الاثار التى تناثرت فيها آراؤه فى الامامة ، ومثلت مع كتابه « الشافى » ، الذى رد به على أستاذه القاضى عبد الجبار ، جماع فكر الامامية فى نظرية الامامة وفلسفتها .

كما رجعنا الى اثار مفكرى الامامية المحدثين ، وخاصة محمد رضا المظفر فى « عقائد الامامية » وعبد الحسين شرف الدين الموسوى فى « المراجعات » ..

وأخيرا استأنسنا ببحث الدكتور أحمد صبحى عن « نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنى عشرية » .. فاكتملت لنا مقالات الشيعة الامامية من أوثق مصادرها ..

وكذلك فعلنا بمقالات الشيعة الاسماعيلية - عندما رجعنا الى الكرمانى فى « راحة العقل » وأبى حنيفه النعمان المغربى فى « دعائم الاسلام » وهما من أمهات مصادرها التى أحاطت بمقالاتها .. ثم أضفنا اليها بحث المستشرق الدكتور برنارد لويس عن « أصول الاسماعيلية » .. فاكتملت معالم مذهبها فى الامامة من منابعها الفكرية الخاصة بها ..

وذات الشىء صنعناه ونحن نستقى فكر الشيعة الزيدية .. وذلك عندما رجعنا الى كتابات أئمتهم : القاسم الرسى ، ويحيى بن الحسين فى « رسائل العدل والتوحيد » بجزئيها .. والى مخطوط ابن أبى يحيى الذى يرد فيه على المعتزلة ، وعنوانه « النقض على صاحب مجموع المحيط فيما يخالف فيه الزيدية من الامامة » .. وكذلك آراء ابن متويه التى ضمنها تدوينه لشرح القاضى عبد الجبار للاصول الخمسة .. ثم أضفنا الى ذلك دراسة حديثة عن « ثورة زيد بن على » كتبها ناجى حسن ، كرسالة جامعية ..

ثالثا : أما فكر الخوارج فى الامامة ، وتاريخ ثوراتهم. فلقد اجتهدنا ، فى استقاء مادتهما ، أن نسلك نفس السبيل ، فرجعنا الى أوثق مصادر التاريخ القديمة ،

وكتابات المحدثين فى جمع مادة ثورأتهم وتاريخها .. ثم اعتمدنا ــ الى جانب نسب المقالات التى كتبها غــير الخوارج ــ فى جمع ماده مذهبهم فى الامامة على نص لكاتب منهم هو ابو حفص عمر بن جميع ، فرجعنا الى « متن عقيدة التوحيد » والى الشروح التى كتبهــا الخوارج عليها ، وخاصة شرحى : الشماخى والتلاتى . فاستطعنا أن نجعل منهجنا فى الرجوع الى المصــادر الاصلية لاصحاب المذاهب والفرق مطردا ومتسقا حتى فى هذا الموطن الذى تعز فيه المادة وتندر الآثار الاصلية المتاحة للباحثين ..

رابعا : وفيما يتعلق بمقالات أصحاب الحــديث ، والاشعرية ، والظاهرية ، وعامة من يطلق عليهم اسم : أهل السنة ، فلقد اجتهدنا أن تكون مصادرنا هى مؤلفات أعلامهم الاول ، وكذلك كتب المقالات التى أرخ بها هؤلاء الاعلام للمذاهب والفرق .

فمن أصحاب الحديث نجد فى مصادرنا آثار ابى يعلى الفراء : « الاحكام السلطانية » و « كتاب الامامة » .. وكتب ابن تيمية فى : « العقود » و « السياسة الشرعية» و « منهاج السنة النبوية » ..

ومن مفكرى الاشعرية نجد ــ على سبيل المثال ــ :

مؤلفات الاشعرى : « اللمع » و « الابانة » و « مقالات الاسلاميين » .. ومؤلف « التمهيد » للباقلانى .. ومؤلفى الجوينى : « الارشاد » و « لمع الادلة » .. وكتب الفخر الرازى : « معالم اصول الدين » و « محصل افكار المتقدمين والمتاخرين » و « اعتقادات فرق المســلمين والمشركين » .. ومؤلفات الغزالى : « فضائح الباطنية »

و « الاقتصاد فى الاعتقاد » و « احياء علوم الدين » ..
ثم كتب البغدادى « الفرق بين الفرق » و « أصول الدين » .. وكتب الشهرستانى : « الملل والنحل » و « نهاية الاقدام » ..

ثم .. شرح التفتازانى « للعقائد النسفية » .. وشرح الجرجانى « للمواقف » ..

أما فكر المدرسة الظاهرية فلقد استقيناه من مؤلفات علمها ابن حزم الظاهرى ، وبالذات : « الفصل فى الملل والاهواء والنحل » و « المحلى » و « الاحكام فى أصول الاحكام » ..

فاجتمعت لهذا البحث مادة مقالات أهل السنة فى الامامة من أوثق مصادر أئمتها واعلامها ..

خامسا : اما وقائع التاريخ وأحداثه التى عرض لها هذا البحث فان مصادرها كانت هى الاخرى أقدم وأوثق مصادر ثقافتنا وحضارتنا فى التاريخ .. فالى جانب صحيحى البخارى ومسلم ـ باعتبارهما مصدران من مصادر التاريخ أيضا ـ هناك الطبرى فى تاريخه .. وابن قتيبة فى « المعارف » و « الامامة والسياسة » و « عيون الاخبار » .. وابن سعد فى طبقاته .. وابن عبد البر فى « الدرر » .. وابن النديم فى « الفهرست » .. والمسعودى فى « مروج الذهب » ... والمبرد فى « الكامل » .. وعز الدين بن الاثير فى « أسد الغابة » و « اللباب » .. ونصر بن مزاحم فى « وقعة صفين » .. ثم النويرى فى « نهاية الارب » .. والقلقشندى فى « مآثر الانافة » .. والمقريزى فى « الخطط » ..

وابن خلدون فى مقدمته .. وذلك علاوة على الوثائق السياسية لعصر صدر الاسلام والخلفاء الراشدين .

فهنا ، أيضا ، أمهات مصادر التاريخ وأوثق مراجعه..

سادسا : ونفس المنهج قد اتبعناه عندما تطلب الامر مصدرا فى اللغة نرجع اليه فى تفسير المصطلحات .. أو مرجعافى تقسيم العلوم وتعريف الفنون وتصنيف المصطلحات ــ أو قائمة لرصد المطبوعات .. فلقد رجعنا الى امثال : ابن منظور ، والخوارزمى ، والتهانوى ، والجرجانى ، وطاش كبرى زاده ، وحاجى خليفة ، وسركيس ...

سابعا : وأخيرا .. فان تركيزنا على استقاء مقالات الفرق منمصادرها الاصلية الاصيلة لم يمنعنا من الاستئناس بآراء المحدثين والمعاصرين ، فضمت مصادر هذا البحث أسماء كوكبة من أعلام فكرنا الحديث والمعاصر ، عربا ومستشرقين ، قدموا فى اطار هذه الدراسات أعمالا فكرية جادة وممتازة ، فقدموا لنا فى بحثنا هذا اسهامات يستحقون عليها الثناء والشكر والتقدير ..

تلك كلمة عن مصادر هذا البحث ، لعلها تفيد المطلع على قائمة المصادر ، فتحولها الى قائمة ناطقة بدلا من أن تظل خرساء لا تكاد تبين ! ..

المصادر

ابن أبى الحديد : (شرح نهج البلاغة) تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم · طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م ·

ابن أبى يحيى : (أبو الفضل جعفر بن أحمد بن عبد السلام) : (النقض على صاحب مجموع المحيط فيما يخالف فيه الزيدية من الامامة) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (فى ذيل المجموع المحيط : للقاضى عبد الجبار) ·

ابن الاثير (عز الدين ، الجزرى) : (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) طبعة دار الشعب ، القاهرة ·

: (اللباب فى تهذيب الانساب) طبعة دار صادر ، بيروت ·

ابن تيمية : (نظرية العقد « العقود ») تحقيق : محمد حامد الفقى · طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ م ·

(السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية) مراجعة وتعليق : محمد عبد الله السمان · طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م ·

(منهاج السنة النبوية) · تحقيق : د· محمد رشاد سالم · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م ·

ابن جميع (أبو حفص عمر) : (متن عقيدة التوحيد) نشر ـ موتيلينسكى · طبعة باريس سنة ١٩٣٠ م ·

(مقدمة التوحيد وشروحها) شرح : بدر الدين ابى العباس أحمد بن سعيد الشماخى (المتوفى سنة ٩٢٨ هـ) وأبى سليمان داود بن ابراهيم التلاتى (المتوفى سنة ٩٦٧ هـ) ·

تصحيح وتعليق : أبو اسحق ابراهيم اطفيش الجزائرى ·
طبعة القاهرة سنة ١٢٥٣ هـ ·

ابن حزم (أبو محمد على بن أحمـــد بن سعيد) : (المحلى)
تحقيق : أحمد محمد شاكر · طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ ·

(كتاب الفصل فى الملل والاهواء والنحل) طبعة القاهرة
سنة ١٣٢١ هـ ·

(الاحكام فى أصول الاحكام) طبعة القـاهرة ، الثـــانية ،
مطبعة الامام ·

ابن خلدون (عبد الرحمن) : (المقدمة) طبعة القـــاهرة سنة
١٣٢٢ هـ ·

ابن سعد : (الطبقات الكبرى) · طبعة دار التحرير ، القاهرة ·

ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) : (الفخرى فى الآداب
السلطانية والدول الاسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م ·

ابن عبد البر (يوسف) : (الدرر فى اختصار المغازى والسير)
تحقيق د· شوقى ضيف · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م ·

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى) : (المعارف)
تحقيق : د· ثروت عكاشة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م ·

(عيون الاخبار) · طبعة دار الكتب ، القاهرة سنة ١٩٧٣م ·

(كتاب الامامة والسياسة) · طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ ·

ابن المرتضى (أحمد بن يحيى) : (كتاب المنيـة والامل فى شرح
كتاب الملل والنحل) · مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ·

(باب ذكر المعتزلة ــ من كتاب المنيل والامل) تحقيق : توما
أرنولد · طبعة حيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣١٦ هـ ·

ابن المطهر الحلى (جمـــال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف
ابن على) : (منهاج الكرامة فى معرفة الامامة) · مطبوع
بكتاب (منهاج السنة) لابن تيمية ·

ابن منظور : (لسان العرب) طبعة القاهرة ٠

ابن النديم : (الفهرست) طبعة ليبزج ٠

أبو حنيفة المغربى (النعمان بن محمـــد بن منصور بن أحمـــد التميمى) (دعائم الاســـلام ، وذكر الحـــلال والحرام ، والقضايا والاحكام عن أهل رسول الله عليه وعليهم أفضـــل السلام) تحقيق : آصف بن على أصغر فيضى ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م ٠

أبو ريدة (محمد عبد الهادى ـ دكتـــور) : (ابراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية) ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م ٠

أبو يعلى (محمد بن الحسين الفراء) : (الاحكام السلطانية) تحقيق : محمد حامد الفقى ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م ٠

(كتاب الامامة) ورد ضمن كتابه (المعتمد فى أصول الدين) مخطوطة الظاهرية ، بدمشق ونشرة : يوسف ايبش بكتاب (نصوص الفكر السياسى الاسلامى « الامامة عند السنة » ٠ طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م ٠

أبو يوسف : (كتاب الخراج) ٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ ٠

آدم متز : (الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٠ أو : عصر النهضة فى الاسلام) ترجمة د٠ محمـــد عبد الهادى أبو ريدة ٠ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م ٠

أرسطو : (رسالة ارسطوطاليس الى الاسكندر فى سياسة المدن) تحقيق : يوسف بيلافسكى ٠ طبعة وارسو سنة ١٩٧٠ م ٠

أرنولد (توماس) : (الخلافة) ترجمة : جميل معلى ٠ طبعـــة دمشق سنة ١٩٤٦ م ٠

الاسكافى (أبو جعفر) : (مناقضات أبى جعفر الاسكافى لبعض ما أورده الجاحظ فى العثمانية ، من شرح نهج البـــلاغة ،

لابن أبى الحديد) جمع وتحقيق : عبد السلام هارون · طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م · « فى نهاية كتاب (المعثمانية) » ·

الاشعرى (أبو الحسن على بن اسماعيل) : (الابانة عن أصول الديانة) طبعة القاهرة · ادارة الطباعة المنيرية ·

(مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م · وطبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م · بتحقيق : هـ · ريتر ·

(كتاب اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع) · طبعة : يوسف ايبش فى كتاب (نصوص الفكر السياسى الاسلامى : الامامة عند السنة) بيروت سنة ١٩٦٦ م ·

الاصبهانى (أبو الفرج على بن الحسين بن محمد القرشى) : (كتاب الاغانى) تحقيق : ابراهيم الابيارى · طبعة دار الشعب ، القاهرة ·

البير نصرى نادر (دكتور) : (فلسفة المعتزلة) : طبعة الاسكندرية ·

الامينى (عبد الحسين أحمد الامينى النجفى) : (الغدير : فى الكتاب والسنة والادب) طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م ·

الباقلانى (ابو بكر محمد بن الطيب بن محمد) : (التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة) تحقيق : محمود محمد الخضيرى و د· محمد عبد الهادى ابو ريدة · طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م ·

بدوى (عبد الرحمن ـ دكتور) : (مذاهب الاسلاميين) طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م ·

بروكلمان (كارل) : (تاريخ الشعوب الاسلامية) ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى · طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م ·

البغدادى (عبد القاهر) : (الفرق بين الفرق) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م ٠

(كتاب أصول الدين) طبعة استانبول سنة ١٩٢٨ م ٠

البلخى (أبو القاسم) : (فضل الاعتزال وطبقـــات المعتزلة) تحقيق : فؤاد سيد طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م ٠

التفتازانى (سعد الدين) : (كتاب شرح العقائد النسفية) طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م ٠

التهانوى (محمد أعلى بن على) : (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة كلكتة ، بالهند سنة ١٨٩٢ م ٠

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : (رسائل الجاحظ) تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ٠ طبعة القاهرة ســـنة ١٩٦٤ وسنة ١٩٦٥ م ٠

(مجموعة رسائل) طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة ، سنة ١٣٢٤ هـ ٠

(العثمانية) تحقيق : عبد السلام هارون ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م ٠

(الحيوان) تحقيق : عبد السلام هارون ٠ طبعة القاهرة ، الثانية ٠

(التاج فى أخلاق الملوك) تحقيق : محمد الديب ٠ طبعـــة بيروت سنة ١٩٥٥ م ٠

(البيان والتبيين) تحقيق : فوزى عطوى ٠ طبعة بيروت ٠ سنة ١٩٦٨ م ٠

جب (هاملتون) : (دراسات فى حضارة الاسلام) ترجمة : د ٠ احسان عباس ، د٠ محمد نجم ، د٠ محمود زايد ٠ طبعـــة بيروت سنة ١٩٦٤ م ٠

الجرجانى (على بن محمد بن على) : (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م ٠

(شرح المواقف) طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ ٠

جمال الدين القاسمي الدمشقي : (كتاب تاريخ الجهمية والمعتزلة) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ ٠

الجويني (امام الحرمين أبو المعالي عبد الملك) : (كتاب الارشاد الى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد) تحقيق : د٠ محمد يوسف موسى ، على عبد المنعم عبد الحميد ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م ٠

(لمع الادلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة) تحقيق : د٠ فوقية حسين محمود ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م ٠

جيوم (الفريد) : (الفلسفة وعلم الكلام) ترجمة : جرجيس فتح الله ٠ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م ٠ ضمن كتاب : (تراث الاسلام) من تأليف جمهرة من المستشرقين ، باشراف : توماس آرنولد ٠

حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله) : (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م ٠

الحاكم الجشمي (المحسن بن كرامة) : (شرح عيون المسائل) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ٠

الحسن البصري : (رسالة في القدر) تحقيق : محمد عمارة ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ ٠ ضمن كتاب (رسائل العدل والتوحيد) جـ ١ ٠

الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان) .
(الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد) تحقيق : د ٠ نيبرج ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م ٠

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف) .
(مفاتيح العلوم) طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ ٠

الدهلوي (ولي الله ، عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحيم) .
(حجة الله البالغة) ٠ تحقيق : الشيخ السيد سابق ٠ طبعة دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ٠

ديورانت (ول) : (قصة الحضارة) طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر · القاهرة ·

الرازى (فخر الدين محمد بن عمر) : (معـالم أصول الدين) طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ · على هامش (المحصل) ·

(محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والمتكلمين) · طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ ·

(اعتقـادات فرق المسلمين والمشركين) تحقيق : د· على سامى النشار · طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م ·

الريس (محمد ضياء الدين ـ دكتور) : (النظريات السـياسية الاسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م ·

(الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية) طبعة القـاهرة سنة ١٩٦١ م ·

الزركلى (خير الدين) : (الاعلام) طبعة بيروت ، الثالثة ·

زهدى حسن جار الله : (المعتزلة) طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م ·

سانتيلا (دافيد دى) : (القانون والمجتمع) ترجمـة : جرجس فتح الله · طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م · ضمن كتـــاب (تراث الاسلام) ·

سركيس (يوسف اليان) : (معجم المطبوعات العربية والمعربة) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م ·

الشهرستانى (عبد الكريم) : (الملل والنحل) طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ · على هامش (الفصل) لابن حزم ·

(نهاية الاقدام فى علم الكلام) تحقيق : الفرد جيوم · طبعة بدون تاريخ وبدون تحديد مكان الطبع ·

الصاحب بن عباد : (الابانة عن مذهب أهل العدل) تحقيق : محمد حسن آل ياسين · طبعة ـ ضمن مجموعة ـ بغـداد سنة ١٩٦٣ م ·

(رسائل الصاحب بن عباد) تحقيق : د· عبـــد الوهاب

عزام ، د٠ شوقي ضيف ٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٣٦ هـ ٠

صبحي (أحمد محمود ـ دكتور) : (نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنى عشرية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م ٠

صفي الدين البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق) : (مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع) تحقيق : على البيجاوى ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م ٠

طاش كبرى زاده (احمد بن مصطفى) : (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) طبعة القاهرة ٠ دار الكتب الحديثة ٠

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : (تاريخ الامم والملوك) تفسير القرآن) طبعة طهران ٠ شركة المعارف الاسلامية ٠

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) (تاريخ الامم والملوك) طبعة القاهرة الاولى ٠ وطبعة دار المعارف ، بتحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ٠

طه الحاجرى (دكتور) : (الجاحظ : حياته وآثاره) ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ ٠

طه حسين (دكتور) : (الفتنة الكبرى) ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٦٩ م ٠

(الشيخان) ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م ٠

الطهطاوى (رفاعة رافع) : (نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز) طبعة القاهرة ، الاولى ٠

(أنوار توفيق الجليل) ٠ طبعة القاهرة ، الاولى ٠

الطوسى (أبو جعفر) : (تلخيص الشافى) تحقيق : السيد حسين بحر العلوم ٠ طبعة النجف سنة ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤ هـ ٠

الطوسى (نصير الدين) : (تجريد الكلام) طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ ٠ على هامش (شرح المواقف) ٠

(تلخيص محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، على هامش (المحصل) للرازى ·

عبد الجبار (أبو الحسن عبد الجبار الاسد آبادى ـ قاضى القضاة) : (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة ·

(مختصر أصول الدين) تحقيق : محمد عمارة · طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ · ضمن كتاب : (رسائل العدل والتوحيد) جـ ١ ·

(المجموع المحيط بالتكليف) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ·

(شرح الاصول الخمسة) تحقيق : د· عبد الكريم عثمان · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ ·

(تثبيت دلائل النبوة) تحقيق : د· عبد الكريم عثمان · طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ ·

(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق : فؤاد سيد · طبعة تونس سنة ١٩٧٢ ·

عبد السلام هارون « تحقيق » : (نوادر المخطوطات) ـ المجلد الاول · الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٧٣ م ·

عبد الكريم عثمان (دكتور) : (قاضى القضاة : عبد الجبار بن أحمد الهمذانى) طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م ·

على سامى النشار (دكتور) : (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام) · طبعة المعارف ، مصر ، سنة ١٩٦٩ م ·

على بن أبى طالب : (نهج البلاغة) طبعة دار الشعب ، القاهرة ·

على عبد الرزاق : (الاجماع فى الشريعة الاسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م ·

(الاسلام وأصول الحكم) دراسة وتقديم : محمد عمارة · طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م ·

على فهمى خشيم (دكتور) : (الجبائيان : ابو على وابو هاشم) طبعة طرابلس ـ ليبيا سنة ١٩٦٨ م ·

الغزالى (أبو حامد) : (فضائح الباطنية) تحقيق د. عبدالرحمن بدوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ .

(كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد) طبعة القاهرة ـ محمود على صبيح .

(احياء علوم الدين) . طبعة دار الشعب ، القاهرة .

فان فلوتن : (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية) ترجمة : د. حسن ابراهيم حسن ، محمد زكى ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

فلهوزن (يوليوس) : (تاريخ الدولة العربية) ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(الخوارج والشيعة) ترجمة : د. عبد الرحمن بدوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

القاسم الرسى : (رسائل العدل والتوحيد) دراسة وتحقيق : محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

القرافى (أحمد ادريس بن عبد الرحمن) : (الاحكام فى تمييز الفتاوى عن الاحكام وتصرفات القاضى والامام) تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة . طبعة حلب سنة ١٩٦٧ م .

القلقشندى (أحمد بن عبد الله) : (مآثر الاناقة فى معالم الخلافة) تحقيق : عبد الستار فراج . طبعة الكويت سنة ١٩٦٤ م .

الكلينى (أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق) : (الاصول من الكافى) تحقيق : على أكبر الغفارى . طبعة طهران سنة ١٣٨٨ هـ .

الكرمانى (أحمد حميد الدين) : (راحة العقل) تحقيق : د . محمد كامل حسين ، د. محمد مصطفى حلمى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

لويس (برنارد ـ دكتور) : (أصول الاسماعيلية) ترجمة :

خليل أحمد جلو ، جاسم محمد الرجد · طبعة القاهرة ـ دار الكتاب العربى ·

الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب) : (الاحكام السلطانية والولايات الدينية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م ·

(أدب القاضى) تحقيق : محيى هلال السرحان · طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م ·

(أدب الدنيا والدين) تحقيق : مصطفى السقا · طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م ·

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) : (الكامل ـ باب الخوارج) طبعة دمشق سنة ١٩٧٢ م ·

محمد حميد الله الحيدر آبادى « جمع » : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) · طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م ·

محمد رشيد رضا : (الخلافة أو : الامامة العظمى) طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ ·

محمد عبده (الامام) : (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) دراسة وتحقيق محمد عمارة · طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م ·

محمد بن على بن الطيب البصرى المعتزلى (أبو الحسين) : (كتاب المعتمد فى أصول الفقه) تحقيق : محمد حميد الله ، أبو بكر ، حسن حنفى · طبعة دمشق سنة ١٩٦٥ ·

مدكور (ابراهيم ـ دكتور) : (فى الفلسفة الاسلامية ـ منهج وتطبيقه) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م ·

المرتضى (على بن الحسين الموسوى ـ الشريف) : (أمالى المرتضى ـ غرر الفرائد ودرر القلائد) تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم · طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م ·

(مجموع من كلام السيد المرتضى) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (١٥٩ عقائد تيمور) ·

(انقاذ البشر من الجبر والقدر) تحقيق : محمد عمارة · طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م · ضمن كتاب (رسائل العدل والتوحيد) جـ ١ ·

المسـعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) : (مروج الذهب ومعادن الجوهر) تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م ·
(اثبات الوصية) طبعة طهران سنة ١٣١٨ هـ ·

المظهر (محمد رضا) : (عقائد الامامية) طبعـة النجف ـ دار النعمان للطباعة والنشر ·

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : (خطط المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) طبعة دار التحرير ، بالقاهرة ·
(معرفة ما يجب لآل البيت النبوى من الحق على من عداهم) تحقيق : محمد أحمد عاشور · طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م ·
(اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا) ، تحقيق د· جمال الدين الشيال · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م ·

الموسوى (السيد عبد الحسين شرف الدين) : (المراجعات) طبعة حلب ـ سوريا سنة ١٩٧١ م ·

ناجى حسن : (ثورة زيد بن على) طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م ·

نصر بن مزاحم المنقرى : (وقعة صفين) تحقيق : عبد السـلام هارون · طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ ·

نعيم زكى فهمى (دكتور) : (طرق التجارة الدولية ومحطاتهـا بين الشرق والغرب) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م ·

نلينـو (كارلو الفونسو) : (بحوث فى المعتزلة) ترجمة : د· عبد الرحمن بدوى · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ · ضمن كتاب (التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية) ·

النوبختي (الحسن بن موسى) : (كتاب فرق الشيعة) تحقيق : هـ · ريتر · طبعة استانبول سنة ١٩٣١ م ·

النويري (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب) : (نهاية الارب فى فنون الادب) طبعة دار الكتب المصرية ·

واصل بن عطاء : (خطبة واصل التى أسقط منها الراء) تحقيق عبد السلام هارون · طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ · ضمن كتاب (نوادر المخطوطات) المجلد الاول ·

يحيى بن الحسين : (رسائل العدل والتوحيد) جـ ٢ دراسة وتحقيق محمد عمارة · طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م ·

يحيى هويدى (دكتور) : (تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية) جـ ١ · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م ·

موسوعات : (صحيح البخارى) طبعة دار الشعب ، بالقاهرة ·
(صحيح مسلم ـ بشرح النووى) طبعة محمود توفيق ، بالقاهرة ·
(دائرة المعارف الاسلامية) طبعة دار الشعب ، بالقاهرة ·
(الموسوعة العربية الميسرة) طبعة دار الشعب ، بالقاهرة ·
(الموسوعة الفلسفية المختصرة) ترجمة : عبد الرشيد الصادق ، جلال العشرى ، باشراف : د· زكى نجيب محمود· طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م ·

صدرت هذه الطبعة ـ بكتاب الهلال ـ فى ثلاثة اقسام :
١ ـ الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية ـ مايو سنة ١٩٨٣ م
٢ ـ المعتزلة وأصول الحكم ـ ابريل سنة ١٩٨٤ م ·
٣ ـ المعتزلة والثورة ـ مايو سنة ١٩٨٤ م ·

رقم الايداع بدار الكتب ٣١٠٨ ـ ٨٤

الترقيم الدولى : ٦ ـ ٠٩١ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

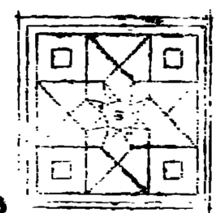
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نخاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Miguel Maccul Cury 8 25 de Março
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٨٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ م.س ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٨٠ بنى ، اديس أبابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنس ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، أثينا ١٠٠ دراخمة ، فينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٨٠ بنى .



هــذا الكتــاب

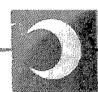
بالعدل .. وبالحرية .. تتحقق انسانية الانسان !..

لكن .. ما العمل اذا حال الاستبداد بين الانسان وبين العدل والحرية ؟!.. هنا تختلف الاجابات :

- فالبعض يدعو الى الصبر !..
- والبعض يرى « مشروعية » الثورة ، كسبيل للتغيير .. وهنا يثور التساؤل عن موقف الاسلام من « الثورة » ؟..
- وهل حقا ما يزعمه « فقهاء السلاطين » من أن الاسلام يدعو الى « شكر » الحاكم اذا عدل .. و « الصبر عليه اذا ظلم ؟! » ..
- أم أن موقف الاسلام ، من الثورة ، قد تجاوز « مشروعيتها » الى « وجوبها » ، كطريق لتحرير الامة من الجور والاستبداد ؟! ..
- فى هذا الكتاب يعرض المفكر الاسلامى الدكتور محمد عمارة لهذه القضية ـ « القديمة ـ الجديدة » ! ـ من خلال المصادر الاصلية لفكر الاسلام السياسى ، ليقدم لنا مواقف تيارات الفكر الاسلامى حيال هذا الموضوع .

انها دراسة أصيلة ، تقدم الاجابة الاسلامية لتساؤل مطروح على الساحة الفكرية فى العصر الذى نعيش فيه !..

٥٠ قرشا



كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

مواقف تاريخية لعلماء الإسلام

د. محمد رجب البيومي

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٤٠٢ ـ رمضان ١٤٠٤ ـ يونية ١٩٨٤

No. 402 — June 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عدداً » فى جمهورية مصر العربية أربعة جنيهات مصرية و ٨٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات أو ما يعادلها بالبريد الجوى . وفى سائر أنحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع نقداً او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنانة سميحة حسنين

دكتور محمد رجب البيومى

مواقف تاريخية لعلماء الإسلام

دار الهلال

مقدمة

حين أصدر الكاتب الكبير الاستاذ توفيق الحكيم مسرحيته التاريخية « السلطان الحائر » صادفت قبولا رائعا لدى القراء ، اذ صورت بعض المواقف الجريئة التى وقفها العالم البطل عز الدين بن عبد السلام حين تحدى الظلمة الطغاة من الملوك والامراء ، ورفع راية الحق فى وجوه أعدائه غير هياب ، وقد مثل بمواقفه الباهرة أدوار المصلحين من الانبياء وذوى الرسالات ، فكان قمة شامخة فى دنيا البطولة والايمان .

وقد قابلنى من جمهرة المثقفين من يدهش لبطولة العز ويعده فذا غريبا فى تاريخ العلماء ، ويعتبره من الشاذ النادر الذى لا تتمخض الاجيال عن نظيره الا بعد عسر جاهد ، وشح ضنين ، مع أن التاريخ الاسلامى حافل بأمثاله ممن صدقوا ماعدوا الله عليه ، فأعلوا كلمة الله فى معترك الطغيان .

لذلك رأيت أن أفرد لهؤلاء الأبطال كتابا وجيزا يتحدث فى سرعة طائرة عن بعض روائعهم الباهرة . متجها الى تصوير هذه الادوار الحاسمة من مواقفهم الفذة دون اسهاب فيما عداها من جهودهم العلمية والفكرية لان كل

عالم من هؤلاء جدير أن يفرد له كتاب مستقل بتاريخه ؛ على نحو ماصنعت بتاريخ الامام أحمد حين افـردت له سفرا خاصا بشخصيته ، وحسبى هنا ان اشير واوجه ، تاركا لغيرى المزيد من التحليل والتشريح .

ولست أزعم أن هؤلاء الاعلام هم جميع من تعطـرت ببطولتهم صحف التاريخ ، فهناك عشرات من امثـالهم يستحقون الدراسة والتسجيل وفى مكنة الباحث الضليع أن يجد فى كل حقبة من الحقب السالفة نمطا رائعا مـن ذوى البسالة العجيبة فى طبقات العلماء ، وهاأنذا أخطو الخطوة الاولى راجيا ان أواصل السير مع غيرى ، ممن يعرفون من واقع هؤلاء الائمة مايضع حيواتهم نمـاذج حية لشبابنا المثقفين ، ممن يستغربون مواقف العز بن عبد السلام ، ويعتبرونها استثناء يخرج على القـاعدة ؛ لا نمطا مالوفا فى كثير من حيوات رجال الاسلام .

ان تاريخنا الاسلامى الرائع لم يكتب للآن على وجهه الصحيح ، اذ أن الكثرة من مؤلفى القرون السابقة قـد اتجهت الى تسجيل مواقف الخلفاء والوزراء والامـراء ، وحسبت ذلك انفس مايقال فى مضمار التاريخ ، ومـن يتعرضون من كتاب « الطبقات » لتواريخ العلمـاء والمصلحين لا يعمدون الى التفصيل الشافى لكل مـوقف خالد ، ولكنهم يلمون به المامة المتسرع العجول ، وعلينا الآن ان نتجنب هذا التقصير المعيب ، فنفسح المجال لذوى العظمة الباهرة ممن قدروا تبعات البطولة وحملوا رسالة العلم على وجهها الصحيح .

لو ان تاريخنا الباهر قد كتب كتابة وافية ، لما رأينا من شباب الجامعات من يعد العز واحدا لا ثانى له ، بل من

يجهل العز حتى يلفته اليه كاتب مسرحي شهير ! فهل جاءهم أن زملاء العز من ورثة الانبياء قد مثلوا دوره البطولي على مر التاريخ ، فسموا الى قمم الابطال ؟ هل جاءهم أن سعيد بن المسيب قد حارب الخلافة الاموية ، وترفع على عبدالملك وولي العهد كيلا يسير مع الباطل فى طريق ؟

هل جاءهم أن سعيد بن جبير قد خاصم الحجاج ، واعلن الثورة الجريئة على طغيانه ، ثم استهزأ به فى ساحة المحاكمة بين السيف والنطع حتى ظفر بالاستشهاد ؟

هل جاءهم أن أبا حنيفة قد اعتز بالله حين حارب الدولة الاموية فى عناد ، ثم كافح أبا جعفر المنصور حين رآه يحيد عن الجادة المستقيمة ، فانهالت السياط المائة على جسده الناحل جلدا وتعذيبا ، ولم يخش الا الله ؟

هل جاءهم أن ابن حنبل قد واجه طغيان المأمون والمعتصم والواثق بنفس قوية عزيزة ، وتحمل عذاب السجن والسوط حتى أغمى عليه مرات دون اكتراث ؟

هل جاءهم أن ابن السكيت قد استشهد فى ساحة الحق ، ولقى الله راضيا فخورا بمصرعه الباهر على رءوس الاشهاد ؟

هل جاءهم أن العز بن عبد السلام قد ترك من العلماء مدرسة جريئة حاربت طغيان سلاطين المماليك وملوك التتار ، وكان من تلاميذه الابطال محيي الدين النووى ، وابن دقيق العيد وابن تيمية وسواهم من الافذاذ ؟

هل جاءهم ثبات المنذر بن سعيد فى وجه الناصر

بالاندلس أو روائع عمرو بن عبيد ويحيى بن يعمر وأبى جعفر البهلول بالكوفة وبغداد ؟

هل نظروا الى تاريخهم القريب ؛ فعرفوا جهاد علماء الازهر فى عهد المماليك والفرنسيين ، وألموا بنضال الجبرتى والعروسى والمنصورى والدردير ؟

هل جهلوا باعث الشرق ومنقذه جمال الدين الافغانى . او نسوا ماشاهدوه عيانا من روائع عبد المجيد سليم !

أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون !

وانى حين ابسط هذه المواقف فى صفحات هذا الكتاب أشعر انى أكتب دروس أخلاق وتربية ، قبل أن أسجل حوادث أناس وعصور ، لان القدوة الصالحة ، والاسوة الحسنة جديرة أن تجعل من الناشئة رجالا بسلاء ، يتخذون من اسلافهم الغابرين انماطا تحتذى ، وكواكب تهدى ، فتتحقق بذلك وراثة العلماء للأنبياء اذ لا تقتصر على المعرفة والافتاء بل تتجه الى العمل الجرىء والاصلاح المثمر والاستمساك بقول الله عز وجل « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

سعيد بن المسيب يتحدى

سيرة سعيد بن المسيب تثير العجب والاعجاب ، فقد كان رضي الله عنه ، يعرف قدر نفسه ، ويزن قيمة علمه ، وقد ارتفع بغرائزه عن الرغبات البشرية المتهافتة ! وسما بروحه الى أجواز العزة والكرامة ، فعاش كريم النفس حميد الاثر ، وكان مثلا رائعا تقدمه التربية الاسلامية الصحيحة الى عشاق العزة والكرامة ، فما تعاظم يوما على فقير محتاج ! وما خشع لحظة لطاغية جبار ، بل كان يعظم اهل المسكنة ويسعى في حوائجهم باذلا من جهده وماله — على تقدم السن وتأخر العافية — ما يستطيع ؛ اما الطغاة والفجرة من الولاة فقد جابههم مجابهات سافرة، وامتنع عن لقائهم ومجالستهم ، وزاد فندد بفضائحهم المنكرة ومظالمهم الآثمة ، وبهذه السيرة الرفيعة ، قد نهج نهجه الصالح في الحياة ، فأرى الناس كيف يكون عالم الاسلام رحيم القلب مع الضعفاء ، عزيز الجانب لدى الاقوياء ، فلا تأخذه في الله لومة لائم ، بل يهتف بالحق الصريح ، وان لمعت الأسنة واشتجرت الرماح .

وقد نشأ الرجل نشأة مباركة ، فزكا غرسه في تربة طيبة ، وشافه كبار الصحابة ، وجالس أهل الورع

والخشية من جند الله واتجه الى الفقه الاسلامى يبحث مسائله ، ويناقش فروعه ، والى الحديث المحمدى يصحب رجاله ، ويفحص أسناده ، وكانت المدينة لعهده زاخرة بأعلام الشريعة من صحابة رسول الله ، فسمع من على وابن عمر وسعد وابن عباس وابى الدرداء ، وصهيب وجابر وابى سعيد ، وأسماء ، وعائشة وام سلمة وغيرهم: ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه : أما ابو هريرة شيخ المحدثين ، فقد لزم مجلسه ، واستظهر أحاديثه ، وبلغ من نفسه مبلغا كبيرا ؛ حتى تزوج ابنته منساقا ، بدافع الرغبة الكريمة ، فى مصاهرة انسان يحفظ حديث رسول الله ! وقد تلقى — بمخالطته صحابة رسول الله — دروسا رفيعة فى الأخلاق العالية ، والكرامة الابية اذ شاهد بعينيه ما أسبغه الاسلام من العزة على أناس لم يدعنوا لغير الله ، ورأى من حرية العقيدة وشدة الحمية وقداسة المساواة ما رسم له الطريق السوى للمؤمن العريق الذى يتخذ القرآن امامه ، ومحمدا قائده ، ويعلم أن الله من ورائه يقدر الحسنات ، ويحصى السيئات ! ويقيم الميزان العادل اذ يقول : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

وقد وهب الرجل ذكاء نافذا ، وحافظة بارعة ، فاستوعب جميع ماعرض عليه ، واستشف روح الاسلام من الاحاديث والآيات استشفافا يلج الى الاعماق ، ويرجع بالمتفرقات المتباعدة الى اصول ثابتة الدعائم ، وطيدة الاركان : حتى اشتهر فى نشأته الباكرة بالعلم ، واعترف ذوو الفضل من الصحابة والتابعين ومن وليهم ، بما شرف قدره واعلى مكانته ، فقد كان عبد الله بن عمر اذا سئل عن الامر يشكل عليه يقول : سلوا سعيدا فقد

جالس الصالحين . وقال على بن الحسين : سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدم من الآثار ، وأفقههم فى زمانه وقال قتادة : ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه ، وقال مكحول : طفت الارض فما وجدت أعلم منه ! وهذه الاقوال وامثالها لم تكن تقريظا زائفا يدفع الى التزلف والمحاباة . انما صدرت عن أناس لا حاجة لهم فى تملق سعيد ، وهم — بعد — يعلمون أنهم محاسبون على مايقولون ! ولو عاش الرجل فى عهد الكتابة والتدوين لرأينا من آرائه وفتاواه مايحدد موضعه فى الفقه الاسلامى ، ولكنا نعلم ان الذين تناقلوا مسائل التشريع ودرسوا قضاياه جعلوه اماما يصدرون عنه ، فقد ذكر مالك والشافعي وأحمد واصحاب أبى حنيفة آراءه واستشهدوا بما تنوقل من فتاواه ! ومالنا نبعد ونحن نعلم ، أن عمر بن عبد العزيز ومحمد ابن شهاب ، وعمرو بن دينار ، وعطاء بن رباح ومحمد ابن الباقر ويحيى بن سعيد من تلاميذه . ولن يخرج هؤلاء عن فقه عظيم !

وكان الفقه لعهد الرجل لا يقتصر على ماهو مصطلح عليه الآن من معرفة الاحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والاحوال الشخصية بل كان يشمل جميع مايتصل بالاسلام من سيرة وتاريخ وتوحيد واخلاق وارشاد ، اذ أن الفقه — فى العهد الاول — كان يطلق كما يقول الغزالى فى «الاحياء» على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق النفوس ، ومفسدات الاعمال ، وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع الى نعيم الآخرة . وهذا المعنى الشامل المتسع ، قد تنوع معارف سعيد ، واتجه به — مع دراسته مسائل العبادات والمعاملات — الى تفهم أسرار النفوس من جهة ، والى الورع

والتحفظ من جهة ثانية ! وتظهر الناحية الاولى فى براعته الخارقة فى تأويل الاحلام ، اذ ان دراسته للنفوس قد كانت ــ مع غيرها ــ مددا زاخرا يستمد منه عناصر التأويل ، واذا كان علماء النفس يعتمدون الآن فى تفسير الاحلام على دراسة العقل الباطن وحده ، واستكناه رموزه ومعرفة اعماقه السحيقة فى الماضى النازح ، فان سعيدا ــ مع خبرته النفسية بمن يخاطبه واحاطته بنوازعه وخوالجه ، كان يعتمد فى التأويل على استشفاف روحى توحيه الفطرة الخالصة ، ويدعمه البصر بالمنازع والاهواء كما يمده الايمان القوى بشعاع مشرق يكشف له الغوامض وينير الطريق .

قال شريك بن نمر : قلت لابن المسيب : رايت فى النوم كأن أسنانى سقطت فى يدى ثم دفنتها ؟ فقال : ستدفن أسنانك من أهل بيتك ــ فكان ذلك .

وقال رجل : انه رأى فى النوم كأنه يخوض النار . فقال سعيد : ان صدقت رؤياك فلن تموت حتى تركب البحر وتصرع . فكان ذلك .

وقال الحصين بن عبيد : طلبت الولد فلم يولد ، فقلت لابن المسيب انى أرى أنه طرح فى مجرى بيض ، فقال ابن المسيب : البيض أعجمى ، فاطلب سببا الى العجم ، فتسريت : فولد لى .

هذا التفسير الصادق يجعلنا نشك كثيرا فيما يؤكده انصار « فرويد » من أن العقل الباطن وحده هو مفتاح التأويل ، فلابد من التحليل الدقيق حتى ندرس الاغوار السحيقة فى حياة الرجل ، أقول : نشك فى ذلك كثيرا ،

لانه يغفل الاستشفاف الروحي اغفالا تاما ، ولا يلجأ في حل الرمز الغامض الى مقارنة الشبيه بالشبيه ، والنظير بالنظير كما يفعل سعيد ! وعلى هؤلاء أن يضـــيفوا الى التحليل النفسي ــ الصادق في بعض حوادثه ــ شـيئا من البصر الحاذق والاستشفاف النافذ ، ولن يكون ذلك بغير الهام سماوى يمده الايمان ويدعمه الاخلاص !

اما تقواه ونسكه وتقشفه فقد ازدحمت بهـا الاخبار المتواترة ، وما ظنك برجل واظب على حضور الجمـاعة أربعين سنة لا يشذ عنها وقتا واحدا ، واعتلت عينه يوما فقيل له : لو خرجت الى العقيق ونظرت الى الخضـرة لنفع ذاك . فقال : وكيف أصنع بشهود العتمة والصبح ! وقد كان يتابع الصوم ويسرده سردا ، أما الحج فقـد اكثر منه على تقدم السن وضعف البنية ، ووعـورة الطريق ! ومع هذا التفانى في العبادة ، فقد نقلت عنـه اقوال ترسم السبيل السوى للمؤمن المناضل فى الحياة ، فقد قال له مولاه برد : مارأيت أحسن مما يصنع هؤلاء ! فقال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يصلى أحدهم الظهر ثم لا يزال صافا رجليه يصلى حتى العصر ! فقال سعيد: ويحك يابرد ، أما والله ما العبادة هذه ، انما العبـادة الكف عن محارم الله ، والتفكر فى أمره . واذن فالعابد التقى هو الذي يسعى الى رزقه مجتنبا محارم ربه . ولن تنفعه عبادته وامعاؤه تتلوى ، واطفاله يتضورون . وهـذه الخبرة الدقيقة بحقائق العبادة واوهام الناس جعلتـه يصدر آراءه عن تجربة ملموسة ، وعين ترى ، وأذن تسمع فهو يقول : ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل الا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لاينبغى أن تذكر عيوبه :

فمن كان فضله اكبر من نقصه وهب نقصه لفضله ! هذه الخبره الدقيقه بالنفوس ، جعلته يرتقي للبشريه فيتجاوز عن هناتها ويؤثر الصفح والاغضاء عمن تبدر فى اعماله نوازع الخير ، عسى ان تطغى هذه النوازع الصالحة يوما فترفع صاحبها عن الضعف الانسانى ، وما يعقبه من مهلكات قواتل !!

على ان اغراق الرجل فى عبادته لم يصرفه عن السعي وراء رزقه ، فقد رفض عطاءه من بيت المال ، واندفع يتاجر فى الزيت ليقتصر طعامه من حلاله الصريح ،وليتحرر من رق هذه النفوس اللئيمة التى تعطى باليمين لتأخذ بالشمال وتمنح مال الله لاربابه لتضع أغلالا من المنن ، فى الرقاب فتسترق الاحرار وتحنى الرءوس !

لقد كان العصر الاموى ـ لعهد سعيد ـ عصر منافع واستغلال ، فالامراء والولاة لا يسيرون على سنن الراشدين من الخلفاء ، وقد بذلوا جهودهم المضنية فى تدعيم الملك باجتذاب الانصار واغراء النفوس بالمال والمنصب والنفوذ ، وقد رأوا التفاف العامة حول سعيد وتعظيمهم اياه ، فأرادوا ان يجذبوه الى ساحتهم ، ليلوذوا بركن وطيد من تعضيده وسعيد يعلم انهم أهل جور ومظلمة ، فيرفض كل رجاء يقدم منهم اليه ، ويراهم دونه فى كل شيء ، حيث قد اعتز بتقوى الله ، وذلوا بمعصيته ، وهو لا يفتأ يعلن رأيه صريحا شهيرا فى مناوأتهم الصريحة دون ان يأبه لعاقبة تسوء ، أو طامة تعم ، وقد أراد عبد الملك ان يخطب ابنة سعيد لولى عهده « الوليد » فيكسب بذلك محبة فى القلوب ، ويتخذ من سعيد دعامة تجذب نحوه الانصار والاتباع ، ولكن ابن المسيب يحتقر رغائب

الحياة وينظر فى صغار شائن الى مقاييسها الواهنة فى منطق الدهماء ، فيرفض أن تكون ابنته أعظم سيدة فى المملكة الاسلامية ! يرفض ذلك ويستهوله ! لانه ينكر أن يكون مطية لظالم ، أو خديعة لشعب مرهق ذليل ! ثم ماذا ؟ يعجل بزفاف وليدته الى طالب علم فقير لا يملك غير قوت يومه ! فأى ملاك هذا الذى سما بانسانيته الرفيعة فوق المقاييس الهابطة ، الى أوج رحيب تضيئه العزة ويغمره الجلال .

قال يحيى بن سعيد : كان لسعيد جليس يقال له عبد الله بن وداعة فابطأ عنه اياما ، فسأل عنه وطلبه ، فأتاه معتذرا عن تأخره بمرض زوجته وموتها ، فقال له : ألا أعلمتنا بمرضها فنعودها ، أو بموتها فنشهد جنازتها ثم قال : يا عبد الله تزوج ، ولا تلق الله وانت أعزب ، فقال : يرحمك الله ومن يزوجني وانا فقير ؟ فقال سعيد : انا أزوجك ابنتى ، فقال عبد الله : فسكت استحياء واستعظاما ، فقال سعيد : مالك سكت ، أسخطا واعراضا ؟ قلت : واين أنا منها ؟ فقال قم وادع نفرا من الانصار ، فدعوت له فأشهدهم على النكاح ، فلما صلينا العشاء الآخرة توجه سعيد بابنته الى الرجل الفقير ومعها الخادم والدراهم والطعام ، والزوج لا يكاد يصدق ماهو فيه ! فليت شعرى من سمع قبل ذلك بانسان يرفض مصاهرة الخليفة ، ويدفع بابنته الى طالب علم فقير ! الا ان يكون عالما رفعه الاسلام من حضيض البشرية الطامعة الى سماء المثالية الرائعة ، ذلكم هو سعيد !

وقد كان النزاع بين الامويين والزبيريين على أشده بالمدينة ، وكل حزب يجتذب من الاشياع من يشد

عضده ويقوى شوكته ، وقد اتجهت انظار الفريقين الى سعيد ، والرجل فى قرارة نفسه لا يؤمن بهما معـــا ، ويرى الخلافة الاسلامية قد انحرفت عن نهجها الذى عرفه ايام عمر وعلى ! ولكن الرسل من الجانبين يتوافدون عليه وكلمة الحق تصرخ فى فمه فتدمغ الباطل فينحدر ، وقد أرق أولو الامر لمخالفة سعيد ، وامتحن امتحانا رهيبا من الطائفتين ، فما تراجع عن رأى أو نكص عن حق بل ظل كالطود الشامخ ناهضا يندد بالطغاة ، ويرى الملأ كيف يقف الحق الاعزل فى وجه الباطل المدجج ، وكيف يحرص المسلم الابى على كلمة الحق وان حال دونه الباطل بسياطه وحرابه ، فلن يصيب الا جلدا وعظما ! اما النفس المؤمنة فمطمئنة بايمانها ملتذة بعذابها ، منتظرة مثـــوبة الله لاصفيائه ، ونكال الآخرة والاولى لذوى البهتـــان الآثم ، والطغيان الرهيب !

هذا جابر بن الاسود عامل عبد الله بن الزبير عـــلى المدينة يأمره بالبيعة فيمتنع ، فيضربه ستين ســـوطا ، فما تراجع عن موقفه ويرى ذلك هينا فى سبيل الله !

وهذا عامل عبد الملك على المدينة يأمره بالبيعة للوليـد ابن عبد الملك فيمتنع ، فيهدده بضرب عنقه ، فما يتراجع لحظة عن موضعه ، ثم يطول الحوار والجدل ، فيعـرض عليه واحدة من خصال ثلاث : ان يقرأ الوالى كتاب البيعة على الجمهور فيسكت سعيد دون أن يقول لا أو نعم ، أو أن يجلس فى البيت فلا ينهض الى المسجد أياما حتى تنتهى البيعة ، أو أن ينتقل من مكانه بالمسجد فلا يجده الرسول اذ يأتيه ، وقد رفض سعيد هذه العروض وكان له فى العرض الاخير مندوحة تقيه دون أن تخدش رأيه ، ولكنه

وضع نفسه موضع الزعامة الكريمة للمسلم الصـــادق ليسد كل ثنية يلج بها الباطل مأربه ، فهو أولا يخشى ان يخرج بالصمت عن لا ونعم ، فيعلم الناس أنه بايع ولم يعارض ، وهو ثانيا يتعاظمه أن يمكث بالبيت اياما فلا يخرج الى الصلاة وصوت المؤذن يلهبه ويستدعيه وهـو ثالثا يربأ بنفسه ان ينتقل من مكانه حذرا من مخـــلوق لا يملك لنفســه ضرا او نفعا !

وكان سعيد يعلم حقيقة ماينتظره من عذاب اليم ، فما أن أعلن مخالفته حتى جرد من ثيابه ، وضرب خمسين سوطا ، وطاف به الرعاع فى أسواق المدينة ، وهم يقولون: هذا موقف الخزى ! فيرد عليهم فى يقين حازم : بل فررنا من الخزى يوم القيامة بما فعلتموه وفعلناه !

هذه المحن السود تمر بالمؤمن فتزيده يقينا وايمانا ، ثم تنجلى غمرتها الفاشية عن روعة واستبشار ، فالظالم يتخاذل ويتقهقر ، حين يجد عقوبته الظالمة قد عادت على غريمه بالعزة وارتفاع الذكر وبعد الصيت !! وهـــذا ما استشعره بنو مروان ، فقد اسفوا لما صنعوا ، وهموا باسترضاء الرجل مرات فما أبه بخليفة او امير ، وقـد قدم عبد الملك يوما الى المدينة ووقف على باب المســجد ، وارسل الى سعيد رجلا يدعوه ، فأتاه الرسول ، وقال: امير المؤمنين بالباب يريد أن يكلمك !! فقال : مالى اليه من حاجة ، ومابه حاجة الى ، فرجع الرسول فأخبره فقال له : قل له : اجب أمير المؤمنين ، فكرر ســـعيد ماقال ، فاستعظم الرسول ما صنع ، فقال له سعيد : اذهب يا بنى فان كان يريد بى خـــيرا فهو لـك ، أو شرا

فليقض ماهو قاض ؟! ورجع الرسول بالاجابة الى سيده فطوى الضلوع على غيظ كظيم ·

وقال عمرو بن عاصم : لما استخلف الوليد بن عبد الملك قدم المدينة ، فدخل المسجد ، ورأى شيخا قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا : فقالوا : سعيد بن المسيب ، فلما جلس ، أرسل اليه ، فأتاه الرسول فقال: أجب امير المؤمنين ،فقال سعيد : لعله أرسلك الى غيرى، فأتاه الرسول فأخبره ، فغضب الوليد غضبا شديدا : وهم به فقال له جلساؤه : يا أمير المؤمنين ، فقيه المدينة ، وشيخ قريش ، لم يطق اباك من قبلك واغض عنه ، ثم مازالوا به حتى تراجع !

وقد صلى الحجاج ذات يوم صلاة عاجلة ، لم يتم ركوعها وسجودها كما يجب ، فأخذ سعيد كفا من الحصى ورماه به ، فاستخذى فى صلاته ، وأخذ يطمئن ، ولم يسكت طاغية العرب عن سعيد خشية واجلالا ، ولكنه خاف غضب بنى مروان اذ هم به ، فهم بعد موقفهم الاول منه يتحاشون أن يشعلوا الصدور بمؤاخذته فينكئون جراحا قد اندملت على صديد ، فهى تلتمس السبيل للثورة والانفجار !!

وأيا كان فقد حاول هؤلاء أن يسترضوه ، فما رجعوا بطائل منه ، وقد كان له فى بيت المال عطاء كبير يتجاوز ثلاثين ألفا ، فبعث اليه ، فرفض أن يأخذ منه درهما ، وقال : لا حاجة لى فيما عند الظلمة من حقوق فقيل له: الا تخاف على نفسك ؟ فقال لمحدثه : مهلا يا أحمق فلن يضيعنى الله !!

هذا الايمان القوى ، وهذا الاعتزاز بالحق ، وهذا الورع الرفيع الاخاذ .. كل أولئك قد أضفى على الرجل حلة زاهية من الهيبة والكمال ، فكان فى حياته قوة مرهوبة عنيدة ، وبعد مماته فكرة سامية نبيلة ، ومثـــلا تشرئب اليه النفوس الطامحة بل حلما نادرا تتمناه القلوب، وتترقبه الاجيال .

سعيد بن جبير
في مواجهة الحجاج

بلغت قوة الحجاج بالعراق مبلغا اثار النفوس واشعل الصدور ، فقد كانت الدماء المراقة ، والاشلاء المتطايرة . والسجون المكتظة مثارا للحنق والتبرم والضيق ، ولم يرع الحجاج فى قسوته دينا أو مروءة ، فكان يعنف ويبالغ فى التعنيف حتى لا يترك فى النفوس موضعا لسكينه واطمئنان ، وأصبح الناس مابين خائف على نفسه يستكين ويذل ، ومجاهر بالثورة يستقبل الموت راضيا مسرورا ، متخلصا من حياة الذلة والهوان ، وقد أنحى كثير من المؤرخين باللائمة على الرجل ، فكتبوا تاريخه بمداد الغيظ والتبرم ، وتربصوا به اسوأ العواقب يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ولم نجد غير قلائل يقفون معه فيتكلفون التبرير الفاشل ، ويختلقون السبب الواهن : وقصارى جهدهم أن يزعموا أنه اضطر الى عسفه الزائد اضطرارا ليحمى الدولة العربية من السقوط !! وليقيم ملكا فخما تتجمع وراءه الكلمة ، وترتفع به الوحدة العربية فى دنيا السياسة المتألبة ، وقد نسى هؤلاء أن الظلم طريق فاشل لا يؤدى الى ثبات واستقرار ، وقد بالغ صاحبنا فى عسفه وارهاقه فلم يبلغ شيئا من مأمله كما

يدعون !! فامتلأت حياته بالثورات الجائحة ، والفتن الدامية ، وما كاد يفارق الحياة حتى التاث الامر ببنى مروان ، وقامت الفتن الحمراء فى كل مكان ! فأين الوحدة العربية التى دعم الحجاج أركانها وأقام بناءها فى منطق هؤلاء ؟؟ وكيف نغمض عما أورثه الطاغية فى النفوس من ذل مزيف ، واستكانة كافرة ، فترى العيون الباطل السافر وتغمض عنه متلاهية وتسمع الآذان الافك الصراح وتتظاهر بتصديقه !! وتسير الاقدام فى مواكب النفاق مدعية أنها تسعى فى ركاب العدالة والانصاف !! كل أولئك كان وبالا على الامة العربية ، ونكبة ماحقة بالدولة الاموية فلم تلبث قليلا حتى انجاب ظلامها الحالك ، وأذن الله للباطل أن يندحر الى هوته تاركا وراءه عبئا ثقيلا مرهقا من المغارم الباهظة والاثقال الفوادح !!

وكان لقسوة الحجاج بواعث نفسية ترجع الى شعوره بضعة أصله ، وتعالى بعض الناس عليه ممن ينتمون الى قبائل جهيرة ويفوقهم الرجل — فى رأيه — ذكاء وتجربة وحزما ، هذا الى طموحه الخارق الى أسباب السيادة والسيطرة ، طموحا جعله رجل الدولة الصارم ، وسيف بنى مروان البتار ، ومع ماعرف عنه من التكبر والاستعلاء على الرعية ، فقد كان يتذلل وينخضع للخليفة وآل بيته تذللا مشينا لا يجدر بقائد كبير تناط به الجلائل ، وينهض لمواجهة الامور ، ولكن رغبته الحارة فى السيطرة أجبرته على تملق الرؤساء ، وكانت دافعه الاصيل الى هذه الدماء المراقة ، دون أن يرعى وجه الله فى روح تزهق ، ورأس يطيح ! وهذا التزلف الشائن لخلفاء بنى مروان ،

والتضعضع المتكسر لامراء الدولة وغلمانها ونسائها من ذوى الصلة الواشجة بالخلافة ، سبة شائنة فى سيرة رجل يدعى كمال البطولة ، واصالة السيطرة ؛ فالبطل الصارم يأبى على ظهره الانحناء والتكسر ، والفتى المسنّ الاصيل يستنكف أن يتمسح بأذيال رجل يفوقه مكانة ونفوذا ، ولا سيما اذا اشتهر عنه انه الفارس الذى يحمى البيضة ويذود عن العرين !! ولكن الحجاج بذلك التضعضع المشين يدلنا على مفتاح شخصيته التى تتلمس السيطرة الدائبة بتملق الاقوياء وقهر الضعفاء !! دون نظر الى مروءة تأبى الضيم ، أو عطف يمنع البطش والارهاب !!

وطبيعى أن يحدث عدوان الحجاج موجة استياء تغمر القلوب ، وكان الفقهاء من أجلة التابعين ، والعلماء من ثقات الامة فى طليعة المتذمرين من هذا البغى الصريح ، فهم يرون النفوس ترد حتفها الوبىء فى غير حق ، وقد استشرى الطغيان استشراء لا يقف وراء حد ، وكلما سار أحدهم فى الطريق سمع اهات الثاكلة ، ورأى مدمع الباكية وزفرة المتحسرة ، مما يدفع الحليم الابى الى الغضب والكراهية فالثورة والاستفزاز ، وما كاد عبد الرحمن بن الاشعث يحمل الثورة على الحجاج حتى سارع هؤلاء الفقهاء الاماثل الى تأييده وتعضيده !! وفى طليعتهم سيد التابعين سعيد بن جبير !!

نشأ سعيد نشأة دينية ممتازة فصحب ابن عباس وورث علمه ، وبرع فى الفقه براعة اجلسته مجلس الصدارة بين زملائه ومناظريه ، وتصدر للفتوى الشرعية ، فسار الركبان بآرائه ، ونهل الرواد من علمه ، واوجد بالكوفة

حركة فقهية ممتازة ، كانت دعامة قوية لما نشأ بعد ذلك في الفقه الاسلامي من مذاهب مختلفة .

ولا يمكن لمن يلاحظ تطور التشريع فى ادواره المختلفة أن يغفل دور التابعين فى توجيهه وانمائه او يجحد مكان سعيد فى انعاش الحركة العلمية لعصره ، واعتماده فى ذلك على عقل بصير واطلاع شامل ، فقد بدأت لعهده تظهر الفروق الاولى بين مذاهب الرأى والحديث ، وتتجمع الاحكام المختلفة ، والآراء التى مهدت لظهور أبى حنيفة ومالك !!

ثم أعقبت هذه الذخيرة الحافلة التي يعتز بها تراثنا الفقهى ، ولو تأخر الزمن بسعيد الى عهد التدوين والتأليف لقرأنا من كتبه مايعين على تحديد موضعه بين أفذاذ الفقه الاسلامى ، على اننا نلاحظ من آرائه المتفرقة فى شعاب الكتب ماينبىء عن فضل سابغ ، ومجد تليد ، وقد اعترف أئمة العلم والورع ببراعته فى فقهه وتقواه ، فقال الامام أحمد بن حنبل : لقد قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الارض احد الا وهو مفتقر الى علمه . وقال حصيف : أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب ، وبالحج عطاء ، وبالحلال والحرام طاووس ، وبالتفسير مجاهد ، واجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير . وقال الحسن البصرى : اللهم ائت على فاسق ثقيف ، فوالله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا فى دم سعيد بن جبير لكبهم الله على وجوههم فى النار !! وعالم فقيه له هذه المنزلة فى فقهه وتقواه لابد أن يحتل مكانه اللائق فى النفوس ، وقد كان الى ذلك كله شجاع اللسان جرىء القلب يقول الحق

السافر دون أن تأخذه فى الله لومة لائم ، وجراءة القلب لم تزل دافعة الى التحرش بالباطل ومهاجمة العدوان ؛ ولاسيما ان استندت الى رصيد ذهبى من التبصر والذكاء !!

راى ابن جبير مظالم الحجاج وقسوته ، فلم يشأ ان يعتزل الناس فى مسجده ، بل عمل على تخفيف الحدة الطاغية بالنصيحة والموعظة ، وشارك فى بعض الوظائف مشاركة فعالة ، يدرأ بها ماقد يحيق من كيد وعدوان ، فكان نصيرا للضعفاء يبذل جهده الجاهد فى تخفيف الويلات ودرء المصاعب ، كما يفرق ما يتجمع لديه من أموال ، على من مسهم العوز والاحتياج . وقد أخذ عليه بعض الكتاب (١) اسهامه فى القضاء والمشورة ، اذ كان الاولى به فى رأيه أن يترك الحياة جانبا ، ويتفرغ لفقهه فى امارة ظالمة يحكمها طاغية غشوم ، ولسنا مع من يقول ذلك ، فكفاح المناضل المخلص يجلب منافع صائبة ، ويدفع نوائب كارثة واذا تعاون المصلحون – فى أوقات الطغيان – على الخير وأسهموا فى الكفاح فانهم لابد واصلون الى بعض مايبتغون من السداد ، ولئن لم يمكنهم اخماد النار المشتعلة ، فهم على الاقل يحضرونها فى نطاق اضيق .

واذا كان الحسن البصرى – معاصر سعيد وقريعه فى الفقه والتقوى – قد اعتزل وظائف الدولة ، وشاء لنفسه أن يقتصر على النصيحة والتوجيه فى رفق وحيطة ، فليس لنا أن نجبر سعيدا على ارتسام منهجه ،

---

(١) اقرأ ذلك فى كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام

فالانطوائيون فى كل عصر لا يساهمون فى توجيه النظـم ودرء المفاسد كما يقوم بذلك المكافحون المناضلون !!
وعجيب جدا ان نرى بعض الذين كتبوا عن سعيد وصاحبه يحبذون اعتزال الحسن ويعدونه مثلا أمثل فى التقية والاحتياط ، وينظرون الى اشتراك سعيد فى وظائف الدولة كخطأ تتلمس له المعاذير !! وكان صاحب هذا الرأى لا يعلم ان الاسلام دين كفاح وعمل ، وليست قيمة الورع أن تعتزل المناصب وتترك ميدان العمل ، بل عليك أن تزهد وتتورع والدنيا فى يدك ، تصرفها بميزان العدالة المنصفة ، فتدفع شرا يطرأ ، وتجلب خيرا يتاح .

ولم يتخلف سعيد بن جبير عن الغزو والجهاد فقد خف الى مقاتلة « روتبيل » ملك الترك حين تحرش بالمسلمين ، وهاجم سجستان فدك الحصون ، وأزهق الارواح ، ووقع العرب فى رعب شديد ، وفزع هائل ، وقد سار الجيش الاسلامى بقيادة عبد الرحمن بن الاشعث لتأديب الطغاة ، ومعه العدة الواقية من السلاح والرجال والخيول !!
وكان الموقف دقيقا يتطلب البطولة الحازمة والرأى الحصيف ، فالمسلمون مقبلون على اصقاع نائية ، ذات هضاب وأشواك ، وعدوهم مستقر ببلاده يعرف الدروب والمسالك ، ويتمتع قائده بحيل ماكرة تذلل العسير ، وتقوم مقام القوة والعتاد ، فلابد اذن من العزيمة الصادقة ، والجلاد الصابر المرير ، وقد خطب عبدالرحمن جنوده وصور الموقف الدقيق داعيا الى الحمية والاستبسال ثم اخذ يتقدم فيحتل مواطن اعدائه بلدا بلدا ، ولا يندفع فى طريق دون أن يختبر دروبه ، ويلم بما أمامه من مرتفعات

وشعاب . وقد كتب الله له النصر فاحتل حصونا كثيرة ، ووضع المخافر المسلحة فى كل مكان مخوف ، واقام البريد بين الاماكن المحتلة ، لتأتيه الانباء فى أقرب مدى يمكن ، وقد فكر فى أمره طويلا فراى من الحيطة ان يكتفى الى أمد قريب بما احرز من نجاح ، فلا يدفع بكتائبه المجهودة فى مطارح نائية دون أن تأخذ نصيبها من الراحة والاستجمام ، فتنقطع بها الاسباب وينقلب النصر هزيمة نكراء ، ثم كتب الى الحجاج ينبئه بما أصاب من غنم ، وما عزم عليه من هدنة مؤقتة يتم بعدها الاستيلاء التدريجى على البلاد ، وكان على الحجاج أن يقدر له موقفه فيشجعه بعبارات تفعل فعلها الحميد فى نفسية القائد المناضل وجنوده المغاوير ، ولكنه عارض الهدنة معارضة شديدة ؛ وأرسل الى عبد الرحمن خطابا مليئا بالزراية والاستهجان ثم أعلن عزله وتوعده مهددا منددا ، وتلك حماقة رعناء يرتكبها الحجاج دون روية وانتباه ، اذ كان بمكنه أن يصوغ أسلوبه صياغة هادئة تتجافى عن الاستهجان والوعيد ، ثم يعلن رغبته فى استئناف القتال مشجعا قائده ، مثنيا على جهوده . واذ ذاك لا تنفجر النفوس بالغيظ فتجنح الى التمرد والعصيان ؛ وقد كان الاشعث بمكانه من الكفاح وخبرته بالمواقع والدروب ، أبصر من الحجاج بما يجب أن يتبع مع الاعداء ، فقد درس البلاد وتمرس بخطوبها الفادحة ، ولن يستوى الغائب والشاهد بحال !! كان على الحجاج أن يفعل ذلك ، والا فأية نتيجة يتوقعها غير الثورة الهائجة

من اناس جاهدوا اعنف جهاد ، ثم قوبلوا من القيادة بالاستخفاف والتحقير والابعاد !!

على اننا نجزم جزما تؤيده شواهد التاريخ ، وتوحى به دلائل السياسة ، ان الحجاج كان على ثورته الرعناء على ابن الاشعث ، يقدر اعتبارات شخصية لا تتعلق بمصلحة الحرب ، فهو يرى فى عبد الرحمن منافسا خطيرا يقوم الناس له ويقعدون ، ولئن وقعت الهدنة كما يريد فسوف يتفرغ الى جمع القلوب نحوه والتفاف الناس حول رايته ، ومن ثم تعظم مكانته ، ويحتل فى بلاط الخلافة منزل المنافس العنيد ، لذلك بادر الحجاج بعزله وتهديده ، وكان فى النصح باستئناف الحرب مندوحة عن الوعيد والقهر لو خلصت النيات من دخلها المريب ، وكأنى بعبد الرحمن وقد لاحظ ذلك وتيقنه ، فحمل لواء الثورة الناقمة ، وتكتكت معه عصائبه الكثيرة وكتائبه الشداد !!

لقد ثار عبد الرحمن على الحجاج ! وثار معه اتباعه وفى طليعتهم سيد التابعين سعيد بن جبير !! ولم يكن تهديد الحجاج وحده باعث هذه الثورة فى رأى من انضم الى غريمه العتيد ، بل ان تاريخ الحجاج المفعم بمآسيه النكراء قد ترك فى كل نفس هزة اليمة ، فلم تكد تتلمس القائد المغامر حتى هبت تجالد العدوان ، وتحلم بالانتقام حلما يدفعها الى التضحية والاستبسال ، وكان سعيد ابن جبير وعبد الرحمن بن ليلى وعامر الشعبى ، وغيرهم من اعلام الفقه وائمة العلم فى مقدمة الثائرين ، وقد لاقت الثورة تأييدا اجماعيا من العراق وكاد يتم لها النصر

الساحق فى مواقع متتالية اخذت تتلاحق وتتابع ، الا ان عزيمة الحجاج الصخرية قد استطاعت أن تتغلب على الصعاب ، وقد وردت اليه جحافل الشام واستعان الطاغية بمكائده الكثيرة ، فاندحر ابن الاشعث وفر هاربا تتقاذفه السبل والمشارف ، وتفرق جيشه أباديد ، فقبض الحجاج على ناصية الامر ، وعقد المحاكمات الدامية للثائرين ، فأزهق مئات الارواح ، وختم حياته السياسية بهذه المحاكمات ختاما سيئا يذكره التاريخ بالفزع والاستنكار !!

تصدر الحجاج مجلس المحاكمة ، واخذ يرسل ضحاياه الى الجلاد شهيدا وراء شهيد لا يعبأ بعذر واضح أو يستشعر خشية مرهوبة ، وكانت محاكمة سعيد بن جبير حدثا رائعا يسجل آيات البطولة من مسلم يثق بعدل الله ورحمته ، ويرى من المحتم المؤكد عليه ، أن يجابه الطغيان فى جبروته ، ولا عليه اذا كانت نتيجة ذلك قاسية اليمة فهو يعلم أن حياة الذل والخنوع لا تقاس بالشهادة العالية فى مناضلة الفساد . والتشهير بذويه ، وقد كان فى وسعه أن يتفادى مصرعه بكلمات معسولة تظهر تدرعه واستكانته ، ولكنه وجد الحرج الزائد فى ضميره ، واستشعر الرغبة المخلصة فى الشهادة ، فأعلنها ثورة سافرة على الظلم البغيض ، وواجه الاسئلة القاسية باجابة تعدلها قسوة وصلابة ، فأذل كبرياء الحجاج وحطم غروره الكاذب فى موقف يترقب فيه المديح والاطراء ، بل ان سعيدا قد ابى أن يهرب فى طريقه الى المحاكمة ، وقد مهد له الحارس سبيل الفرار ، أبى ذلك ورفضه كى

لا يؤخذ بجرمه حارس ضعيف .!! وكيلا تسجل الاجيال عليه نكوصا عن مواجهة الطغيان فى موقف تقشعر به الجلود ، وترتعد الفرائص الشداد !! واليك بعض ما دارت به المحاكمة الرهيبة بين الطاغية الظالم ، وغريمه الابى الصبور !!

لقد انتفخ الحجاج فى جلسته ، وسأل فى استخفاف

ما اسمك ؟ فسمع سعيدا يجيب فى صلابة وعزة :

« اسمى سعيد بن جبير !! ولكن الطاغية يتهكم فيقول مبالغا فى استخفافه : بل شقى بن كسير !! فيندفع سعيد ليجيبه بقوله : أبى كان أعلم باسمى منك !! واذ ذاك يتضايق الحجاج فيصيح فى تبرم وغيظ : لقد شقيت وشقى أبوك ، ويظن انه بذلك قد قطع الرد على غريمه ! ولكنه يسمعه يجيب : الغيب انما يعلمه غيرك . فيستشرى غيظه ويلجأ الى الوعيد والتهديد فيصيح : لابدلنك نارا تلظى ! وهنا يرده سعيد الى حقيقته فيقول له فى بساطة هادئة : لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت الها غيرك !!

لقد طالت الاسئلة ، ولم يصل الرجل الى افحام غريمه كما يريد ، فليسلك مسلكا آخر يقرب الفريسة من فخها المرصود !! وكان الكلام عن بعض الصحابة ــ آنذاك ــ مثارا للكيد ، والاتهام بمناوأة الدولة ، والثورة على سياستها العامة ، ولا سيما تطرق الحديث الى الامام على كرم الله وجهه ، وقد فطن الحجاج الى ذلك ، فأدار الدفة الى اهل البيت ، وسأل سعيدا : ماقولك فى محمد ؟ وهو سؤال لا يتطلب روية من عالم بصير كسعيد ، فصاح

يقول : نبى الرحمة وامام الهدى ، بعثه الله رحمة للعالمين ..

وهنا نفذ الطاغية الى هدفه فقال : وما رايك فى على ؟ أهو فى الجنة أم فى النار ؟ واستمع الرد فوجد حزما بالغا وحيطة تامة فى قول سعيد : « لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها » فقد اقفل بسداده الحازم باب اللجاجة فى وجه أموى حاقد ، يتربص الدوائر بشيعة علي وعشاقه !!! فتميز الحجاج حنقا وصاح : ما قولك فى الخلفاء ؟ ولكن الرد يأتيه فى قول سعيد : لست عليهم بوكيل !!

وسار النقاش فى طريقه الدقيق من باب الى باب دون ان يزل ابن جبير باتهام يدع حيثية الاعدام فى يد عدوه ، فاصطرعت فى نفسه أعنف ضروب الانفعالات المتناقضة فكان رأسه يغلى بأفكاره كما يغلى القدر الفائر ، ثم هدأ قليلا ، وقال فى سخرية مريرة :

« أتريد أن أعفو عنك ؟! فاذا سعيد يقول فى ثقة وايمان : « ان كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا تملك عفوا عن انسان ! ولو كان الحجاج ممن يخشعون لهيبة الله لقنع بما سمع ، ولقدر للرجل ايمانه الراسخ ، ويقينه العميق !! ولكن حمى الانتقام الرعناء ترتعش فى كيانه : ثم تصدع رأسه فيصيح : اختر أى قتلة تريد أن اقتلك بها ؟ فيجيبه سعيد فى هدوء الصابر وايمان المحتسب : بل اختر ياعدو الله لنفسك ، فوالله ما تقتلنى اليوم قتلة الا قتلتك فى الآخرة بمثلها !!

ثم تكون الخاتمة الاليمة فيساق الشهيد الى المذبحة الحمراء ، وكانت آخر دعوة ترددت بها أنفاسه الطاهرة : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى !! وكان السماء قد سمعت دعاء المظلوم الشهيد ، فمات الحجاج بعد مصرع غريمه بخمس عشرة ليلة دون أن يريق دما لانسان وحسم الموت شره عن الناس !!

لقد استشهد سعيد فى حومة المجد والكرامة !!! ولكن زميله فى الثورة الفقيه العالم ، عامر الشعبى ، قد نجا من الموت ، اذ أظهر الخنوع والاستكانة وطأطأ رأسه للطغيان ، منتحلا شتى المعاذير ، وتقدم الى الحجاج يقول فى توبه النادم ، واسف المذنب : « أصلح الله الامير ، لقد حبطتنا فتنة ، فما كنا فيها بأبرار أتقياء ، ولا فجار أقوياء ، وقد كتبت الى يزيد بن أبى مسلم أعلمه ندامتى على مافرط منى ، ومعرفتى بالحق الذى خرجت منه ، وسألته أن يخبرك بذلك ويأخذ أمانا منك !! »

ونحن حين نوازن بين الموقفين نجد عامرا قد اعترف بنكوصه عن الحق فى ثورته على الحجاج !! ومعنى ذلك ان الطاغية فى بطشه الماحق وقهره العنيف لا يستأهل ثورة قوية تزعزع باطله الجرىء !! فلو وقف سعيد موقف الشعبى لكان حدثا رائعا وخطبا جللا أن يعترف فقيهان كبيران ، بعدل الحجاج فى بغيه ، وانصافه فى جبروته !! وذلك مالا يرضى عنه أخو ورع يسمع ويرى مايزهق من الارواح ، وما يتطاير من الاشلاء كل حين ، لذلك آثر سعيد الآخرة ، وتقدم الى المحاكمة يحمل روحه على كفه ، ليعلم الناس جميعا ، أن الحرية تنال بالدماء ،

وأن الشهادة فى سبيل الحق مثوبة رفيعة لا يدركها غير المثاليين من ذوى النفوس الرفيعة والمعدن الاصيل !!

على ان الحجاج الذى أزهق فى حياته ما يزيد على المائة والعشرين ألفا من الارواح « هكذا قال التاريخ » ، قد استهول مصرع سعيد وحده ، فالتأث عقله ، وشرد رابه منذ شاهد رأس الشهيد يتطاير عن جسمه فلم يذق النوم الا غرارا . وكان يستيقظ فزعا وهو يصيح : يا قوم . مالى ولسعيد بن جبير ، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقى !!! وكان يتخيل كأن هاتفا يصلصل فى أذنه : اى عدو الله . . فيم قتلت سعيدا !! ومات الطاغية وهو يذكر فى احتضاره سعيدا ، كما مات معاوية من قبله وهو يذكر فى سكراته حجر بن عدى !! وكلاهما يذكرنا فى انفعاله المؤرق بقول القائل :

اثنان لا يتهادنان دقيقة شبح الضحية والضمير المذنب

يحيى بن يعمر
بطل صريح

لو ازدهر التأليف فى القرن الاول من الهجرة كما ازدهر فيما تلاه من العصور لغنمت الثقافة الاسلامية خيرا كثيرا منه ، اذ أن هذا القرن الجليل قد حفل بعلماء أماثل من اجلة الصحابة ، وأهلة التابعين ، واذا كنا نرى اليوم آراءهم العلمية متفرقة فى مطاوى الكتب فنقف على الكثير من اجتهادهم الحافل ، واستنباطهم الدقيق ، فماذا كنا نغنم من المعرفة لو عكف هؤلاء الاعلام على تدوين ارائهم فى كتب خاصة بهم كما فعل الخلف ممن تلاهم على مر العصور ، وأن سماء ساطعة يتألق فى أفقها المنير كواكب وضاءة من أمثال على وابن عباس وابن عمر وزيد ومعاذ وابن مسعود من مشيخة الصحابة ومن طراز الزهرى وابن المسيب وعطاء الشعبى وربيعة وابن جبير وحماد والحسن من أعيان التابعين أن سماء تسطع بهذه الكواكب لجديرة أن تبعث الضوء فى ظلمات الاحقاب ودياجى العصور فتهدى الى الطريق القويم .

ولقد كان يحيى بن يعمر العدوانى أحد هؤلاء المتضلعين فى علوم الشريعة والعربية من أفاضل التابعين ، وقد شارك مشاركة مثمرة فى غرس بذور النحو مع أبى الاسود

ثم انه كان كاتبا لا يتلقى العلم مشافهة فحسب بل يدون ويسجل ، وقد عثر على بعض الصحف الاثرية ممهـــورة باسمه كما أنه المخترع الاول لنقط الحـــروف بعـــد أن خاف اللبس من الاهمال فابتكر الاعجام ، هذا الى تضلع واسع فى اللغة ، اذ كان لا يسأل عن كلمة ينطق بها بدوى مصحر الا شرحها واستشهد عليها من محفوظه وقد دعاه هذا التتبع الواسع لمهجور الكلام فى بطون القبـــــائل ، وأفخاذ البداة أن ينطق فى بعض حديثه بالغريب ، حتى اشتط بعض الكاتبين فعده من المتقعرين ، وما أظن هكذا صحيحا ، لان المقعر هو الذى يجمع الحوشى من هنا وهناك ليتشدق به عن عمد ، على سبيل المباهاة !.

أما العالم اللغوى المتمكن فلابد أن يسيل على لســـــانه مالا يقصده من الغريب ، كما نرى اليوم بعض الاصطلاحات العلمية فى كتابات العلماء ، وخواطرهم الادبية ، دون أن يقصدوا الى تعالم شخصى ، انما يتحكم فيهم تخصصهم الضليع لا يقوون على الانفلات منه !! هكذا كان يحيى فيما ينطق به من الغريب ، حتى اشتهر عنه وتنوقلت منه طرائف وأفاكيه ، روى أن يزيد بن المهلب كتب الى الحجاج لقد لقينا العدو ففعلنا وفعلنا حتى اضطررنا ، الى عرعرة الجبل ، فقال الحجاج ما لابن المهلب وهذا الكلام ! فقيل له : ان يحيى بن يعمر لديه . فابتسم قائلا : هو ذاك .

هذا بعض مايشير الى مكانته فى علوم العربية ، أمـــا آراؤه العلمية فى الفقـــه والتفسير والحديث فأكثر من أن يلم بها ملم فى نطاق وجيز ، ولسنا هنا بصدد ايضــــاح مركزه العلمى ، ولكننا نمهد لايضاح عظمته النفسية وعزته

الخلقية فقد كان من الشجاعة الادبية فى الحق ، والجراة الخلقية فى مواجهة الطغيان بالمكان السامق ، والمنزل المرموق ، وقد شاء له القدر أن يبتلى بالحجاج أو يبتلى الحجاج به ، فواجه وكابر وادى دوره مرفوع الراس عالى الجبين .

كان الحجاج ، طاغية العراق ، يدين بفلسفة القوة والارهاب ، فليس من همه أن يستميل القلوب بمعسول القول وجميل الفعل اذ ان ظروف حياته وحوادث عصره، وفتن بيئته ، قد جعلته لا يعبأ بمهادنة واستمالة ، وانما يرى الطغيان سبيل الهدوء والاستقرار ، وقد اختاره عبد الملك ليقمع ويردع لا ليؤلف ويقرب ووجد بعد التجربة أن القمع يدنى من مأربه ، ويرفع من مكانته لدى الخلافة ، فتمادى فيه تماديا جائرا ، ووطن عزمه على أن يقوم السيف بواجب الطاعة والخضوع مهما امتلأت منه القلوب موجدة وغيظا ، وانه ليجلس على العراق عالما أن حاشيته ـ قبل رعيته ـ يضيقون به ويسعون للتخلص من سره ، ثم هو لا يعبأ بما يعلم مادام السيف فى يده والسجن من ورائه ، فليغضب الغاضبون كما يشاءون فالقوة الطاغية تقيه كل سوء ، وقد تغلغل اعتقاده هذا فى نفسه حتى سرى الى أسرته الخاصة فكان يجبر المرأة على الاقتران به ثم يعاملها معاملة من لا يستميل ودها أو يحرص على حنانها ، بل معاملة المتسلط المتحكم ، ولها أن تضيق فيما بينها وبين نفسها بزوجها ومنزلها وحياتها فليس بنمجيها منه تبرم أو ضيق ، واذا كان هذا سلوكه

مع أحب الناس اليه فما ظنك بالجنيب البعيد . هذا المتحكم القاهر قد ابتلى بيحيى بن يعمر فيمن ابتلى بهم من العلماء فما وهنوا لما أصابهم ، بل ناوشوه وقارعوه ، وانتصروا عليه بالمنطق المفحم فى يوم مجموع له الناس !

لقد رأى الحجاج ان الكوفة تهيم حبا بالحسين بن على وتجعل من ذكراه المؤسية منحدرا للدمع ومصعدا للزفير، وقد كافح وجاهد فى تبديد هذا الحب الوثيق فما استطاع ، وكان يعلم أن قرابة السبط الشهيد من رسول الله تجمع عليه القلوب وتضعه بين الجوانح والشغاف ففكر وقدر ، ثم رأى أن يعلن أن الحسين هو ابن على بن ابى طالب بن عبد المطلب وليس من ذرية محمد بن عبد الله لان انتسابه لفاطمة لا يغير من الامر شيئا فالاب هو المعتبر فى النسب دون الام على قول من قال :

بنونا بنو ابنائنا وبناتنا   بنوهن أبناء الرجال الاباعد

وقد خطب فى ذلك وأطال ، وأخذ يتتبع مخالفيه سجنا وتشريدا ، ويرسل عيونه فى الكوفة ليأتوه بمعارض يصدر عن غير رأيه ، فيجعل من عقابه مثلا رادعا لغيره ، وسرعان ماجاءه الخبر أن يحيى بن يعمر سئل عن الحسين وانتمائه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأجاب فى المسجد الجامع أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ! وأن الحجاج يحكم ولا يفتى ، فاذا أفتى فعن غير علم واعتقاد !!

لم يدهش الطاغية لما بلغه ، فهو يعرف فى يحيى جرأة وشجاعة ، وكثيرا ما اصطدم معه فى جدل مذهبى فكان صاحب الحجة الفاصلة والمنطق الراجح دون أن تعصف به رهبة أو يلين من ثباته ايعاد ، ثم هو بعد يتشيع فى اعتدال فلا يوازن بين الصحابة لينصر فريقا على فريق .

ولكن ليضع الحق فى نصابه مستعصما بالعروة الوثقى من الايمان ، على أنه من وراء ذلك مسموع الكلمة ، محترم الرأى ، فاذا أفتى بما يعارض الحجاج فقد تمكن من قلوب الناس وذهبت دعوى الطاغية فى الحسين أباديد ، مـــاذا عسى أن يصنع به وقد اصطدم منه بداهية دهياء ، لابد ان يتمكن من اسكاته عن طريق الادعاء والتعنت فيلزمـــه بنص واضح من القرآن يؤيد دعواه !

وليس فى القرآن فى منطق الحجاج مايثبت ذلك ، فاذا أعلن يحيى عجزه عن الاستشهاد بالقرآن فقد قامت عليه الحجة فى رأى الجمهرة من العامة وللطاغية بعد ذلك أن يتطاول عليه مستكثرا بالسلطان والجبروت حتى يخذله خذلانا لانجح بعده ـ هكذا قدر الحجاج وأراد ، ثم تعجل فعقد مجلسا حاشدا من أعوانه ووجهاء الكوفة ، ودعا معهم شيعة يحيى ومقدرى علمه وفضله ، لينكشف أمامهم فى المعمعة ، فيضيع ماينسب اليه من علم وثبات ، ثم أرسل من يحضر يحيى ليتجرع كأس الهزيمة فى انكسار وحانت الساعة المرتقبة ، فحضر الرجل ليرى حفلا غاصا بالجموع ، وقد تصدره الحجاج كالح الوجه مقطب الجبين وقد امتدت العيون ، واشرابت الاعناق لترى العالم الوقور يتقدم فى اطمئنان فيلقى تحية الاسلام ثم يهم بالقعـــود فيصيح به الحجاج :

« لا تقعد يايحيى وأوضح لنا رأيك فى صـــلة الحسين برسول الله ! » .

فيرد يحيى فى كبرياء : الحسين والحسن من ذرية رسول الله ، وان غضب الحجاج !!

فيتنمر الحجاج متحفزا ويصيح : الديك دليل من كتاب الله ، فيرد يحيى فى ثقة بالغة : معى الدليل من القرآن !! فيضرب الحجاج كفا بكف ويقول متهكما : ما شاء الله ، افى القرآن أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ! لقد قرأته مئات المرات فما وجدت ما تقول يارجل !

فيتطلع يحيى الى الحاضرين ثم يصيح بصوت مجلجل، وايمان وثاب :

قال الله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهـــرون وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين » .

ثم تلفت الى الجمهور قائلا : أيكون عيسى بن مـــريم من ذرية ابراهيم بنص القرآن ولا يكون الحسين من ذرية رسول الله ، وبينهما من القرابة الدانية أكثر مما بين عيسى وابراهيم ايها الناس !

لقد جاء الدليل صاعقا قاصما ، وقد اعتصم الحجــاج بذكائه ليسعفه برد مضلل فما استطاع ، وبدت الفرحة والشماتة فى عيون الجالسين ، فزادت من ضيق الحجاج وانبهاره ثم رأى أن يتراجع فى موقف ضائق يضغط عليه بآصاره فابتسم فى تصنع ، وقال :

« اجلس يايحيى . فقد فاتنى هذا الاستنباط ! »

ولم يشأ أن يصرف القوم لوجوههم بعد مالحقه من خزى فاشل ، فرأى أن ينهض فيعترف بأن القرآن بحر

لا ساحل له ، وأن العربية الفصحى لا تسلس قيادها لغير من يحفظ القرآن ، وأنه هو وحده الذى أمر يحيى بن يعمر أن يضع النقط على حروف المصحف ، لتسهل سبيل الحفظ الدقيق ، والاستظهار الصحيح ، ورأى أن يجامل يحيى فاتجه اليه سائلا :

ـ أتجدنى ألحن فى قولى يا ابن يعمر !

فابتسم يحيى ابتسامة المتهكم وقال فى لهجة ذات مغزى خاص ، الامير افصح من ذلك ـ فاغتاظ الحجاج وصاح قائلا : « عزمت عليك : اتجدنى الحن .

فقال يحيى بملء فمه : نعم أيها الامير !

فنظر منبهرا وقال : ألحن فى اى شىء ؟ فصاح يحيى: فى كتاب الله !

فنهض الطاغية مغتاظا وهو يقول : ذلك أسوا لو كان، ففى أى حرف لحنت ؟

فرد يحيى فى تحد : لقد قرأت بالمسجد الجامع « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخواتكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم » ، فضممت الباء وهى مفتوحة !

فتغير وجه الرجل ، وحدثته نفسه أن يهم بصاحبه ؛ ولكن انهياره النفسى أورثه ترددا لا عهد له به ، ثم انه خشى أن يصيبه بسوء فيتناقل الناس فى الامصار قصة حجاجه فى نسب الحسين ، وينتهى الى قصر دمشق ما كان من تهوره حين جادل فى أمر لا يقبل الجدل فمكن لخصوم الخلافة من الانتصار .

وشاء بعض الحاضرين أن يصرف الحديث الى موضوع آخر ، فأخذ يسأل الحجاج عن مدينة واسط التى شيدها باذلا جهده الجاهد فى التعمير والتثمير ، وكان الطاغية قد ارتاح الى هذا الانتقال المنقذ ، فأخذ يسهب فى تقدير كفايته ، ويبين حسن اختياره للمكان ، وسخاءه فى الانفاق والتشيد ، ويحصى اعداد من قاموا بالبناء من الفعلة والعمال وما استخدم من الماشية والحيوان وما انفق من الدرهم والدينار ، ثم رأى أن يصانع يحيى ليظهر أمام الناس بأن هزيمته لم تنل من نفسه ، وأن الامر لا يخرج عن مجرد رأى يخطىء ويصيب ، فربت على كتفه برفق ثم قال :

ــ لم تذكر لنا رأيك فى مدينة واسط يا يحيى !

فسكت الرجل ولم يرد !! وتوجهت العيون اليه فزادت من حرج الحجاج وتورطه فأعاد السؤال مغيظا !

فقال يحيى : أيها الامير ماذا أقول عن واسط ، وقد شيدتها من غير مالك ، وسيسكنها غير أهلك .

فلم يعد فى قوس الصبر لدى الطاغية من منزع ،وتلهب الجمر فى عينيه ثم صاح فى انفعال : ما حملك على هذا ؟

فقال يحيى فى اعتداد : ما أخذ الله تعالى على العلماء فى علمهم الا يكتموا الناس حديثا !!

فأطرق الحجاج منخذلا ، وساد صمت حائر غمر المكان لحظات ورأى الطاغية ان يقوم بعمل ينقذ خشيته فصاح بيحيى :

ــ لا تساكنى ببلد أنا فيه ، فاذهب منفيا الى خراسان!
ثم نهض من مكانه مخذولا ليتفرق الناس ، كل الى مثواه.

قال الراوى :

ـ وذهب يحيى بن يعمر الى خراسان ، فوجد صيته الطائر يسبقه هناك ، ورأى الجميع يتحدثون بمجابهتـه للحجاج مكبرين مقدرين ! ودنا خراسانى فسـأله فى تعجب :

ـ الم تخش سيف الحجاج !؟ فرد فى ايمان الواثق : لقد ملأتنى خشية الله فلم تدع مكانا لخشية انسان .

مثل رائع من صراحة الإمام الأوزاعي

حين سقطت الدولة الاموية وابتدأ عهد بنى العباس تطلع المسلمون الى زمان مشرق بالعدالة يقوده آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مرافىء العدل والانصاف والامن ، وقد قام الدعاة فى كل مكان يعيدون مثالب الامويين وفظائعهم على الاسماع لاعنين منكرين ، ومبشرين بزمان صالح يتزعمه رجال يهدون الى الحق وهم به يعدلون . وقد بدأ أمير المؤمنين الخليفة الاول ابو العباس عبد الله بن محمد بن على عهده بالصلاة الجامعة بالكوفة ورقى المنبر فحمد الله واثنى عليه وافتخر بقرابته لرسول الله ، وندد بما قام به الفجرة من بنى حرب ومروان ثم قال : « وانى ارجو الا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت الا بالله » ثم أدركته وعكة مرضية فجلس على المنبر وصعد عمه داود بن على ليقول من خطبته الشهيرة : « انا والله ماخرجنا فى هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا لنحفر نهرا ولا نبنى قصرا ، وانما اخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كرثنا من اموركم ، وبهظنا من شئونكم ،ولقد

كانت أموركم ترمضنا ونحن على فراشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله ان نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوالله ماصعد منبركم هذا بعد رسول الله صلى اللهعليه وسلم الا امير المؤمنين على بن ابى طالب ، وامير المؤمنين ابو العباس !! » .

ولكن الذين اعطوا الناس ذمة الله وذمة رسوله أن يحكموا بما أنزل الله ويعملوا بسنة رسول الله ، ويسيروا فى العامة والخاصة بكتاب الله ، صاروا يمعنون فى الغدر وسفك الدماء وازهاق النفوس وخيانة العهد الى مدى بعث الفزع وزلزل الاطمئنان ، وعطفت النفوس الى الامويين حين وجدوا آلافا من الارواح تزهق ، وزلزال من الحروب تشب ، واخذوا بالظنة دون تحقيق، ومبادرة الشر دون تريث ، حتى صار المصبح مشفقا أن يمسى دمه ريا للارض ولحمه طعاما للطير ، ومصرعه حسرة فى قلوب الاقربين ..

وكان اشد بنى العباس عصفا بالارواح وهيجانا للشر، وزلزلة للسكينة عبد الله بن على عم أمير المؤمنين حتى وصفته بعض الروايات التاريخية بالسفاح اذ انه احق بهذا اللقب من ابن اخيه ، وقد كتب أستاذنا المغفور له عبد الحميد العبادى فى توضيح ذلك فصولا قوية

كانت مدعاة نقاش علمي مفيد بين كبار الكتاب منذ نصف قرن ! هذا العم الغاشم قد اعتقد إنه ظل الله فى ارضه. يعز من يشاء ويذل من يشاء وقد انهزم مروان بن محمد على يده فى معركة الزاب فعد ذلك مبعث فخر متطاول . ورأى نفسه صاحب الأمر الحقيقى اذ استطاع أن يهزم آخر خليفة مروانى ثم أخذ يتبعه بجنوده حتى تم مصرعه، وأورثه ذلك جماحا ونزقا ، فأخذ يتبع العزل من بنى حرب ، ليستأصل شأفة الايتام والارامل والعجزة من النساء ! وكأنه جرى فى سباق دموى مع أبى مسلم الخراسانى ، فاذا أباد أحدهما معشرا نافسه الاخر باضعاف ما اباد ، لا يرقبان فى الله الا ولا ذمة ! وحقت كلمة الله فوقع البأس بين الطغاة ، واكل بعضهم بعضا فى النهاية .

والذين يخلطون روايات كتب الادب بروايات كتب التاريخ دون تحقيق ، يزعمون أن العفو الشامل قد عم بنى أمية اولا فصفح عنهم أمير المؤمنين وتقاسموا مجالس السمر مع بنى العباس فى ابهاء الخلافة ، وباحات الامارات ، وكادت تندمل الجراح لولا أن عبدا شاعرا يقال له « سديف » كان مولى للخليفة ركب اليه من الحجاز فاستأذن متلثما دون أن يخبر باسمه ، وحلف الا يحسر اللثام عن وجهه الا فى حضرة أبى العباس ، فأذن له فدخل ليرى الخليفة على سريره ، وبنى هاشم دونه على الكراسى ، وبنى أمية دونهم على الوسائد مثناة على الارض ، فلما شاهد التئام الشمل حسر اللثام عن وجهه واخذ ينشد :

اصبح الملك ثابت الاساس
بالبهاليل من بنى العباس
بالصدور المقـــدمين قديمـا
والرءوس القماقم الرواس
يا أمير المطهرين مــن الذم
ويا راس منتهى كل راس
لا تقيلن عبد شمس عثارا
واقطعن كل رقلة وغراس
انزلوها بحيث أنزلها الله
بدار الهوان والاتعـــاس
ذلها أظهر التـــودد منها
وبها منــكمو كحز المواسى
اقصهم أيها الخليفة واحسم
عنك بالسيف شأفة الارجاس

فتغير لون أبى العباس وأصابه زمع ورعدة ثم التفت الى جنوده الخراسانية فأخذوهم بالسيوف حتى همدت جسومهم ورحل سديف الى عبد الله بن على فأنشده :

لا يغـرنك ما ترى من انـــــاس
ان تحت الضـــلوع داء دويـا
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فـــوق ظهـرها أمـويا

فهاج هائج الامير ، واعدم الارواح بالمئات !! هـــذا الذى ترويه كتب الادب وبعض كتب التاريخ لا يجوز ان يلقى بالتبعة على راس هذا العبد الشاعر وحده ! فما كان له أن يصدر امرا فى شعره يغير به سياســـة

خليفة وأمير لوصفت سرائر العباسيين ، ومالوا الى التسامح ، ولكن الشاعر آنس رغبات سادته فى الانتقام والحفيظة ، فوضع الثقاب على النفط ، وأخذ يشعل اللهيب ليرضى سادته غير عابىء بملامة ضمير ، أو ثورة هاجس ، بل ان عبد الله بن على لم يكن فى حاجة الى من يهيجه ، فمنذ فر مروان بن محمد وهو لا يذر امويا بعثر عليه ، وقد رجح الاستاذ العبادى أن استئصال بنى أمية لم يكن بحضرة امير المؤمنين بالكوفة او الحيرة أو الانبار ، ولم يتم على يده كما تزعم روايات الادب والتاريخ ، لان العراق لم يكن فى وقت من الاوقات موطن بنى أمية وبخاصة فى آخريات عهدهم عندما انبثقت عليهم فيه البثوق وكادت أن تأتى على سلطانهم قبل زحف العباسيين انما كانت الشام موطن بنى أمية ، وعلى يد عبد الله بن على قد قامت جرائم الابادة والاستئصال ! فهو صاحب الاثم الكبير فيما كان !

كان فى أهل الشام غيرة وحفيظة فقد عز عليهم أن يفتك بالناس لمجرد الشبهة ، فكل من كانت له صلة ما ببنى امية لقى حتفه من عبد الله ! والشام حاضرة الامويين وعرين سلطانهم فلا ريب أن يكثر بها الاشياع والمريدون ، ولا ريب أن يستحر القتل والاغتيال ، وان تعطى عهود الامان ، حتى اذا استسلم الخائف لقى مصرعه دون اكتراث بوفاء ! فتهامس المتهامسون مستائين ، وغمر القوم شعور لهيف بالمأساة ! فاخوانهم يتساقطون من حولهم مضرجين بالدماء ! واذا كان آل رسول الله من بنى العباس قد نهضوا ليحقوا الحق ! فمالهم يفعلون

مالا يقولون ، وما لعبد الله يشعل الحرائق أنى سار !
وجاءت الانباء لعبد الله بن على، فرأى أن يسكت الناقدين باسم الدين ، وأن يكون ذلك على رءوس الاشهاد اذ يستجوب فقيه الشام وعالمها الكبير « ابا عمرو عبد الله الاوزاعى » فى دماء بنى أمية وأموالهم ، ولم يجرؤ الفقيه — فى ظن الطاغية — أن يفتى بما يخالف هواه وهو يرى السيوف تبرق ، والدماء تسيل !

كان الامام الاوزاعى صاحب مهابة وجلال ، وله فى الفقه امامة ذات صدارة ، فقد تخرج فى مدرسة الصحابة من أمثال أبى عبيدة الجراح وبلال وشرحبيل ممن كان لهم بديار الشام مقام ، واخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول والثورى وروى عنه جماعة من مشيخة الفقهاء ممن كانوا فى طبقة أساتذته كقتادة والزهرى وقد قال ابن خلكان فى ترجمته : « هو امام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه ثم حكى عنه ، ان سفيان الثورى بلغه مقدم الاوزاعى فخرج حتى لقيه بذى طوى فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه فى رقبته فكان اذا مر بجماعة قال : الطريق للشيخ ، ومع أنه صاحب مذهب فقهى تبعه الناس احقابا ثم اندرس فقد كان اديبا فصيح اللسان ، قوى الاسلوب ، جزل العبارة ، وفى كتاب « أحسن المساعى فى مناقب الامام الاوزعى » نماذج من آثاره البليغة ، واذكر أنى قرات قديما وعظا للاوزاعى ساقه الى أبى جعفر المنصور يصور به اليوم الآخر والنفخ فى الصور وقيام الناس لرب العالمين ، والزام كل انسان طائره فى عنقه ، فما

رايت فى موضوعه أعذب وأبدع مما صدر عن الاوزاعى للصدور من الوعاظ والمرشدين ، ولدينا فى مجـــال الوعظ الدينى ادب حى يتطلب البعث والاشادة ، وهو تراث حافل يسوؤنا أن يضيع .

أحضر عبد الله بن على كبير علماء الشام وامام الفقه فى الاقليم ، فهش للقائه حين أقبل ، وأجلسه فى صدر المجلس وكأنه يحاول بالترحيب به أن يميله الى حاشيته ثم بدأ فتكلم عن مآثم بنى أمية وما صنعوه بالحسين وآل البيت ثم ما قام به ولاتهم من أمثال الحجاج وعمر ابن يوسف وعبد الله بن زياد من ارهاب وطغيان ،واتجه بالسؤال الى الاوزاعى فقال :

ـ يا أوزاعى ما تقول فى ثورتنا على الامويين ؟!

فرد الشيخ فى صرامة : قال صلى الله عليه وسلم « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى » .

فتمعر وجه عبد الله ، وظهر الفضب فى وجهه ، ولكنه كظم غيظه وسأل متجهما ؟

وما قولك فى دعاء بنى أمية ؟

فلم يلبث أن هتف الشيخ بالرأى الصريح : قـــد كانت بينك وبينهم عهود وكان من الواجب شرعـا ان تفى بها .

فلم يتمالك الطاغية أن صاح وقد اشرأبت أعنـاق القوم ـ اجعلنى واياهم لا عهد بيننا ؟ فنظر الاوزاعى فى حدة ثم صاح : دماؤهم عليك حرام !

ثارت ثائرة عبد الله وهم أن يبطش بالشيخ ، ولكن

ماذا سيكون بعد مصرعه ؟ ان الجريمة قد سجلت عليه دون افلات ! ولابد من ملاينته ليتراجع قليلا ، فاصطنع الهدوء وقال للأوزاعى : وما دليلك ياشيخ الشام ؟ .

فلم يمهله الاوزاعى أن هتف فى اعتداد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث ، النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » !

تعقد المأزق واسود ، وضاقت الدنيا فى وجه عبد الله ، ثم راى ان يتراجع عن الدماء ويسأل عن الاموال فقال فى استخذاء وما رأيك فى أموالهم ؟.

وهنـــا أجاب الاوزاعى فى هدوء مستقر واطمئنان لا يتزعزع :

ان كانت أموالهم فى أيديهم حراما فهى حرام عليك ايضا . وان كانت حلالا فلا تحل لك الا بطريق شرعى .
هنا بلغ الغيظ حدته بالطاغية فصاح محنقا : ما هذا : اليس الامر لنا ــ آل البيت ــ ديانة ، فابتسم الاوزاعى قائلا : كيف هذا ؟ .

فرد عبد الله متحديا : الم يوص رسول الله صلى الله عليه وسلم الى على ؟

فهز الاوزاعى رأسه وقال فى ابتسام : لو أوصى اليه ما حكم الحكمين !! فاستشاط ابن على من الغيظ وصاح بأتباعه أخرجوه ! أخرجوه ! وأخذ يبيت فى نفسه للرجل الشر ليعصف به عن قريب ، أنتشر فى الناس حوار الاوزاعى ، ولكن الطاغية يشغل عنه بالعبء الفادح اذ يجيئه النبأ بموت أمير المؤمنين ومبايعة ابى جعفر المنصور ، وكان يرى لنفسه الامر فيهيج هائجه ويهيىء

الجنود لمقاتلة المنصور زاحفا بكتائبه المتراصة ويرميه ابو جعفر بأبى مسلم ! فيتعارك الطاغيتان ، وتدور الدائرة على طاغية الشام ثم لا تمهل طاغية خراسان فيلقى مصرعه على يد طاغية ثالث ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا.

مضت الايام وعاش الاوزاعى مبجلا مهيبا فى دمشق ثم ارتحل الى بيروت فأقام بها حيث جاءه اليقين ، فنفر الناس الى تشييع جنازته متزاحمين وتطلع عامل المدينة ليرى الجند المتزاحم خلف نعشه فيقول فى تعجب.

رحمك الله أبا عمر ! فقد كنت اخافك اكثر من امير المؤمنين .

عمرو بن عبيد
عالم مثالي

كان أبو جعفر المنصور من الهيبة والخشية بمنزلة توحي الرعب ، وتبعث الفزع فيمن يخالطونه ويشاركونه الحكم من أمراء ووزراء وقواد .

ولو نظرنا الى تاريخه نظرة فاحصة لرأيناه ـ وان ملك الدنيا ودانت له الرقاب ـ غير سعيد بأبهته وسلطانه ، فقد رأى الرجل من الاحداث المتناقضة المتضاربة منذ صباه الناشيء الى أن لقي ربه ما أورثه القلق والحيرة واليأس ، فقد كان يظن ابان نشأته الاولى في حكم الامويين أن ما تعانيه نفسه من فزع ، وما تلقاه عشيرته من مضض سيزول حتما بزوال الدولة الاموية المستبدة ، ولذلك جاهد وجالد ، وانتقل الى شتى الاقاصي النائية ، ليبشر بيوم جديد ، تشرق فيه الشمس على العالم الاسلامي ساطعة منيرة ، ثم تغيرت الدنيا وتحقق الحلم المشتهى ، وأصبح خليفة يأمر فيطاع ! فهل هدأت نفسه قليلا من شجنها الثائر ووجدها المقيم ! انه لينظر فيجد نفسه مضطرا الى أن ينقلب على أصدقاء الامس ممن بنوا مجده ، ورفعوا خلافته ، فتسيل دماؤهم على شفرات سيوفه ، وتتساقط رقابهم بضربات أنانيته وحذره !! ثم

أنه لا يقتصر فى ذلك على أصدقائه واعوانه ، ممن لا تربطه بهم أواصر الدم والنسب ، بل ينتقل الى أبنـــاء عمومته فيتخذهم خصوما اشد خطرا ، وافزع أثرا من الاباعـد الغرباء ويعمل فيهم جبروته فيغتال الارواح ويســفك الدماء !! وليت شره اقتصر على بنى العمومة بل انتقـل الى بنى العباسى أنفسهم ، فهو يقصى ولى عهده بتدبير ظالم ليمهد السبيل لنجله ثم يتتبع أنصاره وخلصاءه فـــلا يفلت من يده أحد ، ويظن الظنون فى طوايا وزرائه ونيات فواده فيعصف فى الغد بصديق الامس ، ويحدث مـن الارتياب والقلق فى نفوس حاشيته ، ما يجعل الوزير المطاع يترقب يومه فى حذر واشفاق ، بل هو يسبر أغوار خلصائه ومعارفه محللا معللا فيجدهم مثله . طلاب جاه ونفوذ ، وعشاق أموال وقصور ، فليس فيهم من يخلص له النصيحة بنفس صادقة ، وسريرة طاهرة ، وانه ليرى فى وجوههم عيون الثعالب ، يديرونها ذات الشمال وذات اليمين ، وهو بعد مضطر الى مصانعتهم ، والتغاضى عن بعض مايأتون ، ليكونوا أعوان شدته ، ونصراء كريهته !! ليت شعرى : ـ أيستقيم له فى هذا العباب المضطرب هدوء واثق ، أو اطمئنان مريح لقد اخذ يستعيد تاريخ حياته ، ويفكر فى بعض من يعرفهم من ذوى النفـــوس الخيرة ، ليكونوا مستشاريه ونصحاءه ، فلم يكد يعثر على أحد ...

ثم لمع فى ذهنه فجأة خيال صديقه القديم العالم العابد الزاهد عمرو بن عبيد فراى فيه مثلا للصراحة المخلصـة والنزاهة الخالصـة من المآرب والهوى ، والرجولة المترفعة

عن الرغبات والميول ، فبعث اليه من يستدعيه مكرما مبجلا ! وانه ليأمل أن يجد بعض الراحة معه حين يجلس لحظات مع نفس ملائكية لا تفكر فى غير نوازع الحق والخير والجمال ...

ولم يكن عمرو بن عبيد بالخامل الذكر او المجهول القدر فقد كان عالم البصرة ورأس متكلميها وله جدل يفحم الخصم ، ولسان يفلق الصخر ..

وان اختلف اعداؤه معه فى آرائه الاعتزالية ، ومسلكه القدرى ورأيه فى العدل والمعصية فهم متفقون جميعا الا من ندر على طهارة نفسه ، ونزاهة ضميره ، ومتانة خلقه ! وان استاذه « الحسن البصرى » ليعبر عن شعور عارفيه ، حين يقول عن تلميذه التقى كلمة يفوح منها عبير المحبة والتقدير ، وقد خبره فى حلقات الدرس واكتشف سلوكه فى معاملة الانداد والنظراء ، فاندفع يقول عنه فى ثقة واعجاب :

ــ عمرو ماعمرو ؟! رجل كان الملائكة ادبته وكان الانبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به ، وان قعد لامر قام به ، وان امر بشىء كان الزم الناس له ، وان نهى عن شىء كان اترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا اشبه بباطن منه ، ولا باطنا اشبه بظاهر منه .

هذه التزكية المشرفة من امام خطير الرأى والمكانة والثقافة فى عصره كالحسن البصرى .. لا تكفى لدفع لجاجة بعض خصومه فى الرأى ، فاندفعوا وراء حقودهم الشخصية الى مهاجمته فى دينه وعقيدته . واذا كان الرجل قد افحم بالحجة والعقل ، ورمى تقولهم بالوضع

والافتراء . وأول مايعتمدون عليه من الآيات والاحاديث والنصوص ، فقد رموا منه بداهية دهياء ، على انه قد رزق من سلاسة القول وفصاحة العبارة ماملك أزمة العامة والخاصة ؛ فليس لخصومه معه فى جميع هذه النواحي سبيل الى المجابهة والعناد ، وقد غلت الحقود المريضة ببعضهم فاندفعوا يسبونه سبابا جارحا ، يبرأ منه الخلق الاصيل ، حتى لقد جاء اليه بعض تلاميذه ذات صباح فقال له : يا أبا عثمان انى لارحمك مما يقول الناس فيك، فقال :

ـ يا ابن أخى أسمعتنى أقول فيهم شيئا ؟ قال : لا ، قال : فاياهم فارحم !

هذا الرد الوجيز البليغ يكفى على قصره ان يكون مفتاحا لشخصية قائلة ، فانه ليكشف لك النقاب عن مشاعره وأحاسيسه لترى بذاته الداخلية أفقا رحيبا من التسامح والعفة والنقاء ! وهذا بعض ماجذب المنصور اليه فبعث يستدعيه !!

لقد فكر عمرو بن عبيد فى دعوة المنصور اذ بلغته ، واخذ يسأل نفسه : ماذا يروم منى هذا الرجل ، وقد اعتزلت قصره وبلده ، وما فكرت فى زيارته منذ ولى أمور الناس ، مع أنه كان من أصدقائى الاقربين أيام شبابه فى الحكم الاموى ، فكان ينزل الى مسكنى فيعرف زوجتى وأولادى وأقربائى ، ويرى بنفسه ما آتى وما أدع من الامور !! لقد مضت السنون الطويلة دون أن أخطر على باله فى مضمار عظمته المرهوبة ، وسلطانه العريض ! يعلم الله انى أفر من هؤلاء المتسلطين فرار الصحيح من

الاجرب ، واعرف ان فى التقرب اليهم مشاركة ايجابيـة فيما يقترفون من المآثم ، ان لم يجابهوا بالنصيحة الحاسمة والمعارضة الصريحة ، كما أمر الاسلام ، ثم ماذا أصنع الآن ؟ الرفض الدعوة ام أجيبها ؟

هذا ما تردد فى نفس عمرو ! غير انه لم يلبث ان قطع كل تردد ، وصمم على زيارة أبى جعفر لا ليلاطفه ويخادعه بل ليقول له كلمة الحق فيما يأتى من الاشياء ، وهو بعد كما يعلم المنصور لا يخشى فى الله لومة لائم ! .. بل يقذف بالحق على الضلال .

فكر أبو عثمان فى أثناء طريقه فيما سيواجه به ابا جعفر من أشياء ، فهو فى ميزانه النزيه قد حاد عن طريق الخلافة الراشدة فيما قام به من تجبر وارهاب ، اذ جعل كل همه ان يثبت قوائم عرشه فتم ذلك على أشلاء الضحايا ، ومع رنات الثكالى والنادبات ، ولم يعتبر بما أصاب الدولة الاموية من انهيار ، حين سلك مسلكها الوبىء ، بل لم يعتبر بما حكاه القرآن عن ارم وعاد وفرعون ذى الاوتاد ممن طغوا فى البلاد ، ولابد أن يواجه بذلك ليرتدع عن غيه ، ولن يهتم عمرو بعاقبة . فحسبه ان أدى أمانة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى دنياه ، ثم ان الخليفة من ناحية ثانية قد نكس ببيعة ولى العهد واجبره على النزول عن حقه لولده المهدى ! وولاية العهد عن طريق الوراثة فى منطق عمرو وفى رأى الاسلام الصحيح مفسدة تضر بالدولة وتقدم الفشل الكسول ليحتل مكان الحازم الادارى الصبور ! فليواجه ابو جعفر بذلك ليكون على بصيرة مما تحت قدمه من بركان ، أما حاشيته المتملقة ،

فلابد أن ينالها نصيب من اللوم والتفريط ، فقد كـــانت عون الباطل على رسالته ، وما برحت تميل مع السلطان حيث يميل لتضمن الجاه الزائف ، وتختلس فى نطـــاق الرياسة ماتصل اليه الايدى من قصور وضياع وأموال ! وتلك ثالثة الاثافى فى منطق العالم الصابر الزاهد !

وحان موعد اللقاء ، فما أن علم أبو جعفر بوصـــول عمرو حتى أسرع فى استدعائه وتخطى الى حضرة الخلافة مئات الوجهاء من الاعيان والقواد والعلماء ، ممن قعدوا يلتمسون الاذن ، وينتظرون على أحر من الجمر أن يشملهم الخليفة برعايته ، فيسرع فى قبول المثول ، وقـــد علم الخليفة من سيلقى من العلماء المخلصين ! فوطن نفسه على الاستكانة والامتثال ، وحسبه أن يسمع صوت الحـــق النزيه بريئا من الاغراض والشبهات ، وأدركته حصافته فرأى أن ينتقل من حجرة الخلافة ذات الارائك المذهبة ، والنمارق المزركشة الى حجرة متواضعة ، فرشت بالحصير كيلا يعلن الرجل احتجاجه قبل السلام !!

وقد هش للقاء صاحبه وعانقه وقبله ، ثم رفع اليـــه عينه وهو يقول فى انكسار : عظنى يا أبا عثمان !

نظر عمرو الى الخليفة نظرة تنطق بجميع ما يضمر من سخط وانكار ، ثم جللته سكينة وضيئة جعلت وجهه طاقة من نور ، واندفع يقرأ بعد البسملة قول الله :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العمـــاد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصـــخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك

لبالمرصاد » ، وكرر الآية الاخيرة فى تحد جرىء عنيد ففهم امير المؤمنين مايعنى أبو عثمان ، وملكته رعشة مرنحة فتساقطت من عينه الدموع !!.

فلم ينقطع الرجل عن قوله ، وصاح : ان الله اعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، وأعلم ان هذا الامر الذى صار اليك انما كان فى يد من كان قبلك ثم افضى اليك ، وكذلك يخرج منك الى من هو بعدك ، وانى لاحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة يا أمير المؤمنين !!

وكان سليمان بن مجالد كبير حاشية المنصور يسمع ويرى فاستفظع ماطرأ على الخليفة من حزن واضطراب ، وصاح بأبى عثمان رفقا بأمير المؤمنين فقد اتعبته منذ اليوم !

فرفع عمرو راسه وقال له : من أنت ؟ فقال ابو جعفر : او لا تعرفه يا أبا عثمان ؟ قال : لا ، وما أبالى الا اعرفه! فأجاب المنصور : هذا أخوك سليمان بن مجالد ، فضحك عمرو متهكما وقال : هذا أخو الشيطان ويلك يا ابن مجالد! خزنت نصيحتك عن امير المؤمنين ، ثم اردت ان تحول بينه وبين من أراد نصيحته ! يا أمير المؤمنين : ان هؤلاء اتخذوك سلما لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ، فاتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ومبعوث وحدك ، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئا !!

اخذ الحاضرون من رجال الحاشية بصراحة أبى عثمان! وعلموا أن الرجل قد هتك بصائرهم المدخولة بما قال : وعقدت رهبة الحق السنتهم فتدافعوا يتلاحظون بنظرات

ضارعة منكسرة . وتطلعوا الى الخليفة فى حذر فسمعوه يقول : يا أبا عثمان أعنى بأصحابك فأستعين بهم دون هؤلاء ، فرد الرجل فى قوة : اظهر الحق يتبعك اهله !.

يالها من ساعة حرجة فرج فيها العالم الناصح عن نفسه بعض مايعتلج بها من شجون لقد ذكر رأيه صريحا فى جبروت الحاكم وطغيان الحاشية ، وبقى أن يعلن رايه فى المهدى ولى العهد الجديد !! فنظر بين الحاضرين الى شاب مترف عليه دلائل الامارة والجاه ، وتوقع باستشفافه الملهم أن يكون الشاب ولى العهد ، فرفع رأسه ليسال المنصور : من هذا الفتى يا ابا جعفر ؟ فرد الخليفة : هذا ابنى محمد ، وهو المهدى ، ولى عهد المؤمنين ، فاهتبلها فرصة سانحة وقال : والله لقد سميته اسما ما استحقه بعمل ، والبسته لبوسا ماهو من لبوس الابرار ، ومهدت له أمرا أمتع مايكون به اشغل ماتكون عنه !

تضايق الخليفة من صراحة الرجل ، واراد أن يتخلص من لقائه فسأله فى تصنع : هلْ من حاجة ؟ فقال : نعم ، فتعجل ابو جعفر يسأل : وما هى ؟ فقال أبو عثمان : الا تبعث الى حتى آتيكَ ! قال : اذن لا نلتقى . قالْ : عن حاجتى سألتنى ، ونهض قائما فودعه الخليفة ، ومكث حائرا لا يدرى مايصنع ، فكأنه تقيد فى مجلسه ، ثم جعل يفكر فى منطق هذا البطل العظيم ، وكيف صدقه القولْ حين كذب عليه الناس ، وتذكر ــ بكل مرارة ــ فاقته وحرمانه وكيف ضن معها بكرامته أن يأخذ درهما أو دينارا هما بعض حقه فى بيت المال ، وتدافعت فى مخيلة الخليفة صور المتملقين والمادحين ، ممن يتلمسون الكسب الكثير

وراء نصيحة خادعة ، أو مشورة موهومة ! وكم شاهد فى مدى حياته مئات من هؤلاء يتوجهون اليه وبريق الذهب يخطف أبصارهم فما يزالون يسألون ويلحفون !!

انه ليكشف دخائل هؤلاء جميعا فيرى نفسه ـ وهو الخليفة ـ فريسة يتطلع اليها الصائدون بحبائل مستترة تدب خفية الى خزائنه ووظائفه ، فتفوح منهـــا رائحـة الاثرة والاستكلاب !!

وما يزال صدره يجيش بأمثال هذه المعانى ، حيث تجبره على التعبير عنها فى نغم منظوم ، فيجده يغنى بهذه الشطرات البليغة .

كلكهم طالب صيد .. كلكم يمشى رويد .. غير عمرو ابن عبيد فأى عالم ذلك الذى رنح أوتار الخليفة حتى دفعه ـ وهو غير شاعر ـ الى مديحه بشطرات من الشعر كانت فى حقيقتها متنفسا سريعا لمشاعره المتلاطمة ! ذلـكم هو أبو عثمان عمرو بن عبيد !!

أبو حنيفة
شهيد الحق

كانت شخصية أبى حنيفة اقوى واعظم من ان تخضع لطغيان ، فقد وهب من عزة النفس ورصانة الخلق ، وشدة الاحساس بالكرامة والرجولة ما جعله بين المناضلين الاماثل قمة شماء .

واكبر الظن أن آراءه الفقهية لم تتمكن من حقب التاريخ على مر عصور . هذا التمكن الصخرى بين الناس . الا لأن صاحبها الماجد كان ذا شخصية راسخة متمكنة ، تواجه الحجاج فى معترك الفقه ببسالة صامدة ، كما تواجه الحجاج فى معترك السياسة بعزة كريمة !! فقد كان رضى الله عنه من أقوى المتكلمين مناظرة وحوارا ، ثم تحول الى الفقه ، فخلع عليه من جلال المنطق وقوة القياس ودقة الاستنباط ، ما فتح به ميادين مغلقة ، ومهد طرقا مستعصية . وقد كان خصومه فى الرأى الفقهى يدهشون لقوة سطوته وسرعة بديهته ، حتى ليخافوا أن يواجهوه فى معترك النقاش ، وهم بعد أصحاب منطق ونص ، وأهل تفسير وتشريع !!

هذه الشخصية المثالية ، عرفت كيف تحافظ على كرامتها العزيزة ، فى دنيا المطامع والرغبات ، فلم يشأ

ان يستظل بوال يغدق عليه من رزقه حين يتفرغ للفقه والدرس كما فعل كثير من العلماء ، ولكنه ربأ بعزته أن يمن عليها مان بصنيعة ، فامتهن التجارة ليجد من أبواب الرزق ما يساعده على رفاهة عيشه ى تصون واباء ، وقد صدقت نيته ، فوسع الله عليه كل خير ، وأصبح من الثراء بالموضع الذى يجعله يتصدق بالآلاف والمئين ،وهو بعد مهيب الجانب سامى التقدير .

وقد شاء له الحظ أن يحترق بنيران السياسة ، فكشفت عن جوهره الذهبى ، اذ أنه نشأ فى الفترة العصيبة التى أدت الى سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية ، فشاهد عهدين يختلفان فى الاشخاص والاسماء ويتحدان فيما كان من تهور البغى ، واستفحال الشر ، وأخذ البرىء بذنب الآثم ، وارهاب بما يمنعه الدين والشمم الكريم .. حتى خاف كل مسلم على نفسه ،وأخذ يتوقع الشر صباح مساء !!

كان الحكم الاموى قد طغى شره ، واستشرى خطره ، فالخلفاء يظلمون ، ويعاهدون فيغدرون ، ثم يرسلون من الولاة من يترضاهم بالعنف والقهر ، فيبالغ فى اراقة الدماء وتكميم الافواه دون حساب ، وقد قامت الثورات الناقمة فى كل مكان ، فكانت تنتهى بمجازر رهيبة . تسفك فيها الدماء دون تحرز ، بل ربما كانت شدة الانتقام دليل التغلب ، وبرهان الانتصار ، والمشفقون من ذوى الاصلاح فى الامة لا يجدون من القوة ما يدفع البغى فتغلى نفوسهم من الغيظ والحنق متطلعة الى صباح جديد تشرق شمسه بنور الهداية والسداد ، وأبو حنيفة فى مقدمة هؤلاء ،

يرى البغى فيستنكر . ويهم بالثورة عليه فلا يجد من يلتف حوله ثم يتذكر عواقب الثورات ، وما صنعت بزملائه الفقهاء كزيد بن على وسعيد بن جبير فيصعد من صدره آهة حبيسة ، ويتطلع الى نصر من الله وفتح قريب !

فى اثناء هذا الضيق الكاظم المستحكم جاءه رسول الطاغية يزيد بن هبيرة والى العراق يدعوه الى أن يلى القضاء ، مع فريق من رجالات الفقه والتشريع ، وكان للامام بصيرة لا تخطىء . فقد ادرك أن هذا الوالى ورؤساءه من الخلفاء يريدون أن يتخذوه وأمثاله من العلماء مطية للشر ومركبا للخطر ، اذ يتخذونهم للقضاء فيعلمون الناس أن رجال الفقه وحماة الشريعة يؤيدون حكمهم الطاغى ، ويباركون عهدهم الظالم ، فيصبحون أداة تخدير تخذل الحق وتعين الباطل ، ويالها من كارثة دهياء .

لقد اجاب الى ذلك بعض الزملاء من الفقهاء ، ولكن الناس معادن مختلفة ، ومعدن أبى حنيفة من الذهب النضار ، فهو لا يخدع بمنصب ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، فأعلن الرفض صريحا واضحا ، وقال لمن يحاوره من العلماء فى عزة كريمة : « والله لو أراد ابن هبيرة أن أعد له أبواب « مدينة » واسط لم أدخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مؤمن واختم انا على ذلك الكتاب ، والله لا ادخل فى ذلك أبدا »

واستعظم الوالى الطاغية رفض أبى حنيفة فسجنه أسبوعين عساه ان يرجع فما استكان ، ثم أمر بضربه بالسياط ، فكان يجلد كل يوم عشرة أسواط حتى تخطى

المائة ، وأشفى على الهلاك ، ولا يزداد الا ثباتا أمام الله فيالعظمة الايمان :

كان مالابد أن يكون ، فقد سقطت الدولة الاموية على طغاتها الجبارين سقوطا اورثهم القتل والفناء والتشريد . « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه اليم شديد » جاءت الدولة العباسية ففرح المخلصون لقيامها ، وظنوا أن أسرة العباس عم رسول الله ستر ى من الكرامة والحق ما أهدره بنو أمية ، فتدعو الى الخير بالتى هى أحسن آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، ولكن الظن قد خاب ، وصدم هؤلاء المخلصون فى آمالهم حين رأوا الدولة الاموية تعود ثانية ببطشها الغاشم ، وقهرها الظالم تحت ستار أسماء تنتسب الى رسول الله ، وتهدر شرعته فى احقاق العدل واستتباب الامن ، وكانت محنة قاسية نزلت بالمؤمنين فأخذوا يتساءلون ملتاعين : متى نصر الله ؟

كان أبو حنيفة أشد هؤلاء المخلصين ضيقا بالشر وتبرما بالخلافة فاهتبل ثورة « النفس الزكية » وانضم الى رجالها ، وأفتى بتأييدها كما فعل زميله الامام مالك ابن أنس رضى الله عنهما ، وتعرضا بذلك الى شر كبير وخطر محيق ، فقد هال المنصور أن يجد أعلام الشريعة يقفون منه موقفهم من الامويين ، ثم رأى أن يترضى ويصانع ليصل بهم الى هدنة مسكنة فيستريح !!

ولم يكن الخليفة يجهل من أبو حنيفة ؟ ، فقد عرفه فى العهد الاموى غيورا لم يخش الا الله ، وهو بعد تاجر ذو ثراء لا يطمع فى مال السلطان او منصبه ، وله من حلقات

الدرس . ومن تلاميذه المنتشرين فى الآفاق ما يضفى عليه الصيت الطائر ، والذكر الحميد على عزوفه ـ رضى الله عنه ـ عن كل ما يطمع فيه العامة من سيادة قدر ، ونباهة ذكر ، كما عجم عوده يوم احتكم اليه مع زوجته ، فرأى منه فقيها صلبا لا يتخشع ولا يلين ، فقد كان فى شقاق مع زوجته الحرة وأراد أن يقترن بأخرى ، فعظم الامر عليها ولاقته مغضبة ساخطة ، فاحتج عليها بأنه لا يصدر فى زواجه بالثانية عن غير امر الله ، ثم رأت أن تحتكم الى أبى حنيفة وحده ، ووافق المنصور فى سهولة ، ظنا منه ان الحكم الشرعى من الوضوح ، بحيث لا يقف أمامه أبو حنيفة ذو الرأى والقياس ، وحانت ساعة الحكم ، فقال ابو حنيفة : ليتكلم أمير المؤمنين . فقال أبو جعفر : يا ابا حنيفة كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء فيجمع بينهن ؟ فقال : اربع . فسأله ثانيا : وهل يجوز لاحد أن يقول خلاف ذلك ؟ فقال : لا ، فنظر المنصور الى زوجته متهللا وقال :

« قد سمعت يا هذه ! فتدارك أبو حنيفة يقول فى مجابهة انما أحل الله هذا لاهل العدل يا أمير المؤمنين ، فمن لم يعدل أو خاف الا يعدل ، فينبغى ألا يتجاوز الواحدة . قال تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فينبغى أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه ، فسكت أبو جعفر على غيظ ، وطال سكوته ، فاستأذن الامام وخرج ذاهبا الى منزله ، فوجد خادم زوجة الخليفة فى انتظاره يحمل مالا وثيابا ومعه دواب وجارية فرد ذلك فى

اباء وقال كلمته المشهورة : انما ناضلت عن دينى ، وقمت ذلك المقام لله ، ولم أرد شيئا من أمور الدنيا !!

وعادت الهدية ثانية ليراها أبو جعفر فيتدبر .

هذا الموقف الحاسم قد أكد للخليفة ثبات الامام ، وقوة يقينه ، ورأى فيه هضبة عسرة المرتقى ، ومطمحا لا ينال ، وسمم أن يتغاضى عن معارضته ويجر عليه ذيل التهاون ؛ ولكن حوادث الزمان لا تتيح له أن يهمل رجلا ذا مكانة عالية ، ورأى مسموع ، وسيصطدم به رفض أو أراد ، وقد تحقق ذلك عاجلا حين دعا أبو جعفر علماء العراق ، ليأخذ رأيهم فى أهل الموصل ، حين اشترط عليهم أن يستحل دماءهم اذا انتقضوا على حكمه ، ثم ما لبثوا أن خالفوا الشرط فهبوا ثائرين !

قال أبو جعفر لمن حضره من العلماء : ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم « المؤمنون عند شروطهم » ، وأهل الموصل قد اشترطوا ألا يخرجوا على ، فان فعلوا حلت دماؤهم باقرارهم الصريح ؟

فرد أحد الحاضرين : يدك يا أمير المؤمنين مبسوطة عليهم ، وقولك مقبول فيهم ، فان عفوت فأنت أهل العفو ، وان عاقبت فيما يستحقون ، فنظر الخليفة الى أبى حنيفة وسأل : وماذا تقول أنت : ألسنا الآن فى خلافة نبوة وأهل ايمان !

فرفع الامام ـ نضر الله وجهه ـ صوته يقول : انهم اشترطوا لك مالا يملكونه وشرطت عليهم ماليس لك ، لان دم المسلم لا يحل ، وشروط الله أحق ماتوفى به .

فاضطرب أبو جعفر ، وامتقع وجهه امتقاعا يدل على

ما يتردد فى صدره من غيظ ، ثم أذن للعلماء فانصرفوا . واستبقى أبا حنيفة فخلا بهما المكان وصاح أبو جعفر : لقد أحرجتنا أمام الناس ، فانصرف الى بلادك . ولا تفت بما هو شين على أمامك ، وخرج من المجلس مغضبا . فخرج أبو حنيفة غير هياب .

وبعد : أفيترك الخليفة أبا حنيفة يعلن عن رأيه صريحا فى جبروت الخلافة وطغيانها ، وله من الاتباع والانصار ما يعتقدون رأيه ويؤمنون بكل أحكامه ، فيتسع الخرق، وتهب الريح أم يبادر بتلمس أسباب المكيدة له ، فيرتاح من خصم عنيد ؟ لقد تذكر أبو جعفر أن يزيد بن هبيرة قد عرض عليه القضاء فرفض فكان نصيبه السجن والضرب بالسياط ، فلماذا لا يعرض عليه القضاء كما فعل يزيد ، والرجل لا محالة رافض اباء ، فاذا وقف موقفه السابق ، فقد دنت ساعة القصاص وكان أبوحنيفة منطقيا مع نفسه حين جاهر بالرفض ، فالطاغية الظالم فى منطق الاسلام طاغية يجب أن يحارب سواء أكان امويا أم عباسيا ، وحكم القضاء لديه لابد أن يسير وفق هواه، والا فليست لدى القاضى العادل قوة ما ، تحتم التنفيذ والارغام ، وأصر أمير المؤمنين وأصر الامام ، وحلف أبو جعفر ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل وقال : انى لا اصلح للقضاء . فقال الربيع بن يونس وزير أبى جعفر :

« ألا ترى أمير المؤمنين يحلف » فرد أبو حنيفة فى صراحة عنيدة :

ــ أمير المؤمنين أقدر على كفارة ايمانه منى !!

فأمر به أبو جعفر ، فقيد الى السجن واستدعاه

بعد أيام وسأله : أترغب عما نحن فيه ؟ فأجاب : ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ لا أصلح للقضاء . وهنا صاح الخليفة منفعلا : كذبت .

فلم يخن الامام منطقه الصائب وقال : لقد حكم على امير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لانه ينسبنى الى الكذب فان كنت كذابا فلا أصلح ، وان كنت صادقا فقد اخبرت امير المؤمنين بعدم صلاحيتى للقضاء !!

واشتط النزق بالمنصور ، فأمر بالسياط أن تنهال على جسد الشيخ الواهن تشويه فى محبسه الرهيب ، حتى اكتملت مائة وثلاثين سوطا ، فخرج عبد الرحمن بن على ابن عباس عم الخليفة وصاح به : لقد سللت على نفسك مائة ألف سيف ، هذا فقيه أهل المشرق يضرب بالسياط فى غير جرم ، دون أن تخشى انتقام السماء !!

فتراجع أبو جعفر وقد هدأت نفسه قليلا ، فأمر باطلاقه من السجن ، وأرسل اليه ثلاثين ألف درهم ، فلما وضعت بين يديه رفضها فقيل له : لو تصدقت بها على المحتاجين ، فرد فى استهانة : ومن يضمن لى أنها جمعت من طريق الحلال .

وبلغت الكلمة آذان المنصور فكانت عليه أشد وقعا من النصال ! ثم جاءته الانباء بوفاة ابى حنيفة متأثرا بجراحه ، فاطرق قليلا يستعرض عجائب بطولته . ثم رأى أن ينصرف الى مهام خلافته ، فقد استراح أبو حنيفة حين انتقل الى جوار الله ، راضيا مرضيا وبقى هو حائرا يفكر فيما أسلف فى دنياه من أهوال يطول عليه الحساب . !

عظمة مالك بن أنس وإباؤه

لقد كان الامام مالك معاصرا لقرينه ونده الامام أبى حنيفة ، جمعتهما محنة واحدة حين اشتركا فى الافتـاء ضد أبى جعفر ، فكان من الانسب ان نخصه بهذا الحديث بعد ما تقدم عن صاحبه الكبير !!

على أن هناك فرقا واضحا بين الرجلين فى مسلكهما ازاء الخلفاء ، فأبو حنيفة مجانب لا يقرب السلطان ، ومالك يرى المنفعة فى زيارة ولى الامر ، ويظهر ذلك جليا واضحا فيما ننقله من هذه النصوص .

فقد روت كتب التاريخ قوله رضى الله عنه : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى سلطان ، فيأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره ، فان وعظه ونهاه فهو الفضل الذى ليس بعده فضل !.

وسئل : لماذا تدخل على السلاطين ؟ وهم يجـورون ويظلمون . فقال للقائل : رحمك الله وأين التـكلم بالحق !!

بل انه ليمعن فى الامر روية وتفكيرا ، حين يدركـه الضعف الجسمى ، فيعتزل المسجد بعض الوقـت ثم

لا يعتزل دار الحكم ويسأل فى ذلك فيقول : وأما اتيانى الامراء فبالحمل منى على نفسى ، فانه ربما استشير بعض من لا ينبغى أن يستشار !!

واختلاف الامامين ابى حنيفة ومالك فى هذه الناحيــة مما غرسه الله فى قلوب البشر ، اذ لو شاء ، لجعــل الناس أمة واحدة ، ولكل وجهة هو موليها . !!

والحق أن جلال العلم ووقار الايمان كانا يلفان مالكا بهالة وضاءة ذات تقدير واكبار ، حتى أنه ليعـــارض رؤساء الدولة وأمراءها دون وجل امام الاشهاد ، وتبلــغ به عزة العلم مبلغا تهون لديه أبهة الحكم ، وروعة الجاه ، وقد عرف الامام قدره الرفيع فلم يهبط من أوجه المثالى بل ظل سامقا تتطلع اليه العيون فى خشية واكبار ..

لقد سعى الخليفة المهدى الى منزله ، ووراءه حشد من الاتباع والاجناد ، ثم استأذن فى الدخول وظن النـــاس أن مالكا سيسرع باستقبال أمير المؤمنين على عجلة واندفاع ولكن الوقت يطول ، والامام داخل منزله لا يبرح ، والخليفة محرج لا يدرى ، ماذا يصنع امام رعاياه ، حتى اذا نفد الصبر بعد أمد طويل ، خرج الامام متئد الخطو ليقول فى صراحة بريئة : كنا نصلح منزلنا دون عجلة ، ليرى الناس لدينا ستر السماء ونعمة الله !!

وألح عليه المهدى أن يسعى الى قصره ليعلم ابنيـــه موسى وهارون ، فنظر الرجل فى هدوء الواثق ، وصاح فى حزم : لا يا أمير المؤمنين العلم يؤتى ولا يأتى ، واضطر الخليفة أن يبعث ولديه ، فكانا يقفان على المنزل فيدقان

الباب ، والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق ، حتى يأتى الاذن فيسرعا بالدخول !

ومضت الايام ومات المهدى ، ومن ورائه الهادى واصبح هارون الرشيد صاحب الامر فى ديار الاسلام ، واشتاق الى أن يجالس مالكا ، فى قصره ببغداد وانى !! وقد تعذر ذلك على ابيه واخيه . ثم رأى أن يكبت رغبته، ويزوره بالمدينة فى موسم الحج . فيسمع منه حديث رسول الله ليعلم القاضى والدانى ان الخليفة العظيم مس تلاميذ امام دار الهجرة . فتزداد مكانته بين الناس . ويستشعر لذة تغمر نفسه ببهجة وارتياح ، وعلم الامام ان أمير المؤمنين ناهض لزيارته ، ليأخذ مجلس التلميذ من الاستاذ ؛ فاغتسل رضى الله عنه ولبس ثيابا جددا . وتطيب ووضع مجامر الند والعود ، وهذا ما كان يفعله دائما تعظيما لحديث رسول الله لا حفاوة بالزائر الكبير !! حتى اذا حضر الخليفة قال له مالك : تقرأ على ، فخشى الرشيد أن يخطىء أمام الجمهور فقال فى ارتباك : تقرأ أنت ان أردت ؛ فقال مالك ما قرأت على أحد منذ زمان ، فأطرق الرشيد ثم قال : اذن فأخرج الناس عنى ، فرد مالك فى روعة وايمان : ان العلم اذا منع من العامة لاجل الخاصة لم ينتفع به أحد !! فقال الرشيد : ليقرأ بعض أصحابك ان أردت ، فأمر مالك تلميذه المغيرة فقرأ ،وجعل يفسر مايقرأ ؛ والرشيد وحاشيته وعامة الحاضرين منصتون ، كأن موسيقى عذبة تترنم بها ملائكة الله فى أجواز السماء !!

هذا الاعتزاز النادر بالعلم قد سما بأصحابه سموا

لا يبلغه غير ذوى النفوس الموهوبة ، من حملة الرســالات وارباب الاصلاح وقد حرص مالك على التزامه ، مهمــا ترك من الاثر الفعال ، فقد دخل الرشيد ذات عام عليه ، فأخذ مكانه الى جواره فى مجلس الحديث ظانا أنه لم يفعل فى ذلك مايوجب الملام ، ولكن مالكا يصيح : يا أمير المؤمنين : من تواضع الى الله رفعه ومن تكبر على الله وضعه ، فيلتفت الرشيد مأخوذا ويسأل : ماذا صنعت ؟ فيقول مالك : ان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم فى مجلس علمه ، فقم واقعد بين يدى ، فأسرع الرشيـد ممتثلا حتى اذا انتهى من درسه قال لبعض خلصائه :

« اننا نتواضع لننتفع به ، وقد تواضع لنا سفيان بن عيينة فلم ننتفع به شيئا .. ونحن نقول كلمة الحق حين نذكر للرشيد هنا هدوءه وانتصاحه ، وقد كان فى وسعه أن يغضب على الاقل . أو يبادر بالانسحاب !!

ولم يبلغ الامام رضى الله عنه هذه المنزلة ، اعتبــاطا بل ارتفع الى قمتها العالية بعد جهاد طويل ، وامتحان شاق تجلى عن ايمانه وعزمه ، فصارت له فى نفــوس المسلمين مكانة مبجلة ، وانتشر تلاميذه فى الافاق يحملون المأثور من علمه ، والجليل من أفعاله ، وصارت الرحلة الى مدينة رسول الله واجبا أكيدا ، يقوم به طلاب العـلم فى شتى الامصار ، ليروا مالكا وينقلوا افتاءه ، ويسجلوا اسناده ، وكان اذا بدأ الدرس خشعت الاصوات، وأطرقت الاعناق حتى قال فيه القائل :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة
والحاضرون نواكس الابصار

وحسبك أن تزدحم مدينة رسول الله لعهده بتلاميذ الصحابة والتابعين ثم يمضى المثل الشرود قائلا : لا يفتى ومالك فى المدينة !! وسنعرض هنا بعض ما تحمل فى سبيل الحق من عذاب، حين جابه الطغيان بافتائه القاصم .

لم تكد الايام تمر بمفاجآتها وصعابها على الدولة العباسية حتى تألبت على أصحابها الجموع الحاشدة ، اذ لمست مدى الخيبة الاليمة فى آمالها وأهدافها ، ورات أن السفاح والمنصور كليهما يسيران فى طريق بنى أمية تنكيلا بالضحايا ، وسفكا للدماء ، ونظر المسلمون فوجدوا أن أصحاب الحق يحاربون ويضطهدون ، كأن أمية لا تزال تأخذ عليهم طريقهم ، فلا يجدون نفعا فى الارض أو يطيرون بجناح الى السماء ، وتجمعت الرغبات فى الصدور ملتهبة محتدمة ، حتى تمخضت عن ثورتين بالمدينة والبصرة قام بهما محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه ابراهيم بن عبد الله !! وارتجف المنصور ارتجافا أذهله وشرد أمنه ، فأخذ يتوقع الشر الماحق من حين الى حين ، ثم جاءته الانباء أن كبار العلماء من امثال ابى حنيفة ومالك يؤيدون الثائرين ، ويرسلون الفتاوى فى تحبيذ الجهاد ومحاربة الطغاة !! فاستعان الخليفة بحيلته الماكرة ، وأخذ يخادع ويداهن ، حتى استطاع أن يستميل الكثيرين من مناوئيه باذلا مغريات الوعود من جاه ومنصب وثراء . ولكن أحابيله الخادعة لم تستطع أن تمتد الى الامامين الكبيرين فى شىء ، واذا كنا فى الموضوع السابق قد تحدثنا عن أبى حنيفة ، فنحن هنا نتحدث عن مالك لنسجل انه شاهد بعض المترددين فى تأييد الثورة ينكصون عنها بحجة

أنهم بايعوا المنصور ، فلا يجوز لهم أن ينقضوا البيعة بعد أن حلفوا الايمان المؤكدة بالطلاق على الطاعة والاذعان ، فأصدر رأيه الحاسم بأن طلاق المكره لا يقع ، وهم قد بايعوا المنصور مكرهين فلهم أن يتحللوا من بيعته غير آثمين .. وطارت الفتوى الى المنصور فكادت أن تزلزل ثباته ثم رأى أن يستوثق فأرسل يهادنه ويستميله فما رجع رسوله بطائل ، بل قال له أنه استمع الى مجلس الامام بالمدينة ، فرأى سائلا يسأله عن الثائرين على الخلافة : هل يجوز قتالهم ؟ فأجاب فى غير تحفظ : ان خرج الثائرون على مثل عمر بن عبد العزيز عدلا واستقامة جاز قتالهم ، والا فهم طلاب حق مشروع !

وجاء سائل آخر فسأل عن نكاح المتعة بعد أن فشا بين الامراء من بنى العباس ، وفيهم خاصة المنصور وأرباب مشورته ، وأعوان طغيانه ، فأعلن أنه نكاح باطل وان مايروى فى حديث ابن عباس عن جوازه مكذوب موضوع !! وليست الفتوى فى هذه المسألة مشكلة فقهية يختلف فيها رأى عن رأى ، ولكنها طعن سياسى تتجه الى عصابة الحكم ويدمغهم بالعصيان ، فيزيد الناس نفورا وامتعاضا ، ويبذر كثيراً من بذور الفتنة والشقاق !!

وقد شاءت الاقدار أن يقضى أبو جعفر على الثورة ، ويقتل بنى عمومته من الثائرين ، وليس من منطق الاشياء فى قانون متجبر طاغية كالمنصور أن يعفو عن خصومه من العلماء ، ومالك فى طليعتهم ، فصب عليه سوط عذابه ، وامر عامله على المدينة فجرده من ثيابه دون ما يستر العورة ، ثم طرحه على الارض وأوثق رجليه ويديه بالحبال الغليظة ، وانهالت السياط على الجسد المؤمن الصابر حتى

بلغت الثمانين وترك مغمى عليه وهو بعد شيخ كهل . يسير في العقد السادس من عمره . وقد بقيت آثار السياط على جسده . فلم تفارقه حتى لقى الله !!

وكان فى الرجل بقية من قوة ، فاستطاع أن يحفظ توازنه بعد المحنة ؛ على حين مات أبو حنيفة متأثرا بسياطه . وشاع الحزن فى بغداد وسائر مدن الاسلام على الإمام الفقيد والإمام المريض ورن الصدى الساخط في أذن المنصور فندم ولات ساعة مندم . وعلم أن الامر قد نفذ فى ابى حنيفة اذ فصل الموت مابينه وبينه ، ولكن مالكا لا يزال حيا بعد !! فسعى اليه معتذرا متندما ، وأخذ يحلف أمام الجموع الناقمة أن عامله على المدينة هو الذى قام بجلد الامام دون مشورته ؛ وأتقن الدور فعزل العامل وعذبه ؛ تحقيقا لقول رسول الله : من أعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه بعذابه !!

وأخذ يزور الامام ويلاحقه ؛ باعتذاره تنفيسا عن الم يجيش بنفسه ، فلا يجد التسكين !! وقد بالغ فى احترامه وتوقيره مبالغة ورثها عنه ولده المهدى ، فحفيداه موسى وهارون ، على نحو ماسلف فى صدر هذا المقال .

وبعد فمهما تجبر أبو جعفر وتكبر ، فقد أرغمته عظمة الايمان وجلال العلم ، وثبات اليقين متجمعة فى مالك رضي الله عنه ، أن يقول له فى انكسار : والله الذى لا اله الا هو ما أمرت بالذى كان ولا علمته ، وانه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وانى أخالك أمانا لهم من عذاب الله ، وهو قسم سياسى محنك يبطله الحق الواقع والبرهان الملموس .

لقد كان مالك رجلا ! وحسبه تلك الرجولة من فخر ..

يعقوب بن السكيت يستشهد

كنت اشرت فى عبارة موجزة بأحد اعداد مجلة الازهـر « صفر ١٣٨٠ هـ » الى ابن السكيت وموقفه الجرىء فى نصرة الحق ، ثم قابلنى من صفوة القراء من يطلبون تفصيل الحديث عن هذا الشجاع الباسل ليكون بجراته الصريحة قدوة محببة لمن يلتمسون المثل الصالحة لدى علماء يقدسون الحقيقة ويجابهون الطغيان .

وقد وجدت فى نفسى نشاطا سريعا الى الحديث عن الرجل .. لان الذين كتبوا حياته لم يهتموا كثيرا ببطولته النادرة .. واستشهاده المثالى . وانما افاضوا فى تحليل مكانته اللغوية والادبية ، وتعرضوا لاساتذته وتلاميذه من ائمة اللغة والعلوم اللسانية ، وسردوا فهرس مؤلفاته وتصانيفه ثم اشاروا الى موقفه البطولى فى سطور قليلة متضائلة . مع انه ذهب شهيد هذا الموقف النادر ، فلابد ان تفصل أدواره الرائعة باهتمام ، واذا كنا نردد فى كل مناسبة مواقف العز بن عبد السلام والمنذر بن سعيد ، وسعيد بن المسيب ونتخذهم قمما شامخة فى دنيا الصراحة المؤمنة ، فلماذا لا يقرن بهم يعقوب بن السكيت وقد بذل

دمه فى سبيل رأيه . أما هؤلاء فقد حفظت لهم أقدارهم في الحياة ولم تكن لاحدهم هذه الخاتمة المؤسية الاليمة وما اريد بذلك أن أبخس جهودهم العالية . معاذ الله ، ولكنى الحق بهم زميلا عالى الهمة وافر العلم أدى أمانة دينه حين جاهر حاكما ظالما بقوله الحق فخسر الدنيا ليفوز برضوان من الله أكبر .

كانت الفترة العصيبة التى شهدت حياة ابن السكيت مع سعة أفقه وغزارة معارفه وولوعه بالبحث والمناظرة من أحلك الفترات فى التعصب والاضطهاد ، لان المأمون لم يشأ أن يترك الناس أحرارا فى آرائهم الخاصة . بل ضاق بخصومه وشن عليهم حربا ظالمة لا طائل وراءها غير التنكيل والتعذيب والقتل فى بعض الاحيان ، مع أن صاحب الرأى الحر فى مضمار البحث العلمى يجب أن يفسح صدره لمعارضيه ، اذ أن من الجور الشائن أن نلزم كل فرد من أبناء العقيدة الاسلامية بآراء المعتزلة فى خلق القرآن فاذا كانت لبعض المخالفين وجهة نظرهم الخاصة صحيحة او باطلة فليس لنا ان نزجهم فى أعماق السجون، وان نعذبهم بالسياط ونكبلهم بالاغلال ، وعاشق الحرية الفكرية هو الذى يمنحها أنصاره وخصومه على السواء . أما أن يستغل نفوذه السياسى لمحاربة مذهب فكرى ، لا صلة له بدعائم عرشه ، وهيبة سلطانه فهذا ما يؤاخذ به فى معرض الموازنة والحساب .

وقد تلا المأمون من الخلفاء من نهجوا نهجه فى التعذيب والاضطهاد ، فجاء المعتصم والواثق والمتوكل ليضايقا العامة والخاصة باعنف ضروب الاعنات . واذا كان المتوكل

على الله قد منع القول بخلق القرآن ونصر أهل السنة فى مذهبهم الخاص فانه انقلب طاغية جبارا يضطهد انصار الاعتزال ويملأ بهم المحابس والسجون ، وهذا مالا يرتضيه منصف حكيم ، لاننا لا ندعو الى نصرة فريق على فريق ، ولكننا نأمل من الحاكم أن يترك العلماء ومعتقداتهم ، مادامت فى معتركها الفكرى لا تهدم أصلا من أصول التشريع ، أو تعارض ما يراه من سياسة الدولة فى الحكم والتنفيذ .

فى هذا العصر المضطرب الثائر كان ابن السكيت يتبوأ مكانه الادبى فى مضمار التدريس العلمى والتأليف اللغوى والصرفى ، فأصدر كتبا كثيرة لا يزال بأيدينا منها كتاب « اصلاح المنطق » شاهدا بمنهجه وعمقه واستقرائه على مكانة الرجل ودقته . وقد ذكر ياقوت فهرس مؤلفاته ص ٥٢ جـ ٢٠ من معجم الادباء فأوقفنا على كنز متعدد المعادن متنوع النفائس . فالشيخ الثبت يؤلف كتاب القلب والابدال وكتاب النوادر وكتاب الالفاظ وكتاب فعل وافعل وكتبا مختلفة فى الفرق والامثال والوحوش والشجر والحشرات والايام والليالى وسرقات الشعراء ومعانى الشعر مما يدل على ذهن متقد وفكر جامع مستوعب واتجاه متنوع مختلف .. ونحن نظلم الرجل .. اذا وقفنا به عند المضمار اللغوى والصرفى كما يصنع مترجموه ولو كانت بأيدينا مؤلفاته السالفة لوضعناه فى مكانه الموسوعى على التحديد لا على التقريب .

هذا العالم المفضال كان على ثرائه العلمى ذا نفس ثرية حافلة بالخلق العالى والتواضع الحميد ، وكان يزن

الاشياء بميزان الاسلام لا بميزان التقاليد المترفعة فى عصر مختلف الاجناس والنزعات ، وهو بعد ــ كوالده العالم اللغوى اسحاق السكيت ــ كثير الصمت فى المحافل وهو صمت المفكر المتأمل الذى يغنيه خاطره المزدحم عن الاشتراك فى محادثة لا تسعى وراء هدف ، أو تعمد الى غير الاعلان والدعاء . ولعله بسكوته المتأمل قد وفق كثيرا فى رصد معلوماته وتتبع سوانحه وتحليل خواطره ، فاذا انكفأ الى تسجيل بحوثه أو القاء دروسه ساعده التأمل الصامت على الجودة والابداع .

قال الفراء : سألت ابن السكيت عن نسبه فقال فى تواضع : خوزى ــ اصلحك الله ــ من ذردق . فمكثت أربعين يوما فى المنزل استحى من لقاء ابن السكيت لانى سألته عن نسبه فصدقنى . وقول الفراء على اقتضابه يرشدنا الى شيء كبير جدا عن ابن السكيت .. فالرجل وهو فى مكان الصدارة العلمية لا يخضع لمصطلحات عصره الزائفة فينكر مولده ومنشأه ، بل يعترف أنه خوزى من ذردق . وقد وقفت كثيرا عند هذه العبارة لان مدلولها اللغوى وحده لا يفيد الا أنه من خوزستان والنسبة اليها خوزى . ولكن مدلولها السياقى يلقى ايحاء مريبا على منزلة هذا المكان التعس . والا فكيف يستحى الفراء من صدق الاجابة حتى يمكث أربعين يوما لا يقابل ابن السكيت . ولعل مما يؤكد هذا المدلول السياقى بايحائه المتواضع ما قرأته بالجزء السابع من معجم الادباء ص ١٠٩ من أن أبا عبيدة اللغوى دعا تلميذه أبا عثمان المازنى فنهره ، وقال : لا تجلس الى فسأله المازنى عن سبب

ذلك ، فقال أبو عبيدة : رأيتك مع انسان خوزى سرق منى قطيفة .. مهما يكن من شيء فقد كان ابن السكيت أكبر من أن يعترف باوضاع زائفة أو يقيم اعتبارا لقيم تافهة تاخذ البريء بجرم المذنب لو صح ان ساكنى هذا الاقليم مرقة سارقون ، ونحن بعد نرى كل مكان فى الدنيا لا يخلو من الطيب والخبيث ، ولم يخل ما كتب فى سيرة هذا الامام الكبير من افتراء مغرض ، اذ أننا نطالع عنه وعن غيره من كبار المؤلفين اخبارا كاذبة لا تثبت لنظرة واحده من نظرات النقد النزيه ، والسبب الاول فى اختلاف هذه الاكاذيب هو الصاق المعرفة العلمية بالخلفاء والحكام تزلفا وملقا ، ثم يجيء من الرواة من ينقلها دون تمحيص مع أنه لو فهم أن مهمة المؤرخ لا تقف عند الجمع الحاشد ، بل تتعداه الى التسديد والتصويب لاتضح له بجلاء باطل ما يسجله عن الائمة المتضلعين . فقد أجمع مؤرخو ابن السكيت على رواية هذه الحادثة الملفقة . والرواية هنا عن ياقوت « معجم الادباء جـ ٧ ص ١١٧ فى ترجمة أبى عثمان المازنى ونقلها ابن خلكان فى الجزء الخامس من الوفيات فى ترجمة ابن السكيت نفسه » :

قال الواثق لابى عثمان : سله ــ أى ابن السكيت ــ فقال المازنى لصاحبه ماوزن نكتل من الفعل فأجابه ابن السكيت . نفعل . فقال الواثق غلطت ثم قال للمازنى فسره فقال المازنى . نكتل تقديره نفتعل واصله نكتيل . فانقلبت الياء ألفا لفتح ما قبلها . فصار لفظها نكتال . فأسكنت اللام للجزم لانه جواب الامر فحذفت الالف لالتقاء الساكنين ... فقال الواثق ، هذا هو الجواب لا جوابك يا يعقوب .

فهذه النادرة الصرفية من الطرائف المختلفة . لان حذف العين فى هذا الوضع ليس من الدقائق التى تفوت مبتدئا فى قواعد الصرف فضلا عن امام كابن السكيت ألف كتابا حافلا عن « القلب والابدال » وكتابا آخر عن « فعل وافعل » ثم لا أدرى هل كان الواثق أعلم بقواعد التصريف من ابن السكيت حتى يقول اه أخطأت ثم يقول للمازنى هذا هو الجواب .. وأين تلقى كل ذلك؟ مع أن رواية أخرى ذكرها أبو الفرج وياقوت وعشرات غيرهما تقول : ان الواثق نفسه .. قد استدعى أبا عثمان المازنى ليسأله عن خبر أن فى قول الشاعر :

أظلوم أن مصابكم رجلا   ألقى السلام تحية ظلم

فليت شعرى ايفطن الى العين المحذوفة من لا يفطن الى خبر أن ؟ ان الذين يحاولون أن يرفعوا الخلفاء فوق مستوى المحققين من العلماء ليفضحون أنفسهم حين يخالفون منطق الاشياء فيأتون بما تقوم آلاف الشواهد على دحضه ، وكأن الاقدار أرادت أن تكشف مبالغاتهم المقيتة حين جعلت هذه الروايات المفتراة تتعارض وتتناقض ليهدم بعضها بعضا ثم لتجلو أنقاضها الشائنة عن ميدان الحقد حين يكشفها باحث مدقق . هذه أضواء متواضعة نرسلها من بعيد ، لتكشف ملامح ابن السكيت . فتمهد بذلك الى حديثنا عن بطولته الباسلة . وقد كتب عليه أن يقوم بدور المثالى فى عهد المتوكل على الله . ليلقى مصرعه الفاجع على يديه فيذهب شهيد الرجولة فى حومة الكرامة والاباء . كان المتوكل على الله مبذرا متلافا وطاغية سفاكا .. أجمع على ذلك مؤرخوه فى الحديث والقديم حتى أطلق عليه نيرون العرب

في عهده ابتدأ اضمحلال الدولة العباسية اذ ترك أمور الدولة لقواده ، وانغمس في الملذات والشراب وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين ولم يبن أحد من الخلفاء من الابنية مثل مابناه فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثمانين ألف ألف درهم والقصر الغريب أنفق عليه عشرة آلاف ألف درهم ، والقصر المختار أنفق عليه خمسة الاف ألف درهم ، والقصر المعروف بالوحيد أنفق عليه ألفى ألف درهم الى قصور مماثلة مثل قصر المـــاحوزة ، وقصر الجعفرى ، وقصر البهو ، وقصر اللؤلؤة ، وقصر الكامل، مما يوقف القارىء على تبذير أخرق لا يرعى مال العامة ، وموارد الدولة . كانت هذه القصور جميعها تحتل مكانا فسيحا بسر من رأى يسمى « المتوكلية » وللبحترى في أوصافها من الابيات ما يعرفه الدارسون ، وهو الى ذلك السفه الارعن ؛ والظلم الباطش يتندر بسبب آل البيت فيرسل أعوانه الى كربلاء فيهدمون قبر الحسين ويحطمون ما حوله من الدور نسفا واحراقا ثم يعقد المجالس من علية وزرائه وخاصته ليشهدوا المضحكين ممن يمثلون أبا تراب ويستهزئون برهط على وبنيه ، ويلتفت الخليفة الى جلسائه ليسمع صيحات الاعجاب ، ويرى بســـمات التأييد فيعتقد أنه بطل فاتح رجع من الميدان مكللا بغار النصر ومسجلا أعظم معارك التاريخ .

وقد عز على ابن السكيت أن يكون خليفة المسلمين بهذه الضعة التافهة من الرعونة والاسفاف . وآلمه أن يســمع جلساؤه ـ وفيهم بعض العقلاء والمتضلعين ـ أقـــذار السباب وأوضار الشتائم تقال على على وفاطمة والحسن والحسين وصفوة آل بيت الرسول ثم يضطرون الى الملق

المنافق فيبتسمون ضاحكين .. ليته لم يغش مجلس الخليفة قبل اليوم حتى لا تقذى عينه بما يؤلم من المشاهد وتصك مسامعه بما يصم من الشتائم .

انه ليتحدث فى همس الى معارفه ليكون رأيا عاما يستطيع أن يجابه به هذا البغى السافر . ولكن نفرا ممن خسروا ضمائرهم المتيقظة يستمعون الى ابن السكيت لا ليعاونوه على ما التزم من اصلاح ولا ليلوذوا بالصمت حين تعذر عليهم أن يرتفعوا الى مصاف الرجال ، بل لينقلوا الحديث الى المتوكل واشين متملقين .. وتأتى الانباء للطاغية فيصمم على أن يخزى الشيخ فى مجلسه ليظهر باكيا يستنكر ويتزلف ويقسم الايمان المغلظة أنه لم يقل ولن يقول ، هكذا تصور المتوكل على الله . فأرسل بمن يدعو الرجل لساعته . فأقدم فى وقار المؤمن وهدوء الواثق .. ثم فتح عينيه ليرى جلساء الطاغية يتغامزون متضاحكين والخليفة ينظر اليه فى اشمئزاز مترفع وقد جلس بين ولديه الاميرين ثم يسأل فى تعاظم :

ـ يا يعقوب أترى الاميرين هذين ؟! فيقول فى هدوء وقور : أراهما يا أمير المؤمنين . فيهز الخليفة رأسه فى سخرية ويبرز أسنانه مستهزئا ثم يسأل : أيهما أحسن : ولداى هذان أم الحسن والحسين أيها الشيخ المجنون ؟

فرفع يعقوب رأسه فى صلابة .. واتجه بنظره الفاحص الى غريمه ثم قال بصوت مرتفع زاده جلال الايمان ووقار الشيب روعة وتأثيرا : ان قنبرا خادم الحسن والحسين أحسن منهما ومنك يا أمير المؤمنين .

صدم المتوكل بما لم يكن يتوقع وكسا الخزى الاحمر وجوه جلسائه . فقام كالثور الهائج يرغى ويزبد .. ثم

أمر غلمانه الاتراك فطرحوا الشيخ أرضا ليدوسوه بالنعال ثم ليتركوه في سكرات النزع .. فيحمل الى داره فاقد الادراك . ويقلب المحتضر الشهيد عينيه فى أهليه مودعا حتى اذا قضى وطرا مما يريد ، جاء اليقين فلقى رضوان الله .

ويشاء القدر الساخر أن يرى المتوكل اجابة سؤاله صريحة دون كتمان حين يتآمر أحد هذين الاميرين المفضلين على حياته . فيلقى مصرعه ذليلا ضارعا بتدبير ولده تحت سيوف الخدم من الاتراك .. هؤلاء الذين فرغوا من اعدام ابن السكيت ، ليتهيئوا بعد قليل لسحق الطاغية العنيد . فتأكله سيوف الاوشاب فى ليلة رهيبة دامية وتقذف جثته فى العراء . ويراها الناس فيشمتون بالصريع ويترحمون على يعقوب ثم يصيحون دهشين .. ما أعجل الثأر. لقد انتصفت السماء .

أبوجعفر البهلول يقهر الباطل

كلفت بالبحث فى تاريخ القضاء الاسلامى فشاهدت صفحات لامعة تغرى بالتتبع والاستقصاء ووقفت على جهود محمودة لنخبة ممتازة من رجال الحق وأنصار العدالة .. فتعجبت كيف لا تجمع هذه الدرر الوضيئة فى عقد نضيد يكون موضعا للمفاخرة والمباهاة .

ونحن لا نستغرب اذ نجد رجال القضاء فى عصور الاسلام الزاهية على جانب كبير من التحرر والدقة . فقد تمكنت تعاليم الاسلام من نفوسهم فعرفوا الله حق معرفته ، وقرءوا الكتاب والحديث . ودرسوا مسائل القياس وقوانين النظر . هذا الى مايشرق فى قلب المؤمن التقى من نور يهديه الى الحق مهما تكاثف الظلام .

ومن هؤلاء الائمة الافذاذ : القاضى أبو جعفر أحمد بن اسحق بن البهلول التنوخى الانبارى . وقد أجمع الذين كتبوا عنه على سلامة استنباطه وصحة توجيهه ، وصدق تعليله . وأنت تجدهم يصفونه ــ فى اسهاب زائد ــ بالبلاغة العالية اذا خطب أو ترسل . كما ينقلون شذرات ثمينة من شعره تنبىء عن عاطفة وذوق ، ويجعلونه حجة فى التفسير والحديث والرواية والاسناد . أما تبحره فى الفقه

على مذاهب أهل القياس فقد بوأه منصة القضـــاء أكثر حياته التى زادت عن الثمانين ، واذا اجتمع لفاضل مــن الناس كل هذه المميزات الرفيعة ، فماذا ينقصه مـــن الشمائل والصفات ؟

على أننا لا نكبر الرجل لعلمه وحده . فكثير من الائمة فى القديم والحديث قد جاوزه فى التحصيل والدراية ، ولكننا ننظر بكثير من الاجلال والاكبار الى صرامته فى الحق دون مبالاة ، وهجومه على الباطل فى غير هوادة . مهما جر عليه ذلك من بلاء وعنت ، وناهيك بمن يفـاجىء رؤساءه وصدور الدولة فى عهده بما لا يطيق المؤمن الورع صبرا عليه من ميل عن الحق ونكوص عن الجادة وولوع بالبهتان .

وهأنذا أقدم للقارىء الكريم موقفين متشابهين له فى نصرة الحق . راجيا أن يكون أسوة حسنة ، ومثالا يحتذيه الناس .

نحن فى أوائل القرن الرابع الهجرى . وقد انحـدرت الدولة العباسية من أوجها الشاهق الى وهدة ســحيقة سقطت فيها هيبة الخلفاء والامراء وتنازع الوزراء وأعيان الدولة على الحكم شر تنازع وأبشعه . فكان هم كل وزير أن ينكل بمن سبقه فيخلق له الاتهامات الخطيرة التى تطيح بحياته ليأمن على منصبه وجاهه ، فلا نجد المنافس العنيد وقد كان حامد بن العباس وزير الخليفة المقتدر بالله يضيق ذرعا بسلفه الوزير أبى الحسن بن الفرات ، فحاك له من خياله الآثم افظع تهمة يمكن أن توجه الى الانسان فى ذلك الوقت ، حيث اختلى بالخليفة وأخبره انه عثر على وثائق مهمة تثبت اتصال ابن الفرات ببعض العلويين

الطالبين بالخلافة ، وان الحزم يوجب اخذه بالشدة لتجرى الامور فى وضعها الصحيح . وقد اهتم الخليفة المقتدر بالامر . فعقد لفوره مجلسا برياسته لمحاكمة الوزير السابق . وقد أحضر فيه على بن عيسى واحمد ابن اسحق بن البهلول وابا عمر محمد بن يوسف . وجىء بابن الفرات مخفورا الى المحاكمة حيث وقف غريمه الوزير حامد بن العباس أمام الخليفة يبسط التهمة الخطيرة ويبين مغبتها الجريئة ثم اتجه الى الباب فجأة وصاح بأحد الحجاب : أدخل الجندى فى الحال .

فدخل جندى مديد القامة مكتمل الصحة . فاتجه حامد الى المقتدر وقال : لقد ضبطت هذا الجندى قادما من مدينة « أردبيل » ومعه كتب خاصة من ابن الفرات الى ابن ابى الساج يطلب فيها معاونة الداعى العلوى وتجهيزه للغدو الى بغداد ، حيث يستقبله ابن الفرات فيتعاونان معا على تقويض الخلافة العباسية وانهائها الى العلويين .

ثم التفت الوزير الى الجندى وقال له : قل ماسبق أن اعترفت به لدى . فقال الجندى : لقد ترددت بضع مرات على ابن الساج فى أردبيل أحمل الرسائل المتنوعة من ابن الفرات جاهلا عاقبتها الخطيرة ، فهو المسئول عنها وحده وما أنا غير حامل قدم ... يتكسب بالمسير والتجوال .

دهش الخليفة من هذا الاعتراف الجرىء وطار شرر الغضب من عينيه واخذ يصوب نظراته الحادة المحرقة الى ابن الفرات وهو يتململ فى مكانه ممتقع الوجه منقبض الاسارير .

ثم التفت المقتدر الى القاضى أبى عمر فسأله : ما عندك فى ذلك يا أبا عمر . فقال فى غير روية : لقد أتى ابن الفرات أمرا تخر له الجبال وللخليفة ــ أيده الله ــ أن ينزل به ماشاء من العقاب .

فتألق وجه الوزير بالبشر وظن أن المحاكمة ستنتهى على ما يريده من البطش بصاحبه ، وجعل يرنح عطفه فى نشوة الظافر المنتصر ، ولكنه رأى الخليفة يتجه الى أحمد بن اسحق فسأله : وما عندك فى ذلك يا أبا جعفر ؟ فيقول القاضى : لابد من مناقشة الجندى ، فهل يأذن الخليفة بذلك ؟ فيجيبه الى طلبه ، ثم تدور هذه الاسئلة بين القاضى والجندى .

القاضى ــ تدعى انك رسول ابن الفرات الى ابن أبى الساج فى أردبيل فهل رأيت أردبيل ؟

الجندى ــ نعم رأيتها ودخلتها عدة مرات .

القاضى ــ صف لى أردبيل . أعليها سور أم لا ؟

قال القاضى ــ وما صفة باب الامارة الذى دخلت منه .

فسكت الجندى .

أحديد أم خشب ؟

فسكت الجندى أيضا .

فقال القاضى ــ ومن هو كاتب ابن أبى الساج الذى ذهبت اليه ؟ . ما اسمه ؟ وما كنيته ؟ وما لقبه ؟

فبهت الجندى ولم يرد بشىء .

قال القاضى ــ وأين الكتب التى كانت معك من ابن أبى الساج لابن الفرات ..

فقال الجندى ــ متلجلجا مضطربا ــ رميتها فى البحر حين وقعت فى أيدى الجنود فاتجه القاضى الى الخليفة

وقال : يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل يقول : يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » وقد صح عندى أن هذا الجندى جاهل متكسب مدسوس على ابن الفرات . فقال على بن عيسى فى حماسة مشتعلة . قد قلت ذلك مرارا للوزير حامد بن العباس فلم يقبل قولى . وارى ان يهدد هذا الجندى بالضرب حتى يقر بالواقع الصريح . وأمر الخليفة باحضار من يضرب الجندى فى المجلس . فما كاد السوط يلهب جسمه حتى صاح : كذبت وغدرت وضمنت لى الضمانات . والله مارأيت أردبيل ولا حملت كتبا اليها طيلة الحياة . وهنا أمر الخليفة بحبس الجندى وتعذيبه. وكاد يغشى على الوزير المختلق من الهم والانكسار . وانتصر الحق على الباطل بصراحة القاضى النزيه أبى جعفر أحمد ابن اسحق البهلول .

كرت الاعوام تلو الاعوام . فتغير الخليفة المقتدر على وزيره حامد بن العباس فأقاله من منصبه مخفورا . وأسند الوزارة الى المتهم السابق أبى الحسن بن الفرات. وتلك الايام نداولها بين الناس .

ولقد سعى الوزير الجديد — لاول عهده بالرياسة — الى قتل غريمه السابق فشفى لواعج صدره ، واستراح من ناحيته ، ثم دار بذهنه فيمن حوله من المقربين لدى الخليفة ، فرأى أن الوزير الاسبق على بن عيسى لا يزال ممتعا بالحياة . وقد يتم صفاؤه مع الخليفة فى وقت من الاوقات فيعيده الى الحكم راميا بأبى الحسن الى غياهب السجن . ومن ثم أخذ الوزير يدبر لعلى المكيدة التى ترديه

مع أنه كان من أنصاره المتحمسين يوم حوكم فى التهمة الخطيرة . ولكن يا اضيعة الوفاء .

رأى ابن الفرات ـ لانحطاط نفسه ـ أن يقتدى بسلفه السابق فى الاختلاق والوقيعة . فاتجه الى الخليفة المقتدر وأفهمه أن على بن عيسى على اتصال بالقرامطة أعداء الدولة ، وقد أرسل لهم فى مدة وزارته بعض المواد الحربية التى يحظر ارسالها الى العدو ، كما أنه لايعترف بتكفيرهم وخروجهم عن مبادىء الدين الاسلامى .

اهتم الخليفة بالوقيعة وأصدر امره بمحاكمة على ، على ان يسمع بأذنه مايدور فى المحاكمة من وراء حجاب ، وقد تم الامر فى اسرع من البرق وشكلت لجنة المحاكمة برياسة الوزير . وحضر القاضيان السابقان فى المحكمة للمحاكمة الاولى : أبو عمر محمد بن يوسف وأبو جعفر أحمد بن اسحق البهلول

افتتح الرئيس الجلسة ، وسيق على بن عيسى الى المحاكمة وبدأ الوزير فأسرع باحضار رجل يدعى « ابن فليجة » . وأذن له فى الكلام فقال :

لقد أرسلنى على بن عيسى الى القرامطة مبتدئا ، فكاتبوه يلتمسون له المساحى والطلق وعدة حوائج فأنفذها اليهم . ومعى خطابه الذى بعث به فى هذا الشأن ، ثم قرأ الخطاب فوجد خاليا من تكفيرهم وسبهم كما ينبغى أن يكون فى نظر ابن الفرات . وشاء الرئيس أن يلخص الاتهام فى نقط مركزة محدودة ، فصاح فى وجه على ، والمقتدر يسمع من وراء حجاب :

تقول ان القرامطة مسلمون والاجماع قد وقع على كفرهم !! فهم أهل ردة لا يصومون ولا يصلون . وتبعث

لهم بالادوات الحربية وهم اعداء الخلافة ومبعث الفساد والشقاق !

قال على : أردت بذلك المصلحة واعادتهم الى الطاعة دون أن تراق الدماء .

قال الرئيس : ويحك لقد أقررت بما لو أقر به امام لما وسع الناس طاعته . فكيف يجوز لك التعاون مع أهل الفساد ؟ ثم التفت الى القاضى أبى عمر فقال له : ماعندك فى امر على ؟ فأفحم ولم ينطق بحرف . فاتجـه الى أبى جعفر رسأله : ما عندك يا أحمد بن اسحق ؟.

قال أحمد : لقد صح عندى أن عليا اقتدى بكتابه الى القرامطة ثلاثة آلاف رجل من المسلمين كانوا مستعبدين فرجعوا الى أوطانهم أحرارا . فاذا فعل انسان ذلك على سبيل المغالطة للعدو ، فلا لوم عليه بل يستحق أطيب الثناء .

تجهم وجه ابن الفرات ، وسأل القاضى : ما تقول فيما اقر به على من اسلام القرامطة وهم أهم طغيان ؟

قال القاضى : انهم كاتبوه بحمد الله والصـلاة على رسوله فلم يصح عنده كفرهم . فهم لا ينازعوه فى الاسلام ولكن ينازعون فى الامامة فقط ومن نازع فيها فهو غير كافر عند الائمة الاعلام .

دهش الوزير من الرد المفحم . ثم استأنف اسـئلته فقال :

ــ وما رأيك فى الادوات الحربية التى ارسلها الى الاعداء اكان ينوى بذلك تقويتهم على الشغب والفساد ؟!

ــ هو لم يعترف بذلك فلا نؤاخذه به .

كيف تصدقه مع أن رسوله وثقته ابن فليجة قد ارسل لهم المعدات ؟

ـ اذا قال رسوله ذلك فهو مدع وعليه البينة !

ـ كيف يكون مدعيا وهو ثقته الذى استأمنه على حمل الكتب والرسائل ؟

ـ ان عليا قد استوثق به فى حمل الكتب . فلا يقبل قوله فى الادوات الحربية بحال من الاحوال .

ـ ألنت وكيله حتى تحتج عنه أم أنت حاكم وقاض ؟

ـ لست وكيله . ولكنى أقول الحق كما قلته فيك يوم أراد حامد بن عباس أن يتهمك أمام الخليفة بما هو أعظم من هذه التهمة ، فهل كنت وكيلك حين ذاك ؟ بهت الوزير وانكسر انكسارا طأطأ رأسه الى الغبراء وانتصر الحق مرة ثانية على يد أحمد بن اسحق .

وبعد فقد كان الورع والصلاح ديدن قضاة السلف الصالح فى صدر الاسلام فكانوا يتحرزون ويدققون مقدرين عظم المسئولية وفداحة التبعة ومهما قارنت هؤلاء الاتقياء بأعلام القضاء الحديث فى الشرق والغرب ، فهم الراجحون الفائزون ، حيث كانوا يبتغون وجه الله وحده ، فأنزلهم منازل الصالحين وفازوا بأعظم الدرجات .

بكار بن قتيبة
قاض كبير يعتز بالحق

كان احمد بن طولون استثناء واضحا بين أبناء جنسه، فعهدنا بجنود الاتراك منذ عهد المعتصم لا يفيئون الى خلق فاضل ، أو يعتصمون بدين قويم ، فهم يربون تربية رياضية تقوم على الشجاعة والفروسية وتركن الى أساليب الاحتيال والدهاء ، ومن يصل منهم الى مكان القيادة فى القصر يوجه اهتمامه الى المكيدة والائتمار ، وينظر الى الخليفة العباسى كدمية صماء يحركها انى أراد فاذا عن له أن يضع الامر فى نصابه أو يتمسك ببعض حقوقه فى التولية والعزل ؛ والادارة والحكم ، مهدت له الدسائس السود . لتجعله بين عشية وضحاها فى غياهب السجون ! ثم يختار أمير ضئيل من بنى العباس ليصير دمية أخرى يتلاعب بها الاتراك كما يشاءون !

هكذا كان جنود الاتراك ! ولكن ابن طولون قدر له أن شب على رياضتهم الحربية فيلتقى معهم فى مضمار الصيال والعراك ثم ينفرد عنهم فى ثقافته الدينية فيدرس القرآن والحديث ويتأثر بما تهدبه اليه روح الاسلام من انصاف وعدالة وايثار للخير والمعروف !

وقد ساعدت هذه الصفات النبيلة على تدعيم مكانته

عند الناس ، فكان أبناء جنسه من الاتراك يثقون فى كرامته فلا يظنون فيه التآمر والايقاع ، واذا هم أحدهم بمكيدة ما تحاشى أن يلم بسرها رجل همام كابن طولون فيكون أداة لتحطيمها وعونا عليها لا لها ، أما أمراء العباسيين وخلفاؤهم فقد ركنوا الى رجولته ، فحين خلع المستعين بالله وأبعد الى منفاه ألح فى اصطحاب ابن طولون ليكون حارس غربته ورفيق وحشته !

فقام على حراسته مقاما كريما ، ثم جاءته اشارة شاذة من رؤسائه بالعمل على تدبير مصرعه ! فتعاظمه أن يكون غادرا بمن وثق فيه وأبى أن يخضع لما يريدون! وكان أن اعتزل الحراسة ونيط بالمستعين سواه ليهدر دمه بعد سويعات ! وعاد ابن طولون الى مقر الخلافة نظيف الخلق طاهر الضمير ! .

وقد تبسم له الحظ لبعض المصادفات السارة فاختير واليا على مصر من قبل سواه ، ولم يكن فى وهم أحد ان هذا الفتى التركى سيشذ عن ولاة الاقاليم فى عهد الخلافة العباسية ! فقصاراه أن ينهض على تحصيل الضرائب ، وسوق الاموال الى عاصمة الحكم ! فاذا أحب ان ينال حظوة لدى الحاكمين ببغداد ضاعف الخراج واجزل الهدايا من الفضة والنضار ليضمن بقاءه بضعة اعوام فى ولايته ! والا فهناك من يتطلع الى مكانه وقد اخذ على عاتقه أن يجمع المال ما استطاع !

جاء ابن طولون الى مصر وهو حرج الصدر ضائق النفس بما يقوم به أبناء جنسه فى قصور الخلفاء ! وقد عز عليه أن توكل لهم الامور العليا فى سياسة الاسلام ثم

لا يكونوا سادة كراما يتقيدون بالمواثيق ! بل يتحولون الى وحوش متنمرة تتصارع فى الظلام وقد يأكل بعضها بعضا دون شمم أو اباء ! وهم بعد ليسوا بافضل منه فى شىء حتى يصدر عن ارادتهم ! ولو كان الخليفة العباسى مسموع الكلمة نافذ السلطان لوجبت طاعته ولكنه خائر مستسلم لمن يسومونه الذله والهوان : فلا عليه أن يتزحزح عن كابوسهم الثقيل فيمهد الاسباب الى استقلاله وانفصاله ! .

وهو من الحرص والحذر بحيث يستطيع أن يرسم الخطة البعيدة لتصل الى الغاية متى تتاح دون استعجال .. درس الحاكم أحوال الاقليم ، وقد استطاع فى زمن يسير أن يهدىء الفتن ويسكن الثورات ، ثم عمل بدهائه على أن يجمع فى يده أمور البريد والخراج ، فلا تستطيع الرسائل المغرضة أن تشى به عن طريق التلصص والوشاية ، ثم ليجمع من المال ما يسد ببعضه أفواه الطامعين فى بغداد . وينشىء الدولةالجديدة بالبعض الآخر ، وقد واتته الاقدار بما يريد ، فنجد من الحوادث السياسية ما ساعده على ابعاد صاحب البريد وطرد صاحب الخراج ! وأصبح بذلك رجل مصر دون منازع ، فاتجه الى تكوين جيش عربى كبير وأسطول بحرى قاهر ، وامتلك من النفوذ ما أعانه على أن يخلع نقاب الحذر عن وجهه فيقف من بغداد موقف القرين !

لم تسكت الخلافة عن طموح ابن طولون ! فقد كان الموفق ولى العهد صاحب السلطة الفعلية ببغداد ، جمع حوله الاتراك بما بذل من اقطاعات ومناصب ووعود ،

وصار موضع الاخذ والرد ، وأخوه المعتمد أمير المؤمنين لا يملك من الامر سوى اللقب وحده ! وقد تعاظم الموفق أن يقدم ابن طولون على الاستقلال ، وفهم الرجل على غير حقيقته ، فظنه ضعيفا مفترا لا يثبت لصدام ، وأرسل اليه خطابا يوحى بالتهوين والتحقير والاستعلاء! ثم دعاه الى تقديم الحساب والنهوض الى بغداد في رهبة وامتثال ! وقرأ ابن طولون كتاب الموفق وابتسم ! وكأنه أراد أن يغمزه من مكمن ضعفه ، فرد عليه بأن ولى العهد قد خلع الطاعة حين حاصر الخليفة الشرعى وسلب سلطانه ، فهو فى رأيه عاص ناشز مغتصب يتبوأ مركزا يستلبه بالقوة لا بالحق ، وأولى به أن يذعن لاخيه بدل أن يطمح الى مصر ! وليس له الحق فى بغداد ، فضلا عن التطاول الى غيرها من الاصقاع ! وكان حتما أن تدور الحرب بين الرجلين ثم ينهزم الموفق فلا يبقى لديه سلاح غير الضجيج الصاخب ، فيعلن عصيان ابن طولون ، ويجاهر بلعنه على المنابر ، وخروجه على الدين ! ماذا يصنع ابن طولون وقد جاءته الانباء أن اسمه يذكر مشيعا باللعنات على منابر الجمع فى كثير من مساجد الاسلام ! لقد ساقه تفكيره الى الدعوة الى خلع الموفق من ولاية العهد والجهر بلعنه على منابر مصر والشام ! وأعد مؤتمرا من العلماء والوجهاء فأصدر قرارا بخيانة الموفق ولعنه ! وظن ابن طولون الا يشذ احد فى ولايته عن رأيه ولكنه فوجىء بعالم خطير يعارض قرار الخلع ، ولا يجد لابن طولون حقا فى اصداره ذلكم هو القاضى الفقيه بكار بن قتيبة ! فقد استطاع ان يعلن رأيه المعارض

دون ان يرهب أحدا ولو كان ابن طولون !

على اننا نقرا ما دون من تاريخ هذا القاضى فنعجب لشعوره الدينى المرهف ، اذ رزق حساسية بالغة جعلته يستهول موقع الزلل فى الاحكام !! كان نظام القضاء على عهده بدائيا يدخل المدعى فيعرض شكواه ويحضر شهوده ثم يستمع القاضى وينظر فاذا ارتاحت نفسه الى حكم أصدره مستندا الى الدليل ، وتنتهى المسألة عند ذلك ، ولكن بكارا كان يدون كل يوم جميع ما يصدر من أحكام ثم يتفرغ فى المساء الى مراجعة أعماله ، ومحاسبة نفسه ليستدرك ما فاته ان عن له بعض الرأى فيما كان! وقد بلغ من تقديره لمركزه القضائى أن دموعه كانت تغلبه حين يشتبه الامر عليه فيستعين بصلاة الليل ليلهمه الله السداد ، قال احمد بن سهل الهروى : كنت الازم غريما لى الى بعد العشاء الآخرة ، وكنت اسكن جوار بكار فانصرفت بعد العشاء الى منزلى فاذا هو يقرأ بصوت عال « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ليضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » فوقفت اتسمع الى تلاوته المعبرة طويلا ثم انصرفت فقمت فى السحر على أن أسير الى منزل الغريم فاذا بكار يقرأ الآية ويبكى ، فعلمت انه كان يقرؤها طول الليل !

هذه الحساسية البالغة كانت تجعله يحفظ للقضاء حرمته ويرى القاضى رجلا مثاليا يرتفع عن الميول والاهواء ويتخلق بأرقى ما سنه الاسلام من نبيل السجايا

ورفيع الصفات ! قدم عليه قوم من أصحاب الحديث يروون عنه وكان محدثا اماما فى فنه يعرف مواضع الجرح والتعديل فى السند ووجوه الضعف والقوة فى المتن ، ويفيض فى ذلك بما ينبىء عن رسوخ اصيل فيما يروى عن رسول الله ـ فسألهم القاضى من أى البلاد انتم فقالوا من الرملة احدى مدن فلسطين فسأل ماحال قاضيكم فقالوا : عفيف !! فضرب بكار كفا بكف وصاح انا لله وانا اليه راجعون ايقال قاض عفيف ، فسدت الدنيا ! وكأنه يرى العفة امرا بدهيا مقررا لا ينص عليه فى جواب ! فاذا تميز بها بعض القضاة دون سواهم فقد حق البلاء ! ومن طرائفه فى ذلك أنه قال فى احد مجالسه ما حللت سراويلى على حلال قط ، يريد انه لم يتزوج على الاطلاق فقال أحد الحاضرين ولا على حرام أيضا فصاح غاضبا : يا سبحان الله ! والحرام يذكر كأنه امر يتوقع !! . على أن تطرفه فى المحاسبة كان يلجئه الى ما يشبه التزمت وهو بعد غير مستغرب من فقيه دقيق يستهول حرمة القضاء ويرى أن القاضى يذبح نفسه بغير سكين ! قدم عليه بمصر رجل من أهل البصرة كان رفيقه أيام الطلب بمساجد العلم هناك فأكرمه واحتفى به احتفاء عرفه الناس ثم احتيج الى شهادة لديه فشهد عند القاضى مع رجل مصرى فتوقف عن الحكم وظن الناس انه لا يقبل شهادة المصرى على عدالته ولكن السبب هو صديقه البصرى فقد أكل معه فى الصفر ارزا فى سمن وعسل فنفد العسل من ناحية بكار ففتح من جهة صاحبه هذا حتى جرى العسل نحوه فقال

البصرى متضاحكا : « أخرقتها لتغرق أهلها » فعلمت انه يهزأ بالقرآن فى مثل هذا ، وبقى ذلك فى نفسى حتى ردت شهادته !!.

هذه طرائف تنبىء عن تحرزه المفرط الذى جاوز كل حد ! وطبيعى انه لم يكن يختص به فريقا دون فريق فقد كان يلتزمه مع ابن طولون نفسه دون تحرج أو خشية : مات رجل وعليه دين للأمير فطلب عامل الخراج من احمد بن طولون ان يأمر القاضى ببيع داره فأرسل ابن طولون الى بكار فى ذلك فقال حتى يثبت عليه الدين فأثبتوه وسالوه البيع فقال حتى يثبت عندى انه ملكه ، فأثبتوه وسألوه البيع ، فقال حتى يحلف من له الدين فجاء ابن طولون وحلف امامه فقال بكار اما الآن فقد أمرت بالبيع .

وقد كان ابن طولون يعلم من مواقف القاضى الصريحة انه لا يهابه فى شىء بل يجهر بالحق على رءوس الاشهاد لقد كان فى مجلسه ذات مرة فتخاصم رجلان فقال له احكم بينهما فنظر فى القضية وتوجهت اليمين على أحدهما فاستحلفه فلما فرغ قال له الخصم : استحلفه أيها القاضى براس الامير فصاح بكار غاضبا : يا هذا قد حلف بالله وهو اعظم من الامير فقال بل استحلفه براس الامير فقال له بكار تحلف براسه فقال الرجل لا ، فصاح القاضى يا عدو الله تحلف بالله خالق السموات والارض وتمتنع أن تحلف براس مخلوق مثلك ، وأخذ ينظر للأمير وهو يقلب كفا على كف ! ولا ندرى كيف أدرك ابن

طولون اذ ذاك ضعف البشر وانهيارهم فابتسم للرجل وحظى عنده بعد ذاك !!

ان رجلا مهيبا كبكار لا ينظر الى الخلاف بين ابن طولون والموفق نظرة تتملق صاحب الامر فى بلده بل نظر اليه من وجهة الحق كما يلوح فى نفسه ! فقد ادرك لفوره ان الحكم بخلع الموفق من ولاية العهد بعد أن أسندت اليه لا يرجع الى ابن طولون وحده حتى يتصدرون سائر رعايا الخلافة العباسية أمرا خطيرا كذلك الامر ! وهو بعد لن يعقب غير فتنة مسلحة حمراء تقوم بين القاهرة وبغداد تسيل من ورائها أنهار الدماء وتتساقط آلاف الرقاب !! ثم ان خلع الموفق لن يغير من الامر شيئا فسيخلفه انسان على شاكلته ، وسينفتح مجال التآمر والدسائس لرؤساء القصر العباسى من جنود الاتراك وزعمائهم ، فاذا كانت مصلحة ابن طولون الشخصية تقتضى خلع الموفق فان مايعقبه من أهوال تشيب لها الرءوس يحتم على القاضى أن يجاهر بالمعارضة : فليعلن ابن طولون استقلاله عن بغداد كما يشاء ، اما أن يحرص على التبعية الاسمية فى ظل خليفة دون ولى عهد فهذا ما تتسع له نوافذ الشر فينـدلع اللهيب ويحترق الناس .

طعن الامـير فى آماله حين واجهه بكار بالرفض الصريح ! ووقع ابن طولون بين عاملين اما أن يرجع عن خلع الموفق فيثبت بذلك سيطرته الشرعية على حكمه ويصبح فى نظر العامة عاصيا يجاهر بالثورة ويدعو الى العناد ! واما أن يقتص من بكار على ورعه وتقواه !

ونحن نفهم الآن ان أسطورة التبعية للخلافة العباسية بمنهجها الوراثى ابا عن جد لا تمت الى الاسلام فلا على ابن طولون ان يشذ عليها دون أن يحتاج الى سند من امير المؤمنين ! ولكن ما نفهمه الآن فى القرن العشرين من هذه المسألة لم يكن واضحا مفهوما لدى العامة من المسلمين حتى تغير الزمن وزالت غشاوة السيطرة الوراثية عن العيون فتبينت الحقائق كما يجب أن تكون وهذا مالم يتيسر لابن طولون فى زمنه ولعله كذلك لم يكن واضحا بمعناه الصريح فى عمل بكار ! ولقد كان من نتيجة هذا الموقف المتأزم بين القاضى وابن طولون ان غضب عليه غضبا شديدا ، فضربه بعود من الحديد وأمر بتمزيق ثيابه وسحب على وجهه مسلوب الجلباب ثم أودع السجن ومكث اياما فى مكان ضيق لا يستطيع أن يمد به رجليه ثم نقل الى محبس آخر أكثر رحابة ! ومما يذكر أن القاضى كان يحافظ على الصلاة سننا ونوافل فى محبسه وكان يلزم نفسه حين تأتى صلاة الجمعة كل اسبوع أن يغتسل ، ويلبس ثيابه ويجىء الى باب السجن فيرده السجان ويقول اعذرنى أيها القاضى فما أقدر على اخراجك فيصيح بكار متجها الى السماء اللهم فاشهد لقد صنعت ما على ! وقد طال محبس القاضى فطلب أصحاب الحديث الى أحمد بن طولون أن يأذن لهم فى السماع منه فأذن لهم ، فكان يحدثهم من طاق المحبس وهم من حوله يسمعون فيكتبون .

واذا كان الموت نهاية كل حى فقد مرض ابن طولون مرضه الاخير ، وأخذ يراجع اعماله فى لحظاته الحاسمة

فكان شبح بكار فى سجنه يؤرقه ويأخذ عليه منافذ السماء والارض فأمر بنقله الى دار خاصة به وكأنه بذلك يكتفى بتحديد اقامته كما نقول فى عصرنا الحديث ثم هاجت نوازعه ، فكتب اليه يستحله ويستغفره فجاءه رد بكار يقول : « أنا شيخ كبير وأنت عليل مدنف والملتقى قريب والحكم الله » . فكان ابن طولون فى احتضاره يبكى ويردد هو شيخ كبير وأنا عليل والملتقى قريب والحكم الله !! ثم بلغ الكتاب أجله ، فمات الوالى واعقبه بكار بعد أربعين يوما من وفاته ! وكان الملتقى قريبا كما حسب القاضى ووافقه الامير !!

لقد قرأت تاريخ ابن طولون فأعجبت به ، ولكن عجابى ببكار يدفعنى أن أحنى رأسى لذكراه ، وأن استمطر رحمات السماء على بطل نزيه جاهد فصبر ، وامتحن فشكر ! ..

وهكذا الرجال .

محمد بن بشير
وشهادة الحاكم

تعرض الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل لاول عهده بالاندلس لمحنة قاسية كادت تقضي على ملكه : لولا ثباته الجرىء ، فقد سار مع البطش الى نهايته حتى قمع الفتنة وقضى على الثائرين . ومجمل ماكان من حديثه أن والده الراحل هشام بن عبد الرحمن كان فى أثناء حكمه ذا ورع وزهد فاستدنى الفقهاء وجعلهم أرباب مشورته ، وأداة تنفيذه . وصار لهؤلاء من الرياسة والابهة ما جعلهم وزراء الدولة وحجابها وقضاتها . حتى كان لا يقضى أمرا ما دون استشارة فقيه . ولكن نشأة الحكم ومنحاه يختلفان اختلافا واضحا عن أبيه . اذ أولع منذ نشأته بكتب الفلسفة والمنطق والادب . وأخذ يقرأ تواريخ الامم قراءة الدارس المحلل ، ويجمع من الكتب شرقا وغربا وعربيا وأعجميا ما ضاقت به الخزائن الملكية على سعتها الحافلة . وحين أفضى الامر اليه من بعد أبيه ، لم يشأ أن يسير سيرته مع الفقهاء ، ورأى أن يقف بهم فى حدود المناصب الدينية من قضاء وامامة وتدريس . ونظر القوم فاذا سلطانهم يتضاءل وينكمش ، واذا الحاكم الجديد يستمع الى الادباء والشعراء وقادة الحرب أكثر مما

يستمع الى أصحاب الفقه والتشريع فأعلنوا الحرب الباردة عليه باديء ذي بدء فأوحوا الى العامة بأنه ملحد يدرس كتب الزندقة والزيغ ، وفاسق يصحب الخلعاء ، والمتهتكين ويدمن على الشراب والعربدة ، وانهالت القـــوارص المحرجة على الرجل فلم تترك فى أديمه موضعا خاليا من تمزيق ، ثم تحولت الحرب الباردة الى حرب ساخنة حين جمع الفقهاء جموعهم ، مع من كانوا أولياء نعمتهم من القادة والولاة ، وأعلنوا الثورة على الحكم وحاصروه ورمـــوه بالكفر والمروق ، فاضطر اضطرارا الى البطش ، وأورثه هذا الموقف العدائى غلظة وجفاء ، فأمعن فى التنـــكيل وانقلب الى طاغية سفاك حتى استقام به الامر وسلس القياد .

ومع ما اشتهر به من القسوة المرهبة ، فقد وجــد من علماء عصره من يتصدى له بالحق رغبة فى تنفيذ العدالة ، لا بالباطل شهوة فى تقليد الرياسة وامتلاك السلطان . وهو العالم الحر النزيه والقاضى الكبير محمد بن بشير القرطبى امام المسجد الجامع وقاضى الجماعة الغيور .

نشأ ابن بشير نشأة علمية كريمة فطاف ببلاد الاسلام شرقا ومغربا حتى وصل الى المدينة وتلقى العلم مشافهة على امام دار الهجرة مالك بن أنس ، ثم عرج فى طريقه على مصر فساجل فقهاءها وعقد أواصر الصداقة بين قضاتها الاعلام .. وقد نفعه ذلك فى منصبه القضائى بالاندلس ، فكان يكتب اليهم بمصر مستفتيا فيما يشكل عليـــه من الاحكام ، فيجيئه الرد مشفوعا ببرهانه الثابت من السنة والكتاب . وفى هذا مايكشف عن نفسية ابن بشير ، اذ

لو شاء لكان أمره القضائى بالاندلس حاسما لا معقب عليه ، ولكنه تحرز العالم وتواضع الكبير .

كان ابن بشير فى قضائه مجددا ينظر الى الاشياء نظرات عميقة ذات بعد ونفاذ . وقد احدث من الاوضاع لعهده ماعد به سابقا غير لاحق ، اذ كان أول من جعل المسجد بمنأى عن مهاترة الخصوم فى مجالس القضاء ، واختصه بالعبادة والصلاة حين أمر بانتقال محكمته من المسجد الجامع الى سقيفة تتصل به دون أن يسمع المصلى بعض ما يدور بها من حجاج ولجاج ، وقد نظم مسائل الدعوى والشهادة فى القضاء تنظيما مريحا ، اذ جعل لكل يوم جلستين : جلسة صباحية تسمع فيها الدعوى وتسجل فى أوراق وجلسة بعد الظهيرة يجتمع بها الشهود ويناقشون على انفراد كيلا يعرفهم الجانى ؛ الا اذا دفعت الحاجة الى المواجهة والاعلان ، ومهما يكن من شيء فقد كان للعالم الكبير رايه المفكر واستقلالهالكبير .

وقد اصطدم فى أول قضية عرفت عليه بالحكم أمير الاندلس . اذ أصدر أمره بادانته في مسألة هامة ، وتوقع الناس أن يصدر الامر بعزله ، وبخاصة وهم يعرفون نفسية الحكم ونفورها من القضاء والفقهاء بعد أن ألبرا عليه الجموع وبذلوا جهدهم البالغ فى التجريح والتشهير وكان القاضى جريئا حازما فى موقفه ، فجعل رضا الله نصب عينيه دون اكتراث بغضب انسان ، وكان الله عز وجل قد كافاه على نيته ، اذ ألهم الامير الحكم أن يخضع ويستكين فتقبل الادانة بصدر رحب ونزل على رأى القاضى فرفع المظلمة عن المجنى عليه ، وقال لجلسائه وقد أخذوا يتملقونه اذ يتحرشون بابن بشير « لا يا قوم : لقد احسن

ابن بشير بنا فيما فعل على كره منا ، كان فى يدنـــا شىء فصححه لنا ، وصار حلالا طيبا الملك فى أعقابنـــا » (١)

وبديهى أن الذى يتصدى للامير الحاكم ، ويحكم عليـــه بالادانة يسهل عليه أن يتصدى لمن دونه مـــن الوزراء والحجاب والولاة . فكان يصدر أحكامه الكثيرة بادانتهم ، فتمتلىء صدورهم حفيظة وغيظا دون أن يجدوا متنفسا لما يستشعرون . وقد حكم ذات مرة فى قضية هامة على الوزير ابن فطيس ، ولم يعرفه بالشهود ، فاغتاظ الوزير غيظا ناقما وشكاه الى الحكم وجعل يستعديه عليه فاضطر الحكم أن يكتب الى القاضى فيقول :

« ان الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تعرفه بهم ولا أعذرت اليه فيهم وأهل العلم يقولون أن ذلك له » .

وخطاب الحكم — على ايجازه — غاية الغايات فى الادب واللياقة فهو يعترض على أخفاء الشهود عن الوزير ، ولا يقول ان له ذلك الحق بل يسند القول الى اهـــل العلم وحدهم لا اليه .. ولن تجد ذوقا كهذا الذوق من رئيس كبير !!

وقد جاء رد ابن بشير على رسالة الحكم مقنعا مريحا فهو يجزم بأن ابن فطيس اذا عرف خصومه فى الشهادة لم يتحرج عن طلب أذاعم فى أنفسهم وأموالهم واذ ذاك لا يجرؤ أحد على الشهادة ضده وتضيع حقوق الناس .

هذا الفهم النفسى لمكايد الوزراء ودخائلهم يوقفك على الرصيد الضخم من البصيرة والاستشفاف لدى القـــاضى

(١) المدارك للقاضى عياض (مخطوط)

الكبير .. ويعلمك انه ليس فقيها فقط ، ولكنه باحث متعمق يستكنه السرائر ، ويضع لكل حالة علاجها المصيب وقد رد شهادة الامير الحكم نفسه فى قضية هامة ولم يخش لومة لائم من انسان . وأن قاضيا يجابه السلطان هـذه المجابهة الخطيرة لقوى امين ..

أما كيف تمت هذه المجابهة المحرجة ! فاليك موجزها الدقيق نقلا عن كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام .

« كان للحكم عم يسمى سعيد الخير ، وكان له فى دولته مقام كبير ، فوكل عند قاضى الجماعة ابن بشير وكيلا يخاصم عنه بشىء اضطره اليه ، وكانت بيده وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا . ولم يكن فيها من الاحياء الا ابن اخيه الحكم ، وشاهد آخر مبرز . فشهد ذلك الشاهد لسعيد الخير ، وضربت على وكيله الآجال لياتى بشاهد ثان ، فلما جد به الخصام دخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم ، واراد شهادته فى الوثيقة ، وقد كتبها فى حياة ابيه قبل ان يقوم بامر الاندلس ، فعرفه مكان حاجته الى شهادته عند قاضيه خوفا من بطلان حقه . وكان الحكم يعظم عمه سعيد الخير . ويلتزم مبرته .

ولكنه خاف من ابن بشير أن يرد شهادته ، فيكون لذلك اثر غير محمود فى ملكه فقال له : ياعم .. انا لسنا من أهل الشهادات ، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله ، ونخشى أن توقفنا مع القاضى موقف مخزاة كنا نفديه بملكنا ، فسر فى خصامك حيث صيرك الحق اليه ، وعلينا خلف ما انتقصك .

فابى سعيد الخير ذلك من الحكم ، وقال له : سبحان الله . ماعسى ان يقول قاضيك فى شهادتك ؟ وانت وليته

وهو حسنة من حسناتك ، وقد لزمتك فى الديانة أن تشهد لى بما علمته ، ولا تكتمنى ما أخذ الله عليك .

فقال له الحكم : بلى ان ذلك لمن حقك ، كما تقـــول ؛ ولكنك تدخل علينا به داخلة ، فان أعفيتنا منه فهو أحب الينا ، وان اضطررتنا لم يمكننا عقوقك .

فعزم سعيد الخير على الحكم فى أداء شهادته ، وألح عليه فيها الحاحا شديدا ، فارسل الحكم عند ذلك الى فقيهين من فقهاء زمانه ، وخط شهادته فى قرطاس بيده، وختم عليها بخاتمه ، ودفقها الى الفقيهين ، وقال لهما : هذه شهادتى بخطى تحت ختمى ، فأدياها الى القاضى .

فذهب الفقيهان بهذه الشهادة الى ابن بشير ، فدخلا عليه بها فى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشـــهود ، فأدياها اليه ، فقال لهما : قد سمعت منكما ، فقـــوما راشدين فى حفظ الله تعالى .

ثم جاء وكيل سعيد الخير بعد انصرافهما . وتقدم الى ابن بشير مدلا واثقا ، لانه اتى اليه بشهادة ملك البلاد ؛ فقال له : ايها القاضى ، قد شهد عندك الامير أصلحه الله تعالى ، فما تقول ؟

فاخذ ابن بشير كتاب الشهادة ونظر فيه ، ثم قـــال للوكيل : هذه شهادة لا تقبل عندى ، فجئنى بشـــاهد عدل .

فدهش الوكيل عند سماع ذلك من القاضى ، ومضى الى سعيد الخير فاعلمه بما قال ، فركب سعيد الخير من فوره الى الحكم وقال له : ذهب سلطاننا وأزيل بهـــاؤنا ، يجترىء هذا القاضى على رد شهادتك !! والله سبحانه قد استخلفك على عباده . وجعل الامر فى دمائهم وأموالهم

اليك ، وهذا ما يجب ان تحمله عليه .

وجعل سعيد الخير يغرى الحكم بالقاضي ويحرضه على الايقاع به . فقال الحكم له : وهل شككت أنا فى هذا ياعم؟ القاضى رجل صالح ، والله لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فعل ما يجب عليه ويلزمه ، وسد دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسن الله تعالى جزاءه .

ولما سمع سعيد الخير ذلك من الحكم غضب وقال له : هذا حسبى منك . فقال الحكم له : نعم قد قضيت الذى كان لك على ، ولست والله أعارض القاضى فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله .

وقد عوتب ابن بشير من بعض أصدقائه فيما أتاه من ذلك ، فقال لمن عاتبه : يا عاجز ، أما تعلم أنه لابد من الاعذار فى الشهادات ، فمن كان يجترىء على الدفع فى شهادة الامير لو قبلتها ؟ ولو لم اعذر لبخست المشهود عليه حقه .

ولن تحتاج صرامة ابن بشير وجرأته الى تعليق . فقد رفض شهادة رئيس الدولة ، وولى الامر متحرجا متحرزا وكان فى وسعه أن يقبلها — كما يرى ذلك كثير من العلماء ، ولكنه ينظر الى الحد الابعد حين يحجم المعترض عن دفع الشهادة هيبة وخشية ، فليحجم هو عن قبولها ، ليحتمل التبعة ويواجه السلطان . هذه هى البطولة ، ولا يلقاها الا ذو حظ عظيم (١) .

---

(١) ملحوظة : ذكر الاستاذ الجليل عبد المتعال الصعيدى فى كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام ان حادثة محمد بن بشير كانت مع الحكم بن عبد الرحمن الناصر وذلك سهو واضح لان ابن بشير عاش فى القرن الثانى من الهجرة أيام الحكم بن هشام أما الحكم الثانى فقد كان فى القرن الرابع فكيف يجتمعان !

طالوت المعافري ،
فقيه كبير يصاول أميراً

عرفنا فى الفصل السابق كيف تعرض الحكم بن هشام الى قلاقل مزعجة من فقهاء عصره فلم تمض سفينته رخاء سهلة تعبر النهر الهادىء فى سلام ، ولكنها وجدت من الاعاصير العاتية ما احاط بها الموج من كل مكان ولولا عزيمته القاهرة ، وحيلته الماكرة لكان من المغرضين.

ولو أن الاقدار الحاسمة شاءت له أن يلى الامر بعد جده عبد الرحمن الداخل مباشرة لواصل السير فى سنن مرسوم لا اختلاف عليه ، ولكنه جاء بعد والده هشام . وقد كان ذا منحى خاص فى الحكم يقف موقف النقيض من الداخل ، اذ كان هشام يستشعر مرضا جسميا يظن انه مؤد به عن قريب ، وقد تسلط هذا الشعور عليه، فجعله زاهداً عزوفا يظن أيامه سريعة لا تطول ، وقد احيره هذا الشعور على أن يكل أمره الى رجال الدين من كبار الفقهاء ، وجلة القضاة فجعل منهم مجلس شورى لا يقطع أمرا دون الرجوع اليه ، والاطمئنان الى سلامته من الوجهة الدينية ، ورأى الفقهاء انفسهم ذوى الامر والنهى فاستشعروا عزة ومنعة ، وتغلغلوا بنفوذهم فى كل جانب من جوانب الحياة ، ورأى الناس سيطرتهم الماثلة،

ونفوذهم البعيد . فاصبحوا موضع الرجاء ، ومنـــاط الاصل فى المجتمع الاندلسي ؛ وأصبح الشأن شأنهم فيما يأخذون ويتركون ! دام لهم ذلك كله فى عصر هشـــام ابن عبد الرحمن الداخل فرضعوا أفاويق المجد هانئين .

ولكن هشاما قد مضى إلى ربه ، وترك ابنه الحـــكم اميرا له السلطان من بعده ؛ والامير الشاب وقد كان فى السادسة والعشرين من عمره لم تصقله تجاربه صـــقلا يعي فيه منطق الاحداث عن مصادمة واختبار ، الا انه مع هذه الحداثة الباكرة كان قوى العزم صلب العود ، صعب المكسر ، وقد وازن بين مسلكى أبيه وجده ، ففاظه ان يصبح والده مغلوبا على أمره بين اناس يراهم الامير الجديد بعيدين عن دائرة السلطان ، مغتصبين نفـــوذ صاحب الكلمة فى الاندلس ! هذا راى الحكم فيهـــم واعتقاده مخطئا كان أم مصيبا وفى نطاق هذا الراى صمم على ان يجانب الفقهاء ! .

وقد كان الامير ــ مع ذلك ــ صاحب ثقافة وعلم يقرأ كثيرا ويبحث عن نفائس المؤلفات فى شتى الاقطار ويجاذب العلماء والادباء حديث العقل والشرع والادب دون أن يتعدى بهم دائرة السمر العلمى والبحث الفكرى ! وهو مع ذلك شجاع يولع بالصيد ، ويخرج الى الخلوات مجربا فنون احتياله فى أسر الوحوش ، وله طائفة من النـــدماء فيهم المغنى والاديب والشاعر والفيلســـوف ! فالامـــير متسع الافق جم الافانين ، ومثله فى عزمه وبأسه وثقافته وبعد آماله وانفساح مراميه لا يسهل منه القياد .

موقف شائك صعب يتربص بالامير وخصومه ! ولابد

ان تقع الواقعة الحمراء بين الفريقين أن اخفقت اساليب الكياسة والمصانعة وهى لا محالة واقعة ، فالخلاف من الاتساع وبعد الهوة بحيث لا تجدى معه أساليب الاحتيال والكياسة اذا أجدت فى موقف آخر ، ولا سيما أن كلا الفريقين مقتنع بحقه ، مصمم عليه ، ولابد لاحدهما ان يتغلب فينحسم الخلاف !.

وتفسير هذا الموقف واضح فى ذاته اذا عرفنا أن الحق فى هذه القضية يدعيه كل فريق لنفسه عن حمية واعتقاد! فالحكم فى صميم أطوائه يرى نفسه حفيد الداخل ، له ان يتمتع بجميع ما يتمتع به الحاكم المطلق ذو الكلمة النافذة والامر المطاع ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لمشيئته: ولم لا ؟

ومعاصره هارون الرشيد فى المشرق يقوم فى مملكته مقاما لا يتسامى اليه سواه ، وقد أطاح بالبرامكة فى يوم وليلة وهم ماهم قوة شكيمة ونفوذ سلطان ، فسلم له الحكم خالصا دون شريك ! ومهما تمكن الفقهاء فى عهد ابيه فامتدت كلمتهم الى حيث يريدون ، ومهما عظمت رئاستهم فى الدولة ، وامتد صيتهم الى القريب والبعيد فى الاصقاع فلن يبلغوا مبلغ البرامكة فى المشرق ، وقد عصف بهم الرشيد عصفا لم يبق لهم من أثر فما نهض منهم ناهض ، ولئن تشبث الفقهاء بأماكنهم فى الحكم فسيلقون فى الاندلس مالقى البرامكة فى بغداد .

تلك هى أحاسيس الحكم تتقد فى نفسه جمرا يتوقد ! اما الفقهاء فلا ينظرون الى الامر من زاويته ولكنهم يعلمون أن الاسلام دين الشورى وأن الخلافة الراشدة

لم تكن حكما مطلقا انفرد به أبو بكر أو عمر أو عثمان أو على دون استشارة واذعان ، وأن الله عز وجــل قال « يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول» انما جعل القرآن والسنة مصدرى الحكم ، وجعل اولى الامر من العلماء قوامين على الحكام والسلاطين ، يقومون المعوج ويهدون بالحق وبه يعدلون ، وما عبــد الرحمن الداخل فى رأيهم الا غاصب متجبر ، قام بالامر عن رهبة وجبروت فخالف منهج الخلافة الراشدة ، واســكت الشورى بمقبض سيفه ، وبغى جنده ، ورهبة بطشه : وهاهو ذا الحكم يحذو حذوه ، ويراه المثل الاعلى فى الامارة دون أبيه ، ولئن تطامنوا له فنفضوا ايديهم من الاسر ، ليعيدن عهد الداخل ، بل ربما زاد عليه ، فهو ذو ثقافة واطلاع ، وله فى العلوم مشاركة تفتح امامه منافذ الدهاء والاحتيال .

تلك هى معضلة الحق الملتبس فى هذه القضية العويصة والحق واحد لا يتعدد اذا نظر اليه بعين الرأى لا الهوى وأتى اليه من باب الاسلام الصريح دون تأويل وتعليل ، ولكنه فى هذه القضية يتعدد باختلاف المنازع وتضارب الاهواء فكلا الفريقين حريص على الرياسة والجاه يتلمس لهما أسباب الظفر والتأييد ! ولابد من الاصطدام !.

وقد بدأت الحرب المتوقعة بالدعايات المرجفــة والشائعات المغرضة ، فمضت الالسنة تتحدث عن خروج الحكم للصيد واصطحابه الندماء واستماعه للغنــاء . وقراءته للكتب الفلسفية ، وزاد الامر حتى تحــدث

المرجفون عن مجالس الخمر والكأس ، والحان الولوع والصبابة ، وحديث الجوارى والغلمان ! وذهب قوم يتحسرون على عهود الفضيلة والكرامة ، ويتوقعون قيام الساعة فى عصر الحكم لما يرتكب من محارم ويقترف من آثام ! ثم مضى الحديث الى العامة فى الازقة والدروب ؛ وفى الناس رغبة كامنة فى انتقاد الرؤساء والعلية من الحاكمين فما يكادون يلمون بشىء يسوء عن ذى امارة أو جاه الا اذاعوه مضخما مكبرا ، ومضوا يتناقلونه فى تزايد ومبالغة حتى طفح الكيل ، وأصبح حديث الامير مضغة الافواه وسمر السوقة والدهماء . وحرص الفقهاء على استمرار الذائعة بما يعلنون من سخط حتى تجرأ العامة ، فقابلوا موكب الامير بالتصفيق والسخرية ، واتهموه فى خلقه ودينه وقذفوه بالحصباء ! فصار فى مأزق يتطلب الخلاص ، واخذ يتلمس من الضيق فرجا ، دون ان يعرف مأتاه ، حتى صحا ذات يوم على ثورة هائجة تقتحم القصر ، يقودها جماعة الفقهاء وكان الثوار من اهل الربض الجنوبى لقرطبة ، فأخذوا يحطمون النوافذ ، ويشعلون النار ودافع حراس الامير عن حرمه اكرم دفاع ، ولكن الثورة تشتد ، والتحطيم يتوالى والفوضى تتفاقم ، حتى خيل للثائرين ان ساعة الحكم قد دنت ، ونظر الامير فوجد الخطب يدهمه عن شمال ويمين ، فتفتق ذهنه عن حيلة بارعة هى أن ينسحب بعض الحرس متظاهرين بالانضمام الى العامة حيث يأتون مساكن الربض فيشعلون بها النيران .

ونظر الثائرون فوجدوا النار تشتعل عن كثب فى

منازلهم ، وعلموا أن نساءهم وأطفالهم وأموالهم اصبحت طعمة للهيب ففروا الى ديارهم يطفئون الحريق ، ولكنهم وقعوا بين فكى الكماشة اذ أطبق عليهم جيش الحرس ممن كانوا يشعلون النار ومن أخذوا يتعقبونهم حين تركوا القصر ، وكان ذهول المفاجأة باعث التفرق والاضطراب فحصدتهم سيوف الحكم حصدا واخذتهم رماحه دون شفقة او هوادة حتى فنى عدد كبير من الثائرين وهدمت دورهم ، وصلب ثلاثمائة من رؤسائهم مدلاة رءوسهم الى اسفل تنكيلا وارهابا ! وذاق الفقهاء من الهول والشدة ماتركهم جزر السيوف ، تسيل دماؤهم فى الطرقات ، ومن نجا من المعركة لحسن حظه آثر الهروب والاختفاء كيلا يلحقه الموت العاجل ! ثم امر الحكم بهدم منازل الربض وترحيل من بقى من اهله الى شمال افريقية حيث نزلوا بفاس !

انتهى الصراع على وجه حاسم ، وخمدت ثورة الفقهاء خمودا لا قيامة بعده ! وكان الفقيه المالكى طالوت بن عبد الغفار المعافرى ممن أسهموا فى الثورة اسهاما خطيرا ثم كتبت له النجاة فلاذ بالفرار مستخفيا لدى بعض معارفه من أهل الكتاب ! وظن الايام ستسعفه بالعفو والرحمة حين تهدأ الثائرة ، وتصبح الثورة أثرا بعد عين ولكن الزمن يمضى دون ان يطرأ جديد على موقفه الضائق ، والفقيه يتقلب على مثل الجمر حين يرى الكتابى يتحمل ايواءه ونفقته شهرا وراء شهر دون أن يستطيع مكافأته ! وهو أمر ان امتد الى عام فلن يعقل أن يطول به الامد الى عام آخر ! وماذا وراء الانتظار والترقب، والدنيا

دنيا الحكم ان شاء أطلقه وان شاء أراحه من كـــدر الاختفاء ، لابد اذن من مواجهة الموقف ، فوقوع الشر اهون من انتظاره ! وبخاصة اذا كان ابو البسام القرطبى هو وزير الحكم وقد كان تلميذ الفقيه الكبير ، عنه أخذ، وعلى يده تعلم ، حتى جلى وبرز !! فهو اذن طريقه اليه يشفع فى أمره ويهون من خطبه ، وعسى أن تأتى الريح بما تشتهى السفينة المرهقة بعد اعصار عنيف .

بعث الفقيه الى تلميذه الكبير وأعلمه بمأساته طالبا شفاعته ! وكان الوزير من الاسفاف الخلقى والضـــعف النفسى بحيث تخيل أن العثور على أستاذه ســـيصبح زلفى لاميره ، فعجل بلقائه ، وذهب يدعى له أنه بث عيونه وأرصاده حتى عثر على طالوت المعافرى مختفيـــا فى بيت أحد صحابته من أهل الذمة ! وقد بذل فى الكشف عن مخبئه مابذل حتى اهتدى الى مكانه ! ثم قال للحكم فى ابتسام ماكر ؟ كيف رأيك اذن يا سيدى فى كبش سمين على مذود ، منذ عام طويل !

قال ابن البسام ذلك وجهل أن الحكم منذ هـــدات الثورة كان يستشعر الندم على افراطه فى الانتقام ، ويعلل نفسه بأنه اضطر الى ذلك اضطرارا حين رأى الثوار يطلبون رأسه ولا يرضون بغير اراقة دمه ! وقد مالت نفسه الى الصفح بعد خمود العاصفة ! فما أن وقعت عينه على طالوت حتى أجلسه الى كرسى بجواره وقال له فى عتاب مهذب : « ياطالوت : أخبرنى لو أن اباك أو ابنك مالك هذا القصر أكان يزيد فى البر والاكرام على ماكنت أفعله بك ، هل قدمت على قط لحاجة فى

نفسك او لغيرك الا سارعت الى اسعافك ؟ ألم أعدك في علتك مرات ؟ ألم تتوف زوجتك فقصـــدت الى بابك ومشيت في جنازتها راجلا من الربض ثم انصرفت معك راجلا حتى ادخلتك منزلك فماذا بلغ منك ، وهـذا لي عندك . ان لم ترض الا بسفك دمي وهتك ستري واباحة حرمتي ! » .

فظهر الغضب في وجه الامير ثم التفت الى وزيره يقول في استهزاء وسخرية ! « يا أبا بسام : رجل من أهـل الكتاب حفظ فيه محله من الدين والعـلم ، وخـاطر بنفسه وأهله وماله وولده معي ، وأردت أن تنشبني فيما أنا نادم عليه ، أخرج عني بعيدا ، فوالله لا رأيت لك وجها أبدا » فخرج الوزير مدحورا معزولا الى حيث لا رجعة !

رأى طالوت وسمع ! فأدركه من الغضب على تلميذه العاق ما ظهر في احمرار وجهه ولمعان عينيه ، ثم غلي شعوره فنهض قائما غير منتظر اذن الحكم !

ولكن الامير سعى خلفه مودعا ، وقال له في هدوء . سأصلك وأبرك ، ولك أن تغضبني كما تشاء ! فلم يجبه الفقيه بشيء !!

لقد تصرف كلا الرجلين بوحي خالص من اعتقـاده واذا كنا نكبر في الامير الاندلسي تسامحه وعفوه وترفعه، فاننا نكبر في الفقيه المالكي استعصامه بما يعتقـد أنه الحق حين برقت الاسنة ولمعت السيوف دون تراجع او استخذاء ! ويا له من موقف !

قال ذلك الحكم متوقعا أنلا يسمع من صاحبه ما يشبه الاعتذار ! ولكن طالوت كان معتقدا في قرارة نفسـه ان

الحكم لا يصلح للامارة ، وان ثورة الفقهاء حق لا مرية فيه فأجاب فى اعتداد :

« ما اجد لنفسى فى هذا الوقت مقالا خيرا لى من الصدق ، ابغضتك لله فلم ينفعك عندى كل ما صنعته لاجلى » .

اكتأب الحكم لرد طالوت ، غير أن شعوره النفسى بكراهية الانتقام قد تغلب عليه فقال فى لهجة المتسامح الراغب يستعطف الفقيه :

« اعلم ياطالوت أن الذى ابغضتنى من اجله قدصرفنى عن عقابك ، فانصرف آمنا فى حفظ الله والله لا تركت برك وما كنت عليه فى جانبك طيلة حياتى ان شاء الله وليت الذى كان لم يكن ! » .

لقد كان الاليق بطالوت ان يقنع بالسكوت ، وبخاصة اذا كان هو الساعى بادىء ذى بدء الى استرضاء الامير ، ولكن ثورته النفسية قد اخرجته عما يليق فقال فى غير اكتراث : —

تقول ليت الذى كان لم يكن اما انا فاقول لو لم يكن كان خيرا لك !!

فأطرق الحكم متضايقا واراد ان يغير مجرى الحديث فقال للفقيه المغضب !

أين ظفر بك ابو البسام ؟

فقال طالوت ، والله ماظفر بى ، انا اظفرته بنفسى لصلة علمية كانت بينى وبينه !

فهو تلميذى فقال الحكم متعجبا ؟ وأين استترت فى عامك الطويل ؟!

فقال طالوت : كنت عند رجل من اهل الكتاب رعى مكانى وصان ذمامى !

المنذر بن سعيد ومواقفه المشهودة

يتألق اسم المنذر بن سعيد البلوطي بين الخطباء والقضاة الذين يتحدث التاريخ عن مواقفهم المشهودة . فقد كان الى فصاحة لسانه وسمو أدبه ودقة مؤلفاته ، ورقة اشعاره ، جريئا في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، عادلا في الحكم فلا يجنح الى هوى ، أو تميل به عاطفة ، زاهدا عزوفا عن المظاهر الخادعة هذا الى حسن السمعة وبعد الصيت .

وقد نشأ القاضي الخطيب بالاندلس ، وتتلمذ على جهابذتها من الفقهاء والادباء . ثم اخذ السير الى بلاد المشرق فلقى كثيرا من العلماء والرواة ونسخ أوراقا كثيرة مما قرأ وسمع . ورجع الى الاندلس حاملا من كل فن ثمارا طيبة مشتهاة ، فعرف له العلماء مكانه من الفقه والدين وأنزله الادباء بينهم منزلة عالية ، لما له من ذوق جيد في الفهم ونقد بصير بالشعر ، ورواية حافلة للادب والتاريخ . وكانت الاندلس لعهد المنذر تزدان بسلطان عبد الرحمن الناصر ، وكان ملكا جريئا مقداما جمع الكلمة المتفرقة ، وأسكن الفتن الثائرة ، وهاجم الصليبية الزاحفة ونشر ألوية الحضارة والمساواة ، فتجمعت حوله القلوب ، وخافه أعداؤه ومعاصروه من الملوك ، فخفوا اليه

بالهدايا النادرة يخطبون وده ، ويتملقون عطفه ، وقد جعل قرطبة عاصمة ملكه ، نظيرة بغداد وقريعتها علما وثقافة وحضارة ، فشاد بها القصور ، وأقام الجسور ، وأكثر من الحدائق والرياض حتى أخذت زينتها ، وارتدت أبهج الحلل والمطارف ، وتحدث الناس بجمالها الباهر وسحرها العجيب ، وقد بنى الزهراء وتأنق فى تجميلها تأنقا بارعا فحشد لها المهندسين ذوى الكفاية ، ورفع القباب العالية ، وأجرى الجداول الصافية ، وخلع عليها الوانا عاطرة ناضرة تنبىء عن عظمة الملك وجلال السلطان .

وقد رجع المنذر الى الاندلس فى عهد الناصر ، ومهد له الحظ طريق السعادة فتالق نجمه في مناسبة شهيرة ، اذ ان رسول ملك الروم قد خف لزيارة الخليفة حاملا انفس الهدايا والتحف ، فأقيم لاستقباله احتفال فخم فى يوم مجموع له الناس ، وحضر الفقهاء والامراء وأعيان الدولة فى اجمل مظهر ، وافخم لباس ثم تقدم الاديب الرواية الكبير ، ابو على القالى ، ليلقى كلمة الافتتاح فبهره الموقف واخذته الرهبة ، وغشيت الناس سحابة من الخجل والاستحياء حين تلجلج لسانه وتقطعت كلماته واحمر وجهه ، واذ ذاك نهض المنذر بن سعيد فصعد الى المنبر ووصل الكلام بحديث جيد ، فابرز افضال الناصر وتحدث عن مآثره ، وقرر افعاله ، وعدد نعم الله على المسلمين ، وتوعد أعداءهم بما اورث الرهبة والخشية فى القلوب ، فاتجهت الانظار الى الخطيب الساحر ، وعظمت مكانته فى عين الناصر فأسند اليه الخطابة فى المسجد الجامع ، ثم عينه قاضى الجماعة فى قرطبة ، فابرز فى الاولى بلاغة وتأثيرا ، وارسل من المواعظ البليغة

ما رقق الافئدة ، واقضى المضاجع ، كما كان فى الثانية علما من أعلام الحق الذين ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف وله فى ذلك مواقف ناصعة تتعطر بها كتب التاريخ ، وتزدان بها مجالس القضاء فى الاسلام .

أجل ، كان المنذر مثال النزاهة فى القضاء وله مع الناصر غرائب رائعة فقد ألزمه الحق مرات عدة ، وهو من هو فى سلطانه ودكتاتوريته ، فقد كان الملوك جميعا لعهده ، شرقيين وغربيين منفردين بأحكامهم ، لا معقب وراءهم ولا نقض لما يبرمون ، ومع مالهم من السطوة العارمة ، والبطش القاهر ، فقد وقف المنذر أمام الناصر ليؤيد الحق وحده ، ويتخذ خشية الله سلاحا يقل دونه كل سلاح ، مهما رجعت عليه العواقب بما ينتظر ان تتمخض عنه ، وكان الناصر دقيق النظر صحيح البصر برجاله ، فهو يعلم المداهن المحابى ، والمتظاهر بالحق سمعة ورياء ، والمعتصم بالحق ابتغاء مرضاة ربه ، ومن ثم فقد كان ينزل على حكم المنذر ، واثقا من نزاهته وخلوص حكمه من الشوائب .، واذا كان لنا ان نفخر بمن يجاهرون بالحق من القضاة دون رهبة أو خشية فاننا نعجب ايضا بمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه من الخلفاء والملوك ! .

كان للناصر حظية من نسائه ملكت قلبه ، فهام بها ، وكلف برغباتها ، فبنى لها قصرا جميلا . ثم عن له أن يتوسع فى شرفاته ومقاصيره ، فأراد أن يشترى دارا مجاورة لبعض الايتام ، وعرض بعض المال لذلك ، فقال الوصى : انه لا ينفذ البيع الا باذن القاضى منذر بن سعيد، اذ أن الايتام فى حجره ورعايته ، فهو قاضى الجماعة فى

المسلمين ، وأولى بالتصرف والانفاذ ، فبعث الخليفة الى القاضي يسأله انفاذ البيع ، فقال البلوطي لرسول الخليفة: ان البيع على الايتام لا يصح الا لوجوه منها : الحاجة الملحة ، أو الضعف الشديد ، أو الرغبة فى مال من غبطة مرتجاة . وليس بالايتام حاجة لنقد ، ولا بالدار ضعف فتزال ، وأما الغبطة فهذا مكانها ، فان أعطاهم امير المؤمنين كثيرا ، أنفذت البيع والا فلا . وطار الرسول بالخبر الى الخليفة ، فظهر زهدا فى شرائها ، وخاف القاضي أن يصمم الخليفة على الشراء ، فأمر بنقض الدار وبيع أنقاضها فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة فى الشراء . فعز ذلك على الناصر ، واستدعى القاضي وناقشه فى هدم المنزل . فقال له المنذر فى جرأة حميدة لقد اخذت فى هدمها بقول الله عز وجل :

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ، ومقومك لم يقدرها بمال معقول وقد قبضت فى الانقاض وحدها اكثر منه ، وبقيت الارض للايتام ، فتدبر الخليفة الامر قليلا وأدرك صدق النية لدى القاضي ، وعلم اخلاصه فى اتباع الحق فقال له : نحن أولى بالانقياد الى العدالة، وجزاك الله خيرا ياقاضي الجماعة عن العدل والاسلام .

موقف كريم من قاضي عادل ، وملك منصف . وبأمثال هذه المواقف الجريئة اعتز الاسلام وبلغ فى قرن واحد مالم تبلغه الدولة الرومانية فى ثمانية قرون ، بل ان المنذر العظيم قد رصد نفسه ناقدا لاعمال الخليفة . فهو لا يكتفى باقامة العدل فى القضاء وحده ، بل يتتبع أعمال الناصر حسنها وسيئها فى رأيه ، فاذا لم يطمئن لعمل ما

جاهر بمحاربته على رءوس الاشهاد ، واتخذ من منبر الجمعة مذياعا يصدع بالمعروف وينهى عن المنكر ، مهما كانت النتائج ، وحسبه أن يسكن ضميره القلق ، فلا يشعر بوخز يؤنبه على السكوت والاغضاء ، وقد كان الناصر كلفا بالعمارة والزخرفة ، فبنى الزهراء وأفرغ الجهد فى تزيينها وابداعها ، وأقام قصورها الشماء على أحسن طراز ، حتى شغله ذلك عن حضور الجمعة فى المسجد الجامع ثلاث مرات متعاقبات فأراد القاضي أن يلقى الموعظة الزاجرة وانتهز حضور الخليفة للصلاة فى جمعة حافلة وبدأ خطبته بقول الله « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون واتقوا الذى امدكم بما تعلمون ، امدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ثم اتبع ذلك بكلام قاس ، ينهى عن الاسراف والتبذير حتى بكى الخليفة وندم ثم قال لولى عهده ونجله الحكم لقد اسرف المنذر فى ترويعى وازعاجى ، والله لا أصلى خلفه الجمعة ابدا . فقال له ولى العهد : وما الذى يمنعك من عزله وايقافه . فرجع الناصر الى ايمانه ويقينه وقال : ويلك أمثل ابن سعيد فى ورعه وعلمه وفضله ، يعزل فى ارضاء نفس ناكبة عن الرشاد ، سالكة غير القصد ؟ هذا مالا يكون ، وانى لاستحى من الله عز وجل الا اجعل بينى وبينه شفيعا يوم القيامة مثل المنذر بن سعيد . هذا سمو بالغ نذكره بالفخر للناصر .

وقد زاده فى عيون المنصفين قدرا ونباهة ، ولو استمع الى ولى عهده وعزل المنذر بن سعيد عن الخطابة بالمسجد الجامع لاكتسب جرما آخر ، وسلقه الناس بألسنة حداد فذاع فى الدولة اسرافه وتماديه ، فتذمر من تذمر وتآمر عليه من تآمر .. ولكنه تلافى ذلك كله ، وأرضى الله عز وجل فى واعظه ومرشده ، ثم تقبل النصيحة بهدوء واذعان ، بعد أن سكنت عنه سورة الغضب وكان يذكرها للمنذر بمحمدة واعجاب .

على أن الناصر كان يزن رجال دولته ويضع كلا فى منزله اللائق فهو يعرف الفقهاء ومنازعهم ، ويلم بنفسياتهم المتباينة حتى ليكاد ينطق بما فى ضمائرهم من حب وكراهية ، وقد بنى قصرا فخما ، وصفحه بالذهب والفضة ، وزخرف سقوفه بالالوان الذهبية البراقة ، ثم دعا اليه كبار رجاله وسألهم عنه فبالغوا فى الثناء على ابداعه وكماله ، واسهبوا ما شاء لهم الملق فى تعداد مفاتنه ومباهجه ، فسر بتقريظهم سرورا طائرا ثم دخل المنذر بن سعيد واجما ساكنا ودموعه تنحدر على لحيته ، فسأله الخليفة عن حزنه فى غير وقت الحزن ، فأشار الى السقف الذهبى الوضىء وقال : يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ بك هذا المبلغ ، مع ما أتاك الله وفضلك به على العالمين ، حتى نزلت منازل الكافرين .

فانزعج الناصر وصاح : انظر ماذا تقول : ويلك ! فقال المنذر : الا تتذكر قول الله عز وجل « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا

.. فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » فوجم الخليفة ونكس راسه معتبرا ثم قال : جزاك الله خيرا من ناصح أمين .

ونهض الى الزخرف الذهبى فأزاله لساعته ، ثم أمر بطلاء القبة طلاء عاديا ، لا رونق به ولا تنميق !

بهذه المواقف الخالدة للمنذر بن سعيد تعطر تاريخه بالثناء والمديح ، ولقى فى حياته من الاكبار والاجلال مالقيه بعد مماته من التعظيم والاطراء . ولا ريب فقد كان مثلا رفيعا لعالم الاسلام فقها وفصاحة ونزاهة وورعا ، وقد ائتم به قضاة الدولة وفقهاؤها فدرسوا أحكامه وحفظوا خطبه ، اما العامة من الرعية فقد بهرهم ذياده عن الحق . ووقوفه بالمرصاد لكبراء الدولة وامرائها فتجمعوا حوله ولاذوا به فى الشدائد . وقد امتنع المطر مدة طويلة حتى جفت الانهار ، وغاضت الينابيع فتزاحم الملأ على القاضى مستجيرين ، وخرج بهم الى العراء فخطبهم خطبة مؤثرة ، ووعظهم وعظا خاشعا وبكى فأبكى الحاضرين ، ثم أذن الله فتجمعت السحب ، وانهمر الغيث انهمارا شديدا على الآكام ومنابت العشب ، ومسايل الاودية ، ورجع الى منزله قرير العين مبتهج الخاطر ، اذ اجاب الله دعوته ، وغمر البلاد بفيض زاخر ، تتقاذفه الانهار فأخصب جديبا ، وإحيا مواتا ، وانقذ الارواح .

وكان المنذر الى ذلك كله حاضر البديهة جيد النادرة ، ينظم الشعر الرقيق فى دقائق اللغة وضروبها من بلاغة وتصريف ، وقد أفادته رحلته الى الشرق معرفة بالناس

ودراية بشئون البلدان ، ومشافهة للائمة ، ومناظره للعلماء ، فنضج عقله وسلس بيانه ، وتحرر من ربقة الجمود ، فكان لا يتقيد فى الافتاء بمذهب مالك بن أنس : بل قارن ووازن وحلل وعلل ، واكتسب سمعة فقهيه رشحته للامامة والافتاء ، وانك لتقرأ ماروى من خطبه واشعاره فى معجم الادباء لياقوت ، ونفح الطيب للمقريزى ومطمح الانفس للفتح ، فتجد المعنى الرائع ، والاسلوب البليغ ، والذوق البصير ، وكل ذلك كثير .

العز بن عبد السلام
سلطان العلماء

أجمع فقهاء عصره على انه سلطان العلماء ، فقد كان الشيخ من العلوم على اختلاف فروعها واتساع جوانبها بمنزلة رفيعة . فقد كتب المؤلفات الكثيرة فى الفقه والاصول والتوحيد والتفسير والحديث والبلاغة ، كما شارك فى التصوف مشاركة علمية وعملية ، فزهد وتنسك وكتب فى المواجد والمقامات ، والحق أن العز لم يكن سلطان العلماء وحدهم . فقد كان سلطان الدولة بمن فيها من ملوك وأمراء !!

حتى انه عرف بأنه القائم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمانه ، وكانت جرأته فى الحق مثار الدهشة والعجب ، فقد صمد لكثير من الطغاة معتزا بحقه ، ولم يمنعه فى ذلك ارهاب وتهديد وقد ألقى به فى غياهب السجن فما ازداد الا ثقة ومهابة ، بل ان ما كابده من المحن قد اورثه صلابة وجرأة فاستعذب مرارة الالم فى سبيل الله ، وظل على مبدئه يكافح الظلمة حتى خشع الجميع لارادته وأصبح سيد الدولة فى مصر وسلطان الناس .

وقد نشأ هذا الفقيه بدمشق ، فدرس العلم على أئمتها

الثقات ، مثل فخر الدين بن عساكر ، وجمال الدين الخراساني ، وسيف الدين الامدى ، ثم ارتحل الى بغداد فشافه علماءها ، وجالس فقهاءها وعاد الى بلدته جم المعرفة واسع الدراية ، فانتشر له دوى علمى ، وبرع فى الفقه براعة فائقة حتى بلغ مرتبة الاجتهاد ، بشهادة الائمة من معاصريه ، وعزل كثير من الفقهاء انفسهم عن الفتوى ـ كالحافظ المنذرى ـ مكتفين بما يصدر عنه من أحكام .

وقد ولى الخطابة فى دمشق ، فاتخذ من منبرها مذياعا يشن به الحرب على الباطل ويدحض البدع والخرافات، ويواجه الطغيان من الرؤساء حتى خيف جانبه ، وعظمت رهبته ، وان الذى يبحث مواقف الشيخ ليعجب بقوة الايمان الخارقة التى سيطرت عليه ، فخلقت منه أسدا غضوبا يفر أمامه الحكام ! فما يزأر العز على منبره حتى ترتجف الباطل ، ويتزعزع الضلال ، وتقوم الحرب العارمة بين الحق وخصومه ، ويخرج الشيخ من الحومة مؤزر النصر ، عالى الرأس ، وهأنذا ألم ببعض مواقفه الناصعة مراعيا ترتيبها الزمنى ما أمكن ليكون بها عظة بالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع !

كان الملك الاشرف موسى بن العادل سلطان دمشق ، وله بها من النفوذ والسيطرة ما للملوك والرؤساء ، وكان العز عنده منزلة رفيعة فهو يقدر ايمانه القوى ، ويشهد مواقفه الغر من أصحاب البدع والخرافات ، ولكن جماعة من المبتدعة قد أثاروا بدمشق فتنة فارغة فذهبوا يقولون : ان كلام الله بحروف وأصوات .

واندفعوا فى لجاجة حشوية لا طائل تحتها ، وتحزب

العامة فريقين بازائهم . وقد افلحوا فى اقناع السلطان الاشرف بآرائهم فاكتسبوا بمؤازرته قوة أثارت الشغب والتهريج ، فى وقت تتجمع به جيوش التتار لمحاربة المسلمين بدمشق ، فثار العز على هؤلاء المتدعين ثورة عارمة ، وندد بهم فوق منبره تنديدا ماحقا . كما أصدر فتوى يقرر فيها مذهب السلف والجماعة فيما أثاروه من الضجيج ! وقد أفلح هؤلاء فى اغضاب السلطان عليه ، فقامت بينه وبين الشيخ مناقشات ومساجلات حادة ، لم يسلس فيها العز قيادا أو يلن جانبا ، فصدر الامر بعزله من الخطابة ، وحرمانه من الفتوى ، واعتقاله ببيته ، ولكن الحق قد ظهر أخيرا على يده ، فاعتذر له السلطان ــ وكان فى مرضه الاخير ــ فاهتبل العز هذه الفرصة ، واتخذ من اجتماعه بالاشرف مجالا للنصيحة ، والامر بالمعروف وقال للسلطان :

ــ كيف تعد الذخيرة وتجمع الجيوش لمحاربة الملك الكامل سلطان مصر وهو أخوك ، وجنوده مسلمون كجنودك ! فتضيع الدماء الطاهرة فى خلاف عائلى لا يرجع على الاسلام بغير النكبة والخسران ! ان جيوش التتار تخوض بلاد المسلمين وأولى بكما أن تتعاونا على درء الخطر الزاحف فتنالا مثوبة الله واعجاب الجميع .

وما زال الشيخ المخلص بالرجل المريض حتى أقنعه فثنى العزم عن أخيه وأبطل المحارم والمناكر ، وكان موقف العز رائعا حين أمر له السلطان بألف دينار فردها قائلا : هذا اجتماع لله ، فلا أكدره بشىء من عرض الحياة !

رجع العز الى منبره يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كعهده ، وقد آلى على نفسه أن يتعقب الفساد فى كل

مرصد ، فلا يقطع لسانه عن باطل مهما جل ذووه ! وقد نزلت بدمشق نكبة فادحة حين ملكها الصالح اسماعيل ودب بينه وبين نجم الدين أيوب خلاف شديد ، فخاف على ملكه فصالح الفرنجة من الصليبيين على أن ينجدوه من ملك مصر ويسلم اليهم « صيدا » و « الشقيف » وغيرهما من بلاد المسلمين ، ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا دمشق بمقتضى المعاهدة ، واخذوا يبحثون عن السلاح يشترونه ويعدون انفسهم به لمحاربة المسلمين : فعظم ذلك على العز وافتى بتحريم بيع السلاح ، وندد بالصالح اسماعيل فى مجالسه ودروسه ، ثم اعتلى المنبر ليعلن تبرمه وسخطه على السلطان الغادر دون أن يعبأ بارهاب يتهدده ، وانتشرت ثورة العز بالمدينة فانزعج لها الصالح انزعاجا شديدا ، واصدر أمرا بعزله وحبسه ! فما زادت الثورة الا استفحالا ، فبدا للملك أن يطلقه على أن يغادر دمشق وخرج العز الى كنانة الله وقلوب الشاميين تتبعه ، وقد سار خلفه كثيرون ! وخاف السلطان ان ينتشر حديث خيانته بمصر ، اذ دخلها العز ، فأرسل اليه من يصالحه على العودة الى منصبه على ان يستكين للسلطان ويقبل يده !

وما كاد العز يسمع كلام الرسول حتى صاح به : والله لا أقبل أن يقبل الصالح يدى ! فضلا على تقبيلى يديه ! يابنى ارجع الى صاحبك فهو فى واد وانا فى واد .

رحل الرجل العظيم الى مصر ، وقد سبقه اليها مجده وفقهه ، فاستقبله العلماء بالاجلال ، وكان المحدث العظيم الحافظ المنذرى صاحب الفتيا بها ، فامتنع عنها اجلالا لعلمه . ورأى الشيخ كثيرا من محبة السلطان الصالح

ايوب وعنايته به اذ ولاه الخطابة بجامع عمرو والقضاء بمصر والوجه القبلى ، والتفت القلوب حول الـــزائر الجديد ، فارتوت العقول من علمه ، واشرقت القـــلوب بنوره ، وسار على سننه المعهود يامر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، واتخذ من منبره بالفسطاط مذياعا جديدا . يرسل به النذر ويقيم الحجج « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينه » . وطبيعى انه يعظم نفوذ الرجل وقد وثق بربه ، وبذل جهده الجاهد فى مرضاته ، فـــلم تأخذه رهبة فى محاربة بغى ، واستئصال فساد ، وقـد مر ذات صباح على صديقه الصالح ايوب فى يوم عيد ، وقد اخذ السلطان زينته ، وخرج على قومه ، والجنـود مصطفون بين يديه . والامراء يقبلون الارض تحت أقدامه والرايات تخفق ، والخيول تصهل ، والدنيا تجتمـــع لتشهد ! فالتفت الشيخ الى السلطان فى أبهته الاخاذة ، وتيهه المتعاظم ، وصاح به : يا أيوب .. ما حجتـك عند الله ، اذا قال لك الم ابوئك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ فاندهش الملك وقال : هل حصل ذلك ؟ فقال الشيخ : نعم ، حانة فلان وحانة فلان ! فقال السلطان : هذا من زمان ابى وما صنعت شيئا ! فقال الشيخ : ما هذا ؟!.. االنت من الذين يقولون انا وجدنا آباءنا على أمة ؟!

فرسم السلطان أمرا باغلاق الحانات فورا ، ورجـع الشيخ الى درسه ، فسأله تلميذه الباجى عن موقفـه . فقال : يابنى لقد رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه . لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، ولقد استحضرت هيبة الله تعالى اذ اخاطبه فصار السلطان عندى أقل من القط .

« ولو كانت بنفسى لديه حاجة من حاجات الدنيـــــا لرايته الدنيا كلها » ! . .

الله اكبر . . . هذا هو العالم الحق الذى لا يعبأ بصداقة شخصية ، أو منفعة ذاتية بل يجعل الاسلام رائده، يبحث عن تعاليمه ، ويتشدد فى أوامره ونواهيه ، فهو خير امة اخرجت للناس . وقد ورث النبى فى علمه وهديه ومنبره وقام على رسالته يصون الارث الثمين ! وقد جاهد العز بسيفه كما جاهد بلسانه ، جاهد بسيفه حين هـــاجم الصليبيون دمياط ، وارادوا اكتساح الاسلام فى أمتـع دوله واعز حصونه ، فنهض الشعب عن بكرة ابيـــه ، وامامه أمراؤه وجنوده وعلماؤه ، وخطب الشـيخ خطبة مؤثرة ، اشعلت الحمية فى الصدور ، ودفعت النفـوس الى الجهاد . ويروى المؤرخون ان الريح قد حاربت السفن المصرية بادىء ذى بدء ، فوقف العز ينادى بأعلى صوته : اللهم حول الريح عن عبادك المسلمين .. ويلوح بيده الى ناحية الصليبيين فتغير الوضع ، وانكفأت الريـــح الى سفن الفرنجة . وسواء أكان ذلك اجابة لدعوة الشيخ ام ظاهرة طبيعية لا شىء للكرامة فيها فان موقف العز كان مصدر يمن واقبال ، فتم به النصر وانطلقت الزغاريد .

ولم تـــكد مصر تستريح من نضال الصليبيين حتى تعرضت لقتال عدو آخر أشد بأسا واعظم نكالا ، فقـد اكتسح التتار بلاد الشام وولوا وجوههم نحـــو مصر المحروسة ، وقد ذاعت الروائع عن قوتهم الخـــــارقة ووحشيتهم الكاسرة فملأت القلوب بالوجل والخـوف ، واستانف العز جهاده فدعا الى محاربة أعداء الاســلام ،

واجتمع العلماء بالامراء والقواد والاعيان . وأخـذوا يتشاورون فيما يصنعون ، فرأى الامراء أن تجمع الاموال من الرعية ليستعين بها الجيش فى نضاله الرهيب . ووافق الحاضرون على الاقتراح كأمر مسلم به لا يقبل الاعتراض ولكن صيحة الشيخ تعلو بكلمة الحق . فيقول : لكم ان تفرضوا الضرائب على الرعية كما تريدون اذ لم يبق فى بيت المال شىء ، واذا باع المماليك جواهرهم النفيسة ، وادواتهم المذهبة ، وذخائرهم الثمينة ولم يبق لهم شىء غير ما للعامة فيتساوى الجميع ، وتفرض الضرائب على الرءوس ، وقد اذعن الحضور لامر الشيخ ثم توجه الجيش المؤمن بقيادة الملك المظفر قطز فكتب للاسلام نصرا خالدا ، بهزيمة التتار ــ لاول مرة ــ فى موقعة عين جالوت .

وقد تنكر الحظ للملك المظفر الظافر ، فاغتاله بعض اعدائه فى أثناء عودته مكللا بتاج الظفر والنجاح ، وأراد الظاهر بيبرس أن يأخذ لنفسه البيعة بعد مؤامرة دبرها، وكان له من الجبروت والبطش ما أرهب وأفزع ! ولكن العز لم يعبأ به ، فامتنع عن مبايعته ، وقال له فى صراحة عالية جهيرة : ياركن الدين ، أنا أعرفك مملوك البندقدارى ولم يثبت لدى عتقك للآن ، فكيف ابايعك ! فاستحضر الظاهر شهودا يعترفون بخروجه عن ملك سيده واسترداد حريته ، فبايعه الشيخ ، وبايع خلفه الجميع .

هذه الحادثة العجيبة لها فى تاريخ العز نظير أعجب وأدهش ! فقد ثبت لديه أن الامراء من المماليك لم يعتقوا ؛ وهم بذلك من حق بيت المال ، فأعلن للعامة أن حكم الرق

لا يزال مصاحبا لهم ، وأن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود ونكاح باطلة لا تنعقد ، وقد أفسدت هذه الفتوى الجريئة على الامراء كل عمل يقومون به ، فثارت ثائرتهم ، وكان بينهم نائب السلطنة فهاج وماج ، وتطاير الشرر من عينيه ، وأقسم ليصرعن العز بسيفه فقد تعاظمه ان يكشف الرجل عن حقيقته ! فاذا هو مملوك رقيق ! برغم ما يعوم فيه من سلطان وأبهه ، وكيف والامراء من المماليك ملوك الارض واصحاب الجاه الطائل والصيت البعيد !!

سار نائب السلطنة الى بيت الشيخ ممتطيا صهوة جواده ، وفى يده سيفه المسموم ، يبرق به لعاب المنية ، فطرق الباب طرقة شديدة ، وتقدم للعز فنظر اليه نظرة تتطاير منها ما يشتعل بقلبه من الغيظ والحقد ، ثم رفعه على الفقيه الساكن الهادىء فى مكانه كأن الامر لا يعنيه ، ولكن اليد الظالمة ترتجف ! والسيف المسموم يسقط الى الارض ، والأمير الفارس يتخاذل ويرتعد ! كل ذلك والعز لم يبد حراكا ! أفكانت رهبة الموقف قد زلزلت أعصاب الامير فتعاظمه ما هو مقبل عليه من شر مستطير ، أم ان عناية السماء قد جعلت من قوته ضعفا فانكفأ بعد سقوط سيفه يترضى الرجل ويستعطفه ، ثم ينزل على حكمه ، فيقول : يا سيدى ماذا تصنع بنا ، فيجيب فى ثبات : انادى عليكم وابيعكم ، واقبض الثمن غاليا لاودعه فى بيت المال ! وهذا ما كان فقد صاح المنادى آن ذاك بهذه الكلمة التى سطرت أنفس مواقف العزة : امراء للبيع امراء للبيع ! وقد قال له نجله عبد اللطيف : لقد خفت عليك

خوفا شديدا من بأس الامير ، فصاح به أبوه : لا تقل ذلك يابنى فأبوك اهون من أن يقتل فى سبيل الله !

على أن الرجل كان صاحب ارادة وتنفيذ ـ فهو ينهى عن المنكر فاذا ابطأ ذوو الامر فى تنفيذ نهيه باشر التنفيذ بنفسه دون تهيب أو اكتراث ، فقد بلغه أن الامير فخر الدين عثمان قد جعل من سطح مسجد بمصر مكانا للزمر والطبل ، فبنى به ماكان يسمى « طبلخانة » فقام العز بنفسه وصحب جماعة من تلاميذه وهدم البناء ! وقد غضب الوزير والامير لذلك فأسقط عدالتهما وعزل نفسه من القضاء دون أن يرجع للسلطان . ثم لزم داره يفسر ويؤلف حتى استعطفه صاحب الامر ، فباشر التدريس بالمدرسة الصالحية . وواصل الشرح والتعليم ، وقد أخطأ ذات يوم فى فتوى فأمر مناديا يطوف بالمدينة ويقول : ما أفتاه ألعز بكذا فليعلم انه خاطىء ! فيالعظمة الحق ويالجلال الايمان !!

لقد عاش الشيخ ثلاثة وثمانين عاما كانت كلها بركة ويمنا على الاسلام ، وحين أدركته الوفاة عرض عليه الظاهر ـ فى احتضاره ـ أن يعين أولاده العلماء فى منصبه . فأبى وقال : ليس فيهم من يصلح . ثم رشح من زملائه الائمة من وثق بعلمه ودينه ، أرضاء للعدالة . وحين خرجت جنازته سارت مصر كلها برجالها ونسائها واطفالها تشيعه وتبكى عليه ، وقد نظر الظاهر بيبرس الى الجمع المحتشد فقال : الآن قد استقر ملكى ، فلو أن هذا الشيخ أمر الناس بخلعى لبادروا الى امتثال أمره كما يشاء . ومهما عرف عن الرجل من قوة وجلال ، فقد

كان يصحب الفقراء ويشارك اهل الزهد من المتصوفين . وقد أوزثته صوفيته شفافية حساسة فتعلق بالادب ، ونظم الشعر ! وما نعهد فقيها كتب فى أكثر علوم الشريعة فى عصره غيره وقد مدحه الحافظ المنذرى ، وابن الحاجب وابن دقيق العيد ، والشاذلى وغيرهم من علماء زمـــانه بما فاق الوصف واربى على البيان .

وكنا نعهد الفقهاء لا يخوضون فى ابحاث الادب ولكن العز قد الف فى البلاغة والمجاز فكان يحلل الابيـــات ويتحدث عن مناسباتها وقائليها ، غير مقتصر على القواعد الفنية للبلاغة كعلم ذى تعاريف ومحترزات .. وقـــد جاءه رجل فقص عليه انه رآه ينشد فى المنام قول كثير عزة :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة
ورجل رمى فيها الزمان فشلت

فسكت العز ثم قال : أعيش ثلاثا وثمانين سنة فان هذا الشعر لكثير ، وقد نظرت فلم اجد مناسبة بينى وبينه ، فأنا سنى وهو شيعى ، وأنا طويل وهو قصير ، وأنا سلمى وهو خزاعى ، وأنا شامى وهو حجازى ، وهو شاعر وأنا فقيه ، فلم يبق الا السن فأنا أعيش كما عاش وقد كان الامر كذلك ! .

وهذه القصة على صغرها تؤكد المام الرجل بتـــواريخ الادباء ، كما تكشف عن مدى تعلق فقهاء الاســـلام بتعبير الرؤيا من لدن ابن سيرين وسعيد بن المسيب الى أقـــرب عهودنا بمشايخ الازهر فى القرن التاسع عشر ! وما فى ذلك شيء فهم يقتدون بنبى الله يوسف الصديق .

وبعد فقد كنا نقرأ قول القائل عن العلماء .

كانوا أجـــل من الملوك جـــلالة
وأعــز ســـلطانا وأفخم مظهـرا

فنظن ذلك مبالغة شعرية ولكننا نقرأ سيرة العز بن عبد السلام فنجده حقا أجل من الملوك ، وفى مواقفـــه السابقة أكبر برهان وأكبر دليل .

محيي الدين النــووى
وسطوة الظاهر بيبرس

ان مصباح الهداية الاسلامية ليتنقل من جيل الى جيل دون أن ينطفىء نوره على مدى الحياة ، فلم يكد العز بن عبد السلام ينتقل الى جوار ربه حتى نهج نهجه فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر عالم من طرازه يشاركه الفهم الصائب والعزة العالية ، والمجابهة الصريحة السافرة للطغيان ذلكم هو الامام الفقيه الورع محيى الدين النووى .

لقد عاش الرجل ردحا من حياته فى عصر الظاهر بيبرس ، والظاهر كما نعلم بطل جرىء من أبطال التاريخ أسدى للعروبة والاسلام أيادى رائعة حين كافح الاستعمار الصليبى فى مواقع فاصلة . فقاد الجيوش وراء الجيوش ليرد الزحف الجائر المتربص بديار الاسلام وممالك العروبة ضاربا ضرباته الصاعقة الماحقة التى زلزلت هذا الكيان المحتشد المتربص ، فأخذ ينكص على أعقابه فى ذهول ، كما استطاع أن يسهم اسهاما ماجدا فى اندحار السيل التترى المتوحش حين تدفقت سيوله على المسلمين ،ولم يجد من يثبت أمامه غير الجحفل الصابر المؤمن فى عين جالوت بقيادة الملك قطز ، والبطل بيبرس . ومع هذه المواقف المشرفة فقد كان مسلكه السياسى لا يخلو من

النقد الصارم العنيف ، اذ أن أنانيته القاهرة كانت تدفعه الى بعض ما يعد جريمة خائنة ، ويكفى أن نذكر تآمره الغادر على حياة الملك قطز ، فقد اغتاله بعد أن فرحت الدنيا بانتصاره الحاسم فى عين جالوت . ولم يكن الظاهر يحسب حساب مابعد خيانته اللئيمة غير العز بن عبد السلام ، فقد امتنع عن مبايعته حين رأى لون الدم فى يده ، وخاف الظاهر من تكتل الامة وراء العز ، فأخذ يصانع الامراء ويجامل القواد ، ليضمن الى جانبه ذوى القوة والسلاح . وقد واجهه ابن عبد السلام على رءوس الاشهاد بأنه عبد « للبندقدار » لم يثبت عتقه ، فأخذ يتذلل ويحضر شهودا يثبتون خروجه من ملك«البندقدار» وكان الشيخ المسن فى مرضه الاخير فلم يلبث أن لحق بربه ، وتنفس الظاهر الصعداء حين رأى جنازته تمر تحت القلعة ووراءها آلاف والاف ممن لا يحصون ، حتى قال قولته المشهورة « اليوم قد استقر أمرى ، فان هذا الشيخ لو قال للناس : اخرجوا عليه لانتزع منى الملك »

قال الظاهر قولته تلك ، ولم يدر أن الايام تخبىء له عالما داعية جريئا من طراز العز ، آلى على نفسه أن يوفى بعهد الله على العلماء أن يقفوا مع الحق فى كل سبيل ، فحمل الراية ونزل الى الميدان .

كان الفقيه العلامة محيى الدين النووى ، ذا هيبة وجلال . وقد تنقل فى جميع العواصم الاسلامية لينهل من حياض الثقافة فى كل مركز من مراكزها النائية ، ورجع الى دمشق يجر وراءه فقها وعلما وورعا ، فقام بالتدريس واخذ فى التأليف المستوعب الجامع حتى طارت

له شهرة واسعة فى فقه المذهب الشافعى ، ونحن نجد آراءه الدقيقة حتى فى غير كتبه يتناقلها المؤلفون لتكون اداة ترجيح بين رأى ورأى . وقد جرى العامة والخاصة من الفقهاء على اعتقاد الصلاح والولاية فيه ، حتى نرى شيخا جليلا كتقى الدين السبكى ينزل الى قاعة الحديث الاشرفية حيث يجلس النووى ويسير فيمرغ وجهه على بساطه ويقول لمن حوله :

عسى انى أمس بحر وجهى
مكانا مسه قدم النواوى

على اننا الآن نلمس نور قلبه فى كثير من مؤلفاته مثل رياض الصالحين ، والاذكار المنتخبة من كلام سيد الابرار وبستان العارفين فى التصوف ، اذ أن أمثال هذه الكتب تفيض بضياء مشرق يستمد شعاعه من التقوى الخاشعة واليقين الصريح . أما دقته العلمية فتتضح فى كتب اخرى مثل التحرير فى الفقه ، وروضة الطالبين ، والمنهاج والمجدع وغيرها مما لا يزال أكثره مخطوطا الى اليوم . ولسنا الآن بصدد تحديد مكانه العلمى ، ولكننا نمهد بذلك الى الحديث عن شجاعته الادبية ، وايمانه الجرىء .

لقد أشتد الظاهر فى جمع الضرائب والمكوس من العامة ليستعين بها على الجهاد ، حتى وصل به الشطط الى ضروب من العنت والارهاق . ودار الشيخ بعينيه فرأى كثيرا من التجار يجردون من اموالهم ، وتحيط بهم طائفة من غلاظ الجباة ، يغتصبون ويسلبون ، فاذا اعتذر احدهم بضيق اليد تعرض متجره للنهب وقد تتهاوى عليه السياط المحرقة دون رحمة واشفاق . فكتب الى

السلطان يلفته الى ذلك ، ويوصيه بالعدالة والحق فيما يأخذ ويدع من الاموال ويشرح ما شهده بنفسه من مآس قاسية تنفطر لها الاكباد ، وقد أغلظ عليه القول اذ بالغ في التهديد والوعيد ، وطار الخطاب الى الظاهر فرأى أن العز بن عبد السلام قد رجع فى صورة عالم جديد هو محيي الدين النووى ، فظن ان المدافع الثانى ليست له مكانة العز ومنزلته ، ورأى أن يواجهه بالشدة قبل أن تلتف حوله النفوس ، ويصير ذا صدى مسموع يقلق ويهيج ، فرد عليه بكتاب قارص يحمل الانكار والتوبيخ ، ويشير بالوعيد القاهر لكل من يتدخل فيما ليس يعنيه ، ثم هو لايقتصر على الشيخ واتباعه من العلماء بل ينتقل الى الرعية فيرميها بالبخل والشغب ، ويعلن ان أمر الجباة نافذ الطاعة مهما غلوا فى المكوس وتهجموا بالسب والضرب اذ هم أعوان الدولة ورسلها لدى الناس وقد ظن الملك الظاهر انه بذلك قد اطفأ النائرة وكمم الافواه . وصل الرد الى الامام المجاهد ، فقرأه متعجبا ثم دعاه داعى الحق الى أن ينقض الباطل ، ويحق الحق ، فلم تأخذه رهبة من حاكم جبار يعتصم بالقوة والجاه والسلطان ، ودعا من فوره بالدواة والقلم ليرد على كل كلمة جائرة تضمنها قول الحاكم الباطش ، وقد غمرته سكينة الايمان فما احس بخوف ، أو تهيب من دفاع ، وكان فيما قال رضى الله عنه وطيب ثراه :

« أما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأى حيلة لضعفاء المسلمين فى الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه

ما يلام عليه ، واما انا فى نفسي فلا يضيرني التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فاني اعتقد أن ذلك واجب علي وعلي غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى « فانما هذه الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار . وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد » ، وقد امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا والا نخشى فى الله لومة لائم » .

وصل الرد الجرىء الى صاحب الامر فأثار في نفسه ضروبا من الانفعالات الناقمة وجمع مستشاريه ليأخذ رأيهم فيما يجب أن يقوم به ازاء هذا العالم العنيد ، وقد استمع الى كثير مما يتعارض ويتناقض بين داع الى العقاب ومشير بالتسامح والاغضاء وقد رأى الظاهر بعد ماسمع أن يجنح الى التهادن اذ أنه لو سارع باعلان غضبه على الشيخ لجعله بطلا كبيرا على مرأى من العامة ، ولاصبح بمنحته هذه رمزا للدفاع المخلص ، ولواء يلتف حوله المعارضون وذوو الاغراض .

والواقع أن نصيحة الشيخ برغم قسوتها الصريحة قد فعلت فعلها فى نفس الحاكم ، فاضطر الى أن يجمع الجباة ويشير عليهم بالرفق والملاينة ، وأن يحذرهم غضب العلماء من الخاصة والجمهور من العامة ، وان كان فى واقعة لا يستطيع أن يتخلص من حنق مكظوم أثاره الشيخ في نفسه ، وأنى له وهو انسان يجب أن يامر فيطاع .

مرت هذه الحادثة ، لتعقبها حادثة أخرى أشد منها عنفا وايجاعا فقد تهيأ الظاهر الى بعض حروب أعدائه من

خصوم الاسلام ، واراد أن يأخذ من أموال الرعيـــة ما يستظهر به على العدو ، واستفتى العلماء فى ذلك : فأفتوه بالجواز ، ولكن محيى الدين يمتنع عن الفتوى . ويعلن ذلك فى اصرار ، لو ملك الظاهر زمام عاطفتـه لتدبر وفكر فى وجهة نظر الشيخ ، ولكن تسرعه الغاضب أوحى له أن يعقد اجتماعا عاجلا يشهده الجمع الحاشد من الناس ويحضره النووى ، ليظهر فى ثوب المنفر عن الحرب الصاد عن مجالدة الكفار ! فيكون موقفه عنـــد الجميع غير كريم . وتسقط مهابته لدى الناس .

وتم للملك ما اراد فاكتمل الحفل بأعيانه ووجوهه وذوى الرأى في البلاد .. وتقدم محيى الدين بقدم ثابتة ليسأله الظاهر فى عناد :

ـ لماذا لا تجيز أن تجمع الاموال من المسلمين لننفقهـا فى الجهاد كما أفتى زملاؤك من الفقهاء ؟

فرد الشيخ فى حزم أخاذ : كلنا يعلم أن لديك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية نصيب من الحلى ، فاذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ مـــال الرعية .

يالله ، لقد دهش الحفل من صراحة الرد ، وأشرقت الابتسامات فى الوجوه لتعلن اغتباطها بهـذه المجابهة الرادعة ، وتطلع الملك الظاهر الى رفقائه ملتمسا من يسعف برد منقذ ، يحول دون الافحام والالجام فلم يجـد غير الشيخ محيى الدين ينظر اليه فى كبرياء عالية تحتم على

الناس أن ينزلوها منزلة الاكبار والاعجاب ، حين تجيز لهم أن يشمتوا بجبروت السلطان وقسوة جباته من الاجناد ، ولكن سطوة الرياسة لم تمنعه أن يصيح فى وجه الرجل : اخرج من بلدى — يعنى دمشق — اذ لا يجوز ان تساكننى فى مكان .

وتدفع النخوة زملاءه من الفقهاء ، فينسحبون من الحفل مجتمعين ، ويسود الهرج والمرج صفوف الناس . فيخشى الحاكم سوء المقال ، ويتراجع قائلا :

— ولماذا تخرج ! اذنت لك بالمقام .

فيقول محيى الدين فى ثقة : ومن ادراك انى سأقبل المقام لديك لابد من الرحيل !! ثم يتفرق الناس مبهورين !

لو أن ذاكرة الظاهر كانت حادة نافذة ، لتذكر أن العز ابن عبد السلام قد وقف من الملك قطز هذا الموقف حين هم بجمع المال من الرعية قبل موقعة عين جالوت اذ أعلن سلطان العلماء أن المال محرم على السلطان قبل أن يستنفد ما لدى مماليكه وجواريه من ذهب ولؤلؤ .. ولكن الملك الظاهر لم يتذكر ذلك الا حين مثل محيى الدين دوره فى شجاعة وايمان ، فاضطرب صاحب الامر ، وتخيل الموقف السالف وقد شهده بعينيه منذ أعوام !! ورأى أن العز الذى استراح بفقده قد عاد من جديد فى صورة محيى الدين ، فعض على شفتيه ودمدم يقول : ذرية بعضها من بعض ! ما أشبه الليلة بالبارحة فيما كان .

ابن دقيق العيد
فقيه شجاع

آن لنا ان نتحدث الآن عن ابن دقيق العيد كما تحدثنا عن أستاذه الفذ عز الدين بن عبد السلام ، وعن زميله الشجاع محيى الدين النووى .

والحق أن العصر المملوكى حافل بأئمة الدين وأعلام الشريعة ممن ملأوا المكتبة العربية بذخائرهم العلمية وآثارهم الاسلامية فوق ماضربوه من المثل الرائع من الذياد عن الحق والدعوة الى الطريقة المثلى فى الحياة . وأن الدهشة لتأخذنى حين أجد كثيرا من المؤلفين يغمطون هذا العهد حقه فيزعمون أنه عصر تخلف وانحطاط ،وربما مصنوع ، اما الانتاج العلمى فلا نعلم عصرا حفل بالموسوعات الرائعة ، والمجلدات المتنوعة فى شتى ضروب الثقافة الاسلامية من فقه وتفسير وتاريخ وحديث وتراجع أعلام كهذا العصر المديد ! وقد يقال انه تأليف تقليدى فى أكثره ومجال الابتكار فيه ضئيل محدود ، ولكنه مع ذلك صان الثقافة العلمية ومنع فيضانها الزاخر من التبدد فى فلوات شاسعة اذ شق له المجرى الطبيعى واقام الشواطىء والجسور !! ولك أن تنظر الى كتب الطبقات والتراجم لترى لكل عالم من التآليف المتزاحمة ما يدفع الى الثناء!! وهاهو ذا ابن دقيق العيد قد أسهم فى أكثر ضروب

المعرفة تأليفا وتدريسا !! وقد فاق أكثر زملائه بأسلوبه الادبي واهتمامه بالروح البياني مع تعمقه الفقهي ،ورسوخه العلمي ، الى حد أنه تفوق في دراسة مذهبين من مذاهب الفقه هما مذهبا مالك والشافعي ولم يشأ أن يقتصر على وجه واحد بل قارن وعلل ورجح ! وهذا مثل واحد لنبوغه في فرع واحد من فروع العلوم فكيف اذا قرأت ديوان خطبه المنبرية وشاهدت من جزالة العبارة ، ونصاعة البيان ما يستغرب وجوده لعالم راسخ من علماء هذا العصر ، هذا الى هيامه بالشعر - لا على طريقة العلماء ممن يتكلفون البيت والبيتين والثلاثة بل على منهج الشعراء ممن يسعون للجودة والافصاح ! وان عالما يجمع هذه المزايا لجليل رفيع ! أما جرأته في الحق فقد شاكلت جرأة انداده من الائمة الافذاذ ! وقد تعددت مواقفه الباسلة فراعت وأدهشت ، وكان لها أثرها البارز في الاصلاح والتوجيه لان ابن دقيق كان من المهابة والجلال بحيث يستمع الملوك والامراء الى منطقه مكرهين او طائعين ،كما أن عزوفه عن المناصب المرموقة قد أضاف الى عظمته النفسية ومنزلته الاجتماعية ما أكمله وعظمه ، فان منصب قاضي القضاة مثلا يعتبر أخطر المناصب الدينية في دولة تحكم بالكتاب والسنة ، ومع تهافت الكثيرين على تبوئه المشرف ، فقد اعتذر عنه الشيخ آبيا ، ولكن الالحاح المتزايد قد اضطره الى القبول بعد أن اشترط على ذوي الامر شروطا تحفظ للقضاء كلمته النافذة ، وسطوته الغالبة دون تعويق .

تبوأ الامام الورع مكانه القضائي وأصبحت له الهيمنة

التامة على جميع قضاة الاقاليم ، فراى بادراكه النافذ ان أمراء المماليك وخاصتهم يبذلون وساطاتهم المتوالية الملحة لدى القضاة لتأتى الاحكام كما يشتهون ، وعرف ان في بعض ذوى النفوس المترددة من يخضع الى ارهاب امير او بطش مملوك فيوافقه على هواه في مجلس القضاء فراى أن يحسم الموقف حسما لا لبس فيه ، فأرسل منشورا عاما من تأليفه وبتوقيعه ، يدعو الجميع الى التزام نصوص الشرع ، واطراح ما يؤثر على تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات ، وشدد من النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام ، وخوف بعذاب الله ، وجزاء الآخرة . وكان منشوره القضائى مع سمو هدفه ، وروائع توجيهه قطعة فنية ، تجمع الصياغة المشرقة والاقتباس البارع ، وتشهد لفن صاحبها بالابداع والتأثير ، ونحن ننقل منه ما يكشف عن هدفه الخلقى ، وفنه البيانى ليعطى الفكرة الصائبة عن ابن دقيق .. قال رحمه الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم يأيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، هذه المكاتبة وفقه الله لقبول النصيحة ؛ وآتاه لما يقربه قصدا صالحا ودنيا صحيحة ، أصدرنا اليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الاعين ، وما تخفى الصدور ويمهل حتى يلتمس الامهال بالاهمال على المغرور تذكرة بأمر ربك فان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ويحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه بمغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه ،

وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، فانى أخاف ان يتردى فيها فيجر من ولاه والعياذ بالله معه ، والمقتضى لارسالها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الامانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهى نحيفة ، والله ان الامر لعظيم . وان الخطب لجسيم ، ولا ارى مع ذلك أمنا ولا قرارا ولا راحة ، فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فالمحروم من أمله غير مرحوم ، وما انا وانتم ايها النفر الا كما قال حبيب العجمى وقد قال له قائل : ليتنا لم نخلق ، فقال « اذا وقعتم فاحتالوا » .

وقد شاء الله لهذا الناصح المحذر ان يكون موضع الاختبار لدى مسالة دقيقة يتطلب احقاق الحق بها مزيدا من الشجاعة الادبية والعظمة النفسية ، وكان ابن دقيق العيد بازائها عند حسن ظن العلماء الاماثل به : فجلى مبرزا مع العدل ، وقمع الباطل بانصافه فهان واستكان .

لقد كان الملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان مصر سنة ٧٩٧ ، وقد أعطى مملوكه الامير منكو تمر سلطة واسعة اذ جعله نائب السلطنة ، وأخذ يرشحه للقيام بالامر من بعده ، فأخذ الامير ينكل بأعدائه ، ويبعث من الرهبة فى النفوس ، والفزع فى القلوب ما ملأ الصدور حفيظة عليه ، وضيقا به ، ومقتا له ، وكانت له رغبة فى المال تتكاثر فى نفسه بتكاثر ما يجمع ويغصب ، ولايعرف من القناعة ما يرده عن السلب والانتهاب ، لانه فى عصر

يصير به المالك للمال مستطيعا أن يبذل الكثير فى تأييد سلطانه - وجميع الناس حوله ، وشراء الامراء والقواد بالهدايا والذخائر ليكونوا فى موكبه ، ان تم الامر له ، وأصبح ـ بعد وفاة السلطان ـ سيد البلاد ، وكان ابن دقيق يعلم ذلك الشره البالغ فى نفسه ، ويأخذ السبيل على أطماعه ما استطاع ، وقد قدر الامير الماكر مكانة قاضى القضاة وخشى أن يصطدم به فيتعرض الى سخط العامة والخاصة تعرضا يهدم ما بيته من الاصطناع والتودد للناس ، الا أن حبه الاعمى للمال دفعه ذات مرة الى مواجهته راجيا أن يتساهل الشيخ بعض التساهل فيتيح للأمير أن يسلب ما يريد .

وخلاصة القصة : أن تاجرا كبيرا من التجار قد مات وترك وراءه ثروة هائلة ، فرأى منكوتمر أن يدعى أن له اخا سماه وعناه ، وتقدم به الى القاضى ليأخذ الميراث ، فاذا تم ذلك فان الامير يستطيع أن يستولى عليه من الاخ المزعوم لقاء هبة محدودة ، ولكن مواجهة ابن دقيق بذلك ليست من السهولة الهينة فى اعتقاد الامير ، فرأى أن يحتال لذلك ، واختار أحد كبار خاصة الامير « كرت » ووفده الى قاضى القضاة ، فاستأذن مستخذيا وسلم ، فقام له القاضى نصف قومة ، ورد عليه السلام وأجلسه ، فأخذ يتلطف فى الحديث متوسلا الى اثبات أخوة التاجر بشهادة الاميرمنكوتمر نائب السلطنة والمرشح الاول لولاية عهد السلطان !! ولكن ابن دقيق ـ نضر الله وجهه ـ ينظر الى الامير « كرت » مستخفا ، وهو يقول :

ـ وماذا ينبنى على شهادة منكوتمر ؟

فيحمر وجه الرسول ويقول : هو عندنا وعندكم عدل يامولاى !

فيصيح الشيخ : سبحان الله سبحان الله ثم ينشد :

يقولون هـــذا عنـــدنا غير جائز

ومن أنتمو حتى يكون لـــكم عند

وكرر البيت ثلاث مرات ثم قال : « والله متى لم تقم عندى بينة شرعية تثبت أخوة الرجل بغير شهادة منكوتمر فلن اثبتها بحال » .

وراجع الامير كرت نفسه ، فثار عليه ضميره ، وصاح من فوره في مجلس الشيخ : لا اله الا الله ، هــذا هو الاسلام !!

مضت أيام وجاء لابن دقيق العيد من يخبره أن الامير منكوتمر يريد الاجتماع به ، فصاح فى وجهه : قل له ان طاعتك ليست واجبة على . ثم التفت الى من حوله من القضاة ، وقال : اشهدكم انى عزلت نفسى باسم الله ، قولوا له يول غيرى .. قال المقريزى فى السلوك : وعــاد الشيخ الى داره واغلق بابه ، وبعث نقباءه فى مصـــر الى نواب القضاة يمنعهم من الحكم وتوثيق الأنكحة فقبلوا طائعين .

وقامت الضجة فى البلاد ، فقد عزل شـــيخ العلمـاء وقاضى القضاة نفسه من مباشرة أمور الناس وأرسل الى نوابه فامتنعوا عن مجالس القضاة ، وعقد وثائق الزواج ، ووصلت الضجة الى الملك المنصور ، فهاج واضطـرب وجعل يعنف منكوتمر على نزقه وتسرعه ، ثم ارســل الى ابن دقيق يستدعيه فاعتذر ، ولم ييأس السلطان فواصل

السعى وارسل طوائف العلماء والوجهاء الى الشيخ يستعطفونه ويرجونه فى مقابلة السلطان ، وله أن يتمسك برايه كما يشاء ، وبعد لاى ذهب الامام الورع الاشم ، فقابل الملك المنصور ، فتلقاه بحفاوة وفرحة ، وعزم عليه أن يجلس معه على كرسى واحد ، فبسط الشيخ منديله وكان خرقة من الكتان ، فوق الحرير الموشى بالذهب على الكراسى ، ثم جلس فى اعتداد فجعل السلطان يتلطف اليه ويتذلل ، ويرجوه أن يعود الى منصبه القضائى ويحكم بما يشاء ! فقبل بعد جماح .

وانتهز السلطان فرصة قبوله فقال فى توسل : يا سيدى هذا ولدك منكوتمر فادع له الله !!

فنظر ابن دقيق الى منكوتمر وكان جالسا بين الحاضرين فى حال من الخجل تدعو الى الرثاء ، ثم قال : منكوتمر لا يصلح ، لن يجىء منه شىء .

ثم قام لوجهه ، وترك منديله على الكرسى ، فتناول السلطان خرقته البالية واخذ يمسح بها وجهه متبركا ، ثم تزاحم عليها الامراء ، فجعل الملك المنصور يقطعها قطعا ويعطى لكل أمير مزقة يسيرة يلتمس بها البركة والغفران.

قال الراوى : فمن رأى تهافت السلطان على منديل الشيخ ، وتزاحم الامراء على خرقته البالية رأى جلال العلم وعظمة العدل وروعة الايمان ..

ابن تيمية يصدع بالحق

كان ابن تيمية بطلا فذا ، لا يختلف فى بطولته احد حتى خصومه فى الرأى ، والفضل ما شهدت به الاعداء .

ولم يكن هذا العالم المفضال يحارب فى ميدان واحد ، يقصر عليه همه وفكره وقوته . لكنه اتجه بنشاطه الحافل الى ميدانين يختلفان مذهبا واستعدادا، ويجتمعان على نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، وقد رجع منهما ظافرا مرفوع الراية ، تتحدث الاجيال عن بلائه ونضاله وتتساجل الاقلام فى تشريح آرائه ، واذا كان من الناس من لايسير معه فى رأيه فتلك طبيعة الاجتهاد الفكرى ، اذ يجذب الى نتائجه الدقيقة فريقا دون فريق ، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة .

أجل حارب الامام فى ميدان داخلى وفى ميدان خارجى فكان ميدانه الداخلى حافلا بمن يخاصمونه ويشاكسونه من رجال التقليد ، وأدعياء الصلاح والعلم وفيهم ذوو المكانة لدى السلطان فتحرشوا به ، وحرفوا كلمه عن موضعه ، وساقوه الى السجن الظالم والنفى القاهر فما استكان !

اى مجتمع كان المجتمع الاسلامى فى عهد ابن تيمية ؛ لقد كان يزخر بطوائف مختلفة من أصحاب الاراء والمذاهب

يرجعون بها الى الشريعة ولكنها بعيدة عن روح الاسلام، ويسوقون العامة سوقا الى مبتدعات ضالة وانحرافات مريضة ، وقد نظر الامام فيما حوله فراعه أن يرى الخطا فى الفهم ، والانحراف فى السلوك والتزمت فى التطبيق والتكتل مع الباطل فصمم على الجهاد ، وتعرض بمعوله الهادم الى اطواد راسخة تستمد ثباتها من الغفلة والضيق والتعنت ، وما برح يضرب به هنا وهناك ، حتى آذن جهاده بالفلاح .

كان العالم الاسلامى يضطرب بآراء جدلية لطوائف تتشعب وتتناحر من شيعة ذات فرق ، ومن أشاعرة ومعتزلة وجهمية ومن حنابلة ومتصوفة ومن مبتدعة ومقلدة ، ولكل فريق علماؤه ورجاله ، ومعارك الكلام تحتدم فى غير طائل ، وحقائق الأشياء تتبدد فى صحراء مجهل ، فهناك تناحر حول الله وماهيته وماثبت له من الصفات وما يتصل به من الاشياء مثل الاستواء والنزول وخلق القرآن واثبات الصورة والعين واليد والوجه، يرى قوم أن كل ذلك كتابات تؤول ، ويرى آخرون انها جوارح تجسم ، وتدور المعركة على ملأ من العامة فى المساجد ، فيهرفون بما لا يعرفون ، ويتعصب كل سامع لما يميل اليه ، ويطول اللجاج بعيدا عما يجب من صفاء العقيدة ، ووضوحها فتنصرف النفوس عن مجاهدة الأعداء من التتار ، وبقايا الصليبيين ، وينظر الامام فيجد ان المسألة فى حاجة الى حسم ، فيصدع برأيه الصريح ناصرا رأى السلف بعيدا عن التأويل ويثبت لله الاستواء والنزول والعين واليد كما وصف بذلك نفسه ولكن بدون

كيفية او تمثيل او تشبيه ، وانما له يد ووجه وعين لانعلم صورها ويتهمه بعض الخصوم زورا بالتجسيم وتدور الوحى من جديد فلا يقتصر على جهاد الراى بل يلجأ المعارضون الى السلطان فى دمشق والقاهرة ثم يصدرون فتواهم بتجهيل الشيخ وتضليله ، ويلحون فى سجنه ! فيكون لهم ما يريدون !

وينظر ابن تيمية نظرة ثانية ، فيجد طوائف الصوفية قد تمكنت من العامة لا لتسير بها الى القصد الصحيح ، بل لتفرض على دينها امورا دخيلة على الفكر الاسلامى والعقيدة المحمدية فى ذات الله فروضا لم تأت بهذه الشريعة السمحة البيضاء ، واخذوا يتحدثون عن فناء المخلوق فى الخالق او اتحاد الخالق بالمخلوق على نحو فلسفى غامض يترك النفوس قلقة لا تعرف ما تستقر عليه فى ذات الله ، وقد جعلوا اقوال ابن عربى وابن سبعين نصوصا اسلامية صريحة فى هذا المضمار ، وجذبوا اليهم من الاشياع من لا يميزون بين الطيب والخبيث ، حتى طم السيل ، واصبحت عقيدة التوحيد فى مهب الزعازع العاصفة ، وتطلبت من يثبت فى الميدان ليعيد الحق الى نصابه من ذوى الراى النزيه البصير ، فكان ابن تيمية فارس الحومة ، اذ نازل خصومه بالراى والحجة وعقد مجالس المناظرة والمناقشة حتى فزع من خطره ذوو الرياسة من المتصوفين واشياخ الطرق ، ووجدوا من بأس السلطان ما وجده سواهم من اعداء الشيخ ، فتحالفوا عليه ، وعقدوا المجالس لمحاكمته وافتوا بعودته الى السجن

وكأنه مذنب شريد ! ومن العجائب أن يحقق لهم مـــرة ثانية ما يبتغون ، وثالثة الاثافى أن ينظر الشيخ فيجـد قبور الاوليلء تتخذ وسائل توبة لتحقيق الرغائب واجابة المطالب ، فلا ينقطع عنها آمل يلتمس العون من ضـــريح ساكن يرقد به انسان لا يملك فى دنيا الناس نفعـا ولا ضرا ثم يظن به الحول والطول ما يظن بخالق الكون ، ورب الوجود ، فلا ينصرف المسلم الى ربه يرجـــو رحمته ، ويخشى عذابه بل ينصرف الى امل خائب يؤيده رجال لم يفهموا روح الاسلام على وجهه الصحيح ،ولابد لهـــؤلاء من قامع يصيح فى آذانهم الغافلة لتسمع الرأى السديد، ويوقظ عيونهم النائمة لترى الوضع الرشيد ! وقد تحقق ذلك على يد ابن تيمية اذ هاجم أرباب التوسل بالاضرحة والمزارات مهاجمة البت عليه الشر فصابر وثابر وقبـــل المحنة الجديدة قبول أولى العزم من المجاهدين ..

على أن شجاعته الادبية قد دفعته الى معارضة أقوال الائمة من صفوة رؤساء المذاهب الزائغة فى أمور كثـيرة فقد نظر الشيخ الى ملابسات زمانه وظروف عصره وأوانه ثم أتى ببعض ما يخفف العبء ويوهن الاصر من الاحكام كفتواه بوقوع الطلاق ثلاثا مرة واحدة ، وكان موقفـه فى ذلك وما شابهه خطيرا ، لانه يعارض أقوالا صريحة أجمع عليها أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وغيرهم ممـن مضى الزمن بتبجيلهم ورسوخ أقدامهم فى مضـــمار التشريع ، وكانت فرصة ثمينة اهتبلها الخصوم فأثاروا العجيج ورموه ظالمين بالفسق والمروق ..

هذه مواقف جريئة لا يتهيأ لها غير من ظفر بشجاعة

نادرة ، وعقل صائب ، واستنباط غزير ، وقد كشف معدن الامام ، وأبرزت عناصر رجولته النادرة ابرازا يخلب الافهام .. كما كشفت عن خلق العفو والتسامح فى نفسه، وهو خلق لا يتمكن الا من روح كبير .. فقد سعى أعداؤه وتألبوا عليه من كل حدب ، وأغروا به العامة من الرعاع فاعتدوا عليه بالضرب والايذاء كما أجبروا الحاكمين على سجنه وتعذيبه ، ثم دالت الايام فتغير السلطان وجاء سلطان آخر يقدر الشيخ ، ويصدر عن رأيه ، فعرض عليه ان ينكل بخصومه المتشددين جزاء ما انزلوه به من أهوال ولكن ابن تيمية يضرب المثل الرفيع فى التسامح حين يتلطف مع السلطان حتى يعفو عنهم غير ناقم ، وحتى يقول غريمه الاول قاضى المالكية بمصر ابن مخلوق قولته العجيبة « ما رأينا أعفى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا فى السعى عليه ، وحين قدر علينا بادر بالعفو » .

هذا قليل من كثير لاقاه الشيخ فى ميدان الاصلاح الداخلى ، أما ميدانه الخارجى فقد حفل بالروائع فى مجالدة الباطل على شراسته ومناواة الطغيان على جبروته واليك بعض ما كان !!

حين هزم المصريون جحافل التتار فى موقعة « عين جالوت » تقهقروا الى ديارهم خائبين منهزمين ، وكانوا يعضون على شفاهم غيظا من هؤلاء الذين أذاقوهم كئوس الهزيمة لاول مرة فى حياتهم المليئة بالفتك والتخريب ويتحرقون ليوم قريب يثأرون فيه لكرامتهم الجريحة وشرفهم الذبيح حتى كانت سنة ٦٩٩ فتأهب ملكهم قازان لاحتلال الاراضى الشامية تمهيدا للوثوب على بلاد النيل،

وجمع جنوده الزاحفة كالسيل لا تذر من شيء أتت عليه الا حصدته بالسلاح والنار ، فذعرت طوائف كثيرة وسلم فريق من أمراء الشام بلادهم مرغمين فزعين ، وكان السلطان التترى يتظاهر بالاسلام ، ويصحب معه المؤذن والقاضي والامام ، ثم يسلط سيفه على الرقاب المسالمة فيقطعها في غير ايمان ،وعلى الدماء البريئة فيريقها انهارا فى ساحات القتال ، وبذلك يفعل ما لا يقول ، حتى وصل بجنوده الى « البتك » وفتحت دمشق أبوابها للقائه ، فعز على ابن تيمية ان يرى هذا الطاغية يتجبر فى الارض تحت ثياب الاسلام وهو اما كافر أو فاسق ، فلم تهدأ له نفس وصمم على لقائه متحديا جبروته ومعه فريق من أعيان الدمشقيين ، فيميل قازان الى المداهنة ويبدأ بتقديم الطعام الى الوفد فيأكلون هائبين ويمتنع الشيخ عن الطعام فيسأله السلطان :

ـ لماذا لا تأكل أيها الشيخ ؟!

فيرد ابن تيمية فى عناد : كيف آكل من طعامكم وقد طهيتموه من اغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ولا ملك لاحد لكم فيه !!

فيضطرب قازان مأخوذا ويقول : ولكنى مسلم أيها الشيخ .

فيجيب ابن تيمية فى جراة : لقد سلطت ملك الكرج الصليبى على المسلمين ودفعت له السلاح والجند ليقاتل بنى الاسلام ! فأين كان دينك حين ذاك ؟؟

بهت الطاغية وبحث عن رد ينقذه فلم يجد غير أن يقول انا مسلم ومعى مؤذن وقاض وامام ! !

ولكن ابن تيمية عاجله بقوله :

ـ وماذا تفعل باسلامك وقد كان أبوك وجدك كافرين ولم يفعلا ما فعلت ، لقد عاهدا فوفيا ، وأنت عاهـدت فغدرت .

ان للحق لرهبة ترعد النفوس وتكبل الايدى ، وقـد غلبت هذه الرهبة المفزعة نفس قازان ، فنكس رأسه ، واندفع يطلب من ابن تيمية الدعاء ، وكان لدى الامـــام سياسة وكياسة فرفع يده يقول : « اللهم ان كان عبدك هذا انما يقاتل لتكون كلمتك هى العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وايده وملكه البلاد والعباد ، وان كان قام رياء وسمعة طلبا للدنيا ولتكون كلمته هى العليا وليـذل الاسلام وأهله فأخذله وزلزله ودمره واقطع دابره » !!

ثم خرج مرفوع الرأس وأصحابه يقولون له فى اشفاق:

ـ كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك ، والله لا نصحبك بعد هذا .

لا أريد أن أتتبع هذه الحقبة من التاريخ فأسود ما كان من أمر قازان ، ولكنى أقصر الحديث على جـرأة الشيخ وحدها فأذكر أنه رجع الى دمشق ليشجع الناس عـلى القتال ، وليقود الفقهاء فى ميدان التدريب الحربى على أعمال الفروسية والجهاد ثم تمضى الايام فيعود العدو من جديد فيهب ابن تيمية للنضال ويتقدم الصفوف طالبـا للشهادة ويحرج السلطان الناصر محمـــد بن قلاوون والخليفة من هول الموقف ، ولكن ابن تيمية لا ينكص بل يشعل الحماس حتى تتجلى المعركة باندحار الاعـــداء ، ويعرض عليه الملك الناصر بعض الهبات فيترفع عن ثمن ينتظر أضعافه حين يلقى الله .

هذا موقف حربى فى جبهة القتال يذكرنا بموقفه من أهل جبل كسروان بالشام حين استباحوا الحـــرمات وحالفوا الاعداء ، وتعرضوا الى الحجاج يقتلون ويذبحون ويسلبون ! فتوجه الشيخ الى قتالهم وكتب الى أطراف الشام ، ودعا نائب المملكة الى نصرته ، وأفتى بأنهم أكفر من اليهود والنصارى ، ثم ثبت للهول فى محن خطـيرة حتى أراح المسلمين وأمن الطريق ، أما موقفه النادر من الملك الناصر فما لا تغفله ذاكرة التاريخ بحال . لقد سعى الواشون يرجفون لدى السلطان أن ابن تيمية محبوب وانه يجاهد ويغزو ليسلب الحكم ، وكان فى النـــاصر تسرع واندفاع فبادر يدعو الشيخ ويسأله مغيظا : لماذا تجمع حولك الناس ؟

فيرد الشيخ : لنصرة الاسلام كما ترى ورأيت .

فيحدق السلطان فى وجهه ثم يصرخ : بل تتوق الى الملك وتسعى اليه فى وضح النهار .

فيبتسم ابن تيمية متعجبا ، ويقول : والله ان ملكك وملك المغول لا يساوى فلسا لدى !!

فينكسر السلطان ويبادر بالاعتذار .

لقد اعتصم الامام بالحق فعصمه من الطغاة !! وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

قضـاة المـذاهـب والسلطان الغـورى

لم يكن قانصوه الغورى وقد شارف الستين من العمر يظن انه سيصبح سلطان البلاد ، تسلم له القيـادة عن رهب وامتثال ، فالرجل قليل الحول ، ضعيف الاتباع، وهناك من الامراء الافذاذ من يجمعون حولهم الحشـود والعدد ، ليفوز أعظمهم خطرا بسلطة الديار ، فالتزاحم على اشده بين ذوى القوة من مماليك الجركس ! ومـاذا عسى ان يصنع شيخ كبير لا يقاس حوله بأقل المتنافسين خطرا ومهابة ، ولكن هذا الحول الضعيف كان عامـل الترجيح فى اختيار قانصوه ، لان المتزاحمين الاشاوس قد تعادلت بهم القوى فى كفة واحدة ، ولم يسـتطع أحدهم أن يميل ببعض الضغط الى كفته فاتفقوا عـلى تولية قانصوه كحل مؤقت للصراع الملتهب ، فالرجـل شيخ مسن لا يظن أن الزمن سيتنفس بعمره غير مـدى محدود ! وفى مكنة كل أمير أن ينتهز بقاءه المحـدود فرصة مواتية ليحصن قلاعه ، ويميل بمركز الثقل الى جانبه ، لذلك فوجىء السلطان الغورى ذات يوم مفاجأة صعبة ، حين تقدم اليه الاميران الخطيران مصر باى وقيت الرحبى وهمـا أبرز المتصارعين جميعـا على السـلطنة يطلبان منه أن يلى العرش عن سماحة واقتناع ، وارتعد

الشيخ وتخاذل اذ انه يعرف أن هذا المنصب الخطير محاط بالمؤامرات والدسائس . وهو بعد قليل الصبر والحول فلا يعدم من يثور عليه فجاه ، فيسيل دمه هدرا دون موجب ، وقد عاش بعيدا عن هذه المؤامرات المملوكية طيلة حياته ، فلماذا يقف فى مهب العاصفة بعد الستين ! وطال امتناع الرجل وتأبيه ، حتى التهبت حماسة الحاضرين ، فأقسموا على المصاحف أن يطيعوا السلطان وألا يفكر احدهم فى التآمر والاغتيال ، وبكى الشيخ طويلا وهو يرتدى الجبة البنفسجية والعمامة السوداء مما يسمونه شعار السلطنة ، ثم يركب فرسه الاصيل ومن فوقه المظلة السلطانية ذات الطيور الفضية يحملها فى ركابه الامير قيت الرحبى نفسه ! وسار الموكب السلطانى ، وفى نفس الشيخ خواطر وشجون !

وقد أظهرت الايام ان تباكى الشيخ كان خديعة ماكرة يعرف بها من أين تؤكل الكتف ، فقد عمد الى مسلك حاذق يوطد به دعائمه ، اذ أوهم كلا من مصرباى وقيت الرحبى أنه يمهد لسلطانه !

وأخذ يخلو بكليهما خلوات مغرضة حيث يملى لهما فى الامانى ، ويخلق من الحيل ما يخدم سياسته ، حتى أوهم قيت الرحبى أنه بسبيل التخلص من مصرباى لاجل خاطره ، فمال المخدوع الى طلائه وساعد على استئصال شأفة غريمه ، واذ ذاك اخذ الغورى يلوذ بأتباع مصرباى ، مستعينا بهم فى الخفاء على قيت ، حتى تم له التخلص منه ايضا ! وأصبح سيد الموقف دون

شريك ! .

ولئن كان تاريخه السياسى فيما بعد ذلك من الذيوع والاشتهار ، بحيث لا يخفى عن الدارسين فاننا سنمين بالحديث هنا الى ملكات الرجل العلمية ، ومكانه فى الادب والشعر ، فقد تناقلت عنه فى ذلك مبالغات مغرقة ،وكنا بصدد تصديقها لو لم ينشر الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله طرفا من مجالسه الادبية ، كما دونها اثنان من كبار مريديه ، فهذه المجالس وحدها تحدد مركز السلطان العلمى ، ولن نحكم عليها بثقافة عصرنا الراهن فهى بازائه لا تسرى شيئا بالمرة ، ولكننا حين نحكم عليها بثقافة عصره المملوكي نجدها لا ترتفع أيضا الى مستوى مشرف ، واكبر الظن أن الدكتور عزاما قد نشرها ليعرض على الناس صورا من تفكير السلاطين فى بعض العصور السالفة ، لا ليرى بها مظنة استفادة وتثقيف ! وحسبها أن تكون وثيقة تاريخية ينتفع بها فى تشخيص البيئة المملوكية من ناحية ، والعقلية السلطانية من ناحية أخرى ، وان كان الشيخ حسن بن محمد الحسينى وهو أحد من دونا هذه المجالس ، يذهب فى تقدير السلطان من الجهة العلمية تقديرا لا يستبعد اغراقه من متجول يتكسب بلقاء الملوك فهو يقول عنه بعد ثناء حفيل :

« وكل هذه الاوصاف والمناقب بما قرن به من محبة العلم والعلماء ، والتفتيش عما وضعته الحكماء فى كل نوع من العلوم ، لو يقول البشر فى وصف هذا المظهر انه هو سلطان العلماء المحققين ماهو كذب فى حقه ، أو

يقول فى مدحه أنه سلطان العارفين ماهو عيب فى وصفه»
واذا كان قول الرجل انه سلطان العلماء المحققين مبالغة
فيما نسب اليه من العلم فان قوله سلطان العارفين
بمدلولها الصوفى مبالغة مضحكة فيما ينسبه للرجل
من المعرفة الربانية والولوع الالهى ! اذ أن ما أغرق فيه
مصر من المظالم ومصادرة الاموال وسفك الدماء ،
والاستخفاف بأقدار الناس حتى أنه كان يفرض على
الخليفة المستمسك بالله آلعباسى أن يركع أمامه ويقبل
الارض بين يديه ! ويدعى بعد ذلك أنه يستمد السلطنة
من تأييده الروحى ! كل ذلك لا يجعلنا نقبل ما سطره
رواة هذه المجالس من جامعى البدر وآكلى الموائد الا
بتهوين كثير ...

وسنعرض الآن حادثة تاريخية كان لها صداها الرنان
فى عصره ، لنستدل بها على مبلغ تضلعه الفقهى تارة
ومدى احترامه لنصوص الشرع تارة ثانية ثم لنسجل
بها عظمة نفر من العلماء لا يخشون فى الحق لومة
لائم ، بل يجبهون السلطان فى مجلسه بما يردع أهواءه
فتثور ثائرته ، ويعلن نقمته ، ثم يخرجون من مجلسه
وقد اخلصوا ضمائرهم لله صادقين !

لقد نمى الى « صاحب الحجاب » وكان يقوم بمهمة
مدير الامن فى المحافظة ، أن رجلا من الناس يأتى بيت
صديقه فى غيبته وانه على صلة منكرة بزوجته ، فأخذ
الحاجب للامر اهبته وراقب المنزل حتى داهم الصديق

مع معشوقته ، ومازال بهما ضربا وتبريحا حتى أقرا بالفاحشة ، واذ ذاك حملا معا على حمارين وطيف بهما فى ملأ من الصبية والرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس جريا على المألوف من تقاليد هذا العصر ، ثم فرضت عليهما غرامة فادحة قاما بأدائها فى أسف نادم وخزى شنيع ! وكان من الميسور أن ينتهى الموقف دون أن يعقب صداه فى دائرة السلطان !

ولكن بعض الذين يحبون أن تشيع أصداء الفاحشة فى كل مجلس ! حتى فى مجلس الغورى نفسه ! قد نقل الى الرجل ، وهو — بعد — ليس غريبا عن سمعه ، فقد راى امثاله فى عمره المتطاول ، ولكن الناقل المغرض أردف ذلك بانه يأمل أن يصدر السلطان امره برجم المذنبين فيكون أول من احيا شريعة الاسلام من المماليك ! وقد راقت الفكرة لدى الغورى فحول المسألة الى القضاء وطلب أن يصدر قرار الرجم سريعا لتقوم به الدولة على ملأ مشهود يحضره السلطان !

وقد طار النبأ الى المذنب المسكين فأشار عليه بعض ناصحيه أن يعدل عن اقراره لانه اعترف بالزنا تحت سياط الحاكم ، والرجوع عن الاقرار حتى ولو لم يكن مع الاكراه بل لدى الاختيار الكامل يمنع الحد كما اجمع عليه العلماء ، ولهم بصدد ذلك نصوص واقيسة ووقائع لا تقبل التأويل !! وقد أثمرت النصيحة ثمرتها فرجع الرجل عن اقراره ، وكتب صاحبه فتوى طاف بها على

العلماء بهذا الشأن فأجابوا جميعا بتوقيعاتهم الواضحة وأعلنوا ان الرجوع عن الاقرار يسقط حد الزنا دون نزاع ! وكان من الطبيعى أن ينتهى الامر للسلطان ، ولو كان ذا بصر فقهى لادرك مغزى الشارع العادل فى هذا الحكم الصائن ، ولعرف ماروى عن ماعز وغيره ممن راودهم الرسول على الانكار ، مؤكدا أن مجرد الرجوع يمنع الحد !! فالاسلام لا يريد اشتهار الفاحشة بل يحاصرها فى مكانها الضيق بعد أن يتعقبها تعقب الحريص الدءوب فاذا نزوة طائشة من بعض المتهورين كان من الصون للجماعة الاسلامية بأجمعها أن تدرأ الحدود بالشبهات فلا تفاجأ أمة القرآن كل حين بمرجومة ومرجوم ، وفى التقرير ما يكفى للتأنيب والردع ! تلك هى وجهة الشارع ملخصة فى سطور يعوزها البسط والتحليل - اذ ليس مجالهما هذا المقال - نقول لو كان الغورى ذا المام بنصوص الشرع ما ارتكب الشطط حين صمم على الرجم ، ودعا القضاة والعلماء لمناقشة الموضوع فى مجلس خطير تصدره السلطان !! واكتنفته الاسنة والحراب . كان العلماء على بينة مما يحاك ، فأجمعوا أمرهم على أن يقولوا كلمة الحق دون مبالاة وكان شيخهم الاكبر زكريا الانصارى عضدهم فى حومة الجدال ، وثقوا فى همته واطمأنوا الى مؤازرته فله من المكانة فى بلاد الاسلام والرسوخ فى علم الشريعة والاستاذية لمن تلاه من الشيوخ ، والمؤلفات الذائعة فى شتى العلوم مع ما اشتهر عنه من النزاهة البريئة فى القضاء والسيرة العاطرة

فى الناس ، والسعى الدائب فى الاصلاح .. له من ذلك كله مالا يستطيع السلطان أن يعصف به فى مجلس علمى يعتمد على الحجة ويلوذ بالدليل ، والحق أن رأى شيخ الاسلام زكريا الانصارى فى هذه القضية مما صعب على الغورى أن يهجنه ببعض التحامل أو الادعاء فقد اجمع من كتبوا سيرة الشيخ الاكبر على ثنائه وتقديمه ، الا كلمات خطها السخاوى فى ضوئه اللامع وهى من التناقض والتأرجح بين الحمد والمؤاخذة بحيث تكون فى مجموعها حجة لشيخ الاسلام ودليلا على تحامل المؤرخ الصديق كما يصف مودته للاستاذ ! واى عظيم سلم من السخاوى حتى يسلم منه الانصارى على جلاله وبعد مرقاه ! لقد ادخر الحق لخذلان الغورى سهاما صائبة وقد فتح لها صدره فى غطرسة كاذبة حين دعا العلماء الى النقاش وفى مقدمتهم شيخ الاسلام .

كان المجلس رهيبا رائعا . وقد شاء السلطان أن يوجه كلامه لزكريا الانصارى بادىء ذى بدء بعد أن نظر فى غضب الى من حوله من العلماء ، فصاح فى غضب :

ــ كيف ياشيخ زكريا بضبط رجل فى منزل صاحبه مع عشيقته ويقر بالجريمة ثم يتـــراجع فتقرون انتم بالرجوع !

فسكت زكريا الانصارى قليلا ، وقال أحد تلاميـذه من القضاة فى اعتداد : « للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه ، وقد كان رسول الله يراجع المعترفين فيقول لاحدهم لعلك كذا ولعلك كذا ليفسح له السبيل » !!

فاحمر وجه الغورى وتوقدت عيناه من الغيظ وصرخ

يقول انا ولى الامر ، لى الحق فى اصدار الحكم بالرجم وليس لكم أن تقفوا امامى باسم الدين .

فانبرى قاض متحمس يقول : نعم لك الحق أن تصدر الحكم اذا كان متفقا مع الشرع الكريم فاذا أصررت على رجم المتهمين فأنت مذنب وعليك ديتهما .

ارتج المجلس الحاشد ، اثر هذه العبارة ، ارتجاجا عنيفا ، فأظهر بعض أمراء المماليك كلمات نابية منكرة ، وتطور أحمقهم فسحب العالم من ثيابه ، واجبره على الخروج ، أما السلطان فقد وقف مغيظا يضرب الارض بقدمه ، ويلوح بسيفه مهددا متوعدا ، وقد ندت منه عبارات ما كانت تصدر من شيخ محنك كبير ثم التفت الى الشيخ زكريا وصاح وانت ياشيخ الاسلام ما تقول فرد زكريا الانصارى ، وكان قد جاوز التسعين ، لكنه احتفظ بقوة الاداء ، وارتفاع الصوت وكأن الحق أعاد اليه شباب حنجرته فقال :

ــ ان الرجوع بعد الاعتراف يسقط الحق ، وجمهور الائمة على ذلك ، وفى مقدمتهم صاحب المذهب رضى الله عنه .

فاظهر السلطان استهزاءه ، وصاح متهكما : هل هذا ما ترتضيه ذمتك ياشيخ الاسلام !

فرد الاستاذ زكريا الانصارى تقول فى لباقة : ليس هذا ما ترتضيه ذمتى وحدى ولكنه ما ارتضته ذمة ساكن مصر الامام الشافعى ! صاحب المذهب وذمته الشريفة لا تقبل التجريح بحال ! .

فزاد غضب الغورى ورد متعجلا : انت شيخ قد

كبرت وضعف عقلك ، أما انتم ايها القضاة فلا احب ان أراكم بعد الآن ، وقد عزلتكم جميعا عن القضاء !.

وخرج السلطان مزبدا سابا لاغيا فانفض المجلس اسوأ انفضاض !! ثم هتف الغورى ببعض اعوانه فأصدر امره بمصادرة أموال البعض ، ونفى البعض الآخر الى الواحات وضرب نائب مذهب الشافعى الشيخ الزنكلونى مع اولاده بالعصا ، حتى كادوا يموتون لانه فى اعتقاد السلطان قد هيأ للمتهم سبيل الرجوع عن الاعتراف وبذلك أمكن القضاة من معارضته على رءوس الاشهاد .

أما المتهمان فقد صدر الامر بشنقهما علنا وتعليق جثتيهما يومين كاملين ليرى الناس فى مصر قلة حيلة القضاة وهل استطاعوا أن ينتصروا على السلطان !!.

هذا وقد لبث الشعب المصرى يتحدث زمنا غير قصير عن هذه المشادة المحرجة ، فأذاعت الجماهير مختلف النكات عن الغورى واخذت تتحدث عنه بما برعت فيه من اساليب التورية والفكاهة ،وكان كل ذلك يصل الى السلطان فيزيد من أزمته النفسية ولكنه لا يستطيع أن يتخذ اجراء رادعا لان الكلام ذو وجهين ، ومحاولة التحقيق فيه مما يثبت الوجه المذموم فى الاسماع ، فيعظم تداوله ، ويساعد السلطان بذلك على اذاعة ذمه ، فيحقق ما يبتغى مناوئوه .

بنى مسجده الشهير بالغورية ، وانفق من الاموال المصادرة فى تشييده وزركشته ما كان موضع حديث الناس ، وقد سئل عن جدواه فقيه ممن اضطهدهم السلطان فقال فى ملأ من الناس انه المسجد الحرام !

فضج الجمهور بالتصفيق ، وطار النبأ الى الفـــورى فانفجر غيظا ، وأمر باحضار الفقيه ليؤاخذه على قولته وكان المتهم لبقا فقال فى ثبات : أردت انه شبيه بالمسجد الحرام فى مكة وعلى الناس أن يخصوه بالتعظيم والاجلال، فهز الفورى راسه وقال فى ضيق : لقد أردت شــيئا آخر أيها الخبيث !

فنظر الفقيه فى شجاعة وقال : لماذا يحاول السلطان ان يحرف كلام الناس !

فكظم الفورى غيظه وصاح به : لا أريد ان ارى وجهك بعد الآن .

ومضت الايام فاذا حادثة القضاة مفخرة باهرة تسجل فى كفاح العلماء ، فتصبح مثلا خلقيا فى الاعتداد بالحق ومجابهة الطغيان !

علماء الأزهر يرهبون المماليك والأتراك

كان علماء الازهر في الفترة التي سبقت الثـــورة الفرنسية ، كما كانوا فيما تلاها من الازمات زعماء الشعب والسنة دفاعه ، يرون ظلم المماليك الطاغي ، وتجبر الولاة العثمانيين فيتقدمون الجموع ، ويقودون الثـــورات ، ويرسلون كلمة الحق في الاصلاح والعدل ، ولا تهـــدأ نفوسهم حتى يرتفع البغي ، وينتصر ما طالبوا به مـــن انصاف ، واذ ذاك تستريح ضمائرهم المؤمنة ، فيهدءون ويقرون !

وقد قرأت في كتاب سيرة عمر مكرم للمؤرخ الاديب محمد فريد ابو حديد فصلا فيما يدور حول جهاد علمـــاء الازهر ، وكفاحهم في تحقيق العدالة وقمع الفسقة من الحكام ، وقد جعل مؤلف الكتاب عنوان موضوعه « جهاد الشعب في القرن الثامن عشر » اعتقادا منه أن علمـــاء الدين بالازهر هم السنة الشعب المعبرة ، وزعماء الامـــة يصدرون عن رأيها ، ويقودونها الى شواطىء الامن حـين تهب الزعازع الباغية ! وذلك ما كان في عهد تنمر الطغاة من امثال علي بك الكبير ومحمد ابي الذهب حتى جـــاء مراد وابراهيم فبلغ السيل الزبى وجاوز الطغيان مداه .

وسنعرض هنا نماذج مختلفة من كفاح بعض هؤلاء السادة مستندين فى أكثر الغالب الى ماذكره الاستاذ فريد مع زيادات هامة من تاريخ الجبرتى رأينا الضرورة تلح فى سردها بايجاز ، لتتضح صور الجهاد على وجهها الصحيح !

وأول من نشير اليهم من هؤلاء الاعلام الشيخ على الصعيدى فقد كان ذا مهابة توجب على على بك الكبير ان يقبل يده وكان الشيخ يمنع شرب الدخان ويفتى بتحريمه فصار على بك يحرص على أن يخفى أدوات التدخين اذا علم بمجيئه خشية من غضبه ، وكان الناس يلجئون اليه اذا مسهم الضر فيسجل شكاواهم فى صحيفة خاصة ، ويتحدث مع الحاكم فى كل شكوى على حدة ، ولا يلقى بالا لتضايقه البارز فى قطوب وجهه بل كان يصيح فى وجهه قائلا : « لا تأسف فالدنيا فانية ، وسيسألنا الله عن تأخرنا فى نصحك ان لم نفعل » ثم يمسك بيده قائلا : « أنا خائف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب » !

وقد لاحظ تلكؤا فى اجابة بعض مطالبه ، فخرج غاضبا ، ونفر الناس وراءه ، وارتبك الامير فحاول اللحاق به معتذرا ، فأصر الشيخ على الا يعود واخذ يتلو قول الله : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

أما الشيخ الدردير فقد جابه الطغيان فى مواقف كثيرة ، ونترك للاستاذ محمد فريد ابو حديد أن يتحدث عن بعضها اذ يقول :

« بعد مضى سنة واحدة من حكم الطاغيتين ثارت مسألة

فى خلاف على وقف ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطـــر خاص ، بل كان القصد منها نضالا على مبدأ قانونى وهو : هل يجوز للأمير القوى أن يدل بقوته ويثور على القانون ؟ أو لابد من الخضوع للقانون ، ولو كان خصمه ضـعيفا لا سند له من سلطان الدولة ، وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب وأمير من كبار الامراء من عصابة الطغيان، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة ، فلجأ الى القضاء ولوح الامير القوى بالقـــوة والبطش وحكم الشرع للرجل الضعيف ، فأبى الأمير الاذعان للحق ، واصبح الأمر معلقا بين أن ينتصر القانون وبين أن تجتاح القوة كل حرمة وكل سياج ، فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم « وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه » بالمحافظة على القـانون والحق ، ولم يترددوا لحظة بل ذهبوا لنداء الواجب ، وتصدر فيهم زعيم اسمه الشيخ الدردير رحمه الله وطيب ثراه ، فارعد الامير وابرق ، وارغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، فوقف العلماء وثبتوا وارغوا وازبدوا كذلك ، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم وكانت مظاهرة كبيرة فاغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة ، واوشك الامر ان يؤدى الى فوضى شاملة ، لولا أن جزع عقـلاء الامراء من ذلك الاضطراب ، واشفقوا من تلك الحال ، فاجتمعوا وتشاوروا وارسلوا الى الامير فلاموه على وقفته وامروه بالنزول على ما أراد القانون ، فاذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يدعوا الامر يفلت من ايديهم بغير حق مسجل يكتبونه للناس ، فطلبوا ان تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب ، وكتب لهم صلح رسمى

به شروط على الامراء ، وتعهد من الحكام بالتزام مايقضى به القانون ، وما يحتمه العرف » .

هذا موقف من مواقف الشيخ الدردير ذكره الاستاذ فريد ، وله مواقف أخرى كثيرة نراها فى تاريخ الجبرتى ولعل اهمها موقفه من الامير يوسف الكبير حين منع الاوقاف الخيرية عن طلبة العلم من المغاربة ، فرفعوا الشكوى الى القاضى فحكم لهم بما يستحقون ، وكبر على الامير أن يذعن فكتب الشيخ الدردير يطالبه بالاذعان ، فطغى وبغى ورفض الطلب محتقرا من حمله ، فكان ماتحدث به الجبرتى حين قال :

« ووصل الخبر الى الشيخ الدردير واهل الجامع ، فاجتمعوا فى صبحها ، وابطلوا الدروس والآذان والصلوات واقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الامراء » وكانت وقفة عصيبة رجع فيها الحق الى أصحابه على أيدى علماء الدين وفى مقدمتهم الاستاذ الدردير .

هذا الغضب للحق قد رفع مكانة العلماء ، وجعلهم يواجهون الظالمين بما لم يتوقعوه ، وقد تحرج النقاش فى بعض الحقوق بين مملوك ظالم وعالم غاضب فقال المملوك متوعدا : « والله لاكسرن راسك » فصرخ فى وجهه العالم يقول متحديا : « لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » وهاجت الائمة فتقهقر الامير يعتذر . .

ولم تكن مكافحة العلماء للطغيان منحصرة فى نطاق

المماليك وحدهم بل كانت تتعرض لكل ظلم يقع أيا كان مصدره ، بل انها تهاجم أوامر السلطان فى تركيـــا . وتسفه رأى الوالى حين يهم بتنفيذ ما أمر به من اغتصاب وذلك ما يهدم الدعوى القائلة بأن رجال الدين فى مصر قد عاونوا الاستعمار التركى باغضائهم عما يقوم به من طغيان، اذ أن حقيقة الامر هى أن علماء الازهر كانوا يؤمنـــون بالخلافة الاسلامية كفكرة ، ولكنهم يفرقون فرقا مستنيرا بين ما يجب أن تسير عليه الخلافة فى ظلال الاسلام من عدل ومساواة وبين ما انحدرت اليه على أيدى العثمانيين من شره وارهاب ! وقد هالهم أن تكون الخلافة العثمانية شعارا للظلم الصارخ باسم الدين فكانوا يقرءون ما يفـد من المنشورات ويطالبون بترجمتها الى اللغة العربية ثم يصدرون رأيهم القاطع دون استخذاء .

لقد أرسل السلطان التركى سنة ١١٤٨ أمرا خاصـــا بالغاء بعض الاوقاف الخيرية ، مطالبا بوجوب نقلهـــا الى دائرة الوالى ، ليضيفها بالتالى الى مايرسل الى الآستانة من الاموال ، وانعقد مجلس الديوان ، فقرأ القـــاضى العثمانى منشور الخلافة ثم عقب عليه يقول : « أمـــر السلطان لا يخالف وتجب طاعته بنص الشرع الشريف » ولكن الشيخ سليمان المنصورى ، أحد أعضاء المجلس من علماء الازهر ــ يقف فيقول فى صراحة :

« ياشيخ الاسلام ، هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان ، وفعل النائب كفعل السلطان ، وهــذا شىء جرت به العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداوله النـــاس ورتبوه على خيرات ومساجد واسبلة فلا يجوز ابطـــال

ذلك ، واذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر الموصد لها ذلك ، فلا يجوز لاحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطله . وان أمر ولى الامر بابطاله لا يسلم له ، ويخالف أمـره لان ذلك مخالفة للشرع ، ولا يسلم للامام فى فعل يخالف الشرع الكريم ! » .

يقول الاستاذ محمد فريد ابو حديد ، تعليقـا على هذه الحادثة الجريئة : « وقد كانت وقفة الشيخ الجليل سببا فى عدول الحكومة عما كانت عازمة عليه ، ولا يسع الانسان الا الاعجاب بمثل هذه الدقة فى القول ، وهـذا الاتزان فى المنطق ، وهذه الجرأة فى الحق ، كما لا يسع من يسمع مثل هذا القول أن يدعى آن صوت مصر لم يكن قويا فى أندية الحكم ودواوينه ، بل ان مثل هذا القـول ينم عن يقظة الشعب وانتباهه الى المحافظة على الحقوق وتقدير حكام مصر لرأى هؤلاء الممثلين الاجلاء ، هـذه واحدة للشيخ المنصورى تذكر معها ثانية الشيخ العروسى فى مواجهة قواد تركيا وأعيان الدولة المسـتغلة من العثمانيين .

فقـد اجتمـع مجلس الديوان ليقر ما يطلبه الوالى العثمانى من اقتراح الاستعانة بجنود من الترك يحاربون المماليك فى الصعيد ، فصاح الشيخ العروسى منـكرا ما يأخذه هؤلاء الاغراب من الاموال حين يقدمون .

فكظم الباشا غيظه وقال : هذا راى السلطان ، وشرع يقرأ فى منشور باللغة التركية ، ولكن العروسى لا يسكت بل يقول فى حدة :

ـ أخبرونا عن حاصل الكلام ! فاننا لا نعرف التركية.

فيترجم المنشور ويفهم الشيخ أن الدولة التركية تريد ان تستنزف أموال المصريين مدعية أنها تتهيأ بها لحرب المماليك ، فيتهكم العروسى غير عابىء ويقول فى اعتداد :

« اننى لا أعبأ أن يكون الحاكم من العثمانيين او من المماليك انما أبحث عن مصالح الناس وأموال المسلمين »
ثم يلتفت الى الحاضرين من الاتراك ويصيح : اخرجوا اليهم للحرب ساعة فاما أن تغلبوا أو تغلبوا ،وسنستريح من الجميع !

ويغضى الوالى والقائد مطرقين !

وبعد افليست هذه زعامة باسلة ؟ ثم الا تعد مع ذلك نموذجا رفيعا لورثة الانبياء ؟

عبدالرحمن الجبرتي يهاجم الطغاة

العاقبة للحق ، قضية صادقة ، تبرهن عليها حوادث الدهر ، وتنطق بها حقائق التاريخ وسيرة الجبرتي دليل ثابت يؤكدها أبلغ تأكيد ، فقد وقف الرجل حياته على الانصاف والعدالة فيما يسطر من حادثة أو يرى من عظمة والمنصفون في كل زمان هدف للعسف البالغ ، والاضطهاد الاثيم ، ومن الطبيعي أن ينال الجبرتي ما يترصد زملاءه الصادقين من بغي وتهديد ، بل أن ماناله في حياته وبعد مماته كان أعنف قسوة مما لحق سواه . فقد عاش الرجل في ثلاثة عهود مختلفة . تعاقبت منذثرة بما لا يقره من العنف والارهاب ! فرصد نفسه لمناواة الباطل مناواة سافرة صريحة ! عاش في عهد المماليك الغاشم فـرأى المسرح الرهيب الذى تمثل عليه أدوار السلب والنهب والاغتيال ، وشاهد الدسائس والمؤامرات تحاك في غبش الظلام ، حتى اذا انبثق الصبح تفجرت عن مآس نكراء تتفتت لها الاكبار ، وعاش الرجل في عهد الثورة الفرنسية ، فآلمه أن يرى أعداء بلاده يلوثون مياه النيل بمآثمهم الفاضحة ، ويحاربون مبادىء الاسلام بما يريقون من خمر ، ويعطلون من شعائر ، وينتهكون من

حرمات ! وكانت ثالثة الاثافى أن يستبشر خيرا بتولية محمد على ، نزولا على رغبة الشعب ، حتى اذا ما تمكن سلطانه انقلب على شيعته ؛ ومثل الادوار السابقة التى قام بها سابقوه ، فاغتال وسلب وذبح وأرهب ، والمؤرخ الحزين يرى الايام لا تتمخض الا عن كل منكر أثيم ، فلا يسعه الا أن يسجل ما تقع عليه عيناه ملتزما نزاهة المحايد ، وعدالة المنصف ، والحاكمون من الطغاة لا يقنعون بغير الثناء الكاذب والاطراء المموه ، فاذا نظروا الى صحيفة أعمالهم فى مرآة الجبرتى فانما يتفجرون غيظا ، ويثورون انتقاما وحفيظة ، وينصبون من مخاتلهم الحاقدة ما يحيل الحياة فى عينى صاحب الحق ظلاما دامسا تتخلله العقارب والهوام ، وتكتنفه المخاطر والحتوف ؛ وهكذا كانت حياة الرجل ، ولا سيما فى عهدها الاخير ، فقد ترصدته مكايد محمد على حتى ختمت حياته ختما أليما سنتعرض له آخر هذا البحث ببعض التفصيل .

مات الجبرتى ؛ ولكن الارهاب لم يكف عن اضطهاده فى قبره ، فقد أضرمت النيران فى منزله ، لتأتى على كل ما سطره من مسودات تفزع وتخيف ، ثم امتد الارهاب الى كتابته فصودرت مخطوطاته ، ومنع تداولها وأوعز الى المنافقين من الكتاب بنقدها وتجريحها ، وقد يتحذلق ناقد مغرض فيقول ان كتابة الجبرتى ليست تاريخا تربط معه الحوادث ، وتنبىء المقدمات عن النتائج ، وتسلط عليه أضواء التشريح والتحليل ! كأن المفروض فى الجبرتى أن يتبع طريقةالقرن العشرين فيما يخط من أحداث ! وقد فات هؤلاء أن الرجل قدم الوثائق ، وذكر الوقائع . وأسلف من اليد على الناس ما أسلف ابن الاثير والمقريزى

بابن اياس والسخاوى وعلينا نحن أن نأخذ من موسوعته الحافلة ما نأخذه من موسوعات قرنائه المؤرخين ، دون أن نفرض على الرجل شروطا تأباها طبيعة العصر وثقافة الجيل . ولولا أن بعض المكتبات الفرنسية قد احتفظت بنسخ من يوميات الجبرتى ، ما استطعنا أن نقرأ تاريخه الحافل !! فقد ساعد قيام الثورة العرابية على نسخ صورة ، وطبعها كما كتبها المؤلف فى أربعة أجزاء متخمة مكتظة . ذات حجم رائع . ورسم حافل ، ثم توالت الايام وكتاب الرجل لا يلقى ما يستحقه من التنويه ! وسهام النقد تصوب الى أسلوبه المتواضح ، وما يشربه من عامية ركيكة . واساليب هابطة ! ولو سلك الجبرتى مسلك أدباء عصره فى التزام المحسنات الزائفة واصطناع التشبيهات الملفقة ، ما أمكنه أن يقدم صورة أمينة من واقع مصر ، كتلك التى قدمها فى سفره الجليل ، ولغرق القارىء فى كناية واستعارة ، وسجع وجناس وطباق ، دون أن يجد للمرآة الصادقة ، والصورة الصحيحة لامد واسع من تاريخنا العزيز ، والآن فقط ، وبعد قيام الثورة الاخيرة أمكن لتاريخ الجبرتى أن يأخذ مكانه اللائق فنهض الكاتبون للحديث عنه منوهين ، واقتبس الناشرون من حوادثه الحالية صحائف يقرؤها الناس مقدرين مغتبطين ، واندفع المخلصون الى كتابة حياة الرجل كتابة منصفة ، ترفع عنه أوضارا كثيرة مما صحبه من عنت الدهر وزيف الايام وهكذا يقدر الجبرتى وتاريخه بعد ليل دامس ،بطىء الكواكب ، حالك الجنبات ، بل هكذا يظهر الحق من محنته الفاشية ، ناصع الوجه ، مؤتلق الجبين ، فترددت

الارجاف بهواتف حارة جائشة تجأر فى قوة وايمان بأن العاقبة للمتقين !

أما كيف نشأ الرجل ؟ وكيف اندفع الى كتابة تاريخه ؟ فذلك ما سنعرج عليه فى هذا الحديث ! كان حسن الجبرتى والد عبد الرحمن من كبار علماء الازهر الذين ألموا بدراسة علوم اللغة والتشريع ، ولو أنه قصر اطلاعه على ما يتناقله زملاؤه فى دروسهم الازهرية من نحو وفقه وبلاغة وتفسير ، لكان عالما كمئات العلماء من نظرائه ولكنه اتجه الى دراسة الرياضة والمسائل الفلكية ، فانتشرت له براعة خاصة تسمه بسمات تختلف عن ألوان زملائه ومعارضيه ، كما تدفع فريقا من التلاميذ الى التشبث بأستاذيته والتعلق بدروسه ، وقد ساعده على اجادة مسائل الحساب والهندسة ما اندفع اليه من حياة عملية ، هى الى التجارة والمضاربة أقرب منها الى المذاكرة والتحصيل ، فقد ورث الاب عن أهله وزوجاته ضياعا ومنازل ومتاجر وخالط سيلا مزدحما من العملاء ممن يساهمون فى تنمية ثروته وانتاج محصولاته ، فكان اتساع أفقه الحيوى باعثا على تضلعه فى علوم الحياة وفنونها المختلفة ، وقد اتجه الى الموازين والمكاييل فأخذ يضبط مقاييسها ، ويعيد السلامة الى مختلها ، ولم تدفعه الى ذلك رغبة فى الثراء وطمع فى الاكتساب ، بل ان الموهبة الكامنة فى أطوائه كانت تتطلب متنفسا فسيحا ، فى ضبط المختل ، واقامة المنحرف ، كما يندفع الرسام الى تصوير مناظره ، وتنميق لوحاته ، دون أن يعرضها فى سوق عام للربح والاتجار ، بل ليشبع رغبة ملحة

تتطلب المنافذ المتعددة للاشباع وقد ساعده ثراؤه الطائل على مزاولة موهبته فى فرحة واغتباط ، كما جذب اليه هذا اليسر الوارف فريقا كبيرا من زملائه ومريديه فكانوا يغشون منازله ؛ ويلمون بحلقاته تارة لاستماع الـــدرس ومناقلة الحديث ، وطورا للراحة والمطعم فى ماى فسيح . ومكان كريم ، وذوو الثراء فى كل موطن قبلة الانظـــار ومراد الآمال .

وفى هذا البيت الزاخر بالنعيم والرفه ، الحـــافل بالعلماء والفقهاء ولد عبد الرحمن ونما عوده الاخضر نموا عادئا مسعدا ، يجد حظه من الرى الدائم ، والتربة الخصبة ، ذات الهواء البليل ، وقد استقبل الوالد طفله استقبالا فاترا حزينا ، اذ أن الرجل قد تعود أن يستقبل الاطفال من قبله ليعيشوا فى كنفه عاما أو عامين ثم يعجلهم الموت عن استكمال حظهم فى الحياة ، وقد دفن الاب الثاكل خمسة وثلاثين مولودا قبل عبد الرحمن من زوجاته وسراريه ، دون أن تسعده الايام بوليد يخطئه الموت ،وكان يعلل ذلك بأن نطفه تنحدر من صلبه غير متكاملة فلا تلبث أن تعجل بالرحيل ، واذا جاء عبد الرحمن توقع أبوه نهايته القريبة ، فلم يشأ أن يفرح بمصباح سينطفىء شـــعاعه بعد قليل ، أضف الى ذلك أن الوليد الجديد من احدى سراريه لا زوجاته ، وهو بهذا انأى عن القلب والعين من ولد الحبيبة ! ولكن القدر أخلف الرجل ، فعمر وليده السنوات المتتابعة دون أن يتطرق الى عوده الغض ذبول وجفاف ، ونشأ منشأ غيره من أولاد العلماء يحفظ القرآن والمتون ، ويلم بالمدارس والكتاتيب ، حتى أسلمته الطفولة

الى اليفاع فكان له فى حلقات الازهر وفى دروس والده وفى مذاكرة من يغشون منزله من العلماء ينبوع متدفق يفيض عليه بالعلم والادب والسداد وكان الغلام الناشىء ذا استعداد طيب للبحث والافادة ، فأثمر ذلك كله فى عقله أخصب الثمرات !!

تثقف عبد الرحمن بثقافة عصره ، وانتفع بأحاديث والده عن زملائه من العلماء وأصدقائه من أمراء المماليك ووجوه الدولة وأعيانها ، فعرف كثيرا عن أحوال مصر وأمكنه أن يلم بسياسة رؤسائها الماما يختزن فى ذاكرته ثم يتسرب الى أطوائه ، حتى طوى الموت أباه فترك له ثراء طائلا من متاجر وأطيان وعمارات وأورثه صداقات رفيعة تمت الى وجوه العلماء وصفوة الرؤساء ، وقد اضطر الشاب أن يتفقد أملاكه بنفسه ، فرحل عن القاهرة الى طنطا وكفر الزيات والمنصورة ودمياط والاسكندرية ورشيد ، وفى كل بلدة يحلها يجد من يحادثه من الاعيان والعلماء ، كما يخبر طبقات الشعب المختلفة من حكام وفلاحين وصناع وعمال ، فعرف بلاده معرفة شخصية ، وسبر الاغوار القاصية فى الاعماق والسرائر ، ورجع الى القاهرة وقد صاب عوده ، وغزرت تجارته ، واتسع نطاقه فى الحياة !

واصل الشاب دراسته بالازهر ، حتى أصبح عالما مرموقا يستمع اليه التلاميذ ويقصده العلماء ليعيدوا سيرتهم مع أبيه ، وقد فرح العالم الثرى بمنزلته الكريمة، وأفسح بيته لارباب العلم ، وأعلام الازهريين ، ووثق صلاته بمن يلمس فيهم الوجاهة والرفقة من علية الناس،

كما أكب على خزانة والده ، كى يستتم علوم الفلك والهندسة والحساب ، ووقر فى ذهنه أن يعيد سيرة الوالد ، فيتبعه فى طريق حياته ذراعا خلف ذراع !

ولكن رجلا كبيرا يفد الى مصر من اليمن فيرسم لعبد الرحمن آفاقا جديدة يجذبه الى التطلع اليهـا فى شوق واندفاع ، فيقبل الازهرى الشاب على أستاذه وقد شاهد فيه طرازا خاصا لم يعهده ، رآه يختلف اختلافا بارزا عن علماء الازهر فى التفكير والتأليف والملبس والاتجاه وقد أحرز قبول العقلاء وارتياحهم ، فتوافد الطلاب على مجلسه وسعى الامراء الى منزله ، وقبل الساعون بين يديه الارض تقبيلا لا يكون لغير الخلفاء والامراء ! ذلك هو العلامة الكبير السيد أبو الفيض المرتضى الزبيدى البحاثة اللغوى الجهير !

لقد كان تأليف الازهريين لعهد الجبرتى دائرا فى شرح المتون وكتابة الحواشى ، ووضع التقارير ، فالمتن أصل يتفرع عليه ما يليه من حاشية وهامش ، لا يختلف ذلك فى علم من العلوم ، فأنت تراه فى الفقه والنحو والاصول والمنطق والتوحيد ، وانت تسمعه كذلك فى حلقات الدروس اذ يدور الجدل حول المتن ، كنص مقدس ، لتلتمس التأويلات الشاسعة الى مايتطرق اليه من وهن فى لفظ ، أو خطأ فى تقرير قاعدة ، ثم تدور الحرب الجدلية حول هذه التأويلات ، من معارض يدحضها بالحجة الى مؤيد يدعمها بنص آخر ، أو تخريج محتمل !

على ذلك سارت حركة التأليف فى الازهر ، وفى غير ذلك سار العلامة الزبيدى فى دروسه بالمساجد ، وتأليفه فى الكتب ، وقد كان يدرس فقه اللغة ، وفصيح ثعلب ،

وأدب الكاتب ، دون أن يلحقها بحواش وشروح ، كما أخرج معجمه الفذ « تاج العروس » نمطا فريدا فى عصره وموطنه ، وأدب مأدبة حافلة للعلماء حين أتم تأليفه قوبل بالثناء والاطراء !

أراد هذا العالم البحاثة أن يترجم لاعلام القرن الثامن عشر من العلماء والامراء والوجهاء ، فيصل ما انقطع مما قام به صاحب الضوء اللامع وصاحب خلاصة الاثر وصاحب سلك الدرر ، وغيرهم من أصحاب المراجع التاريخية ذات الدوى البعيد ، ولم تكن للزبيدى ـ كضيف نازح ـ خبرة واعية برجال مصر ، وأعلامها فى القرن الذى ينتوى الحديث عنه ، فتفرس خلطاءه حتى اهتدى الى عبد الرحمن الجبرتى ، فكاشفه بدخيلة سره ، وأمره أن يشمر معه فى البحث عن آثار الماضين فيزور أصدقاء والده ، مسجلا أحاديثهم عن الرجال ، كما يدلف الى الصكوك والحجج فى مسجلات القضاء ، ويطالع النقوش فوق القبور وعلى المساجد والآثار ، ثم يتصل بأقارب المتفوقين من ذوى الجاه والنفوذ ، فيجمع من حياتهم ما تفرق ، ويضم من تاريخهم ما تناثر ، واذ ذاك يمكنه أن يقدم لاستاذه مددا حافلا من المعلومات ، والانباء !

وقد كان حديث الرجل غريبا عن عبد الرحمن فى بدئه فلما ضرب له المثل ، وناقش معه الفكرة ، ورسم له الطريقة وجد الشاب عقله وقلبه يتجهان اتجاها أكيدا الى كتابة التاريخ ، ودراسة حياة الرجل ، وأصبح التفكير فى ذلك شغله الشاغل ، وهمه المقيم ، وجاوز النظر الى العمل ، فاندفع يرى ويسأل ويستمع ثم يسجل معلوماته راجيا

ان يقطع الليل المنسدل بين عينيه الى صباح مشرق يسعد باجتلائه فى شغف وارتياح !

لقد انصرف الشاب الى عمله الجديد انصرافا كاد ينقطع به عن التدريس فى الازهر ، فلم يعد يجتمع التلاميذ فى حلقته الا لماما ، وعكف على تسجيل الاخبار والحوادث يجمعها من المعمرين ، فأنشأ صداقات جديدة لاناس يعلمون من خوافى الامور فى الماضى ما يضع فى يده الحقائق الكثيرة ! واخذ يدون معلوماته فى صحائف متناثرة ثم يجمعها كما سطرها أول مرة دون تعديل ، ويبعث بها الى شيخه الزبيدى ، مرتاحا لجهده النشيط ! وفى غمرة احتماده الراهق وافته الانباء المحزنة بوفاة أستاذه الملهم ، فاضطرم عليه حزنا وأسفا ؛ وفكر فى مشروعه التاريخى ، وقد أحدقت به نذر الفشل والتثبيط ، ولكن هواتف نفسه تبعث فى ظلمات التردد مدوية مجلجلة فتدفعه الى الامل والكفاح ؛ ولا سيما بعد أن عثر فى بيت فقيدة الراحل على جميع مدوناته ومخطوطاته التى سبق أن ارسلها اليه ففرح بها فرحا زائدا ووجد فى محتوياتها سجلا رائعا لعهد تصرم وانقطع ، اذ دونت من حوادث المماليك ما كاد يغيب عن الاذهان من كل كبيرة صغر أمرها مع الزمن فلم تعد غير خاطرة تعبر ، أو ذكرى تحين ، وقد كانت فى ابانها كارثة مروعة ، ومأساة ذات اثر اليم !

على أنه انقطع عن البحث فترة تلمس بها الهدوء والاستجمام ؛ ولكنه انقطاع المشوق الآمل الذى ينتظر اقتطاف الثمرة فى حينها المتاح ! وقد يهتم الانسان بأمرها

ثم يخيل اليه فى ظاهر أمره أنه قطع صلته به ، وجنح الى شىء سواه ، ولكن عقله الباطن لا يعترف بظاهره الزائف ، فهو فى أطوائه البعيدة ، يجمع ويدخر ويحفظ ويكنز ، حتى اذا امتلأ وطابه بما حواه ، انتقض على صاحبه فأجبره فى غير هوادة على الاذعان التام الى اشياقه وميوله ، وقهره على تسهيل ما اكتنز وادخر ، وكذلك كان الجبرتى ! فقد خيل اليه أنه انصرف عن مدوناته .

وهو فى حقيقة أمره يرصد احداث زمانه ، ويدخر مشاهداته وتجاربه ، وقد اتجه الى نوع آخر من التأليف فاختصر تذكرة داود الانطاكى فى الطب ، وتعرض الى نقد كتاب الف ليلة وليلة ، بدافع لا شعورى من شغفه بالتاريخ اذ أن الكتاب فى جوهره تاريخ اختلط فيه الواقع بالخيال والوهم بالحقيقة ! وقد ترك الجبرتى بهذا وذاك مخطوطاته السالفة ! لكن الى حين .

ومضت الايام فى سيرها الرتيب ، حتى حان وقت تدفقت فيه الجيوش الفرنسية فى حملتها الشهيرة على مصر ، وتحكم نابليون فى القاهرة باسلحته وجنوده وعلمائه تحكما قلب المسرح السياسى قلبا مفاجئا ، فبعد أن كان المماليك يمثلون أدوارهم الفاجعة فى عبث واستهتار ، غدونا نجد الضباط الفرنسيين يقومون بادوارهم الجديدة فى صرامة جازمة ، وتصميم أكيد ، ورجل كالجبرتى قام بتسجيل الحوادث ، وتقدير الرجال ، لا يسمح لقلمه أن يقف مكبلا فى دنيا تزحمها الكوارث ، وتفترسها الاهوال ، فترك مهاد الدعة والجمام ، وطفق يسجل

مايراه ، ويسأل عما وقع بعيدا عن عينيه وهو فى تدوينه يمحص الروايات ، ويزن الامور ، فيختار — قدر طاقته — ما يجده أقرب الى منطق الحوادث ، وأدنى لواقـــع الاحوال ، وقد تكاثرت لديه الوقائع ، ووجد من عبـــر لياليه وعظات دهره ما يقدم به للأجيال اللاحقة ســـجلا رائعا ، وكتابا حافلا ، وقد رأى بغريزته التاريخية ان يلتفت قليلا الى ما سجله عن الماضى ، فعكف على تبيض مخطوطاته من جديد ، لتكون صحيفة الامس مقـاربة فى تسلسلها واطرادها ، ما يخطه فى صحيفة اليوم ، وقد اجمل المؤلف خطته فى سطور ننقلها باسلوبه عن مقـدمة كتابه اذ يقول :

« كنت سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثـانى عشر وما يليه ، وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيه، جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية ، وأخرى محققـــة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمـور شاهدناها . واستطردت فى ضمن ذلك الى سوابق سمعتها ، من أفواه المشيخة تلقيتها ، فأحببت جمع شملها ، وتقييد شواردها فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والاعوام ، الى أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنهـا الى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها ، وسنورد ان شاء الله ما ندركه من الوقائع بحسب الامكان ، والخـــلو مـــن الموانع ، الى أن يأتى أمر الله ، وان مردنا الى الله ، ولم اقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق » .

هذا منهج الجبرتى ، فهو لم يقصد مجاملة أمير ، أو طاعة وزير ، ولم يداهن دولة بنفاق أو مـــدح أو ذم يتجافيان عن الاخلاق ، ونحن وقد قرأنا كتاب الرجـل نجده قد تمسك بما عاهد عليه القراء ، فى مقدمة كتابه ، بل نجده صادف كثيرا من العنت والارهاق فى ســـبيل هذا المسلك الصريح !

لقد تحدث الرجل فى جزأى كتابه « الاول والثانى » عن عهد المماليك فذكر فى دقة ما لمسه من أساليـــب المشاحنة والمنافسة بين الرؤساء والاتباع والم المامـــا مسهبا بدسائس الامراء والصناجق ، وتكالبهم على المال والجاه ، وفصل مصارعهم الرهيبة ، وما جلبوه على مصر من محن ونكبات ، ووالى طعناته الدامية الى محمـد جركس ومراد وعلى الكبير فبين كيف كان اتباعهم يأخذون ما يحبون من الباعة دون ثمن ، فاذا امتنع أحد التجـار قتلوه ونهبوا متجره ، وشرح كيف كانوا يخطفون النســاء والغلمان ويدخلون منازل الناس ثم لا ينصرفـــون حتى ينالوا الثياب والغلال والاموال ، وكيف تجرأ هؤلاء الاوغاد بتحريض أمرائهم ، على نهب مصوغات الذهب والفضـــة من الصاغة وغصب نفائس الحلى من صـدور النساء فى الحمامات ، بعد التهجم عليهن هجوما آثما ينكره الاسلام وتأباه الاخلاق !

يا الله ، لقد تمخضت هذه الفترة الدامسة من عهد المماليك فى مصر عن أسوأ ما تتمخض عنه الايام البائسة ذات المحن الدامية ، والكوارث الشداد !وقد حرص الجبرتى على رسم مناظرها الفانية دون المجاملة الزائفة الى السكوت

عن قوم تربطهم بالعدء تارة ، وبنفسه أخرى روابط صداقة والضرورة ، فقد كان على الكبير ومحمــــد أبو الذهب وغيرهما من الامراء على صلة طيبة بأسرة المؤرخ ، وعلائق المودة كانت وما تزال مراد التجاوز والاغضاء ، الا عند من يرصدون انفسهم لتمحيص الحق الجرىء بعيدا عما يكتنفه من ملابسات ذاتية ، والجبرتى ـ بلا ريب ـ فى طليعة هؤلاء !

وحين نسجل للرجل انصافه الدقيق للمماليك ، لانجد مناصا من تسجيل انصافه الصادق لاعضاء الحمــــلة الفرنسية ، اذ أن الخلق العريق يطبع صاحبه بطابعـــه فلا يميل به الى بخس أو تطفيف مهما اختلفت السـلعة فى الكفة رخصا وغلاء ، وكان الظن بعبد الرحمن أن يقصر حديثه على تصوير الكوارث المتلاحقة التى جلبها الاجنبى الدخيل على قوم مسالمين فيميل بالرصد الى ما ارتكبه الغزاة من تدمير ونسف وتقتيل ، وما فرضه المحتلون من ضرائب فادحة تثقل الكواهل وتقصم الظهور ، وما أمطروا به المساجد والمنازل والاسواق من قنابل وصواعق بعثت الموت والهول فى النفوس ، وما انتهكوا به الحـــرمات المقدسات ، اذ هجمت الخيول على أماكن العبادة ، وحلقات العلم ، تلطخها بقاذوراتها الدنسة ، وتزعجها بصهيلهـا المنكر ، وفوارسها المناكيد فوق ظهورها المسرجة يشربون الخمور امعانا فى الكيد ، ومبالغة فى التبجح والاستهتار أجل ! كان الظن به أن يقتصر على تسجيل هذه الفضائح المخزية دون أن يلمح من زاويته الخاصة موضعا لتقدير

واعجاب ولكن الانصاف يفرض عليه أن يعترف للقوم بانهم بذلوا جهد الطاقة فى مجاملة المصريين وتحسين احوال البلاد ؛ فوزعوا الصدقات ، واحترموا المواسم الدينية ومنعوا دفن الموتى فى المقابر القريبه ، ورجعوا الى كثير من رجال مصر بالمشوره ذات الاصغاء والتنفيذ، وما اضطرهم الى ما وقعوا فيه من العسف ، غير ما لمسوه من التجمع فالتحرش فالاستفزاز ، وقد أطنب الجبرتى فى وصف الروح العلمية التى اذكتها الحملة الفرنسية فى المجتمع المصرى ، اذ وصف مكتبة المجمع الفرنسى وألم بتفصيل ما شاهده من علماء الحملة فى تجاربهم الكيميائية مما كان موضع اندهاش الازهريين من العلماء ، ولنترك الرجل يتحدث بذلك فى فقرات نقتطعها من كتابه باسلوبه لتكون أبلغ فى الدلالة على دقته وانصافه من ناحية ، وعلى دهشته وتحيره أمام معجزات العلم من ناحية ثانية .

قال الجبرتى : « وفى بيت حسن كاشف جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها، ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من « العساكر » ، واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك ، واظهار السرور بمجيئه ولا سيما اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر والمعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم وقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعونى على ذلك » .

ثم يقول الكاتب فى وصف بعض التجارب العلمية « ومن أغرب ما شاهدته أن بعض المتقيدين أخذ زجاجة

بها ماء ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فغــلا الماءان ، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف مافى الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا ، أخذناه بأيدينا ولمسناه ، ثم فعل ذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ، وأخــذ مرة شيئا دقيقا من غبار أبيض ووضعه على السندال . وضربه بالمنطقة فخرج له صوت هائل كصوت القــرابانه انزعجنا منه وضحكوا منا ، وهكذا نجد تاريخ الحمــلة الفرنسية مسطورا بخيره وشره وأنت تتلمسه واضــحا فيما كتب الجبرتى ، وقد حفظ التاريخ لنا كتابا آخر عن الحملة سطره « نقولا الترك » والفرق مابين الازهـــرى المصرى والمسيحى اللبنانى واضح !! فالاول مع تسطيره جميع مايعلم عن الفرنسيين قد اهتم بحوادث الشعب فى كتابته اهتماما لم تفته الدقة والانتباه ، والثانى قد سجل ما لمسه عند رجال الحملة الفرنسية والجاليات الاجنبية الاخرى بحكم اتصاله الوثيق بأولئك وهؤلاء ، دون أن يتوسع فى تشخيص التيارات المتجاذبة فى طوائف الشعب المصرى ، وقد أخذ بعض الناقدين على الجبرتى أنه هرب من القاهرة الى الغربية عند قدوم الحملة الفرنســية ، فلم ير اذ ذاك ما يسجله عن الحملة الا سماعا ومناقــلة دون مشاهدة ومعاينة ، وليس الخبر كالعيان ، وفات هذا الناقد أن سفر الجبرتى حينئذ لم يتجاوز عشرة أيام رجع بعدها الى القاهرة ، وهى مدة ذات حوادث بارزة لا يمكن أن تمر دون أن يتحدث الناس شهورا طويلة ، فاذا سمع الرجل وكتب فانما يتحـــرى الواقع فى أهله .

والصدق عن ذويه ، وهو لذلك يقول : « ولا اكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الامور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف » .

مضى الفرنسيون فانقضى برحيلهم عهد باد وتصرم ؛ واستقبلت مصر عهدا آخر سيطر فيه محمد على على الدولة بعد قلاقل ثائرة أدت الى مبايعته . وقد بدأت متاعب الجبرتى - بهذا العهد الجديد - تزداد وتتجهم ، فالمؤرخ المنصف كان فى ماضيه يقول الحق دون أن تتبعه الارصاد والعيون ، أما الآن فقد تعذر عليه أن يجد متنفسا لقلمه فى أمد تتحكم به الفردية الطاغية تحكما قاهرا ؛ ولو أغمض عينيه قليلا لخان رسالته وهاجت عليه نوازعه بالتأنيب والتقريع ، ماذا عسى أن يصنع ؟ لقد صمم على أن يجتاز طريقه الوعر مهما امتلأ بالاشواك والصخور !! ومهما تعرض الى مهاو سحيقة يكتنفها الويل والثبور !! وبدأ الرجل يسير ، فاعترف أولا - جريا وراء انصافه الدقيق - بما قام به محمد على من أعمال هامة فى استعمار الاراضى البور ، وانشاء المصانع واعداد السفن وتشجيع وسائل التجارة بين مصر وغيرها من الاقطار . واستحضار آلات النسيج الحديثة حتى قال فى التعقيب على بعض أعماله « هذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق بمثلها » ولكن هذه الحسنات لا يمكن أن تتجرد عما اكتنفها من سيئات ثقال ، فمن المحتم الاكيد عليه كمصور صادق أن ينقد موجة الاغتيال التى غمرت الشعب تنفيذا لسياسة ارهابى جرىء !

كما أن واجب المؤرخ الا يغفل الحديث عن اشتعال

الغلاء اشتعالا كاد يسلم الشعب الى مجاعة دهياء ، وكان أليما أن يغدر الباشا بأولياء نعمته فيقلب ظهر المجن للسيد عمر مكرم ، وطائفة من أفاضل العلماء والاعيان ، وقد جعل من مصادرة الاموال سيلا ينحدر دافقا الى خزائنه، مما ضيق الخناق على أصحاب المتاجر والمصانع ، فأخذوا يتنفسون فى جو خانق كريه ، وجنود الباشا المسلحون يجددون مآسى الفرنسيين فينتهكون الحرمات ويتباهون بالمعاصى ، ويعبثون بالمتاجر والاسواق ، بل ان نجل الباشا ابراهيم يقتدى بأبيه فيصب غضبه الظالم على الرعية صبا رهيبا سجله الكاتب حين قال « ثم سافر ابراهيم راجعا الى الصعيد ، ليتم مابقى عليه لاهله من العذاب الشديد ؛ فقد فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالاقطار ، واذل أعزة أهلها ، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاما ، وحضر من بلده ولم ير غير ماهو فيه ، لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ، ولا مأمورات ، ولا منهيات » .

انها الجرأة الصادقة تدفع الرجل الى تأنيب القساة الطغاة ولو تضافرت الاقلام على انصاف الحق ، ما وجد طاغية يتبجح بالمظالم ويخوض فى الشهوات دون أن يسمع غير الاطراء الكاذب ، والرياء المقيت ، وقد كان الجبرتى جريئا ، فلم يكتف بتسطير المظالم دون تعقيب ، بل رأى من حق التاريخ عليه أن يشفع مخازى الآثمين بتنديد فاضح يذكى الحفاظ ويلهب الصدور ، فى وقت وجد به أناس يجعلون من هذه المثالب محاسن رائعة ! وجلائل حافلة لا تتعلق بها الآمال وخيال الباطل فسيح مديد .

ذاع نقد الجبرتى ، وتناقل الناس ما سطره عن محمد على وابراهيم ، ثم عن أشياعهما من الاصهار المتجبرين ، كحمد الدفتردار وسليمان أغا السلحدار وكلاهما كان طاغوتا رهيبا لا يدر من شىء يأتى عليه ، بل طالما استمد من سلطان الوالى رهبة قاتلة ، تذل النفوس وتلجم الافواه فما الذى يكافأ به الجبرتى ازاء صراحته فى عالم تهون لديه الارواح الانسانية هوانا يلحقها بالحشرات والهوام !

ان النتيجة الرهيبة متوقعة محتومة ، فلا يعقل أن تنكمش الاحقاد المتجبرة عن فريسة عزلاء لا تفزع بسطوه أو ترهب بنفوذ . ولا ريب أن المؤرخ كان يعلم تمام المعرفة فى اى طريق يسير ! والى اى مهوى ينحدر ! وهنا موطن الاسوة ، ومجال العبرة ! هنا مكمن العظمة فى أفذاذ أماثل ، يقدمون أرواحهم قربانا للعدالة والانصاف، وينصبون أقدامهم مثلا حيا للبطولة والفداء ! ولو لم تكن للجبرتى هذه الروح السامية الرفيعة لعاش كالآلاف من الافراد : يجامل الطغيان ويتملق العدوان ، ويقضى حياة ذليلة ضارعة تنتهى به الى موت آسف لهيف ، ويمر مماته الهين مرورا ساكنا شاحبا ، فما بكت عليه أرض وما تفتحت لاستقباله سماء !

أما كيف تمت المأساة فقد اختلف فيها الكتاب اختلافا لا نرى داعيا له اذا تأملنا منطق الحوادث ، وقارنا الاشباه بالنظائر ، فهناك روايتان متباعدتان ، رواية تقول : ان حكم الاعدام قد نفذ فى المؤرخ بعينه عن طريق الاغتيال فى طريق موحش بهيم ، بتحريض من محمد على ، وتنفيذ من سليمان أغا السلحدار .

ورواية تقول : ان الاغتيال قد وجه الى خليل الجبرتى نجل المؤرخ فتفجع والده عليه ، وكف مابقى من بصره حتى لحق بولده بعد أيام ! وقد ذكر الرواية الاولى أكثر المصادر الاجنبية وفى مقدمتها دائرة المعارف الاسلامية ، وأيدها الاستاذ أحمد حافظ عوض فى خاتمة كتابه القيم عـن تاريخ مصر الحديثة ، وهو فى رأينا أقرب الروايتين الى المنطق ، اذ أن محمد على قد اعتاد أن يتوجه بشره الناقم الى أعدائه المباشرين والاب هدف أصيل يجب أن يتوجه السهم اليه ، كيلا يظل عاكفا على تسويد صحائفه ، بمـا يذيع ويشتهر فى دنيا صاخبة ، تتناقل المثالب تناقـلا طائرا ، لا يقف فى مكان أو ينتهى عند غاية ولا سـيما اذا كان تنفيسـا عن صدور مكروبة ، وقلوب ممتلئة فهى تقضى وطرا عاما من أوطارها ، بقراءة صحائف الجبرتى وترى فى نقده أنشودة ساحرة تهدأ لها الخواطر ، وتجذب نحوها الاسماع ! وأن طاغية كمحمد على بطش بأعدائه المماليك ، على كثرتهم الكاثرة فى ساعة واحدة لهين عليه جدا أن يتخلص من يراع صادق يدون مثالبـــه وينشر مساويه فى غير تحفظ واكتراث ، ولماذا يترك محمد على فى حياته أمدا فسيحا تنفجر به براكين سخطه متأثرا ابنه الفقيد ــ لو صحت هذه الرواية ــ فيواصل هجومه الثائر عن قلب موتور وصدر ملتهب وكبد ذات تباريح !

ان اغتيال الجبرتى نفسه هو الحـــل الطبيعى الذى يتجه اليه عقل غاضب متجبر كعقل محمد على دون أن يتطرق الى اغتيال سواه مهما عزت مكانته ، واشـــتدت آصرته ، وعظمت حرمته لدى المؤرخ الدقيق ، على أن الذين يلحقون الكارثة بنجل الرجل ، يجمعون على أن

والده فقد صوابه ، اذ داهمه الخبر الفاجع وانتفضت عليه علله وأوجاعه وكف بصره فما يستطيع ان يخط حرفا وأحاطت به النذر الغاشية من تهديد الوالى ووعيده . فأخذ يترقب مصرعه بين آونة وآونة وقضى أياما حائرة مضطربة ، أهون منها السكون الابدى فى حفرة آمنة عزلاء لا يدب اليها كيد ، أو تنصب حولها فخاخ ، مهما كان من اختلاف الروايتين ، وتباعدهما تباعدا تفترق نتيجته ، فقد نزل الشر بالرجل نزولا عاصفا . ثم ودع الحياة توديعا مريرا ، دون أن يجد من معارفه من يزفر عليه زفرة رثاء ، أو يسكب فوق ضريحه عبرة آسفة : فقد بدد الارهاب الخانق وفاء الاصدقاء وعصف بولاء المخلصين !! الا ماكان من همس الشفاه وتساؤل النظرات وامتد وراء الراحل العزيز ليل حالك دامس تكشفت غياهبه القاتمة عن فجر يومض ثم عن صبح يشرق وينير ، فاذا الرجل بطل خالد ، ومثل يحتذى ، وذكرى تتعطر بها الاجيال !! والعاقبة للمتقين .

جمال الدين الأفغاني
باعث الشرق

يقول المتنبي :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة
وما تبتغي ؟ ما ابتغي جل ان يسمى

لعل هذا البيت لا يصدق على انسان كما يصدق على العالم المصلح الفيلسوف جمال الدين الافغاني ، فقد كان ذا أمل كبير يدفعه الى التنقل في شتى الممالك القاصية لا لينعم بالرحلة الهادئة ذات البهجة والانتعاش ، بل ليقيم في كل أرض ثورة ، ويشعل في كل مملكة ضراما ، وليهدم ما تعفن من الآثار البالية ، ويقيم على انقاضه صروحا عالية من العزة والاستقلال وان رجلا واحدا يمكنه ان يزلزل الشرق الهامد بصيحته العالية لجدير أن يكون رنان الصوت طائر الصيت !

لقد نشأ جمال الدين في عهد يائس حزين ، كانت فيه الممالك الاسلامية جميعها دون استثناء أشبه بالمريض المنهوك الذي سرى الداء في كل عضو من أعضاء جسمه ، فالتأخر والجمود والاحتلال تجثم بقيودها الثقيلة على كل دوله . ومن فاتها الاحتلال الظاهري بالعسكر والجيش

فان الاحتلال المعنوى يطبق عليها بقيود مستترة ، تحس ثقلها الحديدى دون أن تراه العين ، وقد طغت الدول الاستعمارية بما ملكت من القوة والعلم طغيانا مكنها من الشر والبغى والاستغلال ، وليتها اقتصرت على ماتعتصره من الارزاق وتستنزفه من الخيرات . بل اتجهت بمعاولها الهادمة الى الدين الاسلامى تصمه بالرجعية والتزمت والضيق وتنسب الى تعاليمه أسباب التأخر والانحطاط ثم تعرض مفاتن أوربا وما ابتدعته فى عصور النهضة من فنون ، وما وصل اليه العلم العصرى من مستحدثات متخذة من ذلك كله دلائل ساطعة على انحطاط المسلمين بوقوفهم عند دينهم البدوى المتأخر كما يتصور هؤلاء ! وكان الجهل المطبق يدفع الكثير من المسلمين الى القنوط واليأس ويشككهم فى القيمة الحقيقية للشريعة الاسلامية وبقائها الحى على تناسل الاحقاب حتى وجد جمال الدين، فدرس عصره وألم بمعضلات العالم الاسلامى ورأى أن الدين براء مما ينسب اليه ، وأن المسلمين لم يتقهقروا فى مضمار الحضارة والعلم الا لانهم تركوا الدين وراءهم ظهريا فظلموه ظلما فادحا حين انتسبوا اليه بالقول ثم خالفوا جميع أوامره ونواهيه ، فحقت عليهم كلمة الله !!

ولو لم يكن جمال الدين من طراز نادر ممتاز لتسرب اليه اليأس فى ظلمات هذا الليل الحالك . ولكن شعاع الايمان فى قلبه قد انتشر وهاجا ساطعا ، فأخذ يشق له الطريق فى احج هذا الظلام البهيم وصمم على الجهاد العنيف ليحيى الميت ، ويخصب المحل الجديب .

ومن هنا كان تنقله الحثيث فى كل دولة ورحلاته

المستمرة فى كل ارض ، فما يبتغيه أجل من أن يسمى ، وأبعد من أن يتطاول اليه انسان سواه !

فهو مثلا فى بلاد الافغان موطن آبائه وأول أرض تنسم بها ريح الحياة ، قد رأى الخلاف الداخلى يمزقها شيعا واحزابا ، ورأى الاستعمار يزيد من حدة هذا الخلاف حتى صار الامراء فى حرب لا تنقطع . لكل أمير جيش وأعوان يتصارعون مع اخوانهم المواطنين ، فيدفعون البلاد الى الدمار الحاصد والفناء المبيد ، فرأى على حداثة سنه أن يدخل المعترك السياسى ، وأن ينضم بعزيمته وعقله وايمانه الى من يعتقد فيه الصلاح والخير للاسلام ، فرجحت الكفة به ، وسالمه الدهر حينا ، ولكن الدسائس الاستعمارية لا تسكت عن محاربة الاصلاح ، فألقت بكيدها وسلاحها ومالها الى الميدان حتى تغلب الباطل ، ولاذ جمال الدين بالفرار الى الهند !!

ولم تكن الهند غريبة عن الرجل ، فقد تعلم بها فى صباه ودرس ظروفها السياسية والاجتماعية فعرف أن الاستعمار الانجليزى يرهقها بطغيانه الرهيب ، ومن ثم فقد أخذ ينشر بين الهنود دعوته الى الخلاص والاستقلال وتتبع أساليب الاستعمار ليفضح مساويها الشائنة ، وينزع الثياب عما تضمره من فضائح ومخزيات . وكان طبيعيا أن يضيق به المستعمرون فيجبروه جبرا قاهرا على مغادرة البلاد . والرجل لا يستسلم ولا يستكين بل يلتفت الى المندوب الانجليزى ليقول له فى كبرياء « ان تخوف حكومة بريطانيا من زائر أعزل مثلى يسجل عليها وهن عزيمتها وضعف شوكتها وقلة عدلها ، وعدم أمنها ،

وانها فى حقيقة حكمها لهذه الاقطار اضعف بكثير من شعوبها » .

وينظر جمال الدين فيرى المندوب الانجليزى ينكسر ويتضاءل ويلمح الدموع تترقرق فى عيون الآلاف من مودعيه ممن آمنوا بمبادئه ، واستيقظوا على صيحته . فلا يلجأ الى مجاملتهم فى هذا الموقف العاطفى الحزين ، بل ينفجر كالبركان صائحا فيمن حوله ملهبا شعورهم الهامد اذ يقول : « يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل لو كنتم وانتم تعدون بمئات الملايين ذبابا ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ولو كنتم وانتم مئات الملايين وقد مسخكم الله وجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر واحطتم بجزيرة بريطانيا لجررتموها الى القعر وعدتم الى بلدكم أحرارا »

ثم رحل الرجل الى مصر تاركا وراء كل حرف من هذه الحروف جمرة تشتعل ، ولهيبا يتطاير ليلتهم أوكار البغى والاستبداد !

الى اين يمضى هذا الشجاع الصنديد ؟

لقد اتجه الى مصر ليصل رسالته فى البعث والايقاظ وقد زارها مرتين . فعرف وجوهها وأحوالها واتصل بأزهرها الاسلامى ليتخذ من طلابه دعاة يهدون بالحق وبه يعداون ، ولم تكن الاحوال فى مصر بأحسن منها فى الهند فقد استدان اسماعيل وبالغ فى القرض والتبذير حتى جر الاستعمار الى وطنه . وقد ألف الناس الاستكانة والانصياع ، فأخذ يفتح العيون على مايجرى فى البلاد من اهوال . ويتصدر المجالس ليعلن آراءه فى الحكام وبرامجه

فى الاصلاح . ثم اختار صفوة من تلاميذه ودفعهم الى الكتابة فى الصحف ليصوروا الفساد الداخلى ، ويفضحوا الطغيان الخارجى ، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام ، واقامة حكومة دستورية تخضع لبرلمان متيقظ ، يحاسب على التبذير والرشوة ، ويحد من الفـــردية الدكتاتورية فى الحكم والسلطان . وقد عزل اسماعيل فى هذه الظروف التى خلقتها مآسيه المتلاحقة ، وجاء ولده توفيق، وكان ذا صلة بجمال الدين فأدرك الحاكم الجديد قوة تأثره — وأراد أن يلاطفه ليرجع عن مبادئه فى الحرية والاستقلال وهما منه أن الرجل قد يستجيب وينسحب دون ضوضاء . وكان أن هيأ اجتماعا عاجلا فى القصـــر الخديوى بداه توفيق فقال مداهنا مراوغا : انى احب كل خير للمصريين ، وسرنى أن أرى بلادى وابناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الاسف أن أكثر الشعب جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقـــونه من الدروس والاقوال المهيجة فيلقون انفسهم والبلاد فى تهلكة .

فاعتدل جمال الدين فى مجلسه ثم رفع رأسه ليقول فى اعتداد : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول له : ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجـــود الخامل والجاهل بين أفراده ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به الى الشـــعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هـــذا المخلص ، واسرعتم فى اشراك الامة فى حكم البلاد عن طـــريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الامة ، تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يـــكون ذلك أثبت

لعرشكم وادوم لسلطانكم » .

وانتهى اللقاء بعد أن لمس توفيق خيبة مسعاه !

لقد كان جمال الدين يدرك بعد هذه المقابلة أن أيامه في مصر محدودة فانبعث يشعل اللهب بخطبه وأفكاره . وكانت به حدة قاسية تلجئه الى العنف الصريح دون مواربة ، فانشأ محفلا ماسونيا جديدا بلغ اعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين « وكان فى هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبا للاعمال المختلفة : فشعبة للحقانية ، وأخرى للمالية وثالثة للاشغال ورابعة للجهادية وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شئون وزارتها ومصلحتها وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الاصلاح فيها . ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها فى أسلوب حازم صريح فكان لذلك هزة فى الاندية والمجتمعات » (١)

وصاحب ثورة كهذه الثورة لابد أن يحارب بعنف ، فقد تعاون الاستعمار الخارجى والطغيان الداخلى على ابعاده فغادر مصر ولكن بعد أن أعد الموقد واشعل الثقاب!

يئس الفيلسوف من متابعة الأصلاح فى بلاد الشرق فرأى أن يتجه الى الغرب ليجد من الحرية فى صحفه وانديته ما يكفل لآرائه الذيوع ، وجعل يتنقل مابين روسيا وانجلترا وفرنسا متخذا من صحافتها المنتشرة ميدانا لافكاره الجريئة فى مناوأة الاحتلال ، وتذكر تلميذه الوفى محمد عبده فدعاه من بيروت الى باريس ليصدرا

(١) من كتاب زعماء الاصلاح نقلا عن محمد المخزومى باشا .

معا جريدة العروة الوثقى . فكان لها على قصر مدتها الوجيزة من الدوى والصليل ما أرهب الاستعمار ، فتحالف على مناوراتها وحارب انتشارها محاربة قاهرة . واخذ يترصد اعدادها فى مختلف مصارف البريد ليصادر ما يتجه الى الشرق فى حقد واضطغان ، ومع هذا الخطر العارم فقد تسللت الى أيدى الكثيرين ردحا من الزمن . ثم اضطرت الى الوقوف بعد نضال حميد !

وقد شاءت انجلترا أن تسكت الرجل باسلوبها الخاص ، فهى تعلم أن القمع لا يجدى معه فى شىء اذ ينتقل الدوار من افق الى أفق دون تعويق ، فرأت أن تستميله بالمنصب الخطير ليكون لها من وراء هذه الشخصية الفذة ساعدا قويا يمكن لها من النفوذ والاستعلاء ، وكانت ثورة المهدى بالسودان اذ ذاك قد بلغت قمتها العالية وعجز الاسد البريطانى عن مواجهتها بأسلحته وعتاده فرأى أن يبعث بجمال الدين الافغانى الى السودان ملكا رسميا تلتف حوله الجموع ، ليستطيع بمكانته وعلمه أن يجمع حوله المسلمين قاطبة ، فتخبو نار الثورة : ويصبح السودان لقمة سائغة فى فم انجلترا . يقدمها السيد الافغانى لها طواعية اى وهم قد تمكن فى نفس المستر سالسبرى رئيس وزراء انجلترا اذ ذاك فصور له أن جمال الدين دمية فى يده يرمى بها كيف يشاء .

لقد ظنه انسانا مريضا يحب الجاه والمنصب كأكثر من يرى ويعامل من الناس ولكنه بوغت منه بداهية عنيد نظر اليه نظرة صاعقة ، ثم صاح فى وجهه بكبرياء وعظمة: هذا تكليف غريب ، وسفه فى السياسة مابعده من سفه ،

هل تملكون السودان حتى تتوجوا عليه ملكا يخضع لارادتكم كما تشاءون ، ان مصر للمصريين والسودان جزء متمم لها وصاحب الحق الخليفة الاعظم حي يرزق ، ولديه من الجيش المادى والمعنوى مايذلل معهما كل صعب فى الكون الاسلامى وأجزاء ممالكه » .

ولم ينتظر ان يطول النقاش ، بل أنهى المقابلة سريعا وخرج من دار رياسة الوزراء فى لندن ليتوجه الى باريس من جديد !

على انه لم ينس فى مضمار السياسة أن يحمل القلم فى مجال التأليف والنقد فكتب رسالة طويلة فى تفنيد نظرية الارتقاء والتطور سمى أصحابها بالدهريين كما يسمون فى كتب النحل الاسلامية من قديم ، ونظر فى الصحف الباريسية فرأى الفيلسوف الفرنسى « رينان » يشن حربا طاحنة على الاسلام فأخذ يهرف بما لا يعرف، وينسب الى تعاليمه من الجمود والتزمت ماهو بعيد عنها بعد الارض عن السماء ، فحمل جمال الدين يراعه القوى ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وطارت ردود السيد كل مطار فقرأها رينان فى دقة وعقب عليها بما ينبىء عن تراجعه حينا وتخبطه حينا آخر . وعرف الاوربيون عن طريق هذه المناظرة الجهيرة كثيرا من الحقائق الاسلامية الصريحة رائعة باهرة بعد ان ملأ المستشرقون أذهانهم بالفاسد من الآراء عن عمد أثيم . وما كاد المسيو هانوتو بعد ذلك بأعوام يعيد الكرة الظالمة فى حرب الاسلام حتى انبرى له تلميذ جمال الدين الشيخ محمد عبده ، فبلغ

مبلغ استاذه من التوفيق والسداد ، وهكذا يجد الحق نصيره في كل زمان ومكان !

وبعد فهل ارتاح السيد في تجواله اللاغب في الشرق والغرب لايقاظ الشعور الديني ، وبعث العملاق النائم من سباته العميق ! هيهات هيهات ، فقد تعرف بشاه ايران وعاهل الفرس في بعض جولاته الاوربية ، ورأى الشاه في جمال الدين طرازا رائعا من العلماء . فصمم على أن يصحبه الى مملكته الفارسية ليكون مستشاره الناصح في ادارة البلاد . وانبعثت في نفس السيد آمال كبيرة تتجه الى الاصلاح والبعث فصارح الشاه بوجوب انشاء حكم دستوري نيابي ، وجمع حوله من رجال فارس من اقتنعوا بمذهبه في الاصلاح ممن ينقمون على الحكم الفردي فظاعته واستبداده ، ونظر الشاه فاذا مستشاره الناصح ينادي بآراء تقيد من طغيانه الفردي فواجهه باللوم وثبت السيد عند رأيه فناقش وأفحم . ومضت شهور قلائل تحرج بها الموقف بين الرجلين تحرجا زاد من هوته اقبال الفارسيين على جمال الدين والتفافهم حول مبادئه الدستورية ، فلم ير الشاه مناصا من القبض عليه في اثناء مرضه العارض ثم رمى به خارج حدود بلاده ليجد المريض المحموم نفسه في العراء تحت سياط البرد والثلج والشتاء !!

لا بأس ! فالشدائد تهون لدى أصحاب الآمال البعيدة والمطامح العالية من الرجال ، وقد هان على السيد مايلقى من الناس ! فلم تفتر له عزيمة واتجه الى الاستانة موطن الحكومة العثمانية ومربض عبد الحميد السلطان ! وكان

فى الخليفة دهاء وحيلة ، فأدرك مايعتمل فى نفس المصلح الكبير ، وعلم من واقع رحلاته وسجل أعمـــاله آماله المخلصة فى اقامة دستور عادل يطيح بحكم الفرد ، فلم يشأ أن يأخذه بالعنف القاهر ، فيؤلب عليه أتبـــاعه الكثيرين فى شتى ممالك الاسلام بل قابله مقابلة الصديق الشفيق وقرر له راتبا ، وأفرد قصرا لاقامته ، ثم عرض عليه منصبا دينيا خطيرا ، ولكن السيد لا ينشد راحته الشخصية حتى يقنع بما أعد له من نعيم ، فطلب مقابلة الخليفة على انفراد وصارحه فى اعتداد بأن الحكم الفردى يحتاج الى تغيير جوهرى وأن الشورى يجب أن تكون أساس هذا الحكم كما هو معروف فى الدول الاوربية ذات القوة والحضارة والازدهار ..

وكظم عبد الحميد غيظه حتى انتقل جمال الدين من مجلسه فأرسل كبير الياوران ليقول له فى كثير من العتاب « ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، واليوم رايناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحـــة فى حضرته » .

فرد جمال الدين محتدا « سبحان الله ! ان جـــلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الامة على هواه ولا يعترضه منهم أحد ! أفلا يكون لجمال الدين الافغانى حق أن يلعب بسبحته كما يشاء » !

واعجبا لو كنا بصدد دراسة نفسية تحليلية لمواقف السيد ، لرأينا فى أمثال هذه الردود المفحمة ما يكشف القناع عن عظمته العالية وكبريائه الرفيعة على الجبابرة والطغاة . ولكن طبيعة هذا البحث تعجلنا عن كل ذلك .

عبد المجيد سليم
بقية السلف الصالح

اكتمل لامام اهل السنة المغفور له الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم (١) من جلال العلم وعظمة الحق وقوة الايمان مالم يكتمل لسواه من النظراء والامثال ، فقد كان رضى الله عنه من اخلاقه المثالية فى هيبة منيعة يصغر دونها اعظم الرؤساء من ملوك ووزراء ! فلا يحاولون أن يصارحوه بما لا يرضى المؤمن المتحرز ، والعالم العيوف . وقد جاءت سيرته الطاهرة كتابا مفصلا للرجولة العالية ، يقرؤه الناس فيجدون المثل الاعلى قد تجسم واقعا ملموسا فى أعمال الرجل واقواله واذا كان من السلف الصالح من شابه الشيخ فى ابائه وترفعه فان معاصرتنا الشاهدة لحقيقته المؤمنة فى القرن العشرين تؤكد لنا ان مصباح الحق دائم الاشعاع ، فهو ينتقل من العصور الغابرة الى العهود الحاضرة دون أن يطفأ له ضياء ، ويأبى الله الا أن يتم نوره !

ولو اردت أن ترجع جميع مواقف الشيخ الى سبب واحد ، ترتكز عليه أفعاله وتصدر عنه أقواله ، ويكون

---

(١) انتقل الى رحمة الله فى ١٠ من صفر سنة ١٣٧٤ هـ .

مفتاح شخصيته الذى تدرك به أسرارها الكامنة ومواهبها المدخرة لوجدت هذا السبب ينحصر فى شىء واحد لا لبس فيه ولا غموض ! انه الثقة بالله وحده تسيطر على نفسه ، فيهون دونه كل جليل يكبره الناس !

لقد وثق بالله حين أقبل على العلم اقبالا مخلصا ، فمنحه ذات نفسه وتفرغ عن رغبة أكيدة لاقتناص شوارده ، واكتناه غوامضه ، ولم يقبل فى عهد التلمذه ان يقتصر على علوم الازهر وحدها بل جمع اليها المنطق والفلسفة حتى عرف بين زملائه بابن سينا . وقد اختار من أساتذته فى حلقات الازهر من آنس فيه البراعة والاستيعاب ، فهو يحضر دروس الاستاذ الامام محمد عبده فى الرواق العباسى لمدة خمس سنوات فيدرس عليه كتب عبد القاهر فى البلاغة حينا وتفسير كتاب الله حينا آخر ، وهو يتلقى شروح المنطق والفلسفة عن أستاذه الشيخ حسن الطويل فيلم بأفانين من الجدل والقياس لم تكن مألوفة للداته من الطلاب ، ثم هو يجد فى أستاذه الشيخ أحمد أبى خطوة موردا دافقا فى الفقه الاسلامى فيأخذ عنه التبحر فى المسائل الفرعيةوالتعمق فى الفتاوى الفقهية . ويشهد له بالاطلاع الشامل والصبر الطويل بل انه يقارن غير مرة بين أبى خطوة والاستاذ الامام فيجد الاول أكثر الماما بمسائل الفقه وادلة الاحكام غير أن الامام فى رأى الشيخ يمتاز بسعة الافق وسلامة التعليل وامتداد الصيت ! هذا الى بيان مشرق يجذب اليه الناس فيصبح أقدر العلماء على الافادة والتوجيه .

وقد شاء القدر أن يكون الاستاذ خليفة الامام فى

الافتاء فعالج فى فتاواه الكثيرة معضلات العصر وقضايا المدنية الحديثة كما عالجها الامام فى فقه بصير وفهم مستنير . وقد تحدث رحمه الله فى بعض أعداد مجلة الرسالة عن منهج أستاذه فى الفتوى ومنهجه الخاص الذى يحتذيه فقال نقلا عن العدد الممتاز (٤٤٩) :

« ان الناحية التى تجلت فيها مواهب الاستاذ الامام: هى ادراكه الصحيح لمعاني القرآن الكريم ، وفهمه الدقيق لاغراضه ، وتذوقه لاسلوبه ومعجز بيانه ، مع بصر عظيم بأحوال الناس وعبر التاريخ ، وأسرار تقدم الامم والشعوب . يؤزر ذلك قلب جرىء وعقل متصرف .

وكان يعتمد فى فتاواه على ادراك روح الشريعة ، وتبين أغراضها العامة ، لا على مناقشة المذاهب وترجيح آراء الفقهاء ، ولذلك تأتى فتاواه غالبا مختصرة . وقد تثير خلافا بين أهل العلم . ومن امثلة ذلك انه أفتى فتواه المشهورة بجواز لبس البرنيطة ، فقامت من أجلها ضجة هائلة . فلما أردت أن أفتى فى الموضوع ، انتفعت بموضع العبرة فيه ، فأخرجت فتواى التى تجيز ذلك اخراجا فقهيا مؤيدا بأقوال العلماء ، جاريا على طريقتهم فى الاستدلال والترجيح .

واذا كان الاستاذ الامام لم يتقيد بمذهب معين فى فتواه ، فان خليفته الاستاذ عبد المجيد قد ورث عنه هذه السعة الفسيحة فى قبول الآراء المختلفة مادامت مؤيدة بالدليل ، فأنحى باللائمة على من يعتصمون بقول خاص لا يحيدون عنه . بل ان اثره كان قويا ملموسا فى جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية ، وهى التى تنص

المادة الثانية من قانونها على « العمل على جميع أرباب المذاهب الدينية الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الايمان بها . مع السعى الى ازالة ما يكون من نزاع بين شعبتين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما » .

فقد كان رضى الله عنه وكيل الجماعة فأكسبها جلالا ومقاما ، وجذب اليها الصفوة من اتباعه ومريديه ، وقد تحدث فى أول عدد من مجلتها « رسالة الاسلام » فقال :

« ولقد أدركنا فى الازهر على أيام طلبنا للعلم عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ، ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد وتطهر الازهر من أوبائه وأوضاره . فأصبحنا نرى من العلماء من يخالف مذهبه الذى درج عليه فى أحكامه ، لقيام الدليل عنده على خلافه ، وقد جريت ـ طول مدة اقامتى بالافتاء فى الحكومة والازهر وهى أكثر من عشرين عاما ـ على تلقى المذاهب بالقبول ، مادام دليلها عندى واضحا ، وبرهانها لدى راجحا » .

وقد اعترف أساطين الفقه وأساتذة القانون بما لآراء الشيخ من قوة وسداد ، فقد كان مرجع الافذاذ الاعلام من ذوى التشريع يسألون فيجيب ، ويترددون فيجزم ، حتى أن اللجنة التى ألفت للأحوال الشخصية فى وزارة العدل برياسة الاستاذ الاكبر محمد مصطفى المراغى وعضوية شيوخ المذاهب بالازهر وأساتذة الشريعة بالحقوق ورئيس المحكمة الشرعية العليا ووكيلى وزارتى العدل والمعارف ! هذه اللجنة الممتازة كانت تعتمد

اعتمادا كليا على جهود الاستاذ وبحوثه ! وقـــد كتب رئيس محكمة الاستئناف الاسبق الاستاذ محمد محمود يعلن ذلك بجريدة الأهرام عقب وفاة الشيخ فيقول من كلمة مخلصة فى الرثاء :

« وقد كان المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم فى هذه اللجنة النجم اللامع والحركة الدائمة ، اذ كانت تعـرض الموضوعات والمسائل على اللجنة بعد سبق بحثها وفحصها وعند ذلك يأخذ الراحل الكريم الكلمة فيتولى شـرح الموضوعات والمسائل الواحدة بعد الاخرى ، مستعرضا شتى الآراء ومختلف الصور فى كل مذهب من المذاهب. مقررا حكم الشرع ، ذاكرا راى الائمة المجتهدين والفقهاء المؤلفين ، مسايرا روح العصر ، متنقلا من فن الى فن ، وهو فى ذلك كله كالبحر المتدفق حتى اذا انتهى مـن جولته العلمية ومحاضرته الفقهية ، قامت اللجنة بالبحث والتمحيص واستنباط الحكم الملائم تمهيدا لاعطائه الصفة النهائية » .

على أنك لو وجدت من رجال الفقه الاسلامى فى عصرنا الراهن من ماثل الشيخ فى المامه التشريعى كالســيد محمد رشيد رضا والشيخ محمد بخيت المطيعى ، فلن تجد من فقهائنا المعاصرين من ماثله فى قوة الايمان ومجابهة الباطل والاعتزاز بالله وحده ! وتلك عجيبة الرجل حقا فقد كان حلقة ثمينة فى سلسلة ذهبية تجمع نخبة مؤمنة مَن رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وأوذوا فى سبيله فما ضعفوا وما استكانوا لما أصابهم وارتفعت أصواتهم مجلجلة رنانة تندد بالطغيان السافر وتدعو الى الحـق

الصريح ! فقد قدر على الاستاذ أن يعيش فى زمن منافق لئيم يسوده استعمار خارجى من أوروبا الظالمة ، وداخلى من فساد القصر وتشاحن الحزبية ، وكان الظن بأبناء الازهر أن يناوئوا جميعا ذلك الفساد فى شتى وجوهه ، وأن يحاربوا الطغيان فى مختلف صوره ، ولكنهم لم يكتفوا بالسكوت على الباطل بل خب بعضهم ووضع فى الحزبية المتناحرة جنبا عاد على العلماء بالنكبة والخذلان وعلى الطلاب بالخيبة والهوان !

ولم يسكت الشيخ كغيره . بل جاهر بالدعوة الى نبذ الحزبية وعارض فى صراحة واضحة من يرون مشايعة القصر ومسايرته مهما كان لهم من السطوة والنفوذ . ورأى أن واجبه الالزم يفرض عليه أن يكون ممن يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فأعلن رايه فى السياسة الطائشة ، وتزعم فئة من ذوى الاتجاه الصائب والثقافة اللامعة والحفاظ الغيور ، وهى اليوم بفضل الله تسيطر على الازهر وترسم له الطريق للتوثب والنهوض ، فكافح بها البغى ما استطاع ! وقد دفعته رجولته النادرة أن يعلن رأيه الصريح فى القصر الباغى والحزبية العمياء وهو شيخ للأزهر دون أن يحرص على منصب زائل أو يخاف مغبة متربصة ، فقال فى حديث طويل نشرته جريدة الاهرام فى ذكرى الأستاذ المراغى تحت عنوان « امام يحيى ذكرى امام » .

« لقد كنت انا والشيخ المراغى صديقين حميمين ، كلانا يحب صاحبه ، ويقدر فيه مواهبه ، ولم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت اصيلة . ولكننا مع ذلك

اختلفنا بعد لأى من مشيخته الثانية للازهر ، وكـان خلافنا معروفا للخاصة والعامة من الازهريين ، وسببه الجوهري ميله رحمه الله الى ناحية السياسة الحزبية، وشدة نفوري من ذلك ، فانى أرى أن الخير كل الخير ان يتجنب العلماء السياسة الحزبية ومتاعبها التى تفضى الى مالا يحمد من العواقب » .

ومعنى هذا الكلام بصريح العبارة ان الاستاذ المراغى قد دفع بالازهر الى تأييد القصر ومعاونة من يرتضيه من رجال الاحزاب . وليست تلك مهمة رجل الدين فالاجدر به أن ينأى عن مشايعة ذوى المآرب المريضة والاهـواء المغرضة من الناس .

ولم يكن القصر يجهل ما للشيخ من صلابة فى الحق. واباء للضيم فقد ذاق فاروق من حملاته السافرة قبل المشيخة وبعدها ما أرق مضجعه وأزعج هدوءه . وأذكر أن مجلة المصور قد نشرت تحت عنوان « مات الشـيخ عبد المجيد سليم » بتاريخ « ١٤ أكتوبر سنة ١٩٥٤ » مقالا منصفا عن الاستاذ الاكبر فألمت بكثير من مواقفه الرائعة .

وكان مما ذكرته أن الشيخ اذ كان مفتيا للديار المصرية تلقى سؤالا عن حكم الشرع فى رجل يراقص النسـاء ويشرب الخمر فى الحفلات ويرتكب أعمالا يحرمها الاسلام وقد أدرك المفتى أن المقصود بهذا السؤال هو فاروق . فقد كانت الجرائد آنئذ تتحدث عن حفلات ماجنة تقيمها « شويكار » احتفالا بمسرته ، ولكنه لم يتراجع ، بل أصدر فتوى جريئة وصف فيها المسئول عنه وصـفا

يشين ويجرح . ويقول المصور : ان الدوائر الرسمية والسياسية قد اضطربت لهذه الفتوى واتصل الملك السابق بالشيخ المراغى فطلب اليه أن يطلع منذ الآن على كل فتوى يصدرها الشيخ عبد المجيد قبل السماح لها بالذيوع !

ولم تكد الايام تمر على تربص حذر من القصر بالشيخ وآرائه حتى حاول فاروق أن يعين المغفور له الاستاذ مصطفى عبد الرازق شيخا للازهر . وكان القانون الرسمى للمشيخة لا يسمح بذلك لان الاستاذ عبد الرازق على جلالة خلقه ووافر علمه وأدبه ، لم يكن عضوا فى جماعة كبار العلماء .

كما أن تعيينه فى هذا المنصب الخطير ، يعتبر دفعا جديدا للازهر فى أتون السياسة الحزبية المتصارعة !! لان الرجل عضو بارز فى حزب الاحرار الدستوريين ووزير ممتاز من كبار وزرائه ، وله فى السياسة هوى خاص يميل مع قوم دون آخرين ، فلابد أن يكون عصره امتدادا محتوما لسياسة الاستاذ المراغى فى الانضمام الى القصر وشيعته !

لذلك نجد الاستاذ عبد المجيد نضر الله وجهه يرفض فى عنف هذا التعيين ! وقد استدعاه النقراشى « باشا » كما ذكرت مجلة المصور وحاول أن يغريه بالمال اذ كان للشيخ عدة آلاف من الجنيهات بوزارة المالية ، مكافأة شخصية على مشيخته للاحتاف بالازهر مدة طويلة ، وقد تجمدت تلك المرتبات بالوزارة لاعتراضها على أن يجمع الشيخ بين مرتبين فى وقت واحد ! فلوح له رئيس

الوزراء بصرف تلك الالوف المتجمعة سريعا اذا وافق على تعيين مصطفى عبد الرازق فغضب الشيخ فى وجهه غضبة أزعجته وصاح به فى انفعال : أتريد أن تساومنى فى الحق ؟ ثم خرج ساخطا دون استئذان ، ولم ييأس القصر بعد ، فأوفد اليه بعض رجاله يهدده بالعاقبة ويقول فى صراحة : ان معارضة الملك خطر عليك ! فقال الشيخ فى ايمان : أسيحول هذا الخطر بينى وبين المسجد ؟! فخجل رسول القصر ولم يجب ! وكان الشيخ جريئا حين أعلن نبأ هذه المحادثة بامضائه فى بيان أصدره للناس ! وهى من الذيوع بحيث لا يجهلها مصرى واحد عاصر هذه الاحداث .

أما حملته على استهتار فاروق ومجونه ، فقد كان شديدة منكرة ، ففى الوقت الذى تسابق فيه الزعماء الى تمجيد فاروق وتقديسه ، كان شيخ الازهر يصبح صيحته الغاضبة :

« تقتير هنا وتبذير هناك » مندداً بما ينفقه الملك فى كابرى من الكنوز على الخمور والقمار والنساء ! وكان رجال الحكومة اذ ذاك لا يسالمون الشيخ لاعتراضه الصريح على تدخلهم المنكر فى شئون الازهر وتعيينهم اثنين من أنصارهم فى مجلسه الاعلى ليقوما بتنفيذرغباتهم الحزبية مهما أجحفت بالعلم والعدالة والمساواة ! فانتهزوا الصيحة الغاضبة وطاروا بها الى فاروق فأقيل الاستاذ من منصبه . وقد ثبتت محبته فى القلوب ، وما ضره عزل دنىء عن منصب رسمى يسمو بالشيخ دون أن يسمو به فهو من جلالة مكانة فوق المناصب .

فهيهات أن يتسع المقال الواحد لغير السرد السريع ! على أنه لا يحيط بكل ما كان ، بل ينتخب من الحوادث المتزاحمة ما يغنى عن سواه . ولن أغفل هنا موقفه الخالد من الملك فؤاد فقد حاول أن يستبدل ببعض ممتلكاته الجديبة ، ارضا مخصبة من أملاك الاوقاف . وتلمس الفتوى الميسرة من عبد المجيد فأعلن الاستاذ فى تحمس صادق أن الاستبدال باطل لانه لا يجوز لغير مصلحة الوقف ! وهى هنا مفقودة .

ان الرجل الابى الذى يحتقر الآلاف المتجمدة فى سبيل مبدئه ، ويضحى بالمنصب الرائع اذا جر الى ضياع مثله ليحرص كل الحرص على أن تكون موارد رزقه طاهرة مطهرة ، حتى فيما ضؤل وهان ! فقد ذكر استاذى الكبير احمد حسن الزيات بأحد أعداد الرسالة ان ادارة الترام قد اهدت الى فضيلته تصريحين بالركوب فى الدرجتين الاولى والثانية ، أولهما للشيخ وثانيهما لخادمه ، فحرم الاستاذ على نفسه أن يستبيح شيئا ما دون مجهود متكافىء وقد تسرع خادمه فاستغل التصريح مرة واحدة ! فغضب الشيخ وركب عربته حتى وصل الى محطة الترام واشترى تذكرة ثم مزقها دون استعمال ، ليؤدى عن الخادم ثمن ما استهلك !!وللباحث النفسى أن يجد فى هذا التصرف المتحرز ما يكشف عن أطواء تلك الروح الطاهرة التى تتجنب الشبهات وتحرص على أن تكون مثالا مبرأ للمسلم الورع الابى .

مواقف خالدة لعلماء الأزهر

يدأب كثير من المغرضين على اتهام الازهر ، واختلاق المقالب الشائنة لرجاله ، وهم اذ يلصقون التهم الآثمة بهم الصاقا يتجافى عن الحق والانصاف ، انما يهاجمون الاسلام نفسه من وراء ستار ليحققوا مآرب خبيثة لا يقدرون على البوح بها علانية ، ولا جرم فقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر .

واعظم تهمة يمهدون لها بالعلل والاسباب هى دعوى تزلف الازهريين للرؤساء من ملوك ووزراء والسير فى ركاب أولى الامر مهما اعتسفوا الجادة وتنكبوا السبيل.

ونحن اذا تصفحنا مواقف تاريخنا الحديث نجد لاعلام الازهر فى الذود عن الحق والوقوف فى وجه الباطل آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر وتؤكد وراثة الانبياء فى قوم يخشون الله حق خشيته ، ومن المؤسف أن هذه المواقف الخالدة ــ على كثرتها المشرفة ــ لم تجد من أحصاها فى كتاب أو دونها فى تاريخ ، اذ أن الرهبة المرعبة من أصحاب النفوذ ساعدت على كتمان هذه المجابهات الصريحة ، الا ما تناثر على الافواه

من احاديث تتخذ الحيطة الكاملة فى تردادها وتداولها بين الناس ، ومع هذا التكتم الصريح فقد وعت ذاكرة التاريخ مثلا رائعا لجماعة مؤمنة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من العلماء الافذاذ !

وها نحن أولاء نسطر فى مقالنا بعض هذه الروائع الغالية ليعلم من لم يكن يعلم أن من علماء الازهـــر من حملوا مشعل الحق فى الدعوة الى الله فأثبتوا لذوى الانصاف أن الروح القرآنية التى الهمت سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعمرو بن عبيد والاوزاعى وابن حنبل والعز بن عبد السلام فى القديم هى نفسها الروح القوية التى سرت فى نفوس علماء الازهر فواجهوا الباطل بلسان صدق مبين ونحن نسجل بعض هذه المفاخر لا لنقـول اولئك آبائى بل لنقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .

لقد حكم محمد على مصر فى فترة عصيبة من تاريخها القريب فمن الذى أحصى عليه أخطاءه وسجل نقائصه ، حتى تعرض لاقصى ضروب العسف والاضطهـاد ؟ ان العالم الازهرى عبد الرحمن الجبرتى قد كان أول من سجل على الوالى الغاشم نوائبه واخذ يتنقل بين المدن والقرى فارا من عذاب اليم يتهدده من أولى الامر ، وقد تعرضت اسرته للاغتيال والحبس والاهانة . وظل المؤرخ الكبير يخط للاجيال المقبلة كلمة الحق سافرة حميدة دون أن يقعد به تحرش وارهاب ، ولو اراد الرفعة والجاه لسار فى موكب النفاق يختلق المحامد ويطلق بخور الثناء .

وقد اختلفت الآراء فى خاتمة حياته وارجحها المؤكد

أنه لقى مصرعه مستشهداً فى سبيل الراى الصريح — مما بسطنا الحديث عنه بالتفصيل فى مقال آخر — ومع أنه كان فى صدر شبابه صديقا لعلى بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب فقد سجل عليهم فى تاريخه العظيم مارآه من المظالم ، وارتفع بالتاريخ الى مرتبـــة لا تجنح الى الاهواء والميول .

هذا هو الجبرتى العالم الازهرى ابن العالم الازهرى! وهناك معه عشرات من علماء الازهر جابهوا الباطل علانية دون استخذاء فلم تأخذهم ملامة فى جنب الله وبقيت احاديثهم العاطرة تعبق فى رحاب الاجيال !.

هناك العالم الازهرى الجرىء الاستاذ حسن العدوى وقد شهد له الزعيم احمد عرابى فى مذكراته السياسية شهادة تزن ما على الارض من ثروة ومتاع ! فقد كـان وزملاؤه الازهريين فى طليعة رجال المؤتمر الوطنى الذى اصدر قراره التاريخى بعزل توفيق وتكليف الزعيم احمد عرابى بالدفاع عن الوطن بعد ان قرئت على المجتمعين فتوى ازهرية اسلامية بمروق الخديوى وخيانته ، فكان لهـا اكبر الاثر فى هيجان الشعور المصرى ضد الحاكم الخائن .

حين انتهت الثورة الى خاتمتها الاليمة تقدم الشيخ
العدوى الى المحاكمة بجنان ثابت ووقار مهيب فسأله
الرئيس : هل افتيت بعزل الجناب الخديوى ؟ فأجاب
... فوره : لم تصدر منى فتوى بذلك ومع هذا فـاذا
... تم الى بمنشور يتم من هذه الفتوى فسأوقعه .
... وسعكم وانتم مسلمون ان تنكروا ان الخديوى
بحق العزل لمروقه عن الوطن والدين ! يقول هذا وقد

شحذ الباطل أسنته وحرابه لينكل بالاحرار الباسلين ، فتتضاءل فى تقديره كل عقوبة ظالمة تتخيلها الاذهان ويرفع هامته فى ساحة المحاكمة عالية شماء !

هذا العالم الازهرى الورع قد طلب منه فى اثنـــاء زيارة السلطان عبد العزيز لمصر ضيفا على اسماعيل أن يقوم بتقليد رسمى كريه فينحنى الى الارض ثلاث مرات يأخذ فيها السلام الى راسه ثم الى فمه ثم الى صدره ويخرج موجها صدره الى الخليفة وظهره الى الباب !

وتوقع ذوو الامر أن يفعل ذلك ولكنه اعتقد فى قرارة نفسه أن هذه التقاليد آثمة لا تنبع من روح الدين بل تعيد الوثنية ثانية فى أمة شرفها الاسلام بالتوحيـــد والمساواة ، فسخر بكل ماسمع ، ودخل الى الخليفـــة مرفوع الرأس قائلا السلام عليك يا أمير المؤمنين ثم ابتدره بالنصيحة ودعاه الى تقوى الله والخوف من عذابه !

وهاج الخديوى واضطرم الغيظ فى صدره ولكن السلطان يعجب بما يرى ويخلع على الرجل حلة ثمينة ويقـــول للحاضرين : « ليس لديكم عالم سواه » (١) .

وهناك العالم الجليل الأستاذ حسن الطويل العـــالم الازهرى فقد كان من عزة النفس والثقة بالله على جانب رفيع ممتاز ! دخل عليه رياض باشا وهو يدرس لطلابه بدار العلوم فما غير موقفه أو بدل جلسته وحين هم الزائر بالخروج قال له الأستاذ : لماذا لا أكون وزيرا معكم ياباشا فدهش الزائر وقال : أى وزارة تريد ؟ فقال : وزارة

---

(١) من كتاب العدالة الاجتماعية فى الاسلام سيد قطب ص ١٦٨ وقد الم ايضا بوقف الشيخ حسن الطويل فى مقابلة توفيق .

المالية لاستبيح من أموالها ما تستبيحون (١) !! وكانت لطمة اليمة توجه الى حاكم ارستقراطى لم يألف التهكم والاستخفاف ! فخرج ثائرا مهتاجا واستدعى ناظـــر المعارف على مبارك ليعجل بفصله من وظيفته ولكن يدا أعلى من يد رياض باشا تقف فى وجهه فيتراجع عـــن غطرسته العاتية مدحورا وقد آثر الا يزور مدرسة أو معهدا بعد ذلك !

هذا الرجل العظيم الشيخ حسن الطويل ، قد طلب منه أن يرتدى ملابس خاصة ليقابل بها الخديو توفيق . وحان الموعد المرتقب فجاء بملابســه المعتادة ومعه منديل يضم الملابس الرسمية ، ثم قدمها للخديو قائلا فى بساطة: ان كنت تريد الجبة والقفطان فها هما ذان ، وان كنت تريد حسن الطويل فهأنذا حسن الطويل !! ثم قال الشيخ لجلسائه : كيف أتجمل لتوفيق بلباس لا أتجمل به لربى فى الصلاة ؟ وهذا لعمرى منطق اليقين الجازم والايمان العجيب .

وهناك الاستاذ الانبابى شـــيخ الجامع الازهر ، دخل عليه اللورد كرومر محييا فصافحه الاستاذ من جلوس فاستعظم اللورد ما صنع وساله : ألست تقوم للخديوى؟ فقال : نعم لان الخديوى ولى الامر ، وهو منا ولست مثله لدينا فى شىء (٢) ولم يقل الشيخ ذلك تزلفـــا للخديوى فهو العالم الجرىء الذى جابه توفيقا وأفتى بعزله ومروقه دون تحفظ أو اكتراث . ولقـــد كان

---

(١) من أخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٨١ .

(٢) من أخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٨٢ .

كرومر فى منعة عزيزة يتضاءل معها جاه خلفه الاخير « كلين » ومع الفارق البعيد بين الاثنين فقد رأينا رؤساء الحكومات ينكمشون ويتضاءلون جوار مايلز لامسون ، ثم لا يجدون من صحافة اليوم غير المديح والتنويه .

وهناك الاستاذ الشيخ النواوى شيخ الجامع الازهر. فقد أرادت حكومة مصطفى فهمى أن تضعف القضاء الشرعى اجابة لرغبة المعتمد البريطانى . فدعت لتعديل اللائحة الشرعية مستندة الى نفوذ المستعمر كعهدها فى حكمها الطويل البهيم ! ولكن الشيخ النواوى يحمل على المشروع بكلمة موجزة فتطير فى الامة كل مطير ويتأهب الكتاب لنقده نقدا جارحا فتتخاذل الحكومة وتؤثر الانسحاب بمشروعها الخطير (١) ولو كان هذا الموقف لزعيم سياسى لظلت صحفنا « المنصفة » تردده بين الحين والحين .

ومن المدهش العجيب أن الذين يكتبون عن الاستاذ الامام محمد عبده يعز عليهم أن يعترفوا بمواقفه الخالدة من الحكام ويكثرون الحديث عن عمله وجهاده فى التربية والاصلاح ونشاطه الاجتماعى بل ربما اتهموه آثمين بمحاباة الانجليز والدعوة الى الاحتلال ، أما موقفه الخالد فى الثورة العرابية ونفيه الى الخارج فلا يحتاج الى تسجيل . وأما مواقفه المتكررة من عباس فيجب أن يسحب عليها ذيل العفاء !

لقد أراد الخديوى السابق أن يجعل أموال الاوقاف

---

(١) مجلة الرسالة ص ١٦٣ السنة ١٥ نقلا عن فضيلة الاستاذ فرج السنهورى .

بقرة حلوبا تدر عليه الارباح من أيسر طريق ، فوقف الامام فى وجهه وقفة كشفت مطامعه للعيان . وأدت الشحناء دورها فى قلب عباس فتعقب الامام فى كل طريق ناصبا مكايده الخاتلات !

لماذا عارض الخديوى اصلاح الازهر ! ولماذا عارض اصلاح القضاء ؟ السبب واضح ، فالاستاذ الامام قد رسم المنهج ، وأعد الخطة ، واثار الرأى العام ، فلابد ان ترجع مشروعاته بالخيبة والاخفاق .

لقد كتب الاستاذ الامام عن « محمد على رأس الاسرة الحاكمة » مقالا جريئا يبرزه على حقيقته امام القراء . فكان ثانى كاتب ــ بعد الجبرتى ــ فى مصر يصور بالعربية حقيقة هذا الحاكم السفاح ، وفى الوقت الذى احتفل فيه أساتذة النفاق بالذكرى المئوية « لساكن الجنان » منذ قريب !! كان هناك ازهرى ثالث هو العالم الازهرى الداهية محمد الغزالى ينقل كلام الشيخ محمد عبده عن محمد على فى كتابه « تأملات فى الدين والحياة » ثم يشفعه بالتفسير والتوضيح !

ونحن ندعو القراء الى مطالعة ما كتبه محمد عبده والغزالى عن محمد على ، ثم ليقرءوا الاعداد الخاصة من الصحف والمؤلفات الضخمة من الكتب التى صدرت فى الذكرى المئوية « العزيزة » تملقا لفاروق وارضاء للباطل وحينئذ يعرف القارئون من المتزلف المتملق ، انحن أم هؤلاء !

واخيرا تعالوا بنا الى العهد القريب لتعلموا ما صنع مفتى الديار المصرية السابق الشيخ محمد بخيت المطيعى

رحمه الله فقد لطم الاستعمار لطمة قاسية حين أصدر فتوى دينية وطنية فى مقاطعة الانجليز فسرت مسرى النار فى الهشيم وبددت ما نسج من الاحلام والامنيات ولقد كان الشيخ بخيت أكبر مفت للاسلام فى عصـــره ورفض ثروة مغرية قدمت اليه حين أصدر فتوى اسلامية فى وقف من الاوقاف قائلا كلمته الجليلة « العلم فى الاسلام لا يباع » ولعمرى أن هذه الجملة الصغيرة على ايجازها المجيب ، قانون اسلامى خالد يجب أن يتردد ويذاع ليؤمن به المسلمون ويعملوا به .

هذه بعض المواقف الرائعة فى تاريخ الازهر ، ومــن المؤسف أن يعاون المأجورون على طمسها واخفائهــا ، فيحولوا دون شرف خالد للتاريخ المصرى يوشـــك أن يندثر بلا تسجيل !! واذا كان منهم من يريد أن يطفىء نور الله فالله متم نوره ، ولن يعدم الحق لسان يقول : « هاؤم اقرءوا كتابيه » .

فهرس

مقدمة ... ٧
سعيد بن المسيب يتحدى ... ١١
سعيد بن جبير فى مواجهة الحجاج ... ٢٢
يحيى بن يعمر يقل صريح ... ٣٥
مثل رائع من صراحة الامام الاوزاعى ... ٤٤
عمرو بن عبيد عالم مثالى ... ٥٣
أبو حنيفة شهيد الحق ... ٦٢
عظمة مالك بن انس واباؤه ... ٧٠
يعقوب بن السكيت يستشهد ... ٧٧
أبو جعفر البهلول يقهر الباطل ... ٨٦
بكار بن قتيبة قاض كبير يعتز بالحق ... ٩٤
محمد بن بشير وشهادة الحاكم ... ١٠٤
طالوت المعافرى فقيه كبير يصاول أميرا ... ١١١
المنذر بن سعيد ومواقفه المشهورة ... ١٢٠
العز بن عبد السلام سلطان العلماء ... ١٢٨
محيى الدين النووى وسطوة الظاهر بيبرس ... ١٣٩
ابن دقيق العيد فقيه شجاع ... ١٤٦
ابن تيمية يصدع بالحق ... ١٥٣
قضاة المذاهب والسلطان الغورى ... ١٦١
علماء الازهر يرهبون المماليك والاتراك ... ١٧١
عبد الرحمن الجبرتى يهاجم الطغاة ... ١٧٨
جمال الدين الافغانى باعث الشرق ... ١٩٨
عبد المجيد سليم بقية السلف الصالح ... ٢٠٨
مواقف خالدة لعلماء الازهر ... ٢١٨

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤/٣٦١١
الترقيم الدولى ٧-٩٦٠-١١٨-٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maceol Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع فى الخارج للعدد الممتازفئة ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٨٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ م.س ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠٠ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠سنت ، اليمن الشمالية ٧ ريال ، اديس أبابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنى ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٤٠٠ فلس



هـذا الكتاب

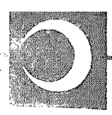
يقدم هـذا الكتاب صورا نادرة من بطولة الرأى فى التاريخ الاسلامى ، اذ يعرض مواقف ساطعة لنفر من القادة صدعوا بكلمة الحق دون أن يرهبهم بريق السيف ، او يسحرهم رواء المنصب والمال ، وفيهم من قدمه فداء للحق الصريح دون أن تأخذه لومة لائم ، فلقى الله شهيدا كريما .

وفى هـذا الكتاب صفحات مشرقة توالت منذ القرن الاول من تاريخ الاسلام ، لتثبت أن العقيدة الصحيحة قد خلقت أبطالا يحملون الراية الكريمة على مر العصور المتتابعة ، ففى عهود بنى أمية وبنى العباس والفاطميين والاندلسيين والمماليك ، وفى هـذا العصر الذى نعيش فيه أمثلة كريمة لاعلام عز عليهم أن يروا الحق مهضوما ، فسارعوا بنصرته طائعين ، وهم يدركون مدى ما يتعرضون له من خطر ماحق حين يواجهون الاعصار القاصف بناره وحديده وجبروته .

يرى القارىء صورا من نضال أئمة الاسلام من امثال سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وابى حنيفة ، ومالك ، والاوزاعى ، ويحيى بن يعمر ، وعمرو بن عبيد ويعقوب بن السكيت والبهلول وابن بشير والمنذر بن سعيد والعز بن عبد السلام ومحيى الدين النووى وابن دقيق العيد ، وابن تيمية ، وعبد الرحمن الجبرتى وجمال الدين الافغانى ، وعبد المجيد سليم ، وكلها حقيقة واقعية لا اثر فيها للخيال ، اذ وجدت من واقعها الصريح ما يغنى عن الخيال ، وكل سيرة من هـذه السير تصلح ان تكون كتابا مستقلا بما توجز من معانى الكرامة ، وتضم من روائع البطولة فجاء هذا الكتاب ليضمها فى صفحات يسيرة ، ذات ايحاء جانب ، وتأثير نفاذ ، وسيجد القارىء بين يديه ما يقنع عقله ، ويمتع فؤاده ، ويرضى ايمانه بتاريخه الحى ، واعلامه الافذاذ .

٥٠ قرشا

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

عش مطمئن النفس

د. فرانك س. كابريو

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٤٠٣ - شوال ١٤٠٤ - يوليه ١٩٨٤

No. 403 — July 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عدداً » فى جمهورية مصر العربية أربعة جنيهات مصرية و ٨٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات أو ما يعادلها بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنـــانة سميحة حسنين

عش مطمئن النفس

بقلم

الدكتور فرانك س. كابريو

دار الهلال

العقل المختزن

قسم فرويد العقل الى ثلاثة اقسام : اللاشعور (الهى) .. الشعور (الأنا أو الذات) ، الضمير (الأنا الأعلى ، أو الذات العليا) .. وفى اللاشعور تختزن كل ذكريات الماضى وتجاربه . وهى جاهزة معدة لاستخدامها كلما مست اليها الحاجة . أما الشعور فيظل بعيدا عن هذه التجارب الماضية حتى تشتد اليها الحاجة ، وذلك لكى يفرغ لمجابهة التجارب الجديدة التى تقع اليوم ، أو التى ينتظر حدوثها غدا .. والحياة تبدأ جديدة كل يوم ، ولكن التقاءنا باليوم الجديد ، وموقفنا بازاء احداثه يصطبغان بتجاربنا الماضية وما كان منا حيالها . وطريقتنا فى مواجهتنا تجارب اليوم تتوقف ، الى درجة كبيرة ، على طريقتنا فى مواجهة حوادث الماضى .

ونحن لاندرك تأثير اللاشعور ، وان كنا احيانا يسأل الواحد منا نفسه : « ترى ما الذى حملنى على أن أفعل ذلك ؟ » ، « لماذا ارتكبت هذه الحماقة دون تفكير ؟ » ان اسلوبنا فى مواجهة المواقف المختلفة قد أصبح عادة اكتسبت على مر الحياة لتخليص الشعور من عبء البت

والتقرير فى كل ما يطرأ لنا من مواقف . اننا نتعلم كيف نمشى ، وكيف نغتسل ، وكيف نرتدى الثياب ، وكيف نأكل ، بحيث يسعنا أن نفعل ذلك دون تفكير . وبالطريقة نفسها تكتسب عادة التفكير . فلو تعلمنا كيف نعامل الناس برفق وادب ، وكيف نتقبل الاضرار الحقيقية والمضايقات بابتسامة ،وكيف نحول نظرنا الى الجانب المشرق للحياة ، فأكبر الظن اننا سننهج هذا النهج فى اعمالنا وتفكيرنا طوال حياتنا .

ومن ناحية أخرى ، لو اعتدنا سرعة الغضب ، والرد القاسى الجاف ، والتشكك ، والغش ، والكذب ، والخداع فان أعمالنا ستتجه اليوم نفس اتجاهها بالامس . فاذا اتسعت دائرة ثقافتنا ، وارتقى تعليمنا فسينشب صراع دائم من اجل العمل بطريقة أفضل ، ولكى نسمح للشعور بأن يتغلب على اللاشعور . ولن يقتصر هذا الصراع على تبديد جهدنا وطاقتنا وحسب ، بل سوف يحول بين العقل وبين معالجة الامور الجليلة التى تمر بنا فى حياتنا .

ولا يجب أن يفهم مما سلف أن اللاشعور ليس الا مخزنا تحفظ فيه التجارب المؤلمة التى مرت بنا فى حياتنا وحسب ، بل انه يتسع أيضا للتجارب الطيبة السارة والعادات الحميدة فى التفكير والعمل . فالموسيقى العذبة مثلا ، ترتد بنا الى الذكريات الجميلة والاوقات الهنية التى قضيناها مع الاحباب والاصدقاء . والاحساس الجميل الذى يطغى علينا عند سماع الموسيقى ، ينبعث مما رسخ فى أعماقنا من ذكريات سعيدة . وفى بعض

الاحيان تردنا الموسيقى الى الذكريات الحزينـــة ، والى الاسف والندم على ماسلف من أيامنا هباء ، والى الاخطاء التى ارتكبناها فنبكى ... او قد توقظ الموســيقى ضمائرنا وتحدو بنا الى أن نعتزم سلوك سبيل أفضل فى الحياة .

واللاشعور هو خزانة ودائعنا ، فليس فيه شىء لم نودعه فيه بانفسنا . والبواعث والدوافع التى تدفع اليها نزعاتنا البدائية ، والتى لا تصلح للانسجام مع المجتمـع المتحضر ، لو سمح لها بالظهور ، فهى لا محالة ستصبغ حياتنا اليومية بصبغتها ، وتفسد نظرتنا للامور . ومن اجل هذا ينشب الصراع بين الضمير ـ الذى يعمـل للحيـاة المنسجمة ـ وبين اللاشعور الذى يحوى هذه الرغبـات المضادة للمجتمع . فاذا قوى هذا الصراع واشتد ولد كل صنوف الأعراض العصابية .

اللاشعور اذن ، يحوى النزعات الفطرية والرغبـــات البدائية ، كما يحوى التجارب الماضية من مؤلمة وسارة ، واحيانا كثيرة نتخذ من الوراثة ، او الفقر ، او القصـــور البدنى مانبرر به اعمالنا العصابية ، والواقع انه ليس لها من تبرير الا أن صراعا قد نشب بين اللاشعور والضمير . فرغباتنا البدائية قد احكم الضمير الاغلاق عليهمـــا فى اللاشعور ، وجهاد هذه الرغبات للظهور هومايولد الاعراض العصابية ، أو السلوك العصابى . أما اذا سمح لهـــذه الرغبات بالظهور ، فالمجتمع عندئذ هو الذى يعانى الغرم ، فنسمع عندئذ بروح ازهقت ، أو نار شبت لا يعـــرف مشعلها ، أو عذراء اغتصبت !

على أن الامر لا يبلغ هذا الحد دائما ، فاننا لا نسمح لرغباتنا البدائية أبدا أن تظهر ، بل نكبتها ونجتهد في كبتها ، ونكتفي بمعاناة اعراض نضالها مع الضمير في سبيل الخروج !

وكثيرا ما يخشى المصابيون أن يرتادوا اللاشعور ويستكشفوا خباياه خوفا مما قد يتكشف لهم . فالتنقيب في اللاشعور يكاد يعادل الاكل من الشجرة المحرمة ! غير أن دراسات فرويد وابحاثه قد كشفت لنا أن الاتزان لايتم الا بايجاد التوافق بين هاتين القوتين المتناضلتين : اللاشعور والضمير .

وخذ مثلا الفتاة التي عثرت على حافظة بها ثلثمائة جنيه . فقد قوى في نفسها الاغراء بأن تحتفظ بها . واستقرت افكارها على الاشياء الكثيرة التي تستطيع ابتياعها بهذا المال . لقد كان هذا الاغراء من عمل اللاشعور وقد قصد به أن تزيد الفتاة من شعورها بالامن على حساب الغير ، وهو شعور موجود في كل منا ، نابع من غريزة حفظ الذات . ولكن الفتاة تجد نفسها معذبة بصوت الضمير الذي يلح عليها قائلا : « يجب أن تعيدي الحافظة الى صاحبها ، واسمه وعنوانه مسجلان على بطاقته .. ماذا يكون شعورك لو كنت انت التي فقدت هذا الكيس ؟ هل يمكن ان تحسي بالسعادة وانت تعلمين أن الذي فقد الكيس لابد أن يعاني عواقب هذا السلوك غير الشريف منك ؟ » .

وعلى الرغم من صيحات الضمير ، فقد أصرت الفتاة

على الاحتفاظ بالنقود ، وراحت تنفقها فى شراء الثياب .
على أن شعورها بجرمها لم يلبث أن بدأ يتجلى فى صورة صداع نصفى لا يكاد يفلتها ! ولم يتبادر الى ذهنها قط أن ثمة علاقة بين الاحتفاظ بالكيس وهذا الصداع النصفى !
ومن الطريف أنها أنفقت على علاج هذا الصداع ، وعلى محاولة الوقوف على سببه ، أكثر بكثير مما عثرت عليه !

وعلى هذا النمط يعمل العقل فى عديد من الاضطرابات العصابية . ان الضمير ، وهو المسئول عن شعور الفتاة بجرمها ، يقف حاجزا بين الشعور واللاشعور ، ويصد النزعات غير المهذبة التى يمكن أن تعود بالضرر علينا وعلى الناس .

وثمة عصابيون كثيرون يقاسون من احساس كاذب بالذنب ، أو مايسميه الناس « وخز الضمير » . فهم يأخذون الحياة مأخذ الجد ، وهم بطبيعتهم مفرطو الحساسية حتى أنهم يعتبرون كل متعة طبيعية فى الحياة جريمة وخطيئة ، ومثلهم فى ذلك مثل المرأة التى تفضل أن تبقى دون زواج ، وأن تتكلف حشمة حمقاء على أن تحب وتتزوج !

والاشخاص « الاسوياء » لا يولون ظهورهم للاشعور ، ولا هم يتحدون ضمائرهم ولا يكبتون نزعاتهم التى تسبب المتاعب ، ولا يفصحون عنها ، وانما يتعلمون أن يفهموا هذه النزعات ويكبحوا جماحها : اما بتأثير تعاليمهم الدينية ، واما عن طريق احترامهم للقواعد الاجتماعية . لقد تعلموا ان الحياة معادلة بين الألم والسرور ، والحزن والفرح ..

وفى حين أن العصابيين يسرفون فى الروغان من تبعات الحياة ، ويرفضون تبعاتها وأثقالها ، فان الاسوياء يعرفون ان عليهم أن يقدموا التضحيات عن رضاء ، وأن يواجهوا تبعاتهم وجها لوجه ، وأن يتحملوا قدرا معينا مـن الالم دون شـكوى ، وأن يمارسوا الاعتدال فى طلب اللذات والمتع .

قال هربرت سبنسر يوما : « ان العقل هـو الذى يصنع الخير والشر ، وهو الذى يجعل الانسان سعيدا أو شقيا ، غنيا او فقيرا » .

نعم ، فان العقل قادر على التفكير المنحرف الذى يبعث على ارتكاب الجرائم ، وقادر أيضا على التفكير الانشائى البناء ! .

وهذه اقتراحات لعلها تعينك على اكتساب النوع الاخير من التفكير :

* تعلم أن تستبدل بالرأى السلبى رأيا ايجابيا . فخير للمرء الف مرة أن يتطلع الى المستقبل ،من ان يظـل يذكر ضروب الفشل الماضية . انك لا تستطيع اصلاح الماضى ، أما الحاضر والمستقبل فهما من صنع يدك ، ولك أن تدبر أمرهما وتستمتع بهما .

* لا تجتهد فى طلب الكمال ، فمن يطلب الكمال كمن يطلب أن يكون نزقا طائشا ، كلاهما عصابى ! وليس خطيئة أن تنعم بالحياة اذا التزمت الاعتدال ، فالحياة المتزنة تقع فى دائرة قدرتك على ايجاد التوافق بين الرغبة فى اللذة التى يوحى بها اللاشعور ، وبين المطالب التى يفرضـها ضميرك . واذكر أن الحوادث التى تقـع لنا هى التى

تشيدنا او تحطمنا ، فرد الفعل لهذه الحوادث هو الذى له خطره وتقديره ، فاستمتع بعواطفك ومشاعرك ، ولكن لا تجعلها تسيطر عليك وتتحكم فيك .

* احذر أن تجعل اللهو غاية فى الحياة ، فان ضروب الصراع لا تحل بعدم المبالاة بالحياة ، وانما يفضى هـــذا الموقف الى استنفاد نشاطنا العصبى ، ويقوى احساسنا بالجرم ، ويسبب انبعاث صراعات انفعالية أخرى .

* اذكر ان فينا جميعا نزعات ورغبات نحن مضطرون لكبحها ، فاذا لم تكبح فانها ستفضى الى عدم الانسجام والتوافق . والكشف عن رغباتنا المكبوتة وتسليط الضوء عليها يقللان من مخاوفنا ، فتعلم أن تواجه النزعـــات المتغلغلة فى أعماقك ، وتقبلها على علاتها !

من هو الإنسان السوى؟

ومن الأسئلة التى أصبحت شائعة اليوم ، وبما بدافع انتشار المؤلفات النفسية انتشارا لم يسبق له مثيل ، هذا السؤال : « هل نحن جميعا عصابيون الى حد ما ؟ »

والجواب هو : نعم !

فلكل انسان طريقته الذهنية فى اللف والزوغان ، وله أوهامه ومخاوفه . ولكن الأطباء النفسيين يفرقون بين الافراد بمقدار ما يبدونه من كبح للنفس ، وما يظهرونه من سبل لمواجهة مواقف الحياة المختلفة . وفى الاستطاعة تقسيم الناس بوجه عام : الى أقسام خمسة :

١ ــ الأسوياء ،

٢ ــ العصابيون .

٣ ــ السيكوباثيون « المجرمون ، والقتلة ، ومنتهكو الأعراض ... الخ » .

٤ ــ المعتوهون « الذين بعقولهم نقص » .

٥ ــ المجانين .

ومن هذا نرى أن الأسوياء ليسوا الا قسما واحدا من الناس فمن هو الانسان السوى ؟

أن الانسان السوى ، كما يصفه الطبيب النفسى الانجليزى « ادوارد جلوفار » ، « هو الذى يخلو من أعراض الصراع العقلى ، وله قدرة مرضية على العمل ، ويستطيع أن يحب انسانا آخر الى جانب حبه لنفسه »

ولعل السؤال الذى يمكن ان يقفز الى الذهن عند هذه النقطة هو :

« هل يمكن أن يتحول الانسان العصابى الى انسان سوى ؟

والجواب هنا هو : نعم ، وبكل تأكيد .

فكلمة سوى ماهى الا تقدير نسبى .. فما يمكن أن يكون سلوكا سويا أو طبيعيا فى مكان ما ، يمكن أن يكون سلوكا شاذا فى مكان آخر . ونضرب مثلا بعريس من اواسط افريقيا يظهر فى حفلة زفافه حافى القدمين ، فهذا سلوك منه طبيعى ! أما اذا كان العريس حافى القدمين فى قلب القاهرة فسيقبض عليه ، بلا ريب ، للكشف على قواه العقلية !

والذين يمكن وصفهم بانهم أسوياء ، تتوافر لهم هذه القدرات :

١ ـ القدرة على اثبات النضج الانفعالى :

كأن تكون لهم علاقة قوية بآبائهم ، ويكونوا مع ذلك مستقلين فى التفكير والعمل ، معتمدين على أنفسهم ، قادرين على مساعدة انفسهم بانفسهم .

ذهبت شابة فى السابعة والعشرين من عمرها الى

طبيب نفسى ، تشكو من انها اعتادت منذ سبع سنوات ان تمضغ عيدان الثقاب ثم تبتلعها ، وعللت ذلك بقلقهـــا وعصبيتها ! ثم حدث أن نقلت للعمل فى بلد بعيد ، وكانت تكتب الى امها رسالة كل يوم . وقد كشفت هذه الرسائل المتبادلة بين الام وابنتها ، عن تعلق احداهما بالاخرى تعلقا عصابيا . ثم تفاقمت حالالفتاة ، حين التقت بشـــاب واحبته ، ولكنها خافت الزواج منه خوفا شديدا .. ان هذه الفتاة ، برغم سنها ، لم تفطم بعد « سيكولوجيا »، مما يفسر عادة مضغ عيدان الثقاب ، وقد كانت مـــن الوجهة الانفعالية طفلة لم تنضج بعد النضج الذى يؤهلها للزواج .

وقد دل بحث اجراه الدكتور « ستريكر » عن انتشار التعلق بالأم (Momism) انتشارا لا يصدق ، سواء من الفتيات أو من الفتيان .

والابنة العصابية لا تستطيع احتمال تبعات الحيـــاة الزوجية ، فتقفل عائدة الى ابويها حين تسوء الامور بينها وبين زوجها . والامر نفسه ينطبق على آلاف الرجال الذين لم يستطيعوا أن يخلصوا انفسهم من الرباط الذى يشدهم الى امهاتهم .

أما الانسان السوى فهو الذى لا يعتمد على احد فى حل ما يواجهه من مواقف .

٢ ـ القدرة على تقبل الواقع

والاباء الذين يخلقون فى ابنائهم الخوف والاعتمـاد

على الغير لا يجب الا ان يتوقعوا ان يشب أبناؤهم ضعاف الشخصية ، غير قادرين على الصمود امام عوامل الفشل والخيبة فى رجولتهم . فمثل هؤلاء الابناء المعتمدين على آبائهم لا يستطيعون أن يصلوا الى التوافق الاجتماعى والاقتصادى السليم .

اما الفرد السوى فيوقن انه بعد ان بلغ الحادية والعشرين من عمره ، عليه أن يشق طريقه فى الحياة لاكتساب رزقه .

ومزاولة العمل دون الاغراق فى الشكوى امر اساسى للسعادة . فالذين يستمتعون بأعمالهم ، لا يتسع وقتهم للشقاء والتعاسة . والانسان السوى يعلم حق العلم ، أن الحياة كفاح فى سبيل البقاء ، فهو متأهب العقل لصدمات الحياة ، وهو كذلك موقن أنه يحيا فى عالم ملىء بضروب الصراع والحيرة ، وحوادث الطلاق والانتحار ؛ ولكنه مع هذا كله لا يغدو مستخفا بالحياة ، بل يظل يعتقد أن الحياة مغرية جذابة ، ولا يزال يجد فى نفسه الباعث على العمل ، ويقابل الشدائد بحماسة وقلب قوى ، وله من الشجاعة ما يمكنه من أن يواجه أى حظ سىء يعترض طريقه .

٣ ـ القدرة على مسايرة الناس :

والانسان السوى يستطيع ، بشخصيته المرنة ، أن يكيف نفسه لكثير من المواقف المتغيرة المتقلبة . وسنسر

قدرته على التوافق مع الناس هو قدرته على اخضاع انفعالاته لرقابة عقله وسيطرته . أما العصابى ، فيصدر سلوكه عن انفعالاته ، على حين يتدبر الفرد السوى الامور ويدرسها قبل أن يقدم على عمل أو يتخذ قرارا . فانه لا يسمح بأن يتسلط الهوى عليه ، لانه يعلم ان العالم ليس ملكا لاحد ، وأن التعاون أفضل من التدافع بالمناكب وهو لا يتدخل فى شئون غيره ، ويفضل أن يدرس مسألة بدلا من أن يشغل نفسه بجدل عقيم . وهو من الحزم ، بحيث لا يخلق لنفسه اعداء . وهو كيس ، لبق ، صادق، متصف بروح الدعابة ، غير انانى ولا اثر ، يتقبل النقد تقبلا حسنا . وهو الى ذلك يبذل قصارى جهده للحيلولة دون انفجار غضبه ، أو غيرته ، أو حقده .

اما العصابى ، فعلى النقيض من هذا ، حاد الطبع ، شديد الحساسية ، سريع الانفعال .

٤ ــ القدرة على حب الغير

وقبل أن نتمكن من منح حبنا للغير ، يجب أن يكون هذا الحب مستقرا فى أعماق قلوبنا . وانه لمن سوء الطالع ان الاباء يعرضون أطفالهم ، عمدا أو عن غير عمد للتاثيرات العصابية المنبعثة من تعاستهم الشخصية ، وكنتيجة لذلك نجد أشخاصا أتوا من بيوت محطمة منهارة ، فعجزوا عن اقامة علاقات ود ومحبة مع من يتزوجونهم . ولما كانوا ضحايا للتعاسة والشقاء ، فانهم قد شبوا على الرثاء لانفسهم ، والاحساس بالمرارة ضد امهاتهم او آبائهم ،

ثم يحملون معهم عدم الرضا عن انفسهم الى حياتهم الزوجية . انهم يشعرون أنه قد غدر بهم ، وخدعوا فى الحب الذى يتشوقون اليه ، ولا يستطيعون ان يتغلبوا على الجراح العاطفية التى احدثها افتراق الوالدين أو طلاقهما .

والعادة ان العصابيين يتزوجون لاسباب عصابية . وغالبا ما يخطئون الحكم على من يختارونه شريكا لحياتهم اعرف شابة وقع الطلاق بين والديها حين كانت طفلة : وقد اعترفت بأنها لم تتزوج الا رغبة منها فى البعد عن امها ! قالت لى : « كنت شقية طوال حياتى ، وما عرفت يوما المعنى الحقيقى للحب . كانت أمى مستبدة طاغية ، فخلقت فى نفسى الشعور بالمهانة ، وكان من اثر ذلك ان خطبت لاول شاب التقيت به ! »

وطبيعى انها تعست فى هذا الزواج القائم على هذا الاساس العصابى ! والانسان السوى يحب نفسه بطريقة سوية ، وهو سعيد قبل الزواج ، ولهذا ، فهو قادر على أن يشرك غيره فى هذه السعادة . ان الزواج بالنسبة له زمالة عاطفية تمتد طول العمر .

٥ ـ فلسفة فى الحياة .

وهى القدرة على اتخاذ فلسفة ترفعه فوق مستوى التعقيدات التى تعرض له فى الحياة اليومية .

انه يكتسب الحكمة من تجارب الماضى واخطائه ، ويستخلص « طريقا للحياة » من شانه أن يجعل الحياة

اسعد واقرب الى الاحتمال . وهو قادر على الاسترخاء ، والسعى وراء منافذ التسلية ترويحا عن رتابة الحياة .

انه يعتقد ان الحب والعطف اللذين يمنحهما للغير يرتدان اليه اضعافا مضاعفة ، وأن رفقته للبشر هى مزيته الكبرى التى يستطيع عن طريقها ان يظفر بأعظم السعادة .

والقدرة على الاستمتاع بالحياة تنشأ عن فلسفة للحياة، او مبدأ معين هو ان السعادة حالة يمكن أن تخلق خلقا .

مما اسلفنا اذن ، يتبين لنا أن فى وسع العصابيين أن يتحولوا الى أسوياء طبيعيين ، اذا بذلوا الجهد لاكتساب ما يلى :

١ ـ اكتساب النضج الانفعالى « أى التحرر من عبودية العائلة »

٢ ـ تقبل الواقع « اى العمل والسعى للرزق دون شكوى » .

٣ ـ ترك القيادة للعقل لا للانفعال .

٤ ـ خلق القدرة على الحب « بأن يجدوا الحب الموجود فى أعماقهم ثم يسمحوا بأن يشاركهم فيه الغير »

٥ ـ اتباع طريقة فى التفكير أساسها تقدير كل ماهو طيب جميل فى الحياة .

العصابيون بشر

ان تتبع تاريخ حياة المريض النفسي ، ومحاولة ادراك لماذا يفكر هذا التفكير ويسلك هذا السلوك ، وماهى مواطن جهله ، ونقط ضعفه التي يفشل فى تبينها او يابى ان يسلم بها ، اشبه شيء بما يفعله رجل البوليس السرى الذى يتلمس الطريق فى كل قضية معضلة : فان الطبيب النفسى يحاول ان يكشف عن العوامل العميقة التى تختفى وراء شكوى المريض العصابية ، ولا تكفيه ظواهر المرض واعراضه .

والعصابيون ليسوا الا افراداً اختلت شخصياتهم وافسدت والاغلب انهم ضحية طفولة غير سعيدة،لان آباءهم انفسهم فى الاغلب غير سعداء . والعصابيون اقل من الناس العاديين نضجا ، واشد منهم عاطفة . واوفر حساسية ، وهم اميل ما يكونون الى التوتر والعصبية ، سواء اثيروا او لم يثاروا ، كما أنه من العسير عليهم ان يواصلوا الحياة رغم فشلهم الشخصى . على انك اذا سبرت اغوار شخصياتهم ، فانك ستجد انهم اساسا قوم ظرفاء ! كذلك هم على نقيض العاديين ذوو ضمائر حادة .

انهم يعانون من شعور قوى بالذنب ، وعن غير وعى يعاقبون انفسهم على ذنوبهم التى ارتكبوها ضد قوانين المجتمع غير المدونة ، وذلك عن طريق العقاب الذاتى .

والعصابيون اشد الناس حاجة الى أن يفهمهم الناس ، ولا شيء يقلل من فرص شفاء العصابى مثـــل اذلاله وامتهانه ، كأن تجعله يشعر بانه مسئول عن مرضـــه . ويخطيء كثير من الاقرباء فى وضع العصـــابى فى قائمة واحدة مع المتمارض الذى يدعى المرض . ان العصـــابيين مرضى حقيقة ، وكثيرون منهم يصرحون بأنهم يفضـــلون تحمل عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية مثلا على أن يظلوا يقاسون مايقاسونه . انك لا تستطيع أن تفقـــد صبرك مع مريض عصابى ، او أن تفترض أنه مجـــرد « مخادع » ، فانك ان فعلت وجدت بين يديك مشـــكلة أعظم من المشكلة الاصلية .

وفى اغلب الاحيان يكون العصابيون ذوى ضـــمائر متيقظة ، ومثالية عظيمة ، وطيبة مبالغ فيها .

كانت « لولا » فتاة جذابة ، تناهز الثلاثين من عمرها ، وقد شكت من أن رئيسها يعاملها معاملة ظالمة ، وأن زملاءها فى العمل بدءوا يتحدثون عنها أحاديث تنتقص من قدرها وفى هذا الوقت بالذات بدأت تشعر بضروب من الصداع الاليم ، والاعياء ، فراحت تتردد على الاطباء ، وهى تعتقد أن هذه الاعراض نتيجة لامراض جسمية ، غير أنها لم تنل من العلاج الطبى الا قليلا من الراحة .

وكان أفراد أسرتهـــا مقتنعين بانها انما تنشد العطف

والحنان ، ومن سوء الحظ انهم قالوا لها انهم لا يريدون منها أن تزعجهم بشكاواها الكثيرة . واذ ذاك احست « لولا » أن أسرتها قد نبذتها ، وأن أهلها لم يفهموها ؛ فأحست انها كاليتيمة فى عالم لا يشفق ولا يرحم ، وكنتيجة لذلك اتخذت سلوكا دفاعيا نحو الناس جميعا ، فكانت قلما تبتسم ، واصبحت تستريب فى كل انسان ، واتهمت مخدومها بالتمييز والتفضيل ، وامست شديدة الغيرة من زميلاتها ، ونافرة من الحياة الاجتماعية . ثم نصح لها اخيرا أن تلجأ الى طبيب نفسانى ، فقد انذرها صاحب العمل حين ساء عملها بان تقوم ما اعوج من امرها او تستقيل من العمل .

وفى محادثة بينى وبينها ، قصت على جميع ضروب الظلم التى قاستها طوال حياتها ، وبكت وهى تقول انها ماعرفت يوما طعم الحب والعطف ! وكان من اثر ذلك أن اصبحت فتاة شديدة المحافظة والاحتشام ، تخشى أن تصادق احدا من الجنس الاخر ، واصبحت تخاف كل الرجال ، وتخشى أن تنكب بخيبة امل كبيرة ان هى احبت واحست احساسا قويا انها لن تستطيع قبول التبعات الدقيقة التى تصاحب الزواج ، فانصرفت عن الرجال واغلقت على نفسها باب حجرتها ، وظلت تعمل طوال اليوم وكانت فى قليل من الاحيان تذهب الى السينما ، وخصصت اوقات الفراغ للتفكير فى صحتها ! وقد امكن اقناع « لولا » انها وقعت فى براثن « نزوة » عصابية ، وان احتشامها الجنونى كان يقف عائقا دون نضجها العاطفى والاجتماعى ، واخيرا خطت خطوة معقولة موفقة نحو

الحب والزواج ، واقامت صداقة بينها وبين شخص كانت ترجو أن تتزوجه ، واصبحت فتاة عملية ، وتعلمت الرقص وقيادة السيارة . وغيرت طريقة ترجيل شعرها ، وارتدت ثيابا اكثر جاذبية . وكان التغيير الذى طرأ عليها عظيما الى حد أن أصدقاءها أصروا على أن هذه الفتـــاة الجديدة لابد ان تكون اختها التوأم التى لم يروها من قبل! وكان كل انسان يتحدث عنها حديث الاعجاب . لقـــد كان ماطرأ عليها أشبه بتحويل دكتور جيكل الى مستر هايد !

وللعصابيين جميعا شخصيتان : « وكلمة شخصــية بالانجليزية (Personality) مشتقة من الكلمة اليونانية القديمة (Persôna) ومعناها قناع اللاعب . فهم يبدون فى الظاهر بشخصية مقنعة ، دفاعية فى طبيعتها ، وعادة ما تكون غير محبوبة . على انهم فى أعماقهم يدفنون كل الصفات التى تجعل منهم أناسا ظرفاء . وكم من شخصيات عظيمة فى التاريخ كانوا عصابيين ، من علماء ، وموسيقيين وفنانين ، وممثلات . ولكل انسان أصدقاء عصابيـــون فاذا بذلت مجهودا فى فهمهم ، واستطعت أن تسايرهم ، وجدت لهم قلوبا طيبة ، وبعضهم يمتاز بموهبـــة فنيــة أو موسيقية ، واغلبهم قادرون على أن يسدوا للحيــاة نفعا كبيرا .

اما العداء الذى يظهرونه ، والذى يرمون به الاخرين فهو عداء مصطنع . واذا كان بكاؤهم قريبا ، وشكاواهم لا تنتهى ، فذلك لانهم يرغبون فى لفت الأنظار اليهم ، والى أن يشعروا بأنهم مرغوبون ، محاطون بالأمن والحماية

انهم اطفال فى حقيقتهم ، يتشوقون الى من يحيطهم بالحب والفهم .

كانت « روبرتا » وهى أم لطفل فى عامه الثانى ، قد رأت فيلما سينمائيا مزعجا ، وكادت تجن ، فقد ظنت انها هى الاخرى ستصبح مجنونة كبطلة الفيلم ، فلقد تقمصت شخصية بطلة الرواية .

ولما تكررت شكواها من خوفها من فقد عقلها ، لم يعد زوجها يحتمل هذه الحالة ، وراح يسخر منها ، بل يهددها بأنه سيهجرها ان لم تقض على هذه الفكرة . وكان « توم » — زوجها — فى هذا كأغلب الازواج الذين يجابهون بمثل هذا الموقف ، قال لى :

« انى لا أستطيع فهم زوجتى . انها ليست المرأة التى اعرفها ، ان كل ما تفكر فيه هو خوفها من أن تجن . انى فى بعض الاحيان تساورنى الرغبة فى ان أهجرها ، فانى لا أستطيع احتمال هذه الحال . لقد بلغ السيل الزبى ، ولست أعرف ماذا أفعل » .

ان موقف هذا الزوج ، نموذج لموقف اى زوج ، أو اى شخص من أقرباء الانسان الذى يعانى من المخاوف ، والتردد ، والانقباض ، أو يشكو آلام المرض المستمرة . وقد كان لزاما أن يتعلم « توم » ماذا عليه أن يفعله . وقد طلبت اليه الا يدلل زوجته ، وكذلك الا يغلظ لها القول ، وأن يقف منها الموقف الذى تقفه الممرضة أو الطبيب من مريض يعانى مرضا جسميا .

والحقيقة أن « روبرتا » كانت زوجة مخلصة ، واما طيبة ، ولكنها تعرضت لفزع شديد كان من نتيجته ان

تكون فى نفسها « عصاب القهر » الذى تجلى فى تسلط فكرة الخوف من الجنون على عقلها .

وكما أسلفت فان الشعور بافتقاد الامن امر عام بين أغلب العصابيين . انهم يحتاجون لمن يؤكد لهم انه ليست هناك كارثة ستحل بهم ، ولكن التأكيد وحده لن يقلل من مخاوفهم ، لانهم يترجمونه على اعتباره تشجيعا زائفا . وانما هم ينشدون أن يقفوا على اسباب اضطرابهم ، وفى استطاعة الطبيب النفسى أن يقفهم على العوامل اللاشعورية المختفية وراء مخاوفهم المدمرة .

ولكن يمكن أن يساس العصابى فى المنزل أو فى العمل ، يجب أن يوضع نصب العين مبدأ اساسى . ذلك ان العصابى يجب الا يحتقر أو يمتهن ، فان فى تحقيره أو اذلاله انتزاعا لكل أمل فى شفائه ! ولو انك نفذت من الشخصية الظاهرية الخارجية التى تبدو على العصابى الى اغوار نفسه لتكشف لك فى داخله اخلاص صادق ، وطيبة قلب لاشك فيها . فعليك أن تعامله معاملة ايجابية وان تلفت نظره الى قدراته وامكانياته ، وستكون النتائج عندئذ مدهشة .

ان أغلب الاقرباء يتبعون السلبية فى معاملتهم للعصابى، ويذكرونه بعجزه وعدم قدرته . ومن جهة أخرى فان استخدام الاساليب اللاذعة ، أو استخدام المداهنة يزيد الامر سوءا . ان الحزم ، والفهم ، والايجابية هى الوسائل الصحيحة للنجاح فى مساعدة أولئك الذين استدار كل تفكيرهم الى داخل انفسهم ، وحفزهم الى القيام بالاعمال التى تجلب لهم الرضاء . فان العصابيين ينشدون من

الناس ان يظهروا لهم اهتماما بهم ، وحبا لهم مهما يكن قصورهم . انهم فى حاجة الى اصدقاء يستطيعون مساعدتهم على أن يحيوا حياة أكثر ارضاء لانفسهم . واذكر انه ليس هناك من هو أحق باللوم على كونه عصابيا الا الذى استكان لمحنته وامتثل لها .

والاطباء النفسيون كثيرا ما ينجحون فيما يفشل فيه الناس العاديون ، لانهم يقفون من العصابيين موقف الاباء الواعين ، يصغون ، ويشرحون ، وينصحون ، ومن ثم يصبحون الموجه الشخصي للمريض ، ومثل هذه العلاقة العاطفية التي تنشأ بين المريض والطبيب ، تؤتي ثمارها الطيبة فى اغلب الاحيان ، لان الطبيب استطاع أن يحمل مريضه على الشعور بأنه حقا انسان طيب ، مهما يكن الاعتقاد الذى أوحى به اليه الاخرون فليس من الذكاء فى شيء ان نمقت المرضى .

والحكمة المأثورة تقول : « اتخذ من الانسان الذى تتعذر مسايرته صديقا ، فلا تلبث أن تكتشف فيه انسانا اكثر ظرفا ولطفا مما يظن اغلب الناس . »

والعصابيون يسلكون سلوكهم الشاذ لانهم مدفوعون بعوامل لا شعورية . والواقع انه لا يوجد فى العالم أناس أدنياء من اعماق قلوبهم ، فالسلوك الشاذ ، سواء أكان عصابيا ام أجراميا ام جنونيا ، هو نتيجة انحراف عقلى بشكل أو بآخر . ولقد وجد الدكتور كاريمان الذى اشتهر بدراساته وابحاثه لطوائف المجرمين ، طيبة اساسية فى كثير من الذين خالفوا القانون ، واكتشف ان جرائمهم

تمثل عرضا للشقاء الكامل فى نفوسهم يرجع منبته الى الطفولة .

ولو زادعدد هواة الطب النفسى ،وتدربوا علىالمواقف الصحيحة التى يقفونها بازاء من يحتاج الى الشعور بانه محبوب مرغوب فيه ، وبازاء الاشقياء الذين يكثرون من الشكوى أو ازاء أولئك الذين يقعون فى المآزق ، فسرعان ما يحدث نقص كبير فى حوادث الانهيار العصبى والمرض النفسى .

ان معالجة الشقاء الشائع بين العصابيين تبعة تقع على عاتق المجتمع ، ونحن نوجه لوما شديدا الى الفرد ، ولا نوجه لوما كافيا الى البيئة ، أو الى العوامل الاجتماعية التى تساعد على خلق المرض النفسى . والحقيقة أن نظام التعليم يقع عليه بعض اللوم فهو يحصر همه فى تعليمنا مهنة أو حرفة نكتسب منها رزقنا ، ويغض الطرف عن تعليمنا كيف نحيا حياة آمنة مطمئنة . اننا بحاجة الى أن نعرف المعنى الصحيح للحب ، والى أن نعرف كيف نقاوم مخاوفنا واحقادنا ، وكيف نتغلب على أهوائنا ، وكيف نكون اجتماعيين ودودين ، وكيف نجد الرضاء النفسى فى العمل ، واكثر من هذا ، كيف نصل الى النضج ونصبح مواطنين صالحين .

ان قدر اية أمة يتوقف على صحة ابنائها العقلية ،وانه لفى استطاعتنا أن نعمل الكثير لمن سقطوا فريسة للتفكير

المنحرف كي يشعروا بالراحة والاطمئنان ، وافضل الطرق المؤدية الى ذلك هو الاهتمام الايجابي بالناس ، بغض النظر عما اذا كانوا طبيعيين أو عصابيين . ان هذا الضرب من الفهم ، والاهتمام الايجابي هو الذي يضفي علينا جميعا مانحن بحاجة اليه من الاطمئنان النفس .

الاضطرابات العصبية والعقلية

من العجيب ان تكون حصيلتنا من المعرفة بالعقل البشري في حالتي صحته ومرضه ، ضئيلة شوهاء .

وفي احد مستشفيات الامراض العقلية بالولايات المتحدة لوحة تحمل هذه القائمة بالاخطاء الشائعة بين الناس عن المرض العقلي :

١ ـ ان الجنون معرة ، أو أنه مرض غامض خفي لايمكن اتقاؤه أو الشفاء منه .

٢ ـ ان الجنون مرض لا مثيل له ، وانه من نوع بالغ الخطورة .

٣ ـ ان الجنون يطبق فجأة على الانسان دون انذار سابق .

٤ ـ انه لا حول ولا قوة للناس في اتقاء الجنون .

٥ ـ ان الصدمات العاطفية ، وفقدان الاعزاء ، وخيبة الامل في الحب ، وخسارة الاموال او غير ذلك من المصائب والنكبات تسبب الجنون .

٦ ـ ان مصحات الامراض العقلية اماكن فظيعة ، وان دخولها لا يعقبه خروج البته .

٧ ـ ان الجنون وراثي .

وعلى حين اسلفنا أن هذه « المعتقدات » اخطاء شائعة، فاننا هنا سنناقش بشيء من التفصيل بعض هذه الاخطاء ، ونجيب على الاسئلة التي عسى أن تدور بالاذهان بشأن الاضطرابات العصبية والعقلية .

١ ـ هل الجنون وراثي ؟

كلا . فان اصابة احد الابوين بالمرض العقلي ليس معناه ان الابن سيعاني حتما من المرض نفسه .

ان بعض الناس يحسون بميراثهم «الملوث»ويستخدمونه ملاذا يعتذرون به عن غرابة اطوارهم أو عن مساوئهم وقصورهم واذا كان ثمة شيء يورث فهو النزعة للاستجابة الى مواقف معينة برد فعل معين .

اعرف أسرة انتحر من افرادها ثلاثة ، ومع ذلك فانك لا تستطيع القول بأن الانتحار وراثي في هذه الاسرة ! وبرغم ان النزعة لرد الفعل قد تكون وراثية ، الا أن أشكال رد الفعل تكتسب ولا تورث . وفي حالة الأسرة التي انتحر ثلاثة من افرادها ، فان الافكار التي اكتسبتها الاسرة بالتداول هي التي افضت الى رد الفعل المهلك القاتل !

وطالما سألني الناس : « ان حماتي قضت بعض الوقت في مصحة للامراض العقلية ، وبهذا لا اريد أن انجب اطفالا فاني اخشى أن يرثوا بعض خصائص حماتي » .

ولاشك أن أمثال السائل سيطمئنون عندما يعرفون أن المرض العقلي لا ينتقل حتما من الاباء الى الابناء .

٢ ـ ما الذى يسبب الانهيار العقلى ؟

يمكن أن نصف الانهيار العقلى بأنه حالة تتدخل فيها بعض الصراعات الانفعالية فى قدرة العقل على الاستمرار فى سلوكه الطبيعى . واكثر الناس عرضة للانهيار العقلى هم الذين كانوا فى طفولتهم شديدى الحساسية ،وكثيرون من هؤلاء تعلقوا تعلقا شديدا بأحد الوالدين أو بهما معا ، وكثيرون منهم أيضا ـ على النقيض ـ حرموا القدر الكافى من حب الابوين وعطفهما .

فالذين بدءوا حياتهم بداية سيئة ، هم اكثر الناس تعرضا للاذى حين يواجهون احباطا عنيفا . اننا نقول عندئذ أنهم يقاسون من صراعين ، صراع جذرى يرجع الى طفولة قاسية منبعثة عن علاقة سيئة مع الاباء ، وصراع مباشر يشتمل على عامل محبط كخيبة امل عظيمة ، أو خسارة مالية ، او موت شخص عزيز ، أو متاعب فى العمل ، أو فشل فى الدراسة أو مرض شديد الوطأة . هذه هى الأسباب الحقيقية للانهيارات العقلية ، ولكنها تساعد عليها .

ونحن جميعا نعرف أشخاصا تعرضوا لجميع انواع النكبات والمصائب ، ومع ذلك وقفوا صامدين ، بينما آخرون اعجزتهم هذه النكبات عاطفيا . ان امتزاج الضعف الداخلى أو الاستعداد مع العامل المباشر هو الذى يسبب الانهيار . ومما يؤسف له أن بعض الآباء هم انفسهم الآثمون ، اذ تنقصهم القدرة على تنشئة أطفالهم بحيث ينضجون عاطفيا . مثل هؤلاء الآباء فى العادة مذنبون

اما بسبب ما قدموه لابنائهم من تدليل زائد او من تشدد زائد .

ومن الاخطاء الشائعة ايضا ان الزواج التعس يسبب الانهيار العقلى . ولكن كم من زوجات وأزواج عانوا فشلا ذريعا في حياتهم الزوجية ، ومع ذلك ظلوا محتفظين بصحة عقولهم ، وكذلك « العمل المرهق » لا يتسبب فى الانهيار العقلى .

يقول الدكتور « تشارلز ايمرسون » الاستاذ بكلية الطب بجامعة انديانا : « ليس هناك فى الواقع من يرهق نفسه أكثر من اللازم ، مادام العقل والجسم قادرين على العمل ولكن التوتر العاطفى الذى نرزح تحته هو الذى يولد الاحساس بالتعب والارهاق . وهذا التوتر العاطفى الشديد هو السبب فى عدد كبير من حالات الانهيار » .

والحياة ، بوجه عام ، ميدان قتال دائم مع الاقدار ، ينتهى « ببقاء الاصلح » ولكن كثيرا منا لم يتدربوا فى طفولتهم على توقع خيبة الامل ، ولا يعرفون كيف يستجيبون برد فعل متزن . وعلى الآباء يقع جانب كبير من هذه التبعة . فالانهيار هو دليل فى ذاته على أن خطأ ما قد حدث فى نقطة ما فى تكوننا العاطفى .

ولو ان بناء أحسن تشييده ، فانه لاشك يستطيع ان يقاوم العواصف والزوابع ، أما اذا استخدم البناءون موادا رديئة ،واهملوا بعض قواعد البناء ، فاننا نتوقع انهيار البناء بين لحظة واخرى . ومن حسن الحظ ان لدينا كثيرا من مفتشى المبانى وقوانين للبناء تحمى السكان ، ولكن

ليس لدينا احد يراجع الاباء ليرى هل أحسنوا « عملية البناء » فى تربية أطفالهم .

ان علينا أن نتبين الاخطاء التى وقعت ، وان نتتبع نقائصنا حتى نصل الى جذورها وأصولها ، ثم نعمل شيئا ونبذل جهدا من اجل تصحيحها كوقاية ضد انهيار طاقتنا حين تتلبد الأمور وتتأزم .

٣ ـ هل يمكن الشفاء من المخاوف المرضية .

نعم : عن طريق التحليل النفسى ، وهو اسلوب يستخدمه الاطباء النفسيون للكشف عن السبب اللاشعورى لهذا الخوف ولاوضح هذا القول :

جاءت الى عيادتى امرأة فى الثانية والاربعين من عمرها غير متزوجة ، تشكو خوفا من مرض التدرن الرئوى ، الى حد أنها حين ترجع الى دارها كانت تمسح حذاءها بالكحول ، خشية ان يكون قد لصق بالحذاء بصاق ملوث فى اثناء الطريق وقد ظلت ضحية ذلك الفزع من جراثيم السل طوال الاثنى عشر عاما التى سلفت . وكانت كلما افاضت فى حديثها عن طفولتها ، ازدد اقتناعى بأنها كانت دائما خائفة من الجنس وكان هذا الخوف سبب عزوفها عن الزواج ، وكان ألمها من الكبت الجنسى سببا فى خوفها اللاشعورى من أن ترتكب مايمكن أن تندم عليه ، كان تسمح لنفسها ببعض التجاوز من الناحية الجنسية ، وتحول هذا الخوف من الجريرة الجنسية الى جهاز دفاعى متنكر فى شكل خوف من التلوث بالسل ، وكانت تلك

حيلة بارعة ، استخدمها اللاشعور ليخفى الدافع الحقيقى لخوفها وهو الجنس . فما دامت منزعجة من احتمال اصابتها بالمرض ، فانها ستظل مشغولة بفزعها وخوفها ، ولا يكون لديها متسع من الوقت للافكار المذنبة ، وخاصة ما يدور منها حول الجنس .

وانه لخيال مريض أن يظن بأن النزهات الخلوية أو العقاقير أو الصدمات الكهربية يمكن أن تشفى الخوف المتأصل فى النفس . ان الاضطرابات النفسية يجب أن تعالج بطرق نفسية والانسان العادى لا يستطيع الوقوف على السبب الخفى للخوف الذى يلازمه ، ومن ثم يظل هذا السبب مختفيا فى لا شعوره ، وهذا هو سبب عجزه عن معالجته . وهناك أناس يستطيعون أن يصلحوا الاضطرابات الخفيفة التى تحدث لسياراتهم ، ولكن المتاعب الخطرة لابد من « ميكانيكى » لاصلاحها .

اما من ناحية خوف العصابيين الشائع من الجنون ، فان العصابيين كقاعدة عامة لا يصبحون مجانين ، وخوفهم من الجنون فى ذاته ليس الا دفاعا ضد احتمال اصابتهم بالجنون ، وهذا جدير بأن يريح أولئك الذين رزئوا بمثل هذا الخوف .

٤ ـ هل الجنون قابل للشفاء ؟

نعم . وثمة ضروب مختلفة من الجنون ، وكل مستشفى للامراض العقلية يطلق كل عام سراح نسبة مئوية من مرضاه بعد أن تحسنت حالهم أو تم شفاؤهم . وليس

صحيحا البتة أن كل انسان جن يوما سيظل حتما مجنونا بقية حياته . ولقد كان الطب العقلى والتحليل النفسى والعلاج المهنى ، وما يماثل ذلك من ضروب العـــــلاج الصحيحة عونا كبيرا للمرضى على استعادة صحة عقولهم وانفسهم الى الحد الذى مكنهم من ان يعودوا الى عائلاتهم والى اعمالهم . وكل حالة يجب أن تقدر تبعا لمدى المرض العقلى ، وماضى الفرد ، والعوامل التى أدت الى تكوين ذلك الانهيار العقلى ، واذ ذاك يمكن أن يقرر وجـــوب العلاج ومدى صلاحيته .

٥ ـ هل صحيح ان المثقفين اقل تعرضا للجنون ؟

نعم . فكلما ارتقت الشخصية ، كانت أكثر تعرضا لان تصبح عصابية لا ان تصاب بالجنون .

٦ ـ هل النساء أكثر أستعدادا للجنون من الرجال ؟

كلا ، فعلى الرغم من ان النساء أعمق عاطفة من الرجال فان لجنة الصحة العقلية فى نيويورك جمعت احصاء من سكان يقرب عددهم من تسعة ملايين نفس ، ومن هـذا الاحصاء تبين ان المجانين من الرجال كانوا ، نسبيا ، اكثر عددا من النساء .

٧ ـ هل مرض الزهرى يسبب الجنون ؟

نعم ، فان واحدا من كل عشرة من مرضى العقل يعانون من نوع من أنواع الجنون سببه مرض الزهرى .

٨ ــ ما اوجه الشبه بين الاضطرابات العصبية وغيرها من ضروب المرض الاخرى ؟

يذكر الدكتور « لويس كارلوش » الاستاذ المساعد للامراض العصبية فى جامعة « وسترن رزوف » ، ان « العصبية او العصابية » اشبه بنزلات البرد العادية من حيث الانتشار والشيوع بين الناس ! ولقد دلت الاحصاءات التى جمعتها شركة متروبوليتان التامين على الحياة على أن الامراض العصبية والعقلية تأتى فى المرتبة الثانية فى قائمة العوامل المؤدية الى العجز ، اذ هى المسئولة عن ١٢٪ من أنواع الامراض التى ابلغ امرها الشركة . وكما قال شيشرون منذ تسعة عشر جيلا : « ان مرض العقل اشيع واشد فتكا من امراض الجسم » .

٩ ــ فى اية سن يكون الانسان اكثر عرضة للمرض العقلى ؟

قلما يحدث المرض العقلى للناس قبل بلوغهم الخامسة عشرة من أعمارهم ، والاتجاه نحو الاضطراب العقلى يكشف عن نفسه لاول مرة بين سن ١٥ و ١٩ ، ولكنه يزداد ظهورا بين سن ٢٠ و ٢٤ ، ثم ترتفع نسبة الاشخاص الذين تتكشف فيهم علائم الاضطراب العقلى حتى سن الخمسين . وبعد سن الخامسة والستين ترتفع النسبة بسرعة ، وتكون مصحوبة بالاضطرابات العقلية الناشئة عن الشيخوخة .

١٠ ـ ماهو الدور الذى يلعبه الجنس فى الاضطرابات العقلية ؟

ان الصراعات الجنسية فى ذاتها لا تسبب الجنون ، ولكن الشعور بالذنب المصحوب بنشاط جنسى كبير هو الذى يحدث الضرر . والضرر فى هذه الحالة ضرر ذاتى يجلبه المرء بنفسه على نفسه عن خطئه ، او خطيئته ، ويستمر فى معاقبة نفسه عن طريق القلق والمرض . وهنـــاك كثيرون يظلون فى نضال مستمر بين رغباتهم وبين شعورهم الاخلاقى . اننا نقول عنهم انهم يعانون من رغبات مكبوتة ، والنساء اللائى لا يستطعن أن يظفرن بالرضاء من صلتهن الجنسية بازواجهن ، غالبا ما يصبحن عصبيات سريعات الغضب . ولابد من ان نبحث عندئذ عن السبب فى وجود التنافر الجنسى ، ثم نحاول بعد ذلك تحسين حال العلاقة بين الزوج وزوجته ، فان الفشل الجنسى من العوامل التى تضاعف من تكوين الاضطرابات العصبية .

١١ ـ هل الانتحار حالة جنونية ؟

نعم . فالانتحار جريمة فى حق المجتمع ، وهذا هـــو السبب فى ان الشخص الذى يحاول الانتحار يكون عرضة لان يقبض عليه ، ثم ينقل الى مستشفى الأمراض العقلية

والانتحار ليس مقصورا على المدن الكبرى ، بل يحدث حتى فى اصغر القرى ، حيث الحياة أكثر تخلصا مـــن عوامل القلق التى يسببها كفاح الحياة العصرية . ونسبة

الانتحار فى مدن ولاية كاليفورنيا الامريكية اكثر منها فى اية منطقة اخرى من الولايات المتحدة ، ولعل هذا يرجع من ناحية ، الى العدد الكبير من المقعدين الذين يفدون الى هناك من الولايات الاخرى ابتغاء الصحة .

وتقع نسبة كبيرة من حوادث الانتحار النسائية خلال مرحلة الشباب ، فيما بين ١٥ و ٢٤ ، وهى السن التى تتسم بتأجج العاطفة ومن ثم بالتعرض لتقلبات الغرام ، الامر الذى يجعل المستقبل يبدو فى انظارهن قفرا مظلما . والنسبة بين من ينتحر من الذكور والاناث فى مثل هذه السن كنسبة ٧ الى ٢ .

١٢ ـ هل يقتصر الاطباء النفسيون على علاج غير المتزنين عقليا ؟

كلا . فان الطبيب النفسى لا يكرس وقته كله حتما لمعالجة مرضى العقل ، الا اذا كان طبيبا مقيما فى احد مستشفيات الامراض العقلية ، اما الطبيب النفسى الذى يزاول عمله فى عيادة خاصة فيعالج اضطرابات الشخصية كلها ، وهو ذو قدرة وكفاءة على فهم ضروب الاحباط العاطفى التى تقع كل يوم ، والتى تؤثر فى صحة الناس وهو قادر على ارشاد الافراد ومعاونتهم على حل مشاكلهم الشخصية ، وهو يتحرى « المدلولات العاطفية » لاعراض المرضى الذين يعالجهم اطباء آخرون من امراض بدنية ، ثم يثبت ان مشاكلهم هى عاطفية او عقلية اساسا . وكلما بادر الذين ينشدون معونته الى عرض انفسهم عليه كان

الشفاء أعظم وأسرع . وحين يأتي الوقت الذي يسعى فيه المضطرب عاطفيا الى معونة الطبيب النفسى بطريقة طبيعية كما يسعى مرضى العيون والاذان والانوف والحناجر الى الاخصائيين ، فلا مراء فى أنه سيقل عدد الذين يعانون من الانهيارات العقلية .

والطبيب النفسى يدرس أفراح مريضه وأحزانه ، وآماله ومخاوفه ، فأهم لديه أن يعرف نوع المريض الذى به مرض ، من أن يعرف نوع المرض الذى بالمريض .

ومن الحالات التى يعالجها الطبيب النفسى الصراعات الجنسية ، والبرود الجنسى والضعف الجنسى وادمان الخمر ، والمخدرات ، والنزعات الانتحارية والكآبة ، والمتاعب الزوجية والمخاوف ، ومركب النقص ، وسوء تكيف الشخصية ، والاعراض المرضية البدنية التى لا تستجيب للعقاقير .

ومدة العلاج النفسى ، كما هى الحال فى الاضطرابات البدنية ، تختلف من حالة الى أخرى ، فبعض الحالات تستجيب لعلاج قصير نسبيا ، فى حين تحتاج حالات أخرى الى علاج نفسى عميق لمدة طويلة ، ولكن الامل فى سرعة الشفاء يشتد حين يبدى المريض رغبة فى التعاون مع طبيبه على اتمام الشفاء .

١٣ ـ هل يمكن الحيلولة دون المرض العقلى والانهيار العصبى ؟

نعم . فالامر يحتاج الى القدرة على الحياة المتزنة ، ومن

الاهمية بمكان لثبات الاعصاب واتزان العقل ، القدرة على توجيه أفكارنا فى مسالك صحيحة طبيعية ، فحياتنا تعتمد على أفكارنا ، ولا يمكن أن تكون خيرا منها ، ولاننا نحيا فى عالم متمدين ، فقد تعلمنا اننا لكى نحيا حياة سعيدة مع الناس يجب أن نكبت اهواء معينة ، هى طبيعية فى كل انسان ، فاذا نحن داومنا على احتضان هذه الاهـــواء سرا ، فانها تفصح عن نفسها فى شكل مرض . تمـــاما كبعض الامراض البدنية . فمريض السل لا يشفى تماما فى الواقع ، ولكن اصاباته البدنية تندمل بعد العـــلاج الدقيق ، ومع ذلك فجراثيم المرض تظل مدفونة فى داخل الجسم ، مطبقا عليها فى أمان ، مادام المرء يسلك حيـــاة منتظمة ، ولكنها على اهبة الاستعداد للانفجار مرة اخرى اذا هو بدأ يهمل أمر نفسـه .

بل ان افكارنا المزعجة لتزيد على جراثيم الامراض فى انها دائمة النشاط ؛ مهما بعدت الى أغوار اللاشعور ، وهى تختلف عن جراثيم السل فى انه يمكن استئصالها . ولما كانت الوقاية دائما خيرا من العلاج ، ففى استطاعتنا ان نخلق فى انفسنا مناعة ضد الاهواء والرغبات الدقيقة كلما مضت بنا السن وذلك بأن نأبى احتضانهـــا وايواءها . فرغبتنا فى القتل يمكن الا تتجاوز الرغبة فى قتل الحشرات التى تؤذينا .. واليد التى تمتد للصفع يمكن ان تتحرك الى يد تمتد للمصافحة الودية . والنظرة الشزراء يمكن أن تستحيل الى ابتسامة ؛ ولشـــد ما يختلف الجـزاء عندئذ !

ومن عجب أنه أصعب على المرء أن يكون عادة التفكير

المشرق السوى من ان يمضى فى اجترار الافكار المزعجة.
ولكننا اذا عرفنا مدى التدمير الذى يحدثه التفكير الخاطىء واحتضان الرغبات والنزوات الدفينة ، فاننا خلقاء بان نروض انفسنا وابناءنا على التزام التفكير المشرق الصحيح.

ولكنه من سوء حظنا ، اننا حين نتبين أضرار التفكير المدمر يكون كثير منا قد وقع فريسة حلقة مفزعة من النزوات المكبوتة والذكريات الاليمة ، والشعور بالاخفاق، حتى ليصبح من الضرورى عندئذ ـ رغبة فى الوصول الى الحياة المطمئنة ـ أن نعمد الى البحث فى أعماقنا ، واكتشاف العوامل المسئولة عن كمدنا ، فاذا تبينا مبلغ سخافتها فاننا نستطيع استئصالها ، وبتخلصنا منها نستطيع أن نحيا الحياة السعيدة المطمئنة التى ننشدها .

صفات الشخصية غير المستحبة

الشخص الدائم الشكوى – بسبب سخطه الدفين – خليق بأن يجعل كل انسان آخر شقيا ، لانه ما من احد يدرك علة شقائه الدائم . وهو ولاشك غير محبوب من الناس ، لانهم لا يدركون أنه شخص مريض في حاجة الى علاج ، ومن ثم يزدرونه ويعتبرونه شخصا غير محتمل .

وقد يعجب مثل هذا الشخص لم لا يعاود الناس دعوته؟ ولم لا تأتيه أبدا « العلاوة » التى يظل ينتظرها ؟ ولم تلتمس الفتاة التى يهواها عذرا لتبارح الدار حين يزورها؟ انه عصابى مافى هذا شك . انه مصاب بما يشبه العمى النوعى .. فهو يرى عيوب الناس ولكنه لا يرى عيوب نفسه . وفى حين قد يدرك أنه بما له من شخصية ، يخفق فى اكتساب الصداقات الا أنه ينقصه التغلغل فى أعماق نفسه بحثا عن الأسباب التى تجعله مختلفا عن غيره من الناس : لم لا يستقر ابدا فى عمل ؟ ولم لايستمسك قط بصداقة ؟

على أن مثل هذا الشخص لم يذنب ولم يخطىء ، ومن

ثم فلا حاجة بالناس الى ان يسخروا منه ، وانما هو فى حاجة الى أن يستنير .

منذ أمد قصير ، قالت سيدة شابة : « انى اكره كل انسان بل أكره نفسى ، ولا أرى سببا يدعونى لمواصلة هذه الحياة . ليس لى أصدقاء ، ولا أحب عملى ، ولا أهتم بشىء البتة ، وما جئت الى هنا الا لانى لا أملك الشجاعة على الانتحار ، فانى أخاف الموت ، ولكنى لا أستطيع ان استمر فى حياة فارغة جوفاء لا امل فيها ، ولا استطيع احتمالها » .

ولما سألتها لماذا ليس لها أصدقاء قالت :

ـ احسب ان هذا خطئى ، فانى كثيرة التهكم والسخرية ابحث عن أخطاء كل انسان ، وقل ان أبتسم ، وليس فى استطاعتى أن أكون لطيفة مع الناس ، كذلك لا استطيع ان اتظاهر بالسعادة ، وأنا لست سعيدة ، فقد قاسيت الكثير .

واحسست بفضول لان اعرف ماضيها الشقى الذى سبب هذا الموقف العصابى ، فما لبثت أن اكتشفت أن اخاها اعتاد ان يغيظها ويحنقها طوال حياتها ، وكان سببا فى احساسها هذا المبكر بالنقص ، وكان والداها يخاصمانها باستمرار ، فكأن المنزل أسوا بيئة ، ولم تجد فيه مظهرا من مظاهر الحب والعاطفة من بين جميع افراده .

ولم يكن هذا كل شىء ، فقد كانت من سوء الطالع بحيث أصيبت بمرض شلل الاطفال فى السن التى كانت فيها بحاجة الى صحبة الجنس الاخر ، فشلت ساقها

اليسرى شللا جزئيا وهى الان تمشى فى عرج ظاهر ، ولم يكن الضررالاكبر الذى حاق بها هو هذا الضرر البدنى ، وانما كان الاثر العاطفى ، فقد اصبحت عاجزة عن الرقص كقريناتها ، ومن ثم نشأ عن عدم استطاعتها التكيف لهذا العجز ، واقتناعها بأنها فقدت الى الابد الحب والسعادة اللذين هما من حق كل انثى ــ صراع شديد . اما الشخص الوحيد الذى استطاع أن يفهمها أكثر من اى شخص آخر، فقد تركها للالتحاق بالخدمة العسكرية ، وارسل الى مكان غير معروف فى جنوب المحيط الهادى .

وقررت الفتاة ــ لا شعوريا ــ أن تنتقم على العالم من اجل الشقاء الذى عانته على أيدى والديها واخيها ، والقدر الذى كان على حد تعبيرها « جد قاس عليها » .

والاشخاص المصابون بعاهة بدنية ، اما أن يكونوا ودودين تطيب عشرتهم ويلتف حولهم الاصدقاء لظرفهم ؛ واما أن يبالغوا فى التعويض السلبى ، باتباع مشرب ذميم .

وحين طلبت من هذه المريضة أن تنظر الى نفسها على الوجه الصحيح ، اختارت أن تسلك سلوكا ايجابيا نحو نفسها ونحو الاخرين ، ومن ثم اصبحت انسانا محبوبا لطيف العشرة .

وكثيرا مايسألنى المريض :

« كيف تستطيع ان تغيرنى يا دكتور ؟ انك تقول انى طبعت على نموذج معين من السلوك ، وأن هذه الحال استمرت اعواما ، فكيف يمكن لى ان ارجو ان اصبح مختلفا عن ذى قبل ؟ »

والجواب على هذا هو : ان الرغبة فى التغيير الى أحسن تعتبر نصف العلاج ، والخطوة الاولى الضرورية نحو هذا الهدف هى المعرفة ، معرفة مواطن العيب فى الشخصية ثم العمل على ازالتها .

فما هى العيوب التى تجعل الشخصية منفرة بحيث تجلب على صاحبها الشقاء ؟

الشكوى الدائمة : ان الشخص المتوهم المرض يستمتع بترديد آلامه وأوجاعه الكثيرة ، ومع ذلك فليس ثمة اثقل على النفس من سماع انسان يشكو على الدوام . وشكواه اما من صداع أو سوء هضم أو نورالجيا أو عملية جراحية مضت ، أو ربما ستجرى له فى المستقبل .

وقد ترى اثنين يصابان بالبرد ، فيعمد أحدهما الى تناول الدواء الذى اشير به عليه ، ويلازم الفراش ، ويتبع ارشادات الطبيب ، وينتظر حتى يشفيه الطبيب والطبيعة من مرضه ، وهذا هو رد الفعل الطبيعى للمرض ، أما الثانى ، فيلقى فى لهفة وجزع ألف سؤال وسؤال . انه يود أن يعرف : هل سينقلب هذا البرد الى نزلة شعبية ؟ وهل يصح التدخين ؟ وهل يستطيع أن يغادر الفراش ؟ ولعله سمع عن دواء قديم شاف للبرد ، فهل يجربه ؟ انه على الجملة ساخط متذمر ، ينشد لفت الانظار اليه ، والعناية به . ان الممرضات يعرفن مثل هذا الشخص الواهم ، ويعملن له ألف حساب ! أو قد يكون مثار الشكوى الدائمة العمل مثلا ، لاالمرض ، فقد يشعر مثل هذا الانسان أن العمل ممل ، أو انه جدير بأكثر من مرتبه او ان رئيسه رجل غير معقول ، أو أن وظيفته ليس لها

مستقبل وكثيرا مانسمع موظفا حكوميا يقول : « انني لا افعل أكثر من « حفظ » الاوراق طوال اليوم ، فلست اكتسب علما ولا خبرة . ان وظيفتي مملة ، تكاد تدفعني الى أن اصرخ ، واني لاخشى أن يأتي يوم اطلقها صيحة مجلجلة . »

ويغيب عن هؤلاء أنهم وان كانوا في أنفسهم ليسوا أكثر من « ترس » صغير في العجلة الكبيرة ، الا انهم يستطيعون أن يفعلوا الكثير من أجل الوصول الى مكانة أحسن ، وذلك عن طريق زيادة كفاءتهم . فكثيرون من موظفي الحكومة ينتسبون الى المدارس والجامعات ، رغبة في رفع مستواهم في مجال أعمالهم ، أو للحصول على ضروب اخرى من المهارة . فلم يجمد الانسان في عالم كعالمنا ولا يقدم على المضي السريع الى الامام ؟

التركز في الذات : وهذه صفة اخرى من صفات المتذمر الشكاء . انه يقيس كل شيء بهذا القياس : « هل يؤثر هذا الشيء على ؟ أو ماذا اجني من وراء هذا الشيء ؟ » .

وتفكيره محصور على الدوام في الثياب التي يرتديها ، والطعام الذي يأكله ، والطريقة التي يلقاه بها الناس ، ويتساءل عما اذا كانت أعضاء جسمه تؤدي وظيفتها كما ينبغي ؟ وينزعج ايما انزعاج اذا أصابه الامساك .. وقد ينبئه الطبيب العاقل أنه يعاني من « التركز في ذاته » . ولعله عندئذ يزداد قلقا ، معتقدا انه أصيب بمرض جديد لم يصب به غيره ! ولكن لا موجب للقلق ، ولا يعتبر الذي أصيب به مرضا ، وانما معنى تركزه في ذاته انه يحصر كل

تفكيره فى ذاته ، وان ضمير المتكلم « انا » هو محور حياته، ولهذا فهو غالبا انانى ، متفاخر مغرور . ففى رايه ان العالم لا يتحرك ولا يدور الا حوله ، وهو لايستطيع ان يعرف انه ليس الا فرداً واحدا من بليونين من النـــاس يسكنون الكرة الارضية التى ليست بدورها الا كوكبا من كواكب لاعداد لها فى هذا الكون الرحب !

عدم النضج العاطفى : وهذا عيب آخر من عيـــوب الشخصية يضع المرء فى صورة سيئة امام المتصلين به . انه يظهر عواطف الطفل ، فهو غيور متقلب المزاج ، ماأسرع ما تؤذى مشاعره وهو ينفرمن المسئوليـــة ، وهو دائم الاعتماد على الغير ، انه علىالجملة طفل كبير ، وفى هذه الفئة تجد الزوجة العاجزة ، الكثيرة الشكوى التى تهرول دائما الى امها حين تسوء الاحوال ، والزوج الضـــعيف الذى لايستطيع أن يقف على قدميه معتمدا على نفسه .

وعلى الآباء عادة يقع اللوم فى هذه « الصبيانية » ،التى تلازم المرء الى بلوغه . فمثل هذا المرء ، على الارجح ، لقى من التدليل ماحال دونه ودون النمو ، فاصبح حاد الاحساس بعجزه وقصوره ، منعدم الثقة فى نفســه ، فاذا وقع فى مأزق تلفت حوله بحثا عن انسان يخف الى نجدته كما أنه يصبح متعسفا مستبدا اذا اعترض انسان ما على رغباته ، تماما كالطفل المفسود . ان شعوره بالنقص واضح كل الوضوح ، وهو على الدوام متشبث بثياب امــه ، مستمتع بدور الطفل البالغ الكبير .

العناد : والعناد صفة اخرى ممقوتة من صـــــفات الشخصية ، وهو ضرب من ضروب جمود الشخصية ،

وليس ابغض الى الناس من الشخص الذى هو « دائما على حق » لا يمكن التلاقى معه عند نقطة ، وهو أسعد ما يكون حين يستطيع أن يندمج فى مناقشة غير معقولة . انه لا يعترف البتة بقصوره ، ولا يمكن ابدا أن يخطىء .

وضيق الافق والتعصب السياسى والدينى شكلان من اشكال العناد . ولا شك أننا جميعا نتجنب أولئك الذين يصرون على عقيدة مافى جمود ، فلا يستطيعون أن يقدروا وجهات النظر الاخرى . ان القارب يجب أن يحتفظ بتوازنه لضمان أمنه ، ومن الخير ان يجلس الانسان فى منتصفه والا يميل ميلا خطيرا على أحد جوانبه . ومن اضمن الوسائل لتنفر صديقا أن توحى اليه بأنك لاتستطيع ان تقتنع بشىء مما يقول ، وانك عنيد صلب الراس .

سرعة الغضب : واخيرا فان سرعة الاثارة والتهيج من اسوا الخلال غير المرغوب فيها التى تقف عقبة دون أن يمضى المرء فى طريق الحياة المطمئنة الآمنة . ومثل هذا الشخص السريع الغضب ذو « شخصية دفاعية » فهو يشك فى اخلاص أصدقائه ويمقت كل انتقاد ، كلمة واحدة مهينة كفيلة بأن تجعله ينفجر . وترجع ثورته الى عدم رضائه عن نفسه وهو يعبر عن ذلك بابراز شقائه الدفين ، وصب جام غضبه على غيره ، وهو يستخدم هذا الاسلوب ليبدد مقته اللاشعورى لنفسه .

وبعد ، فالشخص السوى المتزن يغريه الاضطراب ، وتمر به أيام حالكة ، ولكنه على عكس الشخص العصابى ، لا يسمح لاضطراباته بأن تتمكن وتزمن . انه ينفض عن

نفسه اساءة الناس ، ولا يسمح لهم بأن يجعلوه تعسا شقيا . فقد وجد أنه خير له أن يحسن مسايرة الناس جميعا ، على أن يساير قلة قليلة منهم . والعاقل هو الذى لا يسمح لنفسه أبدا أن تزحزحه عواطفه ، فقد راض نفسه على ضبط عواطفه . أما سرعة الغضب فعلامة من علامات سوء الهضم العقلى !

التعب العصبي

التعب العصبى رد فعل عقلى بدنى فى آن معا . ولعله اليوم أوسع انتشارا من نزلات البرد ! فنظم المعيشة العصرية والظروف المضطربة السائدة فى أنحاء العالم كلها أسباب تدفع التعب العصبى الى حيز الوجود . والتوتر العصبى المصحوب بالاعياء آفة من الآفات التى تعجز المرء عن بلوغ الحياة المطمئنة . فأثر التوتر العصبى لا يقتصر على الصحة البدنية ، بل يتجاوزها الى الاطمئنان النفسى .

وسواء كانت قوتك قد استنفدت بعد قضاء فترة ما بعد الظهر فى تسوق السلع ، أو بعد العمل المضنى فى المكتب ، فان آلية التعب واحدة . فالتعب شكل من أشكال التسمم الكيميائى ويؤثر على الجهاز العصبى كله ، وبالتالى يغير السلوك العقلى للانسان ، فاذا نلت مايكفى من الراحة فان سموم التعب تقل وتتضاءل ، ومن ثم تعود نشطا مرة أخرى .

وما أكثر من ينشدون المضى قدما فى عمل متواصل دون أن يمنحوا أجسامهم الفرصة الضرورية لاسترداد

تواهم ، وقد يشكو البعض من الشعور بالاعياء الدائم وخوران القوى ، ولكنهم لا يدركون مصدر هذا الشعور . وفى الحالتين كلتيهما نجد الاعراض واحدة . تعبا شديدا، وأرقا ، وسرعة وغضب ، وعددا من الاوجاع البدنيـــة كالصداع والالام الهائمة ، وتعذرا فى تركيز الذهن ، وانتفاء الرغبة فى العمل . فاذا لاحظت على نفسك هذه الاعراض، فاعلم انه انذار بأنك تقترب من طور الاعياء العصـــبى ، ويجب عندئذ أن تبادر الى أخذ الحذر ، والا كــــانت العواقب وخيمة .

وعند هذه النقطة قد يعين ضرب الامثلة على ايضاح ما نقصده بكلمة « العواقب » . فاذا كنت تقود سيارة فى الليل ، ولاحظت انك تجنح عن الطريق ، لانك متعـب يغالبك النعاس ، فانك ترى أنه من الحـــكمة أن تقف وتستريح . والشخص الذى يعانى « انهيارا عصبيا » هو عادة انسان يرفض أن يتريث ويتوقف سواء بدنيا أو عقليا انه يظل يقود سيارته حتى ينام فوق عجلة القيادة ! والصدام الذى يتبع ذلك يكون نتيجة منطقية لتعبـــه المتراكم . وفى اغلب الاحيان يحدث التصادم ، قبـل أن يدرك الانسان أنه قادم لاشك فيه !

شكت الى مسز د . س . وهى سيدة جذابة فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، من أنها فقدت رغبتها فى الحياة . قالت : « لقد تضعضعت اعصابى . فأنا متعبة على الدوام ولا اعلم لذلك علة ، فأنا لا انام ليلا ، واتفه الاشـــياء يحنقنى ويضايقنى ، والواقع أننى لا أستطيع السيطرة على نفسي ويخيل الى اننى متجهة صوب انهيار عصبى .

وزوجى يقول انى اعانى مرضا نفسيا » .

وهناك آلاف من الناس على هذه الشاكلة ، اصبحوا اشبه بالعاجزين ، لانهم لم يتعلموا البتة اجتناب الاشياء التى تستنفد طاقتهم العصبية .

وفى الوسائل التسع التالية مايساعدك على اجتناب التعب العصبى وعواقبه ، وملاحظة الدقة فى تنفيذ تلك القواعد تضمن لك الصحة العقلية والاطمئنان النفسى .

١ ـ لا تتجاوز حدود التعب :

ليست كثرة العمل دائما هى السبب الاساسى فى الاعياء لا ، ولا هى كمية العمل التى تنجزها ، وانما هى الطريقة التى تؤدى هذا العمل .

اعرف رجلا يفاخر دائما بانه يعرف كيف يشغل نفسه فى مكان عمله ، حتى اذا عاد الى داره اصبح فريسة الهياج والشكوى من انهاك قواه . وهو يعجب لم لا ينال علاوة ؟ ان خطأه يكمن فى انه يظن انه بالمداومة على الانشغال يؤدى عمله حق الاداء ، ومن سوء الحظ ان صاحبى هذا لم يتعلم سر اقتصاد نشاطه ، واداء الاعمال بطريقة استرخائية .

اعمل لنشاطك ميزانية تماما كما تعمل لمالك ، وكما انك لا تبعثر نقودك يمنة ويسرة ، كذلك يجب الا تبعثر طاقة نشاطك هباء . فلا تحاول ان تزحم يومك ببرنامج اعمال اكثر مما تستطيع القيام به . وقضاء ساعات فى العمل اكثر مما هو معقول ، يعادل تماما الافراط فى الطعام ، فهو يسبب سوء الهضم العقلى .

٢ ـ توخ الاعتدال فيما تفعله :

ان الافراط فى أى شىء مضر . فالافراط فى شرب القهوة أو التدخين أو احتساء الخمر يزيد من التوتر العصبى ، وكذلك الافراط فى الناحية الجنسية يلعب دورا مهمـا فى احداث التعب العصبى . فاذا أردت لنفسك بدنا سليما وعقلا سليما ، فعليك أن تألف عادات سليمة فى الحياة .

٣ ـ تعلم فن الاسترخاء :

تعلم كيف تؤدى اعمالك على أحسن وجه وبايسر السبل . يجب ان تسترخى وأنت ترقص مثلا والا كنت راقصا سيئا . فلم لا تتعلم أن تسترخى وأنت تعمل ؟ واذكر دائما أن فى العجلة الندامة ، فتناول الامور بحالة طبيعية ، ونل بعض الراحة بينها كلما امكن ، فبـذلك تسمح لعقلك « بفرصة التنفس » ، وفى اثنـــاء تناول فطورك لا تتحدث عما تنوى شراءه بعد الظهر ، واذا عدت الى الدار فانس ماحدث فى المكتب . تعلم أن تضع متاعب العمل فى درج المكتب مع الاعمال التى لم تتمها بعد ، فان هناك غدا لكل يوم ، وغذ عقلك دائما بالخواطر السارة ، واتخذ لنفسك هواية تخلد اليها بين حين وآخر ، لترضى اعصابك المشدودة .

والملل من العمل سبب آخر من اسباب الاعيـــاء ، فقيامك بعمل لا تحبه ، أو أنت غير صالح له ، يبعث على الركود الذهنى والتبلد العقلى ، فاذا كنت مرغما على الاستمرار فى هذا العمل من أجل كسب قوتك ، او لانك

لا تجد عملاً غيره ، فعليك أن تعنى بأمر نزهاتك وهواياتك لتداوي نفسك من الملل . واذا كان عملك يتطلب الجلوس الى مكتب ، فاتخذ رياضة تتطلب الحركة كالتنس ، أو الجولف ، او الالعاب السويدية أو السباحة أو النزهات الخلوية ، واذا كان عملك يستدعي استخدام ذراعيك أو ساقيك ، فابحث عن الاسترخاء في لعب الورق ، أو في الذهاب الى المسرح ، أو قيادة السيارة ، أو القراءة ، ولا تحسب أن قضاء ثماني ساعات ، أو عشر في العمل ، معناه ان تكون حتما منهوك القوى . ان هذا الشعور ناشيء من استخدامك نفس العضلات القليلة طوال اليوم ، واهمال باقي عضلات جسمك . ان الحياة الرتيبة ، ازاء عمل واحد يوما بعد يوم ، والعودة الى المنزل ، وتناول الطعام ، والشعور بالتعب ، ثم الايواء الى الفراش مبكرا ، مثل هذه الحياة كفيلة بأن تحدث أثرا سيئا ، وقلما يتطلب الامر راحة طويلة في الفراش ، وحسب المرء أن ينام ثماني ساعات ، ويغير جو الملل ، فهذا كل ما أنت بحاجة اليه لتحيا حياة آمنة مطمئنة .

ان الترفيه دواء نفساني . ولكن ليس معنى هذا أنه لزام عليك ان تتريض كل يوم أو كل عطلة أسبوعية ، بل يكفي بعض التغيير ولو مرة كل أسبوع . وغالبا ما يكون مجرد اعداد رحلة ، أو حفلة ، أو رياضة ، مجلبة للسرور والاسترخاء كحدوثها تماما . ان الخروج عن الدائرة المعروفة ، وتدريب العضلات الساكنة ، وانعاش الخواطر هي التي تجلب الراحة والاطمئنان .

٤ ـ تعلم كيف تضبط عواطفك :

ان المتعبين الذين لا يكفون عن الشكوى من سوء صحتهم يعبرون ـ لا شعوريا ـ عن حاجتهم الى العطف ، ورغبتهم فى الحنان . ان شكواهم مقصود بها لفت الانظار اليهم ، فهم يعرضون للانظار تأثير الاجهاد والكد عليهم .

والغضب والحقد ، والغيرة ، والحزن ، واللهفة ، والحسد ونوبات البكاء كلها تعبيرات عاطفية . انها ردود أفعال غير طبيعية تسبب « التسمم العاطفى » انها تبعث قواك العقلية وبالتالى تحدث الاعياء البدنى .

فلا تضيع حياتك فى حزن على ماقات مما لا يمكن تجنبه ، بل انظر دائما الى الامام . وتجنب الجدل ، ولا تكن سريع الغضب عصبيا ، عرضة للانفجار ، وتعلم ان تكون صبورا متعاونا ،ومرحا قبل كل شىء . تذكر ان سيطرتك على عواطفك معناها الاحتفاظ بنشاطك .

٥ ـ تحرر من مخاوفك :

ان احتضان المخاوف السخيفة ، معناه شغل ذهنك وقتا اضافيا ، والخوف ليس اكثر من عادة سيئة ، فلا تتعودها . والخوف عبء ثقيل ، ينهك الجهاز العصبى ، ويضعضع القوى ، ويسلب الحيوية البدنية والعقلية معا. قال مونتين : « ان الرجال لا يموتون ، بل هم فى العادة يقتلون انفسهم » ، ولاشك ان ادوات « القتل » الذى يشير اليه تتضمن الخوف وما يتفرع منه من قلق !

٦ ـ خذ نصيبك الكافى من الراحة والنوم :

ان الحياة غير المنتظمة والتغذية السيئة ، وقلة النوم، وانعدام الرياضة ، كل هذا يجلب حالة تعب مزمن ، فاذا كنت تقاسى من الارق ، فلم لا تبحث عن العلة وتعالجها ؟ فالسهاد يساعد على الاعياء العصبى، والشخص العادى يحتاج الى النوم ثمانى ساعات ، فالراحة والنوم هما الوسيلتان الطبيعيتان لتجديد الحيوية والنشاط . فلا تخدع نفسك ، فان ذلك يكلفك كثيرا .

٧ ـ نظم غذاءك :

ان الاكثار من الغذاء يجعلك راكد الذهن ، والعادات السيئة فى تناول الطعام كاختلال مواعيد الوجبات ، وعدم مضغ الطعام جيدا ، والاسراع فى الاكل ، وعدم تناول الاطعمة المنوعة ، تسبب كثيرا من أنواع الاضطرابات الهضمية ، فالامساك مثلا يسبب « التبلدالذاتى » « فلا عجب أن تكون دائما متعبا ، وأنت تمتص السموم داخل جسمك » ولا تحاول معالجة الاضطراب . بل عليك بازالة السبب الاصلى . ويحسن بالذين يشتغلون باعمال ذهنية أن يتناولوا فطورا خفيفا يعقبه غذاء دسم . وقطعة من الحلوى تكون فى متناول اليد تساعد كثيرا على التغلب على التعب الذى يصيب المرء بعد الظهر « فالسكر منشط بكمية صغيرة » .

٨ ـ افحص نفسك في مواعيد دورية :

لا تقرر بنفسك ان الاعراض التي تشكوها اعراض عقلية وليست بدنية ، بل دع تقرير ذلك لطبيبك ، ومن المهم جدا أن يراك طبيبك مرتين كل عام ، وأن يراك طبيب الاسنان كثيرا . ولو أن الناس الفوا استشارة الاطباء في بداية أمراضهم ، لقلت نسبة الوافدين على المستشفيات الى حد كبير . فمن الواجب أن تجرى فحصا عاما على نفسك ، فقد يكون الاعياء عرضا مبكرا لامراض خطرة ، كالتدرن الرئوى ، أو مرض القلب ، أو الانيميا ، أو قرحة المعدة ، أو اضطراب الغدد ، أو تسوس الاسنان او الروماتزم .

وهذه الامراض كلها يمكن أن تكون مرجعا لذلك الشعور بالتعب ، فاذا كنت تحس بألم فافعل شيئا ولا تسكت عليه ، واذا فحصك الطبيب فحصا عاما ، ولم يجد اثرا لمرض ، ولم تكن كثرة العمل عاملا من عوامل التعب ؛ فلك عندئذ أن تستخلص وانت مطمئن الان التعب الذي تشكوه يرجع الى أسباب نفسية .

٩ ـ تعود العادات العقلية الصحية :

تذكر ان ما يؤثر في العقل يؤثر في الجسم ، والعكس صحيح فالاضطرابات العاطفية الناشئة من الخلافات العائلية ، أو عدم الانسجام الزوجي ، أو المتاعب المالية او عدم التوافق الجنسي ، أو الاخفاق في الحب ، كلها

كفيلة بأن تنهك الانسان بدنيا وعقليا . ولكى تتقى شر الاعياء العصبى يجب أن تكتسب مناعة ضد ما يعترى الانسان فى حياته اليومية من ضروب الفشل والاحباط ، ويمكن اكتساب هذه المناعة بأن تقف الموقف الصحيح تجاه نفسك ، وتجاه مشاكلك الشخصية .

وعليك أن تدع عقلك يسترخى ويتحرر من كل مايؤلم وكل مايبعث الضيق والشقاء ، فالشقاءمن اهم أسباب الاعياء العصبى . واعمل على أن تبخر احزانك أولا بأول ، وركز تفكيرك فى النواحى الايجابية المشرقة ، واغرس فى نفسك الاهتمام بنواحى الجمال ،كالموسيقى ، والفنون ، والاداب ، والدين ، تبد الحياة فى ناظريك جميلة جذابة وتستشعر فى قرارك الامن والاطمئنان .

لا تدع أعصابك تنزل بك العقاب

هل تضحك اذا وقع نظرك على احد ابطال الملاكمة وهو يلكم نفسه بطريق المصادفة ، لكمة قاضية أثناء تدريبه ؟ لا لوم عليك اذا ضحكت ، فانها حادثة تبعث على الضحك ان نرى رجلا يلكم ذقنه لكمة قوية .

وقد كنت حين أرقب ولدي وهو فى شهره الثالث وهو راقد فى مهده ، الاحظ انه يضرب بذراعيه حوله فى عنف، ويلطم وجهه ، ثم يعيد هذا العمل وهو يبكى ! لقد كان منظرا مسليا ، ولكنه مؤلم فى الوقت نفسه ، فلم أكن استطيع ان أوضح لابنى أنه هو وحده الملوم عن الآلام التى ابكته . وطاف بذهنى ان آلاف البالغين يفعلون الشيء نفسه .. يلطمون انفسهم ، ثم ينوحون ويبكون كأنما انزلوا بأنفسهم عقابا على ذنب أتوه !

ولست أقصد الى السخرية من العصابى الذى يصبح عدو نفسه ، فان الاطباء النفسيين يعلمون حق العلم مبلغ الشقاء الذى يقاسيه مرضاهم بسبب ضروب فشلهم .

وقد يحسب المرء ان الشخص الدائم الشكوى من سوء صحته قادر على فهم سيكولوجية مرضه الذاتى ، ولكن الواقع غير ذلك ، فان مالديه من فرص تقدير طبيعة متاعبه

كالفرص التي أمامي للكشف عن أسرار القنبلة الذرية !
ولهذا السبب فانك لا تستطيع ان تعالج شخصا عصابيا بأن تشير عليه بمطالعة كتاب عن « كيف تكون سعيدا » ، او ان تخبره أن مايشكو منه لا وجود له الا في خياله : فلا التدليل ولا التأنيب بعائد عليه بنفع ما .

ان وراء الآلام العصابية عوامل محددة . وتقليم ماظهر منها على السطح لا يمحوها بل يقوى نموها ، فلابد من استئصال جذورها . اى بعبارة أخرى لابد لكى يشفى العصاب من أن يطفو المعنى اللاشعورى للاعراض الى حيز الشعور .

وقد اكتشف المحللون النفسيون الدوافع التالية وراء مايمكن ان يسمى « لطم الذات » أو انزال العقاب بالنفس .

١ ـ دافع الذنب :

يختلف العصابى عن الانسان العادى فى أنه يطوى فى نفسه احساسا مبالغا فيه بالذنب بسبب ضميره المفرط الحساسية . فما يحسون أنهم ارتكبوه من ذنب يحرصون على اخفائه عن الاسرة والاصدقاء . ومن هنا تنبت فى نفس العصابى الحاجة الى عقاب ذاته . والمثل التالى يوضح هذا الاتجاه :

جاءنى مريض هجرته زوجته من أجل مغازلاته النساء يطلب مشورتى فى شأن مايحسه من أوجاع فى القلب . قال : « لقد أخبرنى اخصائى فى أمراض القلب انه ليس بقلبى اية علة عضوية ، ومع ذلك فانى لست مقتنعا ، بل الحقيقة انه يخيل الى أننى قد اسقط ميتا فى اية لحظة بسبب نوبة قلبية عنيفة » .

وكان الرجل منذ هجرته زوجته قد شغل نفسه بكثير من المغامرات النسائية . وقد اعترف انه لم يكن زوجا طيبا ، ولم يكن كذلك أبا جديرا بابنه الذى يبلغ الرابعة من عمره . وقصارى القول : ان اعراضه كشفت عن طريقته فى انزال العقاب بنفسه على الذنب الذى أحس انه ارتكبه فى حق زوجته وابنه . وقد قلت له موضحا الامر : « انك تذكرنى بالرجل الذى أفسد معدته بتكرار الخطأ ، بتناول بيكربونات الصودا للتخفيف عن نفسه ، ثم يعود فى اليوم التالى فيكثر من الطعام ! وهانت ذا تنفس عما يثقل ضميرك بالاحساس بالخوف من الموت ، لتعود غدا الى ذنب جديد والى شكوى جديدة . فكأنما ترشو ضميرك ليسكت عن سعيك وراء ملذاتك ، ولكن ذلك يضيف ذنبا جديدا الى الذنب الاصلى ، وحينما تتخلى عن صديقاتك ومغامراتك فسوف يتم الوفاق بين عقلك وقلبك . »

وثمة أمثلة لاعداد لها عن أشخاص « يلكمون انفسهم لكمات شديدة لا شعوريا » لحاجتهم الى عقاب أنفسهم ، وأغلبهم لا يدركون أن اعراض مايشكون منه تمثل محاولة لانزال العقاب بأنفسهم على ذنب جنوه .

امرأة فى الثامنة والعشرين من عمرها اعتادت أن تشكو صداعا مضنيا قبيل موعد عودة زوجها من عمله فى خارج البلاد . وقد سيطرت على ذهنها فكرة أنها مصابة بسرطان فى المخ . ثم تكشف العامل الذى يختفى وراءه الصداع النصفى . ففى مثل هذا الوقت الذى تحس فيه بالمرض ، كانت قد ارتكبت اثما جنسيا ! ومن ثم فما كانت تشكوه حقا هو وخز الضمير ، ولما انبثت أن جرثومة الذنب

كانت تعمل عملها فى عقلها ، أدركت أن عصابها كان وسيلة محرقة عما ارتكبته . ولقد أحسست براحة الضمير حين أخبرتنى بذنبها ، وقررت أن ترحب بزوجها عند مجيئه الترحيب الذى يستحقه ، وتلاشى الصداع الذى كانت تعاقب به نفسها .

٢ ــ الدافع الانتحارى :

آلاف عديدة من الناس ينتحرون كل عام ،ويضعون بأيديهم حدا لحياتهم . والى جانب هؤلاء آلاف عديدة اخرى يرتكبون ما قد نسميه « انتحارا نفسيا » وهؤلاء لا تنتهى حياتهم دفعة واحدة ، بل يموتون موتا بطيئا ! هؤلاء هم الذين ينغمسون فى الشعور بالهزيمة . والجانب المؤلم فى هذا انهم لا يستطيعون أن يتبينوا الدافع الحقيقى الذى يختفى وراء شعورهم باليأس والعجز .

خذ مثلا مدمن الخمر . يقول له طبيبه أن الخمر تتلف كبده وكليتيه ، وأن الذهن « المخمور » سينتهى يوما الى التدهور العقلى ، ولكن هل يفزعه هذا الانذار من الخمر البتة ؟!

ولقد أيقن الاطباء النفسيون أن مدمنى الخمر جميعا مرضى عصابيون ، ولا يمكنك أن ترجو شفاء مدمن الخمر الا اذا نجحت فى أن تجعله يدرك صراعه العاطفى المسئول عن ادمانه ، فالمدمن هو شخص لا يستطيع أن يحتمل الحياة ، ولكنه لا يعترف بهذا أبدا . ولانه يريد الفرار من ضروب الفشل المؤلمة فانه يصبح عدوا لنفسه . فادمان

الخمر يصبح الحل الوسط بين رغبته فى الحياة ، ورغبته في الموت . انه انتحار جزئى ، تسميم للجسم والعقل ، ولكنه ليس كافيا لاحداث الموت . ان المدمن يعيش ويموت بارادته . وبعض المدمنين يدركون فى بطء أنهم « يلكمون انفسهم لكمات قاضية ، ومن ثم يقررون وضع حد لحياتهم بالانتحار . ولكن اغلبيتهم يخافون الموت ، ويخافون الحياة على السواء ، ومن ثم يهربون الى عالم ثالث ، خال من الروادع والنواهى والتبعات والقيود .

وفى هذه الطائفة ايضا يسلك الذين ادمنوا المخدرات ، او تناول الحبوب المنومة . وضروب معينة من المجرمين، وبعض مرضى العقول الذين تشتد بهم الكآبة الى حد يأبون معه تناول الطعام ، وآلاف ممن يشعلون الشموع من الطرفين ، ويبعثرون صحتهم شر مبعثر . وقد تجد الدافع الانتحارى فى الرجل الذى يعمل دون انقطاع ودون اكتراث براحته . ولقد عرفت أناسا مثقفين فشلوا فى ترويض انفسهم على الحياة المتزنة .

حدثنى صديق عن « جراح » فشل فى حبه ، وعلى الرغم من تحذير زملائه من الاطباء له ، فقد رفض ان يخفف من عمله ، واصر على انه ليس له من بديل عن التفكير فى غرامه الفاشل الا العمل المتواصل . ولما بدأ يشكو من ألم فى منطقة القلب ، كان الوقت قد فات ، وقضت نوبة قلبية مفاجئة على حياة جراح نابه !

٣ ـ الدافع الشبقى « الجنسى » :

استغرقنى بعض الوقت ان ادرك أن بعض النـــاس

يجدون المتعة فعلا فى مخاوفهم !

اخبرتنى امرأة متزوجة ، فى الثانية والاربعين من عمرها ، انها تصبح عصبية مضطربة اذا سمعت نبأ مؤلما محزنا ، كأن تسمع أن انسانا مريض مرضا شديدا . كما تفزع اذا فكرت أن انسانا يحتضر ، أو اذا تصادف أن رات جنازة مارة ، أو انسانا مصابا فى حادثة ، انها عندئذ تشعر بألم فى معدتها يستمر بقية اليوم ، ومع ذلك فان من عادة هذه المرأة أن تذهب الى السينما لترى أفلاما مفزعة كأفلام « فرانكشتين »، وتطالع الروايات البوليسية التى تروى جرائم القتل ، وتكون أول من يعدو لتشاهد حادثة وقعت . فما الذى يمكن أن يستخلصه الانسان من هذا ؟ ان مخاوفها أصبحت بديلا « شبقيا » عن رغبات لم تستطع اشباعها ! ومن المألوف للعوانس أن يجدن هزات ممتعة من خوفهن ، كما يجدن سرورا خفيا فى البحث تحت السراير او وراء الابواب .. عن رجل !

وهذه الظاهرة توضح كذلك لماذا يجلس الاطفال على مقاعدهم ، ويقضمون أظفارهم وهم يراقبون فيلما بوليسيا مثيرا . ولم يستمتع البالغون بالمركبات الهوائية المخيفة فى حدائق الملاهى ، ولم يستمتع بعض آخر بشعراء مقطوعات الادب المؤثرة ، ويستمتع آخرون بتشييع الجنازات !

امثال هؤلاء الذين تحولت رغباتهم المتبقية يشكون آلاما

وأوجاعا غامضة دون أن يكون فى مقدورهم الربط بينهـا وبين المخاوف التى أوحوا بها الى أنفسهم !

٤ ــ الدافع الانتقامى :

ان العصابى البالغ ، شخص أحبط فى طفولته ، ومن أجل هذا الحبوط ينمو فى نفسه الشعور بالكراهية والحقد الحقد على أولئك المسئولين عما يعانيه الآن من صراع ، ثم يتحول هذا الحقد الى الآخرين .

وقد يتحول الشخص الى مجرم مثلا بسبب كراهيته لابيه . فهو يتمرد على كل النظام ، والسلطة ، والقانون لانها مرتبطة بذهنه بسلطة أبيه الذى يكرهه ، وبتشـدده وبجبروته . ومن سوء حظه انه لا يدرك انه ينطح راسه فى جدار صلب ، فالمجتمع لا يتقبل ما ياتيه من أعمـال الكراهية مهما تكن اسبابها .

ولقد وصفت لى مريضة ، ولنسمها « مسز س » ، كيف ان أباها كان ينهرها وهى طفلة ، فكانت تخـافه وتخشاه ، ونشأت وهى تمقت مجرد وجوده فى المنزل ، وزاد الطين بلة حين بدأت أختها بدورها تسىء اليهـا وتعذبها . فكان تعرضها لمثل هذه المؤثرات المبكرة سـببا فى خلق الشعور بعدم الامن والاطمئنان فى نفسها . وماذا كانت النتيجة ؟ لقد استولت عليها فكرة مؤداها انهـا لا تستطيع الاشراف على طفليها ، بسبب الصداع الذى يلازمها ، وبسبب سوء صحتها ، واقنعت نفسها بأنهـا

معتلة الصحة طوال حياتها ، ولم يكن بها من تعب الا تعب أعصابها الذى نشأ عن المجهود الكبتى الذى بذلته لكبت سخطها على أبيها وأختها .

وتولت أختها العناية بطفليها ، كما تولى أبوها دفع نفقات علاجها ، وأصبح الزوج بديلا من أبيها ، ضحية للحقد والكراهية . وبهذا استطاعت أن تنتقم من الاب والأخت والزوج – بديل الأب – جميعا جزاء ما لاقته من عنت فى طفولتها !

بيد أن ما فعلته ولد فى نفسها احساسا قويا بالذنب تبدى فى قولها لى :

« ولكنى يا دكتور أحب أبى وأختى ، أو هذا ما يجب على على الأقل .. » وقد كان احساسها هو الذى دفعها الى اختيار المرض كوسيلة للانتقام .. فهى فى الوقت الذى انتقمت فيه لنفسها من أبيها وأختها ، انتقمت من نفسها أيضا – بالمرض – جزاء مقتها شخصين فرض العرف عليها أن تحبهما ! وكانت هذه الحلقة المفرغة تزيدها شقاء وتعاسة ، وتزيدها عجزا عن أداء مهمتها « كانسانة » وكزوجة وكأم . !

٥ – دافع الحصول على الاهتمام :

كلنا نحب أن نكون « محبوبين مرموقين » . فالحاجة الى الاحساس بالحب حاجة أساسية فى الانسان . ولكن بعضنا من سوء الحظ ، أما أن ينشب محروما من القدر الكافى من الحب والعطف من أقرب الناس اليه ، وأما أن

ينال في طفولته قدرا أكبر مما يلزم.

طافت زوجة شابة جميلة على عدد من الأطباء في المنطقة التي تقيم فيها بحثا عن علاج لصداع مؤلم مستمر. وقد جربت كل صنوف العقاقير والعلاج الطبيعي كالتدليك والمساج المائي ولكن بلا جدوى! فلما جاءتني اعترفت لي ان زوجها كان مخيبا لآمالها، فان زوجها كان في فترة الخطبة يبالغ في العناية بها والاهتمام بأمرها، ولكنه مالبث أن أهملها بعد الزواج، حتى أحست بأنها غير مرغوب فيها [illegible] الصداع بدأ يصيبها في الاشهر القليلة الاولى للزواج. وكانت كلما ازدادت شكواها [illegible]

[illegible]

[illegible]

الهدايا [illegible] الصداع [illegible]

فكيف تفارقه؟

[illegible]

تلك هي أنهم لا يعرفون [illegible] الأصلي [illegible]

ثم فانهم يظلون مرضى الى أمد غير محدود [illegible]

ويصاحب هذه الرغبة في طلب العناية — وهي بديل من حب الوالدين — عقدة الرثاء للذات فلا يلبث أن يصبح هؤلاء المرضى كالشهداء، يظلون يبحثون عن آذان مصغية [illegible]

[illegible]

على الاسترخاء ، والاستمتاع بالحياة ، والنجاح فى تحقيق الاهداف التى تعود عليهم بالسعادة الحقيقية .

فاذا عجز طبيبك عن أن يجد علة عضوية لمرضك ، فالاحتمال قائم فى انك ربما تنزل بنفسك العقاب . فحاول أن تعثر على الدافع الخفى لشكواك ، فانك تصيب نفسك بضربة قاضية [illegible] الذاتى والتماس المهرب فى المرض . والعصابى على خلاف الاعتقاد الشائع [illegible]

[illegible]

الإحساس بالذنب وراء كل عصاب!

ان الاحساس بالذنب يسبق اغلب الامراض النفسية المعروفة . فهو السبب الدفين للخجل ، وضعف الثقة بالنفس ، وازدراء النفس ، والشك ، والتوجس ، وتجسيم التوافه ، والشعور بحقارة النفس ، والنقص ، والاكتئاب ، والمخاوف بانواعها .

وانه لما يدعو الى الاسف حقا ان عبارة « لا تفعل » مازالت هي مفتاح تربية الاطفال ، ومازالت هي الوسيلة الشائعة لافهام الطفل انه ارتكب خطأ ! ثم يصادف اعتقاد الطفل بارتكابه الاخطاء بعد ذلك مايغذيه وينميه من ضروب التخويف والتهديد التى يلقاها فى البيت أو فى المدرسة .

ولعله لا يوجد فى هذه الدنيا انسان ـ طفلا كان او ناضجا ـ لم يلم نفسه فى فترة من فترات حياته مع ما يراوده من أفكار جنسية ، أو على امتثاله للممارسات الجنسية وحده أو مع آخرين .

والجهل بالحقائق الجنسية من الاسباب الرئيسية التى تدفع الى الاحساس بالذنب على الاخص فى النساء

والاطفال . وما أكثر الفتيات اللواتي متى استشعرن الحوافز الجنسية ، وراودتهن الخيالات والاوهام التي تتفرع عنها ، اعتقدن على الفور ان قد اصابهن الخبل !

وما زالت هناك نساء ـ في عصرنا هذا ـ لا يعرفن كيف يولد الطفل ! ولعل معلومات أكثر الرجال في هذا الصدد ليست بأكثر عمقا !

وسرعان ما ينبع الخجل أو العار من الاحساس بالذنب ومن الخجل تنشأ الرغبة في أن يقارن المرء بين نفسه وغيره من الناس كي يستشف ان كانوا يعلمون مايجري في داخليته . وتنبري عندئذ عاطفة حب الذات لكي تبدأ صراعا مع غريزة النوع . وتتصدى الذات « الشخصية اذا شئت » مدفوعة بالرغبة في أن تكون مرضيا عنها من الناس في وجه الدوافع والرغبات الاولية ، ولا يمضي وقت طويل حتى تعقد الغلبة للذات ، وينتهي الفرد ـ الذي يستشعر الذنب والعار ـ الى الاشتباه في أن الاخرين يعرفون ما يجري بداخليته . وهناك يغدو ضحية للشك ، فيعتزل المجتمعات ، ويحمر وجهه خجلا ، ويدقق النظر الى نفسه في المرآة ، ويرسخ في نفسه الاعتقاد بأن عينيه تفضحانه ، وتسارع دقات قلبه ، ويضطرب جهازه الهضمي ، ويتضافر الاحساس بالذنب والاحساس بالعار على خلق الاحساس بالنقص !

وحيثما يوجد الاحساس بالذنب ، فالاحساس بالنقص موجود . ان الاحساس بالذنب ، والاحساس بالعار « الذي يولد الخجل » ، والاحساس بالنقص ، ثالوث تجده دائما وراء كل مرض نفسي .

وأغلب ما يولد الإحساس بالنقص الرغبات الجنسية التي كبتت لأسباب اجتماعية ، أي تلبية لرغبة المجتمع ، ولكن ثمة عوامل أخرى ، غير جنسية ، قد تولد الإحساس بالنقص ، كالقصور عن بلوغ مطمح معين ، أو أن يكون للمرء أب متسلط أو أم متسلطة .

ويمكن أن نميز نوعين من الأحساس بالنقص ، الأول إحساس واع بالنقص ، يدركه المرء ، وهو غالبا ناشيء عن عجز حقيقي ، أو مبالغ فيه . والثاني إحساس لاشعوري بالنقص يحفز سلوك المرء وتصرفاته دون أن يحس المرء بوجوده .

فأما الإحساس الواعي بالنقص ، فلا يتطلب علاجه أكثر من معاونة المرء على أن يقيم عجزه تقييما واقعيا لا مبالغة فيه ، وأن يعان على تغيير طريقته في العمل أو المعيشة ، وعلى اكتساب قدرات ومهارات تتيح له أن يظفر برضا المجتمع وثنائه .

أما النوع الآخر من النقص ، النقص اللاشعوري ، فهو نقص مقنع متنكر ، ونماذجه أعمق وأكثر اتضاحا وأعظم ضررا .

فالذي يعاني نقصا لا شعوريا لا يعترف بأن به نقصا ، ثم إنه مدفوع ، وهو لا يشعر ، إلى التفكير والإحساس والتصرف بطرق غريبة متميزة بوساطة آليات انفعالية لا يعيها . إن النقص يخدعه ، ويضرب على عينيه غشاوة ، وهو في قبضته لا يملك من أمر نفسه شيئا !

واللعثمة والتأتأة وغيرها من اضطرابات الكلام من أمثلة النقص اللاشعوري المقنع ، فالتأتأة يدفع إليها الشعور

تحقيق رغبة جامحة او حاجة نفسية اولية .

والنقص اللاشعورى يحد من مقدرة المرء على الانتاج ، ويقوض سكينته نفسه . ولا تنكشف هذا الاحساس اللاشعورى بالنقص الا بانكشاف مسبباته الاولى ، واخراجها الى حيز الشعور ، وعندئذ يتلاشى النقص كما لو كان بفعل ساحر .

والملاحظ ان الذى يحس النقص لاشعوريا او لاشعوريا يعمد غالبا الى نموذج من السلوك مضاد او مناقض لهذا النقص ، وهذا ما يسمى بالتعويض (Compensation) ، وهو عملية دفاعية يقصد بها اخفاء مايفكر فيه المرء ويرغبه فى قرارة نفسه ، ومثل هذا الدفاع يحمل غالبا فى ثناياه نوعا من انواع التفوق .

مثال ذلك ان تجد قصار القامة يتحدثون بصوت مرتفع ، فى حين يخفض طوال القامة من اصواتهم حتى لا يلفتوا الانظار بل ان الشجاعة قد تكون دفاعا عن الجبن ، والقسوة دفاعا عن طيبة القلب ، والفظاظة دفاعا عن الوداعة .

والحوافز القوية تحاول دائما ان تعبر عن نفسها ، فاذا لم يتيسر لها هذا مباشرة وبغير قناع فى دنيا الحقيقة ، فهى عندئذ تكبت ، ويكون الكبت عقدة ، تتلمس مخرجا ملتويا ، وتظهر بصورة رمز محير سواء فى التفكير ، او فى الاحساس ، او فى السلوك ، او فى الاحلام .

على ان الاحساس بالذنب وما يصاحبه من احساس بالخجل هو السبب الاصيل فى معظم مركبات النقص .

والواقع أنك كلما تعمقت في نفسك حتى تقارب المستوى البدائي أو الحيواني قل الاحساس بالذنب . وكلما صعدت الى أعلى استبان هذا الاحساس . فكلما ازداد حظك من المدنية وسمت ثقافتك وتربيتك ، ازددت احساسا بالتزاماتك تجاه الناس ، وازدادت فرص احساسك بالذنب !

على ان الاحساس بالذنب وما يتفرع منه من احساس بالعار أو الخجل ، أو احساس بالنقص ، فى وسعك أن تجتثه من جذوره متى فهمت نفسك ، وأدركت طبيعتك ، وتتبعت اسلوب التربية الذى كنت تعامل به فى أيام طفولتك الاولى ، لترى على أى الاشياء كان ينصب أكثر مما ينصب على غيرها . أو بمعنى آخر لتطلع على ماكانت البيئة تنهاك عن فعله وانت ترغب فيه رغبة شديدة . أو تأمرك بفعله وانت ترغب عنه . فهنالك ، فى تلك الفترة الباكرة التى لم تكن تملك فيها عقلا يميز ، وانما كانت استجاباتك انفعالية كلها ، ستجد بذور الاحساس بالذنب التى سقيت على مر الايام والاعوام حتى نبتت وازدهرت.

الخجل هو أشيع مظاهر مايسمى علميا بالاحساس بالذنب (Sense of Guilt) ، وهو عرض مصاحب لاكثر الامراض النفسية ، ويتجلى فى تنبه المرء لوجوده وافكاره وسلوكه ، الامر الذى يجعله سريع الخجل والارتباك .

والاحساس بالذنب مقترن غالبا ، فضلا عن الخجل ، بالخوف والاحساس بالنقص . ولكن الواقع أن الشخص الخجول ظاهريا أبعد ما يكون عن التخاذل والجبن والنقص

وانما هو يرزح تحت احساس « مكبوت » بالتفوق !

والشخص الخجول لم يولد خجولا ، وانما جاء الخجل عرضا لمرض نفسى ، ولما كان الخجول عصابى الطبيعة . فهو اذن ـ كما رأينا فيما سبق ـ فياض الطاقة ، فائق الحساسية .

وحين شرع ينمو لم يستجب ، كسائر الاطفال ، للتربية التى اخذ بها ، ولا لمؤثرات بيئته . ولعله كان منعزلا ، منطويا على نفسه ، فلم يختلط اختلاطا كافيا بأقرانه . ولعله كان طفلا قريب البكاء ، واغلب الظن أن أقرانه علقوا على اقلاله من الكلام ، ولاحظوا دوام اكتئابه واعتكار مزاجه . ولعله أيضا كان يهرع الى امه مذعورا لدى اى خطب ، وهو على التحقيق لم يكن يحب الشجار والعراك ، وانما كان يفر فرارا من وجه التهديد .

والاغلب أنه ، فى مستهل عهده بالمدرسة ، كان عزوفا عن النشاط الاجتماعى ، أو الرياضى .. اذا انصرف من المدرسة هرع الى البيت ، بدلا من أن يقضى الوقت فى اللهو واللعب مع زملائه . وربما كان ينكب على المذاكرة ساعيا الى التفوق ، ليثبت لنفسه ، على الاقل ، انه شيء مذكور . والارجح أنه كان ، على الجملة ، طيب السمعة ، محمودا من الاقارب والمعارف ، يفضل أن يفعل ما يؤمر به على أن يقاوم ويعترض .

وحين بلغ المراهقة لم يتغير من الوضع شيء ، بل لعل خجله ازداد . ولعله اجتنب المنافسات ، واعتزل المجتمعات وأصبح انطواؤه اجلى واظهر ، فاذا كان فى صحبة الجنس الآخر أوشك أن يتجمد من الخجل ! وأصبح مجرد تفكيره

في لقاء شخص غريب عنه يسبب له سرعة دقات القلب ، ويصيبه الرعب !

ولعله حتى يومنا هذا ، ومهما تكن سنه ، ما زالت تلفه هذه الدوامة من الإحساس بالذات ، وتدفع به الى أسفل . والنموذج العام لسلوكه سواء مع الناس أو في شق طريقه في الحياة قد بقي حتى اليوم كما كان .

فالخجل ولا شك يحد من الحيوية ، ويقيد النشاط ، ويعوق الإحساس بالسعادة . ولعل القارئ يتساءل : « إذن فما موضع التفوق ؟ » لقد قدم الإجابة عن هذا السؤال كثيرون من المشاهير . فالملكة ماري ملكة انجلترا ذات المهابة والجلال ، كانت في طفولتها تنفجر باكية بسبب خجلها !

وكان النجم السينمائي « ريموند ماسي » فريسة الخجل والإحساس بالذات في شبابه . و « برنارد شو » كان أحيانا يروح ويغدو أمام بيت صديق له قبل أن يستجمع أطراف شجاعته للدخول !

وقد كان هؤلاء جميعا متفوقين بطبيعتهم ، وكل الذي صنعوه أنهم تمكنوا بطريقة ما من أن يتحطم عقبة الخجل ، ويغدوا بتفوقهم إلى السطح .

واختلاف الخجول عن الفرد العادي في تأجج الطاقة وشدة الحساسية نفسها ، وإن كانت مقنعة ، وبعض أن يحس المرء بذاته ، لأن هذه الذات تعاني من افتقاد التعبير عن نفسها ، وإنها لمكبوتة تريد أن تخرج من مكمنها إلى السطح ! فما الذي يحملها على الاختفاء ؟

الجواب هو : الاحساس بالذنب .

والعصابى الطبيعى أشد احساسا بالذنب ولاشك من الافراد العاديين ، فتكوينه الانفعالى اذا قورن بتكوينهم ، رقيق مرهف ، وهذا هو السبب فى انه أسرع منهم الى الاحساس بالذنب ، وأشد منهم احساسا به ، مهما يكن ما يستوجب هذا الاحساس . انه بسبب تكوينه الانفعالى الرقيق المرهف ، يفر فرارا من خشونة عالم الحقيقة ، ويغدو متنبها للذنب ، ويفضى هذا مباشرة الى الاحساس بالذات ، والى أشيع مظاهره : الخجل .

ومهما يكن السبب الذى رسخ [illegible] الشعور ، فقد أصبح يعتقد أن الناس لو عرفوه على حقيقته لنبذوه . وهذا الخوف من النبذ ، أو عدم الرضا ، أو من « الانكشاف » هو جوهر مشكلة الشخص الخجول ، صبيا كان أو ناضجا ؛ ومع انبعاث هذا الخوف تندفع الى الوعى جحافل الشكوك والتردد التى تحيل كل صلة اجتماعية أو عملية « كابوسا » خانقا !

يدعى الشاب الخجول الى حفلة مهمة ، وبرغم أن الدعوة تزدهيه ، فسرعان ما تطغى عليه التأويلات التى تظل تشتد شدتها حتى تغلف [illegible] القلبة ، وتسلبه القدر [illegible] من الثقة بالنفس الذى جلبته له الدعوة ، ويحل محله [illegible] كالمريض المفاجىء مثلا !

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بأنفسهم ، وفضلا عن هذا فالخطوة الاولى فى صـــلاتهم بالنساء تتوقع من جانبهم ، وهذا هو السبب فى أن الرجل الخجول يجد عناء شديدا فى عقد صلة بالجنس الآخر .

ولا يهم ان يكون الظرف استثنائيا ليخرج بالشـخص الخجول عن اتزانه . فقد تجد الفتاة ذات الصوت الجميل الموهوب سهولة فى الغناء أمام معلمتها ، ولكنها تجـــد الصعوبة كل الصعوبة فى الغناء أمام الجمهور . وقـــد يحفظ التلميذ الدرس عن ظهر قلب ، ولكنه لا يذكر منه حرفا اذا مانودى أمام « الفصل » . وتجد من الناس من يخشى غشيان المقاهى والمطاعم ، ومن يستشعر القلق اذا ما ضمه « الاتوبيس » أو الترام ، حيث يصبح هـــدفا لاعين الناس ، ومن تهرب دماؤه اذا استدعى الى مكتب المدير ، ومن يحمر وجهه خجلا اذا حياه فرد من الجنس الآخر ! وما أكثر الذين يتعلقون بأعمال يحتقرونها او يرون انفسهم غير ملائمين لها ، لانه ليست لهم الجراة على محاولة العثور على غيرها . وكثيرا مايظل العزاب والعوانس بغير زواج ، لا لان هذا هو مايريدون ، ولكن لانهم اخجل من أن يجدوا شركاء لحياتهم .

وفيما يختص باعتقادنا اننا مذنبون ، فاننا لا نصـبح شاعرين بذواتنا بسبب اخطاء حقيقية او متوهمة . ذلك ان الخطأ الذى يرتكب عمدا كالسرقة ، او العادة السرية ، او اية ممارسة جنسية اخرى ، قد يجلب تأنيب الضمير ، أو الاحساس بالعار . ولكنه لا يجلب الاحساس بالذات !

فاذا أردت أن تعرف منشأ الاحساس بالذات، فاستعرض طفولتك . وانظر كم تستطيع ان تذكر مما اشعرك فيها بالذنب . حاول ان تتذكر كيف كنت تحس عندما بدات تسمع عن كيفية ولادة الطفل ، وعن المعنى الحقيقى للعملية الجنسية . هل ضبطت يوما متلبسا بممارسة العادة السرية او هل اتهمت بممارستها ؟ واذا كان القارىء فتاة : هل احسست بذاتك عندما جاءك الحيض اول مرة ؟ أو عندما أدركت أنك مرغوبة جنسيا ؟ أو هل احسست بالذنب لانك ابتعدت عن تعاليم الدين ؟ أو لانك غششت يوما فى المدرسة ؟ أو سرقت ، أو كذبت ؟ أو هل استشعرت النقص بسبب علة او نقص جسمانى ، او لانك نشات على الاعتقاد بأنك ضعيفة البنية ؟ هل تراك كنت طفلا غير مرغوب فيه ، أو كنت تعامل معاملة تختلف عن معاملة سائر اخوتك ؟ هل أنكر عليك الحب طفلا ؟ هل كنت تلقى استفزازا كثيرا ؟ هل كنت تلميذا بليدا ؟

ان الاسئلة السالفة تصلح لان تكون دليلا تسترشد به فى استكشاف الذكريات الدفينة المشحونة بالاحساس بالذنب . وثمة عشرات الاحتمالات ، كل منها خليق بأن يولد الشعور بالذنب .

واذا كنت خجولا ، فانت لم تزل ـ بغير داع ـ متأثرا بالاحساس بالذنب الذى نبت فى عهد الطفولة ، واصبح ليس اكثر من مجرد سعى من جانبك لعقاب نفسك . وهكذا تجد نفسك مدفوعا الى تضحيات لاموجب لهـا ، والى حرمان نفسك من لذات تشتهيها ، والى اضناء

نفسك بالعمل او الوعي. ذلك انما يعد تكييفاً [illegible]

فكيف من عقاب نفسك او ركل نفسك بانواع التطلع الى
يعرفوك على حقيقتك كشخص قائمة بمميزاتك و قدراتك
والاشياء التي تشعرك بالفخر او على الاصح كشخص
قائمة بوجه تفوقك الحقيقي.

ان احساسك بذاتك انما هو احساس [illegible] وتجهة النظر هذه
وحتى نظرت الى نفسك والى قدراتك الحقيقية مثل
الزاوية الصحيحة فسوف يتلاشى على الفور احساسك
بذاتك.

القسريات والوساوس: القسر (Compulsion)

هو انصياع المرء [illegible] بقوة [illegible] الى [illegible] شيء
[illegible] ارادته او [illegible] [illegible] الا [illegible] هي
الافكار [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] بالوسواس [illegible]. [illegible]
والوساوس [illegible] [illegible] ونحن [illegible] [illegible]
لارادة هذه التصرفات حتى وان ادركنا سخفها.

[illegible] على الافكار [illegible] التي [illegible] [illegible] الوعي
على الاقل [illegible] [illegible] ولا [illegible] ذلك [illegible] الذي
[illegible] على ذهنه فكرة [illegible] [illegible] وتهمس الى
ذهنه قائلة في تكرار « بطاطس بوزيه [illegible] بطاطس مسلوقة »
[illegible] هذه الفكرة تلح عليه [illegible] قبل [illegible] يكتشف اللاوعي
[illegible] دلالتها [illegible]

ولقد [illegible] الموظف [illegible] [illegible] [illegible]
مع الموظفين الذين يعملون [illegible] [illegible] الرئيس:
« [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

اليوم نفسه عاد الموظف الى منزله فوجد زوجته قد أعدت له الطعام ... بطاطس محمرة [illegible]

طهوها ، وحدث الموظف نفسه قائلا : « ينبغي أن أكون [illegible]

وفي اليوم التالي [illegible] الخاطر الملح [illegible] بطاطس [illegible] بطاطس مسلوقة » ، أما دلالة هذا الخاطر فهو أنه لم يتجمع [illegible] ثم [illegible]

والفعل المتسلط هو [illegible] الواقع فكرة متسلطة تتحول في [illegible]

ويذهب المرء الى [illegible] ليتأكد [illegible] ومن الأمثلة الشائعة كذلك الرغبة في تلمس قضبان الأسوار إذا ما [illegible] المرء [illegible] على حافة [illegible] أو في قراءة [illegible] أو قام [illegible] السيارات [illegible] رغبة في التفتيش [illegible] جميعها [illegible]

وقد تلح مجموعة بأكملها من هذه الخواطر على المرء [illegible]

والرسم على قطعة [illegible] تليفونية قد يتحول الى فعل متسلط يعجز المرء عن مقاومته ، ولا يملك [illegible]

الا أن يشوه مكتبه ومكاتب زملائه بما ينقشه عليها من رسوم .

وقد تكون الافعال المتسلطة مضرة أحيانا كأولئك المنساقين الى تحطيم المصابيح الكهربائية ، أو الواجهات الزجاجية .

وقد تشتد وطأة الافكار والافعال المتسلطة حتى يعوق عذابها المرء عن استكشاف معناها ،وعندئذ يوصف هذا المرء ، لا بأنه مريض نفسي وحسب ، بل بأنه يشكو مرضا نفسيا حقيقيا هو العصاب القهرى أو التسلطى .

الحت على مريضة فكرة متسلطة بأن كل ما تلمسه بيدها سيسمم أى شخص يلمسه بعدها ! وكان سبب هذا الخاطر ، الاحساس بالذنب الذى ولدته معتقداتها الخاطئة عن الناحية الجنسية كما سمعتها فى طفولتها ، فلما راودتها فى شبابها الخواطر الجنسية وقع فى روعها أنه « انسانة مسمومة » . وبرغم أدراكها أنها لا يمكن أن تكون كذلك ، الا أن الخاطر ألح عليها !

وظل مريض آخر مدة ثلاث سنوات يعانى من تسلط عصابى يدفعه الى ارتداء ثيابه ، ثم خلعها ، ثم ارتدائها مرة أخرى ، وهكذا ثلاث مرات قبل أن يستشعر الراحة وكان آخر يعمد الى الطواف حول منزله قبل أن يدخله . وثالث كان يغسل يديه بالصابون ثم بالكحول كلما مس مقبض الباب .

ولاشك أن فى وسع « الافكار » أن تلح وتلج فى الالحاح حتى تحيل حياة المرء الى عذاب مقيم .

عرفت أما كلما انصرف عنها ابناؤها ، الحت عليها

فكرة انهم سيصابون فى حادثة . وكانت تحيطهم بكل اسباب الامان والحماية ، حتى لقد كانت تدرك أن فرص اصابتهم فى حادث جد بعيدة أو مستحيلة ، ولكن الفكرة، برغم ذلك الحت عليها وأحالت حياتها جحيما .

وغالبا ماتعانى الفتيات من أفكار جنسية ملحة . وافكار الفتيات التى تدور حول الرجل هى فى حد ذاتها، افكار عادية طبيعية ، ولكن الذى يكسبها الصفة العصابية هو تكرارها وتزاحمها فى الذهن ، وقد تحيل هذه الافكار احيانا حياة الفتاة جحيما .

والوقوع فى الحب قد يكون تسلطا عصابيا . فعجز المرء عن التفكير الا فى الشخص الذى يحبه ، انما هو عصاب تسلطى متكامل العناصر .

بل حتى الضمير قد يغدو تسلطا عصابيا اذا ما فرض نفسه على تفكيرنا ، وراح يحصى علينا أخطاءنا ، ويمد الى افعالنا اصبعا لوامة ليشعرنا بالذنب . ووظيفة الضمير هى أن يملى علينا ماينبغى أن يظل مكبوتا مدفونا ، فاذا نم عليه شىء بين الحين والآخر ، انتابنا الضيق والالم ، وادركنا أننا فعلنا شيئا منكرا ، ومن ثم نلوم أنفسنا ونؤنبها ، وقد نبالغ فى اللوم والتأنيب فنعتبر أنفسنا منبوذين من المجتمع ، غير جديرين بالاختلاط بالاشخاص المهذبين وعلى الاخص اولئك الذين نحبهم .

والتسلطات العصابية سواء تجلت فى ضمير حاد لا يفتأ يتدخل فى أفعالنا مستنكرا ، أو تجلت فى أفعال معينة لا يملك المرء ، بدافع الحاحها ، الا أن يفعلها ، ليس لها الا نتيجة واحدة هى العذاب النفسى .

[illegible] والعلاج [illegible] فلما تنوعت الاسباب [illegible] الافكار والانفعالات
المتسلطة [illegible] اتضحت [illegible] او تفكير متعاقب [illegible] يكون
[illegible] الاتجاهات التحليلية [illegible] عن العقدة
أو عن سبب [illegible] التوافق والانسجام .

[illegible] ما يكون [illegible] بالتنفيس [illegible] الراقية في
[illegible] النفسية [illegible] الاسلاسي [illegible] المتسلطة
[illegible] الافكار المتسلطة [illegible] الوطأة [illegible]
[illegible] عناية خاصة للافكار والانفعالات
الجنسية عند الاطفال .

[illegible] من [illegible] الخطأ [illegible] الآباء والامهات [illegible] يكون
[illegible] المسائل الجنسية لاطفالهم [illegible] لم ينتزعوا
من اذهانهم الغموض الذي [illegible] الآباء

[illegible] الاب [illegible] ابنه او ابنته
الى [illegible] يصبح [illegible] الى [illegible]
الناحية الجنسية [illegible] صريحا خاليا من الحرج عند
[illegible] فاذا رأى الاب ان هذا امر مستحيل ، فالواجب
ان [illegible] طبيبا نفسيا [illegible] ماذا يفعل ، او
[illegible] الابن او الابنة [illegible] وقليلون جدا من
الاطفال [illegible] من النظرة الخاطئة الى العادة
السرية في وقت من اوقات حياتهم ، فاذا امتثلوا لها [illegible]
جهلهم بحقيقتها ، غرست في نفوسهم بذور الاحساس
بالذنب ، والاحساس بالنقص ، وربما [illegible] ينبوع
التسلط [illegible] والمثل التالي مصداق لما أقول :

كان هناك شاب في الثامنة والثلاثين [illegible] ،

[illegible] وانطلق [illegible] ولكنه لم يزاول عملا ثقافيا في
اخلى [illegible] وكان [illegible] فكرة متسلطة بالثة مواضع
مراقبة [illegible] وفوضوية ومتسلطة في القيام نفسه من [illegible]
فاينما ذهب كان يدقق النظر في الناس ليرى كيف ينظرون
اليه ، وخصوصا اذا ضمه حفلات او مناسبة اجتماعية .
وكان الى ذلك يعاني الارق ، والاحلام المزعجة ، والاحساس
بالوحدة [illegible] (OOIT)

[illegible] واظهر التحليل ان ام الشاب له كانت شديدة القسوة
عليه ، فقد كانت عصبية المزاج ، وكانت [illegible]
كلما [illegible] [illegible] ان [illegible] في غرفة
مظلمة [illegible] هناك [illegible] حتى [illegible]
[illegible] الشرية [illegible]
بضربه ضربة [illegible] [illegible]

[illegible] الطفل [illegible] [illegible] يمكن
[illegible] [illegible]
[illegible] عليه [illegible] [illegible]
[illegible] الاعراض التي [illegible] وما
كانت في الواقع الا رموزا للذنب الموقع على النفس [illegible]
احساسه [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible]
[illegible] الطفل [illegible] الناس [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

المزعجة فمنشا ازعاجها اشارتها الى حالة انعدام التوافق في اللاشعور . اما رغبته المتسلطة فى القاء نفسه من حالق فقد كانت رغبة لاواعية في التخلص من نفسه لانه فى راى نفسه ، شيء لا يستحق الحياة !

ومهما تكن أسباب التسلطات دفينة ، ففى الوسع استكشافها وازالتها . وما نسميه بالحركات العصبية (TICO) كتذبذب أهداب العين ، أو اتباع طريقة معينة فى السير ، أو ما اليها يمكن أن تسلك كذلك فى عداد التسلطات . بل حتى اللعثمة والتهتهة والثأثأة وغيرها من عيوب الكلام يمكن أن تنتمى اليها ، مالم تكن ناشئة عن عيب عضوى . والعامل اللاواعى المكبوت المسئول عن مثل هذه التسلطات غالبا مايتلخص فى الرغبة في الفرار من الحقيقة لسبب من الاسباب .

والتطير ، والاعتقاد فى الخرافات من الافعال المتسلطة ايضا . فكل تطير او اعتقاد خاطيء يتضمن فى ثناياه عنصر العقاب الذى يحاول المرء تجنبه . ولماذا يخشى المرء العقاب ؟ لانه يستشعر الذنب ، ويحس انه جدير بالعقاب !

أو بعبارة أخرى ان المصدر الذى يوقع العقاب يصبح ، الذهن رمزا لقوة مجهولة . فاذا قضت هذه القوة مثلا بالا يرتبط احد بالرقم ١٣ حتى لا تقع له كارثة ، واذا كنت فى عقلك الباطن تعتقد ان فى وسع هذه القوة أن تعاقبك اذا عصيتها ، فانك ستجتهد فى اجتناب الرقم ١٣ ما وسعك الاجتهاد ، اى أنك بمعنى آخر تعتنق ما يلابس الرقم ١٣ من معتقدات ، فتصبح متطيرا تعتقد فى هذه

الخرافة كما تعتقد فى غيرها ! ويمكن القول انه كلما ازداد تطيرك وايمانك بالخرافات كان احساسك اللاشعورى بالذنب أكبر .

وفى وسع المرء أن يعاون نفسه على اجتناب ازعاج التسلطات والوساوس . فما هذه الا عادات درجت عليها وفى وسعنا أن نشبه هذه العادات بالمياه الجارية فى قنوات، ففى كل مرة تتحقق احدى العادات تتعمق القناة وتتسع، وفى كل مرة تقاوم فيها العادة انما تحد من عمق القناة وسريانها . فبانصرافك عنها ذهنيا ، أو بمعنى آخر ، بطردك الخواطر المزعجة من ذهنك عن طريق تحويل ذهنك الى فكرة أخرى أجدى وانفع ، كلما هاجمتك الفكرة المتسلطة ، يسعك أن تحد كثيرا من تحكم هذه العادات ، ولا يلبث أن يأتى الوقت الذى تزول فيه هذه العادات تماما .

التفكير السلبي

انطلقت ذات مساء لعيادة مريضة أكبر أن أهلها أنها في حالة انهيار لا تستطيع معه [illegible] وفي طريقي [illegible] فقد ذراعه [illegible]

كان شابا مرحا ، ثرثارا ، دائم الاستعداد للضحك [illegible] وتجنبت أن أشير الى ذراعه المبتورة ولكنه قال أخيرا : « انني أعجب كيف لم تسألنى أين فقدت ذراعى ! ان أغلب الناس يودون أن يعرفوا أين كنت أحارب ، وكيف فقدت ذراعى وما الى ذلك من التفاصيل ! »

فسألته وقد شغفت بمعرفة جوابه :

ــ هل يؤلمك الحديث عن ذراعك ؟

ــ كان هذا يحدث فى البداية ولكنى الآن أستطيع أن أسمع مثل هذا الحديث دون أن أحس ألما ! لقد أصبحت أعرف ما الذى أتوقعه من الناس ، ولهذا فانى لا أجفل من سؤالهم . لقد قررت أن أكف عن التحسر على نفسى مهما

تكن الحالة [illegible] التي أعرف [illegible] إذا لم [illegible] أسوأ [illegible]

فإني [illegible] الحالة [illegible] .. [illegible]

ولزم الصمت لحظة [illegible] في الظلام ثم استطرد يقول :

[illegible] كنت في بعض الليالي [illegible] عقلي ، فأغرق في [illegible] فإذا استطعت أن أتغلب على التفكير [illegible] على نفسي [illegible] الآن [illegible] أن لا بد لي [illegible] الاستمتاع بالحياة [illegible] لا أزال أستطيع أن أرى [illegible] وأن [illegible] وأن أعمل [illegible] وحين [illegible] واقف [illegible] الأخرى [illegible] وقال :

[illegible]

والواقع أن الشكر كان واجباً على [illegible] الدرس الذي [illegible]

[illegible] إنها امرأة [illegible] بضة ، لا تزال في عقدها الثالث ، تعيش في [illegible] جميلة مع زوجها وأطفالها [illegible]

[illegible] قالت [illegible] على [illegible] تشكو [illegible] ولم يستطع [illegible] الأخصائيين في أمراض القلب أن يقنعوها بأن قلبها سليم [illegible] وأنها تستطيع أن تصل إلى سن الشيخوخة إذا لم تقتل نفسها [illegible] هذه الخيالات !

وما كان أبعد الفارق !

شباب في ريعان الصبا لم ينل من التعليم ما يكفي

للمكافحة فى الحياة ، يواجه المستقبل بشجاعة وأمل بعد أن فقد ذراعه .. فى حين أن هذه المرأة التى تحيا فى ظروف هينة لينة فى كنف زوجها وأولادها ، تعذب نفسها الى حد العجز البدنى والافلاس العقلى !

على أن كليهما يشتركان فى أمر واحد .. هو الخوف والرثاء للذات . وقد كان للجندى الشاب كل الحق فى أن يعذبه الخوف والاشفاق ، فهو قد فقد ذراعه ، ولكنه لم يسمح لنفسه بأن يتالم كل هذا الالم .. لقد عرف من أين تنبت متاعبه ، وعرف حقيقة مشكلته ، وادرك أن عليه أن يبعد عن عقله الرثاء الذاتى ، والا سقط فى هـــوة اليأس ! وتدرب على الامر كما يتدرب الجنـــدى على الاسلحة ، وعرف كيف يكافح عادة التفكير السلبى كما يكافح العدو فى الحرب !

اما المرأة الشابة فلم تعرف سبب أفكارها المدمرة . انها لا تعرف الا انها مريضة يائسة ، ساخطة على مافعلته الحياة معها !

ولم يكن من العسير تبين علتها . كانت من قبل فتـــاة جميلة رشيقة ، ولما كبرت بها السن تركت نفسها تســـمن وتترهل ، وخيل اليها انها فى الطريق الى فقدان حســـنها وجمالها ، وأنه سيأتى يوم يملها زوجها ويزهد فيها .

ومع هذا فقد ظلت تداوم على تناول الاغذية الدسمة ، وكانت شهيتها الاصلية للحلوى هى العلةالاساســـية ، وبخيالها السقيم توهمت أن نوبات سوء الهضم هى آلام فى القلب . ولكنها ، لا شعوريا ، كانت تريد مرضا قلبيا لانها تستطيع عندئذ أن تتخذ منه عذرا لضياع جمالها ،

وتتذرع به لاستعباد أسرتها ، وتبرر ما تشعر به من مرارة !

وازدادت الحالة سوءا . وكما هي عادة العصابي ، بدأ يتولاها الفزع ، فشكت الي من أفكارها المخيفة المفزعة التي ترعبها ليلا ونهارا . انها تشعر انها تكبر ، وانها بدأت تفقد جمالها ، وترى زوجها يضل ويشرد ، وبطريقة لا شعورية بدأت تثأر لنفسها منه ، بأن تنفق كل ماله على الاطباء والعقاقير !

وكانت خطوتها الاخيرة التهديد بالانتحار ! قالت لي :

ـ لقد فعلت كل ما استطعت لكي أطرد فكرة الانتحار عن ذهني ، ولكيلا أكره زوجي . اني لا أستطيع أن أواجه كل تلك الافكار السوداء !

فقلت لها :

ـ وهنا موضع خطئك . ويجب أن تواجهيها ، فانك لا تستطيعين الفرار منها ، لانها تطاردك باستمرار ، ولا يمكنك كبتها ، لان الكبت يزيد من ضخامتها وثوراتها عليك انك بمواجهتها وتأملها وفحصها تستطيعين أن تعالجيها .

وليس كل التفكير السلبي كتفكير هذه السيدة ، فثمة أنواع عدة من سوء السلوك العقلي الذي يتسلط علينا جميعا بطريقة خفية الي حد لاندرك معه حقيقته حتى ليصبح عادة ، ويقع الضرر .

وتوهم المرض شكل آخر من اشكال انحراف السلوك العقلي فيما يختص بالصحة . فالرجل الذي يداوم على مطالعة المقالات الصحية ، والكتب الطبية ، ويترجم كل الاعراض البسيطة التي يراها في نفسه الى تهديدات

مرضية توشك أن تقضي على حياته ، انما هو ضحية التفكير السلبي . فان مثل هذا التفكير يمكن أن يكون خطرا ، بل مميتا .

ثم هناك الذين لا ينسون الاساءة مهما تقادم عليها العهد . تلك الزوجة التي تظل تذكر سقطة زوجها وتستخدمها دائما كسلطة مرهفة تشهرها على رقبته على الدوام . انها قسوة عقلية نمت من اعتياد الانسان التمسك بالماضي .

وهناك الذين يبكون على الماضي ، وعلى الشباب الضائع ايام الماضي ونحو المستقبل ، فلا يجدون الهمة في نظرهم . فليس في عقولهم الا شرنقة واحدة مخصصة لأفكار الماضي !

والخيانة الزوجية من أكثر أنواع انحراف السلوك العقلي شيوعا وانتشارا . والزوجة المخلصة جسما لزوجها ، ولكنها تحلم بعاشق [illegible] تدخل ضمن هذه الطائفة . ان المرأة العادية تحس في اعماقها بالتسلط عليها بالاعجاب بأحد نجوم السينما ، ثم تطرد عن نفسها هذا الخاطر ضاحكة . فاذا لم تفعل ذلك واذا امتلكت الأفكار فانها تبدأ في الشعور بالذنب ، ثم يتبع ذلك المرض الجسمي بسبب صراعها النفسي .

وكلنا فريسة لأفكار الحسد ، فقد نغري انفسنا اكثر منا مالا ، أو نرى لامرأة زوجا أو عملا ناجحا ، فاذا نحن تركنا أفكارنا تستقر في مرارة على الفرد الذي يبدو أن لديه أكثر مما لدينا ، فانما نزرع نوعا من سموم اعوجاج السلوك العقلي لتسري فينا .

فما الذي يجب أن نفعله في علاج التفكير السلبي ؟

ان الخطوة الاولى هي أن تتبينه وتعرفه .

وليس هذا بالامر العسير . حاول ان تراقب نفسك وكيف تفكر فانك كذلك تحسب . فاذا كانت افكارك كلها تحوم حول نقص ذاتك ، أو كانت مخيفة ، جامدة ، خاطئة ، فانك ستشعر بالاكتئاب والقلق والسخط . ان التفكير والشعور يمكن أن يصنعا حلقة مفرغة من الاسباب والنتائج .

وقد يقتصر الامر على شعورك بالشقاء ما طفيفا فحسب ، بل قد تكون ضحية اقل من المستوى ، وقد تمرض فعلا . ان عادة تفكيرك هي التي تقرر اهل تستطيع ان تجتاز تجربة شخصية حزنا بالية أم انك ستقلب جرحك وتسلط على الزمن على أن يبرئ الجرح ، ويعيد اليك السعادة مرة أخرى .

ان الاطباء النفسيين يطلقون على هذا النوع من التفكير المنحرف اسم « التفكير السلبي » لانه يسلبك قوة الافكار البناءة ، انه يبدد نشاطك ، ويحطم سعادتك . والطبيب النفساني يعرف أثر المأساة وخيبة الأمل ، ويعرف كيف يسهل أن ينزلق الانسان الى الهوة المهلكة ، هوة السخط والمرارة .

فاذا استطعت أن تتبين أن عقلك فريسة لأفكار سوداء فالخطوة التالية هي أن تتحكم في كبت الفكرة السلبية .

وما من انسان في هذا العالم خلا من افكار الغيرة والحسد أو من التخيلات الخاطئة ، والاحلام الانتقامية . ان موظف البنك قد يفكر احيانا في أخذ ملء اليدين من الاوراق المالية ، والزوجة المخلصة قد تتخيل نفسها بين احضان النجم السينمائي ، وقد يروق للقسيس الواسع الافق أن يلقي نظرة على صور الفاتنات ، ولكن الخطر

ليس فى هذه الخواطر العابرة فى الذهن ، وانما الخطر فى أن تصبح هذه الافكار عادة . فقد نبدأ فى الخوف منها ، ونحاول أن نكبتها فى فزع . والكبت يسبب الصـراع ، والشعور بالذنب ، ثم المرض البدنى . والعصابى يكبت أهواءه وشهواته خوفا من أن تفضى به الى المتاعب الحقيقية ثم ينصب نشاطه العقلى كله فى القلق من أجلها !

وقد يكون المريض صادقا حين يقول أن هذه الافكار طرات على ذهنه على غير رغبة منه ، فالظروف قادرة على أن تدفع أبشع الافكار الى أذهاننا ، والعقل البشرى قادر على تخيل اى شىء ، طيبا كان أو خبيثا !

ومرة اخرى أؤكد انه لا لوم علينا ولا تثريب اذا طافت مثل هذه الافكار باذهاننا مجرد طواف عابر ، ولـكن اعتيادها ليس خطأ احد آخر غيرك . فان لنا مطلق الحرية عند مرور هذه الإفكار باذهاننا ، أن نطردها أو نتقبلها .

والعمل خير علاج للتفكير غير الصحى ، فلا تدع لنفسك وقتا للتفكير ، فقد قال فولتير « كلما أطلنا التفـكير فى مصائبنا ، ازدادت أضرارا بنا » .

والناس دائما يتحسرون قائلين : « لم اكون انا ضحية هذه الافكار الرهيبة ؟ لم أفكر فى زوجة جارى ؟ لم أكن لاهلى هذه الكراهية ؟ لم افزع من الامراض والموت كلما اصبت ببرد أو صداع ؟ »

ويقول الطبيب النفسانى جـوابا على ذلك : « ولم لا تكون ؟ ان أى انسان ــ بلا استثناء ــ معرض لمثل هذه الافكار ،ولست فى هذا بدعا بين الناس ، لافى تفـكيرك

السيىء ولا فى تفكيرك الطيب . كل ماجال بذهنك طاف بذهن غيرك من قبل وسيطوف من بعد . »

ان لك حرية الاختيار .. لك ان تختار الشـــــقاء والتعاسة المزمنين ، أو السرور والبهجة الدائمين . لك ان تختار بين الحياة الناجحة ، أو وضع حد لحيـاتك بيدك !

تحرر من الخوف

وصف « ليون مونز » الخوف فقال انه : « اشارة الخطر التى تتطلب من الانسان أن يقف وينظر » . والروح الانسانية فى عالم اليوم تواجه انذارات وتهديدات على جانبى طريق الحياة وكلها تدعو الى الحيطة والحذر . وفى المواقف التى تهدد سعادتنا أو نجاحنا نحس بذلك الشعور المؤلم فى المعدة ، وبتخضل الراحتين ، ولغط القلب ، وثقل الحركة ، واللعثمة فى الكلام .. أو بمعنى آخر نحس بشعور الخوف يسربلنا .

ولكن هناك ضربا آخر من الخوف ، اعراضه كالاعراض الاولى ، ولكن جذوره مختلفة . ويمكننا أن نسمى هذا الخوف باسم الخوف الزائف « أو الخوف العصابى » . انه خوف التوقع . الذى يدفع اليه شىء لا وجود له فى هذا الوقت الذى يثور فيه الخوف . والاصل فى هذا الخوف أن خطأ قد حدث فى جهاز التحذير ، فالضوء الاحمر يستمر فى الاضاءة ، وأنت فى حيرة من امرك ، فالاشياء التى لا ضرر منها تبدو فى صورة خطرة ، فحديث مع رئيسك — لا يتعلق بشخصك — يصبح مخيفا مقلقا بلفظ واحد . او طعام ذو مذاق متغير قليلا ولو فى مطعم

عام ، يحملك على الظن بانك قد تناولت [illegible] وسرعان ما تمرض من الفزع والقلق !

اعرف شابا كان يشكو الفزع الدائم ، ولم يكن هناك سبب دافع لهذا الفزع ، ولكنه كان دائم الهلع من الموت ، على ان هذا الشاب قد تعلم اليوم كيف يتغلب على نوبات الخوف ، بعد ان عرف طبيعتها واسبابها .

ومن المستطاع التغلب على كل من الخوف الحقيقي والخوف العصابي . والمخاوف العصابية يمكن استئصالها كلية . أما المخاوف الحقيقية فمن المستطاع استغلالها في تحقيق النجاح في المواقف الخطرة . فالخوف مثلا مما يأتي به المستقبل لتأمين حياتنا وحياة من نعول يحملنا على العمل على تأمين المستقبل بطرق ايجابية ؛ كأن نكون لنا رصيدا في البنك ، او نؤمن على حياتنا . أما المخاوف الزائفة والتي لا اساس لها فيمكن التخلص منها لضمان الاستمتاع بالحياة المطمئنة . فمثل هذه المخاوف هي التي تسلب سعادتنا واطمئناننا ، واستئصال شأفتها واجب علينا في هذه الايام [illegible]

ولكي نتمكن من التغلب على المخاوف العصابية يجب :

١ - أن تفهم خوفك

٢ - أن تعترف به

٣ - أن تفعل شيئا في شأنه

٤ - أن تعمل على الاستمتاع بالحياة ، فإذا عملت على التغلب على مخاوفك ولم تفلح تماما ، اذن [illegible]

[illegible] العون والارشاد [illegible]

كيف تفهم الخوف ؟

ولعل أول سؤال يجب أن تلقيه على نفسك هو : هل هناك حقا ما أخافه ؟ لو أن كلبا شرسا طاردك فان جهاز التحذير سيدفعك الى منطقة الامان ، وسرعان ما تمر لحظة الخوف ، وقد تنسى هذا الحادث بسرعة . أما اذا كان جهاز التحذير منطلقا حين يعترض طريقك فأر ، فالواقع أن ليس هناك ما تخاف منه ، ومن واجبك أن تعرف هذه الحقيقة ! واذا كانت ستجرى لك عملية جراحية خطيرة ، فلابد من توقع بعض الرعدة ، واذا كنت تخشى كثيرا من الامور ، أو كل الامور ، فاجلس وسطر على الورق المواقف والاشياء التى تثير قلقك واضطرابك وواجهها جميعا .

اعترف بخوفك :

يجب أن تتقبل حقيقة خوفك الذى هو حقيقة كالحياة ذاتها أو بمعنى آخر أنك لن تستطيع أن تغرق غيلان العقل فى الشراب ، ولا أن تخفيها تحت الوسائد ، ولا أن تكبحها بالمرض المزعوم ، أما الهروب منها بالانتحار فثمن غال !

وحين تضع قائمة بمخاوفك كلها ، فستجد أن أغلبها سيختفى ويتلاشى من تلقاء نفسه حين يرى النور !

وماذا عساك أن تجد فى هذه القائمة ؟ . لعلك ياسيدتى تخشين أن تصبحى أما وتخافين تجربة الوضع ؟ ولعلك نسيت أنك وضعت سالمة فى المرة السابقة ؟ فاذا كانت

تلك هى أول تجاربك فاسألى صديقاتك من الامهات . فالحقيقة انك ستمرين بهذه التجربة فى سلام .

افعل شيئاً فى شأن مخاوفك :

ولا يكفى أن تعرف من أى شىء تخاف ، ولا أن تعترف بأنك خائف ، بل يجب أن تفعل شيئا ، وما ستفعله يجب أن يكون قاطعا وباتا .

ولو وجدت ،بالمقارنة بين هذه المخاوف وبين المخاوف التى لها مايبررها ، ان هناك سببا قويا الخوف فقل لنفسك اذن : « حسنا . أنا فزع خائف فالى أين أذهب من هنا ؟ » ثم اذهب الى أى مكان .. ان ساحة القتال بالنسبة للجندى سبب ، وأى سبب ، للخوف والفزع . وهذا الخوف الرهيب يعذبه لفترة من الوقت ، ولكنه ينسى خوفه حين يركز ذهنه فى المهمة التى يقوم بها ، ولا يجد وقتا لتذكر خوفه والتفكير فيه . وليست بواعث الخوف فى الحياة المدنية بمثل هذه القوة ، وما أكثر الفرص المتاحة لتجنب المخاوف أو نسيانها .

كان بين مرضاى فتاة فى ميعة الصبا ، عرفت انها مصابة بمرض قتال ، وان حياتها ستنتهى قريبا ،واعتراها الفزع بعض الوقت . ولكنها واجهت الكارثة بشجاعة ؛ ثم استقر رأيها على أن تطرد من ذهنها فكرة انتظار ماقدر لها . ولما كان النشاط البدنى محرما عليها بسبب مرضها فقد بحثت عما يشغل ذهنها ، واختارت أن تدرس اللغات وفى مدى ستة أشهر أصبحت قادرة على أن تتولى وظيفة المراسلات الخارجية فى احدى شركات التصدير ،وحفلت

السنوات الاخيرة من حياتها بعمل آثار اهتمامها حتى نسيت تماما القضاء المحتوم عليها .

والواقع المشاهد أن الذين يخافون لغير أسباب معقولة هم في العادة قوم يريدون ان يخافوا . ومن المحتمل أن يستخدم ضحية هذه الرغبة الخوف العصابي ليعوض به بعض مافيه من نقص .

واول مايجب عمله في شأن مثل هذه المخاوف أن تكف عن احتضانها والاهتمام بها . انظر اليها كأنها عادات سيئة يجب استئصالها .

هل يفزعك أن يطلب منك أحد الاصدقاء أن تعزف على البيانو في احدى الحفلات « وأنت تجيد العزف » ؟ اذن فاذهب الى الحفلات واعزف مرة بعد أخـــرى ! واذا اضطربت مرة فلا تتوقف وتدع أن اصابعك أصبحت رخوة أو أن رهبة المسرح قد استولت عليك ، فسيزول عنـك مثل هذا الاضطراب بعد بضع مرات .

هل يفزعك الظلام ؟ أطفيء الانوار في منزلك ، ثم جس خلال الحجرات ، وابحث عن الاشياء بطريقـــة اللمس ، وحاول أن تتبين مالم تستطع معرفته . وافتح الحجرات وابحث عن الاشباح وسترى أنه لا أشباح هناك !

أما الخطوة الثانية للتغلب على المخاوف التي لا تستند الى أساس ، فهي أن تشغل نفسك بعمل من الاعمال . ان العقول العاطلة كالايدي العاطلة لا ثمرة لها . ولا تظن أنك قد انتهيت من أعمالك حين تعود الى دارك . فالى أن تأوي الى فراشك لديك متسع من الوقت لتقضـــيه

اما فى التفكير فى مثل هذه المخاوف ، واما فى التعلم والتقدم . اننا نعيش فى عالم شديد التعقيد فيه العديد من الامور الكفيلة بأن تشغل الانسان اربعا وعشرين ساعة فى اليوم . فاذا كنت تعمل عملا بدنيا فربما كان الاصلح لك ان تسترخى أو تمارس رياضة ذهنية كالقراءة أو الاستماع الى الموسيقى ، وخير من ذلك كله الهوايات الايجابية ، كأن تعزف على آلة موسيقية ، أو تكتب فيما يثير اهتمامك ، أو تندمج فى بعض النشاط الاجتماعى .

أما اذا كنت ممن يجلسون الى المكاتب طوال اليوم ، فخير هواية لك ما تستخدم فيها الايدى والعضلات كالرياضة ، والنجارة والتصوير أو غيرها من الصناعات التى يمكن أن تحدث التغيير المطلوب ، وتحول ذهنك الى عمل مجد ، وفضلا عن ذلك فان مثل هذه الاعمال النشطة تساعد على النوم المريح العميق . ولا ينبغى أن تنسى ما لثمرة عمل تنتجه يداك من أثر بالغ فى رفع تقديرك لنفسك .

استمتع بالحياة :

يقول « أوليفروندل هولمز » : « ان أعظم اهداف الحياة أن تعرف كيف تحياها » وسواء كانت مخاوفك حقيقية أو متوهمة فانها ستكون أقل فزعا لك اذا عمدت الى الاندماج فى أحداث العالم الجارية من حولك . ان الرجل الذى يسعى الى العزلة ،والذى يريد أن يفر من الجموع انما يسعى الى هدهدة مخاوفه وشقاوته . اذا

كنت تريد السعادة فاحتضن عالمك ووسع اهتمامك ليتناول أصدقاءك وأسرتك ، واشترك معهم فى مسراتهم تصبح مرحا مثلهم .

حاول ان تفهم الناس وأن تعاونهم فى شدتهم فلا يعود لديك وقت للخوف والانزعاج . ولتعلم أن ماتحيط به الآخرين من العطف والحدب والحب ، سيرد اليك اضعافا مضاعفة . أن مشاركة بقية ابناء البشر هى أعظم ميزة لنا جميعا ، وفيها السعادة الحقة . فاذا أنت وثقت الروابط بينك وبين العالم الخارجى ، واذا أنت منحت كل ما تملك من حب ، وتقبلت حب العالم لك ، فستترسخ قواعد سعادتك ، وستزول كل مخاوفك .

والجهود الايجابية للاستمتاع بالحياة تنبع من بعض الاعتقادات التى يمكن أن تسمى « فلسفة الحياة » وهذه الفلسفة مؤسسة على مبدأ يقول ان السعادة « موقف يمكن خلقه وانشاؤه » ان هذه الفلسفة تعلمك أن تتوقع الاحزان والنكبات ، وفى الوقت نفسه تمنحك الشجاعة لمعالجتها . انها تعلمك أن « الحياة مغامرة تفزع أكثر مما تضر » .. وأننا يجب أن نكون كأولئك الذين يعيشون على مقربة من بركان « فيزوف » فهم يجازفون بالعيش فى جواره دون أن يتوقعوا السوء !

حين تفشل جهودك :

فاذا وجدت أن جهودك الشخصية لم تجد فى التغلب على مخاوفك فابحث عن المرشد الكفء . اذهب الى طبيب

نفسي ، فمهمته أن يعاون الناس على كشف القناع عن حقيقة المخاوف ، وأن يعمل على طردها من ذهنك . والمرض النفسي ينظر اليه اليوم بنفس المنظار الذي ينظر به الى المرض البدني . انه اضطراب ينبعث من أسباب طبيعية ، ويستجيب للعلاج الصحيح . والمخاوف العصابية تسبب الامراض النفسية ، مثلها كمثل عقب القدم اذا كسر فانه يجعل منك كسيحا ، فأنت بالخوف تصبح مقعدا عقليا ، لا تحس بمباهج الحياة ، ومن ثم تتأثر صداقاتك ، ويتبدد اطمئنانك ، ولا تستطيع أن تنال من متعة الحياة الا أقلها . وتسعة أعشار الناس يستطيعون معالجة مخاوفهم اذا اتبعوا القواعد التي اسلفنا ذكرها ، ولكن العاشر يفشل ، أعني أنه يفشل في جهوده الشخصية فاذا كنت ذلك العاشر فأنت في حاجة الى المساعدة . وأنت مدين بها لنفسك ولاسرتك ولاصدقائك ، فعليك أن تخطو هذه الخطوة الاخيرة ، واربح لنفسك هذا القدر من سكينة النفس وراحة البال ، والاطمئنان ، وكلها من حق الانسان .

هل تموت أو لا تموت؟

انه من المفزع حقا ان فى كل بضع دقائق ينتحر فرد من هذا العالم . ان عدد المنتحرين يبلغ نحو ٢٢٫٠٠٠ الف نفس فى كل عام فى أمريكا وحدها ! وتشير أنباء الصحف الى ان نسبة الانتحار ترتفع عاما بعد عام ، ولا ريب أن العناء والضغط والجهد التى عاناها كل انسان فى العالم خلال الحرب الاخيرة ، كانت من العوامل المساعدة على ذلك ، ومع هذا فان عدد المنتحرين فى أيام السلم مفزع أيضا . ومن الامور المسلم بها أن كل انسان ينتمى الى طائفة المنتحرين ! وقد يبدو هذا القول عجيبا ولكن الواقع أن عددا قليلا جدا من الناس هم الذين لم تمر بأذهانهم قط فكرة الانتحار !

ومهما يكن رايك الخاص فالحقيقة اننا جميعا مذنبون فى اظهار الفضول بأمور الجنس ، والفضائح ، والجرائم ، والانتحار . ولو أن الامر لم يكن كذلك ما اشترى أحد المجلات التى تنشر صور الجميلات الفاتنات ، او قرأ القصص البوليسية قبل الايواء الى الفراش . وما من

شيء يقرأ فى الصحف فى شغف وفهم كتفاصيل حادث انتحار !

وما كان الانتحار عملا طارئا ابن ساعته . وقد تشير الصحف الى أن الانتحار يرجع الى فقدان وظيفة ، او موت عزيز ، او حب فاشل ، أو سبب آخر من هذه الشاكلة . ولكن هذا ليس حقيقة . ان هذا العمل العنيف الذى ارتكب قد جرى التفكير فيه منذ أمد طويل . ثم جاء السبب الذى تشير اليه الصحف فكان القشة التى قصمت ظهر البعير ! ونادرا ما تستطيع أن تحدد متى كان الجالس الى جانبك يفكر فى الانتحار ، فكثيرا مايكون المنتحر بادى السرور قبيل وقت الانتحار !

ومن الناس من يعتقد أن الذى يتحدث عن الانتحار لا يمكن أن يرتكبه . وهذا غير حقيقى كذلك . فان هذا الانسان انما يدير الامر فى ذهنه ويقلبه على وجوهه وهو يتباحث فى الاحتمالات مع غيره من النـــاس . وهناك آخرون يكثرون من الحديث عن الانتحار ولا فكرة لديهم عن قتل أنفسهم . انهم يحبون أنفسهم كثيرا ، ولكنهم يبحثون عن العطف والرعاية .

عرفت زوجة جميلة فى العقد الثالث من عمرها ، وكانت جذابة ذكية ، وكانت تحب زوجها ولكنها كانت دائمة النزاع معه . وقد استطاعت ان تحصل على عمل فى مستشفى ، واستطاعت أن تؤدى العمل الذى نيط بها خير الاداء ، ولم يكن يعيبها الا بعض النوبات الهستيرية. وفى ذات يوم وصلت الى عملها بعد نزاع شجر بينها وبين زوجها . وقبيل وقت الانصراف وقبيل وصول زوجها

الى المستشفى ليعوداً معا الى المنزل كالعادة ، قررت أن تفزع هذا الزوج ، فتناولت سما حصلت عليه من معمل المستشفى . وما أن تناولته حتى أطلقت صيحاتها ، وأنبأت من حولها بما فعلت . وظن الناس أنها حالة هستيرية من حالاتها المتكررة ، فوضعت فى الفراش حتى تهدأ ، ولما ساءت حالتها شكوا فى الأمر ، وفى أنها تناولت سما حقيقة ، فحاولوا علاجها ولكن بعد فوات الاوان ! ان هذه الشابة لم يكن لديها أدنى فكرة عن قتل نفسها ، والا ما تناولت السم فى قلب المستشفى حيث يمكن المبادرة بانقاذها .

ومن جهة أخرى فان بعض الناس يجدون بعض الراحة من ضغط الرغبات الانتحارية فى التحدث عن الانتحار مع الاخرين . وبعضهم يحتفظون بنيتهم المبيتة حتى يجىء الوقت الذى يرون فيه الحياة مجدبة قفراء . والبعض يلوح بالانتحار كنوع من التهديد للظفر بالعناية أو العطف . وليس هذا شعورا كاذبا ، فان فى أعماقهم مايحثهم على الانتحار فعلا .

وما من أحد غير الطبيب النفسى يستطيع أن يعرف مبلغ جدية التهديد بالانتحار ومدى صدقه أو زيفه . ومن سوء الحظ أن الذين يعتزمون الانتحار لايبحثون عن مساعدة الطبيب النفسى ، لانهم لا يريدون أن يغيروا آراءهم فيما أعتزموه ! انهم يعتبرون الانتحار وسيلة ممكنة سهلة للفرار من شقائهم وانه مظلة هوائية تهبط بهم الى أرض السعادة !

على أن الاعتقادات الدينية قد حالت دون وقوع عدد

كبير ، لا يقدر ، من الانتحارات ، فان الايمـــان بالله او الخوف من العقوبة الالهية قد منع انتحار هؤلاء المؤمنين، فاذا تلاشت العقيدة الدينية ، فان هذا العمل المـــانع يزول بدوره . ومما قد يقف مانعا دون الانتحار انه قد يسبب آلاما ومتاعب لاسرة المنتحر . أما اذا لم تكن هناك اسرة ، أو كان الحب والتفاهم مفقودين بين معتزم الانتحار وبين افراد أسرته ، فان العامل المانع يزول كذلك .

فما هي سيكولوجية الانتحار ؟ ولم يعمد من توافرت لديه كل أسباب الحياة المرغوبة في انهاء حياته بيده ؟ وكثيرا ماينتحر الرجال والنساء الاغنياء في حين أن غيرهم ممن يغرقون في المتاعب والآلام الى آذانهم ، يكافحون في جد دون أن تطوف فكرة الانتحار بأذهانهم ، فهل هناك اختلاف بين هاتين الطائفتين ؟

قال لى أحد المرضى يوما : « في بعض الاحيان اتصور نفسي راقدا في نعش كأني نائم ، وأستطيع أن أســـمع ما يدور حولي وأتخيل والدى حزينين وهما يقـــولان لاصدقائي أنه ليس هناك من سبب لشقائي ، وانهمـــا لا يستطيعان أن يفهما لم افكر في مثل هذا الطيش ؟! »

وحين يحاول مريض أن يقنعنى بأن موقفه ميئوس منه، وان القدر مسئول عن سوء حظه ، وانه لا يجد في الحياة ما يربطه بها ، فانى ادرك أن هذا « المرشح للانتحار » لا يعرف شيئا عن السيكولوجية الحقيقية المختفية وراء عزمه ونيته .

ان الذين وصل بهم الامر الى التفكير الجدى في الانتحار في حاجة ماسة الى التبصرة ، وكان من المستطاع الحيلولة

دون وقوع آلاف من حوادث الانتحار لو ان المنتحرين او اقاربهم لجئوا الى الاطباء النفسيين .

ومن أكثر الاسئلة ترددا فى موضوع الانتحار هذه الاسئلة :

١ ـ ما الذى يدعو الناس الى قتل انفسهم ؟

٢ ـ هل الانتحار نتيجة لمرض عقلى ؟

٣ ـ لم يختار الناس هذه الاساليب المتباينة فى قتل انفسهم ؟

٤ ـ كيف يمكن معرفة جدية عزم الانسان على الانتحار ؟

٥ ـ هل يمكن منع الانتحار ؟

٦ ـ هل هناك مايبرره ؟

والغاية من هذا الفصل هو امداد القارىء بالحقائق العلمية عن الانتحار ، لاستغلالها فى الحيلولة دون موت انسان يفكر فى أخذ جرعة كبيرة مميتة من الحبوب المنومة، أو الوثوب من النافذة ، أو قطع شريان فى يده !

١ ـ ما الذى يدعو الناس الى قتل انفسهم ؟

أولا ان السبب الذى يبدو واضحا ، والذى نراه مسطرا فى خطاب الوداع « قلما يكون هو السبب الحقيقى للانتحار » والعادة أن الضحية لا يكون مدركا للشعور الخاص الدفين فى عقله اللاشعورى ، والذى يدفعه الى هذا العمل الطائش .

نشرت احدى الصحف حادثة انتحار غير عادية . كان الفتى يهيم بحب الفتاة الجميلة ، ولكن طلب زواجه منها

قوبل بالرفض لانها لا تحبه ، ولما رأت اصراره العجيب ولجاجته قررت الا تقابله ولا تراه ، فكتب اليها يقول :

« كيف يمكن أن تبلغ بك القسوة الى هذا الحد ؟ انى لا استطيع احتمالها ، لابد لى أن أراك والا قتلت نفسى على عتبة دارك »

ودعته الفتاة الى منزلها وهى ترجو أن تتمكن من اقناعه بأن الزواج المؤسس على الحب من جانب واحد لن يكلل بالنجاح ، وسألته « لم تنتحر بسبب فتاة لا تحبك ؟ انسنى ولديك الكثير مما يجب أن تعيش من أجله ، وفى خلال شهور قلائل ستحب فتاة أخرى تبادلك الحب . »

فأجابها قائلا : « حسنا . اذا كان هذا هو شعورك فانى ذاهب . الوداع » .

وما انقضت دقائق حتى دخل الغرفة وهو يشتعل نارا وفى يده زجاجة بنزين ويصيح من فرط الالم ، وباءت بالفشل كل الجهود التى بذلت لاطفاء النار قبل أن تقضى عليه ، وقضى نحبه .

ان النظرة العامة لمثل هذا الحادث تقرر أن شابا رفض طلبه للزواج فقتل نفسه ، ولكن السبب كان اكبر من ذلك . فحين كان هذا الفتى طفلا ، لم يكن له أخوة ، وكان شديد الاعتماد على أمه ، فاذا أحس منها بعض الاهمال ثارت ثورته لانه تعود أن يجاب الى كل مطالبه ، ومن سوء الحظ أن والديه لم ينجحا فى كبح جماح نزعته للتملك التى تأصلت فى نفسه منذ الطفولة . فلم يتعلم البتة كيف يتقبل الخسارة قبولا حسنا . فكانت الانانية المفرطة ، والكراهية هما الاحساسان الاولان المسئولان عن انتحاره ، وليس حادثة الفتاة .

ان الانسان الذى يقتل نفسه لابد ان يكره اما واحدا من الناس او العالم بأسره ، والانتحار هو القتل الذاتى « القتل المعكوس » . وكراهية المرء لانسان ، قد تطغى الى حد انه لا يجد له متنفسا ، فيتحول الى كراهية ذاتية، وبدافع الرغبة اللاشعورية فى قتل انسان آخر ، يقتل الانسان نفسه !

ولقد اكتشف الاطباء النفسيون ان بين الانتحار والقتل صلة وثيقة . فكل من انتحر لابد انه كان يكن بين اضالعه شعورا بالمرارة والسخط . فالباعث عليه لابد ان يكون « ساديا » ـ اى ناشئا عن رغبة فى توقيع الالم على الغير ـ لان الانتحار يسبب للناجين منه مهانة لاحد لهــا ، وشعورا بالذنب !

وقد يبدو الانتحار فى ظاهره عملا من الاعمال الماسوكية ـ اى النزعة الى توقيع الألم على النفس ـ « مركب التضحية والاستشهاد » كرغبة الشخص فى الا يكون عبئا على غيره . او رغبته فى ان يحظى باشفاق الاخرين وعطفهم بسبب عدم قدرته على احتمال الالام العقلية او الالام الروحية !

اما الازمات المالية ، او الامراض المستعصية ، او الفشل فى الحب ، او الطلاق ، او الاخفاق فى تحقيق هدف معين فكلها اسباب ثانوية . انها تتخذ لاخفاء عدم التكيف العاطفى الدفين . ان الانانية ، وانقلاب الكراهية رأسا على عقب ، والسادية « وهى مركب الرغبة فى انزال الالام البدنية او النفسية بالغير » انمــا هى السيكولوجية الحقيقية للانتحار .

ومن جهة اخرى فان هناك من الناس من ينهون حياتهم لان كل آمالهم فى الحياة قد تلاشت .

٢ ـ هل الانتحار عرض لمرض عقلى ؟

نعم . انه عمل صادر من عقل مضطرب مهـــزوم . فالانسان الطبيعى يحاول دائما أن يجد حلا لمشكلته خيرا من الانتحار اما الانسان المضطرب فهو الذى يضيف ضغثا على ابالة بتحميل الغير آلام مشكلة لم يستطع هو أن يحلها والكبرياء الزائفة هى التى تمنعه من كشف فشله الباطنى الغير . وهو غير قادر على البحث فى اغوار عقله عن الصراع العميق .

جاءنى رجل فى الخمسين من عمره يشكو من انهيـــار عصبى يعزوه الى كثرة العمل كانت فكرة الانتحار تراوده. فقد قال لى : « أنا لا أستطيع أن اعود الى عملى . لقد وقع الضرر وانتهى الامر ، واذا كان الرجل لا يستطيع أن يعول زوجته وأطفاله فهو غير جدير بالحياة . أننى لا أريد أن أكون عبئا ثقيلا على أسرتى . »

ثم بدأ يبكى وينشج . وقد علمتنا التجارب أن امثال هذا الرجل يعانون من عصاب ما ، فطلبت منه أن يخبرنى بطبيعة علاقته الجنسية مع زوجته فقال : « وما علاقة هذا بذلك ؟ » وبعد مقابلات عديدة اعترف لى أنه أصبح ضعيفا فى الناحية الجنسية ، فكان لهذا اثره فى نفسه اذ أصبح يرى انه فقد رجولته . ولما عولج بطريقة الايحاء من هذا الضعف المتوهم ، زايله شعوره السقيم ، ولم يعد يفكر بعد ذلك فى الانتحار .

وفى كل حادثة انتحار تجد الدليل على سابقة وجود اضطراب عقلى . وهذا هو السبب فى ارسال كل الذين يحاولون الانتحار الى مستشفيات الامراض العقلية .

٣ ــ لم يتخير الناس اساليب متباينة لقتل انفسهم ؟

لقد اجريت أبحاث علمية فى هذه الناحية ، واستطاع الاطباء النفسيون أن يلقوا بعض الضوء على ظـــاهرة استخدام بعض الناس للموت بالرصاص ، بينما آخرون يفضلون السم ، وطائفة أخرى تؤثر الشنق .

والاختيار عادة رمز لشخصية الفرد . فاذا كان ميالا للسادية والعدوان ، فانه خليق بأن يختار طريقة عنيفـة كحز العنق ، أو قطع شريان اليــد . أما الانســـان الاستعراضى ، فانه يجتذب الانظار بأن يسير فوق حافة النافذة قبل أن يقذف بنفسه منها . أما رجال الحـــرب فيطلقون الرصاص على أنفسهم عادة !

وثمة نظرية يقول بها المحللون النفسيون قــد تبــدو خيالية فى نظرك ، وهى أن الشخص الذى يختار الغرق للانتحار ، انما يريد أن يعود الى الرحم الأموى ، حيث كان وهو جنين محاطاً بكيس مائى واق .

اما المرأة التى يعذبها ضميرها بسبب ماضيها فانهـــا تبتلع السم . أما الشاذ جنسيا فيطلق الرصاص فى فمه ، والايضاح الرمزى ظاهر . والذين يشنقون أنفســــهم يشعرون أنهم ارتكبوا جرما ، لان الشنق موت غير مشرف .

اما الذين يؤثرون الموت بالغاز أو الحبوب المنومة فانهم

سلبيون ، يريدون الموت البطيء الذى لا الم فيه . وفى رايى الشخصى ان الذين يختارون هذه الميتة لانفسهم كانوا يودون لو استطاعوا تنفيذها مع اشخاص آخرين .

واما الذين يطعنون انفسهم بخنجر ، فمن المحتمل أنهم يتخيلون أنهم يطعنون الاشخاص الذين يعدونهم مسئولين عن حظهم المنكود .

والموت بالحريق تعبير لا شعورى عن رغبة المنتحر فى أن يتلظى الشخص الاخر « بنار جهنم » !

على أنه لابد من الاشارة الى ان بعض المنتحرين يختارون الوسيلة الجاهزة أمامهم . فنزلاء مستشفيات الامراض العقلية مثلا ليس قبالتهم عادة الا السم : او الشنق ، أو قطع الشريان اما اطلاق الرصاص او الالقاء بالنفس من حالق ، أو غير ذلك فامور غير ميسورة لهم . ولابد من وجود الغاز فى الدار للتفكير فيه كوسيلة للانتحار . والسم من العسير الحصول عليه ، وحتى الحبوب المنومة لابد للحصول عليها من تذكرة طبيب ، ومن أجل ذلك قد تتنوع وسائل الانتحار . وفى بعض الاحيان تكون الوسيلة مبتكرة ، ويتم تنفيذها عن مهارة حتى لا يشتبه فى انها انتحار ، ويتهم بارتكابها انسان آخر . والواقع أن مثل هذه الحالة تكون ثأرا رهيبا مدبرا بمهارة !

٤ ــ كيف نعرف جدية التهديد بالانتحار ؟

ذات مساء ، دخل مكتبى رجل بالغ اللهفة ، واخبرنى أنه شديد القلق من أجل زوجته ، فقد هددت بابتلاع اليود الموجود فى صيدلية المنزل .

وفى خلال محادثاتى العديدة مع الزوجة كانت تكرر انها غير راغبة فى الحياة ، لانها تعتقد ان زوجها قد اصبح شديد الاهتمام بامرأة أخرى . وقد لاحظت بصفة خاصة أنها بعد انتهاء كل محادثة كانت تقضى قرابة عشر دقائق فى التطلع الى المرآة الموجودة فى حجرة الانتظار عندى : وتصلح من هندامها وزينتها ، فلم يخالجنى أدنى شك فى أن تهديدها بالانتحار ، انما هو « تهويش » تريد به معاقبة زوجها على خيانته المزعومة ان الغرور والانتحار لايجتمعان والمرآة الجادة فى الانتحار لاتعنى كثيرا أو قليلا بمظهرها .

ولقد حدث لزميل لى بعد أن فحص احدى مريضاته أن قرر انها جادة فى الرغبة فى الانتحار ، وطلب من زوجها وابنتها نقلها الى المستشفى فورا . غير أن الابنة رفضت وقالت ان أمها لا يمكن أن ترتكب مثل هذا العمل السخيف وأراد الطبيب أن يحمى نفسه ، فكتب مذكرة برأيه فى الموقف ، وانه يجب الا تترك السيدة وحدها دون رقابة، وجلس الزوج وابنته يتناقشان فى الموقف ، والابنة شديدة الاصرار على رأيها وفى غضون ذلك ذبحت السيدة نفسها بموسى ، وقضت نحبها وهى فى طريقها الى المستشفى لاسعافها !

انه مامن انسان غير الطبيب النفسى يستطيع أن يقرر هل حياة المريض فى خطر حقا أم فى مأمن !

٥ ــ هل يمكن منع الانتحار ؟

نعم . وخير ما نفعله دائما هو ان تأخذ التهديد بالانتحار مأخذا جديا ، ولن يخسر الانسان شيئا باتخاذ الحيطة .

فان خطأ فى الحكم قد يكلف الشخص حياته . ان من واجب الانسان أن يشفق على المريض ، ويعطف عليه : لا ان ينهره ، على أن يراعي الا يزيد العطف عن حده الواجب ، والا انعكست الآية .

اذكر حادثة سيدة كانت تبدو فى مظهر المرح والسرور حين كان زوجها يهدد بقتل نفسه ، بل أخبرته صراحة انها ستتزوج رجلا آخر ، وستقضي وقتا سعيدا بمبلغ التأمين الذي سيتركه لها بعد موته ! وأفلحت هذه الحيلة « السيكولوجية » الصغيرة فقرر الزوج ان يحبط ماتتمناه زوجته وعدل عن قتل نفسه !

وقد اسلفنا القول أن عليك أن تعتبر الانسان الذي يهدد بالانتحار انسانا مريضا . فاذا فشلت فى اعادته الى جادة العقل أو احياء روحه ، فلا تتردد فى الالتجاء به الى طبيب نفسي .

٦ ـ هل هناك مايبرر الانتحار ؟

الانتحار لا يمكن تبريره مهما تكن الظروف انه عمل يناهض ارادة الله ، والمجتمع ، واسرة الانسان . والاديان كلها تحرم على الانسان أن يفعل بحياته كما يشاء .

وما من انسان يريد أن يموت . وانا أعارض رأى كثير من الاطباء النفسيين فى الاعتقاد بوجود رغبة أصيلة فى الموت فى الانسان . فالجدة التى تتحدث عن رغبتها فى النوم الابدى لانها عاشت حياتها ،واصبحت سيئة الصحة ضعيفة القوى ، لا تجد امامها الا ان تتظاهر برغبتها فى

الموت المريح . ومن المؤلم سيكولوجيا مكافحة المـــوت المقترب . والواقع أن الانسان الذى يموت قبل الاوان ـ أى بالانتحار ـ لديه الرغبة الاكيدة فى الحياة ، ولكنه غير قادر على احتمال مصائب الحياة وشدائدها فهـــو يتشوق الى دار السلام . ان لسان حاله يقول : « اذا كانت الحياة لا تستطيع ان تعطينى ما أريده ، فأنا أفضل الا اعيش » .

لقد تحدثنا كثيرا عن الانتحار ، وما يدفع المرء اليه وكيف يرتكبه وما الذى نستطيع أن نفعله فى ســـبيل الحياة دونه فلنتحدث الان الى من يريد الانتحـــار لعلنا نستطيع أن نعاونه فى فهم حقيقة نفسه ..

لم تريد ان تنتحر ؟

ان الحياة أشبه بكفتى ميزان ، تهبط كفة عن كفـة ؛ كلما زاد الثقل فى الاولى عن الثانية ، وكذلك الشـخص السوى يستطيع أن يجعل الكفتين متعادلتين وفى صـعيد واحد . فرجل الاعمال المنهمك فى عمله يهرع بين وقت وآخر الى ساحة الجولف أو الى ساحة الرياضة ليخفف عن نفسه عبء الاعمال . وربة البيت المنهكة القوى تهـرع الى السينما لتدمج نفسها فى شخصية البطلة التى ينتهى بها كفاحها بين احضان حبيبها ، أو قد تذهب الى السوق لتجرب القبعات أو الثياب وقد تشترى بعضا منهـا . والعامل المتعب يعود الى داره ويستمع الى الراديو . ! فالانسان الطبيعى يوازن بين مسراته ومتاعبه فى الحياة .

اما العصابى فلا يفعل ذلك . فسوء حظ جديد ، مهما يكن تافها ، فهو كفيل بأن يؤرجح الميزان ويهبط باحدى الكفتين ، ويزيد العصابى من ثقل هذه الكفة بما يضيفه من ذكريات الاخطاء والخسائر والشدائد الماضية . فاذا حاول أن يوازى بين الكفتين باحتساء الخمر ، أو تناول المخدرات ، فانه يجعل الكفتين فى تأرجح مستمـر بين الهبوط والصعود ، والعصابى لا يصل أبدا الى الاتزان ، فمسراته مطلقة الى حد يرفع احدى الكفتين الى الحـد الاقصى ، ثم يهبط بها فجاة الى الحد الادنى .

والعصابى حين تعتريه الهموم تكون روح تقديره للامور خاطئة ، وكأنه يضع قدمه فى احدى الكفتين وهو يزن شقاءه . انه يضيف جزءا من نفسه الى متاعبـــه ، وفى الاسبوع التالى أو ربما فى اليوم التالى ، نراه يعجب لم اعطى كل هذه الاهمية لتلك الحادثة التافهة !؟

وغالبا ما يتحقق الانسان المهموم من تفاهة حادثته حين يرى مصائب غيره . انه خليق بأن يشعر بالسرور لانه لم يفقد عينا أو ساقا . وان يغبط نفسه لانه لا يموت جوعا ، أو أن أعضاء جسمه لا تتجمد من البرد والصقيع ، وأن يشعر بالسعادة لانه لم يصل الى حد حياة الفاقة والفقر . ومع ذلك فانها طريقة تساعد على اعادة تثبيت روح التقدير فجرب هذه الطريقة حين تصل الامور الى الدرك الاسفل، هذا اذا لم تصل الى حالة عدم الاكتراث والاستهانة ، فاذا وصلت الى هذا الحد فجرب طريقة أخرى ترفع مـــن تقديرك لقيم الحياة .

هل جربت أن تنظر فى المرآة وترى وجهك العابس ؟

لا عجب اذن اذا لم يهتم بك احد . ان وجهك يدعو الناس الى الفرار . جرب أن تضع على وجهك شبه ابتسامة . اظن انك الان ترى صورة شخص أجمل قليلا ، واذا كنت سيدة فمشطى شعرك ، واذا كنت رجلا فاذهب الى حلاقك ، ليجمل راسك ووجهك ، فيرتفع تقديرك لنفسك .

وعلى الرغم من كل ما تقوله ، فانت تظن حقيقة أن الشخص الذى تراه فى المرآة هو أهم شخص فى العالم ، فلا زعيم ولا فيلسوف ولا عالم أهم من نفسك .. وأنت لا ترى نفسك جزءا بسيطا من هذه الالة العظيمة ، انك ترى نفسك أعظم شأنا من جميع اجزائها . فهل أنت حقا كذلك ؟ الجواب هو كلا بالطبع . ومن ثم فان ذهابك من هذه الدنيا لن يؤثر شيئا فى هذا العالم ، فلماذا لا تفكر فى كل مسرات الحياة التى سيستمتع بها الاخرون بعد تحولك الى تراب ؟

الشقاء غير طبيعى

كانت هيلين فتاة فى نهاية العقد الثالث من عمرها ، وقد ارسل الى طبيب أسرتها يقول أنها هزلت كثيرا ، وأنها لا تشعر بشهية للطعام ، شاردة الذهن ابدا ، وقد أعلنت للجميع انها فقدت الاهتمام بكل شىء فى الحياة ، واضاف الطبيب فى نهاية رسالته قوله أنها منذ عدة شهور فقدت خطيبها الذى قتل فى حادث طائرة .

وقالت لى الفتاة :

كيف يستطيع اى انسان ان يحملنى على النسيان ؟

لا يمكن أن أعود الى ماكنت عليه ، ولن اشعر بالسعادة مرة اخرى . لقد مت حين مات ، اذ لا يمكن أن يحل محله انسان آخر . انى أحس فى بعض الاحيان انى كجثة تدب على الارض ، فما الذى أرجوه بعد اليوم ؟ أليس من الطبيعى أن أشعر بمثل هذا الشعور ! وكيف يمكن لانسان أن يكون سعيدا بعد مثل هذه المأساة ؟

وفى العالم آلاف من أمثال « هيلين » يجدون مبررا لشقائهم وتعاستهم !

ومن الطبيعى أن يحزن الانسان لموت عزيز عليه ، وأن يشعر بالشقاء ، حين ينتهى الزواج بالطلاق ، وأن يصاب بالحزن بسبب ضعف صحته ، فالحزن هو رد الفعل العقلى بازاء المصائب . ولكن هناك نوعين من رد الفعل بازاء الاحزان الشخصية ، أحدهما طبيعى والاخر غير طبيعى ، فاذا حزن انسان عقب حادثة محزنة ، وكان حزنه مؤقتا فاننا نعتبر الشخص طبيعيا . أما اذا رفض الانسان أن يعيد تكيف نفسه ، وفضل الانغماس فى التفكير المحزن ، فهناك اذن سبب للاعتقاد بأن هذا الشخص عصابى ، وأنه يريد ، لا شعوريا ، أن يظل بائسا شقيا .

وهذا هو الشىء الذى لا يستطيع الا القليلون فهمه وتقديره ، فهناك سؤال يلقى المرة بعد الاخرى : « لم يريد الانسان أن يكون شقيا ؟ » .

حين قيل لهيلين أن حالة الحزن التى طال أمرها بعد موت خطيبها نشأت من عوامل عصابية ، ابت أن تداوم على العلاج ذلك لانها لم تستطع أن تفهم كيف يمكن لاى انسان أن يقف موقفا غير موقفها فى مثل هذه الظروف ؟

على انها استطاعت اخيرا ان تتبين الحقيقة من خـــلال سيكولوجية معيشتها العليلة فى الماضى ، وقررت ان تغير سلوكها فى الحياة !

والاشفاق على الذات ، كما كان الامر فى حالة هيلين، من اهم الاعراض اللاشعورية للشقاء المزمن . انه يستهدف اجتذاب العناية والاهتمام ، وينزع الى الرغبة فى ان يعبر العالم كله عن حزنه واشفاقه من أجل شـــقائه الشخصى !

وهو فعلا طلب لعطف الام . فالعصابيون يسلكون مسلك الاطفال فى وقت الشدة ، وهم يظلون يذكرون انفســهم بمأساتهم ويحتضنون احزانهم الى صدورهم ، كى يظلوا يذكرونها ، ويتحدثون الى كل انسان فى شأن هذه الاحزان لانهم يريدون من كل انسان يصغى اليهم أن يشاركهم هذا الهم . أما الناضجون عاطفيا فلا يعلنون عن آلامهم التى تحز فى قلوبهم بل يحاولون أن يتغلبوا على اثارها .

ان العصابى يحس بالرضاء حين يشاهد الاهتمـــام الذى خلفه فى سامعيه . انه يستمتع بهذا الاهتمــام الذى يبدونه نحوه حين يرونه مضطرب العقل .

ولو انك رايت امراة تبكى فى الطريق لو قفت تسألها عما يبكيها عسى ان تفرج كربها ، وفى العالم كثيرون يبــكون مثل هذه المرأة دون سبب ظاهر ، وبكاؤهم هو مظهــر لشكواهم من الشقاء والبؤس .

ان مثل هذا الشخص يحتاج الى صبر طويل ، وجهد كبير ليرى راى العين سيكولوجية شقائه ، وتتكشف له العوامل الخفية فى عقله العليل ، حتى يستطيع ان يدرك ادراكا واعيا .

وقد يكون مثل هذا السلوك غير الطبيعى راجعا الى سبب آخر غير الاشفاق على الذات . ونعنى بذلك أن الشاب الشقى كان فى الاغلب طفلا شقيا . وكذلك يغلب على الظن انه نشأ فى دار يسودها الشقاء ، فهو بتعرضه الدائم لشقاء والديه يصبح مثلهما فى رد الفعل بازاء الحوادث الاليمة ، ويعالجها بطريقة عصابية . انه يقلد والديه سنوات عديدة حتى ينسى كيف يكون رد الفعل بطريقة اخرى . ومن ثم يصبح عبدا لعادة الشقاء والتعاسة وثمة مخاطرة كبرى فى الزواج من شخص مزمن الشقاء ، او نشأ فى دار تعسة ، فانه سينقل هذا الشقاء الذى الفه فى طفولته ، الى حياته الزوجية الجديدة .

فالشقاء اذن عادة تكونت وضربت جذورها الى عهد الطفولة .

أما الناس الطبيعيون فليس لزاما أن يكونوا فى سعادة تامة ، ولكن هناك أمرا واحدا محققا ، ذلك انهم يأبون ان يسمحوا لانفسهم بأن يهزمهم القدر مهما قسا عليهم . انهم يشعرون بأن عليهم أن يعيشوا حياتهم رغم كل الصعاب التى تعترض طريقهم ، وأن يخففوا من شأن أحزانهم ، ويحولوها الى ضروب من النشاط والى الوان من البقاء . انهم يستطيعون ان يدركوا سخافة محاربة النفس ، وجعل الحياة أكثر صعوبة بسبب ذنب مضى عهده .

ويذكرنا هذا بعامل مهم يلقى الضوء على سبب شقاء العصابى ، ذلك هو عامل الذنب والحاجة الى التكفير عن الذنب ويشير اليه الاطباء النفسانيون باسم « الماسوكية » وهو مركب نقص يجعل الفرد يستمتع حقا بالالم العقلى

والبدني ! ولعلك تلمس التناقض الواضح حين ترى اما تبكي في ليلة زفاف ابنتها ، فاذا سألتها قالت : « انني ابكي فرحا من اجلها » وهذا ينطبق على العصابي الذي لا يعدم سببا لكي يكون شقيا ! انه ينبش الماضي حتى يجد ما يجعله يشعر بالذنب ، ثم يقضي بقية حياته يكفر عما سلف . انه يعيد الحياة الى الحادثة الماضية ، كي يتجدد شعورد بالذنب لا شعوريا ، ولكي يجد لديه مايعاقب نفسه من أجله .

ومن الناس من يرى نفسه غير جدير بالسعادة ، بل ان بعض الناس تتسلط عليهم الاوهام فيشعرون أنهم لو اظهروا للناس أنهم سعداء فان الشر سيحيق بهم ! ومثل هؤلاء واولئك أناس يخشون أن يكونوا سعداء . انهم يسعون فعلا الى المتاعب فاذا تحققت أرضت رغبتهم اللاشعورية .

وليس من الطبيعي ان يكون الانسان شقيا ، فان الشقي يتخذ من شقائه ستارا يخفي به فشله ، وعدم تكيفه الاجتماعي وعدم قدرته على الاضطلاع بتبعات الحياة . انه يريد لمن حوله أن يعرفوا انه ضحية « سوء الحظ » وهي طريقة الكسالى الذين لا يكافحون للظفر بالسعادة .

فالشقاء مرض نفسي ، ولابد للانسان أن يتبين العوامل اللاشعورية التي تعمل وراء الشقاء قبل أن يتعلم كيف يسعد ويطمئن نفسا . ان المصائب والمتاعب تحل بنا جميعا ، وليس المهم مايحدث لنا ، ولكن رد الفعل الذي نقابلها به هو الذي يقرر هل نحن طبيعيون أم عصابيون .

والانسان الطبيعي يدرك ان الحياة قصيرة ، فلا وقت لديه للشقاء . انه يعيش ليومه وغده ، أما الامس فأشبه بأكلة قد هضمت !

السلوك الجنسي السوي

يلعب الجنس دورا أكثر اهمية مما تتصور بوجه عام في صحتنا الجسمية والنفسية . وليس كل من يقصد الى طبيب نفساني ، لابد أن يشكو من اضطراب في حياته الجنسية ، ولكنه يمكن القول أن غالبية العصابيين غير موفقين جنسيا . وانه لمما يثير الدهشة أن عدم التوافق الجنسي يمكن أن يأتي في ركابه بأمراض جسمية وعصبية. والجانب السيىء في الامر أن المرضى لا يدركون العلاقة بين عامل الجنس ونشوء المصاب ، ومن ثم يروحون يترددون على الاطباء يشكون من الصداع ، او أوجاع القلب ، أو فقدان الشهية ، أو سوء الهضم ، أو الارق !

سيدة متزوجة عمرها ٢٧ سنة قال عنها طبيب الاسرة لقد نشأ عندها الخوف من الموت ، وكان ذلك عقب وفاة زوج أمها ، وكانت جنازته أول جنازة حضرتها ، وكانت اعراض مرضها الغثيان والدوار والارق والصداع ، ولما فشل علاجها الطبي بمختلف العقاقير أيقن الطبيب انه بصدد مريضة عصابية .

وفي خلال حديثي معها اصرت على أن متاعبها انبعثت بعد أن علمت أن زوج أمها مات وهو نائم من نوبة قلبية .

وفى تردد عظيم اعترفت اخيرا انها غير قادرة على الاستمتاع بالناحية الجنسية مع زوجها ؛ وذلك لان والديها قد انشآها على الخوف من الجنس الى حد أنها حتى بعد الزواج استمرت على الظهور بمظهر متحفظ حيال كل شيء يتعلق بالجنس ؛ ومن ثم اجتمع افتقارها الى التعاون ، وتواضعها المتزمت ؛ وخوفها من الولادة ، على أشقاء زوجها ، وكانت تفتخر انها تحبه بطريقة « روحية » .

وقد نجم من تعديل موقفها بازاء الواجبات الجنسية الزوجية نتائج مشجعة ، واختفت مخاوفها العصابية ، وعاد التوافق الجنسى بالسعادة التى حلت محل آلامها الجسمية العديدة .

وما مبلغ علم الزوجة العادية بأعضائها التناسلية ، ووظائفها وقدرتها على الاشباع الجنسى ؟ وما مبلغ مايعرفه الزوج العادى عن عواطف المرأة ؛ وعن فن الحب والمغازلة؟ القليل فى الحالتين . ذلك لاننا كنا فى الماضى نتردد بطريقة عصابية فى بحث الجنس أو دراسته . لقد كان الموضوع محرما علينا سواء فى البيت أو خارج البيت .

ونحن فى هذا الكتاب الموجز لا نستطيع أن نعالج الناحية الفسيولوجية للجنس ، ولا أن نعطى محاضرة فى الناحية السيكولوجية له ، وكذلك لن نستطيع أن نصف الانحرافات الجنسية ، ولكننا نستطيع أن نذكر كيف تقضى الآراء الخاطئة عن الجنس الى اساءة الفهم فيما يختص باهمية العلاقات الجنسية ، وكيف ينبعث الشقاء فى الحياة الزوجية .

فأول كل شيء ليس هناك فى الرغبة الجنسية مايستحق

ان يخجل منه المرء . فانها غريزة اوجدتها الطبيعة من اجل حفظ النوع ، ولو أن العلاقات الجنسية لم تكن ممتعة ، لفنى العالم منذ اجيال طويلة . ولقد شبت نساء كثيرات على فكرة أن البرود الجنسى صفة نبيلة ، وأن الخفر والحياء مرغوبان ، وأن الاتصال الجنسى مسالة يجب على المراة اداؤها كما تؤدى واجبا وهذا كله يناقض تمام المناقضة ناموس الطبيعة .

ان الرغبة الجنسية مسالة طبيعية كالرغبة فى الطعام مع فارق واحد هو أن الرغبة الثانية يمكن كبحها ولكن الى وقت قصير ، اذ لابد من تحقيقها . أما الرغبة الجنسية : فانه يمكن كبحها الى ما لا نهاية ! واغلب الحالات يستطعن تحقيقه دون عناء ، اما البعض الاخر فينقلبن عصابيات بسبب الرغبات المكبوتة التى لا يدركن من امرها شيئا .

وكل ما نود أن نؤكده هنا انه ليس هناك مايبعث على خوف العروس الشابة من علاقاتها الجنسية مع زوجها ، فهذا جزء من حياتهما الزوجية ، تماما كالجلوس الى المائدة معا ، وتقاسم نفس الطعام او المشاركة فيما يملكان . ان سرية هذه العلاقة هى التى تجعلها اشبه بالامر المعيب ، ولكن هذه الرقة السرية هى التى تجعلنا فوق مستوى الحيوانات !

بمثل هذه الروح يجب على المراة ان تشترك مع زوجها فى الصلات الجنسية ، وعلى الزوج أن يبث فى زوجته هذه الروح ، بما يبديه لها من حب ، وعطف ، وفهم .

ان العلم يعترف بالرغبة الجنسية كعامل مهم فى الحياة

ذى اثر فعال فى اجتلاب السعادة فى الحياة الزوجية . وكثير من الناس ينقصهم الاستعداد الكامل للزواج بسبب جهلهم بالناحية الجنسية . ومرجع ذلك اما الى أن الاباء غير قادرين على تزويد أبنائهم بهذه المعرفة الضرورية ، واما انهم خجلوا من بحث هذه الامور مع ابنائهم ، ويقرر الدكتور جيلسبى الطبيب النفسانى الانجليزى : « ان الاغلبية الساحقة من المرضى العصابيين الذين قصدوا اليه لم ينالوا ثقافة جنسية من آبائهم . »

وكتب طبيب نفسانى آخر يقول : « انى لخجل كل الخجل اذ اقول أن رجال المهن الطبية فى الولايات المتحدة لم يعنوا بتاتا بالاهمية الحقيقية للصحة الجنسية ، فليس هناك معهد طبى واحد فيما اعرف يستطيع الانسان فيه أن يتلقى برنامجا فى الثقافة الجنسية ! وانه لامر محزن ، فانى أرى الحاجة الى مثل هذه الثقافة فى كل يوم » .

وتعزيزا لوجهة النظر الخاصة باهمية المعلومات الجنسية نذكر ان الدكتورة كاترين دافيز التى أجرت بحثا عن الحياة عند ٢٢٠٠٠ الف امرأة ، اكتشفت ان النسبة الكبرى من النساء المتزوجات السعيدات عندهن بعض الثقافة الجنسية . وقد اكد كثير من الاطباء الاهمية الحيوية للتعليم الجنسى ، وأن كل انسان يجب أن يقرأ كتابا أو أكثر عن الجنس .

ان الجهل بالمعنى الحقيقى للجنس قد يؤدى الى اخطاء محزنة مؤسفة ، أولها : كبح الرغبات الجنسية بسبب الاعتقادات التالية :

١ ـ ان الغرض الوحيد من الرغبات الجنسية هو اكثار

النسل ، وأن الاستمتاع الجنسي يكون تبعا لذلك امرا غير مهذب ودليلا على التفكير الشهواني .

ب ـ ان الزوج يجب أن يكون هو البادىء بالمغازلة في حين تقف الزوجة موقفا سلبيا .

جـ ـ ان الفضيلة مرادفة للصحة .

د ـ ان التوافق الجنسي يلعب دورا ثانويا في السعادة الزوجية .

هـ ـ ان الرفقة « المثالية » مؤسسة على الحب الافلاطوني الخالي من المداعبات الجسمية والاثارة .

ومجموعة ثانية من الاخطاء تؤدي الى احباط الرغبة الجنسية بسبب الاعتقادات التالية :

ا ـ ان العادة السرية تفضي الى الجنون .

ب ـ ان العانس تبتئس وتحزن اذا فاتها قطار الزواج؛ لانها تريد لنفسها منزلا واستقرارا ، وليس مرجع ابتئاسها الى عدم اشباع رغباتها الجنسية .

ج ـ على الزوج أن يجتنب العلاقات الجنسية بزوجته ، اذا أراد الا ينجب اطفالا !

ويسير جنبا الى جنب مع هذه المعتقدات الخاطئة حول الجنس ، تلك الفكرة الخاطئة في أن الشخص غير الصالح جنسيا سيجني السعادة عن طريق الزواج . والزواج قلما يكون حلا للعقد التي تسبق الزواج . بل ان الزواج على نقيض ذلك ، يعين على مضاعفة الصراع العاطفي بأن يجعل مشكلة الجنس أحد من ذي قبل . وأولئك المضطربون عاطفيا يجب أن يجتنبوا اضطراباتهم قبل الاقدام على الزواج ، والا فليس لنا الا أن نتوقع

ازواجا غير ناضجين ، وزوجات سلبيات ، أو ازواجا محبطين ، وزوجات باردات رافضات .

تلقت احدى المريضات برنامجا فى الصحة الجنسية قبل زواجها ، واكتشفت فى ليلة زفافها ان علاقتها الجنسية بزوجها مستحيلة عمليا ، وبدلا من أن تضطرب ذهبت فى اليوم التالى تطلب مشورة الطبيب ، فاكتشف بعد فحصها أن غشاء البكارة لا يفض الا بعملية جراحية، وهى عملية بسيطة ولكنها حلت مشكلتها ، فقد استطاعت بعد ذلك أن تجنى الرضاء من العلاقة الجنسية .

وفى بعض الاحيان تترك البداية السيئة جروحا من شانها ان تعرض السعادة الزوجية الى الخطر فى السنوات التالية ، كتلك المريضة التى كانت تعد نفسها باردة جنسيا ثم اكتشفت ، بعد أن تتبعت منشأ برودها ، أنها ذات شخصية عاطفية لا تحتاج الا الى ايقاظ ، وكان زوجها يخدعها فى براءة بانه قانع جنسيا ، ثم أصبح أقدر على أعطاء المتعة واجتنائها بعد أن عرف أكثر مما كان يعرف عن الجنس .

ولست ممن يؤمنون بان الجنس هو العامل الرئيسى فى الحياة ، ولكن اعترافات مرضاى قد أقنعتنى بأن الجنس أساسى الى حد أن كل انسان يرفض أن يبحث أو يدرس الجنس دراسة واعية ، أو يعتبر الجنس شيئا « قذرا» أو « قبيحا » لابد أنه يعانى من خداع عصابى .

وانى لأذكر قصة مريضة كانت تمرض فعلا عند التفكير فى أنها ستقول شيئا عن حياتها الجنسية فى أثناء عملية التحليل النفسى . لقد كانت تعانى من صداع عصابى ،

لم تكن متزوجة وكانت تزعم ان موضوع الجنس يثيرها ويغضبها ، وقد اعترفت أخيرا أنها كانت تلجأ الى الارضاء الذاتي ، وأن الشعور بالذنب الذي يصاحب هذه الحالة كان يدعوها الى هذا الموقف الدفاعي الذي تستنكر فيه موضوع الجنس ، فتتخذ من هذا الموقف الدفاعي سبيلا لتغطية احساسها بالخطيئة ، وكان الصداع بطبيعة الحال ، يمثل نوعا من العقاب كتكفير عن شعورها بالذنب

وثمة آلاف من حوادث الطلاق كان من المستطاع اجتناب وقوعها ، لو أن كل زوجين تلقيا معرفة صحيحة بأمور الجنس وانه ليقدر ان مابين ٢٠ و ٣٠ فى المائة من النساء غير قادرات على استخلاص الارضاء الجنسي من علاقتهن بأزواجهن .

فاذا كنت مزمعا الزواج ، ففى استطاعتك اجتناب الشقاء الذي ينبعث من عدم التوافق الجنسي . افحص نفسك قبل الزواج ، وقدر حقيقة موقفك من ناحية الجنس ، وتأكد أن وجهات نظرك فى هذا الموضوع طبيعية ، فاذا كنت تجهل هذه الامور ، فبادر الى اقتناء كتاب يعالج الثقافة الجنسية ، وانبذ المخاوف غير الطبيعية ، واجعل الحكمة رائدك فى سلوكك الجنسي ، واذكر أن الحياء كالانغماس يكشف عن شخصية غير متكيفة . واذكر كذلك أن الارضاء الجنسي لم يعد شيئا محرما ، وأن تكيف الزوجين احداهما للآخر جسميا ونفسيا هو الاساس للزواج السعيد .

فاذا لم تجد التوافق فى صلاتك الجنسية ، فابحث عن السبب ، وربما يكون هناك مايمكن عمله لتحسين

صلاتك الجنسية . فاذا لم تستطع ذلك دون معونة ، فبادر الى طلب النصح والمعونة من الاخصائيين النفسانيين، لقد كنت محبا حين تزوجت ؛ فما الذى طرأ على هذه الجاذبية الجنسية القوية التى كانت متبادلة بينكما ؟ اية آراء فاسدة غيرت تلك الجاذبية ؟

ان هنالك أسبابا عديدة لفشل الزواج ، وليس عدم التوافق الجنسى أقل هذه الاسباب . ان فى الاستطاعة العمل على انجاح الزواج ، اذا كان كل من الزوجين يواجه الضوء والحقيقة .

الزوج السيىء يمكن ان ينصلح

وفى الاستطاعة أن نقسم الزيجات من حيث النسبة المئوية للسعادة الى أربعة أقسام :

١ ــ طيب « ٧٥ ــ ١٠٠٪ »
٢ ــ متوسط « ٥٠ ــ ٧٥٪ »
٣ ــ سيىء « ٢٥ ــ ٥٠٪ »
٤ ــ مستحيل « ٠ ــ ٢٥٪ »

فالزواج الصالح هو الذى يكون فيه لكل من الزوج والزوجة شخصية طبيعية ، فهما يظهران كل دليل على حسن التكيف القائم على اساس سليم ، وهما مستعدان لاداء كل الالتزامات التى تشيد الاساس الصحيح للزواج السعيد ، ان لهما قوة الاحتمال ، وحسن الفهم ، ويعرفان معنى الحب ، وهما عادة خاليان من العقد الخطيرة التى تسبق الزواج . ومثل هذين الزوجين يحققان مابين ٧٥ و ١٠٠٪ من السعادة .

أما الزواج المتوسط فهو اكثر حالات الزواج شيوعا وانتشارا بين الناس . وفى هذه المجموعة يسلك الزوجان سلوكا طيبا ، وهما طبيعيان بقدر قدرتهما على التكيف احدهما للاخر ، واختلافاتهما ليست خطيرة ، وقد لا يستطيعان أن يفخرا بالسعادة الكاملة ، ولكن مامن واحد منهما يحس أنه شقى شقاء محددا . ومثل هذين الزوجين يصل بهما الزواج الى نسبة تتراوح بين ٥٠ و ٧٥٪ من الرضاء الذى ينحصر عادة فى البيت وتعليم الاطفال ، والتامين ضد عدم الاستقرار الاقتصادى أو الصحى ، والعطلات الدورية ، وجماعات الاصدقاء ، والاتفاق المتبادل على قبول ما يعترض طريقهما فى شجاعة ؛ انهما يعيشان لغرض معين ، هو أن يظفرا بالسعادة لينعما بها مع الاخرين .

اما الزواج السيىء فهو عادة نتيجة سوء الاختيار ، فاما أن الزوج والزوجة غير متلائمين عاطفيا ، احدهما للاخر ، لانهما متعارضا الشخصية ، واما انهما - احدهما او كليهما - كانا غير صالحين للزواج بسبب عدم النضج النفسى ، او لوجود مركبات عصابية فى نفسيهما قبل الزواج ، واما انهما عاشا فى بيئة منزلية عصابية ، وامضيا طفولة شقية ، ومن ثم يصبحان غير قادرين على ايجاد علاقة غرامية طبيعية نحو الجنس الاخر وكنتيجة لهذه الحال يمكن أن يفترض أن الزواج كان منشؤه عصابيا .

وقد دلل على ذلك الدكتور « ادموند برجلر » مؤلف كتاب « الزواج التعس والطلاق » اذ قال : « أن جذور الفشل فى الحياة الزوجية تمتد الى الوراء .. الى عهد

طفولة الزوجين حين استقرت فى النفس بطريقة لاشعورية وانتجت هذه الصورة لمسلك عصابى ، وأفضى الامر الى اختيار عصابى لشريك الزواج » .

وقد اعترفت لى احدى مريضاتى فى أن السبب الوحيد فى زواجها من زوجها الذى لا تحبه ، أنها كانت جد راغبة فى الفرار من بيت أبويها الشقيين ، فقد كانت تعـــانى الامرين من الشقاق الدائم بين أبويها ، ومن ثم عولت على الفرار من هذا الجحيم بالزواج !

وقد يتزوج البعض من أجل المال ، والبعض الاخر من أجل الاستقرار أو المصلحة الذاتية . ثم هناك زيجـــات يدبرها الآباء دون اهتمام بمبلغ الحب المتبـــادل بين الشريكين . ومن حسن الحظ أن هذه الطائفة الاخـيرة يتناقص عددها فى الايام الاخيرة .

على ان اكبر عدد من حوادث الطلاق انما ينشأ عـــن الزيجات المستحيلة ، وهى تختلف عن الزيجات السـيئة فى انها فى هذه الحالة لا يقتصر الامر على سوء الاختيار ، أو غياب الحب ، بل لان الشريكين يأبيان ان يبذلا اى مجهود لانقاذ صرح الزواج من الانهيار . فالزوج المدمن الخمر ، أو المنحرف جنسيا ، او زير النساء ، أو الشرس الذى يضرب زوجته ، يدخل ضمن هذا التقسيم .

وثمة آلاف من الزوجات يصبن بانهيار لانهن يتعرضن لقسوة عقلية وجسمية على أيدى ازواج ساديين ، على أنى لست ابدى هنا بحث موضوع الزواج المستحيل ، وانما كل ما أود أن ابينه أن الطلاق ليس دائما هو خير الحلول لما نسميه الزواج السيىء ففى بعض الاحيان يمكن انقاذ مثل هذا الزواج .

جاءنى منذ عام زوجان لاستشارتى فى امر عدم التوافق بينهما . وكانت الزوجة ــ جوان ــ مجرد طفلة الفت أن تنفذ كل رغباتها ، فشبت مدللة أنانية . أما زوجها ــ جيم ــ فكان رجلا سلبيا ضعيفا ذليلا ، فى حين كانت زوجته طاغية ، مسيطرة ، مسترجلة تعانى من « مركب الأب » .

وكانت عاجزة عن القيام بدور الزوجة فى الزواج . وشكا الزوج من انها غير راغبة فى اداء واجباتها الزوجية ، وانها تعتبر نفسها زوجته بالاسم فقط ، وتريد أن تفعل ما تشاء الى حد انها فى احدى الرحلات خانت عهود الزوجية !

واقترحت عليهما ان يتقبلا التحليل النفسى رغبة فى انقاذ حياتهما الزوجية ، فأبت الزوجة ذاكرة أن ليس هناك عيب فيها ، وان زوجها محب ثقيل الظل ، وان الانفصال هو خير حل ، ومن ثم حصلت على الطلاق .

أما الزوج فقد حلل تحليلا نفسانيا ، واصبح مدركا لكل مواضع الضعف والقصور فيه ، وعمل على اصلاحها ، وسلك حياة جديدة ، وكان القدر رحيما به ، فالتقى فى هذه المرة بالفتاة الصالحة له ، واستطاع ان يحسن اختيار شريكته . وهو الان زوج سعيد أما ــ جوان ــ فقد ساءت حالتها بعد الطلاق ومن الرسائل التى أرسلتها الى زوجها السابق ، كان واضحا انها وجدت أن طلاقها من زوجها كان خطأ فاحشا . وحتى تتمكن جوان من التعرف على حقيقة نفسها عن طريق التحليل النفسانى فانها ستستمر فى اشقاء كل من تتزوجه .

لقد علمتنا التجارب ان الساق الهيضة اذا أحسن علاجها فانها تستطيع أن تؤدى وظيفتها كالساق السليمة تماما ، ولهذا فانى أعتقد انه فى حالة الزوجين ـ وخاصة اذا كان لهما أولاد ـ اللذين تزوجا وهما يعتقدان انهما سيكونان سعيدين معا ، ثم اكتشفا أنهما يختلفان،أحدهما عن الاخر ، فى أكثر الامور ، يمكن بوساطة التحليل النفسانى ، ومع توفر الرغبة فى حياة أسعد ، أن يحسنا علاقتهما ، وينقذا زواجهما من الانهيار وقد لا يبلغان مبلغ الزواج الطيب ، ولكنهما على التحقيق يستطيعان أن يحققا النجاح والرضاء اللذين يتوافران للزواج العادى.

وفى خلال أربعة عشر عاما قضيتها فى الاصغاء الى المتاعب العائلية التى رواها لى مئات الازواج ، أتيحت لى الفرصة للوقوف على الاخطاء المحزنة التى يرتكبها هؤلاء المرضى ، الذين اندفعوا فى غير تفكير الى اختيار سبيل الطلاق بدلا من سبيل الاصلاح والتوفيق ، فى حين أن غيرهم افادوا كثيرا من وراء محاولاتهم علاج أسباب عدم التوافق بينهم ، ووصلوا الى بر السعادة المشتهاة .

فكيف يمكن انقاذ الزواج السيىء ؟

ذلك باحدى وسيلتين :

١ ـ عن طريق خطة متبادلة للتحليل الذاتى ، وايجاد ادراك جديد واحتمال ما يقتضيه الموقف من تضحية وجهد .

٢ ـ أو عن طريق معونة الطبيب النفسانى اذا كان عدم التوافق ناشئا عن صراع عميق ، أو اذا كانت الجهود التى بذلها الزوجان لانقاذ الزواج قد فشلت واخفقت .

وكثير من الازواج يخشون التصريح بمتاعبهم للمحلل النفساني ، ظنا منهم أنه سيقال لهم أن الطلاق هو الحل الوحيد لخلاصهم من هذه المتاعب ! على أن الامر على النقيض ، الطبيب النفسي يبذل كل مستطاع ليقرب بين الزوج وزوجته ويخلق بينهما علاقة منسجمة .

ومن المحتمل أنى لو نقلت للقارىء طريقة معالجة المتاعب الزوجية لزوجين على وشك الانفصال ، فقد يستطيع أن يستخدم ما يشبه هذه الوسيلة لحل مشكلته الزوجية دون الالتجاء الى معونة خارجية .

ان الخطوط الاولى هى أن تحدد ، تبعا للاوصاف التى سقناها للزواج السيىء والزواج المستحيل ، أين يقع زواجك بالضبط ! فاذا كان زواجا سيئا ، وكنتما راغبين معا فى التعاون على تغيير الحالة ، فابدأ دون أن تتوقع مجهودا ضخما من الطرف الاخر . واذكر أن التوافق الزوجى مسألة يجب أن تعمل من اجلها وتبذل مجهودا للظفر بها ، ليست مسألة وهمية تطالعها فى رواية غرامية ، ولا حاجة بك الى التطلع الى الكمال فان ذلك التطلع عصاب فى ذاته ان الاشخاص الذين يصرون على أن يبلغ كل شىء مما يصنعون مبلغ الكمال هم فى الحقيقة أشخاص يعانون من البغض والكراهية !

أذكر مريضة من دابها ان تبذل كل جهدها فى اصلاح عبارات زوجها ، كانت متلهفة دائما الى اصلاح اخطاء الآخرين ، والى رعاية طفلها رعاية دقيقة ، وكانت النتيجة ان اجتلبت عداء زوجها ،واصحابها وطفلها ! ولكى يكون الانسان سعيدا يجب أن يكون انسانيا ، وأن يتجاوز عن اخطاء الاخرين .

انك لا تستطيع أن تتوقع من شريكك فى الزواج أن يستجيب لكل نزواتك ، وأن يفكر كما تفكر ، وأن يحسن أداء كل ماتطلبه وقد يكون بعض ماتطلبه غير معقول ! ان هذا النوع من حب التملك والاستحواذ من أسباب سوء الزواج ، فللزوج « والزوجة » الحق فى التمسك بجانب من شخصيته قبل الزواج لان الزوجة تنتظر من زوجها أن يقنع نفسه دائما بهالة مثالية ، أو قد يريد الزوج من زوجته أن تتخذ جناحى ملاك . ان على الانسان أن يسمح بوجود ما يدعى « بعدم التوافق الطبيعى » .

والخطوة الثانية أن تحلل نفسك ، واجعلها مهمة واجبة الاداء ، والق على نفسك هذه الاسئلة : « ماذا كانت طبيعة العلاقة القائمة بين ابى وامى ؟ هل كانا يتبادلان الحب » واذا كان قد تم بينهما طلاق ، فماذا كان تأثير الانهيار العائلى على ؟ وهل نشأت من أسرة عصابية ؟ وكيف كان جو الاسرة ؟

ان مثل هذه البيانات ستساعدك على اكتشاف منبع شقائك فى حياتك الزوجية ، والاثار العصابية التى انتقلت معك الى حياتك الزوجية .

هجرت احدى مريضاتى زوجها عقب خلاف نشب بينهما ، وهرولت الى امها . ثم مالبثت أن اكتشفت انها كانت ضحية لسيطرة امها ، وأن امها « التى طلقت اباها » كانت عصابية الى أقصى حد ، وكانت تحب التملك والاستحواذ . وحين تحققت المريضة من مبلغ شقائها فى بيت اسرتها ، عادت الى زوجها ، وقررت أن تأخذ على عاتقها فى المستقبل تحليل آلامها واحزانها ، وأن تتباحث مع زوجها فى شانها بدلا من امها .

وقد اكتشفت عند مراجعة سجلاتى أنه غالبا ما تكون الزوجة التى تسعى للطلاق قد نشأت فى أسرة فيهـا الطلاق ، وكذلك تنطبق هذه الحالة على الزوج الذى يلوم زوجته ويحملها مسئولية فشل الزواج . ولا يمكن أن يكون مجرد مصادفة أن الاشخاص الذين نشئوا فى بيوت منهارة هم أكثر الازواج تعرضا للشقاء والتعاسة فى الحياة الزوجية ، وعلى ذلك فانه من المهم ، حين تحلل نفسك وظروفك ،أن تتأكد من أن شقاء الوالدين وان ضـروب الاخفاق الذى عانيته فى طفولتك المبـكرة لا تؤثر ـ لا شعوريا ـ فى مواقفك الحاضرة نحو الحب ، والجنس ، والزواج .

واسأل نفسك كذلك : « أى نوع من الناس كنته قبل الزواج ؟ هل كنت شقيا بائسا ؟ ولم تزوجت ؟ هل يحبنى الناس ؟ وأى نقائص الشخصية أشكو ؟ وهل موقفى من الجنس طبيعى ؟ »

فاذا أنت أجبت عن هذه الاسئلة بصدق واخلاص فلن تلبث أن تكشف السبب فى كثير من متاعبك .

وعلى الرغم من الحالة التى قد يكون عليها شريكك ، فان عليك أن تعرف نفسك أولا ، وفيما بين ثلاثة أشهر وستة أشهر ستستطيع ، ببعد النظر وقوة العزم ، أن تصبح شخصا جديدا . انها مسألة تنظيم ذاتى ، ورغبة أكيدة فى ايجاد عادات جديدة . والطريقة الوحيدة المؤكـدة لتغيير حالة زوجك « أو زوجتك » أن تغير من نفسك . تأكد أولا انك أديت حق الأداء نصيبك من الصفقـة ، وانك بذلت قصارى جهدك كى تجعل شريكك فى الزواج

سعيدا . ان التحليل الذاتى ، والتقويم الذاتى هما خير الخطوات فى حل مشكلة الزواج السيىء .

ثالثا : اذا نجحت فى تقويم نفسك ، فعليك ان تعاون شريكك فى أن يحدث فى نفسه مثل هذا التغيير وانت طبعا فى حاجة الى ان يعاونك فى ذلك ، ولكن المحـــاولة ضرورية ، وانت قمين بالنجاح اذا كانت محاولتك بطريقة لبقة كيسة .

والمحلل النفسانى يحتاج الى تحليل نفسه قبل أن يتمكن من تحليل غيره . فان عليه أن يتعلم تقدير نواقصـــه الشخصية ، والاقلال منها ، واعطاء الدليل على انهمستقر متزن ، وانه خال من الصراع النفسى وبغير هـذا تـكون مهزلة ان يتقبل مريض نصيحة من محلل نفسانى يحتاج شخصيا الى النصيحة !

فاذا شعرت انك نميت فى نفسك نفاذ بصر رأيته كافيا لتكوينك العاطفى ، ففى استطاعتك عندئذ تقدير العوامل التى سببت فى شريكك عدم التوافق الحالى ، فحاول أن تبحث استنتاجاتك مع شريكك بطريقة سياسية ، دون أن تتخذ مظهر التفوق أو التقليل من شأن الشريك .

وستصبح أقوى احتمالا حين تقدر سلوك شريكك بتأثير عوامل ترجع الى ماضى أسرته وطفولته . ووجه المشكلةفى فى اغلب الازواج التعساء ، انهم يعمون عن قصـــور شخصياتهم ، ويلقون التبعة على الشريك ! ويجب الاقلال من المناقشات الانفعالية اذا كنت تنشد الظفر بالسـعادة الزوجية ، انك تستطيع ابداء النصح دون أن تثـور ، مذكرا نفسك بأنه ينبغى لك أن تظل هادئا مسيطرا على عواطفك .

وأولئك المحظوظون الذين وفقوا الى الوقوف على سر التكيف الذاتي ، ونجحوا في تقويم ذواتهم ، ينجحون عادة في معالجة الاخرين . ان معرفتهم بالطبيعة البشـــرية عندئذ تساعدهم على مسايرة كل انسان اخر تقريبا ، واذا ووجهوا بموقف جد عسير فان لهم من الذكاء مايدفعهم الى البحث عن النصيحة الناجعة .

والخطوة الاخيرة في انقاذ الزواج السيىء هي استشارة اخصائي نفساني اذا كنت قد سلكت كل السبل وفشلت ، واغلب الظن أنه سيعاونك في الوصول الى قرار يتناسب مع ظروفك الخاصة . واذكر انه أقدر منك على تقـرير الخطوة التالية التي يجب أن تخطوها ، فبذلك تستطيع ان تشعر على الاقل أنك قد فعلت كل مايمكن عمله لتجنب النتائج السيئة التي تترتب على الطلاق .

وتشير الاحصاءات الاخيرة الى أن هناك عددا كبـيرا جدا من الزيجات تمت سريعا وبغير اتزان ، ونتج عنهـا الكثير من حوادث الطلاق التي تمت كذلك بطريقة سريعة وفي غير اتزان وكثرة وقوع الطلاق بلا تمييز امـر موهن لعزائم المجتمع كله ، فلو أخذنا على عاتقنا جميعـا تبعـة تشجيع الازواج والزوجات على البحث في أعماق نفوسهم عن سبب شقائهم ، فاننا بهذا لا نسدي يدا بيضــــاء للازواج وحدهم ، بل للمجتمع وللاجيال القادمة ايضا .

تستطيع أن تكتسب الحب

ان الناس يسعدون أو يشقون تبعا لقدرتهم على منح الحب ومبلغ سعة قلوبهم لتقبل الحب .

جاءتني يوما مريضة شابة فى الرابعة والثلاثين من عمرها وقالت لى :

« ان ما أنا فى حاجة اليه يادكتور هو انسان يحبنى ، ودار واطفال كثيرى من الناس . ان ذلك كفيل بأن يشفى كل أمراضى » .

وقلت لها : « انكَ تصنعين العربة قبل الحصان . ان المسألة هى : ما مبلغ قوة جاذبيتك ؟ »

ولقد علمت أن خطابا كثيرين تقدموا لها ، ولكنها ، كما يبدو ، لم تستطع أن تحتفظ بواحد منهم . فهى اما انها حاولت أن تثير غيرتهم ، واما انها كانت لا تحسن الحديث، ففى ذات مرة اندفعت فى طيش وقذفت بآخر سهم فى جعبتها واقترحت الزواج على رجل كان خجولا هيابا محجما فأفزعته !

« هل ستراها ستظل عانسا ؟ » كان هذا هو الخوف الذى يسيطر على عقلها ، وهى كآلاف غيرها من النساء تتوهم كما يتوهمن ، ان الحب سيمر فى طريقها يوما من

حيث لا تدرى وستعيش مع فتى أحلامها عيشة سعيدة الى الابد .

وطلبت منها ان تنظر فى المرآة وتخبرنى بما تراه . لقد كانت الصورة المطبوعة على صفحة المرآة تكشف عن عينين غامتا بعدم القناعة وعدم الرضا ، وشفتين اطبقتا فى مرارة . وكانت جميلة الصورة تكشف عن كيان عصابى . لقد بدات كامراة نسيت كيف تبتسم !

وبدت عليها الدهشة حين قلت لها أن المرء يعد نفسه للحب بأن يصبح دائما أكثر جاذبية وفتنة كلما تقدم به العمر ، وان عملية الاعداد تبدأ منذ الطفولة . ومن سوء الحظ أن الاباء ينشئون أطفالهم تنشئة غير سعيدة فى كثير من الحالات ، حتى اذا كبروا وشبوا عن الطوق ، يصبحون غير قادرين على انشاء علاقة ودية طبيعية مع الجنس الاخر ، فيشبون عصابيين غير محبوبين ، يمقتون ـ دون أن يشعروا ـ آباءهم وانفسهم ويثارون من الاخرين لما عانوا من احباط وشقاء فى طفولتهم . وفى شبابهم يتاصل فى نفوسهم جوع للعطف لا يشبع ، وفى الوقت نفسه تكون لهم شخصية تصد الحب وتبعده !

وهذه الحاجة العظيمة للحب ليس وجودها مقصورا على العصابيين ، بل هى موجودة عندنا جميعا ، وقليل منا من يدرك ان الحب يجب أن ينال بالجهد والسعى ، وانه لكى نتلقى الحب يجب أن نكون قادرين على منحه . ان الحب ليس مجرد قبلات وضمات ، انه حالة ذهنية ، انه شعور بالسلام العميق يشع على الاخرين . ان أسعدنا

هم أولئك الذين يحسون البشر ، والسرور ، والعطف ، وحسن الفهم . ان لهم مزاجا محبوبا ، وفلسفتهم فى الحب تعاونهم أكبر العون حتى فى أظلم الظروف .

قصارى القول : فان تجعل نفسك محبوبا جذابا هو سر قدرتك على اقتناص الحب والاحتفاظ به . والمرء ليس بحاجة الى البحث عن الحب فى أطراف العالم النائية ، ان القدرة على الحب موجودة فى أعماق كل منا ، وما أشبه أكثرنا بالفيلسوف الشارد الذهن الذى يبحث عن نظارته ، ثم يكتشف بعد ذلك انها فوق عينيه . كذلك نحن نبحث عن الحب فى كل مكان خلا أعماقنا !

ومع التسليم بأن الحب احساس وفلسفة وليس بحثا عن كنز ، فان عليك بعد هذا أن تعرض نفسك للاختبار التالى ، فقد تلقى نتيجته الضوء على فشلك فى الزواج أو فشلك فى الظفر بالنجاح فى الزواج :

١ ـ هل انت مغرم بنفسك ؟

اذا كنت كذلك فما من أحد يمكن أن يحبك ! ان هناك اشخاصا كثيرين هم فى الواقع متزوجون من أنفسهم ، فكل حبهم يتحول الى الداخل ، وهم ضحايا « مركب النرجسية » . انهم يبالغون فى تقدير أهمية مظهرهم ومواهبهم ، ويحيطون أنفسهم بجدار من زجاج .

اعترفت لى مريضة كانت دائما تسمع من أبويها واصدقائها المديح والاطراء فى جمالها ، ان شقاءها فى زواجها يرجع الى عدم استطاعتها أن تمنح نفسها تماما

لزوجها . لقد كانت غارقة فى حب نفسها ، وكم من مرة أفزعت المرضى من مركب النرجسية حين كنت أقول لهم أنهم غير قادرين على حب أحد البتة بسبب حبهم لانفسهم عصابيا ! .

لا تحسبى الجمال مصيدة للحب ، فقد يحمل الجمال معه عدم القدرة على الحب ، والمرأة التى لا تستطيع الفرار من انشغالها بجمالها ، غالبا لا تثير اهتمام الرجال أو لا تستحوذ على اهتمامهم الا لفترة قصيرة ، وهى فترة لا تعود عليها الا بالقليل من السعادة الحقة ، وما أشبه الولاء الذى تتوق اليه بنشوة الخمر ، تثمل الراس طوال مدة وجودها ، ثم تترك بعدها شعورا بالفراغ والعزلة ان الجمال زائل لا محالة يوما ، اما أن يكون المرء محبوبا، فمعناه أن يشع الاشراق على مر السنين ، سواء ظل على جماله أم ذوى هذا الجمال .

٢ ـ هل تحسن المناقشة ؟

من الناس من يظن أن خير ما يفعل المرء هو أن يكون صادقا كل الصدق ، ويعبر عن كل آرائه أكثر مما يتكتمها امثال هؤلاء الذين نسمعهم يقولون دائما : « لقد قلت له فى وجهه » أو « لقد طلبت رأيى .. وهذا هو ما أراه ». ان طعن الاصدقاء المتألمين بمدى الالفاظ ليس عملا شريفا انه نوع من انواع السادية المرضية .

لا حاجة بك الى أن تقول لمضيفتك ان اللحم غير ناضج، يمكنك ببساطة أن تلتزم الصمت دون أن تتهم نفسك بانك

لم تكن أمينا ! والذين يألفون السخرية ، ويعمدون الى ارباك الآخرين سرعان ما يفقدون الاصدقاء . والفتيات اللائى يتحدثن عن أصدقائهن من الرجال رغبة فى اجتذاب الرجال هن فتيات خلو من الكياسة واللباقة ، فانهن يصمن أنفسهن وصمة لا داعى لها ، وقد تكون النتيجة حرمانهن من معجب محب .

وقد لا نستطيع جميعا أن نكون سياسيين فى أحاديثنا، ولكننا نستطيع أن نكون عطوفين ، تكبح النفس عن النطق بالكلمات الجارحة المؤلمة وان كانت « حقيقة » ، ولكنها حقيقة تترك وراءها جرحا اليما !

أمثال هذه السبل من الحديث تمثل الجانب السلبى ، فلننظر الآن الى الجانب الايجابى .

لقد أصبح موضوع المناقشة « المثيرة للاهتمام » طيفا مخيفا ، وبدأ الناس يتلقون فيه المحاضرات ، والواقع أن كل ما يحتاج اليه المرء ليتقن هذا الفن أن يحب الناس وأن يهتم بأمزهم ، حتى يألف بطريقة آلية أن يصبح شريكا فى محادثة شائقة .

فاذا أنت ياسيدتى ، أحببت الناس ، فانك لن تصبحى الفتاة المتسلطة التى تتحدث بلا انقطاع ، ومن جهة أخرى لن تصبحى الفتاة التى ليس لديها ماتقوله ! أن حبك للناس سيوسع دائرة اهتمامك ، وسيمد أفق صداقتك وحبك للناس أن الناس هم الذين يبدعون الموسيقى ، ويخلقون الحب ، ويصنعون الحياة ، فاذا أنت أدركت ذلك فسرعان ما ستجدين اهتمامك بالناس يزداد وستجدين نفسك تسايرين العالم .

والعبوس معد ، لا يلبث أن ينتقل الى الشخص الاخر ، وحين يتذكر هذا الشخص الاخر ماكنت عليه من عبوس، فسوف يتجنب مقابلتك فى المرة الثانية . وكالعبوس الشكوى الدائمة .. ويجب أن تخرج بحديثك عن دائرة حياتك ، وأن تصغى فى رغبة واهتمام الى حديث الشخص الآخر . انها قوة مغناطيسية . فالضحك يثير الضحك ، والحب يثير الحب .

٣ ـ هل انت فائق الحساسية ؟

اذا أنت اتخذت موقف الملاكم ـ عقليا ـ حين يتجمع حولك الناس ، فانهم لن يحسوا بالراحة فى وجودك . هذا هو موقف الانسان الشديد الحساسية ! انه يقذف بكل ضروب دفاعه دون أن تكون هناك حاجة اليه ، أو يتراجع وينزوى شاكيا متألما من هنات هينات ، حقيقية أو متوهمة !

ان الآخرين من البشر مثلك . وانت تنسى الاهانات التى طعنت بها الغير ، ولا تذكر الا عدم الاكتراث الذى بدا من الآخرين نحوك !

ان الزوجة التى تبكى كلما أفلت زوجها من قبضة يدها، كفيلة بأن تجد نفسها آخر الامر وحيدة مع أحزانها وآلامها . ان « الانقباض » ليس الا علامة من علامات عدم النضج العاطفى ولن يجدى الانسان شيئا أن يكون مفرط الحساسية .

فمن أجل سعادتك يحسن بك أن تصفح ، وتنسى ،

ولا تحمل الهم وترضعه . والاخفاق فى الحب يتأتى نتيجة للافراط فى الاحساس بتوافه الحياة . فكثيرا مانرى اثنين متحابين حبا عميقا ، ولكنهما دائما التنازع والتخاصم بسبب التوافه ، ان كلا منهما شديد الحساسية ، ويقف من الآخر الموقف الدفاعى ان حبهما لحن جميل يعزف على آلة غير صالحة !!

والسبب هو الغيرة التى لا مبرر لها . والغيرة الدائمة ليست ابدا دليلا على حبك للشخص الآخر ، بل هى برهان على انك غارق فى حبك لنفسك . انها ليست أكثر من اثر باق من غريزة التملك فى عهد الطفولة . هذه الغيرة غير المعقولة هى سرطان الحب الذى يقضى عليه . انها تنهش القلب ، وتترك من يكون الضحية عاجزا عن أن يغدق الحب ويتقبله . فاذا كنت تعانى من الغيرة ، دون سبب يبررها ، فاذكر انها عاطفة غير طبيعية واعمل على اجتثاث جذورها بكل ما يسعك من جهد .

والصفح ليس أمرا سهلا ، وكذلك ليس من السهل أن تمنح الانسان الذى تحبه أشهى ثمار الشكر ، ولكن ذلك هو السبيل الوحيد للسعادة ، وهو الضمان الاكيد للاحتفاظ بالحب فى قلبك مزهرا ناضرا .

أعرف زوجين أخذا على عاتقيهما أن يعتذر الذى فى جانبه الحق ، وقد عادت عليهما هذه القاعدة بالسلام والوئام بعد كثير من سوء التفاهم والخصام .

٤ ــ هل انت على طرفى نقيض مع نفسك ومع الآخرين؟

اذا كنت تناصب نفسك العداء ، فلن تستطيع أن تساير غيرك من الناس ، واذا كنت تجارب العالم ، وعملك ،

ومدرستك وأسرتك ، فابحث فى نفسك عن أسباب سأمك وعدم رضائك وحتى تقف على السبب فى شقائك ، فانك لن تستطيع الانسجام مع الاخرين ، وستفقد كل الفرص لاكتساب الحب والسعادة فى حياتك الزوجية ، فمادامت هناك حرب دائرة فى داخل نفسك ، فلن يكون هناك سلام لاولئك الذين يريدون الحياة معك .

واذا عجزت عن العثور على منشأ سأمك ومللك ، وبالتالى عجزت عن مسايرة عالمك فعليك أن تنشد المعـــونة . لا تصبر على افتقادك حب الناس ، بل يجب أن تعـرف السبب ، والسبب فى أعماقك ، فافحص نفسك بعيون غيرك اذا لم تستطع أن ترى نفسك بعينيك .

واذا أنت ، يا سيدتى ، سألت نفسك : « اى طراز من الازواج سيكون هذا الرجل ؟ » ولم تسألى نفسك « أى طراز من الزوجات سأكون ؟ » فأنت اذن لم تتعلمى معنى الحب . يجب أن تضعى نصب عينيك الامرين معا ، نفسك والشخص الذى تحبينـــه . ابحثى صحتك العاطفية ، وقدريها تقديرا واقعيا صحيحا كما تقدرين حالة صحتك البدنية . وقد تعينك على هذا التقدير القائمتان التاليتان واحداهما تتضمن العواطف الصحيحة والاخرى تتضــمن العواطف المريضة :

العواطف السليمة	العواطف المريضة
ضبط النفس	الغضب
الحب	الكراهية
العطف	الانانية

الثقـــة	الخوف
الايمــــان	الشـك
التواضــع	الغرور
الفهـــم	الغيرة
القنــاعة	الحسد
الصــفح	حب الانتقام
الطمــوح	البــلادة

وهذه العواطف المريضة التى تضعك على طرفى نقيض مع نفسك ، ستنعكس على موقفك تجاه أى شىء آخر : والناس سراع فى الاحســـــاس بهذه العواطف ، سراع الانسحاب ، فان الحب لا يمكن أن يمد جذوره فى أرض لها مثل هذه الصفات .

فاذا كانت لك تسلطات تحزبية عن الحب ، أو الدين ، او الجنس ، أو الحياة بوجه عام ، فبادر الى استجلائها ، واحذر على أية حال أن تعلن عنها بين أصدقائك .

كانت احدى مريضاتى تعانى من مخاوف مقبضة ، وليست هذه مسألة نادرة ، فاننا جميعا نعـــانى من التسلطات الى حد ما ولكن هذه الفتاة لم تستطع أن تقاوم اندفاعها الى انباء أصدقائها من الرجال بمــا تحسه . وكانت النتيجة المحتومة أن ابعدت عن ساحتها الرجال . ولعل هذا مثل متطرف ، ولكننا جميعا نعرف التعصب الدينى ، والتعصب العنصرى ، وكل أنواع المتعصـبين فى مختلف امور الحياة .

والتعصب يضل الشخصية ويشوه معالمها . انه ييبس الحب ، فالحب يعتمد على خليط من العوامل الداخليـة

والخارجية ، والعوامل الداخلية يجب أن تسبق الاخرى ، فتعصبك وخصومتك سينفران الاصدقاء كأنما مسوا أسلاكا مكهربة !

أن الحقيقة تكمن فى المثل الذى يقول : « الحب ينبع من اسعاد الآخرين » . ان موقفك الودى مع الاخرين سيكثر من فرص ايجاد السعادة ، فانزع من نفسك كل ضروب الحقد والمقت ، شخصية كانت ، أو عقيدية أو سياسية .

٥ ــ هل انت لطيف المعشر ؟

منذ سنوات مضت دار جدل صاخب حول ما سموه « زواج المعاشرة » . لقد كانت محاولة يائسة من جانب النفوس المعذبة للبحث عن الرفيق الطيب ، وكانوا الى حد ما ، يسيرون فى طريق سليم صحيح ، فقد كانوا يعلمون أنه بغض النظر عن متعة الغرام ، فان الغبطة الناشئة من الرفقة ، وهى العامل الدائم فى الزواج ، لا تعتمد على الغرام المشبوب ، ان الرفقة الطيبة هى الزيت الذى يلين عجلة الحياة ، وبغيرها تكون الرحلة شاقة مؤلمة ، وقد تنتهى بمأساة .

وكم من مرة نسمع هذا التساؤل : « كيف اتيح لمثل هذه الارملة التى حرمت الجمال ان تظفر بزوج ثان أو ثالث ، فى حين انى انا الشابة الجميلة لم أستطع ان احصل على زوج واحد ؟ » .

والجواب على هذا اللغز المحير بسيط ، فهذه الارملة

لابد انها تحلق فن المعاشرة . انها صفة تبز كل اعتبار آخر فى الزواج بل انها تتميز على الحب . ان حسن معاشرتك معناه أنك صبور ، بعيد عن الانانية فى علاقتك بشريكك فى الحياة . ان كثيرا من الرجال والنساء يتزوجون فى ابان اتقاد شعلة العاطفة ، وهم يعلمون حق العلم ان فرص المعاشرة الطيبة ضئيلة . والصحوة من هذا الحلم غالبا ما تكون سريعة مفزعة ان ممناها قضاء عمر فى الندم والخلافات ، أو الانتهاء الى الطلاق .

ان المراة اللطيفة المعشر جوهرة فى نظر الرجال . انها تتغاضى عن الاخطاء الصغيرة ، وتمنح نفسها فى يسر دون أن تشعر أنها شهيدة أو ضحية ، لأنها تستمتع بالمنح والعطاء . انها لا تقيس الرجل بالحلى التى يعلقها على جسدها ، ولا بمقدار التأثير الذى يحدثه فى نفوس صديقاتها ، انما تقيسه بمقياس سعادتهما معا وحبهما المتبادل .

ان الحب قوة فى الاعماق ، وهو فى متناول كل انسان . وفى الحياة الصاخبة يصبح هو وحده الثروة التى لاجدال حول ملكيتنا لها ، فاذا أردت أن تحب فكن محبوبا ، أو كما قال « فيلدز » : « ان اشعة الشمس فى أعماقنا لا تبعث الدفء فى قلب صاحبها فحسب بل كذلك تبعث الدفء فى كل من يتصل بها ويقرب منها » .

رد الفعل الطبيعي والعصابي

كان من نتيجة دراستي ومحادثاتي مع الافـراد غير المتكيفين للحياة خلال الاربعة عشر عاما الماضيـة ، ان خرجت بأن الافراد الذين يعانون من الانهيارات النفسية انما ينهارون بسبب طريقتهم في رد الفعل تجـاه آلامهم او ملذاتهم .

وحين أرتد بذاكرتي الى هؤلاء المرضى ، أستطيع أن اقسمهم الى الاقسـام الآتية :

١ ـ اولئك الذين لا يستطيعون احتمال قدر معتدل من الآلام الجسمية والذهنية .

٢ ـ أولئك الذين تتسلط على أذهانهم الرغبة في معاناة الالم الشديد .

٣ ـ أولئك الذين يضحون بالملذات الطبيعية بدافـع الامتناع العصابي .

٤ ـ أولئك الذين يفرطون في الانغماس في ملذات الحياة .

انا نعيش في عالم مضطرب متناقض ، نمـر فيـه بالتجارب السارة التي تنعشنا ، والتجارب المـذلة التي تزعجنا . يقول هرقليط الفيلسوف الاغريقي في كتـابه « قانون الاضداد » :

« ان الانسان محكوم عليه بحياة حافلة بالقوى المتعارضة المتضادة . الحب والكراهية ، الحرب والسلام ، الحياة والموت، الالم واللذة . وليس فى وسعك أو فى وسعى أن نغير من هذا العالم ، وانما طريقة استجابتنا لهذه القوى هى التى تقرر هل نعيش فى اتزان أم فى غير اتزان » .

ويسأل الكثيرون : « لم يتحتم أن يكون العالم مليئا بالآلام وبضروب الشقاء الى هذا الحد ؟ ولو اننا آمنا أن الانسان يخلق لنفسه جحيمه على الارض ، فكيف اذن نستطيع أن نعلل النسبة العالية من الضحايا الابرياء للعواصف الهوج ، وللحوادث ، وللسل والسرطان ؟ »

والطب النفسانى لا يستطيع أن يجيب اجابة دقيقة عن هذا السؤال ،وكل ما أستطيع قوله أن واجبنا يحتم علينا تقبل هذا العالم على علاته ما دمنا لا نستطيع تغييره ، وان نبذل قصارى جهدنا فى استخلاص القيمة الكبرى منه . ورغم الحقيقة المثبطة ، من اننا جميعا أبناء القدر ، ومعرضون يوما بعد يوم لتهديد الموت نتيجة حادثة أو مرض ، أو أى سبب آخر ، فان هناك مجالا فسيحا لجعل الحياة أقل ايلاما وأكثر بهجة وسرورا . اننا لا نستطيع دائما التحكم فى بيئتنا ولكن كلا منا يستطيع ان يتحكم فى نفسه ، وأن يصبح « قبطان روحه » .

ولا ريب فى أنه لا يتفق مع المنطق أن يتعمد رجل التعجيل بنهايته ، ولكن الواقع العجيب أن الكثيرين يفعلون ذلك فى غباء ! فحين نرى انفسنا غير قادرين على احتمال نكبات الحياة التى لا يفلت منها احد ، نقدم فى طيش ونزق اما على ادمان الخمر ، أو المخدرات ، أو كليهما معا ،

او على المقامرة، او المغازلة ، او نلجأ الى الهروب عن طريق الامراض العصابية ، فلم ذلك ؟ لان معدل احتمال الالم عندنا اقل من الطبيعي ، ونحن نعتبر الطبيعي ماينتج عنه فى المتوسط خير النتائج .

اننا نشقى لاننا ، ببساطة نقرر اننا لا نستطيع احتمال الحياة ونأبى أن نحاول ، فاذا ماتغلبت علينا متاعبنا ، فاننا نجد اغراء قويا فى الالتجاء الى اى شيء ، حسنا كان او سيئا ، يعيننا على النسيان أو الفرار من ظروفنا السيئة .

وكثير منا يندفعون الى الانغماس فى الملذات ، على زعم ان الحياة لا تستحق منا الا أن نستخلص منها المتعة وحسب !

ودعنا نرى الآن كيف تنطبق نظريتنا عن الالم واللذة على نماذج الناس المختلفة .

ا ــ اولئك العاجزون عن احتمال القدر المعتدل من الالم الجسمانى أو الذهنى .

منذ أمد قريب تقدمت لى شابة فى السادسة والعشرين من عمرها برجاء وهى على استحياء . كانت هذه الشابة قد قضت ليلتها متوجعة من الم فى احدى اسنانها ، ولما قيل لها انه لابد من خلع هذه السن ، ترجتنى ان اصحبها الى عيادة طبيب الاسنان ، قائلة ، انها ستشعر بارتياح عظيم وهى ممسكة بيدى ! لم يكن قد سبق لها أن ذهبت الى عيادة طبيب الاسنان ، بل الواقع انها لم تقاس من أى مرض فى حياتها ، وكل الذى كانت تخشاه هو حقنة المخدر ودخول ابرة طويلة فى اللثة اللدنة ! فكلما تذكرت ذلك

كانت تنتفض فزعا وخوفا . ولم يسعنى الا اجابتها الى رجائها .

وتمت العملية قبل أن تتحقق هى من انتهائها ، واذ ذاك قالت فى دهشة :

ـ لم اكن اظن أنها ستكون بمثل هذه البساطة !

وكل اطباء الاسنان يمر بهم مرضى لا تبدر منهم بادرة أثناء عملية حفر السن لحشوها ، كما يمر بهم آخرون يفزعون فزعا هستيريا بمجرد رؤيتهم جهاز الحفر ! وقد نستطيع أن نقر فزع المريض اذا مس عرق منه ، ونعده رد فعل طبيعى ، أما شكوانا وتألمنا حين لا يوجد مبرر للشكوى والالم ، فهذا قطعا رد فعل عصابى .

وطلب العطف الزائد خلال المرض هو بلا شك عرض من اعراض عدم النضج العاطفى . وكل ممرضة تعلم الكثير عن المريض الدائم الشكوى من عدم الراحة ، المسرف فى المطالب ، الذى يلقى آلاف الاسئلة ويصر على أن يعطى مسكنا يخفف ابسط الآلام !

ان الانسان الطبيعى هو الذى يقف موقفا معقولا بازاء الالم الجسمى ، ويظهر ثقته فى طبيبه ، ويتعاون معه ، ولا يظل يبكى مما يقاسيه ، وينتظر فى صبر وجلد حتى يتلاشى مصدر المه . أما العصابى فيرتد الى الطفولة . انه يريد من يؤكد له ان ليست هناك مضاعفات ! وهو يشك فى قدرة طبيبه الفنية ، ويبدو فى مظهر الصغير كأنما لسان حاله يقول : لم يحدث لى كل هذا ؟

ان عدم القدرة على احتمال المتاعب الجسمية سواء كانت ناشئة عن الحر أو البرد ، أو الم الجوع حين يتأخر

الطعام ، او الاضطرار الى الوقوف فى « أوتوبيس » مزدحم كلها مسائل شائعة عندالعصابيين ، انهم يستيقظون صباحا مجهدين ساخطين ، ولا يذهبون لاعمالهم الا اضطرارا من أجل لقمة العيش ، ويثورون لاتفه الاسباب .

والانسان الطبيعى يتوقع المتاعب البدنية ويتقبلها فلسفيا كجزء من المعيشة اليومية ، ولكن العصابى يأبى ان يواجه الحقيقة ، ويستمتع بالاعتقاد بانه اضعف من غيره او كما قال أحدهم : « لابد انى خلقت متعبا ضجرا!» وكثيرا ما تقع المسئولية على الآباء لانهم لم يهيئوا أولادهم لحالات الالم والمرض ، لانهم من فرط حنانهم يعطفون على أطفالهم عطفا عظيما ، والنتيجة المحتومة انه حين يكبر الطفل ويترعرع فانه يظل يريد هذا القدر من العطف والرعاية من طبيبه ، وممرضته وأصدقائه ، ومن العالم الخارجى ، ويصدم صدمة كبيرة اذا خيل اليه انه أهمل .

ويختلف ما يصدر منا من رد الفعل بازاء النكبات التى تصيبنا . فهناك التى انتحرت لان حبيبها هجرها ، وهناك الذى فقد وظيفته فادمن على الخمر ، وهناك الذى تحطم بسبب سوء حالته الزوجية !

أما الشخص الطبيعى فرد فعله ناضج ، أنه متأهب للحظ السيىء ، ويتحداه فى شجاعة .

ولو أن العصابى علم نفسه كيف يكون رياضى النفس ، فتوقع خيبة الامل والفشل ، ولم يدع شيئا من هذا يؤثر على صحته ، لعرف أن الحياة يمكن أن تكون مبهجة سارة ، ولكنه كما أسلفنا يستمتع بسوء الصحة وما يتأتى فى ركابها من رعاية وعناية به !

٢ ـ اولئك الذين تتسلط عليهم الرغبة فى معاناة الالم:

حدثتنى مريضة كانت تقاسي دوارا شديدا بانهـا مسئولة عن هجر زوجها لها منذ اعوام . واعترفت لي انها كانت تعسة الى أقسى حد ، وكانت هذه التعاسة هى الضريبة التى كان عليها أن تدفعها على زلة ارتكبتها فى يوم من الايام ، وأن السبب الوحيد فى عدم زواجها مرة أخرى هو خوفها من أن ينتهى هذا الزواج بالفشل كذلك !

ولم يكن هناك ريب فى أن هذا الدوار الذى يعتريها هو وسيلتها لمعاقبة نفسها على خيانتها لزوجها .

هناك كثيرون من العصابيين يجدون بعض الراحة من أمراضهم ، لانهم يرغبون لا شعوريا فى الالم تكفيرا عن شعورهم بالذنب ، ومنهم من يتكون عنده مركب الاستشهاد . ومنهم من يشعر انه لا يستحق السعادة !

هؤلاء المرضى يبكون ويزداد اكتئابهم وألمهم الى حد الرغبة فى الموت ، ولا يدور حديثهم الا عن « خطاياهم » التى لا يمكن الصفح عنها !

ان هذه الرغبة فى معاناة الالم والعذاب هى المسئولة عن عجز الكثيرين عن استخلاص الرضا والمتعة من الحياة

٣ ـ اولئك الذين يضحون باللذات الطبيعية بدافع الامتناع العصابى :

ان كثيرا ممن يطلبون معاونة الطبيب النفسانى أشقياء لا يعرفون كيف يسترخون . انهم فى توتر دائم وقلما يسمحون لانفسهم بالاسترخاء أو بالابتسام ، ويقضون جل وقتهم مع الماضى الشقى . ولانهم اعدوا منذ طفولتهم على

لقل الشقاء ، فانهم بالفون الكف الذي يحول بينهم وبين الاستمتاع بلذات الحياة . ويدفعهم شعورهم بالنقص الاجتماعي الى الانسحاب والانزواء فلا يستطيعون ان يدركوا مبلغ اللذة التي يستطيعون استخلاصها من الحياة لو حاولوا ».

جاءني ذات يوم شاب ينشد المعونة . كان مكتئبا ، فاقد الثقة بنفسه ، يخشى أن يقدم على عمل طائش ، وقال لي :

« اني أحس بهبوط الهمة واصبحت غير قادر على انشاء صداقة مع الفتيات ، انه خطئي لاني لم أتعلم الرقص بتاتا فقد كنت في سن المراهقة عظيم الخجل والحياء والتهيب وأحسب أن بعض اللوم يقع على والدي فقد كانا يتشاجران دائما بسبب المال . لقد كنا فقراء ، وتعلمت أنا واختي أن من التبذير انفاق المال في « السينما » ، أو الحلوى ، أو المسرات الاخرى . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمري قلت لامي اني أصبحت أكره الدار واني عازم على الفرار ، كنت قد أصبحت سيء الخلق ، فقلت لها أنه خطؤها اني لم انل تعليما ، وكنت بعد ذلك اشعر باني مذنب ، فقد قام بيني وبين أمي نزاع وخلاف . وأنا الآن احاول أن اصلح هذا الخطأ بالتضحية بمسراتي في سبيل ارسال بعض المال اليها بانتظام . انها تكتب لي وتقول انها غير راغبة في مالي ، ولكني اذا لم أرسل اليها المال فاني افضل ايداعه في « البنك » ولا انفقه في مسراتي . وما تمتعت يوما بحفلة ذهبت اليها ، فاني ممنوع من امتاع نفسي . وانا الآن اعيش في غرفة مظلمة ، واحيا حياة موحشة . »

وتنطبق قصة هذا الفتى على الكثيرين الذين ينشئون فى بيوت تقيد المسرات بقيود شديدة ، لقد هيئوا الحياة « كلها عمل ولا لهو فيها » فهم لا يستطيعون الخروج عن هذا القاعدة .

٤ ـ أولئك الذين ينغمسون فى ملذات الحياة :

وعلى النقيض من الفئة السابقة هناك الذين يعيشون للهو فقط . انهم لا يعرفون الاعتدال ، ينغمسون الى آذانهم فى كل ماهو سار ممنوع ، فاذا ربحوا يوما فى السباق فانهم يستمرون فى المقامرة حتى تلحقهم الخسارة، وهم فى النوادى الليلية لايكفون عن الشراب ، ولا يكفون عن الطعام الشهى غير عابئين بالبدانة ، وهم لا يرعون حرمة صديق فتدفعهم انانيتهم الى مغازلة زوجته .

والقاعدة ان امثال هؤلاء الناس الذين يلتمسون لانفسهم عذرا من عدم قدرتهم على التشبث بعمل كريم ، والذين يقتلون وقتهم فى البحث عن الملذات ، يقاسون من خيبة مرة عميقة الجذور ، فهم اما انهم افسدوا بحنان امهاتهم وتدليلهن لهم والاسراع بتلبية طلباتهم ، أو على نقيض ذلك حرموا العطف واللهو فى طفولتهم فراحوا يعوضون ما فاتهم .

وقد اكتشف الاطباء النفسانيون ان أغلب هؤلاء المرضى يعانون « مركب الام » ، فهم يغازلون هذه المرأة ثم تلك بحثا عن بديل من أمهاتهم .

وهاكم قصة ستانلى : لقد نشأ فى دار ملؤها الشقاء . كان ابوه مستبدا ، شرس الطبع ، وكانت أمه عديمة الكياسة واللباقة ، تنفجر غاضبة لابسط الامور ، وتكثر

من النقد اللاذع ، فاصبحت الحياة فى هذه الدار لاتطاق.
فلما بلغ السادسة عشرة من عمره هرب من المنزل ولم يعد اليه . وبعد الانتهاءمن فترة التجنيد حصل على عمل وتزوج واستقر ، على أنه من سوء حظه أن اشتبكت زوجته فى علاقة مع رجل آخر ، فانتهى الزواج بالطلاق واصبح ستانلى يقضى وقته فى مطاردة النساء ، واحتساء الخمر والمقامرة ، ويسهر الى ساعة متأخرة من الليل ويقول انه سيأخذ حظه من المسرات قبل أن يموت !

ولقد ذهب منذ شهر الى طبيب يشكو من الارق فقيل له أن « أعصابه » هى السبب وأن أسلوبه فى الحياة هو العلة . وقد تبينت أن شعوره بالذنب هو الذى يسهده، فلما كف عن الانغماس فى كل تلك الشهوات ، وتهيأ لعمل جدى فى الحياة زايله الارق ، وشفى منه .

فاذا نشدت حياة متزنة فراجع كل يوم رد فعلك بازاء الالام والمسرات ، ولا تخلد الى السكون ولا تدع الامور رهنا بالاقدار ونظم حياتك وتفكيرك .

تغلب على سوء الهضم العصبي

دعاني ذات يوم صديق لتناول العشاء معه ، وكانت المائدة حافلة بالاطعمة التي أعدتها زوجته ، ولما جاملت مضيفتي بالثناء ، قال زوجها :

ــ انا أعلم اني سعيد الحظ اذ تزوجت هذه الطاهية البارعة ، ولكن يظهر اني لا استطيع أن أقدر الطعام الجيد فبعد ساعة من تناول الطعام ، أبدأ في معاناة سوء الهضم فأحس بتقلصات في معدتي ، وبدوار ، وغازات ،وحرقان في القلب .

فثار فضولي وسألته هل عرض نفسه على طبيب ، فقال :

ــ لقد فعل الأطباء معي كل شيء . صوروا الجهاز الهضمي كله ، وفحصوا معدتي بالمنظار ، وحللوا عصارة المعدة ، ولست ادري لم فعلوا ذلك ؟ . ولقد تم ذلك في عيادة طبية شهيرة ، ثم قرر الأطباء اخيرا أنهم عجزوا عن ان يجدوا بي مرضا عضويا ، فلابد أني مريض بشيء قالوا عنه أنه « سوء هضم عصبي » ، ويظهر أني مهما أتناول من الأدوية فلن أنال الراحة .

ورغبة مني في الا اقضي كل الامسية في مناقشة

شكواه ، فقد طلبت منه أن يمر على فى العيادة فى صباح اليوم التالى . ولشد ما كانت دهشتى حين اكتشفت فى اليوم التالى انه كان شقيا فى زواجه ! كانت زوجته شديدة الانطواء على نفسها ، لا تختلط بأحد ، كما كانت ميـالة الى اثارة الموضوعات التعسة ساعة تناول الطعام ، فهى مثلا لا تكف عن تذكيره بفواتير الحساب التى يجب أن يدفعها ، واحتمال أن يفقدا منزلهما ، اذا عجزا عن تسديد هذه الديون !

ولما وقفت على هذا ، اتفقت معه على أن أتحدث الى زوجته . وفى خلال حديثى معها أعطيتها تعليمات مشددة بالا تتباحث معه فى المسائل المالية ، أو فى أى شىء لا يسر وقت تناول الطعام ، وقد تعاونت معى الزوجة تعاونا صادقا ، وبذلت مجهودا مخلصا ، فكفت عن هذه الاحاديث غير السارة ، وبدأت تظهر بمظهر أشد مرحا ، وتدعو الاصدقاء الملائمين الحين بعد الحين للعشاء ، واكثرت من بذل العطف والحنان لزوجها .

وكانت النتائج مذهلة سريعة ، فما انقضى شهر حتى بدأ صديقى يحدثنى عن التغيير الذى طرأ على شهيته ، فاصبح لا يخشى تناول الاطعمة التى كانت من قبل تزعجه وتتعبه وكف منذ ذلك الحين عن الاعتراض على وجود العلاقة بين سوء الهضم الذى كان يشكوه وبين علاقته بزوجته . ولقد اتصلت مع هذين الزوجين بالمراسلة خلال السنوات السبع الاخيرة ، وانه ليسرنى أن الزوج لم يعد يشكو البتة من أى اضطراب فى معدته خلال تلك المدة .

ومن هذا نرى أن عملية الهضم ذات علاقة وثيقة بالحالة

الذهنية والبدنية معا ، ففي حياة كل انسان تقع حوادث، بعضها ملائم ، وبعضها غير ملائم ، وكلها ذات تأثير في معدتنا وامعائنا ، وطالما نسمع تعبيرات كهذه : « لقد أسقمني قوله وقلب معدتي » أو « لقد فزعت حتى أصبت باسهال » أو « ان التفكير في ذلك يثير الغثيان » الخ ؛ ومعنى ذلك أن على المعدة ينعكس ما نحسه من عواطف .

والغاية من هذا البحث هي التدليل على أن ضروب الصراع يمكن أن تتسبب في الأضطرابات الهضمية،ولدينا اليوم أدلة كثيرة على أن من بين العصابيين من تتضح فيهم العلاقة الوثيقة بين العقد والمعدة . فمثلا اكتشف أحد البحاثة أن المشكلات العاطفية وراء ثلثي حالات المرض التي تفد الى المستشفى الخاص بالاضطرابات الهضمية . ولقد درس ولبار وميلز تقارير عن ٣٥٤ مريضا أجري فحصهم في مستشفى مايو ، وشخص مرضهم بأنه « سوء هضم عصبي » ثم تم فحصهم مرة ثانية في المستشفى بعد سبع سنوات ، فاتضح انه في ٣٠٢ حالات لم يعثر على دليل ما على مرض عضوي !

ويجب الا ننسى ان العصابيين أفراد يعبرون عن شقائهم وتعاستهم أو عن صراعاتهم بلغة الامراض البدنية،فبعضهم تنشأ عنده حالات جلدية عصبية ، والبعض الآخر يسيل عرقه بغزارة ، وخاصة في راحة الكفين ، وهناك من يشكو من الربو الناشيء عن أسباب ذهنية ، وكثيرون يشكون من كثرة التبول . ويحدث التوتر في بعض الافراد صداعا كالصداع النصفي . هذا الى الغثيان ، وفقدان الشهية ، والاسهال ، وآلام الغازات ، وحرقان القلب ،

كل ذلك يدل على ردود الافعال الناشئة عن الحياة الشقية !!

ومازلت اذكر حالة امراة شابة غير متزوجة تبلغ الخامسة والثلاثين من عمرها ، كانت تشكو من فقدان الشهية منذ فترة المراهقة . ثم اتضح ان امها كانت تخص بالحنو ابنيها دونها ، فشبت الابنة متمردة ، واتخذت موقفا سلبيا طوال عهد المراهقة . كانت تحس أنها غير محبوبة . والتعاسة العصابية سبب شائع لسوء الهضم ، والقاعدة أن السعداء ذوو شهية قوية للطعام .

١ ـ تجنب الافراط في الطعام :

مامن احد كان يحسد المهاتما غاندى على نحافته ولا المرحوم المارشال جورنج النازى على كرشه وبدانته ! وخير الامور ولاشك هو التوسط بينهما . وفى وسعك ان تصيب الرشاقة مع الاعتدال فى الحياة وفى الطعام : فان الافراط فى الطعام يولد التخمة والتبلد الذهنى !

وينصح الطبيب المشهور وليم اوسلر ، الرجل الذى تجاوز الخمسين بأن يعتدل فى طعامه ، وان يأكل اقل مما يشتهى ، وان يحد من شهيته مرة كل سبع سنوات ، حتى يغادر الحياة كما دخلها على طعام الطفل الرضيع !

والعادة أن الرجل العادى حين يبلغ منتصف العمر ، يصبح ميالا الى الشراهة فى تناول الاطعمة ، فياكل منها اكثر مما يستطيع الجسم الافادة منه . وقد استغلت الزوجات ما فى أزواجهن من ضعف فى هذه الناحية ،

مدفوعات بالايحاء النفسى القائل ان « الطريق الى قلب الرجل هو معدته » .

والبدانة تهيىء الانسان لحالات مرضية كثيرة مثل قرحة المعدة ، وتصلب الشرايين ، واوجاع القلب ، وسوء الهضم ، فلم اذن يتعمد الكثيرون منا الاكثار من الاكل ؟ ذلك لان عادة الاكل الى حد الافراط تكون مصحوبة بصراع ذهنى عميق .

٢ ـ دع القلق

كم حالة افترض فيها سوء الهضم ، وكان أساسها القلق أو الانزعاج بلا داع ! ولنضرب مثلا لذلك رجلا أدرج اسمه ضمن الخطباء فى احدى الحفلات . انه خليق عندئذ بأن يصبح فى حالة عصبية ، فاذا جلس الى المائدة وقدم اليه الطعام فانه يتناول منه نصيبا ، ثم يعانى من سوء الهضم ، وسوف ينحو باللائمة عندئذ على الطعام الذى قد لا يكون له اى دخل فى اضطرابه ، وانما مبعث الاضطراب هو القلق الذى كان يعانيه استعدادا لالقاء خطابه ! فاذا كنت تحمل فى جعبتك طائفة من انواع القلق فخلفها وراءك حين تدخل غرفة المائدة .

وقد يسبب الخوف أو الغضب أو الشعور بالذنب سوء الهضم ، فتأكد أولا انك لا تعاقب نفسك سرا على ذنب خفى ارتكبته ، وانك لا تنزل هذا العقاب بمعدتك . فان من الواجب حين تتناول الطعام أن تسمح للعقل بالاسترخاء ، وبالتحرر من كل ما يبعث على الضيق

والقلق . ويجب أن تتجنب الجدال والحديث فيما لا يسر أثناء تناول الطعام ، فان مثل هذه المناقشات كفيلة أن تبعث على القلق والانزعاج وهذه بدورها تحدث سـوء الهضم . لا تتحدث فى مشاكل العمل وانت تتناول طعام الافطار ، بل عليك أن تغذى عقلك بالامور السارة المهمة .

٣ ـ خذ فسحة كافية من الوقت عند تناول الطعام :

كل فى بطء ، فان الاسراع يضعف من عمل أعضـاء الهضم .ان الهنود لا يفكرون قط فى تناول الاشربة المشهية قبل الطعام وبعده . ولا أن يلتهموا بعض الطعام بطريقـة آلية عاجلة ، ولا أن يرووا ظماهم بالجعة فى مشرب . ان النظام العصرى لحياتنا القلقة قد عجل حـركة البناء الداخلى للجسم ، وبالتالى غير من عاداتنا فى تناول الطعام الى حد أن آلافا منا أصبحوا يعانون من « المعـدى الصبية » . وعلى ذلك فما أصدق قول القائل : « انك تحفر قبرك بأسنانك ! » .

٤ ـ قلل من ارهاف حساسيتك :

ان سوء الهضم العصبى ليس أكثر من رد فعل شخصى لموقف غير سار ، ومن المستطاع تجنبه عن طريق مراعاة قليل من أسباب الصحة العقلية . والامر بحاجة الى قليل من التحليل الذاتى لتعديل الاستجابة المألوفة لمـواقف الفشل والاخفاق . وانه لاكثر من مجرد مصادفة أن تجد الشخص المرهف الحساسية ذو معدة مرهفة الحساسية . ولقد اكتشف الدكتور « أوستن فوكس ريجز » ان الاطفال

المرهفى الحس والعاطفة لا يقتصرون على الافراط فى البكاء وحسب ، بل انهم يقاسون كذلك من اضطرابات هضمية ، وقد يفقدون شهيتهم ، وتضطرب امعاؤهم ، بل قد يكون رد الفعل العاطفى منهم للمواقف المؤلمة أن يفرغوا ما بأجوافهم !

قصت على مريضة كيف ان ابنتها البالغة من العمر سبعة أعوام تستطيع أن تفرغ ما بجوفها بارادتها كلما تركتها امها فى عناية الخادمة ! فكأن القىء رمز لشعورها بانعدام الامن . وكان غلام صغير يشكو من شعوره بالمرض كلما ركب السيارة ويتقيأ الطعام الذى تناوله كلما صحبه والداه فى رحلة طويلة بالسيارة ، وقد اتضح أن اباه يؤثر اخاه عليه ، فاستعاض الغلام عن فشله فى الظفر بعناية اكبر من والده عن طريق مرضه ، ولما صحح الوالد الوضع وشرح للغلام انه مفرط فى حساسيته ، وأن عليه الا يغار من أخيه الاكبر ، اختفت هذه الاعراض .

فاذا اردت أن تتحكم فى معدتك ، فتعلم اولا أن تتحكم فى عقلك ، وتجنب الصراع العاطفى ، ان الاطمئنان النفسى وسيلتك الى الصحة الطيبة . وبيكربونات الصودا لايمكن أن تشفى من سوء الهضم العقلى !

٥ ــ لا تجعل معدتك ضحية الولع بالطعام :

ان لكل منا مزاجه الخاص فى الطعام ، ونحن جميعا نختلف فى احتياجاتنا ، فالغذاء قطعا مسالة شخصية بحتة ، وفى حالة قرحة المعدة او الامعاء قد يصبح ضرب

خاص من الطعام ضرورة لازمة ، ولكن الكثيرين منا يضللهم الولع بالطعام . انك لا تستطيع أن تسوق السيارة وانت تدرس خريطة الطرق فى الوقت نفسه ، وكـــذلك إنت لا تستطيع ان تسير فى حياتك العادية جاعلا القيادة لقائمة الطعام ، فلماذا تجعل معدتك حقلا لتجربة اشكال الطعام المختلفة ؟

ان النباتيين يحاجون فى صلاحية اكل اللحوم ، ومع ذلك فانه تأتى احايين يعيش فيها الناس مددا طويلة على غذاء من اللحوم كليا أو جزئيا ، دون ان تتأثر صـــحتهم وليس هناك دليل يمكن الاعتماد عليه لتفضيل الغـــذاء النباتى على اللحوم . ولا ريب ان اللحوم غذاء شهى يمدنا بكثير من العناصر التى نحتاج اليها فى أشكال متوافـــرة مريحة ممثلة .

وللناس آراء وهمية فى الاطعمة ، وكاغلب الآراء الكثيرة المتداولة بين الناس ، لا يستند الكثير منها الى اساس من الواقع ، فنبات السبانخ مثلا ارتفع الى السماء فى التقدير العام . ولا ريب انه يحتوى على بعض الصفات الجيدة ، ولكنه لا يستحق كل هذه الاناشيد التى رتلت فى مديحه! فاذا كنت تحب نبات السبانخ فكل بلا تردد ، ولـكن لا تعاقب نفسك لا لشىء الا لانك تعتقد أن هذه المـادة « مفيدة لك » !

ولست بهذا استخلص ان مسالة الغذاء لا قيمة لها ، وان لك أن تتناول من الاغذية اى نوع منها يروق لك وباية كمية ؛ بل الامر على نقيض ذلك ، فان لموضوع الغـذاء اهمية مقررة ، ولكنه يجب أن يكون غذاء قيما معقولا مكونا من أطعمة سهلة ، صحية مغذية . وحذار أن تكون من السذاجة الى حد أن تأخذ وصفة غذائية من جار أو قريب

او من اعلانات الصحف !

فاذا كانت صحتك جيدة ، وكان وزنك طبيعيا ، فلا انت بدين جدا ، ولا نحيف مفرط النحافة ، فان الغذاء الذى تتناوله عادة يكون صالحا لك الى حد كبير .

٦ ـ عود نفسك الاسترخاء :

ان التوترات التى تتراكم طوال اليوم كفيلة بأن تؤثر فى حالة الهضم ، فعليك أن تكف عن الاثارة الشديدة ، وابطىء قليلا فى حياتك ، فان العمل والاسترواح يجب أن يتناوبا تناوبا سليما . والتذمر والسخط والاستياء قادرة على أن تجعل الطعام اقل اثارة للشهية وبالتالى أقل قابلية للهضم فمن واجبك ومن فائدتك أن تبحث عن السعادة على الرغم من العقبات التى يصنعها القدر فى طريقك . يجب أن تخلق لنفسك اهتمامات خارج نطاق عملك ، وستذهل حين ترى الاثر البالغ الذى تجنيه ، ومبلغ الحماسة التى تضفيها على عملك !

لى صديق تمتلىء صيدليته بالادوية ، فانه يشكو من معدته ، وهو يقضى كل وقته فى العمل ولا يفرغ حتى لملاعبة طفله . انه لم يتعلم كيف يستمتع بما لديه ، فهو دائما مشغول الذهن بالخطط والمشروعات التى ترمى الى تحقيق أهداف بعيدة . فلا عجب اذا شعر بالشقاء والتعاسة أغلب وقته . ان المعدة المهتاجة هى غالبا نتيجة لعقل قلق .

لماذا لا تبرم عقدا جديدا مع الحياة ، فتدرأ عن عقلك القلق والتعاسة والاضطراب ؟ ولسوف تبرأ عندئذ من أهم مقومات سوء الهضم العصبى !

التحليل النفسي عن طريق تفسير الأحلام

« نبئني بأحلامك أنبئك بمستقبلك » هكذا قال الانبياء من قبل .

أما المحللون النفسيون فيقولون اليوم : « أخبرنا بأحلامك نشخص لك متاعبك » فهل هذا ممكن ؟ بالتأكيد، اذا استطاع الانسان أن يفهم التفسير الصحيح للحلم . فان ما يشتمل عليه الحلم له قيمة علمية ، وقد اكتشف علم النفس أن الاحلام يمكنها أن تكشف عن الصراعات العاطفية المسئولة عن الامراض النفسية والعقلية .

ان الاحلام تكشف الستار عن رغباتنا ومخاوفنا ، وحبنا وكراهيتنا ، وهى تميط اللثام عن أعمق مشاعرنا ، لان النفس الحقيقية تطفو على السطح حين نحلم .

و « اذا أردت أن تستشف طباع انسان فدعه يسكر ، واصغ فى عناية ودقة لما يقوله ، ولاحظ سلوكه » . هذه ملاحظة سيكولوجية تنطوى على بعض الحقيقة ، فكل انسان يتفاوت رد فعله تحت تأثير الخمر ، فالبعض يضحك ويقوم بأعمال سخيفة ، والبعض يبكي ويسلك مسلك الاطفال ، وآخرون يسلكون مسلك العنف والشراسة ومن الناس من ينطلق فى الحديث « الطراز المعترف »

وينبئك بأشياء اعتاد أن يحتفظ بمثلها لنفسه . فالخمر تطلق الافراد من قيود الكبت والكتمان وتحرر الرغبات التي ظلت مكبوتة زمنا طويلا فيعبر المرء عن شخصيته الداخلية .

والنوم يؤدى المهمة نفسها . ففي أعماق كل منا شخصيتان ــ تماما كشخصيتى الدكتور جيكل ومستر هايد ــ وفى أثناء النوم تنام شخصيتنا الواعية ، ولكن اللاشعور ينشط الى العمل ، كما لو كان ليحقق المثل الدارج المألوف . « اذا غاب القط لعب الفار » ، فيجرى الخيال منطلقا فى غير تحفظ . متحررا من اعتباراتنا « الواعية » وما درجنا عليه من عزف وتقليد ، وما أخذنا به رغباتنا وميولنا من تهذيب . فاذا حلمنا ، فان نفوسنا الباطنة تكون قد انطلقت من كل قيد ، لتمنحنا الفرصة لاشباع الاهواء التى نكبتها فى يقظتنا .

فالحلم اذن مرآة لحياة الحالم العاطفية ، وأحلامنا تختلف بقدر اختلاف طباعنا وشخصياتنا الحقيقية .

وعسى أن تقول : « ولكنى لا أحلم بتاتا » غير انه من المستحيل ان ينام المرء دون أن يحلم ، كما انه من المستحيل أن ينام دون أن يتنفس ، فالعقل نشط دائما ، وكل ما هنالك انك حلمت ثم نسيت الحلم . فما العلة فى اننا لا نتذكر بعض أحلامنا ؟ الدافع اننا نخاف أحيانا أن نتذكر أحلامنا . فاذا كانت الاحلام رهيبة جدا ، فان الطبيعة المركبة فينا تهب لانقاذنا ، وسرعان ماينمحى الحلم !

فلم اذن نحاول تذكرها ؟ ولم نتعمد نبش العش ؟ لاننا فى تحليلنا لاحلامنا نكون أقدر على تقدير عوامل اللاشعور التى تقلق حياتنا . انها تلك العوامل التى كثيرا

ماتلقى الضوء على أسباب شقائنا وفشلنا .

وفى استطاعتك ترويض نفسك على تذكر احلامك . جرب هذه التجربة : اذهب الى فراشك وانت عازم على أن تحلم ، وحين تغفو عيناك ، دع عقلك يشرد واجعل الى جانب فراشك قلما وورقة ، فاذا استيقظت فى منتصف الليل ، أو فى باكورة الصباح على اثر حلم . فاضىء الغرفة وسجل الحلم ، ثم عد الى نومك مرة ثانية .

اما اذا لم تستيقظ خلال الليل فسل نفسك عن احلامك قبل أن تبارح فراشك « ماذا حلمت ؟ » انك فى الدقائق الاولى التى تعقب اليقظة تكون أقدر على تذكر الحلم ، فاذا فشلت مرة ومرات فلا تيأس ، وعاود التجربة ، وأنا واثق انك فى النهاية ستكون قادرا على تذكر احلامك ، وداوم على ذلك حتى تستطيع أن تجمع مابين ٢٥ و ٥٠ حلما مدونة ، وعليك بعد ذلك أن تطالعها وأن تدرسها فى عناية وأن تقدر حسب ما سنرشدك اليه من ترجمة الاحلام مدلولاتها .

واول شيء يجب أن تعرفه أن الحلم ليس ظاهرة لامعنى لها ولا فكرة من ورائها ، وقد يبدو لك أنه لا رابطة بين الحلم وبينك ، ولا توافق بين أجزائه ، ولكنه فى الواقع جزء من العمل المركب للعقل .

والامر الثانى الذى يجب أن تتذكره هو أن الاحلام لها عدد من الاهداف المحددة فى مقدمتها اشباع الرغبة .

ولنضرب مثلا برجل يدعى « جون سميث » . انه رجل عادى ، لا يملك القدرة على تحسين مركزه ، وليس لديه من الحيوية والنشاط ما يمكنه من استغلال قدراته . وهو يعيش فى بلد صغير لا يزيد عدد سكانه على ١٠٫٠٠٠ نفس

وهو يتطلع فى حسرة الى عمدة هذا البلد ، غير أنه يعلم انه ليست لديه اية فرصة لكى يصبح عمدة . ماكاد الليل يرخى سدوله ذات ليلة ، وتغمض عيناه ، حتى تلاشت الحقيقة المرة ، وازال النوم العقبات بقوة سحرية ، ورأى جون سميث نفسه فى المنام وقد انتخب عمدة للبلدة بأغلبية ساحقة ، واقبل الناس من كل فج عميق يزجون اليه التهنئة !

ولم يمكث هذا الحلم طويلا ، بل الواقع انه استغرق لحظة خاطفة ، ولكنه أحدث اثرا عجيبا فى نفس جون سميث ، فقد استيقظ فى الصباح وروحه المعنوية عالية . فقد كان عمدة ولو فى المنام ! فهذا الحلم قد اشبع رغبة يتعذر تحقيقها فى الحقيقة .

وكل منا تتراءى له فى المنام أحلام لرغبات يتمناها ، وهى ذات اثر حميد فى نفوسنا ، اذ يجعل الحياة جديرة بأن نحياها . فان الذى يهمنا ليس حقيقة الحياة الصلدة فحسب ، بل الاشباع العاطفى كذلك ، وهو أمر نستخلصه من الخيالات والاحلام ، أكثر مما نستخلصه من الحياة الحقة !

وكم من رجل يدين بنجاحه الى الاحلام . فان الاحلام التى تحقق الرغبات يمكن أن تكون وحيا والهاما ، ومع ذلك ففيها يكمن الخطر . فان بعضنا قد يفرطون فى تعويض شعورهم بالنقص ، بأن يتخيلوا انفسهم فى الذروة ويحلمون بأهداف لايمكن تحقيقها ، ويختصرون بذلك الطريق الى النجاح . اما فى الحقيقة فهم يخافون ان يتحدوا العقبات التى تقف فى طريقهم والواقع ان خمولهم يبلغ حدا لا يسمح بتحقيق هذه الاحلام .

واسوا من هذا ان نظن أن العالم ضدنا ، ونابى أن نتبين حقيقة قدراتنا . فما نحاول يوما أن نقدر أنفسنا التقدير الصحيح ، بل ننفر من هذا العمل الذى نراه مضنيا ، ونابى أن نواجه الحقيقة الواقعة ، وهى أنه يجب ان يكون لنا موقف جديد بازاء ظروفنا ، وعملنا ، وانفسنا .

فأنت اذن لا تستطيع أن تدير ظهرك للحقيقة ،وتتوقع أن تتحقق رغباتك فى الاحلام . والواقع أن السبيل الوحيد لتحقيق هذه الاحلام هو مواجهة الحقيقة وادارة الظهر للاوهام . ان الاوهام كاللص ، تسرقنا الحيوية والنشاط وتسلبنا الثقة بالنفس .

وثمة وظيفة اخرى للاحلام تلك هى النكوص . فاذا كانت الحياة فى هذه المرحلة التى بلغناها ، على غير ماتحب، فان الاحلام تتيح لنا فرصة عجيبة للارتداد الى أسعد لحظات الطفولة غير المسئولة ! تلك الطفولة التى ينعم فيها الانسان بخلو البال ، وعدم الاكتراث بشىء الى جانب مايناله من عطف الوالدين . ولا تحسب أن النكوص الى الماضى مقصور على العصابيين ، فمن المشكوك فيه كثيرا أن يكون هناك انسان لم ير فى منامه حلما للنكوص .

وكلمة تحذير يجب أن تقال ايضا فى هذه الحالة : اذا كثرت مثل هذه الاحلام ، فمعنى هذا انك ترتد الى الماضى اكثر مما يجب . والانسان عليه أن يحيا لحاضره ومستقبله فاننا لا نستطيع أن نعيد حياة الأمس ، بل علينا أن نهتم باليوم والغد .

ووظيفة ثالثة للاحلام هى اطلاق سراح المحظورات والممنوعات فثمة اهواء وعواطف بدائية تعتمل داخل انفسنا نود أن نطلق لها العنان ، ولكن « الضمير » يقف حائلا دون ذلك .

ونضرب مثلا برجل اسمه وليم جونز . انه رجل متزوج وله اولاد ، وهو عضو محترم فى المجتمع ، ولا يمكن أن تحكم عليه من مظهره الا انه رجل سعيد ، بل موفور السعادة ، ولكنه فى واقع الامر شقى تعس . ان المغامرة الغرامية التي أدت الى زواجه قد انطفأت جذورها منذ أمد طويل ، والحبيبة التى هام بحبها قد أصبحت زوجة عادية لا تثيره البتة ، فى حين أن قلبه لا ينفك يتشوق الى الحب والغرام . ولكنه رجل مستقيم حاد كالسيف، وقلما يلقى نظرة على امرأة أخرى ، لانه يرى انه يرتكب بذلك ذنبا . فاذا جن الليل وأغفى الوعى ، انطلقت عواطفه المحظورة من سجنها وراح عقله يشرد فى كل اتجاه ، وطفق يتخيل نفسه فى مواقف تترامى فيها عليه ، لا امرأة واحدة ، بل نساء عديدات يتمنين نظرة منه !

ولا لوم عليه ولا تثريب فى هذه الاوهام ، فان زوجته باردة فى علاقاتها الزوجية . ولهذا فان اتصالاته بها قليلة ونادرة .

ومن المرجح أن زوجته مثله ترى مثل هذه الاوهام وتتخيل أمثالها !

وتحذيرنا لمثل ذلك الرجل وتلك المرأة ان عليهما ان يتيقظا لما فى الحياة من امكانيات ، وأنه لامتع للنفس وأصح للجسم أن نبحث عن الحب فى الحياة الحقيقية بدلا من الخيال .

وقد يحقد موظف على رئيسه لانه عنفه تعنيفا مؤلما لم يستطع له ردا خوفا على رزقه ، ومثل هذا الحقد لابد له من متنفس ، فهو اما أن يرى فى الحلم أن رئيسه قد قتل ، واما أن يرى نفسه وقد نصب مكان الرئيس فثار لنفسه منه !

وتحذيرنا من مثل هذه الاحلام انها تدل على ميـــول عدوانية يجب الحذر منها ، وخاصة اذا اتجهت نحـــو اشخاص معينين .

وما شأن الاحلام التى تتكرر ؟ من الناس من يحـلم بصفة مستمرة انه وقع وسقط . ان الحلم الذى يتكرر على مر الاعوام لدليل على وجود جذور صراع نفسى دفينة ومثل هذا الصراع قادر على تغيير شخصيتنا تمامـا . فالانسان الذى يحلم دائما بالاجتماعات المتكررة مـــع اشخاص مشهورين ، أو باكتشاف دواء للجنـــون أو السرطان او بالظفر بثروة كبيرة ، انما يعوض مركب نقص عميق الجذور .

هذه اذن الخطوط العريضة لاحلامنا : اشباع الرغبات النكوص ، اطلاق المحظورات ، الاحلام المتكررة ، وقلمـا تجد حلما لا يدخل ضمن هذا الاطار .

ولا تدجيل ولا شعوذة فى تفسير الاحلام ، وانه لعمل يغرى المنطق والذكاء . وما عليك الا أن تنظر الى الحلم كانه لغز عليك أن تحله ، وأن تعمل على تنسيق أجـزائه بعضها ببعض فتتكشف لك حقيقته . وقد تفتح هـذه الصورة عينيك فتقدر نفسك تقديرا جديدا ، وتتسـلط أضواء جديدة على مواضع الضعف فى نفسك ،وعـلى عواطفك التى كانت غامضة عليك ، والتى تسـبب لك الشعور بالشقاء والتعاسة والاحساس بالذنب .

اعرف نفسك . فاذا استطعت ،فانك تسير الى عـالم احلامك فى غير خوف ، وفى هدوء ، وتاخذ منها العبرة والثمرة .

مدلولات الاحلام

انواع الاحلام	مدلولاتها
١ ـ احلام الحصـــول على الثروة .	تعويض عن الفقر أو الضــائقة المالية
٢ ـ احلام الغرام	الظمأ الى الحب
٣ ـ احلام السقوط	الخوف من الامتثـــال لشيء لا يرضى عنـــه المجتمع ، أو لا يرضى عنه الضمير
٤ ـ احلام الحديث مع قريب ميت	الرغبة فى انكار موته ، اوالرغبة فى الانضمام اليه
٥ ـ الاحلام التى ترى فيها أنك سرقت .	الخوف من عدم الاستقرار
٦ ـ احــــلام الطفولة « للكبار »	الرغبة فى الرجوع الى الشباب ـ الخوف المقنع من الشيخوخة والموت المقترب
٧ ـ الاحلام التى تظهر فيهــا الحيوانات المتوحشة فى حالة هجوم « للنساء »	الخوف من الاعتداء الجنسى
٨ ـ احلام القتـــل فى حـــادثة أو الموت	الاحساس بالذنب « الحاجةالى العقاب . رغبة انتحارية مقنعة »

نتيجة مرض .	
٩ ـ احـــلام الحريق « والاحتراق »	شهوة مصحوبة بخـوف مـن الاغراء
١٠ ـ احلام الاتصـــال الوثيق بأناس بارزين	تعويض عن الشـــعور بالنقص الاجتماعى
١١ ـ احلام الظلام ، أو الدفن حيـــا أو الجنازات	الخوف من الموت
١٢ ـ أحلام التردد	فقدان الثقة والخـوف مـن المستقبل
١٣ ـ احلام النجـــاح والشهرة	مركب نقص
١٤ ـ احـلام السياحة والرحلات	الرغبة فى الفرار من الحقيقة
١٥ ـ أحلام التأخر دائما وعـدم اللحـاق بالقطـــارات أو السيارات أو التأخر عن المواعيد (للنساء)	البرود الجنسى
١٦ ـ احلام الفشـــل أو الافلاس « لمتوسطى العمر من الرجال »	رغبة الموت المقنعة والموجهـــة لذلك الشخص
١٧ ـ احلام العرى أو شبه العـــرى فى المجتمع .	الرغبة فى اطلاق ما منع أدبيا

١٨ ـ احلام التهديد أو وجود الانسان فى موقف خطير .	الخوف من كارثة وشيكة الوقوع
١٩ ـ احلام السرقة ،او مخالفة القانون ،او الاعتداء .	ميول عدوانية مكبوتة
٢٠ ـ احلام الاضرار بانسان نحبه .	شعور بموقف «حب ـ كراهية» نحو ذلك الشخص
٢١ ـ احلام السرور والاحتفالات واللهو	شقاء مكبوت « رغبة فى الهروب من بيئة تعسة »
٢٢ ـ احلام النشاط الجنسى المتعدد	تفكير فى رغبة « كبت جنسى »
٢٣ ـ احلام السجن او النضال للفرار	صراع « خوف الهزيمة من اليأس ومن الاخفاق »
٢٤ ـ احلام الجنون	الخوف من عمل شىء لا يكون المرء مسئولا عنه من الوجهة العقلية

الإصابات النفسية

كنت منطلقا بسيارتي ذات يوم واذا بحادثة تعترض طريقي . وكانت سيارة تاكسي قد صدمت سيدة مسنة ، ورأى رجل البوليس شارة الطبيب على سيارتي ، فدعاني الى أن ألقى نظرة على المصابة . ولما اقتربت من السيدة المصابة كانت جموع غفيرة قد التفت حولها ، وكان بعض القريبين منها يبذلون بعض الجهود الرحيمة في اسعاف هذه السيدة ، غير أن واحدا صاح فيهم قائلا ، انه يجب الا تمس حتى ترسل المحفة لنقلها ، فقد يضرها النقل دون ان نعرف ، وأنه يجب ان تتولى أمرها أيد طبية . وقد تبينت ان الاسعافات الاولية التى نالتها هذه السيدة ممن كانوا حولها سببا في انقاذ حياتها .

وبعد أن قدمت ما استطعت من المساعدة وسرت في طريقي رحت افكر في مرضاى الكثيرين الذين يعانون من اصابات نفسية دون ان يتقدم احد لمعونتهم .

فما هي الاضرار النفسية ، وما هي الاسعافات الاولية التي يستطيع الانسان تقديمها ؟

ان العقل يمكن أن يصاب بالضرر كالجسم تماما ، فهناك الحادثة السيكولوجية التي يمكن أن تخلف وراها

جرحا يؤثر في سعادة الانسان المستقبلة ، ويطلق الاطباء النفسيون على مثل هذا ـ هذه الاصابات السيكولوجية ـ اسم « الصدمات النفسية » ومن مثلتها تلك الفتاة التى تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، والتى اعتدى عليها زوج أختها السكير ، فعانت من هذه الحادثة « صدمة نفسية » نشأ عنها موقف عصابى نحو الجنس والرجال ، فقررت ان تظل عانسا ، وأن تقاسى الشعور بالذنب ، لانها لم تعترف بالحادثة لاختها المتزوجة !

وهناك العديد من الاصابات النفسية ، ومن بينها ذلك الضرر الشائع ، ونعنى به « الحزن » . والناس يختلفون فى رد الفعل بازائه ، فالبعض يصبح هستيريا ، والبعض الاخر يقف منــه موقفا فلسفيا ، فى حين أن الكثيرين يصبحون وقد استولت عليهم الكآبة ، بل يتولاهم المرض كنتيجة لحزنهم وكمدهم ، كالارملة التى يقضى زوجهـا نحبه ولا يترك لها شيئا تعيش منه . ومثل هذه المرأة من السهل أن تصبح عصابية ، يرثى الناس لفجيعتها فى البداية ، ثم يتجنبونها لمظهر الحزن الدائم الذى تبــدو فيه ، واغلب الارامل يستطعن أن يجدن لانفسهن مكانا فى المجتمع دون حاجة الى بذل مجهود بدنى شاق ، والامر لا يحتاج الا للثقة بالنفس والعزم الوطيد . ان المرأة التى تحسن الطهو تستطيع أن تشرف على مطبخ صغير ، والخياطة الماهرة تستطيع ان تفتح حانوتا صغيرا للثياب الصغيرة أو الكبيرة ، او أن تصبح مربية . وكر الايام كفيل بأن يعمل على زيادة قدراتها وتحسين مركزها الاقتصادى .

اما الارملة التى لا تجد لها عملا ، والتى تظل حزينــة فانها خليقة بأن تغدو عصابية من فرط الانانية والعــداء

المستحكم . وقد تظن انها حزينة على زوجها الراحل . وانها احزينة فعلا عليه ، ولكن حزنها الاكبر على افتقادها الصداقة والراحة والاستقرار . فالحزن يتركز حول نفسها على مر الايام ، فاذا لم تعالج من هذه الحالة ، فانها ستصبح عصابية ميئوسا من شفائها .

وفيما يلى بعض القواعد الضرورية التى يجب اتباعها اذا انبعثت مشكلة الحزن :

١ ـ اذا توفى أحد أفراد العائلة فلا تحبس دمعك ، فالبكاء طبيعى فى مثل هذا الموقف ، فالتعبير عن الحزن بالبكاء خير من كبته ، على الا يبلغ الامر حد الهستيريا ، فقد رأيت بعض الناس يشدون شعورهم ، ويطلقون الصرخات والصيحات ، وهذه حالة غير طبيعية ، واكبر الظن أنهم يفعلون ذلك حتى لا يتهموا بأنهم لم يحزنوا على المتوفى !

٢ ـ ان النظرة الفلسفية للامر ، وتذكر حقائق معينة ، منها أننا جميعا سنموت يوما ما ، وأن القضاء يطرق الابواب غير مرغوب فيه ، وأن آلافا وآلافا من الدور تنكب ، نقول أن مثل هذه الحقائق يمكن أن تخفف من حزننا .

فمن واجب الانسان أن يعتبر الحزن مسألة عامة ، وظاهرة تعم الناس جميعا ، دون أن نفقد شعورنا ونصبح عديمى المبالاة .

٣ ـ يمكن القضاء على الحزن بأن نحول النشاط العاطفى الناشىء منه ، والذى يقوض الصحة الى عزم لتحقيق هدف اساسى .

لى صديق كاتب اديب ماتت اخته ، ولم يكن له فى العالم غيرها ، وكانت تساعده فى كتاباته ، فكان طبيعيا ان يحزن لموتها أشد الحزن ، ولكنى نصحته أن يقوم بتاليف كتاب جديد ، وأن يهديه الى روح أخته والى ذكراها . وقد خفف هذا العمل كثيرا من حزنه .

ولا شك ان للدين أثره البالغ فى تخفيف الحزن .

الاخفاق فى الحب

ان الحاجة الى العطف حاجة أساسية فى كل انسان ، والحب هو اعظم قوة فى العالم ، وهو روح الاديان جميعا ، فالحياة بغير حب لامعنى لها .

على أنه من سوء الحظ ان أولئك الذين نشئوا وترعرعوا وقد افتقدوا الحب فى آبائهم ينكرون وجود الحب ! وهناك آخرون أصيبوا بضرر نفسى ، بعد خيبة امل فى غرامهم ، فى حين أن البعض الآخر يعتبرون أن حوادث طلاقهم تمثل نهاية حياتهم الغرامية !

غير ان المرء يستطيع أن يقى قلبه من الصدمة التى تتلو خيبة الامل . انظر الى « الكهربائى » الذى ندعوه لاصلاح الاسلاك الكهربائية . انه يأخذ حذره من أن يصل التيار الى يده ، وذلك بأن يغلق التيار أو بأن يرتدى قفازا من المطاط . كذلك يجب أن نفعل لكى ندرأ عن قلوبنا صدمات خيبة الامل . . .

وخير ما يفعله المرء ان يقف موقف المقامر الذى يعرف انه معرض للخسارة كما هو معرض للربح .

وجندى المدفعية يضع فى اذنه قطعة من القطن حتى

لا يصاب بالصمم . والانسان الناضج يجب أن يوطدنفسه منذ البداية على أنه قد يفشل في حبه ، أما اذا سمح لنفسه بأن يمرض بسبب فشل حبه ، فان ذلك دلالة على عدم نضجه عاطفيا .

واذا عادت المرأة من المحكمة بعد طلاقها فلا جدوى من تفكيرها فيما كان يمكن أن تكون عليه حياتها الزوجية ، وأن تظل تفكر فى هذا الامر طويلا . ومثلها فى ذلك مثل من يظل يتساءل ماذا يكون شكل العالم لو اختلفت نتيجة الحرب الاخيرة .

وليس بالانسان حاجة لان يحنى راسه خجلا اذا تم طلاقه ، فان الفرصة سانحة لتكرار الزواج ، وخير للانسان ان يبحث عمن يشاركه الحب والحياة ، من أن يظل معلقا بأجنحة كيوبيد دون ثمرة !

العيوب البدنية

مع كل عيب بدني كالاسنان المعوجة ، أو السمع الضعيف ، أو البدانة المفرطة ، يحدث رد فعل عقلى غير سعيد . على أن كثيراً من الجنود الذين شوهتهم الحرب وجدوا انه لزاما عليهم أن يكيفوا انفسهم لظروفهم البدنية وأن يعيشوا حياتهم بأطراف صناعية .

والى الذين يعانون من هذه العيوب البدنية ننصح بمايلى :

١ ــ ابحث اولاً عما اذا كان يمكن تحسين الحالة التى تشكو منها .

٢ ــ فاذا كنت جربت كل ما يمكن أن يقدمه اليك الطب ، ولم تصل الى نتيجة ، فلا مفر من اقناع نفسك

انه من الغباء والسخافة أن تشعر بالنقص بسبب أمر لا حيلة لك فى اصلاحه . وهذا ينطبق على أولئك الذين يشعرون بشعور النقص بسبب لون بشرتهم أو جنسيتهم!

٣ ـ تعلم كيف تعوض نقصك . كالاعمى الذى يجد الراحة فى دراسة الموسيقى وشحذ موهبته الفنية ، أو الفتاة التى ينقصها الجمال فخلقت من نفسها شخصية جذابة ، ومحدثة لبقة .

ان الانسان الذى تستأصل احدى كليتيه لا يموت ، لان الكلية الباقية تقوم بعمل الاثنتين . فالعاهة او العيب البدنى كفيل ان يحفزنا الى تعلم مالم نكن نتعلمه لو كانت اجسامنا سليمة تماما .

الحياة المتزنة بعد الخمسين

كان منتصف العمر قديما معناه تجاوز سن الاربعين ، اما اليوم فقليلون هم الذين يعتبرون أنفسهم فى منتصف العمر وهم فى الاربعين . ان متوسط العمر عندهم يبدأ من الخمسين كأنما يتوقع كل انسان أن يصل الى المائة . ومن النادر أن تبدأ سن الشيخوخة عند الستين بل أصبحت تعتبر ابتداء من السبعين !

وبلوغ الانسان سن الشيخوخة يرجع الى موقف الانسان لا الى شرايينه . فالسن ترتفع بك عاجلا أو آجلا ، ولكن لا حاجة بك الى ان تصبح كهلا .

ان فى استطاعتك أن تجوب الحياة كما فعل قبلك كثير من « السائحين » الشجعان ، الذين كافحوا السنين بجراة .

وقد تمسكنا زمنا طويلا بعقيدة قديمة هى أنه لا مفر

للانسان من كهولة مريضة ، كما نتحدث فى تشاؤم عن أعوام الانهيار . ولكننا خلقاء بأن نظل فى عهد الشباب اذا اعتنقنا الافكار الشابة مهما يهرم الجسم على مر السنين. وسيتحول الشعر الى اللون الابيض ، ويخف مع الزمن ، وستتصلب الشرايين ، وتفقد العضلات قوتها ، وسيتجعد الجلد ويتلاشى رونقه ، ولكن ما قيمة ذلك اذا كانت الروح شابة ؟

ان العقل لا يهرم الا حين ندع افكارنا تتجمد وتسد طريق التقدير . ان العقل ينضج ولكنه لا يهرم كباقى أعضاء الجسم ، أو على الاقل أن عملية التدهور بطيئة حتى لا تكاد تتضح فى أغلب الناس ، وقد برهن العلم على ذلك . فكل عمل تستطيع أداءه حسنا وأنت فى سن العشرين أو الخامسة والعشرين ، تستطيع أن تؤديه تمام الاداء وأنت فى سن الستين أو السبعين ، أو حتى فى سن أكبر من ذلك . يقول البروفسور « نورندايك » :

« أما من ناحية القدرة العقلية فليست هناك حاجة الى « سن التقاعد » . وهناك الكثير مما يرجح أن الانسان كلما كبر فى السن وأصبح أكثر قيمة . انه يملك نفس القوى التى كان يملكها فى مطلع رجولته فضلا عن ثروته من التجارب ، والمعرفة بعمله الشخصى ، وهى أشياء لا يستطيع أن يظفر بها الشاب مهما يبلغ من الذكاء » .

وكما أسلفنا القول ، فاننا نستطيع أن نحتفظ بشبابنا اذا ظلت أفكارنا شابة ، وليس معنى هذا أن نعود الى خفة الشباب ولا الى هندمة الثياب واللهو ، فليس أسخف من كهل يقلد الشاب فى لهوه ، وانما الذى نعنيه أن نداوم على الاهتمام بتقدم العالم ، وعلى الاستمرار فى الدراسة ،

والاحتفاظ بروح الدعابة ، والا نغتر بأنفسنا أو بآرائنا والا نقلل من قيمة الإخرين ومن قيمة آرائهم ، واذ ذاك لن نهرم بل نكون :

شـــبابا كايماننـــا
كهـــولا كشـــكوكنا
شبابا كثقتنا بأنفســنا
كهـــولا كمخاوفنا
شـــبابا كآمالنـــا
كهـــولا كيأســـنا

وبعض مآسي الكهولة تنشأ نتيجة للاخفـاق المنبعث بطريق مباشر أو غير مباشر من الاضطرابات الجنســـية كالبرود الجنسي ، أو القصور الجنسي « العنة » .

والقصور الجنسي معناه عدم القدرة على الاتصال الجنسي المرضي ، وهو عار في رأي الرجل ، ودليل على فقدان الرجولة!

وكثير من الرجال يصلون الى سن متقدمة دون أن يفقدوا القوة الجنسية ، في حين يصاب آخرون بالقصور الجنسي بسبب اتجاهات عصابية ، ومثل هذا القصور يمكن أن يعالج بالتحليل النفسي .

وهناك صراع شبيه بهذا ينبعث في عقول النساء . ففي خلال فترة الخصوبة تتطلع النســـاء الى الوقت الذي لا تضايقهم فيه فترات الطمث التي يقاسين فيها المتاعب ، كما يتطلعن الى الوقت الذي لا يتخلله خطر الحمل والولادة ولكن حين يأتي ذلك الوقت لا يجدن السرور الذي كن يتوقعنه من وراء حصولهن على هذه الحرية ، بل يعتريهن ما يعتري الرجال من خوف فقدان الرغبة الجنسية ، كما

يعتريهن الخوف من أن يزهد أزواجهن فيهن ، وينصرفن عنهن الى نساء أصغر سنا ، فيبادرن لهذا الى التجمل والتزين ، وارتداء الثياب البراقة ، وارتياد بيوت التجميل أو على العكس قد يلجأن الى ما تلجأ اليه طائفة منهن ، وهو الاكثار من الطعام واضافة طبقات جديدة من البدانة على اجسامهن ، ويهملن هندامهن وزينتهن ، ويفقدن الاهتمام بكل شيء عدا منازلهن ، واطفالهن وأحفادهن ، ثم يستيقظن ليجدن أن شابات صغيرات جميلات قد سلبتهن أزواجهن ، فتنشأ فى قلوبهن المرارة من صدمة القدر وقسوته ، دون أن يدركن أنهن قد خدعن انفسهن !

ويقال أن السنوات الخمس الاولى من الزواج هى التى تقرر هل يتوافر الانسجام للزواج أو لا يتوافر . ومنتصف العمر كذلك ذو أثر حاسم فى الاحتفاظ بتماسك الزواج. ومن الامور العادية أن نسمع بتحطيم حياة زوجية بعد أن تنقضي عليها ٢٥ سنة بل ٤٥ سنة ! ومن الاسباب الجوهرية لتداعى هذه الزوجية اضمحلال الحب الجنسى بين الزوجين . ومن الزوجات من يحسبن أن النشاط الجنسى مقصور فقط على النسل،وليس لارضاءالرغبات الجنسية التى لا تنقطع بعد انقضاء فترة الخصوبة . والبرود الجنسى الذى تفاخر به بعض النساء فخرا زائفا، قد يدل على عصاب ، وهو كالقصور الجنسى فى الرجال ، يسهل علاجه . ان الطبيعة قد حددت زمنا معينا للحمل ، ولكنها لم تقطع دابر الرغبة الجنسية ، فهذه الرغبة الجنسية تبقى الرباط بين المرأة وزوجها قائما .

خطة للسعادة

منذ أعوام ، التقيت فى احدى البواخر برجل رأيتـه لا يكف عن الشراب والتحدث الى هذا وذاك ، واطـلاق الضحكات الصاخبة يمينا وشمالا . وما رأيته يوما الا فى هذه الصورة المرحة غير ان الطبيب النفسى لا ينخدع كما ينخدع الناس بمثل هذه المظاهر ، وتستطيع عينـــه أن تنفذ من خلال هذا التمويه الى الحقيقة . وعجبت أى حزن عميق يكبته هذا الرجل ! وحـــين التقيت به لم يسعنى الا أن أسأل هل كان هرجه ومرجه قناعا ، يريد أن يدفع به صراعا عميقا وأن يخفيه عن الاعين ؟

وكأنما سر الرجل اذ وجد فى هذا الوجود انســـانا يستطيع أن يدرك حقيقة ما يعانيه ، فانطلق فى غير تحفظ يقص على قصته . لقد تكشفت زوجته عن امرأة خائنـة عابثة ناكثة بالعهود الزوجية ، واسوأ من هــذا أن أخلص أصدقائه واقربهم الى نفسه ، كان شريكها فى الجـــرم والخيانة ، فكأنما كان الخنجر الذى أصاب قلبه ذا نصلين وحاول ان يصفح وينسى ، ولكنه لم يستطع ، ووجـد من العسير عليه أن يفعل الامرين : الصفح والنسيان ؛ ولهذا آثر أن يفر من الحقيقة المؤلمة ، وأن يقضى حيـاته

« فى أكل وخمر ومرح » .

وكانت هذه محاولة فاشلة بطبيعة الحال . فكلما انفرد بنفسه تذكر الحادثة ، وأحس بالفراغ يحيط به . ان اسلوبه الزائف فى ابداء المرح المصطنع لايمكن ان يدوم، ولا قدرة له على شفاء قلبه الجريح ، فالحقيقة لا يكفى الفرار منها ، وكان أجدر به أن يواجه الحقيقة المرة ، وأن يعالجها فى مهارة .

لقد صدق داروين حين قال : « ان البقاء للاصلح ». فان الضعيف يخور ويتهاوى ، اما القوى فيبقى ، وكل انسان منا يختار ــ شعوريا أو لا شعوريا ــ هل يواجه الحياة بقلب قوى جرىء أى بقلب ضعيف وان ؟ وهل يتقدم لمصارعة العدو ومقاومته ، أم يستسلم ويتقهقر ؟ وحين تتراكم المتاعب على رءوسنا فاننا نجد اغراء فى الالتجاء الى أى شىء ، طيبا كان أو خبيثا ، يساعدنا على النسيان ، أو على الفرار من الحقيقة المؤلمة .

فلم يفشل كثير منا فى الظفر بالسعادة ؟ اننا طالما سمعنا « كيف تكون سعيدا ؟ ولكننا لم نسمع الكثير عن « لم نشقى ؟ » والطبيب قبل أن يتعلم « كيف » يشفى المريض لابد له أن يتعلم « لم » هو مريض ؟ » .

والشقاءمرض بلا مراء ، بل هو تسمم ذاتى للعقل ، فلنعالجه اذن كمرض له علاج شاف محدد فى متناول أيدينا . فضع بيانا له ، كما تدون أعراض مرضجسمانى .

وفيما يلى نذكر سموم الشقاء وأعراضها ، ولكل منها ترياق محدد ، فابحث من خلالها عن أسباب شقائك وعالجها .

سموم الشقاء وعلاجها

السم رقم (١) « الهروب »

الاعراض : الفرار والهرب من الحقيقة ، التنصل من تبعات الحياة ، وعدم القدرة على تقبلها : السعادة الزائفة

ملاحظة : الاشخاص الذين يقبلون على احتساء الخمر رغبة فى اغراق احزانهم ــ وهى احدى وسائل الفرار ــ ينتحرون لا شعوريا .

الترياق : الواقعية

التوجيه : واجه الحقيقة . قم بواجباتك والتزاماتك. وقابل الصعاب برباطة جأش ، وتوقف عن التغرير بنفسك فانك لن تستطيع حل مشاكلك بالفرار منها ، وحذار ان تاخذ نفسك اومشاكلك مأخذ الجد الشديد « فمستشفيات الامراض العقلية مكتظة بالاشخاص الذين سمحوا لانفسهم بأن تهزمهم احزانهم الشخصية » . اعقد العزم على أن تتحدى من الان فصاعدا كل عقبة تعترض طريقك دون أن تستسلم لها . واعترف أن الاشياء القيمة هى غالبا صعبة المنال .

السم رقم (٢) ... الخوف :

الاعراض : فقدان الثقة ، العصبية ، المخاوف المرضية « الفوبيا » المبالغ فيها . القلق .

ملاحظة : الاضطرابات المالية ، وعدم الاستقرار المالى ، والمتاعب الزوجية ، والمصاعب الجنسية ، والخلافات

العائلية ، والقلق بسبب سوء الصحة ، كلها تستقر كأجسام غريبة فى صميم العقل ، وتحدث « خراجا عقليا» وليس للقلق والمخاوف من عمل الا أن تمهد السبيل للشقاء والتعاسة ، وتقضي على الحماسة للحياة .

الترياق : الشجاعة .

التوجيه : لا تحاول أن تصبح مدمن قلق ، وضع نصب عينيك أن تسعين فى المائة من الامور التى تثير قلقنا لا تقع ولا تحدث البتة ، والشجاعة هى خير السبل الدفاعية للحيلولة دون اقتحام الخوف عقولنا .وتستطيع أن تفوز بالشجاعة تدريجيا ، فالمرء عادة يستطيع أن يقويها ويألفها بالتنظيم . واستخدم هذه الشجاعة فى كل حروبك ضد عوائقك الكبرى . وفهم الخوف هو نصف العلاج ، وبدلا من الاغضاء عن مشكلتك عليك أن تواجهها وتحللها تحليلا دقيقا ، وتبحث عن حل لها بعقل وحكمة فاذا كنت لا تزال تشعر انك بحاجة الى معونة وارشاد وتبصير ، فلا تتردد فى أن تعرض أمرك فى صراحة على الطبيب النفسى ، فهو كفيل بأن يعلمك كيف تستعيد ثقتك بنفسك . والشجاعة ليست الا اعادة تعليم وتثقيف وهو مايفعله الطب النفسى للمريضة ، وهو أمر لا غنى للانسان عنه ، فانه الخط الفاصل بين السعادة والشقاء، وبين النجاح والفشل .

السم رقم (٣) « الانانية »

الاعراض : الجشع ، والطمع ، والمادية ، والإفراط فى العداء ، والرغبة فى الاخذ دون الاعطاء ، وقليل من الانتاج مع توقع الكثير من الجزاء .

الترياق : الايثار . الاريحية .

التوجيه : لا تستغل أصدقاءك . لا تصنع جميلا وانت تنتظر الجزاء ان السعادة الحقة تأتى عن الرضاء النفسى الناشىء عن معاونة الاخرين ،وتقديم التضحية دون انتظار الجزاء . ولن يخيب أملك يوما ، فللعطف جزاؤه دائما، فحاول أن تغير طريقتك ، وأن تصنع جميلا لصديقك حتى لو لم يقدره . حاول أن تبتسم فى وجه كل انسان فى الصباح فان أثر ابتسامتك سيشيع السرور فى نفسك وهذا هو المهم ، فان السعادة تبدأ من الداخل .

السم رقم (٤) الركود

الاعراض : الشعور انك سقطت فى وهدة ، وانك تسير فى حياتك على وتيرة واحدة لا يتخللها السرور ، وتؤدى العمل الذى ظللت تؤديه أعواما طويلة دون أن يتخلله تغيير ، وتسير فى الحياة بلا هدف وبالتالى بلا أمل .

الترياق : الطموح

التوجيه : كما تفعل فى تنويع طعامك لجعله شهيا ، يجب أن تضع التوابل فى حياتك بأن تنفس عن نفسك بضروب التسلية . ادفع نفسك فوق أمور الحياة المألوفة واجعل لنفسك أهدافا تسعى لتحقيقها ، وتسلح بالحماسة للحياة ، ضع قائمة بالامور التى تود أن تنجزها فى هذا الاسبوع والاسبوع الذى يليه وما بعدهما ، الامور التى تبعث الكبرياء فى نفسك اذا ما أديتها . ولا تجلس فى انتظار سنوح الفرص بل اخلقها ،فاذا كنت

طموحا وكنت مثابرا ، وعاقدا العزم على السير قدما ، فما من قوة فى الارض تقف عقبة فى طريقك ، أو تصدك عن غايتك . ولا تنضم الى أولئك الافراد الذين يشقون لانهم لم يؤدوا يوما عملا جديرا بالذكر ، أو لم يبذلوا اى مجهود .

السم رقم (٥) ـ مركب النقص

الاعراض : الهيبة ، الخجل ، الجبن ، فقدان الثقة ، الشعور بالنقص .

الترياق : الثقة .

التوجيه : ان الثقة للنجاح كالهواء للرئة ، وكما يقول دارون : « ان الذين يستطيعون الانتصـــار هم الذين يعتقدون انهم يستطيعون » . والثقة تكتسب ولا تورث فعود نفسك الثقة بنفسك تكسب نصف المعركة . ان مما يزيد من تعقيد علاج العصابيين انهم يفتقرون الى الثقة بأنفسهم ، واليك حقيقة دعها تترسب فى أعمـاق عقلك : « ان النجاح يبدأ من اللحظة التى تغرس فيهـا الثقة فى نفسك » .

السم رقم (٦) ـ عشق الذات « النرجسية »

الاعراض : مركب التفوق ، الافــراط فى تقـدير الذات ، الغرور الزائد ، الخيلاء ، الكبرياء الزائفة .

الترياق : التواضع

التوجيه : لا تنشد الشهرة بطريقـــــة ممقوتة ، فالاشخاص المغرورون يفقدون أصدقاءهم بســــهولة ، وفقدان الاصدقاء ينشر التعاسة . فالثقة بالنفس اذا زادت عن حدها أصبحت « عائقا » كفقدانها . فلا تكن ذلك الذى يعرف كل شيء . وتعلم عن طريق الاصغاء . فالتواضع طبيعة عند كل نوابغ الرجال وعباقرتهـم ، والناس يتقبلونك علىحقيقتك لا على ماتحاول الظهوربه.

السم رقم (٧) ـ الرثاء للنفس

الاعراض : العبوس ، وشرود الذهن ، نوبات دورية من الكآبة ، الاستغراق فى النفس ، السعي وراء العطف أفكار عدم الجدارة والاتهام الذاتى .

الترياق : التسامى

التوجيه : لا تكن منطويا على ذاتك . انس نفسك ، وتجنب أن تصبح « عاطفيا » باكيا ، مكروبا من جـراء شعورك بالقنوط والاشفاق ، ولا تلازم الدار باستمرار ، بل عليك أن تنشيء لنفسك فى الخارج أمورا تثير اهتمامك وثق صلتك بالأمور الجميلة في الحياة ، واختر لنفسك هواية تشغل بها نفسك فى أوقات فراغك ، كالادب ، أو الفن ، أو الموسيقى ، ففيها تثقيف ذاتى .

وتثقيف الروح ضرورى للسعادة ، أما الرثاء للذات فلا يؤدى الا الى الشعور بالكآبة ، وعدم الرضـــاء عن

النفس ، ونظرة التشاؤم الى الحياة . انه ليس طبيعيا ان يشعر الانسان بالحزن على نفسه ، فهاجم هـــذا الاحساس بتكوين روح الدعابة .

السم رقم (٨) ـ عدم التسامح

الاعراض : كراهية الطبقات . الذم والتقريع ، ضيق الذهن . التعاظم . كراهية الاجناس . التزمت الدينى. رد الفعل العاطفى المتذبذب .

الترياق : ضبط النفس .

التوجيه : هدىء عواطفك عن طريق ضبط النفس ، وانظر اليها نظرة ذكية ، واذكر ان العالم لكل هـــؤلاء الناس ، وانه للجميع ، سواء رضيت ام لم ترض ، فيجب أن تروض نفسك على احتمال خصائص النـاس المحيطين بك ، وتجنب جمود الشخصية كما تتجنب المرض . ولا تحكم على الرجل بجنسه أو دينه أو رصيده فى البنك بل بصفاته وأخلاقه .

السم رقم (٩) ـ الكراهية

الاعراض : الرغبة فى الانتقام ، الشعور بالاضطهاد . القسوة . الحرب

الترياق : الحب .

التوجيه : طهر قلبك من الحقد والكراهية ، وتعلم ان تصفح وتنسى . ان الكراهية هى « المادة » التى يصنع منها الشقاء والتعاسة . والناس الذين يكرهون، يكرهون انفسهم لانهم يكرهون ! فلم اذن تحتفظ بالاحقاد ؟ اما من ناحية الانتقام « الذى هو رد فعل طفلى » فانك تتملق عدوك حين تبين كل هذا الاهتمام به . ان هناك ترياقا وحيدا للكراهية ، وذلك هو الحب . انه اقوى مايملكه الانسان .

وبعد احتفظ بهذا الجدول ، وارجع اليــه حين تشعر بالكآبة وثبوط الهمة ، واستخدمه كاسعاف أولى فى وقت الضرورة .

ارسم لحياتك خطة

ماذا تبغى من الحياة ؟

الانسان العادى سيجيب على ذلك بقوله « الصحة والسعادة والنجاح » وهذه هى الامور التى نريدهـا وننشدها جميعا . ومع ذلك كم منا من يسعى لتحقيقها؟

ان سير الحياة على وتيرة واحدة أكل ، ونوم ، وعمل، من أعم واشيع أسباب الشقاء والتعاسة .

خطط عملك ، واعمل على تنفيذ خطتك !

تعلم أن تمضى على الدوام وفقا لخطة احتفظ معـك بمفكرة تدون فيها الاشياء التى تريد انجازها ، وخطتك للعمل غدا ، وفى الشهر القادم ، وفى السنة القـادمة ، وقد يبدو هذا فى بادىء الامر عمل أطفال ، ولكن جـرب طريقة « الورقة والقلم » ورسم الخطة .

ان جانبا كبيرا من سعادتنا فى الحياة يتوقف على مدى تخطيطنا . ومن الاشقياء من يعترفون أنهم كانوا كمـن جرفهم التيار . انهم ربابنة سفن فى البحر يجولون فيه على غير هدى والى أين المسير ؟ هذا أمر لا يهمهم !

وماذا يكون لو أن الخطة التى رسمتها قد اعترضـها

عائق فجائي ؟ ان عليك في هذه الحالة أن تضع لخطة جديدة لتساير ظروفك المتغيرة . اذ يجب الا تتشبث بخطة واحدة لا تتغير مهما تغيرت الظروف . ووضع خطة معناه العمل على تحقيقها ؛ والنجاح في تحقيقها يفضي بك الى السعادة . كالمهندس الذى يشيد الجسر ، فهو انما يشيده بناء على تصميم موضوع ، ونجاحه في انشائه يسعده ، فلم لا تستعرض ما تريده من الحياة ، وما تبتغي تحقيقه من الاهداف ؟ ثم تطبق « خطة الحياة »

وأنا اناقض « جوته » في قوله : « ان الحياة فن يجب ان يتعلمه كل انسان ، ولكن ما من احديستطيع أن يلقنه لاحد » فانى اعتقد ان الحياة الناجحة علم . ومادام العلم هو « حقائق منظمة » ، فمن الطبيعى أن نفترض أن علم الحياة يقوم على التنظيم الحاذق لعادات المعيشة .

وفيما يلى خطة من عشرة بنود تساعدك على اكتساب الصحة والسعادة والنجاح ولك أن تعدلها وتحورها او تستخدمها جميعا :

١ ــ لكى تتمتع بالصحة البدنية والعقلية :

يجب أن تنال القدر الكافى من النوم ، وتروض نفسك على الاعتدال فى تناول الطعام ، وتخلق عادات معيشية طيبة ، فارع قواعد الصحة الملائمة لك ، ورفه عن نفسك بمختلف أنواع التسلية .

٢ ــ لكى تعرف نفسك :

ادرس مواضع الضعف وعوض نفسك عن النقص . ضع قائمة بقدراتك وامكانياتك ، وحلل اخطارك واصلحها وتعلم كيف تحل مشاكلك الشخصية بحذق وحصافة ،

وتكشف عن الدوافع التى تختفى وراء سلوكك ؟ .افهم ما فيك من « مركب النقص » وتغلب عليه . وحذار ان تيأس . اصلح شخصيتك من وقت لآخر ، كلما دعت الضرورة ، واجعلها كما تود أن تكون .

٣ ــ لكى تتمكن من معاشرة الناس :

كن صادقا ، ولكن فى لباقة وكياسة ، وتوخ المرح فى مناقشاتك ، وتجنب التهكم والسخرية فى الجدل .وتعلم كيف تتقبل النقد بصدر رحب ، وكيف تكسب الاصدقاء عن طريق الاحتمال ، والتسامح ، والحب . وكن عطوفا غير أنانى . وتجنب كل مظاهر الغرور ولا تكن صلب الرأى عنيدا .

٤ ــ لكى تتكيف مع عملك :

اهتم بعملك ، وأده فى مهارة ، وتجنب البطء ، ولا تضيع وقتك فى أحلام اليقظة ، وكن سمحا متعاونا ، واحذر أن تكون شديد الحساسية ، وكف عن التفتيش عن الاخطاء . ولا تهمل مظهرك الخارجى ، ولا تجعل لك اعداء فى العمل ، واهتم بشئونك وحدك ، وأحسن تقدير الغير .

٥ ــ لكى تكيف حياتك الجنسية :

اقرأ ما كتب فى هذا الموضوع من الناحية العملية . وروض نفسك على موقف لبق معقول تجاه الجنس ، واستخدم العقل لارشادك الى سلوكك . وارع قوانين الصحة الجنسية ، واحذر أن تكون عصابيا مكبوتا ، وتجنب كلا من الحياء المصطنع أو الفوضى والانغماس . وتحاش المخاوف غير الطبيعية ، وتعلم اعلاء حيويتك .

واستشر طبيبا نفسيا اذا كانت لديك مشكلة جنسية تقلقك .

٦ ـ لكى تنجح فى زواجك :

اجعل من الزواج مغامرة غرامية دائمة ، وشهر عسل مستمر ، تجنب الغيرة والجدل ، وكن منصفا ، واجعل نصب عينيك ادخال السرور على نفس شريكك . كن عطوفا متسامحا ، وتعلم كيف تضحى . لا تنتقد ولا تؤنب فى قسوة واضبط عواطفك ، واياك أن تصبح « أعزب » وأنت متزوج ، أو « عانسا » وأنت متزوجة !

٧ ـ خطة للتنفيذ :

لا تتوقف عن التعليم ، وسر دائما فى طريق التقدم، ولا تكن كسولا ، واجتهد فى تحقيق آمالك ، واحذر ان تثبط همتك ، ووجه جهودك الى هدف واحد وتمم ما بدأت به دائما ، وتعلم أن تستمتع بعملك ، وأن تستغل كل امكانياتك وتكتسب الثقة عن طريق العمل .

٨ ـ خطة للاستمتاع بالحياة :

روض نفسك على ان تصبح ذا مزاج معتدل ، ولا تكن متشائما ، اضحك كثيرا ، واكسب أقصى ما تستطيع من الاصدقاء ، واحصل على نصيبك الاسبوعى من التسلية والترفيه ، واخلق اهتمامات جديدة ، وهواية ترضاها . اقرأ كثيرا من الكتب الجديدة ، واستمع الى الموسيقى ، وتقبل السعادة كحالة عقلية « ان من غير الطبيعى أن تكون شقيا بائسا » .

٩ ـ اتخذ لنفسك فلسفة فى الحياة :

تمسك بعقيدتك الدينية ، ودافع عن مثلك العليا ،

واخلق فى نفسك مناعة ضد الخيبة ، ولا تكن مفرطا فى ارهاق الضمير ، وقلل من النزعة المادية فى نفسك ، وكف عن استغلال اصدقائك ، وتجنب التحيز والتعصب ، ولا تحقد على احد ، واحذر أن تصبح عدو نفسك .

١٠ ـ لكى تمنح العالم خير ماتستطيع :

كن نافعا ، وكن اجتماعيا ، وشارك الآخرين فيما تعلمته من تجاربك ، وكن مصدر وحى والهام لغيرك ، واشرك العالم معك فى نجاحك ، وامدد يد المعونة فى الامور الجديرة . عاون البائس ، وتقبل تبعات الحياة فى رضاء ، وابذل جهدك فى كل ما تؤديه ، وكن جزءا من العالم الذى تعيش فيه .

ان كثيرين يعيشون بغرائزهم بدلا من رسم الخطة لحياتهم ، لخوفهم من المستقبل غير الآمن . وهم يمتثلون للقدر لانهم لا يتكهنون بما تأتى به الحياة من يوم لآخر. وانى لاعتقد أن الخوف هو أساس كل الاضطرابات العصبية والنفسية ، وقد قال احد الحكماء يوما : « ان اجدر الاشياء بأن تخافه هو الخوف نفسه ! »

فهرس

تمهيد ٧
من هو الانسان السوى ؟ ١٤
العصابيون بشر ٢١
الاضطرابات العصبية والعقلية ٣٠
صفات الشخصية غير المستحبة ٤٣
التعب العصبى ٥١
لا تدع اعصابك تنزل بك العقاب ٦٠
الاحساس بالذنب وراء كل عصاب ٧٠
تعلم التفكير الايجابى ٨٨
تحرر من الخوف ٩٦
هل تموت أو لا تموت ؟ ! ١٠٤
السلوك الجنسى السوى ١٢٣
تستطيع أن تكسب الحب ١٤٠
رد الفعل الطبيعى العصابى ١٥١
التحليل النفسى عن طريق تفسير الأحلام ١٥٩
الاصابات النفسية ١٧٩
خطة السعادة ١٨٨

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٩٧ ـ ٨٤
الترقيم الدولى ٩ ـ ١٠٠ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٢٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Miguel Maccul Cury. R. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع فى الخارج للعدد الممتاز فئة ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٨٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ م.س ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٧ ريال ، اديس ابابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنى ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٤٠٠ فلس



هـذا الكتاب

ليست حياة الانسان كلها من صنع يديه ، فلعهد الطفولة آثاره البالغة الراسخة ، وللبيئة آثارها . وكثيرا ما تعترى الانسان حين يكتمل نضجه حالات محيرة لا يدرك سرها ، ولا يعرف منشأها ، وقد يخطىء ، وغالبا ما يخطىء ، فى فهم كنهها وعلتها . وهذا الكتاب ، الذى تقدمه اليوم سلسلة كتاب الهلال ، والذى وضعه العالم النفسانى الشهير الدكتور فرانك كابريو بعد خبرة طويلة وتجارب عديدة ، يكشف النقاب عن العلل النفسية التى ترسخ فى النفوس من عهد الطفولة ، وما يتبعها من علل بدنية ، هى فى حقيقة أمرها لا تخرج عن كونها عللا نفسية متأصلة .

انه يصور لنا سلوكنا فى المجتمع الصغير ، والمجتمع الكبير ، ويرينا مصدر هذا السلوك وكيف نعالجه وكيف نصلح من شأنه ، وكيف نسلك سبل السعادة النفسية والاطمئنان النفسى ، أو بمعنى أوضح يرينا كيف يمكن أن يعيش الانسان مطمئن النفس ، هادىء البال ، قرير العين ، سعيدا بحياته .



كتاب الهلال

طريقك إلى الشباب الدائم

الدكتورة مارجيري ويلسون

سلسلة
ثقافية
شهرية



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٤٠٤ – ذو القعدة ١٤٠٤ – اغسطس ١٩٨٤

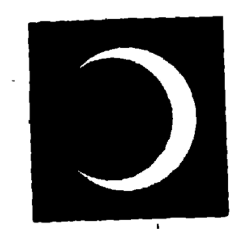
No. 404 — August 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية اربعة جنيهات مصرية و ٨٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات أو ما يعادلها بالبريد الجوى - وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع نقدا او بحواله بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنـانة سميحة حسنين

طريقك إلى الشباب الدائم

●

تأليف

الدكتورة مارجيرى ويلسون

●

دار الهلال

مؤلفة الكتاب

الدكتورة مارجيرى ويلسون حجة بين العلماء المتخصصين فى فن من أحدث الفنون العلمية فى أمريكا . الا وهو فن « الحياة الفتية » . وفى معهدها وعيادتها الخاصة عالجت آلاف الحالات ، ونجحت فى رد الفتوة الى آلاف ممن يعانون آفات الانحلال المبكر ..

وكانت ارشاداتها سببا فى تغيير التأثير الشخصى للكثيرين من عملائها ، فتحولت حياتهم من الفشل والانطواء الى الجاذبية والتوفيق ..

والكثيرات من ممثلات هوليوود تعاملن معها عندما بدأ تاثير السنين يدب الى أجسادهن ، فانقذت عشرات منهن .. من بينهن ممثلات نعجب كل يوم من قيامهن بدور الفتاة الصغيرة العاشقة مدى ربع قرن من غير أن يطرأ على نضارتهن تغير يذكر .

ولعل سر نجاح الدكتورة ويلسون انها عالمة نفسية واخصائية اجتماعية ، مما أعانها على الفهم الشامل لعناصر الشخصية الانسانية .. وأتاح لعلاجها وارشادها مزايا

الشمول الذى يحفظ التوازن بين جوانب النفس كلها .

وفى مؤلفاتها الكثيرة تهتم الى جانب الصحة البدنية ، بالصحة النفسية ، والتوازن الاجتمـــاعى والفلســفى والاخلاقى . وهذا ما سيلاحظه القارىء فى الكتاب الذى نقدم له فى هذه السطور .

الفصـــل الأول

مسألة سلوك

كل انسان يؤدى دوراً معيناً فى الحيـــاة ... وفى استطاعتك أن تختار الدور الذى تؤديه ، وكأنك نجم كبير من نجوم الفن من حقه أن يختار لنفسه ما يشاء من الادوار ويترك ما يشاء . وأنت فى هذا الاختيار واثق أن تحت تصرفك كل وسائل التعبير سواء بالحركة أو باللـون او بالمؤثرات الصوتية .

فلماذا اذن تختار لنفسك الوسائل الدالة على التقـدم فى السن ؟

اننا نقدر أنك غير راض عن بعض الآثار التى تتركهـا السنوات فى مظاهر حياتك .. لا فى كلها بالطبع بل فى بعض الجوانب من شخصيتك ، فلماذا تتلكأ فى وضع حد لكل ماتضيق به وتنفضه عنك .. كى تبدأ منذ هذه اللحظة مسلكا جديدا يضفى عليك مظهرا جديدا .

وثق أن الملايين من الرجال والنساء فوق سـطح هذا الكوكب يقومون بهذا التجديد فى حياتهم ، وان مـلايين آخرين يقومون بمجهود عكسى .. فيساعدون السنين على مضاعفة تأثيرها الزاحف على عقولهم وابصارهم واسماعهم

وحركاتهم ومظهرهم كله ، فيتضاعف بذلك سريان البلى الى حياتهم حتى كأنهم صرح شامخ أسرع اليه التقوض قبل الاوان .

وكان الكثيرون يظنون ان مظاهر السن ومظاهر الشباب لا يمكن أن تكون مجرد مظاهر .. ولكننا نذكرهم بأدوار الشيخوخة يؤديها ممثلون وممثلات فى شرخ الشباب ، فيخال المشاهدون انهم ازاء شيوخ وعجائز حقيقيين .. لان أولئك الممثلين والممثلات اكتشفوا وسائل التعبير بالحركة والصوت فاستخدموها . ونذكر المتشككين أيضا بمسرحية « فاوست » العظيمة وكيف يبدأ من يمثل دور « فاوست » بالشيخوخة المطبقة . ثم بعد أن يعقد الصفقة مع الشيطان ويبيعه روحه فى مقابل نضارة الشباب ، يرتد الممثل فتى غض الاهاب كى يفوز بقلب « مرجريت »

وانى أؤكد لك انك لست بحاجة الى بيع روحك للشيطان كى تظفر بكل مظاهر الشباب ، ولا يحتاج الامر الى شيء من الخوارق .. فكل مانحتاج اليه هو أن نتخذ فعلا مسلك الشباب فى حركاتنا واصواتنا وتصرفنا جميعا من غير مبالغة ، وأن نرفع من روحنا المعنوية بزيادة الاقبال على مسرات الحياة كى تتجدد ينابيع النفس تجددا متواصلا .

ولا يغيبن عن بالك أن الاثر الذى تتركه فى الناس ـ سواء كنت شابا أو كهلا ـ انما هو عملية تأثيرية محضة ، تتألف عناصرها من مؤثرات بصرية وسمعية وشمية . ومن وراء هذا كله تأثيرك الشخصى الصادر عن قوة عقلك وتوازن جوانبك النفسية ..

ان الشباب ليس قدرا معينا من السنين ..

وانا شخصيا اعرف اشخاصا بلغوا الستين أوتجاوزوها يعتقد المرء انهم فى أوج شبابهم . وفى الوقت نفسه اعرف فتيات فى مقاعد الدراسة دب اليهن الوهن الجسدى والنفسى معا ، فركدت ينابيع شخصيتهن وتجمد تفكيرهن

ولكن الكثيرين ايضا يقولون أن الشيخوخة مرحلة طبيعية فى حياة الناس جميعا .. ونحن لا نعارض من يفضلون الشيخوخة على الشباب ، فلهم أن يستمتعوا باختيارهم ماشاءوا . ولكننا نقول لهم فقط انالشيخوخة ليست مرحلة ضرورية أو حتمية ، فالشجرة تسقط اوراقها بعد ايراق وتجف بعد اخضرار . ولكن الانسان يختلف كثيرا عن الاشجار ، لان فى استطاعة الانسان أن يمد مرحلة شبابه الفكرى والجسدى الى سنوات طويلة

وأول سر من أسرار الاحتفاظ بالشباب ومقاومة آثار السنين هو « الرشاقة » .. فالبداية اهم عامل من عوامل الشيخوخة ، لانها تثقل الحركات وتجعل من العسير على الانسان أن يبدى خفة الشباب ومرونته فى جميع انواع حركاته .

ومعنى هذا أن الحركة اهم عناصر الشباب .. الحركة الخفيفة الرشيقة بغير مجهود ..

ولهذا أطلب اليك ــ رجلا كنت أو امرأة ــ أن تقف أمام مرآة كبيرة ، ثم تقبل وتدبر بصورتك المعتادة لتحكم هل مشيتك مشية البدناء أم النحفاء .. فهذا الاثر أوضح من أن يخفى .

وأذكر بهذه المناسبة ان عميلة من عميلاتى كانت شديدة

النحافة . ولما جعلتها تمشي أمامي ذهابا وايابا ، أدهشني كل الدهشة أسلوبها في المشي . وبعد حيرة طويلة أستطعت أن أدرك سر غرابة مشيتها .. أنها كانت تمشي بأسلوب المرأة البدينة . وفاجأتها بقولي :

ــ هل لك صديقة حميمة ذات جسم بدين ؟

فتوقفت عن السير ، وتطلعت الى بعينين لامعتين من السرور وقالت :

ــ هذا صحيح .. هل رأيتني معها ذات مرة ؟

وكان واضحا من طريقة كلامها أنها تحب صديقتها البدينة تلك ، وتعجب بها اعجابا شديدا .

ــ كلا .. لم أرك معها مرة واحدة . ولكني أراها معك الان ، في هذه اللحظة .. فان لك مشتيها .. وهي مشية لاشك في انك حاكيتها . وكان تقليدك لهـا لا شعوريا بسبب تعلقك الشديد بها .

ولم اتخذ من هذه العميلة مثلا ، الا لان حالتها تنطبق على حالات الكثيرين والكثيرات .. فالاعجاب الشديد يجعل شخصا ما قدوة ومثلا أعلى لنا نقلده ونحن لاندرى

ومعنى هـذا أننا اكتسبنا بالتقليد والمحاكاة طريقة مشينا وحركاتنا . وما دام الامر كذلك ، فمن المستطاع بلا شك أن نقلد نموذجا اخر نختاره اختيـارا سليما ليمنحنا تقليده روح الشباب ومظهره .

ولا يخطر ببالك ان طريقة المشي ذات أثر هين في تأثير الشخصية . فكم من مرة سمعنا فلانا لابد أن يكون من اقارب فلان لان مشيتهما متشابهة ، أو نسمع انسانا يقول ان باستطاعته معرفة أفراد الاسرة الواحدة من طريقة

سيرهم ، أو نسمع زوجة تقول انها تعرف مقدم زوجها من وقع خطواته على الارض أو وهو يصعد الدرج .

والفنانون الذين يحترفون تقليد الناس يدرسون بعناية طريقة مشى من يقلدونهم ، وأوضاع أكتافهم ، واسلوب رفع رؤوسهم ، وهم يسيرون .. فهذه الحركات اقوى دليل ظاهرى على الشخصية .

وانا لا أدعو الى تقليد أحد معين حتى لا ننقلب الى جماعات من القرود . ولكنى ادعو الى شىء من نشاط المخيلة ، فعلى الشخص أن يخلو بنفسه ويتخيل احسن صورة يتمنى أن يرى ذاته عليها من حيث المظهر والمشية .. ثم يحلل تلك الصورة الى تفاصيلها الصغيرة ليعمل على تحقيقها . وبهذا يكون كل شخص قادرا على رسم مثله الاعلى بنفسه .

ولكنى فى الوقت نفسه احذر ، عند رسم صورة هذا المثل الاعلى ، من الوقوع فى تقليد الشيوخ والبدناء والبدينات . بل يجب أن يكون تصورنا لمثلنا الاعلى مليئا بالحيوية والمرونة والرشاقة ، موحيا للناس بالقوة والعزم وسهولة الاداء وعدم التكلف .

وينبغى الا يغيب عن ذهننا أن الشباب بعيد كل البعد عن الجفاف والصلابة فى الحركة الجسدية ، وبعيد كل البعد كذلك عن الجفاف والجمود فى حركاته العقلية وانفعالاته .

ويجب الا ننسى ان الجسد يستجيب دائما لتاثير النفس .. فابدأ بأن تستبعد من نفسك كل اثر للياس او ثبوط الهمة ، وان تتخلص من كل رواسب الوجوم والكآبة

والفزع من مر السنين .. فتفتح النفس لعوامل السرور، ونشاط الانفعال لاسباب الترفيه والفرح والبعد عن الهموم والتشاؤم عوامل لابد منها لخلق جو الشباب الذى تنشد الظهور بمظهره ، وثق أن جسمك سيكون مرآة صادقة لما يدور فى نفسك .

وليس معنى ما تقدم اننا نطالب بالمستحيلات ... فالشخص المفرط فى البدانة ـ بحكم تكوينه ـ لايستطيع ان يبدو فى رشاقة نجوم هوليوود . ولكنه على كل حال يستطيع الا يخضع لكل نتائج ضخامة جسمه .. فكم من بدين كان خفيف الحركة خفيف الروح معا ، بحيث تنسى برشاقة روحه وخفة دمه ثقل وزنه . وكم من بدين كان قوى الشخصية مسيطرا على مقادير امته ومجتمعه او محبوبا من الناس .

ومعنى هذا ان هناك حدودا لكل شىء .. ولكن لاحدود لقوة الارادة . فبقوة ارادتك تستطيع أن تتغلب على آثار بدانتك ان كنت بدينا جدا ، فتكتسب شخصيتك خفة ورشاقة .. وتبدو المرونة على حركاتك رغم البدانة الى حد ينسى الناس حقيقة بدانتك .

ان الحقيقة التى يجب علينا جميعا ان نضعها نصب اعيننا ولا ننساها ، هى ان لكل نمط من الناس سحره الخاص به .. فلا ينبغى أن نحزن ونأسى لانتكويننايختلف عن النمط الذى كنا نتمناه لانفسنا . والحكمة كلها فى اتخاذ الحركات التى تتناسب مع نمطنا الخاص ، وتجعلنا فى داخل حدود النمط نظهر باحسن مظهر مستطاع .

وانا لا اشك فى ان نجوم الشاشة الفضية وكواكبها هم

اكثر الناس سحرا وفتنة لالباب النساء والرجال ، وأن كلا منا يتمنى لو كان مظهره كمظهر هؤلاء ، وأن معظمنا يتحسرون ظنا منهم أن ذلك ليس فى المستطاع .. ولهؤلاء نقول أن كل ممثل وممثلة لم يكتسب مظهره المعـــروف به الا بعد دراسة عميقة وتدريب طويل ورياضة نفســية

وهذا جدير أن يجعلنا ندرك أن البـــاب مفتـوح على مصراعيه أمام كل منا ليفعل ما فعله هؤلاء النجوم .. اعنى ان يتدرب على أسلوب خاص ومظهر خاص تكتسبه حركاته وهيئته العامة ..

وللتدرب على هذا المظهر المثالى الذى يكسبك السحر فى حدود تكوينك الطبيعى ، أخذت على عاتقى كتابة هذه الصفحات .. ابتداء من رشاقة الحركة ، الى رشـــاقة التفكير ، الى التوازن النفسى وترويض الانفعالات . ويأتى فى نهاية الشوط التدرب على الحياة المثلى الذى نوجزه فى كلمة واحدة هى الفرح بالحياة ..

والفرح هو حجر الاساس فى هذا البرنامج .. فيجب ان تبدأ من اللحظة الاولى برنامجـــك الجديد بتفاؤل واستبشار وثقة . أما اذا أعوزتك الثقة ، فمن الخير لك الا تجهد نفسك .. لانك لن تجنى من جميع محاولاتك الا الفشل ومزيدا من المرارة والحزن .

ان الحماسة هى العلامة المميزة للاستبشار والثقـــة والفرح بالحياة . وأرى من المناسب أن أسوق هنا مثل تلك الفتاة التى جرتها أمها جرا الى معهـدى ، فكانت اصعب حالة واجهتها فى مدة ممارستى الطويلة .. وكان اكبر مجهود لى منصرفا الى اقناعها بعدم المقاومة ، ثم غرس الايمان فى نفسها بجدية مشروعاتنا وجدواها ..

ولو افترضنا انني لم افلح في غرس ذلك الايمان بامكان امتداد الشباب رغم مرور السنين ، فلن تكون هناك جدوى من اى تدريبات أو توجيهات ، لان العامل الاول في الحصول على النصر هو ايمان الشخص نفسه وحماسته .

ولعله يكفى لتسويغ هذا الايمان أن التغيير هو دستور الطبيعة .. فكل شيء في عالمنا خاضع للتغير قابل له ، بل أين هو الشيء الذى حصل عليه الانسان من الطبيعة وتركه على حاله من غير أن يحدث فيه تغييرا لا يكاد يصدقه العقل لو لم يحدث ؟

ان الحضارة الانسانية ، وأعمال البشر جميعا ، لا غاية لها سوى احداث انواع من التغييرات فى كل شيء ... فلماذا نجعل التغيير - وهو دستور حياتنا كلها - مبدأ بعيدا كل البعد عن نفوسنا وأجسامنا وأسلوب معيشتنا الشخصى ؟

اننا بالتغيير الذى نحدثه فى الاشياء نحصل على كل ما نريد .. فبالتغيير الذى نحدثه فى المعادن والحجارة شيدنا ناطحات السحاب والبواخر والطائرات والسيارات وأنواع الروافع والمحركات المذهلة . وبالتغيير الذى احدثناه فى النبات صنعنا الخبز وطهونا أطباقا من الطعام لم صفا العقاقير وولدنا الكهرباء وقلقنا الذرة واستخدمناها تخلقها الطبيعة . وبالتغيير الذى احدثناه فى العناصر والمواد فى مستويات من التدمير والتعمير لا يحيط بها الخيال .. فلماذا لا نستطيع بالتغيير الذى نحدثه فى طريقة حركتنا وتفكيرنا وكلامنا أن نحصل على هالة من السحر واحساس بالنضارة والقوة ؟

ان مصير شخصيتك بين يديك ، وهو مرهون بارادتك

وايمانك وعزيمتك . وليس عليك الا أن تريد فيكون لك ماتصبو اليه ، وعلى قدر تصميمك ومثابرتك .. فنحن لا نجنى الا مازرعنا ، ومن زرع الشوك لا يحصد العنب . ومن زرع الخروع لا يجنى التفاح . وكذلك من زرع الخوف والتشاؤم والخذلان واليأس لن يجنى القوة والفتنة والسرور .

واعلم اننى حين أطلب اليك الوقوف طويلا فى خلوتك امام المرآة لتفحص نفسك وتراقب حركاتك وتعدل منها وتتحكم فيها ، لا اكلفك بعمل خرافى ــ فهذه التفاصيل الصغيرة تتوقف عليها الآثار الكبيرة ، ونجاحك التدريجى ــ فى كل يوم ــ فى أن تغير من حركاتك شيئا فشيئا كفيل بأن يمنحك الشعور بالنجاح .. فلا تيأس من الفحص والملاحظة والانتقاد والتعليل .. وبعد قليل ستشعر بالثقة نتيجة لنجاحك الصغير ، فيمدك ذلك بمزيد من الثقة يعينك على قفزات أخرى نحو النجاح اكبر وأشمل وأبعد مدى ..

وانا لا اجهل ان العقبة الكبرى فى سبيل تعديل الشخصية هى الخجل .. فالخجل على حد تعبير الدكتور جونسون داء يصيب العقل فيقضى على كل طاقة من طاقات الاقدام والامكان .

***

ومن اكبر عوامل الخجل الاحساس بالضآلة ، فمن لبهرهم الاشياء الكبيرة يشعرون بالعجز عن الوصول الى مستواها . ولهؤلاء أقول ان السنديانة الضخمة كانت فى بداية امرها بذرة مدفونة فى بطن الارض . ومن

وجهة نظره الى المستويات المتواضعة من النجاح ، وجد هذه المستويات محفوفة بانواع من المسرات والبهجة تكفي لسعادتنا اليومية . ومع مرور الزمن والمثابرة يزداد النجاح ، ومع كل خطوة نتقدمها نكتسب سرورا وثقة بانفسنا . وهكذا يؤدى الهين الى العظيم والصغير الى الكبير فى مدارج النجاح .

اقول هذا للمصابين بالخجل حتى يقدموا على الخطوة الاولى .. فكل صعوبتهم فى هذه الخطوة الاولى ، وليعلموا أن عدوهم الاول هو التردد ، وخير علاج له هو الشروع فورا فى كل أمر تصبو اليه نفوسهم .. وليتركوا للزمن بعد ذلك أن يضيف خطوة جديدة الى خطوتهم الاولى نحو غايتهم المنشودة .

واذا كانت الغاية المنشودة التى نحن بصددها هى صورة لانفسنا اكثر شبابا واشد سحرا ، فستجد نفسك تقترب من تحقيقها يوما بعد يوم .

ولئن كان هناك أكثر من تعريف للشباب ، فان أفضل التعريفات واشدها ايجازا ووضوحا هو « الحيوية » . والحيوية حالة نفسية وعقلية يعكسها الجسم .. فهى تتمثل فى التوقد والانتباه لا فى الشرود ، وفى التيقظ والصحو لا فى الخمول والتراخى ، وفى الاقبال على المسرات واستحداث المزيد منها لا فى التخاذل .

اننا نعيش فى عصر الذرة .. وهذا خليق أن يوجه أذهاننا الى امكانيات جبارة داخل الكائنات الصغيرة التى لا تراها العين ، وخليق أيضا أن يوجه عنايتنا اذ نربى أنفسنا تربية شابة الى أهمية الطاقة النفسية والطاقة الجسدية .. فندرك أن فى جسمنا طاقات كامنة

لو أننا أحسنا اكتشافها واستخدامها لحصلنا على منابع للقوة والحيوية لا حد لها ..

وأول خطوة نحو اكتساب الحيوية أن نعرف مصدرها الحقيقي .. ان هذا المصدر في داخل النفس ، انه في أعماقنا نحن وليس عقارا نشتريه من الصيدلية .

ولست أعني بالحيوية تلك القفزات والحركات المتوفرة التي تشبه حركات القطط .. ولكني أعني بالحيوية حالة يقظة النفس وتنبهها حتى ونحن لا نتحرك ، فالحيوية أشبه بالشحنة الكاملة في بطارية كهربائية . وهذه الشحنة موجودة وعلى أهبة العمل ، حتى حينما لاتدير المحرك الذي يعمل بتيار منها .

وأقول هذا الكلام على الخصوص تحذيرا للمتصابين والمتصابيات الذين يفرطون في القفز والنط تقليدا للاطفال والغلمان ، ظنا منهم أن تلك هي الحيوية . ولنتذكر ممثلة من طراز انجريد برجمان أو ديبورا كير أو جنيفر جونز .. انها تبدو صورة ناطقة للحيوية من غير قفز أو نط ، بل انها لا تأتي بحركة واحدة لا لزوم لها . وهذا يؤيد أن الحيوية حالة عامة لاترتبط بالحركة والسكون ، حالة تنبع من صميم النفس وتشع من الشخصية كلها .

وأهم مايلاحظ على الشكل العام هو وضع الراس والوجه ، فلتوجه عنايتك الى راسك .. ولتعلم أن الاطراق الى الامام علامة من علامات الشيخوخة التي ينبغي أن تستأصلها . وهي مسألة سنوفيها حقها في موضعها من صفحات هذا الكتاب ، ولكننا نشير اليها هنا اشارة عابرة لاهميتها .. فأوصيك منذ البداية أن

تجعل راسك امتدادا لعمودك الفقرى لا انثنــاء متداعيــا الى الامام ..

والوصية الثانية الا تدفع معدتك قدامك ، بل الذى ينبغى أن تدفعه أمامك هو صدرك ..

والوصية الثالثة أن تحافظ على مرونة ركبتيــك .. فالركبة من أوائل الحصون التى تهاجمها الشــيخوخة ، فتصلب الركبة يجعل الحركة ثقيلة فى الجسم كله ويضفى على المشية ظلا ثقيلا ..

والوصية الرابعة هى الاسترخاء .. فتوتر الاعصــاب يفسد الرشاقة فى جميع حركات الجسم ، فلابد مــن الراحة العصبية كى تستطيع تحقيق التوافق والانسجام فى حركاتك . والتوافق والانسجام هما سر بقاء وجمال كل شىء . من حركة الافلاك السماوية ، الى الموسيقى ، الى ضربات القلب والتنفس .

وهذا ينقلنا الى الوصية الخامسة وهى التنفس المنتظم العميق بحركات توافقية .. فليكن همك موجها الى تغيير طريقة تنفسك ، والتحكم فى كل مرة من مرات التنفس لتضمن الاسلوب الصحى فى الشهيق والزفير ..

وبعد هذه الوصايا الاولية ، سيكون من السهل عليك الابتداء فى تكوين الشخصية الشــابة التى تتمناها .. فليست هذه الوصايا الخمس الا محاولات أولى لهــدم العادات السيئة التى تورطت فيها . ويأتى بعــد ذلك التكوين الايجابى لشخصيتك الجديدة ..

واعلم انك لا تشيخ الا اذا سمحت لنفسك أن تنفصل عن ينابيع الشـــباب القائمة فى داخل نفسك .. ففى

استطاعتك ان تختار مرحلة الشباب التى تريد البقـــاء عندها . وعليك الا تسمح لنفسك بالتخلى عن مستوى الاحساس والحيوية المناسب لتلك المرحلة ، فان واظبت على ذلك لم يكن لمرور الايام تأثير جدى على شخصيتك . وعندئذ ستجد الناس يقولون عنك انك « بلا عمر » .. اى ان مظهرك لا يدل على حقيقة عمرك ..

ولكننى أجد من واجبى أن أحذرك من التكلف ... فيجب أن تكون عاداتك الجديدة طبيعة ثانية لك تؤديهـا بغير مجهود عصبى او ذهنى ، فالتكلف يفســد الجاذبية ويبطل سحر الشخصية ..

اننا نريد لك أن تكون على سجيتك .. وكل ما هناك انك ستعمل على الوجود دائما فى أحسن حالات سجيتك لا فى اسوأها ..

وبعد هذا التمهيد ســنبدأ معك الخطوات العمليـة لحصولك على اقصى امكانات طبيعتك الخاصة وشخصيتك الجذابة .

كيف تتنفس؟

ان طريقة التنفس هي اهم حركة درامية يقوم بهـا الشخص .. فكل فكرة ، وكل انفعال ، تجده مصورا بشكل واضح جدا فى انفاس الانسان . ولو أنك وجهت اهتمامك الى مراقبة الناس وهم يتنفسون لعرفت الكثير جدا عنهم ..

وحسبك أن تعلم أن جميع الممثلات والممثلين يتدربون فى بداية تاريخهم الفنى على كيفية استخدام التنفس فى التعبير عن مختلف الانفعالات والعواطف والحالات النفسية وليس هذا غريبا ، فنحن حينما نكون سعداء أصحاء فى ريعان الشباب نتنفس بطريقـة هادئة منتظمة الايقـاع انفاسا عميقة وفى غاية من السهولة واليسر .

فاجتهد أن تتدرب على اخفاء معالم كل جهد تبـذله فى التنفس حتى لا يشى هذا الجهد الظاهر بتقـدمك فى السن .

وكلنا نعلم بالتجربة أننا على اثر اى مجهود كبـير ــ سواء كان مجهودا بدنيا أو نفسيا ــ نحتاج الى فترة من الراحة كى يسترد تنفسنا هدوءه المعتاد ، لان المجهود البدنى أو النفسى يترجم فى الجهاز التنفسى بصـعوبة

واضحة فى التنفس .. لان الرئتين فى حالة المجهود الشاق ، تحتاجان الى مزيد من الاوكسيجين يدخل الى أعماق أبعد غورا ..

ولما كان كل كيلوجرام من الشحم أو البدانة الزائدة عن حاجة الجسم الطبيعية ، يعنى فى الواقع حمولة مستمرة بمقدار هذا الوزن نفسه .. فكأن الشخص البدين يحمل سلعا يعادل وزنها وزن بدانته المفرطة .. ويحمل هذه السلع الثقيلة فى حال نومه ويقظته ، وفى حال سيره ووقوفه وجلوسه . ولك أن تتصور بعد هذا ما يتكلفه ذلك من أعباء مستمرة على الجهاز التنفسى .

فأول مايلزمك لاخفاء مظهر البدانة ، هو أن تتدرب على التنفس الهادىء المنتظم .. ذلك النوع من التنفس الذى يتميز به النحفاء ، والا تشعر من يسمعك وانت تتنفس أنفاسا قصيرة متلاحقة كأنك تلهث باستمرار من اثر الجرى الطويل .. فان هذا اللهث لا يتناسب الا مع الحماسة الزائدة . ومتى لاحظ الناس أن شخصا يلهث ، وهو يتحدث ، توقعوا أن يسمعوا منه أنباء مثيرة ، سواء كانت تلك الانباء سارة أو مكدرة .. فاذا تكشف هذا اللهث عن كلام عادى جدا شعر السامعون بنوع من خيبة الامل فى المتكلم .

وهكذا يكون التنفس القصير المصحوب بمجهود ، ليس له مايبرره ، عاملا فعالا فى هدم قوة الشخصية والمباعدة بينها وبين صفات الجاذبية .. بل يلحق بالشخص أوصاف السخافة المضحكة . فما أشبهه بذلك الغلام الذى جعل

يصيح « الذئب .. الذئب » ثم يتكشف الامر عن أكذوبة، فلم يعد يعبأ به أحد مهما صرخ واستغاث . فلما أتاه الذئب حقيقة واستنجد صائحا لم يسرع الى نجدته احد اعتقادا منهم انه هازل كالعهد به .. وكذلك ذو النفس القصير اللاهث يتوقع منه الناس كلاما مثيرا يتكافأ مع الاثارة الواضحة فى تنفسه ، ثم لا يجدون فى كلامه مايثير .. فما أجدأهم الا يكترثوا لكل ما يقول حتى عندما يكون لديه مايستثير الاهتمام من فنون الكلام .

وأجهزة الاذاعة مزودة بأزرار يضغط عليها المتكلم ، فيقطع الارسال على الهواء طرفة عين ، يستغلها المتكلم فى تعبئة صدره بأنفاس عميقة تساعده على الكلام الهادىء مدة تكفى لالقاء بضع عبارات على التوالى .. ولكنك فى الحياة العادية ، لا تستطيع استخدام مثل تلك الحيلة النافعة . وعليك أن تبحث عن وسيلة أخرى تؤدى نفس الغرض ..

ولهذا سنتعلم منذ الآن كيفية التنفس بهدوء وثقة واطمئنان .. ومعنى ذلك أن نتعلم التحكم فى استعمال جهازنا التنفسى ، ونتدرب بصبر ومثابرة على تعبئة صدرنا بالهواء ، فى بطء يكفى لاعطاء الانفاس زمنا طويلا

ويجب أن نسأل انفسنا أولا : ما الذى يجعل انفاسنا قصيرة متلاحقة ؟..

انه الخوف ! ..

ولسنا نعنى بالخوف أن الشخص خائف في اللحظة الحاضرة من شيء ماثل أمامه ، بل نعنى أن الشخص قد تأصل فيه شعور كامن بالخوف من مصادر اندثرت فى

عهد طفولته ، وربما نسيها تماما فى كبره . ولكن الاحساس بالخوف يبقى ، ويتسبب فى توتر الاعصاب اللاارادية ، ويجعل تنفسه تنفس شخص متوجس يستولى الخوف على مشاعره ولا تتوفر له الطمأنينة التى تجعله يتنفس على سجيته شأن جميع من ينعمون بالراحة النفسية .. فتنفس المطمئن المستريح عبارة عن انفاس عميقة يسيرة سهلة لا تحتاج الى مشقة فى تحصيلها ..

وليس الخوف وحده هو علة انبهار الانفاس ... بل هناك ايضا سبب اكثر شيوعا وهو الانانية ، فالشخص الذى يتركز احساسه داخل ذاته ويفكر دائما فى نفسه تكون انفاسه هزيلة سطحية . ولذلك يلاحظ الاطباء النفسيون ان حالات الانطواء تجعل صاحبها معرضا لعلل الرئتين . وليس معنى هذا بالطبع ان العكس صحيح ، وان كل اضطراب فى الرئتين معناه ان المريض انطوائى وانانى يركز اهتماماته فى شخصه .. وان كان اضطراب الرئتين يجبر الشخص غير الانانى على ان يوجه معظم اهتمامه الى شخصه ، لان كل نفس يتنفسه عملية شاقة تحتاج منه الى ترقب وعناية واهتمام ..

وانى حريصة على توجيه عناية القارىء الى اهمية الاوكسيجين بصفة خاصة كعامل مساعد على تقليل كمية الشحم لدى الشخص البدين ، لانه يحرق الدهن اذا كانت الانفاس عميقة قوية ، واقول ان ذلك عامل مساعد ، ولكنه لا يكفى لتقليل الوزن من غير ان يتبع الشخص البدين نظاما خاصا للتغذية والرياضة ..

ولعله مما يزيد اهمية التنفس وضوحا فى الدلالة على الشخصية أن الممثلين الذين يحفظون فى وقت واحد ثلاثة أدوار مختلفة .. أحدها الدور الذى يؤدونه فى الرواية المعروضة فعلا ، ودور آخر يتمرنون عليه لرواية الاسبوع التالى ، ودور ثالث يحفظونه ويستعدون لادائه فى الاسبوع الثالث .. هؤلاء الممثلون كيف لا يخلطون بين الادوار الثلاثة ؟

انهم باعتراف الكثيرين من كبارهم يعتمدون على طريقة التنفس .

فكما قال « روبرت باريت » :

ـ بمجرد أن اتصور طريقة تنفس الشخصية التى امثلها ، أجد نفسى أؤدى الدور برسوخ وثبات .. وتنهال السطور على ذاكرتى مترابطة متميزة عن سطور الشخصيتين الاخريين ، لان لكل شخصية طريقتها فى التنفس التى تتفق مع طريقة معينة من التعبير بالالفاظ والكلمات .

ويلى التنفس فى الاهمية السمت أو الهيئة العامة أو الوضع العام للجسم .. بل الحقيقة أن السمت والتنفس توأمان ، فطريقة الانسان فى بسط قامته تنتج عنها على الفور طريقة معينة فى التنفس . فلابد أن تتعلم ابراز صدرك ، وبسط قامتك ، ورفع رأسك ، كى تهيىء لنفسك أكبر حيز ممكن من التنفس العميق .

ستفعل هذا فى أول الامر عامدا وأعيا لما تفعل ، وسيوحى هذا الى من يرونك بأنك قوى الشخصية .

ولكن أهم من ذلك ماستوحيه أنت الى نفسك بهذه الهيئة من الثقة بقيمة كل عمل يصدر منك .

ولا تظنن أن المسألة صعبة .. بل تذكر حالة المغنين فى الاوبرا ، فهم بشر مثلى ومثلك . ولكنهم بالتدريب الواعى والمثابرة تمكنوا من جعل أنفاسهم تطول بشكل يذهل السامعين . وأهم من ذلك أن تلك الانفاس الطويلة القوية لا يبدو عليها أى أثر للمجهود الشاق .

ان السر الكبير هو التمرين على التنفس العميق مع بسط القامة وابراز الصدر .. وبعد مدة من التدريب تصبح هذه الطريقة فى التنفس والهيئة عادة راسخة لا تقتضيك أى مجهود واع .

الم تر فى حياتك طفلا يعلمونه المشى على قدميه لاول مرة ؟

ان كل خطوة صغيرة من خطوات الطفل تقتضيه مجهودا شاقا للغاية ، بحيث يكون من التعسف أن تقنعه فى تلك اللحظات بأن المشى بعد مدة وجيزة سيكون طبيعة راسخة فيه ولا تكلفه تلك العادة اقل مجهود ذهنى أو عصبى ، وان اتقانه للسير سيكون تاما وفى نفس الوقت سيكون مجهوده العصبى والذهنى صفرا فى المائة !

وكذلك الحال فى تعلم التنفس الطويل العميق ، فالمهم أن تتنفس دائما انفاسا طويلة عميقة ولا تكترث لما يكلفك ذلك من اهتمام ومجهود عصبيين .. وثق انك ستتنفس بهذه الطريقة بعد مدة من الزمن من غير تفكير ومن غـ عناء على الاطلاق ، لان التنفس العميق الطويل سيكو

عادة راسخة وطبيعة ثانية مثل طريقتك في المشى على قدميك تماما ..

تنفس ببطء وفي غير لهفة .. تنفس باطمئنــــان ولا تجعل تنفسك وكأن كمية الاوكسيجين التي في السكون مهددة بالفناء بعد لحظة .. تنفس بأناقة وبطء وثقـــة كما تتناول الطعام بأناقة وبطء وثقة ؛ فاللهفة في التنفس كالشراهة المتلهفة في ازدياد الطعام كلاهما منظـر قبيــح يدل على فساد التربية والتعليم لاساسيات الحياة .

ومن هنا جاء قول بعض الباحثين ان طباع الشــخص من سخاء او شح وتقتير ؛ ومن اناقة وتهذيب أو جشــع وشراهة ، تبدو بوضوح في طريقة تنفسه مثلمـــا تبــدو تماما في سلوكه على المائدة .

ومن الملاحظ أن المغنيات المتفوقات اللواتي تدربن على التنفس الطويل العميق المنتظم يحتفظن لهـــذا الســـبب بكل مظاهر الشباب وان تقدم بهن العمر . وقد ظلت المغنية المشهورة « ليلى بوندس » الى ما بعد الســـتين وكأنها في سنواتها الثلاثين .. نضارة شباب ، واعتدال قامة ، وهدوء ملامح .

وليست هذه النظرية من مكتشفات العصر الحـــديث كما يظن البعض ، فحكماء الهند القدماء الذين يمارسون « اليوجا » منـــذ آلاف السنين يجعـــلون التدرب على التحكم في التنفس ركنا اساسيا من رياضة النفس على اسلوبهم الذي يشـــبه المعجزات .. فهم يعتقدون أن التنفس رمز للنفس ، وأن أسلوب التنفس تعبير عن الحياة الروحية ومعانيها الصوفية . وحجتهم في هـــذا

منطقية جدا ، فكلنا نعلم أننا نستطيع ان ننقطع عن الطعام والشراب فترة قصيرة من غير أن نتعرض للموت .. أما التنفس ، أما الهواء ، فانقطاعنا عنه أو انقطاعه عنا يعني الموت المحقق في مدى قصير للغاية . وهذا دليل قاطع على أن للهواء أهمية حيوية وروحية تفوق بمراحل أهمية الطعام والشراب .

واستخلصوا من ذلك أن الانسان يستطيع أن يتحكم في حياته كلها ، وفي روحه ، اذا تمكن من التحكم والسيطرة على تنفسه . ومتى تم له ذلك سيطر على حالته البدنية أيضا ، وعلى عواطفه وانفعالاته ، بحيث تسلم نفسه من الشقاق والصراع .

ونحن لا نعتقد أننا مضطرون الى الزهد والتنسك واعتكاف الناس وترك الاهتمام بالامور الدنيوية كلية كي نصل الى ذلك التحكم في تنفسنا . ولكننا نعتقد ، في الوقت نفسه ، ان صفاء النفس وعدم التفكير في الامور القلقة ضروريان لتنظيم التنفس .. وطمانينة النفس المطلوبة لا تتاتى بشيء كما تتأتى بالصلاة ، فالانسان المؤمن مطمئن النفس على خلاف الشخص مزعزع الايمان . وليس معنى هذا أن الله هو الذي سيتولى عملية تكوين عادات التنفس الصحيحة لنا ، بل معناه أن ركوننا الى عنايته ورحمته يخلصنا من القلق الذي يقصر أنفاسنا .. فنتمكن من تكوين عادة التنفس الهادىء العميق الطويل الذي يترجم عن طمأنينة النفس وراحتها من الشقاق والصراع ..

وقد لاحظ العالم النفساني الشهير « وليم جيمس »

علاقة التنفس ووضع الجسم بالحالة النفسية فقال :

ـ الشخص الذى لا يمنح نفسه كل المتسع للكرسى الذى يجلس عليه ، بل تجد ساقيه وعضلات جسمه دائما نصف متأهبة للنهوض .. ويتنفس ثمانى عشرة ، أو تسع عشرة مرة فى الدقيقة ، ولا يأخذ نفسا منها بصورة كاملة ، لابد أن يكون فى حالة لهفة أو توقع ... ولابد إن المستقبل وهمومه يشغلان ذهنه .

والهدوء العصبى الذى يقضى على القلق ليس له باب فى النفس أوسع من باب الايمان بالعناية التى تدبر مصائر البشر .

واول فكرة يجب ان يضعها الشخص فى ذهنه ، هى مبلغ ما للهواء من اهمية فى تكييف شخصيته .. فالاوكسيجين هو الذى يجدد حياة الخلايا فى جسمك ويمنح الحيوية لدمائك . ولو رجعت الى اى كتاب مبسط عن نظريات التخدير ، لعرفت أن نسبة الاوكسيجين فى الدم هى أهم عامل للحيلولة دون وفاة المريض الواقع تحت التخدير .. لذلك كان اختراع جهاز لتحديد الاوكسيجين فى الدم اثناء اجراء العمليات من أعظم الانتصارات العلمية التى وفرت السلامة للمرضى .

ومتى وضعت نصب عينيك هذه الفكرة ، فاعمل على ان تتفرغ فترة معينة كل يوم للاسترخاء بحيث تجعل عمودك الفقرى فى وضع مستقيم قدر الاستطاعة وأنت جالس واضعا راحتيك على ركبتيك من غير توتر .. فاسترخاء العضلات والاعصاب ذو أهمية كبرى . واجعل

قدميك مستقرتين مسطحتين تماما على الأرض ، ثم ابدأ فى التنفس ببطء وعمق تنفسا منتظما . وستلاحظ بعد نصف دقيقة أن آثار شواغلك العرضية والذهنية قد تبخرت فى الهواء . وفى نفس الوقت يحدث لدمك نوع من الصفاء والتجدد والتنقية من الشوائب . وباستمرارك أطول مدة ممكنة فى هذا التمرين فى الجلسة الواحدة تصل الى الصفاء ، وتجدد الطاقة ، وترتفع روحك المعنوية كأنك حصلت على منبع من أغنى منابع الالهام .

وليس هذا الاحساس خدعة .. فلو أنك فكرت قليلا لعرفت أن الهواء هو أرق وأهم مصادر النعم الالهية الموزعة فى الكون .. فحصولك على نصيب أكبر من المعتاد من هذه النعمة ، هو بمثابة صلة جديدة قوية بينك وبين العناية التى نظمت الكون ونظمت طبيعتك الخاصة . ومن حسن الحظ أن الهواء ، وهو أعظم النعم الالهية ، لا يباع ولا يشترى كالطعام والشراب ، ومن حق كل انسان أن ينال من تلك النعمة العظمى أكبر قسط ممكن .. فيجنى لنفسه وبدنه وشخصيته أعظم الفوائد الممكنة ..

***

ان أهم أركان الجاذبية فى شخص ما هو اهتمامه بالآخرين .. فكيف نترجم هذا الاهتمام الى طريقة فى التنفس ؟

سبيل ذلك هو الهدوء .. فاذا راقبت المتفرجين فى

مسرح وهم يركزون اهتمامهم فيما يدور امامهم ويستولى على البابهم من المشاهد الروائية ،ستجدهم يتنفسون انفاسا هادئة جدا .. انفاسا مستريحة . وقد انفرجت شفاههم بعض الشيء ، وكان جميع مسام اجسامهم متفتحة لالتقاط مايدور بين سمعهم وبصرهم .

ولو انك لاحظت فتاة وهى تصغى لحديث رجل مفتون بها للاحظت الهدوء التام فى تنفسها مصحوبا باسترخاء كامل فى ملامحها وعضلاتها ، وكانها تشرب كلماته شرب المستمع المطمئن ..

ومن علامات الاهتمام بالناس أن توفر لهم طريقة فى الكلام مريحة لاعصابهم ، فيكون صوتك هادئا ... ولا تتقطع كلماتك لقصر انفاسك ، بل خير من هذا أن تترك شفتيك منفرجتين قليلا وانت تتكلم كى تحصل على حاجتك كلها من الهواء .

ولا يفوتنى فى هذا الموضوع ان انبه الى اهمية الانفاس النقية المعطرة .. فالشخص الكريه الانفاس بغيض الى النفس ، ولا يحب الناس أن يعاشروه مهما كانت صفاته الاخرى ممتازة ..

ولسوء الحظ لا يشعر مثل ذلك الشخص بآفته تلك لان نظام حاسة الشم والتنفس يحول دون احساس الشخص نفسه برائحة أنفاسه الكريهة ولكن انطباعات الآخرين هى التى تشعره بمصيبته . وفى هذه الحالة يجب الا يتوانى فى الذهاب الى طبيب يشخص حالته ويساعده على تنظيف جوفه . ولا باس من استعمال

انواع من الحبوب العطرية التى تكسب الانفـاس رائحة القرنفل او رائحة النعناع .

وفى هذه المناسبة يحضرنى مثـال طـريف . فقـد التقيت منذ مدة وجيزة فى مدينة واشـنطون بصـديق قديم من ابرز الناس فى الهيئة الاجتماعية . وكان زوجا على التعاقب لعدد كبير من الحسان وسيدات الطبقـة الراقية ، فسألته مازحة :

ـ ما الذى اغراك بالزواج من زوجتك الاخيرة وهى اقل جمالا من المتوسط ، ومستواها الاجتمـاعى لا يتلاءم مع مستواك كثيرا ؟

وكم كانت دهشتى حين اجابنى :

ـ انها تبدو دائما ناضرة المحيا ، ورائحتها كرائحـة البستان المزهر على الدوام !..

ولم أستطع أن أخرج من ذهنى بعد ذلك ان حياة الرجل الخطير يمكن أن توجهها الاستفادة البـارعة من قطعـة الصابون الجيد .

***

ويلحق بالتنفس طبعا عنصر هام فى دلالتـه عـلى الشخصية ، واعنى به طريقة الضحك .. فهناك فـارق كبير بين ضحكة الشباب وضحكة الشيوخ ، بل ان طباع الرجل تفضحها ضحكته بطريقة لا يمكن ان تخفى على احد .. مهما كانت براعته فى التمثيل .

ان الانفاس القصيرة تجعل الضحك سطحيا وفى نبرات متقطعة صغيرة ، وكأن الضاحك بهذه الصـورة يقـول لمن حوله :

ان الضحك يكلفنى عناء شديدا .. او ان سرورى

بمـا سمعت ليس حقيقيا الى الحـد الذى يفيض من اعماقى .

ولو انك راقبت الممثلين الكبار يسـتندون الى كـل شخصية طريقة تناسبها فى الضحك .. فمـن يمثـل شخصية اياجو الشرير فى مسرحية عطيل لابد ان يجعل ضحكته قصيرة حادة ، ضحكة شخص لا يشعر بالسرور الا بمهارته الخاصة فى الكيد والدس ، حتى اذا نجحت وقيمته وقتل عطيل ديدمونة تحـولت الضحكة القصيرة الحادة الى ضحكة رنانة كأنها أجراس النصر .

ان الشخص الكريم الكبير القلب يضـحك من أعماقه ضحكات لا يبدو عليها أثر الاجهاد .. واذا قال الشاعر انه لا خير فى « ود أتى وهو متعب » فلا خير كذلك فى سرور أو ضحك أتى وهو متعب !

والضحكة العميقة الطويلة المنطلقة تحتاج الى تمـرين كالتنفس تماما ، فاجلس وحدك واملأ صدرك بنفس عميق ثم اخرجه على دفعات صغيرة وانت تقول مع كل زفـرة صغيرة :

ـ ها .. ها .. ها ..

وبذلك تستخدم عضلات الحجاب الحاجز كلهـا فى امداد ضحكتك بأصوات وأنفاس تدل على العمق والرحابة. وشيئا فشيئا تهذب هذه الاصوات وتجعلها أكثر نعومة وأقرب الى السجية التى لا تحتاج الى تكلف أو مجهود .

***

وقبل ان نخطو خطوة اخرى بعد العنـاية بالتنفس ، يجب ان نوجه اهتمامنا لتكامل وظائف العقل والجسد فى كل نشاط بشرى حيوى ..

الفصل الثانى :

احفظ توازنك

مامن أمة من الامم الا وجهت ـ منذ أزمان طويلة ـ عناية كبيرة واهتماما اكبر للمحافظة على شباب الجسم والعقل معا .. لقد قام الطب والعلم ـ متساندين ـ بحماية الشباب ورعايته ، وبذلا فى سبيل تحصينه ضد عوائل الضعف والمرض جهودا جبارة ، وكللت هذه الجهود بانتصارات باهرة فى القرن الحالى ..

وقد أصبح فى الدرجة الاولى من الاهمية البحث عن قانون التأثير المتبادل الذى يربط الصلة بين صحة الجسم وصحة العقل !

وغنى عن الايضاح أن شباب الجسم لا يضمن بحال من الاحوال شباب العقل ، وأن شباب العقل ليس معناه بالضرورة شباب الجسم .. فالامراض لا يتحتم وجود ارتباط بينهما ، على أن ذلك لا يمنع أن يكون هناك نوع من التأثير المتبادل فى حدود معينة لم تعرف الى الان .

وبين ظهرانينا أشخاص يتمتعون بشباب جسمى ملحوظ ومع ذلك فانهم فى الوقت نفسه ينحدرون باستمرار الى مهاوى الشيخوخة العقلية . ومن المؤكد

ان ينتهى ذلك الى انهيار الشـــباب الجسمى الظاهرى ، والارجح ان يكون انهيارا خاطفا .. ذلك لان العقل المندفع فى ســـبيل الاضمحلال حينما يصل الى خاتمته ، يلقى الاختلال المفاجىء فى أساسه لا فى أطرافه .

أما العكس ، وهو التمتع بشـباب عقلى متوقد فى الوقت الذى تخمد فيه الطاقة البدنية ، فأمر ملحوظ فى حالات الاشـخاص العباقرة ، ولا يوقف نشـــاط العقل فى هــذه الحالة الا انطفاء شعلة الحياة من ذلك الهيكل نهائيا .. على ان الخطر فى هــذه الحالة أقل كثيرا من الحـــالة السـابقة ، ذلك لان العقل يتحكم فى الجسم بمقــدار أكبر كثيرا من تحكم الجسم فى العقل !

وبديهى ان الرجل الذى يحتفظ بقواه النفسية جـدير بأن يحصل على غذاء نفسى كاف يمده بالقدرة على مقاومة الامراض واعتلال البنية وتدهور طاقتها ، وما من أحد من العلماء أو من غير العلماء يمكنه ان ينكر هذه الحقيقة الملموسة . واذن فشـباب الجسم لا يمكن المحافظة عليه بغير سند من شـباب العقل ، كما ان سلامة البدن واتساق وظائفه لايتحققان الا مع سلامة الذهن واتسـاق وظائفه !

ومما لاشك فيه ان الشـخص الذى يشعر بانه شاب ، والذى يدل مظهره ــ ولا سيما جلده ــ على انه ما يزال فى مرحلة الشـباب ، يكون من السهل عليه جدا ان يحتفظ بثقته بنفسـه وبشـباب وجدانه ونفسيته !

وبناء على ذلك ، نرى احيانا رجالا فحولا ونساءمليحات وقد صـــاروا الى الشـيخوخة بين طرفة عين وانتباهتهـا

تحت تأثير ضربة قاصمة أو ألم نفسى أو ذهنى أو صدمة عميقة !

وكثيرا ما نسمع أن العلم والطب توصلا الى وسائل لحفظ الطاقات النفسية .. غير أنه لا جدال فى أن شباب العقل عامل مستقل لم يتعرض له العلم بصورة حاسمة .. فانهيار شباب العقل هو الخاصة المميزة لعصرنا الحاضر ، مع أن العلم بلغ فى هذا العصر مالم يبلغه فى أى عصر من العصور السابقة !

وامام أعيننا ظاهرة نلحظها كثيرا .. ان الشبان فى هذا العصر تدركهم الشيخوخة أسرع مما ادركت أجدادهم ، ومرجع ذلك ـ قطعا ـ لاسباب تتصل بالحياة العقلية . فالشباب الحديث يدب البلى الى عقله بسرعة ، فيفقد مرونته وقدرته على الكفاح والنضال ، بسبب تعرضه فى معيشته الرتيبة لمؤثرات نفسية وصدمات عصبية هى فى الواقع أفدح ما يكون ضررا .. حتى أنه ليس من المبالغة القول أن شبان هذا الجيل يصلون من الشيخوخة الى حد الخرف ، وهم بعد فى ربيع العمر الزاهر بالنسبة الى ما كان عليه آباؤهم واجدادهم !

هذه حقيقة واقعة لا تنكر ..

ان متاعب الحياة وأعباءها المتزايدة من اكبر العوامل التى تستحث الاعياء والانهيار فى نفسيات الشباب ، بما تسببه لهم وتفرضه عليهم من التخاذل والضيق والسأم والفشل وخيبة الامل وفقدان الايمان والرجاء !

ولقد كان لتكبير سلطة المدينة والمجتمع والدولة ، وتشعب الاعمال والمسئوليات ، اكبر الاثر فى تضخم

مشكلات الحياة الاجتماعية تبعا للتطور الصناعى والفنى من اطوار الحضارة .. وبقدر ما سيطر الانسان على الطبيعة بالفن الصناعى ، سيطر الفن الصناعى عليه وعلى مستقبله ومصيره ايضا . فاذا كان الانسان فيما مضى كفؤا لمناضلة الطبيعة والسعى وراء التغلب عليها وبذل الجهود لاثبات شخصيته وفرديته بهذا الانتصار ، فانه اليوم يجد نفسه عاجزا مكتوف اليدين أمام ذلك العملاق الفنى الصناعى الذى ابتدعه هو بنفسه لاستعباد الطبيعة .. مثله فى ذلك مثل جنى الخرافة الذى خرج من القمقم ، يصنع بمن اخرجه مايشاء ولا يستطيع من أخرجه لذلك دفعا !

وقديما كان الانسان مناضلا ممتلئا بالثقة ، كبير الرجاء .. أما اليوم ، فالاستسلام هو الطابع الذى يميزه ، والمشاهد اليوم أننا لا نستطيع التصرف فى عوامل الحياة اليومية الخارجية ، وليس لنا أمامها الا الرضوخ واخذها كما هى ..

ونخرج من ذلك بحقيقة لا تنكر : هى أن مشكلة العصر انه لا هدف للحياة ، ولامجال لاثبات الشخصية والفردية ، ووجود الفرد فى هذه الايام ليس له أثر ذاتى .. فالناس ارقام فى سجل الحياة العصرية ، يتأثرون بها وليس لهم تاثير عليها . كأنهم مجرد آلات صماء لا ارادة لهـا ولا حرية !

اذن هذه هى المشكلة .. لقد تطور الانسان فانقلب من الفعل الايجابى الى السلبية ، ومن اثبات الكيان والوجود الى ما يشبه العدم ! .. وهذا هو سر الشعور

بالفشل والزهد فى الحياة والاعراض عنهـا ، فهو أقرب الى من يعيش فى خرائب من الحطام ، حطام الامال المنهارة والقيم المتهدمة !

فاذا فكرنا فى علاج ذلك الانسـان ، فان أول ما يجب هو نزع ذلك الحطام ، وأن نحـاول اعادة بنـاء الخرائب لتتحـول الى ما كانت عليه فيمـا مضى .. قصورا أو مشروعات قصور يشيدها الانسـان بنفسـه ، ويعيش على امل تحقيقها !

ومن المؤكد أننا اذا أخذنا بيد ذلك الفرد المحطم النفس، وأحسنا ترويضـه وتوجيهه ، لامكنه أن يبحث فى البيئة الخارجية عن الغذاء النفسى الذى يرد عليه عافيته ... على انه يجب أن تبذل العناية لذلك قبل استفحال الامر وظهور اعراض المرض ، وبمعنى أقرب الى الفهم : منذ سن الطفولة . فكما يحصن الاطفال ضد الجدرى ، وضد الدفتريا ، يجب كذلك البحث عن تحصين يكسبهم المناعة مقدما من انهيار الامال وخيبة الرجاء فى الحياة !

وهذا الواجب منوط به معاشر الآباء والمعلمين والمربين والمشرفين والاوصياء من كل نوع وجنس ..

ومن المستحسن الا نغفل الازواج الجدد والمتربعين فى كراسى الحكم والسلطان فى كل ركن من أركان المعمورة ، فنحذرهم من الاعتقاد بأن شباب البدنوالتربية التعليمية ليسا الهدفين الوحيدين اللذين يحسن الاقتصـار على تحقيقهما .. فان صحة العقل وشبابه لا يمكن تحصيلهما بقراءة النصوص والاختلاف الى المسـارح والمحاضرات ، ولكن بدراسة وتحليل نفسية الطفل الناشىء وتمحيص

جميع المؤثرات المحيطة به ، للوصول الى أصلح الوجهات له في العمل وفي الحياة العامة وفي المهنة وفي أسلوب المعيشة !

ولا يمكن بحال من الاحوال توفير هذه العناية الفردية في المصانع الحالية والورش وما الى ذلك ، مما نسميه المدارس العامة أو مدرسة الحياة ، وانما تقع تلك المهمة الهامة على عاتق الاسر والاصدقاء أجمعين ..

فالعناية بالشخصية والاخذ بأسباب نموها هو الاساس المتين .. بل هو حجر الزاوية في الصحة النفسية ، تلك الصحة التي لا صحة للبدن بغيرها بل لا سعادة ...

وبغير سعادة لا يكون شباب متجدد ، ولا تكون حياة سعيدة مديدة .. ولاى أمر نتمنى طول الحياة اذا لازمنا الضيق بها ؟!..

***

يجب الا يغيب عن الذهن أن النضال ضد الشيخوخة ــ ولا سيما الشيخوخة المبكرة ــ شأنه في ذلك شأن النضال ضد أي مرض آخر ، يحتاج الى درس المؤثرات النفسية كما تلزم الادوية والعقاقير ؟

ولا يمكن انكار اهمية الدور الذي يقوم به العقل في تقدم الشيخوخة بخطى حثيثة ، وان لم يمكن حتى الان تحديدها بالقياس الدقيق ..

واذا نظرنا الى الأمر من وجهة نظر الطب الظاهري ، نرى أنه يعتبر العقل على جانب كبير من الاهمية ،باعتباره قوة من القوى الكفيلة بالسيطرة على الصحة العامة وتغيير حالتها ..

ومع أنه قد تيسرت للطب والصحة وسائل عديدة للقضاء على كثير من الامراض وتخفيف الالام ، فان هذه الوسائل نفسها لم تفلح فى وقف ازدياد الامراض العقلية والاضطرابات النفسية وسائر الوان الجنون والاختلال العصبي ، فضلا عن الشذوذ الجماعى وهستيريا الجماهير.

ومما هو أشد من ذلك خطرا أن الامم التى قطعت شوطا كبيرا فى مجال الحضارة والتقدم من ناحية علم الصحة والعلاج الطبى ومستوى التغذية وممارسة الرياضة البدنية ، يلاحظ أنه قد ازدادت فيها الامراض العقلية الى درجة كبيرة ، كما تدل على ذلك الاحصاءات الرسمية .. تلك الاحصاءات التى تبين أيضا أن علاج هذه الامراض بالوسائل المعروفة ليس ذا أثر فعال ، وأنه ليس هناك ما يبعث الامل على أن نسبة الزيادة ستقف عند حد .. فضلا عن تناقصها .

ويقرر احد الاساتذة فى كتاب له : « ان الغالبية العظمى من حوادث الخروج على القانون والعدوان على الافراد ترجع الى اختلالات نفسية ! »

ومن المسلم به أن كل ما حظيت به الحضارة من تقدم ، وما أحرزته من نجاح في وسائل العلاج والمحافظة على الصحة البدنية والعافية العضوية ، لم يفد شيئا فى وضع حد لتدهور صحة البشر النفسية ..

ولا يختلف الشبان فى أن وجودنا يتحكم فيه عاملان لا ثالث لهما : الحياة الطبيعية للجسد ، وحياة العقل .. فاذا ظل هذان العاملان جنبا الى جنب فى حدود جسمنا المادى ، ظل المرض العقلى فى حالة غموض من وجهة النظر

العلمية الدقيقة ، فلم يتمكن العلم من الوصول الى تفسير العلة النفسية ، ولهذا اوصى أحد الاساتذة بمزيد من البحث العلمي فى هذا الاتجاه ، لدراسة العلاقات المتبادلة بين صحة الجسم وسلامة العقل ، أو اكتشاف هذه العلاقات .

وللتقدم الذى احرزه العالم فى علم الطب ، أصبحنا نعرف على أى نحو تتغذى خلايا جسمنا ، ولكننا لانستطيع حتى الان أن نجزم ان كان هناك غذاء للعقل أم لا ، وان كان ذلك الغذاء موجودا ، فنحن لا نعلم حتى الان كنهه !

على أن العلم النظرى المجرد ، والموسيقى ، والفن ، والادب ، لم تستطع هذه كلها أن تحول دون حدوث الانحلال الخلقى الظاهر ، والاضمحلال فى صحة البشر النفسية جماعات وجماعات ، وبخاصة فى أشد الامم مدنية وحضارة !

والانسان يعلم جيدا أن عوامل الحضارة لا تؤتى أثرها الفعال الا للعقول الممتازة التى يمكنها تمثل جوهرها الثمين وهضم ثمراتها السامية .

ومن الحقائق العلمية أن الخلايا العصبية لا تتكاثر على مدى الحياة ، بل هى على العكس تماما تتناقص فتموت خلية فى اثر خلية .. وبالرغم من ذلك يظل الجهازالعصبى قائما بوظيفته ونشاطه ، وربما ازداد فى السن المتقدمة نشاطا وقوة اثر .. وانه لتناقض ظاهر ، ولكنه مع ذلك واقع ملموس .

ولذلك وجب التساؤل : كيف اذن تموت الخلية العصبية ؟

والجواب على ذلك أنها تموت كما تموت سائر الخلايا .. تموت جوعا اذا لم تمت بحادث ، وليس معنى الجوع انها لا تجد الغذاء ، بل معناه فى الغالب أنها لا تستطيع تمثل الغذاء حتى ولو كان الغذاء حاضرا اليها ..

ومما نعلمه أن الخلايا العصبية هى ينبوع الحياة النفسية ، بل وأساس الصحة النفسية .. فبداهة اذن أن نقرر أن تلك الخلايا تحتاج الى عناصر لا تمت بسبب الى عناصر التغذية المعروفة للعلم .

ولا يسعنا هنا الا الاعتراف بأن هذه العناصر الغذائية الخاصة ليست من عالم المادة ، وليست مما يخضع للتحليل العلمى الحديث .. لسبب واحد أنها عناصر غير مادية ، بل عناصر نفسية !

وليس الهدف من ذلك انه تم تحليل مشكلة الغذاء النفسي نهائيا ، بل كان ما هنالك هو تبسيط المشكلة من الوجهة العملية كي نكون أكثر توفيقا فى اقرار التوازن اللازم بين النفس والجسم ، وارساء أسس التعاون الضرورى بينهما لمحاربة الشيخوخة واستدامة الشباب لان العامل النفسى له فى هذا المجال اعظم نصيب !

ويمكن التقرير الى حد يقرب من اليقين ان البنية الجسدية تفقد جانبا من توازنها العضوى بسبب الافتقار الكلى أو الجزئى الى الغذاء العقلى أو النفسى !..

وليس هناك شك فى أن مطالب الجسد وحاجات اعضائه ، يجب أن يكون لها اعتبارها .. فتحترم وتؤدى على خير وجه من راحة وغذاء وما الى ذلك ، ولكن يجب بالاضافة الى هذا ان نعترف أن هناك حاجات نفسية

تشعر بها تلقائيا وبطريقة لا نستطيع تعليلها أو تفسيرها ؛ بحيث اذا لم نستجب لتلك الحاجات النفسية حدث لنا ما يمكن أن نطلق عليه اسم « الجوع الجنسى » . ولذلك يجب الا تكتفى بدراسة الحاجات النفسية دراسة عابرة .. بل ندرسها منهجيا ، على أسس ، وفي تعمق ، عسى أن نتمكن من أدائها وقضاء لوازمها بصورة تجدى كثيرا على حالتنا الجسمية ، وطريقة قيامنا بأعمالنا .

والواقع أننا معرضون فى ضوء الاتجاهات العلمية الحديثة الى أن نهمل ـ عند علاج الصحة ودراسة مشكلاتها ـ ذلك العنصر العقلى الذى يجب أن نقدره التقدير الكافى ، مما يؤدى بنا الى الخطأ فى فرض قواعد جسمية خالصة ، لتوقفها الى حد كبير على التوازن العصبى والحالة النفسية !..

ولعل من الضرورى ألا نغفل التنويه عن عامل على جانب عظيم من الاهمية من الناحية النفسية ، ذلك هو الحياة الجنسية .. والحديث عن هذا العامل من ناحيتين : الاولى فى ضوء وظائف الاعضاء ، والثانية فى ضوء علم النفس .. ذلك لان الحياة الجنسية بمثابة همزة وصل بين النفس والجسد !

ويجدر بنا حين نتكلم فى ناحية وظائف الاعضاء أن ننوه عن الغدد الجنسية والغدد الاخرى المباشرة التى تصب عصارتها فى الدم ، وهى فى الوقت نفسه تعمل فى توافق تام مع الغدد الجنسية ..

ودرج الناس ، من قديم ، على تعليق اهمية كبرى على الدور الذى تقوم به الغدد الجنسية الصريحة . وليس

ببعيد عن الاذهان ذلك الذي حـدث فى أعقـاب الحرب العالمية الاولى حين ظن الناس أن جميع مشكلات الصحة وطول العمر قد حلت ، بما فيها المشكلات النفسـية ، عن طريق علاج الغدد الجنسية الصريحة .

على أنه ثبت بعد ذلك انه ما من اكتشـــاف من الاكتشافات التى تمخض البحث والفكر عنها حقق فضل تلك الغدد وعظم شأنها فى حل اشكالات الصـحة العملية والصحة العامة ..

ولم يتمكن علم الهرمونات بكل مابنى عليه من أن يحل المشكلة العقلية أو الذهنية .. فمن الثابت أن الهرمونات الجنسية ، وغير الجنسية ، لا تملك أن تنظم الحيـــاة الجنسية النفسية لأى فرد من الافراد .

ولم يقم دليل على أن نوع الهرمونات أو كميتها ذات أثر توجيهى فى الحياة الجنسية من الناحية النفسية ... وتبعا لذلك ستظل الحياة الجنسية حياة نفسية قبل كل شىء وفى كل حساب .

وغنى عن الذكر القول أن العمليـة الجنسية عمليـة فسيولوجية جسمية ، تقوم وترتـكز على وظائف الاعضاء. والسـلوك الجنسى فى حد ذاته أمر ليس خاضعا ولامتوقفا على تلك الافرازات والوظائف ، لانه ـ فى الحقيقة ـ ثمرة عوامل وجدانية ونفسـية ، وثمرة استجابة الـكائن الانسـانى بكل مشتملاته ـ بدنا وعقلا وروحا ـ للمنبهات والاثارات الصادرة من الجنس الاخر .. فلا عملية جنسية تتم بغير رغبة وبغير استعداد نفسى ، وبغير وجود الجنس الاخر !

وغني عن الايضاح أن الذهن ، والالهام ، والفكر ، والذوق ، وما اليها .. كلها أشياء لا تتوقف على حالة الغدد الجنسية ، ولا على اية غدة من الغدد المباشرة التي تصب افرازاتها في الدم .. اللهم الا في حالة الضعف الشديد ، أو اصابة تلك الغدد بمرض من الامراض ، فيؤثر الانحطاط العام في عمل البنية كلها بكل وظائفها الجسمية والعقلية ..

ومما لا يتسرب اليه شك ان « استهلاك » الوظيفة الجنسية واستنفاد طاقتها مما يؤثر في الحالة النفسية ، ولكنه في الوقت نفسه لا يشل ملكات العقل العليا .. كالحاسة الخلقية والذكاء والقدرة الابداعية والعبقرية . اما استهلاك الطاقة الذهنية فيقضي على توازن الكائن ، ذلك التوازن الضروري بين العقل والجسم .. ولذلك فان تجديد نشاط الذهن ضروري جدا للعافية الشاملة .

والارجح ان الانحطاط الذهني يرجع الى أسباب غير مادية ، وأن نظام المعيشة يمكن أن يساعد على حفظ شباب العقل . وبناء على ذلك فان الطب الظاهري ، وتنظيم السلوك العام في الحياة ، يساعدان كثيرا على المحافظة على الصحة العقلية وتقويتها ..

ومما لا جدال فيه أن القوة الجنسية من أكثر وظائف البنية البشرية أهمية ، وان لم تكن أهمها ، لان النشاط الجنسي القوي ليس بالضرورة دليلا على قوة البنية .

ويحسن أن نقرر أن النشاط الجنسي المعتدل ضروري ، ولكن الافراط فيه باب مفتوح الى الشيخوخة المبكرة والاضمحلال .

ان الاعتدال فى النشاط الجنسى خير ضمان لحفظ قوة هذا النشاط مدة اطول .. وتبعا لذلك يكون طول الحياة غير مجرد من لذة هذه الوظيفة الى نهاية العمر ..

والانسان يخطىء اذا فاخر بقواه الجنسية ، ظانا أن ذلك دليل على قوة الحيوية العامة .. فقد يكون السبب مجرد جموح رغبة نفسية ، وليس زيادة فى الحيوية ..

على انه قد تكون هناك أمراض نفسية وجسمية غير ظاهرة هى السبب فى جموح القوى الجنسية ، فيبـــدو صاحبها شديد الحيوية ولكنه فى الواقع ينحدر حيويا الى الاضمحلال ..

والنشاط الجنسى ، شأنه فى ذلك شأن اى نشاط آخر، يجب أن يخضع للتنظيم والسيطرة من الجانب الشخصى ، ويجب ان يكون الحكم فى ذلك للتقدير الشخصى أيضا ، ويلزم أن تتحكم الارادة فى النشاط الجنسى ، ولا يتحكم النشاط الجنسى فى الارادة .

وحذار ان يصل المرء باللذة الجنسية الى درجة التشبع المطلق أو التخمة الجنسية .. وذلك واجب بالنسبة للرجل وبالنسبة للمرأة على السواء !

ومن اهم مانلفت اليه النظر أن تكون العملية الجنسية موافقة للراحة النفسية وللعنصر الوجـــدانى والعقلى ، بحيث تتم بالنشوة الموفقة ،ولا تكون مجرد عمليـــة آلية يعقبها النفور والتقزز والكآبة ..

ويتحتم أيضا أن تخضع الشـــهوة الجنسية للذوق الوجدانى وحكم العقل ، فلا يجدر الاندفاع وراء أول بوادر الاشتهاء ، بل يجمل التريث الى أن يتبلور الامر وتصبح له

قيمة .. والا فقدت الوظيفة الجنسية جاذبيتها واصبحت أمرا آليا مبتذلا ..

ومن القواعد الواجبة الملاحظة.. احترام الحياةلجنسية للآخرين ، وعدم اكراههم على نشاط جنسى فى حالة النفور الفعلى ، ولا يدخل فى نطاق ذلك قطعا حالات التـــدلل المعروفة ..!

ولا يقل عن ذلك أهميـــة مســــألة الاثارة الجنسية المصطنعة باستخدام العقاقير والحقن وما اليها من شتى الوسائل ، اذ يجب تجنب هذه الطرق لان ما هو طبيعى فهو ابدع واروع .. ولان هذه العقاقير المنشـــطة ذات رد فعل يقضى على ماتبقى فىالشباب ويسرع بالشيخوخة.

كيف تتحرك؟

تتحرك الشيخوخة في خطوط مستقيمة جافة حادة .. اما الشباب فيتحرك في خطوط منحنية ، والى هذه القاعدة لجأت الممثلة التي صورت حياة الامبراطورة اوجيني من فتاة مراهقة مليحة غضة الاهاب الى سيدة عجوز تناهز المائة من السنين .

وطبيعي أن المرء يجب أن يكون لين المفاصل مرن العضلات كي يتحرك تلك الحركات الانحنائية التي تدل على وجود عصارة الشباب في أجسادنا وفي عقولنا على السواء ..

مرونة الجسد والعقل ..

هذا هو حجر الاساس في خطة الحركة وأسلوبها .. وأول شيء أوجه عنايتي اليه هو أن أعلمهم المرونة ، فهذا هو الاساس في كل تحسين ممكن لمظهرهم ولشخصيتهم .

ولست انكر ان الكسل والاهمال يورثان المفاصل والعضلات يبوسة ملحوظة .. ولكن العجيب في المسألة ان اكثر من نصف اليبوسة في العضلات والمفاصل مصدره ومقره في العقل !

ومنذ اللحظة التى يصبح فيها عزمك على التحرك فى خطوات وخطوط منحنية ، تجد جسمك يبدأ فى الاستجابة لارادتك بطريقة مذهلة تكاد تدخل فى عداد الخوارق والاعاجيب . وما يبقى بعد ذلك من يبوسة حقيقية فى المفاصل والعضلات ، ثق أنه سيستجيب حتما للمثابرة على التمرين المتصل والغذاء اللائق . وان بقيت بعد ذلك صعوبة ، فان العقاقير الحديثة كفيلة بتذليلها .. فمن اعظم المكتشفات العصرية فى الطب تلك الادوية التى تقاوم تصلب الشرايين ويبوسة المفاصل . ولكن نسبة ضئيلة جدا هى التى تحتاج حقا الى ذلك العلاج .

ان مفاصل الشخص العادى تصاب باليبوسة نتيجة للكسل . فعدم الاستعمال أو قلته تسبب صعوبة الحركة، يضاف الى هذا سوء التغذية .. واعنى بسوء التغذية ان ياكل الشخص الوانا ضارة من الطعام لا تتفق مع سنه أو مع الاسلوب الذى ينتهجه فى معيشته .

واخطر من هذا واشد تاثيرا وخفاء عن النظر : الخوف اللاشعورى من الشيخوخة ، فان ذلك الخوف يوحى الى الشخص انه صار عاجزا عن الحركات المرنة وعن كل مظاهر الشباب فى العمل والرياضة واللهو . ومالم يقتلع الانسان من نفسه هذا الوهم ، فلن تجديه احدث العقاقير نفعا .. فما من شىء يصيب المرء بالتخشب كالخوف ..

ان الخوف اذا اعترانا سرى فى أعصابنا ، وأمر غددنا ان تتاهب لمواجهة شىء فظيع .. فتأخذ تلك الغدد فى افراز تلك السموم التى اعدتها الطبيعة لمواقف الخطر

الداهم فحسب ، لان تلك السموم تهيج العضلات وتحفزها حفزا غير عادى الى بذل مجهود خارق . ومن شأن تلك التعبئة العامة الاستثنائية لقوى الجسم والاعصاب ان تتقاضانا الثمن ـ بعد انتهاء الموقف الاستثنائى ـ فى صورة تعب واجهاد عظيمين .

فلا عجب ان نجد من سيطر الخوف على سرائرهم باستمرار يتهدمون بسرعة ويشكون من التعب بغير موجب ظاهر ، لانهم يبذلون فى العام الواحد من حياتهم مجهودا عصبيا وجسديا ما كانوا ليبذلوه لولا الخوف المرضى المسيطر على عقولهم فى اقل من خمس سنوات .. وهكذا تدب اليهم الشيخوخة قبل اوانها المعهود بزمن طويل ..

ان الخوف يدفع القلب كى يستعد باقصى طاقاته لمواجهة عمل عنيف مرتقب ، فان يعيش الانسان تحت تأثير خوف لا ينقطع معناه أن القلب يتحمل عبئا مضاعفا طول الوقت .

وليست المخاوف العارضة وحالات الفزع الوقتية هى التى تهد كياننا حقيقة ، بل ذلك النوع الهادىء الخفى من الخوف على المستقبل ، أو الخوف من فقدان الجاه أو المظهر اللامع ، أو فقدان الاعجاب ، أو فوات قطار الزواج ، أو الخوف من فقدان العمل أو افلات فرصة الترقية ، أو الخوف من المرض ، أو الخوف من الموت .

أليس الاقدمون على حق حين قالوا ان الناس من خوف الذل فى ذل ومن خوف الفقر فى فقر ؟

فأول ماينبغى عليك أن تفعله هو التخلص من المخاوف

واعلم أن الجسم البشرى أشبه بآلة رائعة يمكن ان تحفظ على الانسان ـ بحسن الاستعمال وحكمة العقل ـ مستوى مرتفعا جدا من الصحة والجمال والتمتع بالحياة، بشرط أن نوجه عنايتنا الى اكتشاف أفضل طرق لاستعمال أجهزة آلة جسمنا المعقدة المليئة بالاعاجيب .

وليس هذا الاكتشاف بالامر العسير ، اذيكفى للوصول اليه أن نرقب الشبان الاصحاء المرحين المقبلين على الحياة بكل قواهم .. فاننا سنجدهم يتحركون حركات يغلب الانحناء فيها على الخط المستقيم ، وسنجد كل عضلة فى اجسادهم وكل عصب من أعصابهم ترسم صورة ناطقة بالحماسة والسرور بالحياة .

وعدد السنين ليس له أهمية تذكر بالقياس الىالصورة التى يتخيلها الشخص لنفسه ، فمن الصعب أن يحس انسان بالشيخوخة ويبوسة الحركات وهو يعتقد فىأعماق نفسه أنه لم يزل شابا لم تجف نضارته .. فالسر فى احتفاظه بشبابه ليس مرجعه الى تاريخ ميلاده بل الى حقيقة اعتقاده فى نفسه .

أما اذا حدث العكس ، واعتقد الشخص أنه اكتهل أو شاخ ، فهو حرى أن يشعر بيبوسة حركاته وصلابة مفاصله .. ويكون المسئول عن جفاف حركاته هو اعتقاده لا تاريخ مولده ..

***

ان الاحتفاظ بمرونة العضلات وشبابها ليس مستحيلا كما يتوهم الاكثرون ، فوالدتى وهى اليوم فى الخامسة والثمانين من عمرها تستطيع ان تنحنى حتى تلمس

الارض براحتي يديها ! وقد حدث ذات مرة أن اختل توازنها وهي تقوم بتلك الحركة ، فوقعت على الارض واصيبت بكدمة وضعنا عليها مكمدات الماء البارد .. وبعد ساعتين طلبت منا أمي أن نأخذها الى السينما لانها لا تطيق البقاء خاملة في البيت ! ..

فما هو سر هذه الام الشابة العجوز ؟ ..

سرها كله كامن في مرونة عضلاتها ، فهي لم تسمح لعضلاتها أن يعلوها الصدأ لقلة الاستعمال .. ولم تسمح لتاريخ ميلادها أن يسيطر على عقلها . ولو انها استسلمت لذلك الخوف لكانت سقطتها تلك كافية لالزامها الفراش مقعدة بقية أيام عمرها ، ولكن الاعتقاد بالشباب وممارسة حركاته باستمرار كفلت لها الحماية من هذا الخطر ..بل وكفلت لها أيضا صفاء الذهن ، فهي محدثة بارعة شابة التفكير بعيدة كل البعد عن الرجعية والجمود ..

وهناك مدرستان مختلفتان في الرأى بصدد يبوسة المفاصل ، واحدى هاتين المدرستين تنادى بالامتناع عن كل حركة أو رياضة ، وأن يعهد الى الممرضات الفنيات بعمل التدليك والجلسات الكهربائية للمفاصل المتصلبة .. ولكن الممرضات اللواتي يقمن بذلك العلاج أكدن لي انه مامن شيء يفيد في هذه الحالة فائدة الحركة التي يقوم بها الشخص لتمرين عضلاته ومفاصله تمرينا يتزايد تدريجيا ..

ولذا فاني أنصح كل شخص الا يدع الصدأ يخيم على مفاصله بسبب كسله عن الحركة ، فالاحتفاظ بالمرونة

والوقاية من اليبوسة أفضل الف مرة من علاج اليبوسة بعد تمكنها من مفاصلنا ..

واذكر دائما أن شبابك رهن بشباب ركبتيك !..

ضع على الارض وسادة طرية أو بساطا سميكا ناعما ، ثم تمرن على القيام والقعود أعنى على الركوع على ركبتيك والنهوض على قدميك . ومن يمارسون عبادات تقتضي الركوع والقيام عدة مرات يقومون برياضة نافعة وهم لا يشعرون .. رياضة تحميهم من غوائل تصلب المفاصل .

واليك تمرين آخر :

استلق على ظهرك قبل النوم ، وارفع ركبتيك الى ما تستطيع من صدرك .. واستعن على ذلك بقوة ذراعيك ثم ابسط ساقيك من غير ان تلمسا الفراش .. وكرر هذا التمرين خمس مرات أو ستا ، وافعل مثل ذلك ايضا عند نهوضك من النوم فى الصباح ..

واوصيك ان تبدا هذا التمرين ببطء شديد ، والا تسرف فى العنف وأنت تؤديه .. فالعنف فى التمرينات قد يكون ضرره أفدح مما يرتجى من نفعه . وكل تمرين تصادفه فى هذه الصفحات ابدأ بعمله مرة واحدة فى اليوم، ثم مرتين ، وهكذا .. فالمهم الا ترهق قلبك أو عضلاتك التى لم تتعود التمرين الشاق . وفى مدى أسبوع من ذلك التمرين المتمهل ستصل الىالعدد المطلوب من غير اجهاد.

***

ومن اهم الاشياء فى تكييف حركاتك .. الوضع الذى تجعل فيه عنقك فى جميع الاحوال .

ان أول مايبدو على الشخص البدين من مظاهر تطبع في نفسك اثر بدانته ، ان هذا الشخص يقف ويسير ويجلس وكأنه بغير عنق على الاطلاق !.. فرأسه مغروس بين كتفيه غرسا ، وكتفاه عاليتان تلامسان اذنيه مباشرة..!

ولكى تنزل بمستوى الكتفين الى منسوب يبرز العنق ويقربك من مظهر الشباب وتأثيره فى النظر .. عليك بالتمرين الآتى :

١ ــ ارفع الكتفين الى أعلى مايمكن .

٢ ــ اهبط بالكتفين بكل سرعة وقوة الى اسفل لا الى الخلف .

٣ ــ احتفظ بكتفيك منخفضين جدا وابرز صدرك الى الامام .

***

وكرر هذه العملية بقدر ما تستطيع .. وضع فى ذهنك ان اختفاء العنق ليس مرجعه فى الغالب افراط البدانة ، بل الخطأ فى وضع الكتفين الى أسفل وابراز الصدر الى الامام .

وينبغى الا نترك مسألة الخوف جانبا .. بل يحسن ان نبحث عن تمرين نفسانى لعلاج الخوف والقلق ، مثلما بحثنا عن تمرين رياضى لعلاج الكتفين والعنق ..!!

١ ــ اذا كان لديك احساس خفى بالخوف من المستقبل ، فلا تحاول ان تتجاهله وتتهرب من مواجهة التفكير فيه .. لانه فى هذه الحالة يترسب فى أعماق اللاشعور ويسبب لك من المتاعب اضعافا مضاعفة [illegible]

٢ ــ تستطيع [illegible] الافكار [illegible] وتتأمل [illegible] دقيقة واحدة [illegible] بكل هدوء [illegible] .

٣ ـ لا تحاول فى هذه المواجهة أن تهون من مخاوفك
٤ ـ افترض أن مخاوفك قد تحققت فى أسوأ صورها
٥ ـ هذا الافتراض سيجعلك تدرك انك فى هذه الحالة اما أن تموت نتيجة لحدوث الكارثة المفترضة ، أو لاتموت بسببها ..

٦ ـ وستدرك انك لم تمت ، ففى استطاعتك بعون الله وبفضل ايمانك بنفسك أن تقيم حياتك على أساس جديد .

٧ ـ واذا تسببت الكارثة فى موتك حتما ، فلا فائدة من التفكير مقدما فيما لا جدوى منه .. فمنذا الذى لن يدركه الموت ابدا ؟

وهذا التمرين النفسى سيجعلك اقدر على مقاومة المخاوف ..

***

ومن الخير ألا انفرد بالرأى فى مسالة الخوف التىعرفنا انها تؤثر فى سلوك الانسان عامة وفى طريقة حركته ... فأكبر فلاسفة العصر يقول فى الخوف مثلما قلت .. فلو رجعنا الى « برتراند راسل » لوجدناه يقرر : « مما لاشك فيه أنه يمكن التقليل من شأن الكثير من المخاوف وبواعث القلق ، وذلك اذا تحققنا من عدم أهميـة دواعيها .. والواقع أنه ليس لاعمالنا تلك الاهمية التى تتوهمها ، كما انه ليس لنجاحنا وفشلنا قيمة تذكر . وما يبدو لنا أن المتاعب ، قاضية ولا شك على هنائنا مدى الحياة ، تخف حدتها مع مرور الزمن حتى ليتعذر تذكر مدى حدتها .. والحقيقة التى لا يتسرب اليها الشك ان ذاتنا ليست جزءا كبيرا من الكون .. والانسان الذى يمكنه تركيز أفكاره

وآماله فى أمر من الامور يتجاوز ذاته ؛ من السهل عليه أن يجد بعضا من الامن والطمانينة والسلام فى متاعب الحياة العادية ، الامر الذى يعز على الشخص الانانى .

وانى أرى أن مايمكن تعريفه بالصحة العصبية قد طال بنا العهد فى اهمال دراسته وبحثه الى حد لا يستهان به من الخطورة ، على أن أعظم أنواع الارهاق اهمية فى عصرنا الحاضر هو الارهاق الانفعالى .. أما الارهاق الذهنى ؛ فهو كالارهاق البدنى ، من السهل جدا تعويضه عن طريق النوم . وكل من يشتغل ويكدح بعقله من غير طاقة انفعالية يستطيع فى ختام يومه أن يتخلص من متاعبه بالنوم العميق .. وما يعزى من اضرار بسبب الافراط فى العمل فنادرا ما تنجم عن ذلك السبب ، وانما مصدرها غالبا هو القلق أو الوجل .

***

ومما لا يحتاج الى ايضاح ان أسوأ مافى الشخص ، وما يتولد عنه من ارهاق انفعالى ، انه يعكر صفو الراحة، بل ويحول دونها .. فانه كلما ازدادت حدة الارهاق الانفعالى لدى شخص ما ، أصبح من العسير عليه ايقاف ذلك الارهاق بواسطة النوم ، أو الراحة ..

ان اعتقاد الانسان أن عمله مهم الى درجة بشعة ، انما هو من اعراض اقتراب الانهيار العصبى ، واعتقاده هذا يجعله يقدر أن أى أجازة تمنح له ستكون سببا فى كارثة تحل بالعمل .. ولو كنت طبيبا لمنحت اجازة لكل من يخالج شعوره أن عمله مهم ..

والانهيار العصبى الذى يعزونه الى ضغط العمل ، والافراط فيه ، وبذل مجهود مضن لانجازه ، مصدره فى

الواقع بعض الاضطرابات الانفعالية ، التى يحاول المريض التهرب منها بالانهماك فى العمل .. فهو يمقت الابتعاد عن العمل ، لان معنى ذلك ـ فى رأيه ـ ليس الراحة ، ولكن معناه أنه سيفقد الحاجز الكبير الذى يبعد عنه الوجـل والقلق والوسواس . ان العمل عنده ليس هو الغاية ، بل وسيلة يلغى بها من هواجسه متاعبه الانفعالية ، أو بمثابة السد الذى يحول دون الطوفان ، واى ثغرة فيه ستكون المنفذ الذى يتدفق منه سيل همومه .

وسيكولوجية الوجل ليست بالامر الهين .. ولذا وجب حسن ترويض العقل وتدريبه على التفكير بأسلوب هادىء منتظم ، كل موضوع فى وقت ، فى الوقت المناسب له .. حتى لا تختلط عنده الأمور فيتولد عن ذلك الوســواس الذى يدفع الى التفكير فى الهجوم بغير انقطاع .. وبحث الامور فى نظام يؤدى الى القيام بأعباء الاعمــال من غــير اضطراب ومشقة ، مع تجنب الارق ، والوصول الىنتائج باهرة وحصيفة .

على ان هذه الطريقة لا تجدى فى حالات الوجل النفسى الذى تتغلغل جذوره فى اللاشعور ، وما دون الشــعور .. الا اذا عقدنا العزم على غرسها ، حتى تؤثر عن طريق الشعور ، فى اللاشعور .

وانى أعتقد أنه فى الامكان غرس اى فـكرة صــائبة فى الشعور بحيث تسرى منه الى اللاشعور ، بشرط الاقتناع بها والاجتهاد فى تقويتها .. وكما ان الحبة الصغيرة تنمو شجرة مع تعهدها بالعناية الى أن تضرب جذورها فى باطن الارض .. فيستخلص من ذلك ان التاثير متبــادل بين الباطن والسطح ، هبوطا وارتقاعا ..

وغني عن القول أن كل ما في اللاشعور ، انما هو في البداية أفكار وانفعالات شعورية قوية ، ترسب ثم تدفن هناك كما تدفن اشجار الغابات حتى تتحجر أو تتفحم . وبالمثل يمكن القيام بعمليات الطمر هذه ، بصورة مقصودة، وحسب خطة موضوعة، بغرض الوصول الى غاية مفيدة.

***

وهنا يجدر أن أوجه اليك سؤالا : هل تشعر بالوجل؟ وهل تعبث بك هواجسك الى أن كارثة تتهددك وتخشى من وقوعها الى درجة القنوط ؟ تصور بامعان أسوأ العواقب التي يمكن أن تترتب على وقوع تلك الكارثة .. وحين تشعر بامكان مواجهتها وكأنها وقعت ، فمن السهل جدا أن تتخيل أنها لن تكون مصيبة ماحقة كما كنت تظن .. وستتكشف أمامك أسباب ومبررات تهون لك من شأنها، مادام أسوأ مايتهدد الانسان لا يمكن - مهما بلغ شأنه - أن تكون له خطورة كونية ..

ومتى واجهت الكارثة المترقبة وكأنها وقعت ... وحين تستجمع جأشك ، تحدث نفسك في هدوء بأن الامر ليس ذا بال على أي حال .. لن تخسف الارض ولن تزول الجبال ..!

وستجد حين تفعل ذلك أن الوجل قد تضاءل الى حد كبير لا تتصوره ..

وقد يحتاج الامر الى تكرار هذه العملية مرات ومرات .. وسوف ترى في النهاية أنك ستنجح قطعا في مجابهة فكرة الكارثة ، وأنت ثابت رزين . وهذه المجابهة نفسها هي مفتاح الشجاعة ، بل الخطوة السحرية الحاسمة نحو ثبات الجأش الذي يقضي على الوجل ، ويضع مكانه شعورا

بالطمانينة .. الى أن يتلاشى الوجل نهائيا ، ويشع الامن فى جنبات حياتك ..

***

بل ان ابشع انواع الخوف ، وهو خوف الموت نفسه ، ينبغى الا يعكر علينا متعة الحياة او يمنعنا من الشعور بتفاؤل الشباب الذى لا غنى عنه للحياة الشابة والسلوك الشاب والحركة الشابة ..

ان كل مايحيط بنا من مباهج الحياة ومتعها ، وما فيها من أحداث ومتاعب بل وكوارث ، لا يمكن أن تنسينا بحال من الاحوال حقيقة قاسية ينتهى بها مطافنا ، وهى: الموت ..

على أن هناك أساليب كثيرة تمكننا من أن نواجه ذلك الخوف الغريزى الكامن فى أعماق نفوسنا من الموت ، ففريق من الناس يتجاهلونه فلا يخطر ببالهم اطلاقا ، ويسعون دائما كى يحولوا أفكارهم فى اتجاهات أخرى كلما خطر ببالهم أو لاح شبحه أمامهم . وهناك من يقفون فى مواجهته متعمدين التهوين من أمره وشأنه بالتأمل فى قصر حياة البشر ، كى يتولد فى نفوسهم الاستهانة بأمر الموت واحتقار سلطانه . ومن الناس من يبالغ فى ذلك ، فيعد للموت ــ وهو فى حياته ــ عدته . ومن طريف مايروى أن عظيما عشق هواية شاذة هى أن يذهب الى الحقول ومعه فأس يخرج بها ديدان الأرض ، ثم يقتلها قائلا لنفسه انه يقضى عليها قبل أن تأكل جسمه !..

وهناك وسيلة أخرى يتبعها فريق آخر ، وهى أن يقنع كل منهم نفسه بأن نهايته ليست فى الموت ، بل انه خطوة نحو حياة أفضل وأبقى ..

وهذه تحليلات وفلسفات ترجع اليها اتجاهات الغالبية من البشر بصـــدد حقيقة الموت القاسية .. وعلى كافة الوجوه ، فان هذه الاتجاهات لا تخلو من عيوب ، كما لا تخلو من مزايا . وذلك أن محاولة بعض النـــاس تجنب التفكير فى موضوع جوهرى كالموت لا يفيـدهم فى شىء ؛ وماذا يجدى التهرب وشخوص المقابر لا تفتأ تذكرنا فى كل لحظة بالموت .

اننا نستطيع أن نحـول بين الطفل الصغير فى أعوام عمره الاولى وبين ادراك حقيقة الموت ورهبته ... ولكنه لن يلبث طويلا حتى يدركها ، عندما يرى أو يعانى من وفاة قريب أو صديق ، حيث تكون الصـدمة شـديدة الاثر وخاصة والطفل لم يستعد لها من قبل ..

ومما لاشك فيه أن المداومة على التفكير فى الموت لا تقل ضررا عن تجاهله .. كما أن من الخطأ أن نحصر تفكيرنا فيه ، مادام الامر لا يصل بنا الى نتيجة ذات فائدة .. لسبب واحد هو أننا لا نستطيع رد الموت عنا ولو كنا فى أبراج مشيدة .. ومثل هذا الاتجاه من شأنه أن يقلل من اهتمامنا بالآخرين ، وبما يدور حولنا من أحداث . مع أن هذا الاهتمام من الامور الضرورية لاحتفاظنا بعلاقاتنا مع هؤلاء الاخرين ، ومع سلامة تفكيرنا نفسه ..

اننا نغدو عبيدا للموت حين نخاف منه ، بل وأسرى لقوى خارجية .. ولو كان فى إستطاعتنا أن نتغلب على خوفنا من الموت ، عن طريق الاستغراق فى التأمل فيه ، لانتفى هذا التأمل ، لان الاستمرار فى التأمل دليل على عدم التحرر من الخوف ..

على أننا حين نوطن النفس ونؤمن بأن الموت هو الطريق

الى حياة أفضل ، فانه ينبغى ـ تبعا لذلك ـ أن يتبدد خوفنا منه ، فلا نبالى بالمرض مثلا ، وانما نرحب به ونتمناه ، باعتباره القنطرة التى ستوصلنا الى الغاية المرجوة . ولست أدرى هل هذا مما قدر من حظ حسن للاطباء ، أم ان المؤمنين بالحياة الافضل ليسوا بالصادقين كل الصدق فى ايمانهم هذا ؟ لان هذه العقيدة لا تؤدى الى هذه النتيجة الا فى حالات نادرة .. لان المؤمنين بالحياة الاخرى بعد الموت ليسوا أقل خوفا من المرض او اكثر نشاطا وتكالبا فى صراعهم معه ، من أولئك الذين يعتقدون أو يتصورون أن فى الموت نهايتهم .

ان العقيدة الدينية تتركز فى منطقة الشعور الواعى فقط . ولذلك فقلما تفلح فى تكييف الاتجاهات الغريزية التى توجد فى العقل اللاشعورى الباطن . أضف الى هذا أن مثل هذه العقيدة التى تبنى على الايمان كثيرا ما تختلط بها فى نفس صاحبها عناصر لا شعورية من الشك والقلق ..

ولكن لنتذكر أن الكثيرين يتقدمون فى الحروب بشجاعة نحو الموت غير مبالين به ، أو يدفعون بأبنائهم اليه راضين فخورين ، لانهم يؤمنون بنبل الهدف الذى ضحوا حياتهم او حياة ابنائهم وأعزائهم فى سبيله ..

ومثل هذا الاحساس مرغوب فيه فى جميع الأوقات ، اذ ينبغى أن يحس المرء دائما أن هناك أشياء هامة نعيش من أجلها . وفى سبيل هذه الاشياء يجب أن نحيا ، وأن نوجه اهتمامنا الى الغايات النبيلة لا الى العدم الذى لا حيلة فيه ..

الفصل الثالث :

بين الحركة والسكون

لما كان الاحساس بالخوف من النهاية المحتومة هو الذى يهيمن على اللاشعور لدى من تجاوزوا منتصف العمر ، لهذا تتجلى روح الشيخوخة فى حركاتهم قبل بداية الشيخوخة فعلا .. فجميع حركاتهم تتجه الى أسفل ، الرأس حين يمشون أو يجلسون مطرق الى الارض ، وكأن عضلات العنق ليس فيها فضل من القوة او فيض من الحيوية لحمل ثقل الجمجمة فى وضع رأسى .. فما أشبه الرأس فى تلك الحالة بقمة الشجرة العتيقة كفت عن الارتفاع نحو السماء وأخذت فى الاتجاه نحو مركز الجاذبية .. نحو الارض !

واذا راقبت الشباب وجدت جميع حركاتهم تسير فى عكس ذلك الاتجاه ، فى عكس اتجاه الجاذبية الارضية .. شأن كل شىء حى يسرى فيه تيار الحيوية القوى . فالنبات اليانع ينبثق من الارض نحو السماء ، والينبوع يندفع ماؤه من الارض نحو السماء ، والطير يتواثب من الارض نحو السماء ، وحركة نمو الشباب تتجه من القصر الى الطول . وحين يلعبون يقفزون ويتواثبون فى

حركات تتجه دائما من أسفل الى أعلى ، وجميع أغصانهم تتخذ هذا الاتجاه بقدر الامكان ..

ان الشاب لا يمكن أن يلصق ذقنه بصدره الا اذا كان مريضا أو نائما ، أما الكهول فيفعلون ذلك . ويزيد هذا الوضع من تأثير كهولتهم ، وغالبا ما يتكون تحت الذقن ذقن آخر أو ذقنان من الشحم المتهدل .

وأذكر بهذه المناسبة أن غلاما من جيراننا كان يستأذن جدته ليخرج للعب مع رفاقه فى الحديقة العامة .. فاذا أذنت له قال لها مودعا :

ـ الى اللقاء ياجدة !.. اجتهدى أن ترفعى ذقونك قليلا !

وتغتاظ الجدة البدينة ، وتعجب فى نفسها ما الذى يغرى حفيدها العفريت الصغير بالتحدث دائما عن ذقنها المتعدد الطبقات ؟ وكأنها لا تدرى أن الصغير اهتدى بفطرته الى موطن الداء ، فالذقن المتدلى الى أسفل هو علامة الفارق الحاسم بين جيل جدته المتقاعد وبين جيله الصاعد ..

فارقب حركاتك وأوضاعك ونقب عن كل اتجاه فيها الى أسفل ، فاستبدل به ما استطعت اتجاها الى أعلى .. فاقرأ وأنت ناظر الى فوق لا الى أسفل واجلس منتصب القامة وأنت تعمل ..

وهذا يجعلنى أحبذ نوعا من موائد الكتابة انقرض منذ سنوات .. وهى مرتفعة توضع فوقها الدفاتر والسجلات والكتب ويدون فيها الشخص أو يقرأ فوقها وهو واقف لا وهو جالس .. فهذا أفضل للصحة وأبقى للحيوية من تلك الموائد المنخفضة التى تعلوها اليوم الآلات الكاتبة

العصرية ، فهي من الانخفاض بحيث يضطر الانسان الى الكتابة فوقها وهو مطأطىء الرأس . وفى اعتقادى أن جميع المكاتب العصرية تحتاج الىالارتفاع نحو عشرة سنتيمترات على الاقل اذا أردنا أن نتحاشى الاضرار بالنظر وبالجهاز التنفسي والدورة الدموية على العموم .

وانسب التمارين لتعويد الانسان على الحركاتالصاعدة الى اعلى والاوضاع المنتصبة ، هو أن تجلس على الارض متربعا وقدميك من تحتك شأن من يتهيأ للسجود .. ثم تمد يديك الى أعلى وتحاول أن تقطف عناقيد وهمية من العنب مدلاة من السقف وأن تدركبفمك اكبر قدر مستطاع منها . فبهذه الحركة التي يحسن أن تؤدى بمصاحبة الموسيقى المرحة تظفر عضلات الخصر والكتفين والعنق بكمية كبيرة من التنشيط ، ويذوب الكثير من الشحم الذى يحيط بالبطن .

وليس الهدف من هذا التمرين هو النحافة او الرشاقة، بل الفرض منه هو تحسين الصحة عموما وتنشيط الدورة الدموية . ويترتب على تنشيط الدورة الدموية أن الرواسب لا يلقيها الدم فى المفاصل بل يحملها فى تياره السريع . وبذلك تستفيد العضلات والمفاصل والشرايين والامعاء أيضا ، لان الكبد ينشط بهذا التمرين وتزول كل دواعى الامساك المألوفة ..

وليس التمرين السابق بالتمرين الوحيد .. بل عليك أن تحاول فى كل فرصة أن تمد اطرافك وتستخدم كل أعضاء جسمك ، فلا تدع عضوا فيها يركن الى الكسل والتراخى بحيث تعلو عضلاته ومفاصله طبقات من الصدأ وبهذا السلوك النشط تكتسب حركاتك روحا جديدة

وجوا جديدا ، ويضفى ذلكَ على شخصيتك كل خصائص الشباب بقدر يطرد من صورتك ظلال الكهولة التى تدل على انحدار فى الصحة وانحدار فى الحيوية العقلية ايضـا

فاذا كنت قد ركنت الى التراخى والخمول ، وتركت الكسل يسرى بيبوسته وجفافه الى مفاصلك وعضـلاتك .. فلا شك انك ستجد صعوبة لا يستهان بها عند اجراء التمرينات الرياضية أو محاولة القيام بالحركات الشـابة الناشطة . وفى هذه الحالة لابد من « تزييت » الجهـاز الذى علاه الصدأ بسبب الاهمـال الطويل . وهـذا « التزييت » عبارة عن علاج طبيعى فى صـورة جلسات تدليك يقـوم بهـا مدلك أخصـائى كبير . ولا بأس من الاستعانة بجلسات الاشعة ذات الموجة القصيرة ، فهذا من شأنه ان يعيد الى العضلات والمفاصل جانبا كبيرا من ليونتها ومرونتها .. وليونة المفاصل على الخصوص هامة جدا لتجديد الحيوية فى جسمك ، فلا ترجىء هذه الخطوة يوما واحدا .

وتأتى ليونة العضلات فى المرتبة بعد ليونة المفاصل .. ولذا يحسن أن يبدأ المدلك عمله بالتعـاون مع طبيب الاشعة . وسيكون لهذا التعاون اثره فى شعورك بالنشاط وقدرتك عليه ، وستحس أن جسمك صـار أطـوع لك من ذى قبل ..

ولكنى أحذرك من خطأ يقع فيه الكثيرون .. فالتدليك وحده لا يكفى لفائدتك وتجـديد شبابك . فلا تنخـدع بالنشـاط الذى تشعر به على أثره ، لانه نشاط سـلبى لا قيمة كبيرة له مالم تعمد الى ترويض جسدك بتمرينات ايجابية تقوم بها أنت .. فالتدليك عامل مساعد جدا ،

ولكنه مجرد عامل مساعد على كل حال . والعـــامل الاساسى هو نشاطك انت والتمرينات التى تقوم بها .

واوصيك بظهرك على الخصوص .. فبعـد قليل من التدليك بواسطة المدلك الفنى ، يحسن ان تجتهد فى تدليك ظهرك او غسله بالاسفنجة والصابون وانت واقف ، سيكون بمثابة تمرين رياضى ينتفع به الجسم كله .

ولا تنس اثناء هذه التمرينـات والعلاج أن تتنـــاول كميات مضاعفة من الفيتامين « ج » . الذى يوجـد بكثرة فى الموالح كالبرتقال والليمون الحلو والليمون البنزهير والجريب فروت . وتباع الاقراص الصناعية من هـذا الفيتامين فى الصيدليات بثمن زهيد ..

وليست الحركة وحدها هى التى تدل على النشاط . بل ان النشاط حالة عامة تبدو وانت ساكن لا تتحرك كما تبدو وانت واقف أو سائر .. فحالة النشاط تدل على أن الجسم فى تمام الاهبة للتحرك عند اى امر يصدر اليه من العقل .. فكأن الجسم جيش ســاكن ولكنه فى حالة تعبئة واستعداد .

وهذه الحالة يجب ان تتمرن عليها ، فتجرب الجلوس فى حالة سكون تام ولكنك فى الوقت نفسه فى حالة استعداد كامل للقيام بأية حركة . وعلامة هذا الاستعداد أنك كلما احتجت الى شيء وانت جالس للراحة لم تعتمد على تكليف احد كي يأتيـك به ، بل تنتهز كل فرصـة للقيـام بتلك المهام الصغيرة ..

والسكون فى هذه الحالة ليس شـبيها بسكون قوالب الحجارة أو كتل الاخشـاب وهى ملقـاة على الارض ..

فسكونك سكون « حى » متحفز ، وسكون الجمادات خامد خال من الاستعداد الذاتى للحركة .

وليس معنى ذلك ان تحرم نفسك أسباب الراحة ، فاذا احسست بحاجتك الى الراحة فيجب أن تعطى جسمك حاجته تلك بطريقة فنية . وعليك أن تدخل حجرتك وتغلق بابها عليك ، وتستلقى على الارض الخشبية أو على البساط بضع دقائق وانت تتنفس أنفاسا عميقة مسترخيا تمام الاسترخاء ..

وانى اعتقد ان أجدى وسيلة لاراحة عضلات الجسم كله ، وتمكينها من الاسترخاء ، مع توخى البساطة والسهولة هى ممارسة « جهاز الراحة » ، بأن يجعل الرأس فى وضع دون مستوى وضع القدمين .. وقد لقنت هذه الطريقة للمئات ممن طرقوا بابى فكللت بالنجاح الباهر .

اما ذوو القامة القصيرة أو المتوسطة ، ففى امكانهم ان يستقلوا فوق شريحة كبيرة من الخشب يكون أحد طرفيها مرتكزا على الارض ويرتكز الطرف الاخر على مقعد منخفض لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثين سنتيمترا .

فعندما تتمدد على هذه الشريحة ورأسك الى اسفل ، فانك تمكن السلسلة الفقرية من تعويض التوتر الدائم الذى بسببه الانتصاب فى وضع رأسى ، فتشعر عضلات الظهر بالراحة ، حتى العضلات التى يخيل اليك انها تتوتر كثيرا ، على اعتبار انك تعمل وانت جالس ..

وفى هذه الحالة أيضا ، يتخلص الساقان والقدمان ، فى ذلك الوضع ، من العبء المعتاد الذى يرزحان تحت وطأة ثقله ، كما يتخلصان من تأثير الجاذبية الارضية الدائم ، كما تتاح الفرصة لعروق ذلك الجزء من الجسم

لكي تتخلص من الرواسب التي قد تتكون فيها . . فيحميك ذلك من خطر انسداد الشرايين الذى غالبا ما يصـــيب الساقين .

وفضلا عن ذلك ، فان هذا الوضع يمنح عضلات البطن راحة لا يستهان بها .. كما أنه يسمح بمرور الدم بحرية وانطلاق فى عضلات الذقن والزور والوجنتين ، فيحول ذلك دون ترهل هذه الاعضاء أو تراخيها او تهدل انسجتها.

والدورة الدموية لها تأثير مباشر على جلد الراس ، والشعر ، ولون البشرة فجميعها تتقوى بزيادة نشـاط الدورة الدموية بسبب ذلك الوضع المقلوب نوعا ما . بل أن المخ نفسه يستفيد كثيرا ويزداد راحة وصفاء .

وانى أوصي بممارسة ذلك التمرين مدة ربع ساعة مرتين كل يوم ، صباحا أو مساء .. على أن أنسب وقت لذلك حين عودتك الى البيت وأنت مرهق ومنهك من العمل خلال ساعات النهار .

ولا تتعجلن الامور ، فانه من الطبيعى أنك تحتاج الى زمن ليس بالقصير الى أن تتعود الاسترخاء فى ذلك الوضع ولكن من المؤكد أنه سيعينك على تعلم فن الاسترخاء .. فينبغى الا تنقطع عن ممارسة هذا التمرين مهما حالت دونه الحوائل .

ومن الضرورى التنبيه الى القيام بذلك التمرين وأنت عار من الملابس ، أو وأنت ترتدى ثيابا خفيفة لا تضغط على جسمك ، كي تتاح للعضلات الراحة التامة ، وللدم الحرية الكاملة .

ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد ، أن سيدة تعمل مديرة لاحدى المؤسسات العامة ، تحرص ـ عند عودتها

الى منزلها ــ على خلع كافة ملابسها ، ثم ترقد وهى عارية تماما فوق هذه الشريحة الخشبية المائلة .. تستلقى على سجيتها فتستسلم للاسترخاء الشامل ، مدة ربع ساعة، ثم تستلقى فى حمام دافىء مدة ربع ساعة اخــــرى فى حالة اســـترخاء تام كذلك .. وبعد هـــذا تنهض فتتناول طعامها وهى انشط وأكثر شهية وأصفى ذهنا ، واعظم مرحا واشد بشاشة . وتؤكد هذه السيدة أن ذلك التمرين ــ قبل وجبة العشـــاء ــ هو الضـــمان الاكبر للاستمتاع بالطعام ، ولسهولة هضمه ، وأخيرا للاستسلام لنوم عميق هنىء ..

التعب عدوك اللدود

ليس هناك سبب واحد يستسيغه العقل يبرر زيادة الشعور بالتعب ، الى درجة الاعياء ، كلما دارت عجلة الزمن فى عمر الانسان ، ولا غرابة اذا قررنا هنا أن الشعور المستمر بالتعب أمر ليس طبيعيا فى أى سن ، مهما تقدمت تلك السن .. وفى الاعتقاد أن مرد ذلك — على الخصوص — الى نقص فى مقومات الغذاء . وقد اجريت تجارب عديدة على حيوانات مختلفة ، كما أجريت مثيلات لها على آدميين تطوعوا لذلك فجاءت النتيجة مؤيدة للنظرية ..

ومن أحدث هذه التجارب وأعظمها شهرة ما أجرى فى مستشفى « مايو » الكبير فى نيويورك ، على ممرضات شابات مكتملات الصحة تطوعن لذلك .. فأحجمن عن أكل الخضروات وامتنعن عن تناول الاطعمة المحتوية على البروتينات بنسبة كبيرة كمستخرجات الالبان والبيض واللحم الاحمر الخالى من الدهن . وبعبارة أخرى ، اكتفين بتناول النشويات الخالية من مقومات الحيوية والفيتامينات ، والخضر المغلية جيدا ، والخبز الابيض والسكر المكرر والحلويات .. فكانت النتيجة أنه سرعان

ما طرأ التغير على هاتيك الشابات الناضرات الفياضات بالنشاط والحيوية ، تبدل حالهن .. فأصبحن عصبيات ، غير قادرت على أداء أعمالهن على وجه مرض ، وصرن سريعات الغضب والثورة الى حد لا يتمالكن فيه أعصابهن فيمزقن ملابسهن لاتفه الاسباب .. ولكن أمرا واحدا ظهر جليا فيما طرأ عليهن هو الاحساس بالتعب والاعياء . وعندما حاولن تعويض ذلك التعب أو التغلب عليه بالاكثار من الطعام المعين المسموح لهن به ، زاد شعورهن بالتعب واحساسهن بالاعياء عن ذى قبل ... بل زاد توتر أعصابهن وارتفعت درجة حساسيتهن .

والحقيقة أن الاحساس المستمر بالتعب والاعياء هو العدو الاول اللدود لنظرية « السعى الى الشباب الدائم » لان ذلك الاحساس يقضى على الاستمتاع بالحياة، ويطمس مباهجها بل يسممها .. لذلك فان أول واجباتك هو القضاء على ذلك الاحساس والغائه من قاموس حياتك بالقضاء على اسبابه ..

وقد اتضح لى منذ أكثر من عشرين سنة ، بعد دراسة شاقة دقيقة ان الاشخاص الذين يتناولون من المآكل ماهو طبيعى غير مطبوخ أو منقى كيمائيا كالخبز الاسمر غير المنخول ، والعسل الاسود ، والخضر الطازجة غير المطبوخة ، يكونون فى الغالب أقل تعرضا للشعور بالتعب، ولا يمكن أن يلم بهم الاعياء المستمر الذى يلم عادة بمن يأكلون الخبز الابيض الفاخر ، والسكر المكرر ، والخضر المطبوخة جيدا .

وقد ثبتت صحة هذا الرأى فى السنوات الاخيرة بشكل واضح قاطع وبتجارب علمية . فالمواد المطبوخة

جيدا ، والمكررة جيدا ، تفقد بذلك ماتحويه من الفيتامينات « ب » ولا سيما الفيتامين « ب أ » أي الثيامين ، وهو العنصر الاساسي الذي لا غنى عنه لانتاج القوى الحيوية انتاجا مستمرا بغير انقطاع .. لان الانقطاع عن انتاج الطاقة الحيوية هو السبب المباشر في الاحساس بالتعب والاعياء .

وينبغي ، لكي تتجنب الاحساس بالتعب ، بل وتقضي عليه وتمنعه من العودة اليك ، أن تمد جسمك باستمرار بجميع فيتامينات المجموعة « ب » ، لان هذه الفيتامينات هي التي تتيح للجسم أن يستخلص من الطعام ما فيه من مصادر الطاقة .. فاذا لم تتوافر هذه الفيتامينات في الجسم ، فانه لا يستطيع الاستفادة من الطعام كله ..

فاذا رغبت ، في صدق ، في زيادة حيويتك زيادة مؤكدة سريعة أيا كانت سنك فاحرص على أن يكون غذاؤك غنيا جدا بفيتامينات المجموعة « ب » . واعلم أن ذلك ميسور جدا ، فهو لا يكلفك سوى ثلاث ملاعق أو اربع كبيرة ، من خميرة البيرة الذائبة في اللبن أو عصير الفواكه أو الخضروات ، على أن يكون ذلك يوميا باستمرار .

وقد يشعر من تتقدم بهم السن بنوع آخر من التعب ، مرجعه نقص البروتينات .. فان البروتينات تحتوي على الحوامض الامينية التي هي مصدر انتاج الانزيمات الضرورية لانتاج الطاقة الحيوية ..

انني اعجب على الدوام اذ أرى الرجال والنساء الذين تقدمت بهم السن يكتفون في طعامهم اليومي بمقدار ضئيل جدا من الالوان الغنية بالبروتينات ، مع أن البروتينات — على الخصوص — هي الزم العناصر اطلاقا لصحة

العضلات وقوتها وعافيتها ، ولسلامة الغدد ونشاطهـا ، ولانتاج الطاقة على العموم .

فاذا كنت متقدما فى السن ، ويلازمك شعور بالتعب او الهبوط .. فلا تحسبن ذلك من أثر السن كمـا قد يتبادر الى ذهنك . كلا ! بل عليك أن تراجع كميـة البروتينات التى تتناولها ، فان وجدتها تقل عن ستين جراما فى اليوم من البروتينات النقية ، فثق أنك تستطيع ـ بلا شك ـ القضاء على ذلك الشعور السخيف ، وذلك بزيادة استهلاكك من البروتينات .

واكثر أسباب التعب الوقتى شيوعا هو نقصان كميـة السكر فى الدم .. ومبرر ذلك فى الغالب الى أن الشخص لا يتناول طعامه الا فى فترات متباعدة ، بحيث يستهلك فى الفترة بين الوجبتين كمية السكر المتخلفة عن هضـم الطعام ، والتى هى وسيلة تغذية العضلات والخلايا .

وما أكثر السيدات اللواتى يشكين ذلك التعب الطارىء بعد ساعات يقضينها فى التجول بين المتاجر وواجهاتها . ومن السهل جدا علاج هذا كله ، وذلك بانتهاز بضع لحظات يتناول فيها الرجل أو السيدة وجبة خفيفة ، لان هـذه الوجبة تساعد على مد الدم بكمية جديدة من السكر الذى ينقصه .

وانى أقرر أن معظم تلاميذى من أصحاب الاعمال والمهن التى تستلزم نشاطا مستمرا ، لاينتظمون فى تناول غذائهم .. ومن ثم فلابد لهم من مقاومة الاعياء وقطـع الطـريق عليه ، وذلك باتباع وسائل حسن تنظيم غذائهم ، بحيث يتكون من اللحم الخالى من الدهون ، والخضر النيئة او غير التامة النضج ، والسلاطة الخضراء ، واللبن ، والبيض

والجبن ، والزبادى ، والفواكه ، ويستعيضون عن الملح والفلفل والخل باستخدام خميرة البيرة والعسل الاسود والملح الحديدى الغني باليود ، واقراصا من الكلسيوم ، والفيتامين ج ، د ، أ

والذين يسيرون على هذا النظام ، يأكلون جيدا في الوجبات الثلاث .. ويأكلون ايضا من هذه الاصناف لقيمات بين الوجبات لمنع الشعور بالتعب وما يتصل به من توتر الاعصاب .. وقد سمح لهم ذلك بالعمل المستمر ، دون أن تهبط قواهم أو يشعروا بالسأم وضيق الصدر وتوتر الاعصاب . وسنفرد للطعام والشراب فصلين خاصين فيما بعد ..

ولن تستطيع أحسن الفيتامينات أو الاملاح المعدنية أن تضمن لك حياة صحيحة سعيدة طويلة ، اذا كنت لا تعرف تمام المعرفة فن « الاسترخاء » .

ان قوام هذا الفن أن تعرف كيف لا تبدد مجهوداتك العصبية والجسمية عبثا ، وكيف تترك لاجهزتك واعصابك وعقلك فرصة العمل بهدوء وفي أناة .. فلا تجرفها في تيار السرعة واللهفة .

ولعل من الطريف أن أذكر أن لى صديقة تجاوزت السبعين ، ولكنها رغم هذه السن المتقدمة ، فانها لاتزال تحتفظ بحيوية الشباب ، متمتعة بها .. وهي الى الان ممثلة موهوبة قديرة عاملة . وقد لخصت نظرية الاسترخاء تلخيصا طيبا ، قالت :

ــ ان التوتر هو الهرم ، والاسترخاء هو الشباب . وبعبارة أوضح : التوتر هو القبح ، والاسترخاء هو الجمال .

السطور .. بل لابد لذلك من تدريب نفسك ، ورياضتها أى لابد من « تربية » نفسك عليه بالحزم وصادق العزيمة، وكذلك بالايحاء الذاتى المستمر ، حتى تنطبع على ذلك ..

***

ومما يجدر بالذكر ان لاكبر فلاسفة العصر الحاضر الفيلسوف الانجليزى اللورد « راسل » رأيا أصيلا طريفا فى هذا الصدد نجمله فيما يلى :

« ان التعب على أنواع شتى ، بعضها اخطر بكثير من البعض الاخر واشد عرقلة للسعادة . والتعب البدنى المحض — اذا لم يكن شديد الاسراف — يمكن أن يكون سببا من أسباب السعادة .. ذلك انه يؤدى الى النوم العميق، والشهية الجيدة ، ويبعث فينا الاقبال على المسرات المتاحة ..

« أما اذا كان التعب البدنى مسرفا فى شدته ، فهو اذن ارهاق للقوة ، ينجم عنه شر مستطير .. فالفلاحات فى معظم البلاد — اللهم الا المتقدمة منها جدا — تدركهم الشيخوخة فى سن الثلاثين أو نحوها لان الارهاق الشديد فى العمل يهد قواهن » .

ان العمل البدنى اذا تجاوز حدا معينا أصبح تعذيبا فظيعا .. وفى كثير من الحالات يصاب الناس بارهاق يجعل الحياة لديهم غير محتملة .. وقد استطاعت البلدان المتقدمة فى العصر الحديث ان تقلل التعب البدنى الى حد كبير ، بفضل التحسينات التى ادخلت على ظروف الصناعة ..

ولهذا نستطيع ان نقول ان اخطر أنواع الارهاق فى الوقت الحاضر ، وفى أرقى المجتمعات ، هو الارهاق

العصبى . وهذا النوع من الارهاق للعجب الشديد اكثر ما يكون ظهورا وتفشيا بين الميسورين ، وتقلل نسبته كثيرا بين الكادحين، عماهى بين رجال الاعمال والعاملين بعقولهم .

والنجاة من الارهاق العصبى فى الحياة العصرية امر عسير جدا .. وذلك لجملة اعتبارات ، واول هذه الاعتبارات أن رجل الاعمال والعامل الذهنى معرضان اثناء ساعات العمل — وفى أوقات المواصلات بين العمل والبيت — لحملة من الضوضاء .. وصحيح أن الضوضاء قد تفقد أثرها بالتدريج على أذنه الواعية ، ولكن الضوضاء موجودة .. ويشتد ارهاقها له بسبب المجهود اللاشعورى الذى يبذله كى لا يسمعها ..

وثانى هذه الاعتبارات ، هو وجود غرباء باستمرار فى محيطنا أثناء العمل ووسائل المواصلات .. فالغريزة الطبيعية فى الانسان — كما فى سائر الحيوانات — هى فحص كل فرد غريب من أبناء جنسه ليقرر هل يعامله بجفاء أو مودة . ووسائل المواصلات الحديثة تزدحم بهؤلاء .. وفى ذلك مجهود نبذله من غير شعور بحيث نصل الى مكاتبنا لنبدأ العمل ، وقد أنهكت أعصابنا بالفعل ، وتولد لدينا ميل عام الى اعتبار الجنس البشرى فى مجموعه — شيئا فشيئا — بغيضا أو على الاقل يضيق له الصدر . ويصل الرئيس أو صاحب العمل فى حالة نفسية مشابهة لهذه ، فيصب ضيق صدره على موظفيه ، والمرءوس لا يستطيع الا أن يرد له التحية لينفس عن أعصابه ... ومعنى ذلك أن خوف الفصل من العمل يضيف ارهاقا آخر الى ارهاق الضوضاء والغرباء ..

ولكن اياكم أن تحسبوا صاحب العمل اسعد حالا ،

بسبب اعفائه من خوف الفصل من العمل .. فان الخوف من الافلاس ، والتوجس من اضطرابات البورصة ، تقوم لدى صاحب العمل بالدور نفسه الذى يقوم به الخوف من الفصل لدى الموظف .

فاذا تركنا هؤلاء الاغنياء جانبا ، واعتبرناهم حفنة من الحمقى يفسدون حياتهم جريا وراء أوهام ، وجدنا كتلة من الناس يجب أن يعملوا من أجل معاشهم . والارهاق العصبى عند هؤلاء ناتج بالاكثر عن القلق . وهذا الداء يمكن القضاء عليه باعتناق فلسفة للحياة أفضل ، وبتدريب ذهنى يسير . اذ الواقع أن معظم الرجال والنساء ينقصهم جدا السيطرة على أفكارهم . وأعنى ذلك أنهم لايستطيعون الكف عن التفكير فى موضوعات مزعجة فى الوقت الذى يعلمون فيه أنه لا يمكن عمل شىء فى ذلك الصدد . ويأخذون متاعبهم تلك معهم الى الفراش . فبدلا من أن تكون ساعات النوم ساعات راحة وتجديد قوى ، تنقلب الى ساعات ارهاق اضافى ، ومن هنا يحدث الارق والاحلام المزعجة .

ان العاقل لا يفكر فى متاعبه الا اذا كان هناك جدوى من ذلك التفكير ، وفى الليل لا يفكر فى شىء اطلاقا . فشرط السعادة تنظيم التفكير بحيث نفكر فى كل شىء فى وقته المناسب تفكيرا كافيا . لا أن نفكر تفكيرا مضطربا فى جميع الاوقات . ومتى وصلنا لقرار نطرح الموضوع جانبا ولا نضنى ذهننا من غير موجب .

الفصل الرابع :

راقب صوتك

هل صوتك جميل جذاب ؟ .. ان الصوت الجميل قد يجعل السامع ينسى كل شيء عن النظر والحجم ، لان جمال الصوت وسحر النبرة يستوليان على الحواس ويشقان الطريق الى القلب ..

والآن يجب أن نسأل أنفسنا ما هو الفرق بين الصوت المسن والصوت الشاب ؟..

ان أول فارق بينهما هو : ان الصوت الشاب رنان ، حافل بالثقة والامل .. اما الصوت المسن ففيه دائما نغمة تذمر ويأس وتسليم بالهزيمة ..

وهنا مرة اخرى نجد أنفسنا وجها لوجه أمام أهمية التنفس بطريقة صحيحة ، لان الصوت الشاب يستغل راحة التنفس وعمقه وطوله فلا تكون الكلمات مضغوطة ولا متقطعة .. فالكلمات مثل الفارس ، والانفاس هى الفرس . والصوت الشاب يستمد شبابه من كونهممتطيا فرسا سهل الحركة جم النشاط .. أما الصوت المسن فيبدو ممتطيا فرسا متهالكة قليلة الحيوية ، يخيل اليك بين لحظة واخرى انها يمكن أن تسقط على الارض بلا حراك ..

ولا يذهبن الظن بأهل البدانة أن حلاوة الصوت متعذرة عليهم .. بل العكس هو الصحيح ، لان الوسائد الدهنية التى تبطن أصواتهم وتمدها بعناصر من العمق قد لا تتيسر للنحاف . ومن الملاحظ ان أعظم المغنين والمغنيات يميلون الى شيء من البدانة .. فليس هناك عذر للشخص المائل الى البدانة فى ترك عناصر الانحلال والسخط والمسكنة تظهر فى نبرات صوته بدلا من الجاذبية والعمق والمرونة .

وثمة عامل آخر من اهم عوامل الشباب فى الصوت .. ونعنى به عنصر الحماسة والاهتمام ، فالشاب دائما متحمس لما يقول .. تجد فى صوته شحنة من الاهتمام الزائد ، وتشعر أنه مستعد للوثوب الى العمل ، وتنفيذ مايتحدث عنه فى أية لحظة . وهذا ما يجعل أصوات الشباب منعشة ناضرة .. أما الشيوخ ففى أصواتهم روح الاعياء ، فيشعر السامع انهم على وشك نفض أيديهم من كل شيء والاقلاع عن كل عمل .

فالخطوة الاولى نحو شباب الصوت هى فى الواقع شباب العقل وشباب القلب ، فمن يقبلون على الحياة هم الذين تفيض أصواتهم بالحماسة والاهتمام .. أما من فقدوا القدرة على تذوق الحياة واهتماماتها ، فمن الطبيعى أن ينضح صوتهم بالملل والسأم والاعراض والزهد ، لانهم غير مقتنعين بجدية اى شيء أو جدواه .

وليس معنى هذا الكلام أن الموضوعات الهامة فقط هى التى يكشف الصوت عن الاهتمام بها والحماسة لها ، بل أن الحماسة والاقبال يبدوان فى الكلام حتى عن أتفه

الموضوعات اليومية العادية .. فحينما يقول أحدهم مثلا لصاحبه :

ــ هيا بنا نتمشى قليلا ..

ويجيبه الاخر قائلا :

فمن الممكن أن تكون هذه الجملة الاخيرة العادية جدا؛

ــ وهو كذلك .. هيا بنا ..

دالة على نشاط وحماسة ، أو دالة على قبول مصدره عدم الاكتراث . وما دام أي شيء مثل اى شيء آخر فى عدم الجدوى وعدم الاهمية ، فهو لا يمانع فى اطاعة صديقه والخروج معه لتلك النزهة . وقد تحمل هذه العبارة أيضا شيئا أسوأ من عدم الاكتراث ، ونعنى به الضيق والسخط بالحياة عموما .. فالشخص فى هذه الحالة ينقاد وهو كاره لانه لا يدرى سببا يكفى للاعتراض او سببا يكفى للموافقة ، لان كل مافى الحياة ذو طعم كريه ثقيل على نفسه ..

ومن هذه العبارة الصغيرة التى نسمع مثلها عشرات المرات كل يوم ، ندرك أهمية مايعنيه الصوت البشرى من تعريفنا بشخصية المتكلم وموقفه من الحياة عموما ، وهل هو موقف المتجاوب الفعال ، أم موقف المستسلم المتذمر ، أم موقف المنقاد غير المكترث ، أم موقف السلبى

ان القطة حين ترقد وقد خلا ذهنها من كل تفكير ، يصدر عنها صوت قرير هادىء مثل خرير الجدول . وهذا الصوت هو الذى تقلده الموسيقى حين تصدر الرضى عن الحياة والاخلال اليها .. فحتى عند الصمت والسكون ، أو حين نمارس الاعمال العادية جدا ، يجب أن يكون صوتنا هادئا كخرير الجدول ومعبرا عن الرضى

والطمانينة والثقة بأنفسنا وبالحياة مثل قرير القطة حين تشعر بالشبع والامان .

ان الرضى هو أهم مميزات الصوت الشاب . فراقب صوتك واستبعد منه كل نبرة تدل على السخط والتذمر .. واذا راقبت من يقولون « نعم » ومن يقولون « لا » لاحظت ان كلمة « لا » تقضى على النعومة والنضارة فى الصوت .. فحاذر من قول « لا » بقدر الامكان .

وانا ادرك تماما أن الشخص البالغ الذى يتحمل مسئوليات لها قيمتها مضطر الى قول كلمة « لا » فى ظروف كثيرة . وليس مرادى أن أمنعه من قولها ، بل مرادى فقط أن أحمله على التخفيف من حدة تلك الكلمة الطبيعية ، وأن يستبدل بها كلما استطاع ذلك كلمات أخرى قد تحمل معناها ولكنها مغلفة بالرغبة فى التفاهم .. فلا تجرح الاذن ولا تحمل معنى صلابة الرأى أو التذمر .. فهما يقترنان فى النفس بالتقدم فى السن .

ان كلمة « لا » اذا قيلت بحدة أو بسخط لابد أن تذكر السامع بتقدم المتكلم فى السن لان ترجمتها فى هذه الحالة هى :

ـ أنا شخص له تاريخ طويل من تجارب الحياة ، فكيف تريد منى أن الغى كل ذلك التاريخ لا أوافقك على رأيك الطائش .

فاحذر أن تذكر السامع بتاريخك الطويل فى أى شىء ، لان كثرة التجارب معناها قلة الرصيد من الشباب .. فنضارة الشباب أشبه بصفحة بيضاء لم يكتب فيها سطر واحد . وكلما كشفت تلك الصفحة عن عدد من السطور فيها ، كان معنى ذلك قلة النصيب من نضارة

الشباب . ونحن نريد لك فى هذا الكتاب أن تبدو شابا على الدوام ، فحين تعارض فى شىء عارضه بالمناقشة والتفاهم .. ولا تشهر فى وجه محدثك سلاح تجاربك الكثيرة ، لانك بهذا السلاح نفسه ستقضى على كل فرصة لك فى اشعار الناس بنضارتك ..!

***

ان كلمة « لا » ليست مقصودة لذاتها ، وانما المقصود هو كل دليل على التفكير السلبى .. فانبذ من صوتك كل مايدل على خيبة الامل أو الكراهية أو المرارة أو السخط ، لان الصوت الشاب هو الصوت المتوازن الذى لا يفتح تلك الاثار الكريهة المكتسبة من تجارب ماضية ..

ان الازهار دائما ناعمة كالقطيفة .. أما النباتات المتقدمة فى السن فهى اخشاب جافة خشنة الملمس ، فيجب أن تتدرب على نعومة الصوت لا على خشونته

أن الصوت الناعم الملمس يقضى على الخصومة والحقد عند محدثك ، لان ملمسه ناعم اشبه بالمرهم أو البلسم . وقلما يخيب رجاء لصاحب صوت ناعم ، لأن سحر النعومة فى الاصوات لا يقاوم .. فاذا بمن تتحدث اليه يوافقك وهو لا يدرى لماذا يوافقك . وهذا بالضبط هو معنى السحر .

والسحر قريب فى معناه من التنويم والايحاء .. والصوت الناعم له تأثير التنويم فى بعض الاحيان . لذا أوصى النساء على الخصوص بتجنب الاصوات الحادة وخصوصا عند الغضب او المخاصمة ، لان حدة الصوت تفقدهن الكثير من المكاسب المرجوة . اما ضبط النفس

وضبط الصوت فى أوقات الازمات، فهما حريان أن يكسبا الانصار والمعارك .

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أوجه تحذيرا من سوء الاستعمال والمبالغة فى تنفيذ النصيحة السابقة .. فقد ذكرت لى سيدة مطلقة انها كانت حريصة دائما على ضبط عواطفها فى جميع مواقف النزاع من زوجها ، ولكن الامر انتهى مع ذلك الى الطلاق .. لان التزامها للهدوء التام كان يزيد غضبه اشتعالا .

وانا لا أعارضها أو أنكر عليها أنها حافظت على هدوئها التام مع زوجها .. ولكن بعض الهدوء أو بعض الصمت قد يحمل من معانى التحدى اضعاف ما يحمله الصراخ والتنابذ بالعبارات الجارحة .

ليس المطلوب هو الصمت لمجرد الصمت .. بل الصمت للتهدئة وعلاج الموقف .. أما الصمت العدائى وترجمته اللفظية كما يلى :

ـ أنا لا يمكن أن أنزل الى مستواك فى السلوك والحديث . أنا أرفع منك وأرقى .. ولهذا ساتركك تهذى كما ينبح الكلب ولا أرد عليك .

وهو كلام كما ترى مثير للغيظ والحقد .. ولهذا انتهى الامر بين هذين الزوجين بالطلاق .. ولو أن هذه الزوجة لم تطبق نصيحة الصمت أو ضبط الصوت بطريقة عشواء ، وجعلت فى صمتها أو صوتها الهادىء شحنة ايجابية من اللطف والدماثة لكان من المستحيل أن تتسع شقة الخلاف الى هذا الحد .

يجب الا نخلط فى الصوت الهادىء بين شيئين مختلفين جدا ، هما اللطف والتعاطف من جهة ، والترفع

والتعالى من جهة أخرى .. فالشخص الذى يبعد من نبرات صوته كل ما يدل على الغضب ، ثم يحشد فى صوته كل ما يدل على الاحتقار والازدراء ، انما يكون مثله كمثل المستجير من الرمضاء بالنار ..!

وهذا يدلنا على أن ضبط الصوت ومراقبته ليست مسألة آلية ، وانما هى مسألة عقلية ونفسية .. فلابد أن تكون هناك نية صادقة على طلب التفاهم والتقارب مع السامعين ، فبغير هذه النية تكون كل نعومة فى الصوت عملية سطحية لا قيمة لها ولا جدوى منها .. وانما هى مجرد طراوة تثير الارتياب ويعقبها شعور بعدم الارتياح

ان طريقة شعورنا وتفكيرنا تنعكس حتى على طريقة حديثنا وتبدو فى نغمات صوتنا . ومن الطبيعى أنه يمكننا تهدئة أنفسنا بأن نرفض الانسياق لرغباتنا الغريزية فى الصراخ وجرح شعور السامع بالتهكم اللاذع . ولكن هذه فى حد ذاتها ليست الا خطوات آلية لا تثمر الا اذا كان الدافع اليها الرغبة فى اللطف والتعاطف ، حتى لا تكون نعومة أصواتنا نعومة سلبية .. تلك النعومة التى تختلف تماما عن النعومة الايجابية .

ويتضح لنا الفرق بين النعومة السلبية والنعومة الايجابية ، اذا أدركنا أن النعومة السلبية انما هى مجرد عدم وجود الخشونة والحدة فى الصوت .. فى حين أن النعومة الايجابية عبارة عن وجود اللطف والدماثة والتعاطف فى نبرات الصوت .

وهذا شبيه بالفرق بين الحلاوة السلبية والحلاوة الايجابية .. فالحلاوة السلبية هى مجرد الخلو من التشويه فى الشكل أو الخلو من المرارة أو الملوحة فى

الطعم . أما الحلاوة الايجابية ، فلا يكفى لها هذا المعنى السلبى .. بل يجب أن توجد عناصر الجمال فى الشكل والحلاوة فى الطعم بصورة متميزة .

وهذا الفرق الكبير بين السلبية والايجابيــة فى رقة الصوت هو سر جاذبيتنا نحو صوت رقيق وعدم جاذبيتنا .. بل عدم ارتياحنا الى صوت رقيق آخر .

ومن خبرتى فى العلاج والتمرين ، لم يحــدث فى مرة واحدة أن خاب تأثير الاخلاص والنية الصــادقة لتمرين الصوت على الرقة والنعومة .. ويبدو ذلك واضــحا فى مواقف الخلاف ، فالاخلاص هو الذى يبعد عن الصوت الهادىء كل أثر للتحدى .. ممــا ينزع أســلحة الطرف الاخر ويجعله يخجل من نفسه فيعدل عن موقفه .

***

ومن المشاهد كثيرا أن معظم كبـــار السن لا يحبون مجالسـة أندادهم فى العمر .. بل يفضــلون على ذلك مجالس من هم أكثر شبابا . ومن أهم الاســـباب التى تدفعهم الى ذلك أن أصوات الشباب جذابة للغاية كأنهــا نسمات تهب من بساتين محملة بأزهار الربيع ... وحتى كبار السن انفسهم لا يستريحون لعلامات خيبة الامــل والانحلال والتذمر التى تبــدو دائمـــا فى أصــوات من يقاربونهم فى السن .. حتى ولو كانت أصواتهم أنفســهم من نفس النوع .

وفى استطاعة كل انسان ، مهما كانت سنه ، أن يعيد النظر فى طريقة كلامه وطريقة تنفسه وأن يقوم بتدريبات بدنية ونفسية لمعالجة مظاهر الشيخوخة فى صوته .

ان التدريب على التنفس الصحيح هو بمثــابة اعــداد

الجواد الصالح للفارس المجيد .. فتمرينات التنفس التى عالجناها فى صفحات سابقة ضرورية جدا لتحقيق هذه الغاية ، ثم تأتى بعد ذلك عملية التمرين النفسى والعقلى .

ولكى تصل الى ابعاد الحدة والسخط والتذمر والتهالك من صوتك ، يجب أن تتمرن أولا على أبعاد مشاعر الحقد والكراهية والحسد من ذهنك ، وأن تنظر فعلا الى الحياة نظرة تفاؤل وثقة وطمأنينة .. فهذه هى المشاعر الايجابية التى يجب أن تتوفر لديك كى تبدو فى صوتك .

والواقع أن الحسد ربما كان من أكثر الامراض انتشارا فى عصرنا .. ولذا فهو يعجل بشيخوخة الناس قبل الاوان بزمن طويل . ويرى أكبر الفلاسفة هذا الرأى ، بل يذهبون الى أنه من أعمق المشاعر البشرية وأكثرها شيوعا وانتشارا . ومن عجب اننا نرى أن الحسد تظهر اعراضه لدى الطفل قبل أن يتم العام الاول من عمره ولهذا انصح كل مرب أو مربية أن يضع ذلك موضع الاعتبار ، لان أى بادرة أو مظهر من مظاهر المحاباة لطفل على حساب طفل آخر تبدو جلية لدى الطفل المغبون فيحقد عليه .

ولهذا يجب أن يكون الرائد هو العدل المطلق فى غير التواء .. على أن الاطفال ليسوا اشد حسدا من الكبار ؛ بل انهم أبسط واصرح فى التعبير عن مشاعرهم . أما البالغون فان الحسد ملحوظ لديهم بوضوح ، تماما كما نلاحظه فى حركات الاطفال وتصرفاتهم .

ونضرب مثلا لذلك بالخادمات .. فاننى اذكر انه

كلما كانت لدينا خادمة متزوجة ، حملت .. فكان من رأينا ألا نرهقها بحمل الاشـــياء الثقيلة . ولدهشـــنا وجدنا غيرها من الخادمات يمتنعن عن حمل أى شيء ثقيل فكان علينا نحن أن نقوم بالأعمال التى من هذا القبيل .

ولست أبالغ حين أقـول أن الحســد ركن من أركان الديموقراطية ، وانه الباعث عليها سواء من قديم الزمن أو فى الديمقراطية الحديثة .

وهناك نظرية فكرية تقول الديمقراطية خير نظم الحكم المختلفة .. وأنا من أنصار هذا الرأى ، على أنه لا يوجد فى مجال السياسة من الناحية التطبيقية ما يؤيد أن للنظريات الفكرية ـ مهما بلغت من القوة ـ ان تحـــدث تغييرات ذات بال فى الواقع . بل انه حينما تحدث تطورات فى السياسة العـــامة ، فان النظريات التى تبرر تلك التطورات انما هى فى الحقيقة قنـــاع تتســتر وراءه العاطفة . والعاطفة التى أمدت النظريات الديمقراطيـــة بالقوة الدافعة هى الحسد .

ومما هو جدير بالذكر أن الحسد يلعب دورا خطيرا خارقا بين السيدات العاديات المحترمات ، فان المرأة التى تسير فى ثوب أنيق وتسبقها رائحتها العطرية تتعقبهـا عيون السيدات بنظرات شذراء .. وكل واحـدة منهـن تتمنى أن تكتشف لها عيوبا تغض من قدرها . وممـــا لا مراء فيه أن عاطفة الحســـد هى الدافع لحب تنـاقل الفضائح .

والحسد كذلك شـائع بين الرجال ، شأنهم فى ذلك شأن النساء مع فارق واحد : هو أن الحسد بين النـساء مطلق بلا حدود ، ولكنه عند الرجال محصور فى أبنـــاء

الحرفة أو المهنة . وهل سمع انسان بفنان يطري فنانا أمام فنان اخر ، او بطبيب يمدح طبيبا امام طبيب اخر .. فان حدث ذلك فستنفجر على الفور براكين الغيرة والحقد .

وعاطفة الحسد ، على تفشيها الشديد بين الناس ، من أسوأ العواطف وابشعها ، لان الحسود يتمنى الوقيعة والضرر لمن يحسده .. بل لايتورع عن التنفيذ عندما تسنح له الفرصة حينما يأمن العقاب .

ومما يلاحظ أن الحسد لا يقف عند هذا الحد ، بل يصل ضرره الي الحاسد نفسه فيشقى به .. وبدلا من أن يشعر بالمتعة يشقى بالالم مما يملكه سواه أو يتمتع به سواه من مظاهر الجاه ، ولو استطاع حرمان الناس من مزاياهم لفعل دون تردد .

ومن أوجب الامور الوصول الى علاج لهذه العاطفة الذميمة ، فانها اذا تركت من غير كابح كان فيها القضاء على كل موهبة نافعة . فلماذا يذهب الطبيب مثلا في سيارة كسبا للوقت ليعود مرضاه ، فى حين يذهب الموظف أو العامل الى عمله راجلا ؟ ولماذا يقضى الباحث الوقت فى ابحاثه فى حين يتعرض الكناس للقيظ أو للزمهرير فى العراء ؟ ولماذا يعفى انسان موهوب تدر مواهبه الخير على المجتمع من عناء بعض الاعمال اليدوية المرهقة ؟

هذه علامات استفهام يحار الحسد فى الاجابة عليها . ولكن من حسن طالع البشرية أن هناك عاطفة أخرى فى الطبيعة الانسانية تعوض عن عاطفة الحسد لتحفظ التوازن ، وهى عاطفة الاعجاب ، فكل من يتمنى السعادة

للانسانية يتمنى فى الواقع رجحان كفة عاطفة الاعجاب ، كما يتمنى للحسد التضاؤل والاندثار .

وانا ارى ان العلاج الناجع للحسد لدى الشخص العادي هو السعادة .. والعقبة التى تصادفنا فى هذا المقام أن الحسد فى حد ذاته عدو لدود للسعادة . والحسد ينشأ غالبا من اضطرابات فى فترة الطفولة ، فان الطفل الذى يستشعر الغبن بالنسبة لاخيه أو أخته، أو انه لا يحظى بقسط وافر من العطف والحنان من والديه ، حرى به أن تتأصل فى نفسه عاطفة الكره لاخيه او اخته او والديه ، ويشب وفى داخله شعور بأنه خلق محروما مغبونا فى ابسط الحقوق الانسانية الطبيعية .. بل يذهب به الامر الى اكثر من ذلك ، اذ يعتقد أن رفاقه يضمرون له الشر وأن لا أحد منهم يحبه . ومن الطبيعى أن شعوره على هذا النحو سيجعله يعتقد أنه حقا مغبون من غير ذنب أو جور .

***

فالحسد اذن هو حجر الزاوية والنواة التى تتبلور حولها مشاعر المرارة والحدة والسخط . ومكافحة هذا الوباء النفسى من الافضل طبعا أن تكون مبكرة ، منذ بداية الطفولة كما هو واضح مما تقدم . ولكن لا يذهبن بك الظن الى ان هذه المكافحة قد فات وقتها فى أى سن اذ من الممكن جدا ـ اذا صحت العزيمة ـ أن تبدأ الان فى مراجعة اعماقك كى تتجرد من الاحساس الكئيب بالحسد إن تتقدم يوما بعد يوم فى تنقية صوتك من هذا الأحساس بمقدار تقدمك فى تنقية قلبك منه ..

واذا لاحظت شخصا حقودا أو حسودا لوجدت شفتيه تتقلصان وهو يتحدث . وهذا التقلص هو الذى يطبع الكلام بطابع الجدة . اما اذ راقبت الطفل وهو يتكلم فانك تجد فمه بعيدا كل البعد عن التقلص ، فهو ناضر كبرعم الزهرة .

فلا تهمل تدريب شفتيك على الحذر من التقلص والتوتر اثناء الحديث ، حتى لايكون صوتك مثل طلقات الرصاص أو قذائف المدافع .. فان فوهات تلك الاسلحة تتراجع الى الوراء كرد فعل طبيعي لحركات الاندفاع والعنف ..

ان الفم الهادىء اللطيف شرط ضرورى للابتعاد عن الصوت الحاد العنيف . وثق أن التمرين يؤتى نجاحا سريعا ، أسرع مما يخطر ببالك . وليس معنى عدم التوتر فى الشفتين طبعا أن تسمح لنفسك بالتكلم بطريقة متكلفة ، لان الرقة المتكلفة تترك فى نفس السامع اثرا عكسيا .. اذ يعتقد أنه أمام خادم من خدم المطاعم أو موظف استقبال فى فندق كبير تحتم عليه مهنته التلطف مع الزبائن !

ان الذى نطلبه منك أن تكون شفتاك مرآة لقلبك ، فالقلب الحسود له شفتان غير القلب الحاقد وغير القلب المنافق .. فاحرص انت على أن تعبر شفتاك عن المودة والحب . كن محبا فى قلبك لتعبر شفتاك عن الحب ، وكن ودودا مخلصا لترى كل شيء حولك جميلا شابا .

وسيكون من السهل عليك فى هذه الحالة النفسية ان تجعل فى صوتك نبرة ضاحكة على الدوام ، كأن أجراسا فضية صغيرة ترن من بعيد . وليس هذا مجرد تخيل

لان الاجراس الفضية الصغيرة ترن حقيقة فى داخل قلبك المحب للناس والمحب للحياة .

ولست اعنى طبعا الا يكون لك رايك الخاص فى شىء ، فالشـخص الطبيعى يخالف الناس فيما لا يرضـيه من الاراء . ولكن الذى أطلبه منك أن تخالفهم بحب وعطف لا بحقد وعداوة ، وأن تنزع من راسك انك يجب ان تكون على حق فى جميع الاوقات .. بل ضع فى راسك أن من تناقشه قد يكون هو المصيب ..

فالمودة ، والتسامح ، وسعة الافق ، هى الاساس الذى يترجم عنه الصوت الساحر الشاب على الدوام مهما كانت لهجة الكلام ومناسبته .

حديث الشباب وحديث الشيوخ

حديثك حديث الشيوخ بقدر مافيه من صيغ ثابتة أو « كليشيهات » محفوظة .. فالتعبير عن الافكار بعين الطريقة القديمة المكررة عاما بعد عام ، يضفى عليك الجمود والخمول والقدم .. فالحديث كالاجسام يمكن ان يكون ناشطا رشيقا منطلقا ، كما يمكن ان يكون ثقيلا راكدا .

اجتهد أن تكون انيقا فى حديثك مثلما تتأنق فى ثيابك ومظهرك .. واعلم أن للحديث تمرينات تزيد رشاقته كما أن للبدن تمرينات تحفظ نشاطه وخفته .

ومن الملاحظات المعهودة ان العجائز كلما اجتمعوا فى مكان على حدة انطلقوا يتحدثون تلقائيا عن أمراضهم ومتاعبهم الصحية .. فالحديث عن المتاعب ، والشكوى من الامراض ، والتذمر من تقهقر الزمن وقلة خير الدنيا ، هى علامات الشيخوخة فى الحديث .. فاحذرها وتجنبها مااستطعت الى ذلك سبيلا .

اما اذا راقبت الشبان الصغار وهم يتحدثون بعضهم الى بعض لوجدت كلامهم كله منصبا على شىء يصنعونه أو شىء يتوقعون حدوثه .. وهم فى كل أحاديثهم متفائلون ، يتقدون من غير تحسر ولايتعلقون بأذيال الماضى .. بل

هم على العكس يؤمنون أن الغد خير من اليوم ، وأن اليوم خير من الامس .

واسأل نفسك : هل فى حديثك دائما رنة الحسرة ولهجة الحذر ؟ اذن فحديثك حديث الشيوخ ... وهل تحشو عباراتك بالتنبؤات القاتمة والتوقعات المتشائمة ؟ اذن فتفكيرك هو تفكير الشيخوخة .. وهل تهز رأسك كلما رأيت بدعة جديدة ، وترسل من شفتيك اصوات الطقطقة والاستنكار ؟ .. اذن فاحساسك للدنيا هو احساس الشيخوخة ؟

هل كلما رأيت شيئا يقع على غير ما يرام ، ضيقت فتحتي عينيك وقلت لمحدثك :

ـ الم أقل لك ؟ طالما حذرتك وتنبأت ان هذا سيحدث بحذافيره .. ولكن أحدا لم يشأ أن يصغى لتحذيراتى !

اذا كان هذا دأبك فانت اذن من « عجائز الفرح » الذين تخصصوا فى التفتيش عن العيوب والتنبؤ بوقوع الكوارث والمصائب . ولا يمكن للعالم أن يتقدم الى الامام الا اذا نفض عن ذهنه كل مايتفوه به « عجائز الفرح » المتشائمون !

ان العجائز لا مكان لهم فى عملية النمو التى تتمثل فى الشباب . ولهذا تكاد تنحصر أحاديثهم فى تمنى الخراب للعالم ودعوة الناس للانكماش والجمود والتقهقر .. فعليك فى احاديثك أن تتجنب ذلك الاسلوب وان تنظر الى الغد نظرة تفاؤل وابتسام ، وأن تنبذ من احاديثك كل موضوع له صلة من قريب أو بعيد بالامراض وخير الدنيا الذى قل ، وانحلال الاخلاق ، والصلات الاجتماعية .. لان هذه الاحاديث بمثابة « الماركة

المسجلة » التى تميز المتخلفين ومن انتهى زمنهم .. فالشيخوخة تعيش بالخوف ، ولا تتحدث الا عن المخاوف أما الشباب فحديثه كله ثقة بنفسه ، وبحاضره ، وبغده، وبينابيع الحيوية المتدفقة فى كيانه .

وأسلم الطرق تحاشى ابداء الرأى فى الموضوعات التى تشعر بعدم الاطمئنان من نحوها .. فاذا كان الموضوع مثلا يتعلق برياضة جديدة لا تستريح اليها ، أو رقصة مبتكرة تشعر باستنكار من نحوها ، أو بدعة فى السلوك لا تهضمها ، فلا تظهر هذا الرأى للملأ . وبدلا من أن تعبر عن رأيك للشباب من حولك بصراحة ، يحسن أن تكتفى بتوجيه الاسئلة والاستفسارات اليهم عن قواعد هذه البدعة وطريقة ادائها .. ليكن موقفك موقف من يريد أن يتعلم ويتقبل ، لا موقف المعارض المنسحب الخارج على الجماعة المنعزل عن روح العصر ..

ان السؤال او الاستفسار يهدم الحواجز بينك وبين الشباب واساليبهم الجديدة ، فيشعرون أنك لست غريبا عنهم . وثق انك بعد هذه الخطوة الاولى ستشعر أيضا بنفس الشعور ، وستجد نفسك قد زدت اندماجا فى الجيل الجديد .. بحيث تنسى أنت أيضا كما ينسون العصر الجديد المتجدد .

والوصية الثانية أن تحذر من احتكار الكلام فى المجلس .. فمن عادة المتقدمين فى السن أن يتحدثوا فى موضوعات محدودة معينة لا يغيرونها ، وهى موضوعات لا تهم أحدا سواهم او سوى أبناء جيلهم .. فاترك للشبان الذين يجالسونك فرصة الحديث ، وأن يفتحوا هم موضوعات جديدة . وعليك أن تجتهد فى الاهتمام بموضوعاتهم ،

لتكتسب من ذلك الاهتمام مزيدا من الاتصـــال بعقليـة العصر الجديد المتجددة .

ان من علامات الشيخوخة ان يتمســك الشــخص بموضوعاته الاثيرة لديه .. واذا تكلم غيره فى موضوعات اخرى ، انتهز اول فرصة لاستدراج الحديث الى تلك الموضوعات .. ثم ينطلق كالبركان ولا يريد أن يتوقف ، فراقب هذه العادة جيدا واعمل على القضاء عليها .

وافضل ما تخدم به نفسك فى هذه الحالة هـو أن تصغى جيدا لانواع الموضوعات التى يميل الشبان للخوض فيها .. ثم تحاول أن تعثر على مراجع ومصادر لهـذه الموضوعات فى الكتب العصرية التى يهـواها الشـبان ، وفى المجلات المحبوبة عندهم . وفتش عن المؤلفين الجـدد الذين يفتنون الجيل الصاعد حتى لو كانوا تافهـين فى نظر ابناء جيلك . واقرأ كل هـذا لتزيد قـدرتك على الاشتراك فى أحاديث الشبان بمزيد من الكفاية والاحاطـة .. وبذلك يكسبك نضوجك مزيدا من الاعجاب فى نظرهم لانه نضوج مستغل فيما يهمهم من الافكار والموضـوعات والاهتمامات الذهنية والعاطفية .

واذا استطعت ان تتابع آخر مبتكرات الموسيقى العصرية التى يحبها الشبان ، بحيث ترشدهم الى الطريق الجديد قبل أن يعرفوه هم ، فستكون فى نظرهم زعيما من زعماء الشباب لا قطعة من « الانتيكة » القديمة التى مكانهـا اللائق ركن المتحف مع بقية الاثار المهجورة .

اننا نضمن لك بهذه الطريقة ان يتعلق بك الشـبان تعلقا يثير دهشتك ، فيتهافتون على مجالسـتك فى حين يهربون من بقية ابناء جيلك الذين لا يتبعون هذه الطريقة

.. فمن المشاهد المجرب أن الشبان يفتتنون بالمتقدمين في السن من ذوى الارواح الشابة والعقول المتحررة المتجددة ، ويجعلون منهم قبلة الانظار وواسطة العقد في كل مجلس وكل سهرة وكل حديث .. لان فيهم جاذبية خاصة لا تتوفر في الشبان الحقيقيين ، جاذبية تجمع بين النضوج والنضارة ، وبين العراقة والبريق ، وبين التجربة والتفتح ، وبين المعرفة والاقدام المتفائل المتطور .

والان قد يسأل سائل سؤالا وجيها :

ـ انني رجل تجاوزت الاربعين أو الخمسين ، وتأصلت عندي هذه العادات المحظورة في السلوك والكلام .. وهي عادات تدمغني بطابع الشيخوخة في نظر الجيل الجديد ، فكيف أتخلص من هذه العادات وأتخذ لنفسي عادات جديدة مستحبة ؟

والامر ليس من السوء كما يتوهم البعض .. فعلماء النفس والاجتماع لهم من المباحث الحديثة في موضوع العادات الحسنة والسيئة ما يكفل لك الاطمئنان ، بشرط أن تصح عزيمتك على التغيير والتطور ... هؤلاء العلماء يجمعون على انه اذا كان من عاداتك الان مالا ترضى عنه ، وتود باخلاص ان تنبذه لتتخذ عادات أخرى تعجب بها بعض من حولك من الناس .. فذلك أمر ممكن يسير اذا صحت نيتك وصدقت عزيمتك .

فمن يريد أن يتعلم السباحة مثلا ، فلا يجدر به أن يكتفي بترك نفسه والاعتماد على قوة التيار . وليس من الحكمة اطلاقا ان يسمح الانسان لنفسه بأن يسير نحو مصير لا يرغب فيه .. فكل فرد وهب ملكة يستطيع

بها أن يتخير هدفه ويحدده ، كما أن له طريقته الخاصة للوصول الى ذلك الهدف .

ومن الحقائق التى لا تحتاج الى ما يثبتها أو يوضحها، ان العادات متى تأصلت فى الانسان وتمكنت منه تحولت الى طبيعة له وصارت جزءا من اللاشعور . وهذا اللاشعور موفور لدى كل انسان ، وهو الطريق الى خدمتنا عن طريق العادات على النمط الذى نرسمه له .. وتسخير العادات تحت تأثير قوة اللاشعور أمر مجرب ، فبعدة تجارب علمية عملية أمكن تغيير الحياة تغييرا كليا .. بحيث اصبحت الحياة الجديدة لا تنبىء مطلقا عن الحياة السابقة ولا تمت لها بصلة . فمن المستحسن استغلال تلك القوة الخارقة ، قوة اللاشعور التى تترجمها العادات المتمكنة .

ولاهمية اللاشعور ، وما له من تأثير فعال فى تغيير السلوك وتطوير الحياة من كافة نواحيها المتشعبة ؛ سنفرد بابا خاصا نتحدث فيه عن اللاشعور واثره وتأثيره باسهاب وايضاح يجلوان أى غموض .

ولعلك لا تخالفنى حين أقول ان عادة واحدة تتميز بها بحيث تبدو طابعا خاصا بك ، قد يكون لها اثر كبير فى رأى الناس فيك . واذا قلنا هذا بالنسبة لعادة واحدة ، فيمكنك أن تتصور بعد ذلك مدى قوة عاداتك مجتمعة وتأثيرها فى الحكم على مكانتك ومصيرك فى معترك الحياة .. انك فى واقع الامر شحنة من العادات ، فان الغالبية العظمى مما تفعله انما تفعله من غير انتباه أو شعور وذلك بحكم العادة . وبحسب تصرفاتك وافعالك يكون الحكم عليك والرأى فيك ، لان الافعال مرآة صادقة للشخص

وبعبارة أخرى أن من تصطفيهم من الناس فيظفرون باعجابك وحبك وميلك لمعاشرتهم هم في الواقع الافراد الذين راقت لك عاداتهم . وعلى العكس ان الافراد الذين لا تشعر نحوهم بميل ، بل تنفر منهم وقد تبغضهم أو تحتقرهم ، هم أولئك الذين لا تروق لك عاداتهم .

وليس مستحيلا أن يتجنب الانسان ويتحاشى شخصا ـ ربما كان مثاليا رائعا ـ من اجل عادة واحدة مرذولة يتميز بها بشكل ظاهر .

ومن الخطأ بعد ذلك ان تقول أنه مامن شيء من أمور الانسان أو أفعاله أو تصرفاته جامد على حاله ، فانه حيثما كان التغيير مستطاعا ، فالتغيير نحو التقدم ونحو الافضل مستطاع كذلك . ان في الامكان أن تسير نحو تحسين نفسك وسلوكك سيرا واعيا تدرى به وتشعر ، على أن هذا التغيير لايكفى أن يتم ويصبح حقيقة واقعة ملموسة الا اذا ترسب في سريرتك وتشربه اللاشعور ، وتعهد به نيابة عنك وعن عقلك الواعى .. لان اللاشعور كامن في كل انسان ، وفضلا عن ذلك فانه يمتاز بدقته اللامتناهية وقدرته الخارقة على التنفيذ بغير مجهود وبأمانة .. وهو اذا درب كفيل أن يمحو عادات قديمة ويغرس مكانها عادات جديدة ، في الشخصية او في العمل أو في المظهر .

***

من أجل هذا يجب عليك أن تدرس نفسك جيدا وتضع في الاعتبار بحث عاداتك وفحصها .. ثم تسجل في مفكرة تحليلا دقيقا لتلك العادات . وحينما تنتهى من ذلك ، تضع ما سجلته في الميزان وتقرر اى هذه العادات ينبغى

ان تبقى عليه ، وأيها يجب أن يتطور نحو ما هو أفضل ، وأيها يجدر أن تتحرر منها وتمحوها نهائيا .

وبعد ذلك اجتهد ، لكي تضمن النجاح الذى تصبو اليه ، أن تعد قائمة ترسم فيها ملامح الصورة التى تحب أن تظهر بها ، لان هذه الصورة ستكون بمثابة المرآة التى تظهر أمام ناظريك العادات الجديدة التى ترغب فى تنميتها واقامتها .. يساعدك على ذلك مالديك فعلا من العادات الطيبة التي لحسنها رأيت أن تبقى عليها .

واجعل نصب عينيك أن تسخر ارادتك الواعية وتستحثها بكل مافى طاقتك من قوة ومضاء عزيمة لغرس العادات الجديدة ، وعند ذلك سيقوم اللاشعور الكامن فى أعماقك بتلقف تلك العادات الواعية الناشئة حيث يتعهدها ويعتنقها ثم يقوم بها بعد ذلك تلقائيا ، رافعا العبء عن العقل الواعى .

واعلم انك لن تبذل جهدا كبيرا فى تدريب ذلك الخادم الامين ، بل يكفى ان تأمر نفسك ليأتمر اللاشعور بأمرك من تلقاء نفسه . وليس افضل من خادم يكفى لتعليمه وقيادته أن يسير الانسان نفسه ويوجه حركاته وفق رغائبه دون معارضة ودون تردد .

ان حجر الزاوية فى بناء العادات الفاضلة انما هو الارادة ، فما عليك الا أن تعزم بكل وعى وبكل شعور ، لان كل ما تشاؤه الارادة سيعتنقه اللاشعور ويحوله فى الحال طبيعة لا ارادية .

هذا ولاشك من البديهات المنطقية ، لان من لديه طاقة كبيرة من الارادة والثقة بالنفس وقوة العزيمة خليق بهذا أن يكون سيد نفسه ، وهو تبعا لذلك خليق بسيادة

خدمه . والقائد الماهر القوي الذي يعـرف كيف يسوس نفسـه ويتحكم في أعصـابه فيخضعها لارادته ، هو الذي يصلح بجدارة لان يسوس الجنود ويجعلهم يأتمرون بأمره ومدير الاعمال الذي يلم بكافة دقائق العمل يحالفه النجاح قطعا لان يفرض طاعته على مرءوسيه بسعة اطلاعه والمامه التام بالعمل من جميع النواحي .

ان الارادة تحتاج الى فترة من التمرين والتـدريب لتمحو من طريقها ما قد يعترضها من صعوبات ، تماما كما يحتاج الضابط الى فترة للمران لكي يرتفع الى القيـادة التي تجعله يعرف كيف يسوس جنوده وكتيبته .

وقوة العزيمة تشبه عصا السـاحر ، واثباتهـا بنجـاح يكفي للسيطرة على أية مقاومة من اللاشعور . وبلوغك النجاح في عادة واحدة بفضـــل قوة العزيمة والمثـــابرة والثقة بالنفس والايمان بها ، كفيــل باحـراز النجاح في كافة العادات الاخرى . لان للارادة « عضـلات » تقوى بالتمرين والتدريب ، وعندما تقوى تكون قادرة على تحمل أي نوع من الاثقال والاعمال مما يأتيها من الخارج .

***

وكما أن الانسـان لا يمكن أن يعيش بغير طعام ، فكذلك اللاشعور بحاجة الى طعام والى عناية . وأهم ما يحتاجه اللاشعور أن يتوفر له قدر كبير من الايمان ، اذ يجب أن تؤمن ايمانا مطلقا بهذا الخادم المسـمى اللاشعور ، وبقدرته وكفاءته وأثره الفعال في التغيير والتطور .

ويلي ذلك في الاهمية ، أنه يلزمه قسط من التركيز . بمعنى أن تحشـد عزيمتك وتجندها في العمل الذي تريد

تدريبه عليه .. وبتوالى التركيز والمثـــابرة تجـد أن اللاشعور يقوم بما تطلبه من تلقاء نفسه .

ولا يمكننا بحال من الاحوال أن نغفل أن اللاشـــعور يحتاج دائما الى رقابة ويقظة ، وبأس لا يهن ولا يلين .. فيجب أن تقف له بالمرصاد على الدوام ، حتى اذا رأيته حاد عن الطريق الذى ترسمه أو تنكبه ، أو اندفع بقـوته الجبروتية ضد مصلحتك .. فعليك أن تقف فى وجهـه موقف المارد ، واثبت له شدة بأسك وقوة مراسـك وعنف عزيمتك لإيقافه عند حده ووقفه عن العمل ، واجباره على الخضوع والطاعة والامتثال ، مهما بدا منه من معارضـــة أو مقاومة فى سبيل الاندفاع فى طريقه الاول .. فان لم تفعل فستنقلب الاية ، وتكون أنت عبد لتابعك مسـودا لا سيدا . ونعرف بالتجـربة أن العادة المتأصلة المسيطرة مثلها كمثل العبد اذا تمكن وسيطر .. يذل سـيده القديم ، ولا يكتفى بذلك بل انه لا يتركه حتى يقضى عليه ويمحو كرامته .

ولا يغيبن عن ذهنك أن العادات انما تنشأ دائما وتتأصل فى اللاشعور ، وأن اللاشعور انما هو عبدك الذى يجب أن يبقى دائما فى هذا الوضع ، وأنه من أوجب الامور أن تقف منه موقف المراقب ، وأن تردعه وتشكمه بلا هوادة بعقلك الواعى وشعورك اليقظ .

***

ولا يمكننا أن ننكر مدى نشاط اللاشعور ، ذلك النشاط الذى ليس له حدود .. ولكى نوضح ذلك نورد مثـلا لنموذج من الخدمات التى فى مقدورك أن تسندها بسهولة الى ذلك العبد ..

يحدث في كثير من الاحيان ، وأنت تتحدث ، انك تريد أن تتذكر اسما غاب عن ذهنك ، وتشعر أن هـذا الاسم على طرف لسانك أو أنه ماثل أمامك في صورة باهتة غير ظاهرة ، ولكن ذاكرتك رغم ذلك لا تسعفك به .. وكلما قدحت عقلك الواعي لتذكره ، ازداد منك زوغانا ، حتى اذا تركت الموضوع جانبا ولم تتابع تذكر الاسم ، وشغلت نفسك بأمر آخر بعيد كل البعد عن موضوع ذلك الاسم ، اذا باللاشعور الكامن في الاعماق على حريته .. سرعان ما تشعر الا وقد برز ووضع على لسانك الاسم الذي اجهدت عقلك الواعي في تذكره دون جدوى .

فواجب عليك وقد عرفت هذا ، أنه كلما أعضلك أمر ترغب في تذكره ، أن تمتنع عن التفكير فيه بعقلك الواعي، لتفسح مجالا متسعا لعقلك اللاشعوري حتى يعمل بنشاطه المعهود فيه وبحرية الى أن يوضح لك ما غاب عنك سواء كنت يقظا أو وانت نائم .. لانه لن يفصح لك عما استعصى عليك الا بعد أن يجد منفذا في حاجز الشعور الذي يحول بينه وبين الظهور . واللاشعور يشبه الى حد كبير كاتم السر الذي لا يعمل الا في الظلام ، حينما تخفت أضواء العقل الواعي أو الشعوري .

ولكي انير لك الطريق ، أقول ان في امكانك أن تباشر تجربة بسيطة متى شئت .. تتثبت بها من مدى سيطرة عقلك الواعي وسيادته على اللاشعور ..

لاشك انك تقتني « منبها » تستعين به على أن تستيقظ في وقت محدد .. ولكن في وسعك ألا تعتمد على ذلك « المنبه » بل في امكانك أن تستغني عنه كلية .. فان اللاشعور يملك ضمن مايملك حاسة زمنية لا تخطىء ،

ممتازة الى درجة لا يعتريها خلل ، وهو كفيل أن يوقظك فى أى وقت تحدده له فى الليلة السابقة مباشرة ، وكأنك تضبط منبها على الساعة التى تريد أن توقظك فيها .
وكان أحد عظماء التاريخ يستخدم تلك الطريقة السحرية العجيبة سواء كان فى قصره أو فى عمله الذى كان يقتضيه الاسفار أياما أو شهورا .

على أن أهم ما يجب أن توفره لضمان نجاح هذه التجربة أن تكون على علم دقيق بالوقت حين تصدر الامر الى اللاشعور بايقاظك فى الساعة التى تحددها ، وذلك بأن تنظر فى ساعتك وأنت مقبل على النوم .. ثم تحدث نفسك بأنك ستنام ست ساعات مثلا لكى تستيقظ فى الساعة السادسة ، فحين تركز ارادتك وانتباهك على تلك الفكرة لحظات ، ستجد لدهشتك انك استيقظت فى الساعة التى رسمتها لنفسك لكى تستيقظ فيها . واذا قدر أنك لم تستيقظ فى الساعة التى رسمتها ، فمرجع ذلك الى ضعف ايمانك بلاشعورك ، وفى هذه الحالة يتحتم عليك أن تعاود الكرة مع الايمان والمثابرة .. وسترى انك تصحو فى الساعة .. بل فى الدقيقة التى تحددها .

ولا يفوتنى أن أبين ان استخدام اللاشعور كمنبه زمنى يفيد فى أثناء النهار .. فنفرض أنك حددت لنفسك أن تنهى عملا أو تكف عن لعب أو شراب فى ساعة معينة لكى تعود الى بيتك ، فما عليك الا أن تستغرق ذلك كله .
وستجد أن اللاشعور لن يخطىء ، بل سيقوم بتنبيهك فى اللحظة التى حددتها .. فيغنيك ذلك عن شخص يذكرك حين تنسى أو تسهو بما سبق ارتبطت به . وبتكرار تسخير اللاشعور واستخدامه فى تحديد المواقيت الزمنية

تزداد دربته ومرانته ، فلا تبقى بك حاجة الى تركيز طويل لتلقينه أوامرك ، بل ستكتفى باللمحة الخاطفة .

وانى أعتقد ان الكثيرين يتمنون هذه الامنية ، التى قد يظنون انها صعبة الى درجة الاستحالة . وأنا اقول لهم بصيغة التأكيد انها امنية من السهل جدا تحقيقها ، فهى لا تحتاج الا الى العزيمة ، وتخير ملامح الشخص الاخر السلوكية .. ثم العمل على اكتسابها شيئا فشيئا الواحدة بعد الاخرى ، بعد تجزئتها الى اجزاء مترابطة .. لان الشخصية شطران : جسمي ونفسي . ويجب أن يكون التوافق تاما بين الشخصية النفسيةوالشخصية الجسدية ويجب ان يكون الانسان حريصا على اقتلاع اى عادة تنشأ فى غفلة عنه ، تماما كما ينبت الحسك فى الحقل الخصب .

• وضع نصب عينيك انك ان اغفلت نقد نفسك وتراخيت فى اكتشاف عاداتك المرذولة ، فلن تسير نحو التحسين .. بل تسير من سيىء الى اسوأ ، لان من رضى عن نفسه بحالته الراهنة توقف عن التقدم . والنقيض الاخر – وهو سوء الظن بالنفس – يقتل العزيمة ويعرقل التقدم ، ويجعل صاحبه ضعيفا عاجزا عن مجابهة المواقف .

والخجل عادة سيئة شائعة .. ويتعذر على الكثيرين التغلب عليه ، لانه فى الواقع مخزن كبير يحتوى على جملة عادات تتصل بكثير من نواحى السلوك الاجتماعى ، مما يجعل الانسان لايدرى كيف يبدأ ولا من اين يبدأ بالتغيير .

فاجتهد قدر استطاعتك ان تنشغل عن الشعور بنفسك وانت فى مجتمع ، وان تشغل ذهنك بالاهتمام بمن حولك ،

واكتشاف اهتماماتهم والوقوف عندها موقف المتعمق او المجامل .. فحين تخرج من دائرة انحصارك فى نفسك والمبالغة فى أهميتك أمام ذاتك ، تفتت القيود التى تحول بينك وبين مخالطة الناس واستطابة الجلوس معهم .

وسترى بعد ذلك أنك يكفى أن تتحدث الى ربة الدار ، فتقول لها ان الاثاث جميل ومرتب فى تنسيق بديع ، وتطنب فى الاشادة بجمال الازهار او الستائر .. ثم تنتقل بالحديث فتسأل عن الاطفال ومدى تقدمهم فى دروسهم . وفى مرة اخرى تستطيع أن تشترى هدية بسيطة أو لعبة صغيرة لاصغر الاطفال ، ثم تتكلف الابتسام والاهتمام بأحاديث ربة الدار وتعليقاتها على بعض الاشياء .

وربما تشعر فى البداية بشىء من الضيق أو العجز او الملل ، وتتمنى فى قرارة نفسك أن تنفرد وتنكمش بعيدا عن هؤلاء الذين يتراءون لك مضجرين .. ولكن ثق أن ذلك الشعور سيخف حتما بتكرار المحاولة ، الى أن يتلاشى فى المرة الثالثة أو الرابعة ، وتشعر بعد ذلك باستمتاع حقيقى بالاندماج فى المجتمعات وتنفر من الوحدة ، ويذهب عنك الخجل الى غير رجعة ..

ولا يتم الانتفاع بهذه التوجيهات من غير استغلال كاف لاعظم سر حبت به الطبيعة بنى آدم ، وهو سر « الايحاء» الذى يحقق المعجزات .. ذلك السر ليضع أعماق اللاشعور فى خدمتنا ، ويغير ما بنا ، لانه يغير ما بأنفسنا ..

و « الايحاء » هو موضوع الصفحات التالية ..

الفصل الخامس :

لا يحاء يحقق المعجزات

قديما كان الاعتقـاد من وجهة نظر علم النفس ان للانسـان ثلاث ملكات هى : الاحسـاس ، والذكاء ، والارادة. ولكن علم النفس الحديث قلب الاوضاع رأسا على عقب، فهو يرى أن للانسـان اثنتين وأربعين قدرة أو اسـتعدادا .. بل يذهب الامر الى مدى أبعد من ذلك ، فيحدد لهـا مراكز ومواضع فى المخ ، وفى الوجه ، وفى مجموع الجسم ولاشك ان التقدير الجديد قد يكون مبالغا فيه .. ولكن خطوطه الرئيسية صحيحة فى جملتها ..

وسنحاول أن نعالج فى الصفحات التالية نخبة من هذه الاستعدادات ، تاركين جانبا القدرات ذات الصبغة الفنية الخالصة ، كفكرة الزمان والمكان والمسافة واللون والشكل .. لان هذه الاشياء وسواها يمكن أن تدخل فى مجموعات أكثر اتساعا .. هى مجموعة القدرات الحركية والعاطفية والذهنية .

وأول ما يستحسن أن يتجه اليه الالتفات هو انقسام الحياة النفسية الى طبقتين ، هما الشعور ـ الذى ينطوى تحته جانب من الذكاء والمنطق والانتباه والتفكير والارادة

ـ واللاشعور ويختص بالاحساس وبجانب من الذكاء غامض كالحدس والالهام والايمان ..

واللاشعور نفسه يتفرع الى مادون الشعور وما فوقه وانا لنرى أن كثيرا من الملكات التى كانت تحسب فيما قبل فى نطاق الذكاء ، تلحق الآن باللاشعور كالالهام والمخيلة والذاكرة والعادة .. وهى مايدخل فى مجال ما دون الشعور ، وهو أحد فرعى اللاشعور .

ولا يستغرق الشعور ، اى العقل والمنطق والارادة ، من حياتنا النفسية الا جانبا يسيرا .. وفائدته تقف عند مراقبة وتنظيم تربية اللاشعور ، فاللاشعور هو الذى يستغرق علم النفس التطبيقى كله تقريبا ..

وبديهى أن وظيفة الشعور هى أن يبين لنا أوجه النقص التى ينبغى أن نصححها ، والاستعدادات التى يجب أن نكتسبها . ويتدخل فى اختيار الايحاءات الذاتية والمثابرة الضرورية لتحقيق الهدف الذى ننشده ، وبعبارة أخرى يشرف على تربية اللاشعور وتهذيبه .

ويستخلص من ذلك ، أن مجال الشعور من منطق واستدلال وتعقل وارادة هو مراقبة واستبطان ملكات النفس وتوجيه الانتباه . وهو الذى يطلق عليه العامة لفظ « الدماغ » فى مقابل لفظ القلب الذى يعنون به اللاشعور .

على أن مادون الشعور هو فى الواقع أهم مجالات حياتنا الذهنية ، ويتضمن العادات والاستعدادات والميول والغرائز والطبع والايمان والالهام والتخيل والذاكرة والحب .

اما فوق الشعور ـ وهو أحد فرعي اللاشعور ـ فهو ضميرنا الخلقي وهاتف النصح الداخلي ، وذاتنا الحقيقية، والصورة التي نحب أن نكون عليها كما يتمثل لنا فيها الحق والجمال والخير والطيبة والتقوى وما الى ذلك ..

ويجدر بنا ان نعلم على وجه الاجمال أنه كلما نشب صراع بين الشعور واللاشعور ، أو بين الدماغ والقلب ، أو بين العقل والعاطفة ، أو بين المخيلة والارادة ، فان ذلك الصراع غير متكافيء على الاطلاق . وأن اللاشعور ـ اى القلب والعاطفة والمخيلة ـ هو الذى يكسب المعركة على الدوام .

وعلى هذا الاساس يجب أن ينصرف تفكيرنا لا الى تهذيب الارادة وترتيبها فى حد ذاتها ، بل الى تربية اللاشعور وتهذيبه .. فنجتهد أن نخلق لانفسنا ايحاءات صالحة ، تضمن أن تستحثنا على العمل بصورة آلية وبغير مجهود . فتربية اللاشعور هى تربية الوجه الحقيقى لحياتنا ، والصائغ الذى يصوغ الطبع ويخط صفحات المصير .

والمجال الذى يعمل فيه الشك والتردد والتشاؤم والتخاذل وجميع الاستعدادات السلبية ، هو الشعور . أما اللاشعور ، فهو مصدر ومقر الملكات الايجابية .. كالمثل الاعلى والتصوف والايمان والحب والابتهاج والتفاؤل والحماسة .

ووظيفة الشعور أن يعمل على تهذيب اللاشعور تحت اشراف العقل ، وأن يقوم بالاستبطان وبتحليل ذاته نفسيا .

اما ما فوق الشعور ــ وهو أحد شعبتى اللاشعور ــ فهو مقر الحق والجمال والعدل والطيبة والخير والبطولة والتصوف وما فوق الطبيعة والفلسفة والتدين . وعلى هذا نستطيع ان نقول ، دون حرج ، أن مافوق الشعور معدوم عند البهيم والانانى الغليظ القلب ، وانه نام جدا عند البطل والعبقرى والفنان ..

وما دون الشعور ــ وهو الشعبة الاخرى للاشعور فهو الركن الاساسى من حياتنا الدهنية ــ ويكون تسعة اعشار حالتنا النفسية .. انه مقر الذاكرة والعادات وردود الافعال والغرائز والحماسة واللغة واللازمات والحركات والاذواق والاشواق والمواهب والعواطف والملكات .. وعلى هذا الاساس فهو أهم مجال فى حياتنا الداخلية وطبعنا .

ان ما نتبينه عندما نفطن الى ما نصنع هو الشعور ، اما اللاشعور فهو الذى يحركنا حينما نمشى مثلا .. فنحن نفعل ذلك بطريقة آلية لا شعور لنا بها ، وفى استطاعتنا عن طريق الشعور ان نلاحظ حركاتنا ان اردنا ذلك .

ونضرب لذلك مثلا : لنفرض انك تتجول فى الشارع مع صديق ، وانك تتحدث معه حديثا متدفقا ، فانت تشعر بالكلمات التى تنطق بها .. كما تشعر بالطريق الذى تسلكه متجها نحو هدف معين . ولكن الى جانب هذا الحديث الذى يتم تحت رقابة الشعور ، يقوم لاشعورك بعمل يجعلك تتحاشى السيارات والمارة . وهو الذى يسيطر على الحركات التى تأتى بها أثناء الكلام ، بل هو الذى يمدك بالمحصول اللغوى الضرورى للتعبير .

ان هذين المجالين المختلفين بينهما اتصال وثيق وتعاون، بحيث يصعب فى كثير من الاحيان ان تقول اين يبدأ احدهما واين ينتهى الآخر . وفى وسعك ان تدخل الى ميـــدان اللاشعور ، مستعينا بالاستبطان وهو الاقتدار على تحليل الشخص لذاته نفسيا ، والفطنة الى دوافع أعماله ووزن اقواله وتنظيم تنفسه ووقف حـركاته وتعبير سرعته فى مشيه الآلى .. فكل مايجول فى لاشعورك تقريبـا يمكن ابرازه الى مجال الشعور .

وفى بعض الاحيان ، اذا احسست انك كئيب او مسرور وكنت لا تعرف لذلك سببا .. فما عليك الا ان تلجأ الى الاستبطان وتحليل حالتك النفسـية ، وسـتعرف انك مسرور مثلا لان نبأ سارا ابلغ اليك منذ ساعة ، او انك مكتئب لان احدهم تنبأ امامك بوقوع كارثة .. فالسرور والكآبة نتيجتان لاشعوريتان لخبرين شعوريين .

والكاهن الذى يتلقى اعتراف المؤمن ويســـأله عن ذنوبه يخاطب الشعور .. اما المحلل النفسى الذى يعالج شخصا عصابيا فيخاطب اللاشعور مباشرة .

وسنحاول ان ندرس اللاشعور لانه المجال الذى ينبغى ان تنصرف اليه اعادة التربية .. فمصيرك يعينه لك طبعك، وطبعك هو وليد عاداتك ، وعاداتك نتيجة افعال لك . تواترت وتكررت .. وهذه الافعال استحدثها فيك الايحاء فان اردت ان تصوغ مصيرك ، فانه يجب عليك ان تكون لنفسك عادات صالحة . وهذه العادات تتكون عن طريق اللاشعور ، ففى اللاشعور تستقر عاداتك فى حالة كمون.

واللاشعور هو الذى يكون طبعك ، فيجب أن يكون هدفك منصرفا اليه أن أردت الرقى بحياتك ..

والشعور هو الوسيلة للتأثير فى اللاشعور عن طريق مراقبة النفس والايحاء اليها .. فالايحاء الذاتى المستمر هو السبيل لتغيير حياتك اللاشعورية التى تتحكم فى مصيرك .

***

ولكى ينجح الانسان يجب أن يكون صحيح البنية ، خاليا من النقائص والرذائل ، قوى الارادة ، منظما ، منهجيا فى التفكير والعمل . وأن المرء اذ يفكر فى هذه الامور ، يرى أنه من الضرورى لتحقيقها من تعويد النفس على الاستيقاظ مبكرا ، وممارسة بعض التدريبات البدنية ، والامتناع عن المسكرات والاطعمة المهيجة ، والتروى عند الاقبال على عمل من الاعمال ، حتى يكون شخصا قويا تام السيطرة على نفسه .. فالعقل الواعى أو التفكير الشعورى هو الذى ينبغى أن يسيطر على الانفعالات ..

ومن هذه الانفعالات نتخير واحداً هو عدم الصبر — مثلاً — وترويض النفس على عدم الاتصال به ، بأن يوحى الانسان الى نفسه ، ولا سيما فى المناسبات المثيرة !

— اننى صبور .. اننى صبور .. اننى صبور ..

ويمر اليوم بسلام ، ويراجع المرء نفسه ، فيجد أنه بدلا من أن يفقد صبره عشر مرات أو أكثر ، لم يفقده سوى مرتين فقط .. ومن ذلك نرى انه تحت تأثير الشعور وسلطانه ، سيصل الانسان رويدا رويداً الى ما يهدف من الاقلاع عن تلك العادة اقلاعا كليا ..

ولاشك أن الايحاءات الذاتية المستمرة تجعل المرء

مشدود الاعصاب فى اولى المراحل .. ولكن بعد بضعة اشهر من الترويض والتمرين سينال الهدوء ، بل ستتمكن عادة الهدوء لا بمجهود شعورى هو الايحاء ، بل طريق اللاشعور الذى هو خازن العادات الراسخة .

ويمكن للمرء – بعد أن يسيطر على الانفعال الاول – ان يكون عادة أخرى طيبة كعدم التفوه بلفظ ناب ، او النهوض مبكرا . وبمرور الزمن سيتضح له أنه كلما توطدت عادة كان المجهود فى تكوين العادة التالية أقل بكثير، فلا ينقضى عام الا وقد صار له رصيد من العادات الصالحة ، لا تكلفه بعدها مجهودا فى السلوك . وسيزداد بها قربا من قلوب الناس ، ويتضاءل صراعه مع نفسه ومع سواه ، وبالتالى سيزيد انتاجه فى العمل . وبعبارة موجزة ستجدى عليه هذه التربية الذاتية خيرا لم يخطر له ببال ، وهو السعادة النفسية وتحسن الصحة وتقدم العمل .

نستخلص مما اوردناه ان الايحاء الذاتى هو عملية ادخال مما قرره الشعور الى مملكة اللاشعور ، والمثابرة على ذلك الى أن تستقر البذرة وتتأصل جذورها ، ثم تؤتى ثمرها من تلقاء نفسها ..

ومن الخطل اللجوء الى الايحاء السلبى كان تقول : « لم أعد نافد الصبر » ان كنت تهدف الى الهدوء ... كذلك من الخطأ اتباع الايحاءات المعلقة على زمن كأن تقول : « سأمتنع عن التدخين غدا » عندما تريد الاقلاع عن عادة التدخين ، بل لتكن صيغتك الفعل المضارع كأن الامر حاصل فعلا ، وعندما تخلو الى نفسك راجع ماوصلت

اليه عن طريق تمثيل أشد المواقف امتحانا لما وصلت اليه.
وتخيل كافة الاوضاع التى تثير اعصابك لترى تأثيرها فى نفسك .. فاذا اطمأنت نفسك الى ما وصلت اليه ، فان ذلك سيساعدك على الاشمئزاز من عيوبك والتطلع الى عادات ومواقف أخرى تكون فيهـا موضع التقدير ..
وهكذا تستعين بالاوضاع الجميلة تارة وبالاوضاع المرذولة تارة أخرى لتطبع نفسك على النهج المنشود .

***

ولا باس من ان تقول لنفسك جملة مرات فى يوم واحد:
ـ ترقية نفسى هى الامنية التى اسعى لتحقيقها ..
واجعل هذه الفكرة فى لاشعورك زمنـا طويلا الى أن تسرى فيه وتتأصل .. وسترى بعد ذلك ان الاية ستنقلب ، وانه بعد أن كنت تردد هذه الفكرة للاشعور ، سيقوم اللاشعور بايحاء هذه الفكرة لك اى لشعورك ـ وتذكيرك بها كلما فكرت فى أن تحيد عن مقتضياتها .
وستجد نفسك مسوقا من اللاشعور الى كل ما من شأنه تحقيق هذا الهدف ، واذا بأقوال وصور واعمال جديدة لم تخطر ببالك من قبل تصل اليك من لاشعورك لتصل بك الى غايتك .
وهنا صدق من قال :
ان التربية عبارة عن ادخال الشعور فى اللاشعور
ان النفس أشبه بهدف من أهداف الرماية ، مركزه نقطة سوداء تحيط بها دائرة حمراء ، ثم دائرة بيضاء أكبر منها .. فالدائرة الحمراء هى مادون الشعور ، والدائرة البيضاء هى الشعور . اما النقطة السوداء الداخلية فهى

مافوق الشعور الذى تكمن فيه الذات العليا أو المثالية .

فكأن مادون الشعور هى الحلقة المتوسطة بين ما فوق الشعور والشعور .. فالعادات والحركات الالية والافكار والاحساسات العادية تصدر كلها عن ما دون الشعور .. فما دون الشعور الذى يشرف على التمرينات الاعتيادية كالسباحة والكلام والسير وما الى ذلك ..

ويمكننا أن نتساءل : هل تكوينك الجسمانى والذهنى يقوم بعمله على وجه مرض ؟ .. أن كان الأمر كذلك فسيكون نشاطه فى ظى اللاشعور وسوف لا تشعر به . اما اذا وجدت صعوبة فى التنفس ، واختل نظام دقات القلب ، وأتعبتك عملية « الهضم » فسيبدى ما دون الشعور شيئا من عدم الارتياح يقلق نومك ويعكر صفوك، حتى اذا ازدادت الحالة سوءا انتقل المجال الذى تدور فيه هذه العمليات من اللاشعور الى الشعور ، كمن يحدث نفسه بانه مريض .. فيقول لنفسه انه كان مريضا من زمن وهو لا يشعر ..

وحرى أن نوجه النظر الى أن الانقباض حالة سوداوية يجب الا تستكين اليها .. فكلما احسست به عليك أن تنصرف للتفكير بضع دقائق الى أن تكتشف علته . ومتى وصلت الى اكتشاف العلة عن طريق الاستبطان، فستجدها فى الغالب قلقا أو خوفا أو جرحا أصاب الكبرياء .. وما عليك سوى أن تتغلب عليها بالايحاء الذاتى بجرعات مضادة مناسبة لكل سبب من هذه الاسباب . وبذلك تتعود القضاء على الانقباض وتفوز بالسيطرة على مشاعرك

هب انك استقبلت شخصا وهتفت به مرحبا :

ـ انك تبدو مكتمل الصحة !

ان هذا الايحاء سيجعل لاشعور هذا الشخص يحس بنوع من الارتياح والطمانينة تتحسن بها اضطراباته العضوية .. اى أن الايحاء قد فعل فعله فى نفسه وفى بدنه ، كذلك كل ايحاء .. فلو انك أوحيت الى نفسك على الدوام أن أعضاءك تقوم بوظائفها على الوجه الاكمل ، فان أعضاءك ستحقق ظنك الى حد يقرب من الكمال . وباتباع هذه الوسيلة من الايحاء يصل الطبيب النفسانى الى علاج كثير من الامراض الوظيفية العضوية ، لان الارادة القوية تحقق كل مستعص .

ومما يبعث على الاسى أن فى مجتمعنا الحاضر عددا كبيرا من البائسين ، علة شقائهم انهم قلقون اندفاعيون عصبيون مرهفو الحس . ولا سبيل الى شفاء هؤلاء الا عن طريق العلاج النفسى ، والارجح انهم لن يستطيعوا معالجة انفسهم لان الهمة والثقة تنقصهم ، وباب الامل لهم يتمثل فى طبيب نفسانى يقوم بملاحظتهم عن كثب .

***

ويغلب الا تكون لقدرة الانسان حدود الا ما يفرضه الفكر .. فيجب أن تكون لدى الانسان شحنة من الثقة فى الدور الذى يقوم به ، وفى النجاح الذى يصبو اليه .

ومن الجائز انك سمعت عن شخص ما كان نكرة ، ثم فجاة تفجرت فيه ينابيع من الذكاء .. كيف يمكن تعليل ذلك ؟ لقد عرف هذا الشخص عن طريق الايحاء أنه أهل للرزانة وله قدرة خارقة لمجابهة الشدائد . وقد تطالع عكس ذلك .. رجالا قفزوا الى أعلى المراتب وقد أصبحوا

يجب على المرء ان يبتعد عن هذه الرذيلة بل يجب عليه ان يحاربها عن طريق الايحاء بأن يوحى الى نفسه بأن ما يفعله من خير للغير انما هو خير لنفسه ، أيضا ، وأنه عندما تمد يد العون للمحروم والمحتاج فان الله سيجزيه اضعافا، فيشعر بالطمأنينة .. وانه بقدر مايسعد الاخرين تغمره السعادة . واهم من ذلك ان يفعل ما يفعل دون انتظار لجزاء أو شكران .

يتضح من ذلك أن الايحاء يحارب الانانية بل ويقضي عليها .. فهو اذن عامل خير أولا وأخيرا .. وانه أعظم قوة تغير بها ما بنفسك من روح التخاذل والشعور بتقدم السن ، الى روح التفاؤل وتفتح الشباب الحقيقي للحياة الجميلة الراقية المهذبة النقية من شوائب الطيش،وشوائب التداعي والتهدم ، على السواء ..

معينة تلهمنا لتقدير مدى أمكان أمر نسمع به وليس لدينا عليه دليل . وهذه الملكة هى الالهام او الحدس ، ومقرها فى اللاشعور ..

والخلاصة أن الايمان والثقة اللاشعوريين يمدان الانسان بقدرة خارقة على الايحاء نفسه . وتزداد تلك القدرة كلما ازداد الايمان . وخير مثل على ذلك مانشاهده من تأثير المنوم المغناطيسى ، فان ذلك التأثير يزداد كلما اعتقد الشخص النائم فى قدرته ، وعندما ينجح المنوم فى تنويم شخص مرة ، فقد صار له عليه نفوذ كبير . وينمو هذا النفوذ مع كل تنويم جديد .. واظهر حالة من هذا القبيل أن منوما قام بعمليات التنويم فى جملة أشخاص من أسرة واحدة ، فلوحظ أن هؤلاء الاشخاص أصبحوا مرهفى الحس سريعى التأثر بنفوذ ذلك المنوم عليهم الى درجة كانوا فيها لا يلبثون أن يناموا بمجرد رؤيتهم اياه متجها نحوهم ..

***

ومن الحقائق المقررة أن حياة الانسان رهن بمزاجه ، اى تكوينه الوجدانى والجسمانى .. والتكوين الوجدانى مقترن بالعادات ، والعادات خلاصة أعمال أوحى بها الايحاء . فالايحاء بتعبير ادق مفتاح الى خلق الشخصية المثالية وتقويتها ، اى ما فوق الشعور وهو أفضل ما فى الانسان ..

ومما لاشك فيه أن المرء الذى يعمل ويسعى الى تقوية شخصيته المثالية ، انما يظهر شخصيته الحقيقية التى كانت مطموسة تحت ستار كثيف من الاهمال أو اساءة

الاستعمال ، الذى هو فى الواقع الافكار التى يجانبها الصواب وعدم الثقة فى النفس وعدم الاكتراث .

فاذا اراد الانسان الوصول الي ما أشرنا اليه وهو تقوية الشخصية المثالية ، فان ذلك يتم بنواح ثلاث : فى الشعور ، وما فوق الشعور ، ومادون الشعور ، ووسيلته نحو ذلك هى الايحاءات الذاتية نحو الكمال التى تمحص فى مهارة ، وعلى الانسان أن يواظب على تكرارها مرات تلو مرات حتى تتأصل فيما دون الشعور ، وتصير فى النهاية طابعا للحياةوبمعنى آخر العادات ..

ولا نغالى حين نقول ان النجاح بكافة انواعه هو مسألة عادة . وليس أدل على ذلك من أن يرى بعض الناس يحرز نجاحا فى اثر نجاح فى الوقت الذى نشاهد فيه بعضا اخر لا يحرز اى نجاح اطلاقا . ولو قدر للفاشلين الفطنة الى استخدام الايحاء الذاتى وتجربته ولو فى ابسط الامور ، لخلقوا فى نفوسهم عادة النجاح وايقنوا من الثقة بانفسهم وبقدرتهم ..

فاذا وضعنا ذلك فى اعتبارنا لعرفنا انه يستحسن أن نراقب أفكارنا الشعورية لانها محشوة بتيارات منالايحاءات المستقرة فيما دون الشعور ، ويمكن تكييف الحياة على اساسها .. لذلك يتحتم أن يتيقظ المرء لتفكيره الواعى ، ولا يسمح لاى خاطر الا اذا كان هدفه ذاتا حقيقية مثالية كى تتكاتف جميع الطاقات لتحقيق المثل العليا التى يجب أن تكون خلاصة لكل ما هو ايجابى ونافع ويحظى بالتقدير من الناس .

وهناك مذهب يقول ان للمرء ذاكرة واحدة ، وهذا مذهب

خاطىء . ولا يمكن انكار أن للمرء ذاكرات . والملكات المتباينة لدى الانسان يصاحب كل ملكة منها ذاكرة تختص بها .. فمثلا توجد ذاكرة للاعداد ، وذاكرة للزمن ، وذاكرة للمكان وذاكرة للشكل ، وذاكرة للالوان .. وهكذا .

والذاكرات متفاوتة متباينة ، وتوجد أسس عامة تنمو الذاكرات بمقتضاها ، وهى المرجع الى تقـوية الضعيفة منها .. وللتدليل على ذلك نورد بعض أمثلة لذاكـرات مختلفة ، فالذاكرة البصرية ينبغى ازاءها أن يتعود الانسان التدقيق فى أجزاء مايقع عليه النظر .. كأن يركز الانسان نظره فى شخص ما ، فيتفحصه من جميع النواحى من الرأس وما يحمله من أعضاء الى اليدين وحركاتهما .. الى القدمين .. الى الملبس .. مع أعمال الفكر للحدس بمهنته . فليس من الصواب أن يبقى الذهن عاطلا ..

واما ذاكرة الحوادث فانها تحتاج لتقويتها الى أن يعود المرء كل مساء عندما يلجأ الى فراشـه الى استعراض جميع ما مر به من حوادث خلال النهار مجتهدا ألا يغفل شيئا منها مهما بلغت تفاهته ..

وذاكرة تقدير الامور ـ أيا كانت ـ تحتاج الى أن يتمرن الانسان على تقدير الابعاد والاشكال والاوزان .

وهناك طرق ووسائل لتقـوية الانتباه وسرعة الخاطر والبديهة .. على أنه ينبغى فى كل هذه الحالات أن يصحبها الايحاء ، وتركيز الذهن .

والانانية من الرذائل الفاشية التى تسبب نفور الناس من صاحبها لان الشخص الانانى بطبعه سيىء الطـوية عصبى متشائم . وهو بذلك ينحـدر اجتماعيا .. ولهذا

يجب على المرء أن يبتعد عن هذه الرذيلة بل يجب عليه ان يحاربها عن طريق الايحاء بأن يوحى الى نفسه بأن ما يفعله من خير للغير انما هو خير لنفسه ، أيضا ، وانه عندما تمد يد العون للمحروم والمحتاج فان الله سيجزيه اضعافا، فيشعر بالطمانينة .. وانه بقدر مايسعد الاخرين تغمره السعادة . وأهم من ذلك ان يفعل ما يفعل دون انتظار لجزاء أو شكران .

يتضح من ذلك أن الايحاء يحارب الانانية بل ويقضي عليها .. فهو اذن عامل خير اولا وأخيرا .. وانه أعظم قوة تغير بها ما بنفسك من روح التخاذل والشعور بتقدم السن ، الى روح التفاؤل وتفتح الشباب الحقيقى للحياة الجميلة الراقية المهذبة النقية من شوائب الطيش،وشوائب التداعى والتهدم ، على السواء ..

كيف تستخدم يديك؟

واليدان من أهم « عناوين » الشباب ، أو « عناوين الشيخوخة » .. على حسب الطريقة التي يستخدمهما بها الانسان .. ففي وسعك أن تحدث في الناس ما تشاء من الاثر بيديك .

ان الشباب صنو النعومة والمرونة .. فلا تقبض كفيك دواما ، بل احرص منذ هذه اللحظة على استرخاء معصميك وعدم توترهما .

وقد استطاعت « كورنيليا أتيس » أن تجعل يديها العامل الحاسم في تصوير مراحل العمر المختلفة ، وهي تمثل حياة الامبراطورة المعمرة أوجيني .. فعندما كانت الامبراطورة غادة شابة في ريعان الصبا ، جعلت الممثلة معصميها رخوين لدنين كأنهما غلائل من الحرير تتحرك مع اهتزازات الريح وذبذبات النسيم .. فكان ذلك أكبر عون على احساس النظارة بنضارة شبابها .

وفي الفصل الاخير ، بعد أقل من ساعتين ، كان على الممثلة نفسها أن تصور الامبراطورة وقد تجاوزت التسعين من عمرها فكانت حركة المعصمين المسيرة الجافة أعظم لمسة مسرحية لابراز الشيخوخة في النفس ، فالمعصم

المتصلب ، المتعثر ، الجاف ، هو علامة الشيخوخة .. ولذا كانت حركة الامبراطورة ـ وهى تحاول عبثا تسوية وضع شاليا على كتفيها بسبب عجز معصميها عن الحركة اللازمة ـ هو أكبر دليل اقنع الناس انها بلغت من العمر أقصاه ، وكأنها بهذه الحركة قد أبرزت وثيقة ميلادها ليقرأها كل انسان ! ..

وكل انسان يحرك معصميه بغير سهولة ومرونة ، يضيف الى عمره الحقيقى سنوات وسنوات .. وكل من يرغب فى حذف سنوات وسنوات من عمره عليه أن يوجه عنايته الى معصميه بحيث تزداد مرونة حركتهما .

وقد لاحظت أن السيدات اللواتى يظفرن بأزواج بعد سن الاربعين ، يتميزن جميعا بمرونة خاصة فى حركات أيديهن، ولا سيما معاصمهن ، ولهن راحات أيد وأصابع رخصة .

ان الشعرات البيضاء التى تنتشر فى الرأس لا تقتل الجاذبية ، بل لعل العكس هو الصحيح .. ولكن تصلب المعصم وخشونة اليد وكثرة غضونها وبروز عروقها ، لا يمكن أن تبقى للشباب ونضرته أثرا، أو تسمح للعاطفة أن تحوم حول هذا الشخص ..

ومن تجربتى أستطيع ان اؤكد أن « كيوبيد » يترفع عن استخدام سهامه مع الناضجين فى السن ، ولكنه يأنف من التعامل الشريف مع ذوى الحركات والاشارات المرتعشة او المتعثرة ، لان هذه اكثر العلامات على جفاف عصارة الشباب وينابيع الحيوية .

وكم من امرأة جميلة وفاتنة وشابة فى كل شىء .. ولكن ما أن يرى الرجل يديها معروقتين ، وعقل أصابعها بارزة حتى يشعر بالنفور منها قائلا :

ـ ان يديها تشبهان ايدى الغسالات المحترفات !

وهذه الصورة كافية لاقناعنا بمدى تأثير رشاقة اليدين وجمالهما .. وهذا الاثر نفسه موجود لدى الرجال ،لكنهم بطبيعة الحال لا يشبهون الغسالات ، بل يتميزون بأنواع اخرى من الخشونة والقبح ليست بالضرورة نتيجة للعمل اليدوى ، بل هى فى الغالب ثمرة لعدم العناية ، أو للكسل المفرط وعدم التمرين المنشط للخلايا والاعصاب ، أوبسبب اتباع عادات غير صحية عفوا ، أو نتيجة لتوتر الاعصاب وسوء الحالة النفسية ..

وتحضرنى فى هذه المناسبة ذكرى حفلة راقصة كبرى اقيمت فى فندق « هانتنجتون » منذ سنتين ، فى موسم الشتاء . ورأيت سيدة شابة حسناء تدخل البهو فى ثوب جميل وزينة حسنة . وكان واضحا جدا انها قضت وقتا غير قصير فى التزين ، وانفقت مبلغا لا يستهان به فى شراء الثوب وتصفيف الشعر وما الى ذلك ..

ولاحظت ان هذه السيدة ظلت تختلس النظرات الى صورتها فى المرايا المحيطة بالبهو ، وفى عينيها قلق تحاول ان تخفيه .. كأن شكلها العام لا يبعث لديها الارتياح المنشود ، مما اثار حيرتها ، كأنها تتساءل :

ـ ما الذى ينقصنى حتى أبدو كسائر السيدات هنا ، ممن اراهن على سجيتهن ؟

والحق انها لم تكن على سجيتها فعلا .. ولم يبدو عليها انها « فى موضعها الطبيعى » فى هذه الحفلة الراقية الباذخة . وثابرت بين الحين والحين على التطلع متسائلة الى صورتها فى المرآة . وراودتنى نفسى أكثر من مرة أن اقترب منها واهمس فى اذنها قائلة :

ـ عفوك .. لا تبحثى عن السر فى وجهك ، بل انظرى الى يديك ! لماذا تقبضين راحتيك كأنك تتأهبين للدخول فى حلبة مصارعة لا حفلة رقص وتبسط ومرح ؟ ابسطى يديك .. واحنى اصبعيك الاوسطين الى الامام بعض الانحناء اذا شئت . أما اصبعك الخنصر « الاصغر » فليكن ممدودا على استقامته من غير أن يبتعد عن بقية الاصابع ، بحيث يكون السبابة هو اطول الجميع ، ويبدو الاوسطان أقصر مايمكن . أما الخنصر فلا ينبغى بأى شكل من الاشكال ـ ومهما كانت الحالة ـ أن يكون منحنيا أو مطبقا .

ان انحناء الاصبع الخنصر هو اسوأ علامة من علامات التأخر وهبوط المستوى الاجتماعى ، ولا يبارى هذا فى دلالته السيئة بالنسبة للمرأة سوى وضع اليدين فى الخاصرة ، أو على الحقوين أثناء الجلوس أو الوقوف !

وأنا ادعو كل سيدة تقرأ هذا الكتاب الى القيام بتجربة أمام المرآة الكبيرة القائمة فوق مائدة زينتها .. بأن تسير ذهابا وايابا ويداها فى الاوضاع الممقوتة السالفة الذكر ، وسترى على الفور أى أثر سيىء تحدثه .. ثم تجرب الاوضاع المستحبة لليدين ، فتجد طابع الرشاقة والرقى واضحا بصورة لم تكن تخطر بالبال . وهذا الطابع هو ما يجب أن تتمرن عليه ، كى تراقب حركات يديها ولا تتركهما تسيئان الى مستواها وسحرها .

ومن الاوضاع السخيفة أيضا أن تجلس المرأة معقودة اليدين كأنها مدرسة عانس فى حجرة الست الناظرة ، أو أن يضع الرجل يديه على فخذيه وهو جالس كأنه تمثال قديم لعمدة من القرن الماضى .. فتلك أوضاع تفيد معنى

التخشب والجمود ، وهو من معاني الشيخوخة لا الشباب.

ثم هناك اعتبار نفساني يجب الا يغيب عن أذهاننا ، وهو أن عقد اليدين على الصدر أو في الحجر ، أو وضعهما على الفخذين يضفي على الرجل أو المرأة صورة المتفرج ، أو المراقب المنعزل ، وذلك لسبب واضح للغاية .. وهو ان ذلك الوضع لليدين هو وضع « عدم الاستعداد للعمل ».. أي الانسحاب من ميدان النشاط الدائر فيما حولنا. ومعنى هذا اننا لا نريد أن نتدخل ، وكل همنا موجه الى «النظرة» أو «المشاهدة » السلبية .

ان هذا « الانعزال » مرادف لمعنى « التقاعد » أو «الاحالة على المعاش » .. وهل للشيخوخة علامة افصح من هـذه العلامة .

ان هذا الوضع لليدين مناسب جدا حين تكون مستمعا في مسرح أو سينما أو قاعة محاضرات أو حفل موسيقى . اما في الحياة العادية ، فيجب الا تسمح ليديك أن تسيئا اليك وتضعاك في صف المحالين على التقاعد ..

قد تكون متقاعدا فعلا من العمل أو المهنة .. ولكن اياك ان تترك يديك تعلنان انك اعتزلت ايضا كل نشاط حيوى يمارسه الشباب .. فالتقاعد عن العمل ليس معناه التقاعد عن الحياة ونشاطها ومباهجها ، فلماذا تترك يديك تشيعان عنك ذلك وتشهران بك وبسنك ؟..

ابق يديك منفصلتين على الدوام ..

فمن النادر أن تجد شابا يقبض باحدى يديه على الاخرى، اللهم الا في حالات التوتر العصبي الشـديد ، أو حالات الارتباك والحيرة البالغة ، أو ربما محاكاة للجد أو الجدة..

اذا كان هذان هما اللذان ربياه صغيرا . ومعنى التقليد فى هذه الحالة ، أن الفتى شديد التعلق بجده أو بجدته .. ولكنه بهذه الحركة يسىء الى نفسه جدا ، ويتعود ، وهو لا يدرى ، عادة تقوده الى الشيخوخة قبل الاوان بكثير .. لذا انصحك أن تتحاشى ضم يديك بأى ثمن ، وكلما استطعت الى فصلهما سبيلا فافصلهما ..

ان ضم اليدين معناه ضعف الحيلة وقلة الحول والطول ..

اننا نضم يدينا عند الصلاة والضراعة ، لكى نعبر عن قلة حولنا وطولنا وضعف حيلتنا أمام ارادة الله وصروف القضاء .. فلماذا نجعل هذا التعبير « الطابع المميز » لشخصيتنا امام مخلوقات الله من أمثالنا ؟

وفيما مضى من عصور التاريخ ، كان الرجلان اذا تلاقيا، امسك كل منهما بيمين الاخر لسبب خاص .. هو أن يضمن كل منهما أن الآخر لايستطيع أن يوجه اليه ضربة أو طعنة وهما يتحدثان معا .. وهذا هو الاصل فى طريقة المصافحة باليد فى يومنا هذا بقصد التحية .

وحتى الحيوانات تعرف معنى حركات اليدين .. وتستطيع ان تلاحظ ذلك فى الكلاب مثلا ، فاذا اعترضك كلب وانت تدخل دارا ، ووقفت فى مكانك لا تتحرك ، ولم ترفع يديك ، تأكد الكلب انك لا تريد أن تضربه أو تقذفه بشىء . أما اذا رفعت يديك الى أعلى بحركة تتقيه بها أو تعلن عن خوفك ، فانه سيظن من رفع ذراعيك انك تتاهب للهجوم عليه .. فينقض عليك !

ان الكلب يعلم تمام العلم ان اليد المرفوعة معناها الاستعداد للهجوم أو العمل الايجابى . أما اذا تركت يديك مدلاتين

وتركت الكلب يقترب منك ويتشمم رائحتهما من الخارج، فانه سيعتبر ذلك علامة مسالمة فيطمئن اليك .. وهذا هو البديل من معنى المسالمة الذى تعبر عنه المصافحة بين الآدميين ..

وانا أعترف انى أفزع من الكلاب . ولكنى جربت هذه الطريقة ووجدتها ناجحة تماما فى جميع الاحوال .

يجب الا ننسى أن من وظائف اليدين أيضا اظهار المودة والحنان ..

ان جميع الكائنات : من الزوج والزوجة ، الى الاطفال، الى القطط والكلاب ، كلهم يقدرون معنى اللمسة الحانية من اليد .. بل ان اليد الرشيقة الفتية يبدو منظرها وكأنما هى مستعدة دائما لمنح تلك اللمسة الحانية . أما اليد الغليظة الثقيلة ، فمن العسير أن تؤدى هذا المعنى . ولذا لا تستريح اليهما العين ، ولا تطمئن النفس الى صاحبها ،أو صاحبتها ..

واذا وجهنا نظرنا الى خصائص الامم ، لوجدنا الفرنسيين من أكثر شعوب الارض استخداما لليدين فى الحديث .. بمرونة مدهشة ، ورشاقة .. وغيرهم من الشعوب يستخدمون أيديهم فى الحديث كثيرا ، ولذا حين يحتاجون الى استخدامها ، لا يحسنون ذلك . وهذا هو السبب فى أنهم لا يدرون ماذا يصنعون بها ، فيلقون بها أمامهم على المنضدة ، أو على الركبتين ، أو على الصدر معقودتين !

اجتهد دائما أن يكون وضع يديك ــ رغم استرخائهما ــ هو وضع الاستعداد التام للنشاط ، والعمل ، والمداعبة

والحنان ، والمساعدة .. وذلك هو « السكون الناشط » او الهدوء المليء بالحركة والحيوية !

واوصى الجميع رجالا ونساء أن يدرسوا حركات أيديهم امام المرآة ، لكي يستخدموها في الحديث اسـتخداما لائقا رشيقا متزنا ، ليس فيه مبالغـة سوقية ولا جمود يدل على التعب والجمود الموحي بالتقدم في العمر .

وثمة نصيحة أخرى قد تتكلف بعض المال ، ولـكنه لا يذهب سدى .. ان تذهب الى فيلم جيد بطله وبطلته من الفنانين الراسخين ، فتشاهده أكثر من مرة .. انك ستجد متعة كبيرة في المشاهدة الثانية ، ولو انك ستتكبد ثمن التذكرة مضاعفا . ولكن احرص على مراقبة حركات يد الممثلة والممثل ..

ان صناعة السينما تعتمد في المقام الاول على «الحركة» .. ولابد في الاخراج السينمائي من الاسـتعانة بالحركة لتأكيد كل فكرة او احساس .. واليدان من ادق وأبرع ادوات الحركة في التمثيل .. فلماذا لا يكونان كذلك في الحياة ، كي تكتسب شخصـيتك مزيدا من الجـاذبية وحيوية الشباب المتدفق ؟..

ان العين تتبع الحركات ، كما ان الاذن تلتقط الاصـوات .. فثق وانت تتكلم ان الناس يسمعون صوتك بآذانهم و « يسمعون » حديث اشاراتك بأبصارهم .. فأحسن استخدام لغة اليدين ، كما تحرص على حسن استخدام لغة اللسان والشفتين ..

ولقد كان من أسباب النجاح الساحق للممثلة العبقرية « جريتا جاربو » انها كانت بارعة في استخدام يديها ، مع انهما في حد ذاتهما ليستا جميلتين بل كبيرتين .

وقـــد تعلمت المرأة الامريكية من جريتـــا جاربو أن صغر حجم اليدين ليس ذا أهمية ، وانما المهم أن تعـرف كيف تحسن استخدامهما في الاشارة الرشيقة المعبرة ..

بل اذهب الى حد القول ، أن جمال استخدام اليـدين يعوض المرأة في كثير من الاحيان عن كل ما غبنتها الطبيعة فيه من جمال الوجه أو جمال الجسد .. فهى تستطيع ـ اذا بذلت قصارى عنايتها ـ أن « تغنى » بيديها وتعزف بحركاتهما العادية سيمفونية أو معزوفة راقصة ..

فما الفرق بين اليدين والرجلين ؟..

ان الاطراف الاربعة يقوم عليها فن كامل مستقل هـو فن الرقص الايقـــاعى « الباليــه » .. وباليدين تمثل الراقصة التعبيرية الهنـدية أو الشرقية أو الاوربيـــة قصصا بأسرها من غير حاجة الى كلام .. فحركات اليدين بمثابة قصائد وأناشيد ومقطوعات منغومة ! واذا كان هذا ممكنا على المسرح ، فلماذا لايكون ممكنا في الحياة ؟ جرب منذ الآن وثابر .. وستصل !

***

وبشيء من الملاحظة ، ندرك أن لليد تعبيراتها الفطـرية تقريبا .. وهذه يجب أن نستغلها وننتبه الى مغزاها ، فانت كي تتناول شيئا من أحد ، أو تتلقى هدية أو سلعة أو شيئا ترغب فيه بأى كيفية من الكيفيات ، تمـد يدك مبسوطة ، وباطن راحتك الى اعلى .. لانه ليس في امكانك أن تتلقى شيئا وتتناوله بظهر يدك ..

ولهذه الحركة الفطرية الاولية نتائجها المهمة ، فبـــاطن اليد الى أعلى أدل على المودة وحسن التقبـــل عنـــدما

تستقبل شخصا أو تقوم بالتعريف بينه وبين شخص آخر ..

***

كذلك عندما تمد يدك لمصافحة انسان يحسن أن يكون باطن يدك متجهـا الى أعلى بعض الشيء دلالة على انك تتلقى يده كما يتلقى الانسان هدية أو رغبة من رغائبه . أما اذا مددت يدك للمصـافحة وظهرها الى فـوق ، فحركتك أشبه بمن يمنح صدقة .. فيد المعطى تكون مقلوبة الى أسفل ، أما يد المتقبـل فتكون متجهـة الى أعلى . وليس من الكياسة ولا التواضع .. بل من الحيـاء فى كثير أن تصافح شخصا بحركة تدل على انك تتصدق عليه بالتحية !

ان حركات باطن الراحة وظهرها هى فى أسـاسها كله حركات قبول أو حركات رفض .. فينبغى أن تتنبه الى حركات يديك فى هذا الضوء ، لتتحرى فيهـا أن تحمـل معنى التقبل دائما لا معنى الرفض .

ان كلمة « لا » قبيحة فى غير موضعها الدقيق ، فان أردت لحركات يديك البلاغة فانتبه جيدا للاشارات التى تعبر عن الرفض أو النفور أو الانكار حتى لا تسـتخدمها الا فى موضعها الدقيق وبمقدار .

ومن التناقض المضحك أن تقول بلسـانك « نعم » فى الوقت الذى تقول فيه يدك « لا » .. أو أن تقول بلسـانك « لا » فى الوقت الذى تقول فيه يدك « نعم » .. وعـلى العكس من هذا الأثر السـخيف المضحك ، يأتى أثر التوكيد حين تتوافق اشارة اليد مع كلمة اللسـان ، فتزيد مـن وزنها ووضوح معناها ..

وليس معنى التعبير باليدين هو الاسراف فى الاشارات بغير معنى ، فان ذلك لا يكون تعبيرا بل هذيانا وثرثرة باليدين ليس له قيمة أكثر من الهذيان والثرثرة باللسان . والهذيان والثرثرة ـ سواء باللسان أو بالاشارة ـ ليسا من ادلة الحيوية ونشاط الشباب ، بل هما الى خرف الشيخوخة أقرب !

ان الانسان المتزن لا يفتح فمه الا لان لديه شيئا معينا له أهميته يريد أن يقوله .. وكذلك لا يحرك يديه الا لان لديه ما يعبر عنه بتلك الحركة . ومن غير هذا « الاقتصاد » فى التعبير باللسان واليدين يفقد الشخص وزنه فى نظر الناس ، ولا يصغى احد لما يقول .. ولا يعير أحد اشاراته التفاتا .

ان الاشارة « لغة » لها بلاغتها وسحر بيانها ، وموسيقية تعبيرها مثل لغة اللسان تماما .. فليس وقتا ولا جهدا ضائعين كل ماتوجهه من عناية الى اتقان رشاقة التعبير بيديك ..

وكما أن العبارات اللغوية لها فواصلها وفقراتها المتميزة كذلك الجمل الموسيقية تفصل فيما بين أنغامها وقفات ولحظات صمت تساعد على وضوح معنى الانغام ... وكذلك الحال فى لغة اليدين ، لابد من سكون بين الحركات والاشارات كى يكون لتلك الاشارات معنى مفهوم .

واذا لم تكن من البلغاء فى لغة اليدين ، ففى استطاعتك أن تتعلم تلك البلاغة بمحاكاة فرسانها والنسج على منوالهم ! أليس من يريد تعلم الادب ورفع مستوى أسلوبه الانشائى ينصحه الناصحون بمطالعة اعمال كبار الكتاب والشعراء لتنطبع فى نفسه أساليبهم فينهج نهجهم ؟..

كذلك للغة اليدين ادباؤها وشعراؤها ! ان الممثلين هم شعراء الاشـارات ، والخطباء وكبار المحاضرين هم أمراء النثر فى لغة اليدين !

راقب اشارات الممثلين والخطباء لتتعلم منهم كيفيـة استخدام اليدين فى توضيح الكلمة المسموعة بالحـركة المنظورة . وثق أن التقليد غريزة فى الانسان ، انك ستجد نفسك تقلد ، عن غير قصد ، حركات من تعجب بهم من أولئك البلغاء وستزيد تلك المحاكاة من وضوح شخصيتك وسحر احاديثك فى مجالسك الخاصة والعامة .

***

والان يحسن أن نتحدث عن التمرينات التى تكسـب الاصابع مرونتها حتى لا تكون حركات اليدين جافة بعيدة عن رشاقة الشباب المنشود .

ان أفضل تمرين لمرونة الاصابع ونضارتهـا هو ان تتناول أصابع احدى يديك باليـد الاخرى وتحنيهـا الى الخلف برفق ، أى جهة ظاهر اليد . ولكن الرفق فى هذا التمرين ضرورى ، فلا ينبغى أن تؤلم مفاصل أصابعك . بل يكفى أن تحنى الأصابع الى أن تبدأ فى الشعور بالالم .. ثم تطويها ، وتكرر هذه العملية بضـع مرات كل يوم كى يجرى الدم بنشاط فى جميع مفاصل الاصابع ..

أما المعصم فيكفى لتمرينه أن تضم قبضـتك وتبسطها بهمة ، بحيث تنشر اصابعك متباعدة عند بسط راحتك تماما .

واذا كنت سعيد الحظ لانك ممن تعلموا العـزف على البيانو ، فالتمرين على تلك الآلة الموسيقية خـير كفيـل برشاقة الاصابع ومرونتها .. فان يبوسة المفاصل تبـدا

فى أواسط العمر ، وهذه اليبوسة هى التى تقضى عليها بالتمرين الرياضى .

ان العزف على البيانو ، أو ما يعوض عنه ، تمرين كاف لمفاصل الاصابع والمعصم .. وركوب الدراجة ، وما يحل محله من رياضة المشى ، خير تمرين لمفاصل الركبتين والقدمين ..

وقد تكون فى حاجة الى بعض الفيتامينات لكى تكفل مرونة مفاصل يديك أو قدميك أو سلسلتك الفقرية ، فلا تتردد فى استشارة الطبيب .. وقد لا يحتاج الامر الا لبضع جلسات من الاشعة القصيرة .

ان شبابك هو الى حد كبير شباب يديك ومفاصلك عموما .. فلا تهمل هذا الامر اذا أردت لنفسك الرونق والعافية معا .

الفصل السادس

عيناك

عيون الشباب تومض بلمعان كلمعان النجـــوم ٠٠ أما عيون الشـــيوخ فتحملق ، وعيون الشـــباب لا تكف عن الغمض والاختلاج ، وبذلك تتغذى العين وتغسل بالسوائل الطبيعية أثناء الاختلاج ٠٠ وهذا هو السبب فى توصيتنا للمتقدمين فى السن أن يثابروا على الغمض والفتح لتقوية نظرهم وحمايته من التداعى ٠٠

ان الخمول يورث الضعف والانحلال فى جميع العضلات والاعضاء ، وليست العين شذوذا أو اســـتثناء من هـذه القاعدة العامة ٠٠

والعين عضو موضعه فى الرأس ، فلابد لصحتها من وضع الرأس فى موضع صـحيح منـاسب ٠ وما أكثر ما يخطىء الناس فى وضع رءوسهم ٠٠ يمشون مطرقين ، ويجلسون مطرقين ، مع أن الرأس مجعول للارتفاع على امتداد مستقيم للعمود الفقرى ٠٠

فلا تجعل عينك تنظر الى أسفل ، بل الى أمام ٠٠ واذا كان عليك أن تنظر فى عمل أو كتاب ، فارفع العمـــل أو الكتاب الى أقرب ما يمكن من مستوى النظر ٠٠ لان ذلك هو السلوك الصحيح الجدير بانسان له يدان ٠ أما النظر الى

أسفل فسلوك جدير بحيوان من ذوات الاربع لم تمنحه الطبيعة نعمة اليدين والرجلين !

وأعلم ان السوائل المطهرة المستعملة في غسيل العينين والقطرات ، والنظارات ، وما الى ذلك من وسائل علاج العين والعناية بها ، لا تجدى نفعا ما لم يكن العنق مستقيما منتصبا في سائر حالاتك أثناء اليقظة .

وثمة عوامل نفسية كثيرة لها أثر في النظر ونضارته وصحته . وفي مقدمتها : القلق ، والخوف ، والشك ، والحزن ، والتشاؤم .. فابدأ بطرح هذه الهموم كلها عن كاهلك ، اذا كنت جادا في تجديد شباب عينيك والمحافظة على لمعانها ..

ومن الضروري أن تستشير اخصائيا موثوقا به للحصول على طريقة سليمة في العلاج والعناية الصحية . واذا كنت بحاجة الى نظارة للقراءة أو للمسافات البعيدة ، فيحسن الا تؤجل ذلك .. فكل ساعة تقضيها بغير النظارة المناسبة تزيد من ارهاق عينيك .

***

ونضارة العين صحيا مسألة لا تنفرد بالاهمية ، بل هناك طريقة استعمال العين .. هناك طريقة نظرتك الى الناس ، هناك اسلوب تطلعك ، والصورة التى تطلع بها على الناس بنظراتك ، فالعين هي مرآة النفس كما يقول شكسبير ..

ان نظراتك الى الناس ، والى الاشياء ، هي صورة شخصيتك .. فالنظرة الرقيقة الحانية تؤدى عنك فكرة غير الفكرة التى تؤديها النظرة الصارمة .. والنظرة الحالمة غير النظرة الثاقبة الغامضة ، وهلم جرا .

ومن الملاحظ أن المتقدمين في السن ـ ولا سيما السيدات يرون من حقهم أن يطالعوا الناس بنظرات كنظرات الصقر .. وأن يقلبوا فيهم عيونهم من أعلى الى أسفل ، كأنهم في سوق للرقيق ، وجميع من حولهم « بضاعة » ينتقون منها ما يروق لهم ! ..

واعرف سيدة من سيدات المجتمع ، كانت تدين بمكانها لزوجها ذى الشخصية الجذابة .. فلما مات وورثت عنه كل ثروته ومناصبه في الشركات والاندية ، وجدت نفسها فجأة وحيدة ، وقد انفض من حولها كل من كانوا يحيطون بها ويرحبون بزيارتها في مدة حياة زوجها ، لانهم في الحقيقة كانوا يتحملون سماجة نظراتها وثقل دمها من أجل خاطر طرف زوجها ودماثته ..

ولجأت الى هذه السيدة تستشيرنى في الامر ، وتطلب منى أن أساعدها .. فكان أول ما فعلته هو مواجهتها بالواقع المؤلم ! وافهمتها انها درجت طول حياتها بجوار زوجها على عادة النظر الى الناس من عل ، وكأن الله ندبها لتكون قاضيا يدين جميع البشر ! .. فكانت عيناها الثاقبتان الصارمتان « تعريان الناس من ثيابهم » وهى طريقة مهينة للغاية ، فلا عجب أن يضيقوا بها ..

واقترحت على تلك السيدة أن تضع أمامها فى موضع منزو من المكتب مرآة صغيرة كالتى يضعها سائق السيارة أمامه ، وأن تختلس اليها النظر كى ترى وجهها وهى تحدث الناس ، وان تتحرى الابتسام والنظرة الرقيقة ، وتطرد كل صرامة من ملامحها أولا بأول .

ونفذت السيدة اقتراحى .. واعتقد انها كانت مخلصة النية صادقة الرغبة في التخلص من متاعبها التى تسببها

لها نظرات عينيها ، فاتبعت نصـــيحتي بدقة وتغـــيرت شخصيتها شيئا فشيئا ، الى أن اتصلت بي منذ مدة وجيزة لتسألني المساعدة العكسية :

ـ دليني بربك على طريقة أبعد بها النـاس عنى بعض الشيء ، لانهم صاروا يتكاثرون حولى ، وينشدون مجلسى، ويدعونني بكثرة مرهقة لفرط ارتياحهم الى ..

ودلتنى التجـــربة على أن النظرة الرقيقة الودود تغـير بالتبعية من طريقة الشعور والتفكير .. فالعين كما قلنـا مرآة النفس ، وكل تغير متكلف فى النظرات لا يلبث أن يؤدى ـ مع المثابرة ـ الى تغير فى معاملة الناس عموما ، وفى الشعور بهم والاحساس نحوهم .

ان المودة والكرم ضروريان جدا للسعادة والشـباب من كل النواحي .. فعندما ترى شخصا قادما تحوك ضع نور المودة ودفء الترحيب في عينيك ، ليحس في نظراتك انك تفتح له ذراعيك .. وسيحس ـ مهما كانت سـنك ـ ان عينيك شابتان ، فيهما نور وغنى وسخاء ..

وعندما يحدثك أى انسان في أمر يهمه ، يجب أن تصغى له بعينيك لا بأذنيك وذهنك فقط .. فان العين هى التى تدل المتكلم على مقدار حماستك لما تسمع ، ومدى اهتمامك لما يقول . ومن العسير أن يقاوم المتحدث حبه لك اذا شعر فى نظراتك بالحماسة للاصغاء ..

ان الحماسة هى علامة الشباب .. والنظـــرة الحارة المتحمسة هى النظرة المتوقدة بنور الشباب وعزمه ونضارته

وحماسة النظرات مقترنة عند الشبان بالاستطلاع .. لان غرارة الصبا تدفع الى الفضول وابتغاء المعرفة والاهتمام بكل جديد .. فاحرص على ذلك التطلع العقـــلى والنفسى

يبقى لك شباب العقل وشباب القلب وشباب النظرات ..

وسأطلب منك الآن أن تجرى تجربة بسـيطة جدا على عينيك :

ركز تفكيرك فى أحب الناس اليـك ، ثم انظر فى المرآة .. تجد اللمعان ، والحرارة ، والحماسة فى نظراتك ..

وركز تفكيرك بعد قليل فى أبغض الناس اليك ، وانظر فى المرآة تجـد الوميض قد تلاشى منهما ، كمـا تطفىء مصباحا كهربائيا بالضغط على زر صغير ..

والآن لا يقتضيك الامر الا تصـور من تحبهم لتومض عيناك بالمودة والحماسة كلمات لقيت انسانا لا تكترث له الا قليلا .. وشيئا فشيئا ستتعود المحبة ، وسـيتعودها منك الناس ..

وليس هذا بالامر العسير ، فالممثل قد يقف على خشـبة المسرح فى مواجهة الجمهور ويبدو عليه الشرود أو التفكير العميق ويتحدث عن وحدته ووحشته ، وأمام انفه المئـات من الناس .. لانه يتخيل ما يريد التعبير عنه ، فيحسه فى نفسه ، وتنطق نظراته وملامحه بذلك الشـعور المطلوب منه ..

كن ممثلا بعض الزمن ، ليستقيم لك قياد النـاس على مدى الزمن ..

راقب طعامك

لا ينكر أحد ما للطعام من أهمية فى تكوين الانسان منذ ولادته ، ثم تزداد هذه الاهمية كلما تقدم فى العمر الى أن يصل به المطاف فى مسالك الحياة الى الشيخوخة .

ولما كان الطعام هو الاساس العضوى لقوام الحيــاة ، فهو بمثابة حجر الزاوية الذى تتركز عليه أصول الصحة العامة للانسان .. لهذا فقد أولى الباحثون والاخصــائيون عناية كبرى واهتماما شديدا بموضــوع الطعام من ناحية ملاءمة أنواعه لمختلف الاعمار والامراض وحسن تهيئته .

وقد أثبتت التجارب للدلالة على ذلك ان اضافة مقدار من زيت كبد الحوت ـ ومن عناصره « فيتامين د » ـ الى طعام طفل معوج الساقين ، يمنحهما صلابة واستقامة ..

ومما يؤسف له أن غالبية النــاس يجعلون طعــامهم الاســاسى الدائم من اصناف محددة : اللحم أو الارز أو البطاطس ، من غير أن يولوا اهتماما بالفواكه والخضروات .. وهم بذلك يحكمون على أنفسهم بالحرمان من الاملاح المعدنية التى هى العناصر الرئيسية لسلامة البدن وصحته .

ومن الخطأ الشــائع اعتقاد الناس ان المبالغة فى طهو الطعام وانضاجه على النار يكسبه فائدة غــذائية ، اذ أن

الصحيح هو العكس تماما لان الطعام بزيادة نضجه يفقد معظم فائدته الصحية ٠

ومن عجب أن تظن المرأة انالجمال مسألة سطحية لا تتعدى بشرتها ٠٠ فقد اثبتت التجارب العلمية ان الجمال موضوع عميق تصل جذوره الى خلايا الجسم الداخلية ٠

والجسم كما هو ثابت علميا مكون من ملايين الخلايا الدقيقة ، وكل واحدة من تلك الخلايا المتناهية فى الصغر كائن حى يأكل وينمو ويتكاثر ويعمل ، ثم يموت ، شأنه شأن أى كائن حى ٠ والناس فيهم السوى والشاذ والمليح والقبيح ، كذلك الخلايا فيها الصحيح والمشوه ٠ ويتوقف ذلك على كيفية نمو الخلايا وصيرورتها ، وأساسا على ذلك يتكون الشكل الخارجي للجسم الانسانى ٠

ومن حسن الحظ ان خلايا الجسم — مهما كانت متغلغلة فى داخلنا فهى تخضع لرقابتنا وتوجيهنا ، لان مجارى الدم تغذى الخلايا بالاملاح المعدنية والمقويات والفيتامينات الضرورية لسلامتها وتجديد نشاطها وزيادة طاقتها وشبابها ٠ لذلك يجب على الانسان أن يعمل دائما على أن يجعل دمه غنيا بشحنات كافية من العناصر البنائية اللازمة وهو أمر ميسور باتباع نظام صحيح للتغذية يسير به نحو الجمال والشباب ٠

وأول ما نلفت اليه النظر هو عدم الربط بين الغذاء الشهى والغذاء الصحى ٠٠ فمن السهل جدا أن نحشو بطوننا بوجبة دسمة من البطاطس المطبوخة باللحم والصلصلة ، نحس بعدها اننا تغذينا جيدا ٠ ولكننا اذا نظرنا الى هذه الوجبة فى ضوء علم التغذية ، نرى أن اللحم فى حد ذاته غذاء بروتينى نافع فى بناء العضلات ، كما هو

عنصر من عناصر تكوين خلايا الجسم • ونرى ان البطاطس غذاء نشوى ، وهو بحالته هذه مصــدر للقوة المحــركة والطاقة التي بها تعمل الخلايا • ولكن البنــاء والوقود ليسا هما كل شيء •• فهناك عناصر أخرى عظيمة الاهمية تحتاج اليها الخلايا ، مثــل الهــرمونات والفيتامينــات والمعادن • وتحتاج الخلايا العصبية بوجه خاص الى كميات هائلة من الفسفور • أما بقية الخلايا فتحتاج الى ما يلائم طبيعتها ، فالحديد ضرورى لخلايا الدم ، والجير لخلايا الاسنان • ومما لا شك فيه أن هبوط الكميــة اللازمة من هذه العناصر على الحد الضرورى يضــعف تلك الخلايا ويؤدى الى موتها جوعا ، وبالتالى يؤدى الى تدهور الصحة العامة للجسم .. وتبعا لذلك يتدهور المظهر العام والمظهر الخاص لتلك الاعضاء التى أصابها الضمور •

***

ومما يبعث على الدهشة ما يسببه اختلال الغدد الصماء وما يترتب على ذلك من آثار ، فقد تعجب اذا رأيت ملكة جمال مثلا وقد صارت نموذجا للقباحة والدمامة بسبب اختلال فى الغدد الصــماء أو افراط فى افرازها • وقد تعجب اذا رأيت شخصا ممشــوق القوام وقد احدودب وتقوس ظهره • وتأخذك الدهشة اذا عرفت شخصا عاقلا متزنا واذا به فى لمحة عين قد انطبعت عليه وعلى تصرفاته سمات البلاهة •• ومرجع ذلك كله الى اختلال فى الغدد الصماء •

ومن حسن طالع هذا العصر أن العلم الحديث قد توصل الي كثير من الحقائق المذهلة عن هذه الجسيمات الصغيرة المسماة بالغدد الصماء ، كما توصل الى التحكم في نشاطها،

مما سيكون له أحسن الاثر فى الاحتفاظ بالجمال والجاذبية
ومن الغدد الهامة التى تمكن العلم من التحكم فيها والسيطرة عليها ، الغدة الدرقية ، التى لها سلطان كبير على توازن الجسم وعلى عملياته الذهنية والكيميائية ، وتتوقف رشاقتنا أو بدانتنا على هذه الغدة ٠

وخلاصة القول ان الطعام الذى نتناوله ، بما فيه من عناصر معدنية ، وكربوهايدراتية ، وبروتينات ، وفيتامينات ، ودهنيات ، بكميات معتدلة ، له أثره الفعال المباشر فى تغذية خلايا الجسم ٠

***

وأول ما تعنى به المرأة فى كافة أنحاء الدنيا هو جمال بشرتها ، فالبشرة الجميلة عندها بمثابة الكنز الثمين الذى لا تعدله كنوز سليمان ٠٠ وكل امرأة فاتنة فى نظر الناس لها بشرة ناعمة ناضرة يضفى عليها سحرا يأخذ بالالباب ٠

وما أتعس المرأة حين تنظر فى مرآة ، فترى بشرتها وقد اصابها الاختلال ، واستحالت نضرتها الى بثور وخشونة وبقع ٠٠ فتلجأ الى الدهون وما اليها من وسائل التجميل الصناعية تخفى بها ما أصابها ، وكان احرى بها أن تعالج العلة من أساسها ٠

ان بشرة الانسان مرآة تنعكس عليها صحته العامة ، ولم تكن أدهنة التجميل فى يوم من الايام علاجا لتدهور حالة البشرة ٠٠ فمثل ذلك مثل حائط متصدع يطليه صاحبه لكى يخفى التصدع دون أن يرممه ٠

ان الشحوب يعنى فقر الدم بسبب سوء التغذية ، والاصفرار معناه اضطراب افراز الصفراء من المرارة ، واعتلال القلب يضفى على البشرة لونا أزرق ٠٠ أما البثور

والخشونة والبقع فليست أعراضا سطحية كما قد يتبادر الى الذهن ، بل انها أعراض متغلغلة ، ويظهر أثرها على البشرة .

فيجب عليك أن تكون يقظا لكل حالة تطرأ على بشرتك ، كتغير في اللون أو ظهور بثور أو بقع . واعلم ان ذلك ليس أعراضا سطحية بسيطة تزول بعد فترة وجيزة أو دون علاج .. والطعام الذى تأكله له أثره المباشر في هذه الحالات .

وبعبارة أوضح ، يمكن أن نقول ان سر جمال اللون ونعومة الجلد كامن في الخلايا الداخلية وفي الغدد .. وفي مقدورنا السيطرة على ذلك وفق ارادتنا ، فليس جمال البشرة اذن محصورا في دائرة الجسم فقط ، بل يتعداه الى النفس والتربية الخلقية والنفسية التى تتيح لنا التحكم في شهوة أفواهنا وبطوننا ..

***

لقد أثبت العلم ان عددا من خلايا الجلد يضمحل في كل يوم ينقضي من العمر ، وتحل محله طبقة جديدة من تحته ، خلفا لسلف . ولو اننا وضعنا في اعتبارنا ان ننظم ونحسن تغذية خلايا جلدنا عن طريق مجرى الدم كما ينبغي ، لحصلنا على جلد جديد ناعم ، ناضر ، جميل .. وبمعنى آخر نحظى بنضرة الشباب على الدوام ، فلا تتغضن جلودنا ، ولا تتجعد تحت تأثير الشيخوخة .

ان الجلد ليس مجرد غلاف لاعضاء الجسم وخلاياه ، ولكنه عضو عام من جملة اعضائنا ، لا يقل شأنه وخطره عن الاعضاء الداخلية الاساسية كالكبد والقلب والكليتين . والجلد من أنشط أعضائنا عملا في الليل ومن اغزرها

انتاجا ، فهو ينتج الزيت والعرق والشعر والاظافر ، ويحمى بمادته وتفاعلاته الكيميائية كافة أعضاء الجسم الباطني من عوادى الجو والعالم الخارجي • ومن أهم ما يقوم به تنظيم درجة حرارة الدم ، وهو شديد الحساسية اذ انه يتأثر بما يصاب به أى عضو آخر ••

والكبريت هو العنصر الاساسي لغذاء الجلد •• والطعام مهما كان فاخرا أو غنيا بالعناصر ، لا يفيد الجلد الا اذا كان الكبريت من عناصر ذلك الطعام ، فهو الذى ينظف خلايا البشرة من النفايات وينقيها من الشوائب • ومن هنا ندرك حصافة اجدادنا حين كانوا يستعملون كبريت العمود — الكريه الطعم — لاضفاء النضرة على بشرتهم . وكان هؤلاء الاجداد على حق أيضا حين كانوا يصفون الكبريت للنساء فى فصل الربيع ، لان فصل الشتاء فصل الانكماش والاكثار من الطعام •• وتناول الكبريت يغسل خلايا الجلد ويجدد شبابها •

وتطورت الدنيا وتقدمت العلوم وتعددت الابحاث ، فاصبحنا نتعاطى الكبريت لا بوضعه الطبيعى ، بل بطرق غذائية مستساغة الطعم حيث اكتشف وجوده فى الخس والطماطم والبصل .. وهذه الاطعمة الكبريتية ضرورية لضمان دوام جمال البشرة •

***

ونلاحظ جفافا فى الجلد فى كثير من البلاد الحارة ، فيغدو الجلد سميكا وخشنا ، تتخلله اخاديد ، وقد تزداد الحالة سوءا فيصاب الجلد بما يسمى بمرض « البلاجرا »، وهو مرض يصيب الكثير من الفلاحين فى بلاد الشرق • وقد تناول الاخصائيون ذلك المرض بالبحث الى أن توصلوا الى

معرفة اسبابه • وقد اتضح لهم ان نقص فيتامين «ج» هو السبب الرئيسى فى الاصابة بذلك المرض •

ومن خصائص هذا المرض أن اصابة النساء به أكثر من الرجال البالغين أو الاطفال • وتبدأ أعراضه بهزال وضعف عام مع توتر شديد فى الاعصاب • ومن أعراضه أيضـــا ان الجلد يحمر احمرارا ظاهرا بعد أسابيع ، وتزداد البقع الحمراء دكنة وتعقبها بقع بنيـة قاتمـة •• ثم يعقب ذلك خشونة الجلد وتقلصه ، فيبدو وكأنه جلد مومياء •

وفيتامين « ج » ، وهو العنصر الاســـاسى للوقاية من ذلك المرض •• وان كان من عناصر الطعام الذى نتنـاوله الا انه سهل الدوبان ، وبذلك ينفصل عن الطعــام عنــد طهوه .. وعلى ذلك فان اغفال تناول الطعام بمائه يفوت علينا فرصة الحصول على الفيتامين « ج » • لذلك يجب علينا أن نقلل من الماء فى طهو الطعام ، وأن نحرص على تناول الماء الذى نسلق فيه الخضروات ، وأن نعصر الخضر ونتناول عصيرها ، فانه عدو مرض « البراجرا » وجفاف الجلد •

« والاطعمة » الغنية بهذا الفيتامين كثيرة متعددة •• منها اللبن الطازج ، والزبد ، والبيض ، والكبد ، وخميرة البيرة والعدس ، والفواكه الطازجة ، والخضروات ، والخبز الاسمر •

***

ولا يفوتنا أن نقرر ان الامساك ألد أعداء الصـحة ولو كان يسيرا ، لان احتفاظ القولون بفضلات عملية الهضم ، يجعل الدم يمتص جانبا من هذه النفايات ، ومنه تتسرب الى خلايا الجلد •

والامساك مصدر رئيسى لكثير من الاضطرابات الجلدية ، لان هذه النفايات تفقد الدم خاصته فى التنظيف والتنشيط ، وبذلك تحول دون تقوية خلايا الجلد ودون تمكينها من مقامة جراثيم الالتهابات التى تنتشر فى الهواء الملامس للجلد ٠٠ فى حين ان الجلد القوى يقاومها ٠

لهذا يجب أن تفهم ان جمال اللون والبشرة يتوقف على قيام الامعاء الغليظة والدقيقة بوظائفها الهضمية على أحسن وأكمل وجه فلا تسمح للنفايات بأن تبقى فى داخلك ، بل اعمل على طردها أولا بأول٠

***

لماذا تصبغ المرأة وجنتيها بالمساحيق الوردية اللون ؟ ولماذا تصبغ شفتيها بلون قرمزى ؟ ولماذا تسعى الى تعهد أظافرها بالنعومة واللمعان ؟ انها تستشعر الجمال بذلك الذى تفعله ٠٠ وهذه كلها وسائل صناعية ظاهرية ٠ ولكن الابحاث العلمية والطبية أثبتت أن تناول الاطعمة التى تحتوى على كميات من عنصر الحديد تمنح المرأة ما تصبو اليه من هذه الالوان ٠٠ ذلك لان الحديد هو عنصر الكريات الحمراء فى الدم ٠ والدم هو صباغ الاحمر الوحيد الذى تعترف به الطبيعة ٠

وعنصر الحديد متوفر فى كثير من الاطعمة منها العنب والسبانخ والتين والخس والزيتون والجزر والجرجير والكبد ٠

ومما هو جدير بالذكر أن الخضروات الداكنة أغنى وأحفل بعنصر الحديد ، وأكثر فائدة للمصابين بفقر الدم ٠٠٠

وإذا كنا قد أسهبنا فى الكلام عن الاطعمة وأنواعها وفوائدها ، فلا ينبغى أن نغفل الاثر الكبير الذى تمنحه لنا التمرينات الرياضية ، والسير ، والاعمال البدنية التى تحتاج الى نشاط جسمى فى تنقية الدم وتنظيم دورته ، لان من المعروف أن تراخى الدورة الدموية تنجم عنه رواسب فى الخلايا ، وهذه تسبب اضطرابات فى البشرة ، وفى اللون ، والنتيجة الحتمية تشويه الجمال وهو أهم وأعز ما تصبو اليه نفس المرأة وتحرص عليه مهما كانت سنها ٠

***

ولا شك أن سحر العيون وتألقها يضفى على الانسان جمالا اخاذا ٠٠ وتبذل المرأة جهدها لكى تكسب عينيها سحرا وتألقا ، فهى تتعهدها بوسائل التجميل المختلفة ٠ ولكنها مهما بالغت فيما تفعل ، فلا يصل بها الامر الى ما يصل عن طريق الوسائل الطبيعية العلمية ٠

وقد أثبت البحث ان توفر مادة « الفلورين » فى الغذاء يكسب العيون سحرا ٠ وهذه المادة الثمينة متوفرة فى بعض الاطعمة كصفار البيض ، والسبانخ ، والجبن الركفور ٠

***

ويخطىء من يقول « ان الشعر الجميل منحة » خصت بها الاقدار صاحب ذلك الشعر ٠٠ فقد ثبت علميا أن الشعر نسيج حى تظهر فيه قيمة طعامنا الغذائية كما تظهر على الجلد ٠ ولا نكون مغالين اذا قلنا أن فى الامكان أن نغذى الشعر أو أن نجيعه ٠٠ وجلد الرأس ليس هو التربة الحقيقية التى ينمو فيها الشعر وانما هو الدم ٠

وقد أثبتت التجارب والابحاث ان الاغذية التى تفيد الشعر ، هى ما يحتوى منها على قدر كبير من اليود .

ومما يؤسف له أن الاغذية الغنية باليود ليست بالكثيرة . والاعشاب البحرية أوفر النباتات بمادة اليود ، ولكننا لا تأكل هذه الاعشاب .. ويليها فى وفرة نسبة اليود الاسماك البحرية وزيت كبد الحوت وقشور الفواكه والخضروات . لذلك أنصحك بأن تأكل التفاح والخيار دون أن تنزع قشوره وكذلك القمح .. ويفيد الشعر أيضا من الاصناف الاخرى كالخرشوف والتين والتوت والبندق والجزر ، وذلك لوفرة الكبريت ضمن عناصرها .. ولانها لا تخلو من اليود الذى أوضحنا انه الغذاء الرئيسى لنمو الشعر واضفاء الجمال عليه .

وكثير من الناس ان لم يكن معظمهم يشكو من المتاعب التى يجابهونها فى حياتهم من الناحية الصحية المتشعبة مع أن فى امكانهم التغلب على هذه المتاعب والقضاء عليها ، والاستمتاع بحياة صحية هانئة ، اذا اتبعوا الاسس الصحية السليمة فى طعامهم وكيفية تخيره وطهوه وتناوله.

شكا لى أحدهم مرة من عينيه ، كيف أن جفنيها ثقيلان وكأنهما غطاءان من الرصاص ، وانه يشعر بثقل عام وخمول .. فبادرته على الفور بسؤاله عن كيفية تناول افطاره . وعندما أوضح لى أنه يكتفى بقدح من الشاى ، اخبرته ان علة الدواء تكمن وراء ذلك . وشرحت له ان الانسان عندما يصحو فى الصباح يحتاج الى قدر وافر من التغذية يعينه فى دفعته الصباحية . وان أهم ما يجب أن يتكون منه الافطار هو البروتينات التى تتوفر فى البيض

واللحم والسمك والالبان • ولا يخفى أن الجسم يكون أشد حاجة الى ذلك بعد صيامه الليلي •

ومن الظواهر الملموسة التي تدعو الى الدهشة فيما يتعلق بالافطار ، انه الوجبة الوحيدة التي لا خطر منها على زيادة وزن الانسان ، وذلك لسبب واحد هو انها مجرد تعويض للنقص الذى أصاب الجسم أثناء الليل لانقطاع الغذاء عنه • وليكن معلوما ان البروتينات لازمة لبناء الجسم لزوم الهواء للتنفس •• لهذا يتحتم أن يحتوى طعام الافطار على ألوان غنية بالبروتينات مع الاكثار منها فى الوجبتين التاليتين • وهذه هى الوسيلة الناجعة لتخفيف ثقل الاجفان والخمول العام ، وبالتالى ابعادهما نهائيا عنك ••

وغنى عن القول أن وجبة الافطار اذا كانت غنية بالبروتينات فانها ضمان لعدم الافراط الى حد التخمة فى وجبة الغذاء ، لان وجبة الغذاء الدسمة الضخمة تسبب للانسان ثقلا فى الرأس والعينين بقية النهار • ولهذا أنصح بتناول الوجبات على دفعات حتى نتحاشى التخمة والنوم الكثير بعد الظهيرة •

***

ونظرة الى مجرى الحياة العملية ، تظهر لنا ان آلافا من الناس يكدحون حتى العصر أوالغروب فى مكاتبهم أو فى المصانع التى يعملون فيها ، حتى اذا حان موعد انصرافهم كانوا فى حالة من الاعياء تحول بينهم وبين الاستمتاع بسهراتهم ، فيشعرون بالضيق وتنتابهم نوبة كراهية لنظام حياتهم •• وهم جد معذورون • على اننا اذا رجعنا

الى الوراء بضع عشرات من السـنين ، في عهد آبائنـا وأجدادنا ، نجد انهم كانوا يمارسون أعمالا أشـد عنفا ساعات أطول ، ومع هذا كان الوقت أمامهم متسـعا كما كانت حيويتهم تتفتح للاستمتاع والمرح •

وهنا يحق لنا أن نتسـاءل عن كيفية تعليـل ذلك ! والجواب لا يحتاج الى عناء أو كثير من التفكير •• فالسر كامن فيما كانوا يأكلونه ، خاصة في وجبة المساء التى كان لها قدر كبير من الاهمية عندهم ، في الوقت الذى نعتبرها نحن الان وجبة ثانوية أو غير ضرورية نتناولها على أبسط الوجوه وكثيرا ما نتناولها ــ ونحن في طريقنا الى سـينما أو ملهى ــ وهى بهـذه الحالة تتكـون من لقيمات جافة خالية من « فيتامين أ » المؤثر القوى على حيوية العينين •

ويستحسن أن يتوفر في وجبة المساء مقدار لا بأس به من اللحم لانها بمثابة مخزن تموين للجسم أثناء الليل •• فاذا اتبعها الانسان بقدح من الشاى فان ذلك يضـاعف النشاط •

وأحذر كل الحذر من تناول المشروبات الكحولية ، فلا يخفى ضررها البالغ على الصحة العامة • ولهذا سنفرد لها بابا خاصا في هذا الكتاب ، وأصلح منها وأجدى الاستعاضة عنها بتناول عصير البرتقال ، فانه ينشط الدورة الدموية ومراكز المخ •

وإذا شعر الانسان في سهراته بشيء من الجوع ، فيمكنه أن يأكل شيئا من حلوى السمسم أو الفول السودانى لانها أصناف مشحونة بالبروتينـات والفيتامينـات والاملاح المعدنية الضرورية لخلايا الجسم •

وهناك لون من ألوان الاكل له فعل السحر فى تكويننا الجسمانى ، ذلك هو عسل النحل المعروف من قديم الزمان .. وقد فطن اليه الرياضيون والابطال فكانوا يتناولونه ، لما ثبت من أثره العظيم على الجلد وتوقد الذهن .. كما انه يساعد الجرحى والناقهين على سرعة الشفاء .

ويلعب عسل النحل دورا هاما فى عصرنا الحاضر فى شتى نواحى الحياة الرياضية . ويؤكد أحد العلماء انه ذا أثر فعال للتخلص من آثار الافراط فى الخمر واستعادة الوعى . وهنا يحق لنا أن نتساءل عن السر فى هذا التأثير السحرى لعسل النحل ! والسر كان فى التكوين الكيماوى لهذا العسل المستخلص من رحيق الازهار .. وباضافة قدر من الفيتامينات وبعض الاملاح المعدنية يمكن أن نجعل من عسل النحل غذاء كاملا .. فهو نوع نقى من أنواع السكر يتحلل بسهولة ويذوب فى الجهاز الهضمى ، فيمتصه بسرعة مذهلة فتتخلف عنه طاقة حيوية كبيرة . وتناول عسل النحل بدلا من السكر يحمى الانسان من كثير من الامراض الوبيلة . ومما هو جدير بالذكر أن عسل النحل مقو عظيم الاثر للقلب ، ولهذا اعتبره القدماء دواء لعشرات الادواء .

***

ويرى العلماء العصريون ان العمر الطبيعى للانسان هو مائة وخمسون عاما ، وانه ليس هناك ما يمنع مطلقا دون تعمير الانسان الى تلك السن . ومما يدل على صحة هذا الرأى أن بعض العلماء أجروا عدة تجارب فنجحوا فى زيادة عمر الحيوانات بنسبة ٥٠٪ وذلك عن طريق استعمال

أنظمة غذائية معينة تحتوى على عناصر ضرورية لتأجيل انحلالات الشيخوخة .. فماذا لو طبقنا ذلك لكى تثمر هذه الانظمة فى أعمارنا ؟

يجدر بنا أن ننظر الى الشيخوخة باعتبار انها مرض ، ولا نفكر فيها على ضوء التقديم السنوى .. ولا ينبغى أن يقرر الانسان أنه مسن لانه تجاوز الستين أو السبعين، بل المسن حقا هو الذى تتحالف عليه عدة عوامل كيميائية عضوية معقدة يتخلف عنها تغيير فى خلايا جسمه وأنسجته ..

وفى استطاعة الانسان أن يكذب التقويم ، وأن يخدع الرائى بحقيقة عمره اذا سار على نظام صحى فى الاكل .. فاذا اتبع هذا النظام وهو فى سن مبكرة ، كان ذلك أجدى وأعظم أثرا . وفى كلمات معدودة ، يمكن القول ان البروتينات والفيتامينات والاملاح المعدنية وتجنب الدهون والسكر هى أكبر ضمان للخداع فى عمر الانسان .

***

رأى أحدهم حشدا فى مكان عام ، فلاحظ ان أفراد هذا الحشد شديدو الحيوية فتساءل عن السر في ذلك ! . وكانوا فعلا نماذج رائعة لابدان قوية وعضلات مفتولة فتية .. واتضح بالبحث والاستقصاء أن السر يكمن وراء ما يأكلون ، وأن البروتين يقوم بدور ايجابي فى الحيوية الجنسية ، ويضاعف الثقة الداخلية والشعور بالقوة والحماسة والتوقد الذهنى .. وهى كلها أحوال تسير جنبا الى جنب مع عنفوان الغدد الجنسية .

وقد أجريت تجارب على رجال فى مستوى جنسى

متوسط اقتصر غذاؤهم على النشويات ، ومن عجب أنهم فقدوا بعد فترة كل رغبة فى الجنس حتى مع استخدام كثير من وسائل الاغراء .

فليكن معلوما لمن يهتمون بهـــذه الناحية من الرجال أن الحيوية الجنسية ليست أمرا مستقلا عن الحيوية العامة وما يتصل بها من نظام غذائى . ومن الخطأ اللجوء الى تعاطى العقاقير المختلفة التى درج بعض الناس على استعمالها لان الرجل الصحيح البنية المتجدد الحيوية بالغذاء الملائم يحتفظ بحيويته الجنسية طوّل حياته .

***

والانثى أنثى فى كل زمان ومكان .. وهى تحرص على أن تكون بشرتها ناعمة وعيناها متألقتين وشعرها مصففا لامعا وجسدها نابضا بالحيوية والانوثة .. وكل ذلك مرجعه الى نظام التغذية وافراز الهرمونات . فمن واجب كل امرأة تعنى عناية تامة بالغذاء النافع للغدد ، وتكثر من تناول ما هو غنى بالبروتين والفيتامين . ومن أوجب ما يجب عليها أن تتجنب قدر استطاعتها الدهون والكعك والارز والبطاطس والمكرونة وما اليها من النشويات .

وقد اهتم العلماء والاطباء بمشكلات الشيخوخة وتقدم السن فأخذوا يدرسونها .. وهم يقدرون أن ما نطلق عليه لفظ « الشيخوخة » ان هو الا فترة بغيضة مزعجة يقترب منها الرجال والنساء وهم متذمرون كارهون .

ولا تحتاج أى مرحلة من مراحل العمر من الاهتمام والتفكير مثل مرحلة السن المتقدمة .. فكل فرد فى الحياة

ـ رجلا كان أو امرأة ـ يعمل على الاستعداد لمرحلة الغروب هذه عقليا وبدنيا وعاطفيا ، سيجد ولا شك أن جهـوده تكلل بالنجاح · وصدق من قال : « ان زبد الحيـاة فى مراحلها الاخيرة ، فهى التى من أجلها نشأت البداية » .

ويميل بعض الاخصـائيين الى الرأى القائل ان عجز الشيخوخة يبدأ قبل سن الاربعين ، ولكن بصـورة غير ظاهرة ·· بيد أننا اذا اتبعنا نظاما صحيا جيدا فى التغذية فيمكننـا بذلك أن نمنع ـ أو على الاقل ـ نؤجل أمراض الشيخوخة وأعراضها ·

ولهذا وجب لفت النظر كى يكون الانسان شديد اليقظة والحساسية لجميع النذر والبوادر التى يوجهها الجسم فيما يتعلق بالانحلال العضوى ·· ذلك الانحلال الذى قد تظهـر بوادره فى دائرة سـن العشرين ، ومن ظـواهرها ضعف مرونة أنسجة الرئتين وتنـاقص الكليتين حجمـا ووزنا ·

وعندما يصيب الانحلال العضلات والانسجة والمفاصل والاعصاب ، يضعف نشاط الجسم ، ويسـاعد على ذلك بل ويعجل بذلك سوء التغذية ·

ويقول الطب ان الخلايا العصبية تحتاج مع تقدم السن الى غذاء خاص بالبروتينات والفيتامينات · ومن الحقائق العلمية أن الغذاء الجيد يحول دون ضعف الابصار ، كما يحمى الانسان من ثقل السمع فى مرحلة تقدم السـن ، وكذلك يفيد فى حالات ضعف العظام ، وسقوط الاسـنان أو تلفها ، وفى تغضن الجلد وسقوط الشعر ·· لان جميع

هذه الحالات ترجع الى حالة الدم التى تتأثر مباشرة بعناصر الغذاء .

***

وظاهرة أخرى لا ينبغي أن نغفلها ، ذلك اننا نلاحظ أن كثيرين يصابون بالبرد .. ولو أدرك هؤلاء الحقيقة لعرفوا ان هبوط القوى الناتج عن نظام التغذية هو الذى يجعلهم عاجزين عن مقاومتهم للبرد ، وهم يظنون خطأ أن سببه يرجع الى التغييرات المفاجئة فى الطقس أو الرطوبة أو بلل القدمين أو الاختلاط بشخص مصاب بالزكام ، لأن هذه مجرد عوامل مساعدة للسبب الاصلى وهو الضعف .

ومن الثابت ان الجسم المحصن بمقاومة منيعة ونظام غذائى صحى لا يمكن أن يصيبه البرد بسهولة .. وأوضح دليل على ذلك ما نلاحظه فيمن ينقهون من أمراض استلزم علاجهم منها الجوع ، فاننا نجد أن اصابتهم بنزلات البرد والالتهاب الرئوى من أيسر الامور .. فالضعف الغذائى بمثابة المفتاح للاصابة بالبرد .

وثبت علميا ايضا وبالتجربة أن من يصاب بالبرد تباعا لابد أن يكون جسمه مفتقرا الى ألوان معينة من الطعام.. ولكنها ليست الارز أو غيره من النشويات والدهنيات ، والجسم الذى تتحالف عليه هذه الانواع من الاطعمة التى تسممه، والامساك وعسر الهضم ، هو أسهل فريسة للبرد.

فعليك أن تقلل من النشويات والدهون ، وأن تكثر من الخضر والفاكهة الطازجة .. وأخيرا عليك بكل ما هو غنى بفيتامين « ج » الذى أثبت الطب انه العدو اللدود للزكام سواء للعلاج أو للوقاية .

الفصل السابع :

راقب شرابك

لا شك أن المسكرات عامل قوى له أهميته القصوى ، بوصفها آفة كبرى من آفات العصر .. وأكثر من نصف البالغين فى أمريكا لهم خبرة بالمسكرات كثيرة أو قليلة . ومن احصاء فى ذلك الصدد أن خمسين مليونا من الامريكيين ـ ذكورا واناثا ـ يتعاطون المسكرات فى المناسبات الاجتماعية ، بل وفى حياتهم العادية .. وأن أكثر من ثلاثة ملايين من الجنسين يفرطون فى الشراب ، كما أن مليونا تقريبا من الجنسين أيضا يعانون من الادمان .

وهنا تدوى صيحة الاطباء والاخصائيين الاجتماعيين بالنصح لفريقى المفرطين والمدمنين ، يوضحون فيها خطورة الآثار التى تنجم وتتخلف عن ذلك من الناحيتين الصحية والاجتماعية .

ولكن من هو المدمن .. ؟

انه ـ ولا شك ـ الشخص الذى يشرب الخمر كثيرا جدا ، وبكميات كبيرة الى الحد الذى لا يستطيع معه القيام بما عليه من واجبات والتزامات .. ولا يمكنه أداء عمله كما ينبغى ، وبحيث تتأثر صحته بالشراب تأثيرا سيئا ..

ويسوقنا ذلك الى التفكير فى كيف يصـــل المدمن الى هذه الدرجة من الانحدار والسقوط ؟ وما الذى يدفعه الى ذلك ويشـــعل فى دخيلة نفسه الفتيل لالغام قوة الهلاك والانتحار البطىء ؟ ..

ان تطور الحياة الاجتماعية فى هذا الزمن جعل الانسان لا ينظر الى المخمورين نظرة الازدراء القديمة .. ذلك لان عقلية اليوم لا تسمح بتلك الغلظة والتغـاضى فى معـاملة التعساء . ومنذ أعوام مثلا كان المصاب باختلال فى قواه العقلية يقيد بالسلاسل والحبال ويعامل معاملة المنبوذ من الهيئة الاجتماعية ، ولا يحظى بأدنى قسط من العطف فى محنته التى قدرت له .. والى عهد قريب كان مدمنو الخمر يلقون نفس هذه المعاملة على وجه التقريب .. فاذا ظفر رجال الشرطة بأحدهم وضعوه بملابسـه تحت دش من الماء البارد ، ثم راحوا يفيقونه بعلاج وحشى هو الصفع والركل .. كما كان قضاة محاكم الشرطة يحكمون عليهم بالحبس شأنهم فى ذلك شأن المجرمين سواء بسواء ، وذلك بلاشك مسلك ليس فيه من الحكمة والحصافة مثل ما فى الحكم بالسجن على مريض بالالتهاب الرئوى ! .. ذلك ان ادمان الخمر مرض مثل الالتهاب الرئوى سواء بسواء .

أما الآن وقد تقدمت الحضارة بالمجتمع ، فأصـبح ينظر الى المدمن على انه مصاب مجنى عليه ، وأنه من هذه الناحية بحاجة الى المعونة وكثير من العنـاية . لان المدمن غالبـــا شخص يلازمه الشعور بالضياع وعدم الاطمئنان والاستقرار والخيبة والتعاسة الطاغية . وهذا الشعور الذى يلازمه هو

الذى يدفعه بطريقة آلية لا شعورية نحو زجاجة الشراب •

وغنى عن القول ان الادمان انما هو فى الواقع انتحـار بطىء ، بل انه انتحار بطىء وعاجل فى وقت واحد ، وليس فى ذلك تناقض : فهو انتحار بطىء لانه يقتل أجهزة الجسم ويدفع الى النهاية •• وهو انتحار عاجل لانه يعزل السكير عن الشعور بعـــالم الواقع ، فكأنه ميت بالنســـبة لذلك العالم ••

ان ما فى الزجاجة ليس هو ما يتعلق به المدمن ، بل ان هدفه وما يسعى اليه هو نسيان الواقع والغيبـــوبة عنه والهرب من الوجود فى محيطه والاحساس به • والدليل على ذلك واضح كل الوضوح وقاطع جدا ، فانه فى اللحظة التى يدرك فيها المدمن أن الخمر لم تعد تؤثر فيه التأثير الذى يسعى اليه ، أى لم تعـد تغـيره وتبعـده عن واقع الحياة ، فانه يقدم فى هذه اللحظة على الانتحار الحقيقى ، فيشنق نفسه ، أو يلقى بنفسه تحت عجلات القطار أو فى بحر • وتدل الاحصاءات على أن خمسة فى المائة أو أكثر من بين الذين يقدمون على الانتحار يكونون من مـــدمنى الشراب •

ولا مناص من القول بأن الادمان دافع من دوافع الفنـاء الداخلية •• فالحافز الاول للسكير على سكب الخمـر فى جوفه هو الشعور بالرغبة فى افناء جسده حتى لا يشــعر به ، وفى اعتقاده ان ذلك الجسد لا أهمية لوجـــوده فى نظره بازاء انفعالاته العنيفة ومشاكله العاطفيـة ، وبازاء عجزه عن تحقيق التوازن بينه وبين ظروفه الواقعية •

والمفرط فى الشراب ، هو الذى يتناول ثمانية أو تسعة كئوس فى سهرة مرحة أربع أو خمس مرات كل اسبوع . وهو يفعل ذلك بعد الانتهاء من عمله ، وقد يحمل الى البيت مترنحا أو محمولا مرة أو بضع مرات كل شهر .

هذا هو المفرط فى الشراب الذى لم يصل بعد الى حد الادمان . وهو رغم هذا قادر على العمل ، وله بين أصحابه شهرة بالمرح وطيب المعشر وخفة الروح . وغالبية هؤلاء المفرطين فى احتساء الخمر لا ينحدرون الى الادمان ، على انه لا عاصم لهم من الانحدار على كل حال ، لان الحد الفاصل بين الدرجتين رقيق جدا ..

***

ويلحق بخطر الخمر خطر أكثر شيوعا ، ونعنى به خطر التدخين .

ومن الحقائق المسلم بها أن التدخين خطر مستمر على صحة البشر ، وقد أثبتت الاحصائيات والمشاهدات زيادة نسبة عدد المرضى من المدخنين عنهم من غير المدخنين وشدة خطورة المرض على الطائفة الاولى بالنسبة لشدتها على الطائفة الثانية .

ومما يدعو الى الاسف حقا ما لوحظ من ازدياد عدد المدخنين زيادة كبيرة ، وخاصة بدخول الجنس اللطيف فى زمرة المدخنين . وهى عادة وان كانت مرذولة بين الرجال فهى أشد دفعا للاشمئزاز بين الجنس اللطيف المفروض اتسامه بالرقة والطراوة . ولم يستفد من هذا الازدياد فى عدد المدخنين سوى الدول التى تجعل ضريبة الدخان

عنصرا أساسيا فى دخلها دون النظر الى الصحة العامة وما يجب توافره لصيانتها والمحافظة عليها .

ولا ينكر المرء أن للتدخين لذة عامة عند جميع الاجناس وفى مختلف الاجواء ، وان أردنا صدق التعبير .. ايحاء نفسي بالشعور باللذة حتى لقد أصبحت من أصول العرف الاجتماعى بالممارسة .. وأصبح المدخن الذى تنفد سجائره فى ظرف من الظروف يشعر بفقدان تلك اللـذة فينقلب حاله من هدوء الى ضيق والى توتر فى الاعصاب .. ويؤثر ذلك على جهازه العصبى أسوأ تأثير ..

وقد تكونت من زمن بعيد جمعيات لمحاربة التـدخين ، وأخذت تسدى النصائح تلو النصائح ، وتوضح مضـــار التدخين من النواحي الصحية والمادية والاجتماعية ، وتنشر الجرائد فى كافة أنحاء العالم بين يوم وآخر تقارير طبية من أعلام الطب فى العالم ، بعد ابحاث سنين طويلة ، عن أخطار التدخين وما ينجم عنه من اصابات بأمراض خبيثة تهدد حياة ملايين من البشر ، ورغم نصـائح الجمعيـــات وصيحات أعلام الطب وعدد المدخنين لا يقـل ، ولا يقف عند حد ، بل يزداد يوما بعد يوم .. الامر الذى يتحتم معه الوصـــول الى علاج فعـــال يقضى ، أو على الاقل يحد من ذلك الخطر الجاثم على نفوس الملايين من فئة المدخنـين من البشر .

ولعله قد حان الوقت الذى يجب أن ننظر فيه الى هـذه المشكلة فى ضوء علم الحياة وعلم وظائف الاعضــــاء وعلم الصحة العامة ، ومن المرجح أن الوراثة خلال عشرة أجيال

من الادمان قد نقلت الى الجيل الحاضر شيئا من الاحتمال لاضرار التدخين وأخطاره ، ونكاد نقول شيئا من المناعة ضد آثار « النيكوتين » •

واذا وضعنا نصب أعيننا أن الامهات الشابات يدخن اليوم كما يدخن ازواجهن ، فمن المحتمل جدا أن يرث الجيل المقبل عن كلا الوالدين حصانة أشد ضد مضار التدخين ، ومع تعاقب الاجيال سيأخذ ذلك الخطر فى القلة والتناقص ، وقد يزول تماما ••

وتعالت صيحات أعلام الطب فى العالم بأن الافراط فى التدخين قد يساعد على نشوء أورام سرطانية فى الرئة ، على أن الرأى الراجح أن الاستعدادات الفردية لها أثر كبير فى هذه الحالات ، وأن هناك بنية تحتمل مائة سيجارة ، واخرى تضر بها خمس سجاير •

اذا تكيفت البنية وأجهزتها الداخلية مع « النيكوتين » لطول عهد الشخص بالتدخين وابتلاع دخان التبغ ،أصبح « النيكوتين » لازما لسلامة البنية ونشاط خلاياها وأعضائها ، والامتناع المفاجىء عنه يحرمها من عنصر أصبح أساسيا فى تغذيتها وتنشيطها • وقد لاحظ أحد الباحثين ذلك ، ولا سيما على المسنين ، فقال : « ان حرمان العجائز من التدخين بعد طول الأدمان يفقدهم التوازن تماما ، وأعتقد ان ذلك يحدث أيضا فى جميع الاعمار ما عدا صغار السن جدا » •

وتميل وجهة نظر الطب الباطنى الى أنه لا بأس من التدخين المعتدل لمن أدمنوا ، الا اذا اقتضى التشخيص

الطبي تحريم التدخين اطلاقا على ضوء ما قد يترتب عليه من مضاعفات وآثار ..

على انه عند النظر الى المسألة من الوجهة النفسية ، نجد أن التدخين متعة اجتماعية وعصبية تكسب المدخن الارتياح وتوازن الاعصاب ، أى انها عنصر هام للترويح عن النفس .

ولا يذهبن بك الظن أن ذلك دفاع عن التدخين ، فعدم التدخين أفضل قطعا منه . ولكنه مجرد موازنة بين عدم التدخين وما يحدثه من ضيق واختلال فى المزاج وفى النشاط الحيوى ، وبين التدخين باعتدال .. والشعور مع كل سيجارة بطعم خاص للحياة لا يتوافر فيها بدونها . وبديهى ان العاقل من يختار أهون الضررين . ولعل من الطريف ايراد مثل عن ذلك « سيجار ونستون تشرشل » والتساؤل عن مدى فائدته ، وفائدة بلاده لو أنه أبطل هذا السيجار وخمدت شعلة نشاطه الذهني واقباله على التفكير والعمل الجبار .

ولعل من الضرورى اسداء النصح بالتحذير من التدخين المتواصل ، فلا يخفى ما فى ذلك من اجهاد وارهاق للجهاز التنفسى مما يعود باضرار جسيمة وخطيرة على كافة أعضاء الجسم .. لذلك يجب أن تكون هناك فترة معقولة بين كل سيجارة وأخرى .

ومما هو جدير بالذكر أيضا ، وجوب تجنب التدخين أثناء السير .. فيكفى ما يبذله الجسم من مجهود فى ذلك ، والتدخين فى هذه الحالة يضع عقبات لها أسوأ التأثير على الجهاز التنفسى .

وكذلك يستحسن استعمال الافمام والغلايين مع العناية بتنظيفها يوميا بالكحول لازالة ما يتخلف فيها من « نيكوتين » ومن الصواب أيضا عدم ترك السيجارة فى الفم طول مدة اشتعالها بل يكون تدخينها فى انفاس متباعدة ، لفتح المجال للهواء النقى بالنفاذ الى الرئتين ٠

والافضل كثيرا عدم بلع أنفاس التبغ ، فان أخطار ذلك تفوق حد الوصف ويصعب تداركها ان لم يتعذر ذلك ٠

وقد ثبت أن للتدخين أثرا سيئا جدا على العينين ، لذلك يجب التحذير واسداء النصح بالاقلال من التدخين عندما تكون جالسا فى عملك ، لان الانسان فى هذه الحالة يكون حانى الرأس ٠

ومما يستحق التنويه ، الاقلاع عن عادة التدخين فى الليل ، وكذلك على الريق قبل الافطار ، وأيضاً مدة النصف الساعة التى تسبق كل وجبة طعام ، مع بذل كل جهد لكى يكون معظم التدخين بعد الظهيرة ، وأن يكون أقله فى فترة الضحى ، ثم فى المساء ٠

وأخيرا يستحسن أن يكون « الطباق » الذى يدخن من نوع جيد نقى ، وتفضل الانواع ذات المرشح ٠ ولا يحسن تدخين أنواع لم يتعودها الانسان ، حتى لا يختل المزاج ، ولا تضطرب الانسجة بتغيير مألوفها ٠٠ كما يستحسن استعمال مطهرات للحلق لمنع تراكم المخاط الاصفر على أغشيته ٠

واذا كان الحريص على استدامة شبابه مكلفا بمراقبة طعامه وشرابه « وطباقه » ، أفليس مطالبا ايضا بالاقتصاد فى عواطفه ومراقبة قلبه ، وفراشه ؟

هذا هو موضوع الصفحات التالية

لا تكف عن الحب!

ـ أنا أحب ، اذن فأنا أحيا ! ..

هذه الحكمة البديعة التى قالها « هاينى » الشاعر الالمانى ، محب الحياة والجمال ، يجب أن تكون نصب أعيننا اذا كنا حريصين حقا على الشعور بالشباب طول حياتنا .

لا تكف عن الحب مهما كانت سنك ، فبذلك تلغى تأثير السن على حياتك .

الحب ومعنى الحياة توأمان ، لان الانسان منذ أن فطن الى كنه الحياة ومعناها السامى فطن أيضا الى الحب والى معناه .. بل قل شعر بالحب ..

والحب من أسمى العواطف وأهمها وأعظمها أثرا فى حياة البشر .. وكل ما من شأنه الحد منه ، أو الوقوف فى طريقه ، انما هو نظام فاسد يعرقل حركة التطور نحو الارتقاء ..

وبلغ من شأن الحب أن صيغت فيه آلاف من قصائد الشعراء ، ودارت فى محوره مسرحيات الادباء وقصص المؤلفين فى جميع بلدان العالم ومجتمعاته . ورغم كل ذلك

فاننا نلاحظ أن كثيرا من علماء الاجتماع لا يولونه الاهمية التى تتناسب مع قيمته وأثره فى الحياة ، بل يتجاهلونه ولا يعتبرونه من الاسس الحيوية لدعم حركة الاصلاح والارتقاء ، مثل أى برامج أو نظم أخرى سياسية كانت أو اقتصادية .

والتعبير الصحيح لكلمة الحب لا يعنى العلاقة بين الرجل والمرأة ، ولكنه يحمل بين طياته عاطفة قد تدخل فى نطاقها هذه العلاقة .. ويمكننى أن أقول دون تحرج أن ازدهار الحب فى بعض المجتمعات ، وعدم ازدهاره فى البعض الآخر مرجعه الى تباين فى التقاليد أو العادات الموروثة أو التعاليم المختلفة . أو قد يكون مرجعه الى عدم أو سوء فهمها ، أو سوء فهم الحب ذاته .. ولكنه لا يرجع بحال من الاحوال الى اختلاف فى طبيعة البشر . ولهذا فاننى لا أهضم ذلك العداء القديم الراسخ بين الدين والحب ، والذى لا يزال أثره متأصلا فى بعض النفوس ، ولا أجد له ما يبرره .

وقد ظهر عامل جديد فى العصر الحديث وقف موقف المنافس اللدود للحب ، وأعنى به المال .. فأمسك الناس بتلابيب ذلك المنافس ، وجعلوا كل همهم واهتمامهم منصبا على جمع أكبر قسط منه ، ولو ضحوا فى سبيل ذلك بالحب . ومما لا شك فيه أن التوفيق والنجاح فى اى عمل من الاعمال أمر يرغب فيه كل فرد ويسعى الى تحقيقه ، بيد انه يجب ألا يسرف الانسان فى أى أمر من الامور ، ولو كان هذا الامر هو عمله .. تماما مثله يجب

الا يتهاون فيه أو يهمل أو يقصر ، بل ان الطريق القويم هو أن يسلك مسلكا عادلا وسطا ، فيولى عمله ما يقتضيه منه من رعاية واهتمـــام وحســـن أداء ، كما يولى أموره الحيوية الاخرى ما هي جديرة به من رعاية وعناية • وكما انه من سوء التقدير أن يضحى الانســـان بمستقبله في سبيل الحب ، فانه من الحماقة كذلك التضحية بالحب في سبيل المستقبل •

وقد تعد التضحية من النوع الاول ضربا أو لونا من ألوان البطولة في بعض الاحيان • ولكنّ التضحية من النوع الثاني لا يمكن أن تعتبر بطولة على الاطـلاق • على أننـا نشاهد كثيرا ــ مع الاسف ــ أن المجتمع في العصر الحالى تغلب عليه نزعة التضحية بالحب ، لانه مجتمـع مادى ، يتكالب في سبيل الحصول على المال •

فكل شاب ينهى مرحلة دراســـته ويلج باب معترك الحياة ، يجند أفكاره ونشاطه ومواهبه لتحقيق هدف واحد ــ ولا شيء غيره ــ هو احراز النجاح المادى والحصول على أكبر قسط مســتطاع من المال • وهو في غمرة هـــذا الشعور ، يعتبر كل شيء عدا ذلك ضربا من ضروب اللهو أو العبث لا يوليه أهمية أو حتى التفاتا . واذا ما تأصلت فيه الشهوة الى المادة وأصبح عبدا لبريق المال ، فاننـــا نراه عندما يبنى ويتزوج وقد صار في واد وزوجته في واد آخر لا يكاد يشعر بها أو بما تعانيه ، لانه يعـود الى بيته وقد نال منه الاعياء بعد أن يكون قد قضى نهاره كله وشطرا كبيرا من ليله خارج البيت مندمجا ومنهمكا في أعماله ، فيدفعه الاعياء الى التماس النوم طلبا لشيء من الراحة ،

فلا يولى بيته وزوجته وأطفاله ولو قسطا يسيرا من الرعاية والعطف والحنان .

وقد يستقيظ مبكرا فلا يرى زوجته أو أطفاله ويخرج حثيثا سعيا وراء هدفه .. حتى فى أيام عطلته يخرج من البيت ليمارس نوعا من الرياضة التى يراها ضرورية لتجديد نشاطه الذى يحتاج اليه فى معركته لكسب المال وجمعه • وانه ، وهو غارق فى خضم حياته ، لا يعير زوجته أى اهتمام ، وتبدو رغائبها فى نظره من التوافه ولا يكلف نفسه عناء مشاركتها فى حديث أو التفاهم فى شأن من شئون البيت والاولاد .

ومما لا شك فيه أن النتيجة الحتمية لذلك أن يفتر حب زوجته له ، وقد يتطور الامر فينقلب الحب الى عداء وبغضاء • ويستشعر هو فى قرارة نفسه بأسى خفى لا يدرى كنهه أو مصدره ــ لانه لاه بما هو مستغرق فيه ــ فيدفعه ذلك الى مضاعفة الاستغراق فى عمله • وهنا تصل العلاقة بينه وبين زوجته الى الحد الذى يتعذر فيه، بل يستحيل! ، الابقاء على رابطة الزوجية لانه تجاهل الصلات الطبيعية لهذه الرابطة المقدسة ، فينتهى الامر فى أغلب الاحيان الى انفصال أو طلاق • وعندئذ يتصدع البيت وتكون الضحية الكبرى هى الاولاد الابرياء . وكل يوم يطالعنا بمئات من هذه المآسى نراها على مسرح الحياة •

وهناك تقاليد قديمة دأبت على تشويه الحب فى نظرنا ، فاعمت بصائرنا عن تذوق النواحى السامية التى تكمن فيه بوصفه الوسيلة المثلى لتبديد الشعور بالوحشة الذى

ينتابنا فى أحيان كثيرة ، وباعتباره العامل الذى يقضى على بذور الخوف الرابضة فى نفوسنا من تقلبــات الحيـاة ومفاجآتها ، فيتحول الانســان الى كائن حى من نوع آخر يستشعر ما حوله من جمال ويتطلع الى المســتقبل بعـين التفاؤل والثقة .

ولم يقل أحد أن الكائنات البشرية خلقت لتعيش وحدها والرجل لا يستطيع أن يحقق رسالته البيولوجية فى الحياة بغـير امـرأة .. كذلك الامـر بالنسـبة للمـرأة ، فهى لا تستطيع بغير الرجل أن تحقق هـذه الرســالة . ومن الحقائق المسلم بها والتى لا تحتاج الى ايضاح أو برهان ، ان الانسان المتمدن لا يمكن اشباع غريزته الجنسية اشباعا حقيقيا صـحيحا بغير حب ، وذلك لسبب ســيكولوجى جوهرى ، هو أن الغريزة لا يمكن اشــباعها حقا الا حين يندمج الرجل والمرأة بكل كيانهما ــ ذهنيا وجسديا ــ فى هذه العلاقة . واولئك الذين لم يقدر لهم أن يتذوقوا متعة الامتزاج الروحى الوجدانى العميق ، والاندماج الـكلى والانسجام النفسى الذى هو مظهر من مظـاهر الحب المتبادل ، قد حرموا فى الواقع من أمتع ماأعدته الحيـاه للانسـان ، وهم ــ عن طريق حاسة اللاشعور الكامنة فى أعماقهم ــ يدركون هذه الحقيقة فيتملكهم اليأس وتتلظى نفوسهم بالحسرة . وقد يدفعهم اليأس الى الحقد والحسد والقسوة والميل الى اضطهاد الغير .

وعلى ضوء هذه المآسى والانفعـالات ، اتجهت الدوائر العلمية الى تهيئة الطريق لفهم الحب الصـحيح ، وجعله

أمرا ينبغى أن يعنى به الآباء والامهات والمربون وعلماء الاجتماع ، وأخذ كثير من هذه الدوائر فى تلقين النشيء المعانى السامية للحب ، بعد أن أصبح واضحا أنه بغير ذلك يتعذر تنشئة جيل من الشبيبة تنطوى احساساتهم ومشاعرهم نحو غيرهم على ذلك الشعور الجميل النبيل الفياض الذى يحول دون اتجاه نشاطهم نحو الانحراف .

فمن واجبنا أن نعمل استطاعتنا لاستئصال الاحساس بالاثم والحرج الذى تقرنه التقاليد الجامدة بالحب والحياة الجنسية .. حتى بعد الزواج ، والذى يكون سببا لكثير من الاضطرابات العاطفية والنفسية .

ويخطىء من يظن أن العزلة والانطواء على النفس يحفظان للمرء كرامته وشخصيته . وهذا فى الواقع عقبة سيكولوجية تقف فى وجه الحب ، لان الشخصية ليست هدفا لذاتها ، ولكنها فى الحقيقة وسيلة لتمهيد الاتصال بالناس . والشخصية التى تسجن تذبل وتضعف ، بينما الشخصية المنطلقة فى الاتصال بالغير تزداد قوة وقدرة .

ولا يمكن انكار أن الحب ضرورة لاشباع غريزة الحب الابوى ، واننا نشاهد فى أغلب الاحيان أن الاطفال يجمعون بين صفات الاب وصفات الام .. فاذا انعدم الحب بين الابوين ،فنتيجة ذلك أن كلا منهما يحب فى أولاده الصفات التى تمثله ، ويكره فيهم الصفات الاخرى ، ومن هنا يتغير الحب الابوى ، الذى نعتبره من أهم العوامل التى تدفع الفرد الى حب الحياة ومتعة النفس ، فينقلب ذلك الحب الى مصدر للالم والشقاء .

يجب أن يسود الحب الحياة ، بل يجب أن تتشبع به .. وأعتقد انه من السهل جدا علينا أن ننظر الى العمل الذى لا ينطوى على لون من ألوان الحب لاشخاص أو أشياء، أو حتى أهداف .. من السهل جدا أن نرى فيه المعول الذى يهدم بناء المجتمع ويحطم أعصاب القائمين به ، فاذا هم آلات صماء تعمل تباعا ، بلا تفكير وبلا انسانية ، وأين الانسانية فى الوقت الذى لا هدف لهم سوى المادة والانتقام من الناس والتنكيل بهم .

وهنا يمكننا أن نتساءل عن أهمية الحب ، وعن قيمته وأثره فى حياة الانسان .. ان هذه القيمة لو كان هدفها مجرد الامتلاك فهى لا شك عبث لا طائل من ورائه ، ذلك لان الحب بمعناه السامى هو المشاركة فى الميول والرغائب، وشعور المحب واحساسه بأن ذات المحبوب لا تقل فى التفانى . ولكن لشد ما يحز فى النفس أن المجتمع وقد غرق فى دوامة من الصراع والتطاحن ، لم يعد تربة صالحة خصبة لمثل هذا اللون من الحب ، لان التناحر والتنافس طغيا على العواطف الانسانية حتى كادت أن تختنق وتزول.

واننا لنرى ، فى الوقت نفسه ، أن معيار القيم الخلقية لم يعد ذا أثر فعال بالنسبة لحياة الناس . وانى أميل الى الاعتقاد بأن هذا أحد أسباب نضوب الحب على مفهومه الصحيح .. فقد أصبح الاتصال الجنسى أمرا يمارسه الناس تحت تأثير أى دافع ، وبأية وسيلة .. حتى تحول الى عمل آلى خال من العاطفة ، بل أكثر دفعا الى الكراهية والشعور بالاشمئزاز .

وهناك لـون من ألوان الحب بلغ الذروة فى السـمو والتعالى ، هو الحب العذرى .. وقد سـمى بذلك لانه لا غاية له ، وهو عاطفة من أقدم العواطف الانسانية ولكنه نادر الانتشار ..

وجوهر ذلك الحب اعتبار الحبيبة شيئا مقدسا ساميا ، لا يصح أن تصل اليه يد العاشق الولهان .. فهو لا يفكر فى أن يطمع فى وصال ، وليس له فيه مطمع ، بل يقنـع بما يبذل لاستمالة قلب الحبيبة وكسبه من جهود مضنية شاقة ، منها نظم القصائد والعزف على القيثار ، ومنها ما هو أصعب مراسا كاظهار البراعة فى النضال أو القتال والتفوق على المنافسين والاقران .

واكاد اعتقد ان تعذر منال المحبوبة ، هو العلة النفسية الوحيدة التى تدفع المحب المدله الى الاعتقاد فى سـموها واحاطتها بهالة من التقديس والتوقير ، وانه لو وجد منفذا اليها وكان فى مقدوره أن ينال المحبوبة ، لانتفت صـفة العذرية أو الشاعرية من حبه . وقد شاع هذا اللون من الحب فى العصور الوسـطى ، وكان موجها الى نسـاء مرموقات من الطبقـة العليـا ذات السـلطان والمكانة الاجتماعية ، ولا يستطيع العاشق أن يتصل بهن اتصـالا جنسيا مشروعا أو غير مشروع لفارق المركز الاجتماعى .. بالاضافة الى ماكان للكنيسـة من نفوذ كبير وتأثير هائل يغرس فى النفس أن الاتصال الجنسى من الامور الشـائنة المستهجنة . ولذلك أصبح الشـعور الجميل بالحب غير مسـتطاع الا على نمط هذا اللون من الحب وهو الحب العذرى .

ومن الصعب أن نصف أو نصـــور الحالة النفســية لشـــعراء الغرام والغزل فى القرون الوسطى ، فقد كان الشـــاعر منهم يتدله فى حب فاتنته ٠٠ ولكنه رغم ذلك لا يطمع فى الاقتراب منها على أية سورة من الصور . وقد يظن أن مثل ذلك الحب ان هو الا تقليد من تقاليد الآداب فى ذلك الزمن ، بيد انه كانت هناك حالات كان الحب فيها جارفا وصادقا بدرجة لا يتصورها العقل ٠

ومما ساعد أيضا على انتشار ذلك اللون من الحب أن أهل تلك العصور كانوا يرون الحياة الدنيا لا قيمة لهـا ، وان الغرائز الدنيوية ان هى الا نتاج الخطيئة والفســاد ٠ ومن هنا نبتت كراهيتهم للجســـد ورغائبه ، وكان مثلهم الاعلى للسعادة هو الوصول الى حالة من النشوة الروحانية التى لا تشوبها شائبة من شوائب الجسد ولذائذه ٠ فاذا وقع أحدهم فى حب امرأة ، فلا يسمح لنفسه بأن يتصور اتصاله بها جنسيا ، لان كل ماهو جنسى فهو فى نظـره وتقديره دنس ٠ وعلى هذا لا يجد أمامه سوى اتجاه واحد لا مناص له منه ، هو الحب العذرى الشاعرى المبنى على الخيال ٠

ودار الزمن ، وتعاقبت العصور ، ثم بزغ فجر النهضة ٠٠ وبدأت الحضارة القديمة تستعيد سلطانها وسطوتها ، فانسلخت عن الحب صـــبغته الافلاطونية ، وان بقيت له صورته الشعرية الشــاعرية ، ولكنها شـــاعرية صريحة تستهدف الفوز بالمحبوبة والتمتع بوصالها ٠

وحين سهل منال المرأة ، انتهت الحاجة الى الاسلوب الشعرى فى الغزل ، وتفتق ذهن الرجال عن وسائل أخرى

لاقتناص قلوب النســـاء .. على ان سهولة منال المحبوبة في العصر الحاضر كان لها أثر عكسى سيىء فى الشعر والفن والموسيقى »

وانى أرى لكى تعود هذه الفنون الى ازدهار ، يجب أن تكون المرأة عسيرة المنال من غير استحالة تورث اليأس .. وهذا هو ما حدث فعلا بعد عصر النهضة ، لان المرأة ـ تحت وطأة قيود التقاليد ـ كانت تمارس نوعا من التمنع وعـدم الاستسلام بسهولة لمن يسعى الى التقرب منها .

وارتفعت شاعرية الحب الى ذروتهـا العليـــا فى العصر الرومانى ، ذلك العصر الذى يمكن فيه أن نعتبر الشـــاعر « شيللى » لسانه المعبر وحامل لوائه ، فانه حينما كان قلبه يخفق بالحب كان يصب عواطفه كلها فى قصيدة شـــعرية رائعة ، ذلك لان محبوبته كانت تضن عليه بالوصـــال . وكانت هناك محبوبة تعسة ، لو انها لم تحمــــل الى الدير قسرا كى يحال بينها وبين حبيبها الشاعر ، لما ظفـر الادب بتلك الروائع من أشعار الغزل التى أبدعها ذلك الشاعر .

وما أن خمدت نيران الثورة الفرنسية ، حتى تفشت فى اوربا وأمريكا موجه فكرية تنادى بأنه يجب أن يســـبق الزواج حب عذرى ، فلا يقوم على أســـاس من التقاليد أو الاتفاق بين أسرتين دون نظر الى عواطف العروسين . بيد أن التجربة أثبتت فشل كثير من زيجات الحب العـذرى ، وكان السبب فى ذلك كان يصور للعروسين انهما سيعيشان فى نشوة دائمة ، ثم لا يلبثان أن يصطدما بوقائع ودقائق الحياة الزوجية ، وما يكتنف الاتصال الجنسى من حالات

توافق أو تنافر ، فتتبدد تلك الصورة الخيالية وتتبخر ، وتعقبها صدمة شديدة ، ممعنة فى الشدة ، خصوصا لدى المرأة التى لم يدخل ضمن معلوماتهـا شىء عن الجنس أو النفور منه ٠

واذا كان هذا مبلغ ضخامة الدور الذى يؤديه الحب فى حياة الناس وسعادتهم وحيويتهم ، فان دوره فى استدامة الشباب أجل وأعظم ٠

لنتذكر أن « جوتة » عشق بعد أن تجاوز الثمانين ونظم أعظم غزلياته فى تلك الســـن ، وأن « توماس هاردى » عشق بعد السبعين ، ونظم ديوانا متدفقا بالحرارة فى تلك السن ٠٠ وان الانقطـــاع عن الحب : حب المرأة ، وحب الجمال الفنى ، أو حب الابناء ، أو حب الحقيقة والعدل ، هو الشيخوخة فى أبشع صورها ٠٠ فلنحب دائما ، ولا ننقطع عن الحب ، لنبقى أحياء فى نضرة الشباب الزاهر !

الفصل الثامن :

قاوم الشعور بالنقص

لا يتأتى للانسان ، رجلا كان أو امرأة ، أن يبدو فى أحسن حالاته الممكنة ظاهرا وباطنا الا اذا قاوم الشعور بالنقص .. وهو أكبر آفة تواجه الانسان العصرى ، لان له ذيولا كثيرة من الحسد والتناظر .. وهما علامتان من أكبر علامات الزمن .

والشعور بالنقص يتعلق بالسلوك من حيث عدم الثقة بالنفس أو ثبوط الهمة والخنوع ، والاحساس بعدم القدرة على النجاح .

ويرى أحد الباحثين فى الامراض النفسية ان الشعور بالنقص انما هو استعداد كامن لدى أى انسان ، مهما اختلفت الظروف التى تتصل بنموه أو تقدمه . ولا يمكن القول بأنه شعور مرتبط بالغريزة الجنسية ، بل من الجائز جدا أن ينجم عن تعثر الطفل فى الكلام ، أو عن ضعف يعترى العضلات ، وقد يجىء نتيجة لتخلفه فى مادة الحساب أو الهجاء . ومن المرجح أن ينقلب هذا الشعور الى عقدة اذا أحس بسخرية الغير ، فيصبح بمرور الايام فريسة فكرة تسيطر على ذهنه ، هى أنه عاجز عن مجابهة

المواقف التي تكشف عن نقصه ٠٠ مما يؤدى به فى النهاية الى أن يلوذ بالوحدة والانعزال عن رفاقه ، بل عن المجتمع حتى يتجنب كشف نقصه للناس ٠

ومن هنا يتولد الخوف لدى المصاب بالشعور بالنقص. ذلك الخوف الذى يفرض عليه العزلة والانسحاب بدلا من المجابهة والتقدم ، فيكون طابع سلوكه التهرب من المشاكل ٠٠

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر أن المصابين بعقدة النقص رجالا كانوا أم نساء ، يستشعرون الحسرة لان زمن طفولتهم ولى ٠٠ وهم لذلك يفضلون أن يعيشوا فى أقرب جو نفسى الى مرحلة الطفولة ٠ والسر فى ذلك أن تلك المرحلة هى مرحلة عدم المسئولية والكفاح ، فالطفل معفى من أى أعباء مكتفيا برعاية الوالدين ٠

ومن الظواهر التى تلفت النظر تزعزع العزيمة وبلبلة الذهن ، ومن أعراض هذه الظواهر ان الانسان لا يستقر ولا يثبت عند غاية أو هدف لانه ليس على ثقة من قدرته على الوصول الى هدف يتمناه ، فيعود بنفسه الى الوراء نحو هدف آخر يظن انه أقل عناء وأيسر منالا ٠

والمسئولية والواقع صنوان ، فمن يهرب من المسئولية يهرب من الواقع ٠٠ والهروب من الواقع يكون غالبا عن طريق المخدرات أو الخمور أو القمار ، وكذلك عن طريق أحلام اليقظة ٠٠

وقد يحاول بعضهم اخفاء شعوره بالعجز والنقص بطريقة عكسية ، وذلك باتخاذ خطة الهجوم للتظاهر بالقدرة لاخفاء ما يمكن فى داخلهم من ضعف ٠٠ والتحدى

هو شعار هؤلاء البعض ، لانهم يعلمون سلفا انهم دائما تحت شبهة الخوف والهروب .

ومما يبعث على الارتياح ، أن الحالات المتطرفة من حالات الشعور بالنقص ليست شائعة .. وانما الشائع بين غالبية الناس هو مجرد احساس عادى ليس ذا بال بالضعف البشرى والقدرة المحدودة . ولا يخلو انسان من هذا الشعور فى أى وقت من الاوقات ، لان الانسان ضئيل صغير والعالم ضخم كبير،وشعورنابالصغر والضآلة نزن فى محيطه وتحت تأثيره حركاتنا وأهدافنا فتلزم حدودا معينة معقولة . ولا يخفى أن تفتق الذهن والسير نحو التقدم بالتفنن والابتكار ليس الا نتيجة بنائية لشعورنا بما ينقصنا من قوة وقدرة .

وانى لارى أن فى هذا الشعور خيراً وفيرا ، ولا ضرر منه اطلاقا لانه شعور طبيعى .. ولكن الضرر ينشأ حين يستفحل الاحساس بالنقص ، فان النتيجة الحتمية لذلك أن يشل التفكير ويطيح بالملكات النفسية والذهنية فيكون أداة تعطيل وتثبيط .

***

ولا نبيح لانفسنا أن نعتبر الشعور بالنقص فى الحدود البسيطة مرضا .. بل أن أقرب تعبير الى تسميته وأكثر انصافا انه « صفة تلازم الانسان فى جميع المراحل وفى كل العصور » . بيد انه قد فشت فى العصر الحاضر نسبة هائلة من الحالات المرضية الناجمة عن التطرف فى الشعور بالنقص ، فهو بذلك قد أصبح وباء عصرنا النفسى ، فكيف نعلل هذه الظاهرة فى هذا العصر بالذات ؟!

ان مرجع ذلك ولا شك الى الظروف الخاصـــة بالعصر الذى تعيش فيه • ويقرر الباحثـــون والكتاب أن عـدم نضوج الرجال والنساء نفســـيا ، هو الســبب الحقيقى لنصف أمراض عصرنا النفسية •• حيث لم تنشأ لديهم فى الوقت الملائم القدرة على العمل المســـتقل • ولهـذا يشـــعرون دائما برغبتهم فى التبعية ، وبحاجتهم الى من يقودهم كما تقاد القطعان . ان هذا هو التعليل الذى يجاهر به العلماء لقيام ديكتاتوريات فى كثير من أنحاء العالم فى هذا العصر الديمقراطى ، الذى صارت فيه العلوم والحرية الشخصية شيئا عاما بين الناس كالهواء والنور •

وهناك حقيقة لا يمكن اغفالها ، هى أن البلوغ الجسدى لم يصاحبه بلوغ عقلى أو عاطفى ، بل لازمة حنـين وتحسر على انقضاء الطفولة عديمة المسئولية ، لان الاعباء كلها كانت على الآباء والامهات • ولهذا شاعت وفشت بين أبناء الجيل الحاضر كثير من أعراض التحلل من المسئولية أو التنكر لها •• ويدخل فى دائرة ذلك ، اللهو والاســتهتار وارتفـــاع نسبة الطلاق وكثرة اللقطاء والامهات غير المتزوجات •

ومن الظواهر الدالة على طفولة رجال عصرنا ونســـائه ، ذلك الميل الغريب لمشاهد الحروب على الشــاشة ، والولع بحلقات الملاكمة • ويكمن وراء ذلك كله سر بالغ الخطورة ، يتيح لتجار الدمار والحروب استغلال هذه الميول الشــاذة لخلق شعور عدائى وطاقات عـدوانية لتحقيـق المطامع من وراء الحروب •• وهذه ولا شك وصمة فى جبين المدنية •

***

ولكى يتسم النشاط لدى الانسان بالتوقد والذكاء يجب

أن يكون للحركة هدف ظاهر ، سواء أكان هذا الهدف خيرا أم شرا . أما السلوك الباهت الذى تغلب عليه نزعة الاستهتار ، فهو نشاط ليست له غاية معينة أو هدف مقصود .. وانما هو مجرد الافصاح عن قلق أو عدم استقرار داخلى أو اطمئنان الى البيئة . وعدم الاستقرار الداخلى معناه أن الشخص غير مرتاح أو راض عن جهده ، بل يحس انه ينبغى عليه أن يبذل مزيدا من النشاط . وهذا ولا شك نتيجة طبيعية للشعور بالنقص أو التخلف ، على أنه لا يدرى على وجه التحديد ماذا يفعل .. ولما كان الاحساس الداخلى يدأب دائما على حفزه للحركة ، لذلك نراه كى يتخلص من الحرج الذى يلم به، ينشط فى الاتيان بحركات ليس لها معنى أو هدف أو فائدة .

والارق مظهر آخر من مظاهر عدم الاستقرار الداخلى الناجم عن الشعور بالنقص والتخلف ، فيوعز الضمير الى الانسان انه لا يستحق أن ينام لانه كان خاملا ولم يبذل قدرا كبيرا من الجهود ، وانه مايزال أمامه قسط من العمل لا يجدر به أن ينام دون أن يتمه . ولكنه فى نفس الوقت لا يدرك على وجه التحديد ماذا يجب أن يعمل .. ونتيجة ذلك أنه يظل مستيقظا من غير نتيجة ، اللهم الا ارهاق أعصابه بمحاولة النعاس عبثا .

***

وتلازم المصاب بالشعور بالنقص الحساسية المرهفة ، والشعور بالهوان الشخصى .. ولكن هذه حالة غير طبيعية وتنشأ ، فى الغالب ، لدى الاشخاص الذين عاشوا طفولتهم فى جو من الشعور الشديد بالاثم أو فى جو من الكراهية

الشديدة والغبن والاســـتهانة ، فانه عنـد ذلك يتأصـل الاحساس بالهوان ثم يرسب فى اللاشـــعور ويتحكم فى اتجاهات التفكير ، ويبدو لونه وكأنه مرآة انعكس عليها كل اتصال بينه وبين الناس •

وقد يستتر الشعور بالهوان ،فلا يظهـر فى صـــورة حساسية مرهفة •• بل يتقمص لباسا آخر فى شكل ملل دائم ، وعدم تذوق أى لذة بشيء مما يحيط بالشخص سواء فى عمله أو بيته أو لهوه •• فتبدو له الامور والاشـــياء وقد فقدت طعمها ، ويتسم الشخص بصـــفة المستهتر غير المكترث .

ويبدو الانسان فى أحيان أخرى متقلب الاحوال ، تنتابه نوبات من الثرثرة أو من الصمت العميق ، ويقترن الصمت بشبوط الهمـة والوجـــوم والتشاؤم • أما نوبات الثرثرة فيصحبها التهلل والمرح الصاخب .

وقد يتجه الشعور بالنقص اتجـاها خطيرا لدى من يتخذون مسلكا عكسيا ، بمعنى انهم يتعدون اشخاصهم •• وبدلا من الحط من قدر أنفسهم والاحســـاس بهوانهم ، يخرجون عن هذه الدائرة ويختطون تحقير الغير والتهوين من شأن المجتمع ومن فيه ومافيه . فتنمو لدى هؤلاء ملكات التهكم اللاذع ، والقدرة على التشكيك فى القيم ، والدعوة الى نقد البناء الاجتمـاعى كله •• ولا يكتفـــون بذلك بل ويذهبون بعيدا فلا يتورعون عن المجاهرة بالـــكفران . والواقع أن هؤلاء الاشخاص لا يصبون نقمتهم على المجتمع الا لشعورهم بحقارة قدرهم وهوان شأنهم فيه ، فيتمنون

له الخراب ٠٠ ولو أنهم فطنوا أو شعروا بانتمائهم الى هذا المجتمع ، وانتمائه هو اليهم ، لكان أحرى بهم الا يتهكموا أو يتسامحوا من المتهكمين ٠

ولا يفهم من ذلك اننا من أعداء النقد الاجتماعى ، فان النقد ضرورى لتصحيح الاخطاء والاوضاع المقلوبة واكتشاف الحقائق ٠٠ ويجب أن نفرق بين النقد البناء والنقد الهدام ٠ فالنقد الهدام هو ما ينجم عن الشعور بالنقص شعورا مرضيا ، وفى هذا أعظم الخطر على مستقبل الحضارة بعد أن ظهرت بوادره فى موجات الاستهتار الاجتماعى والانحلال الخلقى بسبب تلاشى الاحساس بالقيمة الذاتية ٠٠ أى الكرامة والمسئولية ٠

على أن هناك أنواعا من الشعور بالنقص أعراضها ليست على درجة من الخطورة ، وانما هى مجرد جنوح الى التعويض الذى لا ضرر منه ، واننا لنلاحظ أن الرجل القصير القامة يجتهد ان يظهر بمظهر الخيلاء وانتفاخ الاوداج ، وبالنسبة للمرأة القصيرة فان الامر أيسر اذ انها تجد الحل فى الحذاء ذى الكعب العالى ٠

واذا سمعنا شخصا يتحدث بلهجة التعالى أو التعاظم ، مع انه فى مركز عادى جدا غير مرموق ، فلنعلم على الفور أنه يعانى شعورا بالنقص من الناحية العلمية أو المكانة أو النسب .. او أن ظروفه العائلية ليست طبيعية ، كأن تسيطر عليه زوجته وتذله وتتحكم فى شئونه ٠ وكذلك من يكون جاهلا بدقائق العلوم ومصطلحاتها ، ومع ذلك يقحم فى أحاديثه ألفاظا ومصطلحات علمية فى غير مواضعها أو فى غير ضرورة ، أو يتخلل أحاديثه تعبيرات أجنبية لاتمت

لمقصود حديثه بسبب ، فهذا الرجل يستشعر فى قرارة نفسه انه مطعون فى ثقافته ٠

ومما لا شك فيه أن المبالغة فى التأنق سواء عنه الرجل أو المرأة انما هو لون من ألوان المبالغة فى حب الظهور ، ومنفذ من منافذ تعويض الشعور بالنقص ٠ وأكثر هذه الحالات ذيوعا ، عند نساء اثرين بعد فقر ، وممثلات ذاع صيتهن بعد خمول ، لان التأنق بارتداء الثياب الغالية الفاخرة والتزين بالمجوهرات البراقة يبدو لهن تغطية لماضيهن الجاف ٠

وهناك وسائل خطيرة ، ولا تخلو من غرابة ، لتعويض النقص يلجأ اليها الاشخاص الذين تتسم تصرفاتهم بالشراسة والمخاشنة والتحرش بالناس وتعطيل الاعمال من غير داع أو سبب .. فيلجأ هؤلاء الى اظهار أهميتهم بالايذاء والتنفير لتغطية عدم قدرتهم وعجزهم عن اظهار قوتهم بالتعاون النافع ٠ وهذا فى الواقع تعويض سخيف ، فضلا عما ينجم عنه من اضرار بالغة الخطورة ٠

***

ومن الحقائق العلمية أن العقل الباطن يتولى دائما اخفاء حدة الشعور بالنقص ليساعد صاحبها على تناسيها حتى لا يؤلمه تذكرها ٠٠ على أن عملية الكبت هذه لا تحل الاشكال ، لانها مثلها مثل الخراج الكامن ٠ وتتخلل مرور الزمن هزات عاطفية ونوبات من الخوف أو الرعب من اوهام كوهم المرض أو المطاردة أو انهيار الاعصاب أو الشعور بالتعب من غير مجهود يبرره ، أو ادمان المخدرات

أو الخمور والعكوف عن الكفاح أو الشك فى جدوى أى عمل .

وقد يظهر الشعور بالنقص فى بعض الحالات بمظهر يكشف العجز لا فى ناحية معروفة ، بل فى ناحية أخرى مستورة بطبيعتها عن أنظار الناس . ونعنى بذلك القصور فى النشاط الجنسى من غير سبب صحى أو عضوى ، ذلك لان الطاقة الكامنة من العواطف أمامها حراسة يقظة من العقل الواعى تحول دون ظهورها .. فتتلمس أضعف المواضع حراسة ومقاومة . ومن المعروف ان النشاط الجنسى - بطبيعته - أقل من غيره خضوعا لرقابة العقل الواعى .. ذلك لانه يحدث حين يعتكف الانسان عن المجتمع ، ويكون فى خلوة ، فيجد شعور النقص المكتوم منفذه فى تلك الفرصة . وقد يخيل للشخص ان ذلك من فعل سحر ، ولكنه فى الواقع من ذات نفسه وما كبته فيها من شعور بنقصه .

***

يتبين لنا من كل ذلك ، ان الشعور بالنقص انما هو فى الاصل شعور عام لا يخلو منه فرد ، وهو الذى ينير لنا الطريق ويهدينا الى ما ينبغى أن نستكمله من نقص ونقويه من ضعف ، فبديهى انه لولا شعورنا بالنقص أمام الطبيعة ما سعينا لقهرها وفهم دقائقها بل وتسخيرها للوصول الى فتوح علمية ومخترعات . ولكن المبالغة والتضخم المرضى فى ذلك الشعور هو الذى يدفع بنا الى الالتواء والعاهات النفسية .

ولهذا فاننا ننصح بأن أضمن وقاية للنشء من الشعور

بالنقص ، وما يتبعه من مضاعفات ، أن نلقنهم الطريق القويم للتعويض ، حتى لا يتخبطوا فى تعويضات خاطئة تشوه سلوكهم وشخصياتهم • وأول ما يجب أن يعرفوه أن الانسان ناقص بطبيعته ، وان وجود النقص ليس عيبا ولا خزيا ، طالما أنه مشاع بين الجميع دون استثناء . وانما الخطأ ، حقا ، والعار أن نطمس الواقع ونزيفه ونتظاهر بغير الحقيقة •• فيندفع بنا ذلك الى سلسلة متصلة الحلقات من الخداع هى الاساس لكافة الاضطرابات النفسية التى تتتابع • كما أنه من الحماقة أيضا أن نتجاهل ذلك الواقع ، ونفسح له المجال لكى يتضخم •• ولكن السلوك القويم والمعقول يقتضى مواجهة موضع النقص بأناة وهدوء وتفكير للوصول الى أفضل الوسائل لتلافيه أو تحسينه •• فبهذا تتطهر سريرتنا من الشعور بالخزى ، ونقضى على الحشائش الضارة بدلا من افساح المجال لها وتجاهلها حتى تستفحل وتخنق الزهور الجميلة • فالتعويض الصحيح الواعى عن النقص يجعل القصير قوى الشخصية من غير تعاظم أو انتفاخ يبعث على الضحك أو السخرية •

ولا تتم فكرتنا عن الشعور بالنقص ، وأوجه مقاومته ، من غير الاحاطة بعرض من أهم أعراضه الخفية التى تبدو بعيدة عن ذلك الشعور فى الظاهر فقط •• ونعنى بذلك « التناظر » •

اذا فكر الانسان أو نظر الى ما يسبغه عليه الله من نعم الدنيا على أساس المقارنة بينها وبين نصيب غيره ، فان ذلك يقتل فيه الشعور بالسعادة • فمن واجب المرء أن يتمتع

بالنعماء دون نظر أو تفكير فى أن نصيبه أقل بهجة من نصيب هذا أو ذاك •

والحسود ، اذا فكر فى قضاء يوم على شاطىء مصيف من المصايف التى لا يرتادها الا ثراة الناس ، فان مجرد التفكير فى ذلك يقلب شعوره بيومه رأسا على عقب فيبدو فى نظره قاتما باعثا على الكآبة فلا يحس بجماله وروعته وتغشى ناظريه وسمعه سحابة تحجب عنها جمال الازهار اليانعة وروعة أنغام العصافير فى تغريدها •

وتتسم بهذا الطابع حياة الحسود من جميع نواحيها ، فيرى جمالا فى غير فاتنته يفوق جمالها • ولكن المرء اذا فكر بحكمة فى دائرة ما أصابه من نعماء ، فانه يسعد بما يتفق له من دنياه ، ولا يؤثر فى شعوره بالمتعة أن سواه أوتى نصيبا أوفر •

والحقيقة التى لا يختلف فيها اثنان أن الحسد عادة ذميمة ، بل هو نقيصة خلقية وعقلية فى وقت واحد ، وانه لنقيصة عقلية بوجه خاص وانه لا يعتمد على النظر الى الاشياء من ناحية ذواتها بل من حيث مقارنتها بنظائرها لدى الناس •

والمرء الذى يكفى دخله من عمله كل حاجاته وكمالياته حرى به أن يكون راضيا شاكرا ربه •• فاذا نظر الى شخص آخر من نفس مستواه ووجد ان دخل ذلك الشخص اضعاف دخله هو ، فان مجرد تفكيره فى المقارنة ينغص عيشه ويذهب بسعادته ، لان الحسد نفذ الى نفسه واخذ يأكل قلبه لشعوره انه مغبون •

ولا يذهبن بك الظن أن لا علاج لهذه النقيصة ، فان

علاجها أمر ميسور عن طريق التدريب العقلي . فعليك الا تشغل ذهنك بأفكار سخيفة سوداء لا طائل من ورائها ، ثم ماذا يدفع الى الحسد سوى الرغبة فى السعادة والاستمتاع بالحياة .. فان قدر لك أن تطرد الحسد من نفسك ، حصلت على السعادة التى تجعلك موضع الحسد من غيرك .

والحسد نفسه سلسلة متصلة الحلقات ، لايتيح لاحد هناء بشيء أو أمر . فالذى تحسده لان دخله ضعف دخلك، يرى هو الآخر غيره يحصل على ضعف دخله وهكذا . وحتى من يحسد على المجد ينطبق عليه نفس الوضع ، فهذا العظيم يحسد ذاك لانه نال نجاحا أكبر وصيتا أعظم ، وذاك يحسد اخر لنفس السبب وهكذا .

والوصول الى قمة النجاح وذروة المجد لايكفى مطلقا كى يتخلص الانسان من الحسد ، لانك ستجد من يفوقك نجاحا وارتقاعا مهما بلغت .. ذلك لان الحسد عاطفة لا تؤمن بالشبع .

وفى اعتقادى أن الوسيلة المثلى للتخلص من الحسد هو الاستمتاع بالمناعم التى نحظى بها كما هى ، وبأداء ما يوكل الينا من أعمال ومهام على أكمل وجه . وألفت النظر بوجه خاص الى ضرورة تجنب المقاومة بيننا وبين غيرنا مما نرى أو حتى نتخيل أنهم أوفر منا حظا .

ومن عجب أن التواضع الشديد له اثر كبير فى تكوين عاطفة الحسد . وعلى الرغم من أن العرف جرى على اعتبار التواضع فضيلة ، الا أن الشك يساورنى فى جوهر قيمة هذه الصفة ولا سيما حين تصل الى حد المبالغة .

والشخص المتواضع يحتاج الى مجهـود كبير وتأكيدات متعددة كثيرة لتطبع فيه الثقة بنفسه .. ذلك لان تقديره لنفسه من الضآلة بحيث يحول غالبا دون القـدرة على النهوض بأعبائه ، وهو يعتقد أن الآخرين أكثر منه براعة وأحري بالنجاح والمجد ، فينطوى قلبه على الحسرة والغيرة ثم على الحسد ، حسد المحروم للمتخم .

وانى أنصح وأوصى أن الخير كل الخير تنشئة الاطفال على الاعتزاز بأنفسهم ، وأن نجعلهم يشعرون انهم كائنات ذات شأن ، وبذلك نغرس فيهم الثقة بأنفسهم لان الثقة بالنفس ألد أعداء الحسد .. والانسان الواثق من نفسه المعتز بها وبكرامته لا يمكن أن ينحدر الى هذه الرذيلة الممقوتة ويكون حسودا .

ان عصرنا الحاضر عصر يلعب فيه الحسد دورا كبيرا الى حد بعيد ، فاننا نرى المعدم يحسد الثرى ، والامم ذات الموارد المحدودة من كنوز المعادن والخامات تحسد الامم الغنية بتلك الموارد . والنساء يحسدن الرجال على نفوذهم في المجتمع وسلطانهم فى الحكم والسياسة ، والنساء الفضليات يحسدن الغانيات لما يحظين به من أضـواء ومظاهر براقة .

على انه بالرغم من كل ذلك ، فلابد لنا من الاعتراف بأن العدل الذى سيتمخض عنه هذا التحاسد سيكون بلا شك أسوأ نوع ممكن من العدل ، لانه سيقوم على تنغيص مناعم المحظوظين ، أكثر مما يقوم بقصد زيادة مناعم المغبونين والمظلومين . ولئن كان الحسد يقوم بدور المعول الهدام

لانه يختص بمهمة التدمير فى الحياة الخاصة ، فهو أيضا يقوم بهذا الدور التدميرى في الحياة العامة ، فى الاوطان .. بل وفى النطاق العالمى أيضاً .

ومن الخطأ أن ننتظر خيرا يعم العالم من بذرة هذه الجرثومة الشريرة .. الا وهى عاطفة الحسد .

وقد كان الحسد فيما مضى محصورا في دائرة ضيقة محدودة لا تتعدى دائرة الجيران ، لان تفكير الانسان فى ذلك الوقت لم يكن يتعدى تلك الدائرة المحدودة حوله . أما الان فقد نشأت عوامل شتى لا يحصرها عد فى مختلف أوجه النشاط الانسانى ، فالقراءة والكتابة والصحافة والكتب والمجلات والمطابع والسينما والاذاعة والتليفزيون ، أتاحت كلها أو بعضها لكل فرد أن يتعرف ويلم بأحوال الملايين من البشر الذين تفصلهم عنه المحيطات والاف الاميال ، والذين يختلفون عنه فى جميع النواحى والتقاليد والعادات وأسلوب الحياة .. فالفقير يرى رأى العين كيف يعيش الاثرياء ومبلغ بذخهم وما هم فيه من بحبوحة واستمتاع بمناعم الدنيا ولذائذها ، فلا يملك سوى أن يحسدهم . ومن أسف أن نرى أن دعايات مغرضة منظمة تعبىء الشعور وتشحنه بالكراهية ضد أعداء وهميين من ذوى الجلود الملونة .

من هذا ، بل من كل هذا ، يتضح أن نطاق الحسد اتسع حتى شمل العالم كله بعد أن كان محصورا فى حيز محدود أو دائرة ضيقة ، شارع أو حى أو قرية أو مدينة .. فقامت كراهية وعصبيات واضطهاد بين البيض والسود وبين دول ودول ، حتى أمسى العالم وقد صار على شفا

هاوية الدمار والفناء ٠

ولا يتبادر الى ذهنك ان مرجع هـــذا الى تأثير الدعاية فحسب ، فالدعاية لا تخلق الشعور بالحسد والبغضـــاء ولكنها تستغله وتوجهه ٠ فلو لم توجد عاطفـة الحســـد والكراهية أصلا ، لما استطاعت الدعاية مهما بلغت أن يكون لها تأثير يذكر ٠ وفى امكانك أن تتساءل لماذا تنجح الدعاية بسهولة حين تستهدف شحن النفوس بالاحقاد والكراهية فى الوقت الذى يتعذر عليها فيه خلق شعور بالمودة والمحبة والصداقة والاخاء ٠

السبب واضح ظاهر : ان فى الانسان العصرى شحنة ضخمة وطاقة هائلة من السخط والتذمر والتبـرم وعــدم الرضى عن أسلوب الحياة ، وكأننا نشـــعر اننا لم نتبع سبيلا سويا ٠

وأورد لك مثلا ٠٠ اذا أخذت اطفالك الى حيث تعيش القرود فى حديقة الحيـــوان ، وراقبت فى شىء من قوة الملاحظة ، لتبينت معالم الكآبة فى عيونها بعد أن تفرغ من موجة المرح ، وكأن هذه المخلوقات تســتشعر الحسرة على تخلفها في سنة التطور حيث قدر لنا أن نسبقها نحن ٠

والانسان العصرى لا يخلو من شىء من هذا القبيـــل ، فهو يشعر في قرارة نفسه وفى دخيلته بمستوى أفضـــل للانسانية ، ويجد الفارق كبيرا بينه وبين الواقع ، فتراه حائرا لا يدري كيف يصل الى ذلك المســتوى الذى يتطلع اليه ٠

وعندئذ يتملكه الغيظ لهذا العجز ، فيندفع فى تيـــار

السخط على اخوته في البشرية ، متناسيا انه وهم سواسية في الحيرة والعجز والشقاء ·

ان مرحلة التطور التى وصلنا اليها ، لا يمكن بحال أن نعتبرها مرحلة الختام ·· لذلك يجب أن يكون هدفنا أن نتجاوز تلك المرحلة الراهنة بعد أن بلغنا نهايتها ، فان لم نفعل أصابنا الركود والانحلال ، وفقدت البشرية كيانها واحترامها ·

فاذا نحن فكرنا من جميع الوجوه ، لاتضح لنا أن الحسد بكل مافيه من سوء وقبح وبشاعة ، لا يخلو في الوقت نفسه من شيء من اليمن والنفع ·· ذلك لانه يعنى جزءا من تعبير البشرية عن ألم كبير ، ألم اولئك الذين يسيرون في ظلمات ، يخبطون خبط عشواء على غير هدى ·· سواء الى راحة أفضل وحياة أكرم وأهنأ ، أو الى الموت والدمار والفناء . وما دمنا ننشد الارتقاء ونبحث عن السبيل السوى الذى ينقذنا من هذا اليأس ، فأحرى بنا نحن المتحضرين أن نبسط آفاقنا القلبية كما بسطنا افاقنا العملية ·· بمعنى انه يجب علينا أن نتعلم التسامى على نفوسنا ، فاننا بذلك وحده يمكننا تحرير الكون كله من الخوف ومن الدمار فنكون بنائين لا هدامين ، وبذلك نكون جديرين بلقب المتحضرين ·

ولنتذكر أن الشعور بالنقص يعمل بالشيخوخة النفسية والجسدية ، وان الحسد والتناظر يسرعان بالصحة الى التهدم والكآبة ، وان الثقة بالنفس والايمان بالغد هما مفتاح القوة والشباب الثابت الدعائم ·

قاوم الشعور بالنقص ، وثق بنفسك ، وأحب الخير للناس وفي الناس ، وأحب الجمال في الناس والاشياء ٠٠ وافرح لما يصيب غيرك من الرزق والحظ الحسن ، تعش شابا طول حياتك ولا تطرق الشيخوخة بابك ٠

عش ودع الاخرين يعيشون ٠٠ ودع المخاوف واستقبل الحياة . هذا هو شعار الشباب الدائم والعمر الطويل والسعادة الشاملة فى آن واحد ٠٠

ابدأ الان .. فالاوان لم يفت بعد ..

صفحة

مؤلفة الكتاب ... ٦

الفصل الاول :

مسألة سلوك ... ٩
كيف تتنفس ... ٢٢

الفصل الثانى :

احفظ توازنك ... ٣٥
كيف تتحرك ... ٤٩

الفصل الثالث :

بين الحركة والسكون ... ٦٣
التعب عدوك اللدود ... ٧١

الفصل الرابع :

راقب صوتك ... ٨٠
حديث الشباب وحديث الشيوخ ... ٩٤

الفصل الخامس :

ايحاء يحقق المعجزات ... ١٠٨
كيف تستخدم يديك ؟ ... ١٢٣

الفصل السادس :

عيناك ... ١٣٦
راقب طعامك ... ١٤١

الفصل السابع :

راقب شرابك ... ١٥٨
لا تكف عن الحب ... ١٦٦

الفصل الثامن :

قاوم الشعور بالنقص ... ١٧٧

رقم الايداع بدار الكتب ٤٢٩٧ ـ ١٩٨٤

الترقيم الدولى ٨ ـ ١٠٦ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Miguel Maccul Cury. R. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع فى الخارج للعدد الممتازة ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٨٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ م.س ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٧ ريال ، اديس ابابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنى ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ٢٠٠ دراخمة ، ليبيا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٤٠٠ فلس



هــذا الكتاب

كل شيء في هذا العصر يجرى بسرعة الصاروخ .. بما فى ذلك مراحل العمر والصحة . ولكن عصرنا أيضا هو عصر العلم الذى يتقدم بخطى جبارة فى ابتداع أفانين العلاج ..

والشيخوخة صارت علما قائما بذاته فى الامم المتقدمة .. علما يتخصص العلماء فى بحث اساليب الوقاية منه، والقضاء على الامراض والاعراض اللازمة له .

والى جانب أبحاث المعامل الطبية قام أطباء من نوع آخر .. وسائلهم أقرب الى الطبيعة ، يستعينون بعلم النفس وعلم التغذية .. بل وبالفلسفة وبعلم وظائف الاعضاء والتربية البدنية .. لاطالة مدة الشباب ..

ونجحت اساليبهم نجاحا يجعلنا نعتقد أن اساطير ينبوع الشباب الدائم ليست كلها حديث خرافة ..

ويمتاز هذا الكتاب بدراساته المبسطة لكل نواحي الانسان الجسدية والعقلية والعاطفية ، مع بحث كيفية تقوية الحيوية من جميع هذه الوجوه المتكاملة .

٥٠ قرشاً

كتاب الهلال



مذكرات محكوم عليه بالإعدام

فيكتور هيجو

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٤٠٥ ـ ذو الحجة ١٤٠٤ ـ سبتمبر ١٩٨٤

No. 405 — September 1984

الاشتراكات

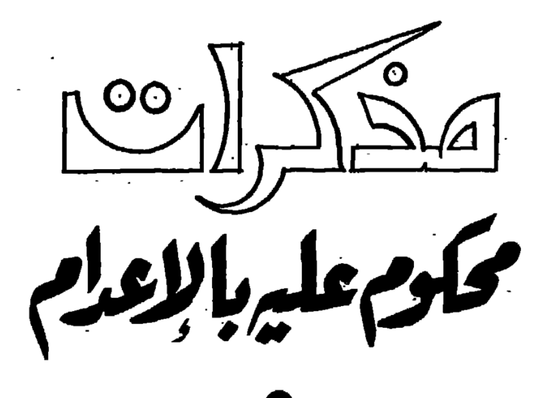
قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية اربعة جنيهات مصرية و ٨٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات او مايعادلها بالبريد الجوى · وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى ·

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج· م· ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال · وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب ·

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـة :
الفنانة سميحة حسنين



بقلم :

فيكتور هيجو

دار الهلال

مقدمة

لم يظهر فى مقدمة الطبعات الاولى من هذا الكتاب ، الذى نشر اول مانشر دون ذكر اسم مؤلفه ، سوى السطور القليلة التالية :

« هناك وسيلتان تحس عن طريقهما بوجود هذا الكتاب أو ان شئت فقل : كانت هناك فى الواقع رزمة من الاوراق الصفراء غير المنتظمة ، سجل عليها آخر ما جال بذهن انسان بائس من أفكار ، ورقة بعد ورقة ، أو انه كان هناك رجل مفكر ، شغلته ملاحظة الطبيعة فى سبيل الفن ، رجل فيلسوف أو شاعر — لست أدرى — كانت هذه الفكرة نزوة من نزواته سيطر عليها ، أو بالاحرى سيطرت هى عليه ، ولم يستطع التخلص منها الا بتدوينها فى كتاب . . وعلى القارىء أن يختار من بين هذين التفسيرين مايروق له » .

ويستطيع القارىء أن يلاحظ أن المؤلف لم يجد من المناسب أن يفصح عن فكره عندما نشر هذا الكتاب ، وانما آثر أن ينتظر حتى تفهم فكرته ويتلمس صداها لدى الجمهور . ومالبثت الايام أن حققت ماكان يتوق الى

معرفته ، اذا فهم الجمهور فكرته التى ضمنها هذا الكتاب. ويستطيع المؤلف اليوم أن يكشف النقاب عن الفكرة السياسية والاجتماعية التى أراد أن يروج لها فى هذا القالب الادبى الساذج البرىء ، فهو يعترف أذن ، أو بالاحرى هو يعلن بصوت مدو وعلى رءوس الاشهاد ، أن كتاب « آخر أيام محكوم عليه بالاعدام » ليس الا دفاعا مباشرا — أو غير مباشر ان شئت — عن الغاء عقوبة الاعدام

ان ماكان يقصد اليه الكاتب بمؤلفه هذا ، وما كان يريد أن تتبينه الاجيال المقبلة ، اذا هى عنيت بأمره ، ليس الدفاع الخاص عن مجرم بعينه أو عن متهم يتخيره الكاتب فمثل هذا الدفاع الخاص أمره ميسور دائما وهو يتغير تبعا للظروف ، بل هو فى حقيقة أمره مرافعة عامة وابدية عن المتهمين جميعا ، فى الحاضر وفى المستقبل . انه حجر الزاوية فى الحق الانسانى الذى يبسطه الكاتب ويدافع عنه بأعلى صوته أمام المجتمع الذى يعد محكمة النقض الكبرى ، مستهدفا حماية حقه فى الاستئناف الذى غالبا مايرفض فى قضايا الاجرام !

انها مشكلة كئيبة مظلمة تنبض فى غير وضوح خلف جميع القضايا الكبرى ، وتختفى وراء ستار كثيف من الكلام الرنان ، ومن البلاغة الدامية التى يحيطها بها رجال الملك « اى رجال القضاء » . نعم ، اننى أقول انها مسألة « الحياة والموت » عارية ومجردة من كل رسميات النيابة العمومية وشكليات الاتهام الرنانة ، ومعروضة بشكل بارز فى وضح النهار ، فى المكان الذى يجب أن

نراها فيه ، مكانها الواقعي على الطبيعة ، وفي بيئتهـا الشنيعة المروعة ، لا عند القاضي في المحكمة ، ولكن على المقصلة .. عند الجلاد !

ذلك هدف الشاعر الذي رمى اليه من تاليف هـذا الكتاب . فان كل المستقبل هامته ذات يوم بالمجد ـ وهو مالا يجسر على ان يأمله ـ فسوف يغنيه هذا عن كل شيء آخر ».

يعلن المؤلف اذن ويكرر القول باسم جميع المتهمين ؛ سواء كانوا أبرياء أو مذنبين ، أمام جميع المحاكم وسائر ممثلي الاتهام والمحلفين : ان هذا الكتاب موجه الى كل من يصدر حكما . ولكي يتسع مجال الدفاع حتى يشمل القضية برمتها ويغطي كل نواحيها ، فقد اضطر الكاتب لكتابة مؤلفه « آخر ايام محكوم عليه بالاعدام » ، او « مذكرات محكوم عليه بالاعدام » على هذه الصورة ، وان يحذف من موضوعه ومن أجزائه جميعا الحادث نفسه والدافع اليه ، والظروف الخاصة والشخصية، وكل ما له صلة بالحادث ، واسم المذنب ، مكتفيا بالدفاع عن قضية شخص ما ، محكوم عليه بالاعدام ، ونفذ فيـه الحكم لجريمة ما في أي يوم من الايام .

وسوف يكون من دواعي سعادة المؤلف لو أنه استطاع ـ دون أن يستعين بشيء آخر غير تفكيره ـ ان يتعمق في موضوعه كل التعمق كي يجعل قلبا تنزف منه الدمـاء تحت بصر رجال القضاء ، ولو أنه تمكن من أن يبعث الرحمة في قلوب أولئك الذين يحسبون أنهم عدول،وسوف

يكون من دواعي سروره لو أنه استطاع بتعمقه في نفسية القاضي أن ينجح أحيانا في أن يجد فيه انسانا !

وعندما نشر هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات ، تخيل بعض الناس أن من واجبهم أن يعلنوا على الملأ أن فكرته ليست فكرة المؤلف ، فقال فريق منهم أنه قد أخذها عن كتاب انجليزي ، وذهب فريق آخر الى أنه قد اقتبسها عن كتاب أمريكي ، وتلك لعمري سنة مرذولة تدفعنا الى البحث عن أصول الأشياء بعيداً جدا ، على مسيرة آلاف الأميال ، وتجعل النهير الذي يغسل ماؤه شارعك يأتي من منابع النيل !

ومما يدعو للأسف أن أصل هذا الكتاب ليس انجليزيا ولا أمريكيا ولا صينيا ، فالمؤلف لم يأخذ فكرته من كتاب ما ، فهو لم يألف أن يذهب باحثا عن أفكاره بعيدا كل هذا البعد ، وانما أخذها من حيث تستطيعون جميعكم أن تأخذوها أو من حيث يحتمل أن تكونوا قد لمستموها بالفعل « اذ من منا لم يحلم ، أو يفكر ، فيما بينه وبين نفسه ، في آخر يوم في حياة شخص محكوم عليه بالاعدام ؟ » .. من الشارع ، بكل بساطة ، أو من الميدان العام ، أو من ساحة الاعدام . انه التقط هذه الفكرة الكئيبة وهو يمر من هناك ذات يوم .. التقطها وهي ملقاة على الارض في بركة من الدماء ، تحت سلاح المقصلة الأحمر الرهيب !

وكلما كان يذاع حكم بالاعدام في باريس ، تبعا لقضاة محكمة النقض في أيام الخميس الكئيبة ، كانت هذه الفكرة الأليمة تعود الى المؤلف وتستولي على نفسه ، في كل مرة كان يسمع فيها تلك الصيحات المبحوحة التي تجمع

المتفرجين وتؤلبهم حول ساحة الاعدام ، وهى تمر من تحت نوافذ بيته . نعم ، كانت هذه الفكرة تلح عليه فتملأ رأسه بما فيها من جنود البوليس والجلادين والجماهير .
وتنقل الى مشاعره الآلام الاخيرة التى يقاسيها البائس المحتضر ساعة بساعة ، فتقول له : انهم فى هذه اللحظة يجعلونه يعترف أمام القسيس .. وفى هذه اللحظة ، يقصون له شعره .. وفى هذه اللحظة ، يوثقون يديه !

وكانت هذه الافكار ترغم المؤلف المسكين ـ وهو شاعر مرهف الحس رقيق الشعور ـ على أن يقول كل ذلك للمجتمع الذى تشغله شئونه المعتادة ، فى الوقت الذى تتم فيه هذه العملية البشعة ، وكان هذا الخاطر يطارده ويهز عواطفه ، وينتزع وحى الشعر من أعماق نفسه ان كان يعالج كتابته ويقتل أبياته على لسانه وهى بعد لم تر النور ! نعم ، كانت هذه الفكرة تحاصره وتلح عليه ، وتملأ رأسه ونفسه فتعطل كل أعماله ، وتعترض سبيله فى كل شيء . وكان الامر بالنسبة اليه عذابا اليما يبدأ مع مطلع النهار ، ثم يستمر بعد ذلك مع عذاب المذنب البائس الذى كان يمتد حتى الساعة الرابعة صباحا . وعندئذ فقط ، وبعد أن يتنفس الفجر ، كان فى وسع المؤلف أن يتنفس وأن يجد فى نفسه شيئا من الحرية .

واخيرا ، شرع المؤلف ذات يوم فى كتابة هذا الكتاب ، وكان ذلك ـ على مايعتقد ـ فى اليوم التالى لاعدام « دولباخ » ، فخفف عنه كربه منذ ذلك الحين ، واصبح ضميره يوحى اليه أنه ليس متضامنا مع العدالة فى كل مرة ترتكب فيها احدى هذه الجرائم العامة التى يسمونها

.فيذ حكم الاعدام ، ولم يعد يحس على جبينه بقطـــرة الدماء التي تسقط من ساحة الاعدام على رأس كل فرد من أفراد المجتمع .

ومع ذلك فان هذا كله ليس كافيا ، فالتبرؤ من الجريمة شيء حسن ، ولكن الافضل منه منع اراقة الدماء . ولهذا، فلن يعرف المؤلف هدفا أسمى ولا أسلم ولا أنبل من هذا الهدف ، الا وهو الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام ، ومن ثم فانه يضم تمنياته وجهوده بكل قواه ، الى جهود الرجال الكرماء فى كل الأمم ، الذين يعملون جاهدين منذ عـدة اعوام من أجل اسقاط المقصلة ، وهى الشيء الوحيد الذى لا تجتثه الثورات . وسوف يسر المؤلف أن يأتى بدوره ، وهو الرجل الضعيف ، ليضرب ضربته معاونا فى هدم آلة الاعدام التى تسلط منذ قرون عـديدة على رءوس الناس .

***

لقد ذكرنا منذ لحظة ان المقصلة هي البناء الوحيد الذى لا تقوضه الثورات ، والواقع أنه يندر أن تبخل الثورات بدم البشر ، فهى تأتى لتغير وتعدل من نظم المجتمـــع وأوضاعه ، ومن ثم تكون عقوبة الاعدام من الامور التى لا تتنازل عنها الا بصعوبة بالغة .

ولكننا سوف نعترف مع ذلك بأنه اذا كانت هناك ثورة قد بدت لنا مجيدة ، وتستطيع حقا أن تلغى عقوبة الاعدام، فان هذه الثورة هى ثورة يوليو ، اذ يبدو لنا فى الواقع أنه من واجب أكثر الحركات الشعبية تسامحا فى العصر

الحديث أن تلغى هذه العقوبة البربرية التى انشأها لويس الحادى عشر وريشليو وروبسبير (١) ، وأن تنص فى القانون على عدم جواز اهدار حياة الانسان . نعم ، ان ثورة يوليو عام ١٨٣٠ كانت جديرة بتحطيم مقصلة عهد الارهاب التى كانت قائمة منذ عام ١٧٩٣ .

لقد رجونا ذلك لحظة ، ففى شهر اغسطس من عام ١٨٣٠ ، كان فى وسع المرء ان يستنشق فى الجو كثيرا من الشفقة والكرم ، وكانت ترفرف فوق الجماهير روح جميلة من الرقة والمدنية ، وكنا نشعر بأن قلوبنا تتفتح وهى تحس باقتراب مستقبل باسم ، حتى بدا لنا أن عقوبة الاعدام قد الغيت بالفعل دفعة واحدة باتفاق عرفى عام ، شأنها شأن غيرها من الامور التى كانت قد ضايقتنا اشد المضايقة !

ان الشعب كان قد تخلص من آثار العهد البائد فى فرح غامر ، والمقصلة اثر دام من هذه الآثار ، وقد حسبنا أننا تخلصنا منها وانها حرقت مع ماحرق ، وظللنا لعدة اسابيع نثق بالمستقبل فى سذاجة ، مؤمنين بأنه لا يمكن الاعتداء على الحياة كما لا يمكن الاعتداء على الحرية .

والواقع انه ماكاد ينقضى شهران حتى بذلت محاولة تهدف الى تحقيق الامنية المثالية العظمى ، التى طالما تمناها « سيزار بونيزانا » ، الا وهى الغاء عقوبة الاعدام وجعلها حقيقة قانونية ، غير أن هذه المحاولة كانت تفتقر ، للأسف ، الى المهارة والحذق ، بل انها كانت خبيثة

---

(١) ريشيليو احد الوزراء الفرنسيين قبل الثورة . أما روبسبير فهو ارهابى من رجال الثورة الفرنسية .

تقريبا ، فقد تمت بقصد خدمة مصلحة أخرى غير المصلحة العامة .

اننا نتذكر انه فى شهر اكتوبر من عام ١٨٣٠ ، بعد ان استبعد البرلمان اقتراح دفن نابليون تحت تمثال العامود بعدة أيام ، أخذ ممثلو الامة جميعا يبكون وينتحبون ، وطرحت مسالة الحكم بالاعدام على بساط البحث ،وسوف نذكر بعد بضعة اسطر فى اية مناسبة طرح هذا الموضوع للبحث ، فبدا عندئذ ان قلوب هؤلاء المشرعين جميعا قد امتلأت فجأة بشفقة عجيبة ، حتى أنهم كانوا يتزاحمون على الكلام ، وعلى العويل والنحيب ورفع أيديهم نحو السماء ! .. الحكم بالاعدام !.. ياالله السموات والأرض ! .. ياله من شيء بشع شنيع !

نعم .. هكذا كانوا يقولون ، ومنهم هذا النائب العام الشيخ الذى ابيض شعره وهو يرتدى « الروب » الاحمر والذى سلخ كل حياته وهو يأكل الخبز مغموسا فى دم الاتهامات ، فقد لبس من فوره مسوح العطف والشفقة ، واشهد الآلهة على انه يمقت المقصلة . ولم يخل المنبر لمدة يومين كاملين من خطب تفيض بالبكاء والنحيب حتى بدا الامر وكأنه « محزنة » ندب فيها النادبون ، ورددوا فاصلا من التراتيل الحزينة مع « تخت » كبير ، كبير جدا ، بمصاحبة المجموعة « الكورس » المكونة من كل هؤلاء الخطباء الذين يشغلون الصفوف الاولى من المجلس النيابى والذين يرسلون انغاما جميلة للغاية فى الايام المجيدة . لقد غنى كل منهم على طريقته ولم يكن هناك نقص فى اى شيء وكان الامر يثير العاطفة ويحرك الشفقة الى اقصى حد ،

خاصة وان جلسة الليل كانت ابوية رحيمة ، تتقطع لها نياط القلوب ، تماما كما تتقطع لدى رؤية الفصل الخامس من مسرحية « لاشوسيه » ، وكانت الدموع تترقرق فى عين الجمهور الطيب القلب الذى كان لا يفهم شيئا من كل ذلك .

فعلام كانت تدور مناقشتهم عندئذ ؟ الغاء عقوبةالاعدام؟

نعم .. ولا !

وهذا هو الواقع :

ان اربعة رجال من المجتمع الراقى ، اربعة رجال ذوى مراكز مرموقة من صنف هؤلاء الرجال الذين نصادفهم فى صالونات الطبقة العليا ، والذين قد نتبادل معهم بضع كلمات مؤدبة ، اقول ان اربعة من هؤلاء الرجال كانوا قد حاولوا ، في الدوائر السياسية العليا ، احدى هذه الضربات الجريئة التى يسميها « بيكون » جرائم ، ويطلق عليها « ماكيافيللى » اسم « مشاريع » ولكن القانون فى قسوته على الجميع يعاقب على هذه الجرائم او المشاريع بالاعدام . وكان هؤلاء الرجال الاربعة سجناء واسرى فى قبضة القانون يحرسهم ثلثمائة جندى فى سجن «فانسين» .. فما العمل وكيف العمل ؟.. لاشك فى انكم تفهمون انه يستحيل أن يرسل الى ساحة الاعدام اربعة رجال مثلى ومثلك .. اربعة رجال من الطبقة الراقية لا يمكن أن يساقوا الى ساحة الاعدام فى عربة « كارو » وهم مقيدون بالحبال الغليظة فى بشاعة ، وظهر كل واحد منهم الى ظهر الاخر ، ومعهم هذا الموظف الذى يجب الا يذكراسمه قط ! .. آه لو كانت هناك مقصلة من خشب ثمين !

آه ! .. ليست هناك اذن وسيلة لانقاذ رءوسهم الا بالغاء عقوبة الاعدام !

***

وهنا تحرك البرلمان وبدأ فى العمل !

أرجو أن تلاحظوا أيها السادة أنكم حتى الامس القريب كنتم تنعتون هذا الالغاء بأنه مجرد نظرية مثالية خيالية ، وبأنه حلم وشعر وجنون . ولاحظوا كذلك أن هذه ليست أول مرة يحاولون فيها لفت نظركم الى العربة « الكارو »، والى الحبال الغليظة ، والى الآلة الحمراء البشعة ! انه لمن الغريب حقا أن تسترعى كل هذه الاشياء الرهيبة انتباهكم الآن فجأة على هذا النحو !

صمتا ! فالامر ليس كما تظنون ! فنحن لا نلغى عقوبة الاعدام من أجلك انت أيها الشعب ، بل من أجلنا نحن النواب الذين قد نصبح وزراء فى يوم من الايام . فنحن لا نريد أن تعض المقصلة الطبقات العليا ، من أجل ذلك فاننا نحطمها ، وحسنا نفعل اذا كان عملنا هذا فيه ارضاء للجميع ، غير أننا لم نفكر الا فى أنفسنا ونحن نقوم به ! فلنطفىء النار اذن ، ولنلغ الجلاد بسرعة ، ومعه قانون الاعدام .

وهكذا ، فان مزيجا من الانانية ينحرف بخير المشروعات الاجتماعية ويفسدها . انه العرق الاسود يجرى فى الرخام الابيض ، ويسير فى كل موضع فيه فيظهر فجأة ، وفى اية لحظة ، تحت « أزميل » النحات . ان تماثيلكم أيها السادة يجب أن يعاد صنعه من جديد .

ونحن لا نشعر يقينا باننا فى حاجة الى ان نعلن ذلك

هنا ، فلسنا من الذين كانوا يطالبـــون برءوس الوزراء الاربعة . فبعد القبض على هؤلاء الرجال ذوى الحـظ العاثر ، تحول لدينا الغضب والاشمئزاز اللذان كنا نشعر بهما بسبب مؤامرتهم الى شفقة عميقة كما حدث لدى الجميع . لقد أنعمنا النظر فى الافكار العتيقة التى تربى عليها بعضهم ، وفى عقل رئيسهم ذى الافق الضيق ، وهو انسان متعصب ومتآمر عنيد ممن اسهموا فى مؤامرات عام ١٨٠٤ ، قد ابيض شعره قبل الاوان ، وهو فى الظل والرطوبة فى سجون الدولة ، كما فكرنا فى كل الظروف الحتمية التى كانت تحيط بموقفهم المشترك ، وفى استحالة وقف هذا الانحدار السريع الذى كانت الملكية قد دفعت نفسها اليه بأقصى سرعتها فى الثامن من اغسطس عام ١٨٢٩ ، وفكرنا كذلك فى مدى الاثر الذى يحدثه شخص الملك ذاته فى أنفسنا ، وهو أثر لم تكن نشعر به الا قليلا جدا حتى ذلك الحين ، وفكرنا خاصة فى العزة والكرامة اللتين كان أحدهم يبسطهما على الآخرين فى محنتهم كمعطف ثمين .

لقد كنا من الذين كانوا يتمنون لهم مخلصين أن تنقذ حياتهم ، وكنا على اهبة الاستعداد لان نضحى فى هذا السبيل ، فلو حدث المستحيل ونصبت لهم المشنقة يوما فى ساحة الاعدام ، فاننا لانشك فى أنه سوف تحـــدث مظاهرات شعبية عنيفة لتهدم هذه المشنقة ، وســـوف يكون كاتب هذه السطور مع تلك المظاهرات المقدسة اذ يجب علينا أن نقول كذلك فى صراحة ، انه اذا قورنت كل المشانق فى اوقات الازمات السياسية ، فان المشـــنقة

السياسية تكون ابشعها واكثرها شؤما واوفرها سما واجدرها بالازالة على الاطلاق . ان هذا الضرب من المقصلة تنبت جذوره فى الشارع ، وينرعرع فى وقت وجيز لينتشر فى الارض . ففى وقت الثورة ، خذوا حذركم لاول راس يهوى ، لانه يفتح شهية الشعب .

لقد كنا اذن متفقين شخصيا مع الذين كانوا يريدون انقاذ رءوس الوزراء الاربعة ، كنا متفقين معهم على اية صورة من الصور ، وذلك لاسباب عاطفية واخرى سياسية ، وانما كنا نؤثر فقط أن يتخير البرلمان فرصة غير هذه لاقتراح الغاء عقوبة الاعدام .

ولو انهم اقترحوا هذا الالغاء لا بمناسبة سقوط اربعة وزراء من قصر التويلرى « قصر الحكم » الى سجن « فانسين » ، بل من أجل أى مجرم عادى ، من اجل واحد من هؤلاء البائسين الذين لا تدقق النظر اليهم حينما يمرون على مقربة منك فى الطريق ولا تبادلهم الحديث ، وتتجنب الاحتكاك بهم بغريزتك لقذارة ملبسهم هؤلاء التعساء الذين كانت طفولتهم جريا فى العراء وهم حفاة فى الوحل عند تقاطع الشوارع ، يرتجفون من البرد شتاء على قنرة الطريق ، ويستدفئون على دخان المطابخ مطابخ مطعم « مسيو فيفور » العظيم ، الذى تتناول طعامك فيه ، وهم ينقبون هنا وهناك عن كسرة من الخبز فى وسط القمامة ويمسحونها قبل أن يتبلغوا بها ، ثم ينبشون عن غيرها . وليس لهم من تسلية الا ذلك المنظر المجانى ، منظر عيد الملك ، ومنظر المحكوم عليهم بالموت ، وهم فى ساحة الاعدام ، وهذا المشهد الاخير بالمجان

كذلك . يالهم من بائسين مساكين يدفع بهم الجوع الى السرقة ، وهذه تدفع بهم الى الباقى .. ! انهم اطفال محرومون فى مجتمع قاس تأخذهم اصلاحيات الاحداث فى سن الثانية عشرة ، والليمان فى الثامنة عشرة ، وتتلقفهم المشنقة فى سن الاربعين . انهم سيئو الحظ ، وكان فى وسعكم بمدرسة ومصنع أن تجعلوا منهم اناسا طيبين صالحين ، أناسا نافعين ذوى خلق كريم . انهم سيئو الحظ لانكم لا تدرون ماذا تفعلون بهم الا أن تلقوا بهم كما يلقى المرء بحمل لا نفع فيه ، تارة فى ليمان « طولون » واخرى فى مقبرة « كلامار » ، لتسلبوهم الحياة بعد أن تكونوا قد سرقتم الحرية منهم ... فلو انكم اقترحتم الغاء عقوبة الاعدام من أجل واحد من هؤلاء الرجال ، لكانت جلستكم اذن مجيدة حقا ، وعظيمة وجليلة ومقدسة وجديرة بالتبجيل . فمنذ ان دعا قساوسة « ترانت » العظماء الخارجين على الكنيسة الى الاجتماع بهم باسم الرحمة الالهية ، اذ كانوا يأملون هدايتهم ، لم نر قط جماعة من الرجال قدمت للعالم ماهو اكثر عظمة ونبلا وشفقة ببنى البشر من هذا المشهد . لقد كان من الواجب دائما على اولئك الذين هم اقوياء وعظماء حقا ان يعنوا بالضعيف ، وأن يهتموا بأمر الصغير . ان جمعية من البراهمة كانت تكون جميلة لو انها عنيت بأمر الفقير المعدم ، وقضية الفقير المعدم هنا ليست الا قضية الشعب . فلو انكم كنتم الغيتم عقوبة الاعدام من اجل الشعب ، دون أن تنتظروا حتى تكون لكم مصلحة فى

ذلك ، لاتممتم بهذا ماهو اكثر من العمل السياسى ، ولاتممتم عملا اجتماعيا بمعنى الكلمة .

لكنكم لم تنجزوا حتى مجرد عمل سياسي بمحاولتكم الغاء عقوبة الاعدام ، لا التماسا لهذا الالغاء لذاته ، ولكن لانقاذ أربعة وزراء بائسين ضبطوا متلبسين بتهمة التآمر لاحداث انقلاب !

فماذا حدث ؟ انكم قد أثرتم الريب والشكوك ، نظرا لانكم لم تكونوا مخلصين . وعندما رأى الشعب أن الغرض هو خداعه غضب على هذه المسألة برمتها وحدث أمر جدير بالملاحظة ، فقد تحمس الشعب لحكم الاعدام مع أنه هو الذى يتحمل عبئه كله ! ان افتقاركم الى المهارة هو الذى جعل الامور تسير على هذا النحو ، فأنتم قد أسأتم الى هذه المسألة اساءة طويلة الامد بمعالجتكم اياها على هذا النحو من اللف والدوران وعدم الصراحة . لقد كنتم تمثلون رواية هزلية فصفر النظارة لكم .

ومع ذلك ، فقد أخذت بعض النفوس هذه المهزلة مأخذ الجد ، وصدر الامر ، بعد جلسة البرلمان المشهورة مباشرة ، من حامل الاختام — وهو رجل شريف — الى رؤساء النيابة بايقاف تنفيذ أحكام الاعدام الى أجل غير مسمى . وكان ذلك خطوة كبرى فى الظاهر ، وتنفس أعداء عقوبة الاعدام الصعداء ولكن فرحتهم لم تتم . كانت وهما قصير الأمد .

وانتهت محاكمة الوزراء ، ولا أعرف الحكم الذى صدر عليهم ، وأنقذت رءوسهم الاربعة ، واختير لهم سجن «هام — Ham » كحل وسط بين الموت والحرية . وبعد أن

تمت كل هذه الاجراءات ، تلاشى كل اثر للخوف من نفوس القادة من رجال الحكم ، ومع ذهاب الخوف تلاشت كل المشاعر الانسانية ، ولم يعد احد منهم يذكر الغاء عقوبة الاعدام .. ولما لم يعد من مصلحتهم اثارة هذه المسألة ، عاد الخيال خيالا ، وارتدت النظرية الى سيرتها الاولى ، وانقلب الشعر شعرا كما كان من قبل .

ومع ذلك ، كان لا يزال هناك فى السجون بعض البائسين من المحكوم عليهم بالاعدام العاديين ، كانوا يتنزهون فى ردهات السجون منذ خمسة أشهر او ستة ، وهم يستنشقون الهواء وقد هدأت انفسهم منذ اثارة هذه المسألة فى البرلمان ، ووثقوا من أنهم سوف يعيشون وقد اعتقدوا أن ايقاف التنفيذ هذا معناه العفو عنهم .. ولكن، صبرا لحظة !

***

حقا لقد كان الجلاد خائفا للغاية ، ففى اليوم الذى كان قد سمع فيه المشرعين يتحدثون عن الانسانية وعن حب الغير وعن التقدم ، ظن أنه ضائع لا محالة ! وبلغ من تعاسته أنه اختبأ تحت مقصلته وهو لا يحس بادنى سرور او ارتياح تحت شمس شهر يوليو ، كبومة فى وضح النهار ، وهو يحاول جاهدا أن يجعل الناس ينسون أمره، وكان يسد أذنيه ، ولا يجرؤ على أن يلتقط أنفاسه .. لم يعد يراه احد منذ ستة اشهر ، ولم يكن احد يدرى ما اذا كان ميتا أو لا يزال على قيد الحياة ، ومع ذلك فقد خذ الرجل يطمئن رويدا رويدا فى ظلماته ، وكان ينصت لى ماكان يدور فى البرلمان فلم يعد يسمعهم ينطقون

باسمه ، ولم يعد يسمع تلك الكلمات الرنانة التى كانت قد القت فى قلبه الرعب . لم تعد ثمة تعليقات بليغة عن كيفية معالجة الجرائم والعقوبات ، فقد كانوا يهتمون بأشياء أخرى على شيء من الخطورة فيما يختص بمصلحة المجتمع ، كطريق يصل بين قريتين ، أو منح اعانة لممثلى دار الاوبرا ، أو زيادة الميزانية الهزيلة بمقدار مائة الف من الفرنكات !! لم يعد يفكر فيه أحد ، هو : قاطع الرءوس !

وما ان راى الرجل ذلك حتى اطمأن قلبه ، وأطل برأسه خارج الجحر مقلبا بصره فى جميع الاتجاهات ، ثم خطا الى الأمام خطوة أو خطوتين ، كما يفعل أى فار من فئران الشاعر « لافونتين » ، وبعد ذلك خاطر بأن خرج تماما من مخبئه ، ثم قفز على المقصلة واخذ يعدها ويمسحها ويصلح من شأنها ، ثم لمعها وداعبها وجربها « على الفاضى » وهو يعد نفسه بأن يقدم عملا لهذه الآلة القديمة التى علاها الصدأ وأتلفتها البطالة !!

وتلفت الجلاد خلفه فجأة ، وامسك بأحد هؤلاء المنكودى الحظ كما سمحت له الصدفة فى أول سجن صادفه ، أحد هؤلاء الذين كانوا يعولون على الحياة ، امسك به من شعره وجذبه اليه ، ثم جرده من ملابسه ، وشد وثاقه ، وأعدمه .. وهكذا عادت عقوبة الاعدام !

ان هذا كله شيء شنيع .. ولكنه التاريخ !

نعم ، لقد كانت هناك فترة مدتها ستة أشهر أجل فيها تنفيذ عقوبة الاعدام ومنحت لمسجونين تعساء ، ضوعفت لهم العقوبة مجانا على هذا النحو بجعلهم يأملون فى الحياة

ويتعلقون بها ، ثم .. بلا سبب .. ولغير ضرورة ، ولمجرد اللذة الغى وقف تنفيذ أحكام الاعدام ذات صباح ، وقطعت رءوس كل هؤلاء الناس فى برود شديد وبطريقة منظمة .. آه ! .. يا الهى ! هل لى أن أسألكم : ما ضرنا نحن جميعا لو عاش هؤلاء الرجال ؟ ألا يوجد فى فرنسا هواء يكفى الجميع ؟

ونظرا لان كاتبا صغيرا فى الحكومة كان لايعنيه الامر ، نهض من على مقعده ذات يوم ، وهو يقول : « هيا بنا !.. لم يعد أحد يفكر فى الغاء عقوبة الاعدام . لقد حـان الوقت لنعود الى قطع الرقاب بالمقصلة ! » لابد أن يكون قد حدث فى قلب هذا الرجل أمر وحشى ، أمـر بالغ الشناعة !

ونرى لزاما علينا أن نقول من ناحية أخرى أنه لم تصاحب تنفيذ أحكام الاعدام ظروف أكثر بشاعة قط الا منذ الغاء وقف تنفيذ احكام الاعدام ، الذى صدر الأمر به فى شهر يوليو ــ ولم تكن قصص مايجرى فى ساحة الاعدام قط أكثر اثارة للنفوس ، مما يبرهن تماما على مقت النـاس لعقوبة الاعدام .. ان ازدياد فزع الناس من هذا الحكم انما هو عقاب عدل موجه لاولئك الذين أعـادوا تطبيق قانون الدم ، فليلقوا جزاء وفاقا على ماصنعوه .

***

ويجب أن نذكر هنا مثلين أو ثلاثة أمثال لما حـدث فى بعض وقائع الاعدام ، مما ينضح بشاعة وقذارة . يجب علينا أن نرهق أعصاب زوجات وكلاء النيابة ، فالمـرأة لها أثرها أحيانا فى ايقاظ الضمير .

في نهاية شهر سبتمبر الماضي على وجه التقريب ، وفي أواسط فرنسا ـ ولا يحضرنا تماما المكان ، واليوم ، واسم المحكوم عليه ، ولكننا سوف نعثر على هذا كله اذا حدث أن شك أحد أو عارض في صحة هذه الواقعة ـ ونعتقد أن ذلك حدث في « باميه » . فقد دخلوا على رجل في سجنه حيث كان يلعب الورق في هدوء ، فأعلنـوه بأنه سوف يموت بعد ساعتين ، فأرسل هذا القول رجفـة قاسية في كل أوصاله . ذلك أنهم كانوا قد نسوا أمـره لستة أشهر فلم يعد يفكر في الموت .. وحلقوا للرجـل لحيته ، وقصوا له شعره ، وأوثقوه بالحبال ، وجعلوه يعترف أمام القسيس . ثم أركبوه عربة « كارو » بين أربعة من الجنود ، ومروا به خلال الجماهير حتى وصلوا الى مكان التنفيذ .

والى هنا ، فالامر يهون ، اذ أنه يتم على هذا النحو . ولما بلغ الرجل مكان الآلة الرهيبة تلقاه الجـلاد مـن القسيس ، وحمله وربطه على المقصلة ، ثم جعله يطأطىء رأسه وهوت السكين . لقد تحرك المثلث الحديدى الثقيل في صعوبة ثم هوى وهو يحك في مجراه ! وهنا بدأت البشاعة ، فقد أخذت السكين تحز في رقبة الرجل دون أن تذبحه ، فصاح صيحة بشعة . وحار الجلاد في الامر فرفع السكين ثم تركها تهوى من جديد . فعضت رقبة السكين مرة أخرى ولكنها لم تقطعها . فصرخ المحكوم عليه ، وصاح الجمهور كذلك ، فرفع الجلاد السكين مرة ثالثة وهو يأمل خيرا في الضربة الثالثة ولكن .. بلا جدوى !

ان الضربة الثالثة قد فجرت نهرا ثالثا من الدماء الذى يجرى على رقبة المحكوم عليه ولكنها لم تطح برقبته !

والآن فلنوجز : ان السكين قد رفعت ثم هوت خمس مرات وخمس مرات جرحت المحكوم عليه ، وخمس مرات صرخ الرجل من أثر الضربة ، وهز راسه الحى وهو يطلب الرحمة ! فثار الشعب وأمسك بأحجار ليرجم بها الجلاد التعس ، فهرب الجلاد تحت المقصلة واحتمى خلف خيول الجنود .. ولكن هذه ليست نهاية المأساة ..

ان المحكوم عليه حينما وجد نفسه وحيدا على المقصلة، اعتدل على اللوحة الخشبية وظل واقفا هناك بمنظره المفزع ، وهو يقطر دما ويسند رأسه نصف المقطوع ،الذى كان يتدلى على كتفه ، وراح يطلب فى صياح مبحوح أن يفكوا وثاقه !

فغمرت الشفقة قلب الجمهور ، وهم بأن يقتحم نطاق الجنود وأن يخف لنجدة هذا البائس الذى نفذ فيه حكم الاعدام خمس مرات . وفى تلك اللحظة بالذات ، صعد على المقصلة صبى الجلاد ، وهو شاب فى نحو العشرين من عمره ، وأمر المحكوم عليه بأن يستدير كى يفك وثاقه ، ثم استغل وضع هذا الرجل المشرف على الموت ، الذى كان يسلم نفسه اليه بسلامة نية ، فوثب على ظهره وشرع يقطع له فى صعوبة ما كان قد تبقى من رقبته بسكين جزار !

ان هذا قد حدث ورآه الناس رأى العين .. نعم ، رأوه رأى العين !

وكان هناك بحسب نص القانون ، قاض يشهد تنفيذ هذا الحكم . وكان يستطيع باشارة منه أن يوقف كل شيء! فماذا كان يفعل هذا الرجل اذن وهو فى عربته بينما كانوا يقتالون انسانا ؟ ماذا كان يفعل معاقب القتلة هذا فى الوقت الذى كانت عملية اغتيال تجرى فى وضح النهار ، امام عينيه ، وتحت خيول عربته ، وتحت زجاج نافذتها ؟ .

لم يقدم القاضى للمحاكمة ! ولم يقدم الجلاد للمحاكمة ، ولم تحقق اية محكمة فى هذا الافناء الوحشى لجميع القوانين فى شخص مخلوق مقدس من مخلوقات الله !

***

فى عصر همجية القانون الجنائى فى القرن السابع عشر ، ابان حكم « ريشيليو » وحكم « كريستوف فوكيه » ، حينما اعدم السيد « دى شاليه » أمام الناس فى ميدان بمدينة « نانت » على يدى جندى غير ماهر ضربه أربعا وثلاثين ضربة (١) بآلة حادة يستعملها صانع البراميل فى تجميع الخشب ، وذلك بدلا من أن يضربه ضربة واحدة بسيف ، بدا هذا على الاقل أمرا غير مشروع فى نظر برلمان باريس ، فأجرى تحقيقا واقيمت قضية . ولئن كان ريشيليو لم يعاقب ، ولئن كان كريستوف فوكيه لم يعاقب فان ذلك الجندى قد لقى جزاءه . كان هذا ظلما دون شك ، ولكنه ظلم يكمن العدل وراءه !

(١) يقول لايورت انها اثنتان وعشرون ضربة ويقول (اوبرى) انها اربع وثلاثون .. وكان مسيو (دى شاليه) يصرخ فى كل مرة حتى الضربة العشرين !

أما هنا ، فلم يحدث شيء على الاطلاق . لقد وقع هذا الحادث بعد شهر يوليو في وقت سادت فيه الطباع الرقيقة والتقدم ، وبعد عام واحد من « محزنة » البرلمان المشهورة على عقوبة الاعدام . حسنا ! ان هذا الحادث لم يذكره أحد على الاطلاق ، ونشرته صحف باريس كأنه حكاية عادية ، ولم يحاكم أحد بسببه ولم يوجه الاتهام الى أحد!

كان كل ماعرفوه أن المقصلة قد أتلفت عمدا ، أتلفها شخص كان « يريد أن يضر بمنفذ أحكام القضاء » ، كان هذا الشخص هو أحد خدم الجلاد ، وقد دبر هذه المكيدة لينتقم من سيده لانه كان قد طرده من خدمته .

لم تكن هذه الا مكيدة خادم ، فلنتابع سرد أمثلتنا اذن :

وفي مدينة « ديجون » ، سيقت امرأة منذ ثلاثة أشهر الى ساحة الاعدام ، « تصوروا .. امرأة ! » ، وفي هذه المرة ايضا لم تؤد سكين الدكتور جيوتان (١) عملها كما يجب ، فلم تقطع الراس تماما بحيث ينفصل عن الجسم . وعندئذ ، تعلق مساعدو الجلاد بقدمي المرأة ، وفصلوا راس البائسة عن جسدها وهي تطلق صرخات مدوية ، بأن انتزعوها انتزاعا بقوة الشد والجذب .

وفي باريس ، نعود الى الوقت الذي كان يجري فيه تنفيذ عقوبة الاعدام في السر . فنظرا الى أنهم كانوا منذ شهر يوليو لا يجرءون على تنفيذ أحكام الاعدام في

(١) يعني المقصلة التي عرفت في فرنسا منذ الثورة الفرنسية بهذا الاسم ، نسبة الى مخترعها الدكتور جيوتان — المترجم .

ساحة الاعدام ، والى انهم كانوا خائفين ، وبما أنهم كانوا جبناء ، فان هذا هو ماحدث :

لقد أخذوا أخيرا من سجن « بيستر » رجلا محكوما عليه بالاعدام ، يدعى « ديزاندريو » على ما اعتقد ، ووضعوه فى شيء يجر على عجلتين ، مغلقا من كل نواحيه كسلة ، ومقفلا قفلا محكما بالاقفال والمزاليج ، ثم ساروا به دون جلبة وبلا جمهور يرافقه ، بين جنديين أحدهما أمامه والآخر من خلفه ، ثم ألقوا بالسلة والرجل الذى فيها فى وسط الحقول خارج باريس ، فيما وراء حى «سان جاك » .. وكانت الساعة الثامنة صباحا فى مطلع النهار عندما وصلوا الى هناك ، وكانت هناك مقصلة « طازجة» لم تستعمل بعد أعدت خصيصا لهذا الرجل ، وكان الذين شهدوا هذا المنظر بضعة غلمان صغار اجتمعوا على كومة احجار قريبة حول تلك الآلة التى نصبت على غير انتظار .. ثم أخرج الرجل من السلة فى سرعة ، ودون أن تتاح له اية فرصة ليلتقط انفاسه ، ثم قطع رأسه خلسة فى صورة تنطوى على الخيانة والعار ! .. وهذا هو ما يسمونه « عملا رسميا وعاما من أعماله العدالة الكبرى » ، فيالها من سخرية دنيئة !

فكيف اذن يفهم رجال الملك كلمة المدنية ؟ وفى اى عصر نعيش ؟ ان العدالة قد انحطت حتى أضحت حيلا وخططا قيا للشناعة !

ان الشخص المحكوم عليه بالاعدام اذن شيء مخيف للغاية يخشى المجتمع بأسه ، ويأخذ حذره منه الى هذا الحد وعلى هذا النحو !

ومع ذلك ، فلنكن منصفين ! ذلك أن تنفيذ عقوبة الاعدام لم يكن بطريقة سرية تماما . ففي الصباح ، نادى المنادون كالمعتاد ، وبيع حكم الاعدام في شوارع باريس وميادينها .. ويبدو أن هناك أناسا يعيشون من بيع هذه الاشياء ، فهل تسمعون ؟ انهم يتخذون من جريمة انسان سيىء الحظ ومن عقابه وعذابه واحتضاره سلعة تباع الورقة منها بدرهم ! فهل في وسعكم أن تتخيلوا شيئا أكثر قبحا من هذا الدرهم الملطخ بالدم ؟ فمن ذا الذي يلتقطه اذن من بينكم ؟

تلك وقائع كافية ، كافية أكثر مما ينبغي .. أليس هذا كله شيئا مروعا ؟ فماذا لديكم تستطيعون به أن تؤيدوا عقوبة الاعدام ؟

اننا نلقي عليكم هذا السؤال بصورة جدية ، نلقيه عليكم كي تجيبونا عنه . اننا نوجهه الى علماء الجريمة لا الى المثقفين الثرثارين ، فنحن نعلم أن هناك من يؤيد عقوبة الاعدام ، لا لشيء الا ليخالف بذلك رأى الغير كما يفعل في كل شيء . وأن هناك آخرين لا يحبون عقوبة الاعدام الا لانهم يكرهون زيدا أو عمرا ممن يهاجمونها : فهي بالنسبة اليهم مسألة كلام ... مسألة اشخاص .. مسألة افراد يسمون فلانا وفلانا . هؤلاء هم الحساد ، وكثيرون منهم من المشرعين ومن كبار الفنانين ، ومثلهم كمثل « جوزيف جريبا » في معارضه « لفيلانجييرى » ، وكمثل « توريجيانى » في نقده « لمايكل انجلو » ، وكمثل « سكوديرى » في تحديه للكاتب المسرحي « كورنى »

اننا لا نتوجه بالحديث الى هؤلاء الناس ، وانما الى رجال القانون بمعنى الكلمة ، والى المفكرين وذوى المنطق السليم ، الى أولئك الذين يحبون عقوبة الاعدام لانها عقوبة الاعدام ، يحبونها لجمالها وطيبتها وحسنها !

هيا اذن .. فليدلوا بدلوهم ، وليقدموا لنا حججهم .

يقول الذين يحاكمون غيرهم ويصدرون عليهم الاحكام أن عقوبة الاعدام امر ضرورى ، أولا : « لان من الضرورى أن نبتر من المجتمع عضوا قد أساء اليه من قبل وقد يسيء اليه بعد ذلك . . فاذا كان الامر مقصـــورا على ذلك فالسجن المؤبد يكفى . فلماذا الموت اذن ؟ أتفترضون انه يمكن الفرار من السجن ؟ حسنا .. فلتشددوا الحراسة. فان كنتم لا تثقون من متانة القضبان الحديدية ، فكيف تتجرءون على أن تحبسوا وراءها الوحوش الضارية ؟

ليس ثمة مايدعو الى وجود الجلاد مادام السجان يكفى

ولكنهم يستطردون فيقولون : « ان المجتمع يجب أن يثأر لنفسه وأن يعاقب . « كلا ، لا هذا ولا ذاك ، فالثأر شيء فردى ، أما العقاب فبيد الله »

والمجتمع بين اثنين : العقاب فوق المجتمع ، والانتقام أقل منه . الأول كبير للغاية ، والثانى صغير للغاية،وكلاهما لا يلائمه . ومن واجب المجتمع الا « يعاقب لينتقم » ، بل أن « يصلح ليصل الى ماهو أحسن » .. فغيروا اذن صيغة علماء الاجرام على هذا النحو ، فنحن نفهمها ونقبلها على هذا التعديل .

يبقى السبب الثالث والاخير ، وهو نظرية ضرب المثل:

« يجب أن يضرب المثل الرادع ! .. يجب الارهاب بمنظر المصير الذى ينتظر المجرمين ، تلقى به الخوف فى قلوب الذين يميلون الى محاكاتهم ! » .. ان هذه العبارة تكاد تكون بالحرف الواحد تلك الجملة الخالدة التى يرددها ممثلو الاتهام فى « النيابات » الخمسمائة الموجـودة فى انحاء فرنسا مع تغيير طفيف رنان !

حسنا .. اننا ننكر اولا ان هناك مثلا وعبرة ، ننكر أن منظر التعذيب يأتى بالنتيجة المرجوة منه ، فهو بدلا من ان يهذب الشعب ، يضعف من روحه المعنوية ويقتل لديه كل شعور ، وبالتالى كل فضيلة . والادلة على هـــذا كثيرة ، يزدحم بها استدلالنا لو اردنا أن نذكرها . ومع ذلك فسوف نسوق واقعة من بين الف واقعة ، ذلك لانها وقعت حديثا جدا ونحن نكتب ، منذ عشرة أيام فقط ، وهى ترجع على التحديد الى يوم ٥ مارس الماضى ، يوم المهرجان .

فقد حدث فى مدينة « سان بول » ، عقب اعــــدام رجل يدعى « لويس كامى » مباشرة ، وكان قد ارتــكب جريمة حريق ، حدث أن جاء نفر من الملثمين ليرقصــوا حول المشنقة وهى لا تزال ساخنة ، وكان ذلك فى يوم من ايام الاعياد المسيحية ! .. فاضربوا المثل اذن التماسا للعبرة !

نعم ، نعم .. انكم تستمسكون بنظريتكم الروتينية فى المثل رغم التجربة . فلنعد اذن الى القرن السادس عشر ، وعليكم ان تكونوا مرعبين حقا ! اعيدوا مختلف انواع

التعذيب .. اعيدوا الينا « فاريناشى » والاشخاص الذين كانوا يكلفون رسميا بالتعذيب .. أعيدوا لنا الصلب والحرق وتمزيق الاوصال واقتلاع الاظافر وقطع الاذن ودفن المرء حيا وغلى أعضاء الجسم والمرء حى يعيش !! أعيدوا لنا عند كل ناصية فى شوارع باريس ، منظر الجلاد البشع كأنه حانوت جديد مفتوح كبقية الحوانيت ، ومزود بصفة مستمرة باللحم الآدمى الطازج ! أعيدوا الينا ساحة الاعدام التى كانت مهيأة فى « مونفوكون » بقواعدها الحجرية الست عشرة ، وجلاديها الجالسين و «بدروماتها» المملوءة بالعظام ، وألواح التعذيب الخشبية ، و«كلاباتها» وسلاسلها ، وخوازيقها ، وغربانها التى تنهش جثثها العفنة !! نعم ، أعيدوا ساحة الاعدام هذه مع المشانق الملحقة بها ورائحة الجثث النتنة التى كانت رياح الشمال الغربى تنقلها وتحملها معها على طول حى « التامبل » فى ضواحى باريس !! اعيدوا الينا صبى جلاد باريس العظيم فى قوته وسطوته واستمراره وجبروته !.. حسنا ! .. هذا هو مثلكم بصورة مكبرة !! هذه هى عقوبة الاعدام مفهومة فهما جيدا . انها طريقة للتعذيب على نطاق واسع وهذا هو الشىء الشنيع المروع !

أوه ! افعلوا ما يفعلونه فى انجلترا ففى انجلترا ـ وهى بلاد التجارة ـ يأخذون مهربا الى ساحل « دوفر » حيث يشنقونه ضربا للمثل ، ولضرب المثل أيضا يتركونه معلقا فى حبل المشنقة ! ولكن ، نظرا الى أن تقلبات الجو قد تتلف الجثة ، فانهم يغلفونها فى عناية بقماش مدهون

بالقطران ، وذلك حتى لا يضطرهم الامر الى تجديد هذا الغلاف الا أقل عدد ممكن من المرات .. فيالله من بلد يتوخى الاقتصاد ! بلد يطلون فيه المشنوقين بالقطران !

ومع هذا ، فان ذلك فيه شيء من المنطق ، فهو أكثر الطرق انسانية لفهم نظرية المثل .

ولكن انتم .. اصحيح أنكم جادون حقا ، اذ تعتقدون أنكم تضربون مثلا حين تقطعون رقبة انسان بائس ، بطريقة تعسة في ركن قصي مهجور من مشارف العاصمة؟ قد يكون هذا مقبولا لو انه تم في ساحة الاعدام ، وفي وضح النهار ! ولكن ، أن يحدث ذلك في حقول ضاحية من ضواحي باريس .. في « سان جاك » ؟ .. وفي الثامنة صباحا والنهار لم يكد يطلع بعد ؟ من ذا الذي يمر من هناك ؟ ومن ذا الذي يرى ذلك ؟ ومن ذا الذي يعرف أنكم تقتلون رجلا في ذلك المكان ؟ ومن ذا الذي يشك في أنكم تضربون مثلا هنالك ؟ مثلا لمن ؟ لاشجار الطريق طبعا !

أفلا ترون اذن أن تنفيذكم لحكم الاعدام علنا يتم خلسة؟ أفلا ترون اذن أنكم تختبئون ؟ وانكم تخافون وتخجلون من فعلتكم ؟ وانكم تتمتمون على نحو يدعو الى السخرية قائلين أن هذه هي العدالة ؟ انكم في الواقع خجلون وجلون أيها السادة ، ومزعزعون قلقون ، وغير واثقين من انكم على حق ، وأن الشك الذي لدى الجميع قد تسرب الى نفوسكم ، وانكم تقطعون الرءوس على سبيل « الروتين » دون أن تعرفوا تماما ما تفعلون ! أفلا تشعرون في قرارة أنفسكم انكم قد فقدتم على الاقل الشعور الاخلاقي والاجتماعي

برسالة الدم التى كان أسلافكم القضاة العتاة يؤدونهـــا بضمير مطمئن للغاية ؟ وفى الليل ؟ أفلا تتقلبون عـــلى وسائدكم أكثر مما كانوا يتقلبون ؟ ان آخرين من قبلكم قد أمروا بتنفيذ العقوبة القصوى ، عقوبة الاعدام ، غير انهم كانوا يعتقدون انهم على حق ، وأنهم عدول وأنهم يحسنون صنعا . ان « جوفينيل ديزرسان » كان يعتقد أنه قاض ، و « ايلى دى توريت » كان يعتقد أنه قاض،و«لوباردومون» و « لارينيى » و « لافوماس » كانوا يعتقدون أنهم قضاة .. أما أنتم .. أما أنتم فلستم موقنين تماما فى قرارة أنفسكم انكم لستم قتلة !

انكم تتركون ساحة الاعدام الى ساحية « سان جاك»، وتفرون من الجمهور الى العزلة ، ومن النهار الى الغسق ولا تقومون بما تقومون به فى ثقة وثبات . ولست اتردد فى أن اقول لكم : انكم تختبئون !

هذه هى كل الاسباب التى تنتحلونها لعقوبة الاعـدام قد تحطمت اذن ، وهذا هو منطق ممثلى الاتهام بأسره قد أصبح عدما ، وهذه كل مرافعات النيابة قد فنــــدت فصارت رمادا . ان أقل لمسة من المنطق لابد أن تذيب كل تفكير معوج .

انه لا ينبغى اذن ان يأتينا رجال الملك بعد الآن يطالبوننا — نحن المحلفين — برءوس جديدة ، نحن الرجال ، وهم يرجوننا فى صوت يداعبنا باسم المجتمع الذى تجب حمايته وباسم الثأر للشعب ، أن نضمن لهم ضرب المثل الرادع ، ان هذا كله ليس الا بلاغة وكلاما أجوف ، ليس الا مجرد بالون منفوخ تكفى وخزة بسيطة من دبوس ، كى تحيله

الى لا شيء ، اذ ليس وراء هذه الثرثرة الحلوة غير قسوة القلب والشراسة والهمجية ، والرغبة فى اظهار التحمس للعمل وضرورة كسب العيش . اصمتوا ايها السادة ، فاننا نحس بمخالب الجلاد تحت أنامل القاضى الحريرية !

انه ليشق علينا أن نفكر فى برود فى أمر مدع عام جرىء . انه رجل يكسب عيشه بارسال الاخرين الى المشنقة ، فهو المورد الرسمى لساحات الاعدام ! ومن ناحية آخرى ، فهو رجل يزعم لنفسه الاسلوب الادبى الجميل ، وهو ذلق اللسان ، أو يحسب أنه كذلك ، ويردد عند الحاجة بيتا أو بيتين من الشعر اللاتينى قبل أن يسوق انسانا الى الموت ، ويحاول جاهدا أن يحدث فى مستمعيه التأثير الذى يريده ، وهو شديد العناية بأمر كرامته — يا للشقاء ! هذا فى الوقت الذى تكون فيه حياة الاخرين فى الميزان ! ان لهذا المدعى العام نماذج : نماذج خاصة يتعذر على المرء أن يبلغ مستواها ، مثل « بلار » ، و « مارشانجى » تماما كما يكون للشعراء نماذج تحتذى مثل « راسين » أو « بوالو » . وفى المناقشات التى تدور فى المحكمة ، تراه يجنح دائما الى ناحية المقصلة ، ولا غرو فهى دوره ، وهى شغله الشاغل . والاتهام الذى يوجهه انما هو عمله الأدبى الذى يزينه بالاستعارات ، ويعطره بالنصوص ، يستشهد بها كى يظفر باستحسان الحاضرين فى الجلسة ، وينتزع اعجاب السيدات ، ولديه ذخيرة من الافكار الشائعة التى لا تزال جديدة تماما على البيئات الريفية ، وله بلاغته فى التعبير ، واسلوبه الرقيق المصطنع الذى يشبه فى رقته اساليب

الكتاب . انه يكره الكلمة الخالية من الاستعارة ، مقتـا يدانى المقت الذى يضمره لها شعراؤنا المنتمـون الى مدرسة « دوليل » فلا تخشوا اذن أن يسـمى الاشياء بأسمائها فذلك لن يحدث ، اذ أن لديه قناعا كاملا من النعوت والصفات لكل فكرة يمكن أن تثيركم وهى مجردة عارية . ان فى وسعه أن يجعل الامر المفزع مقبولا، ويخفف من حدة سكين المقصلة ، ويوازن الميزان ، ويغلف السلة الحمراء (١) فى غلالة رقيقة من الاستعارات . انه رقيق ومتحفظ ، فهل تتصورونه بالليل فى مكتبه ، وهو يتأنق فى اعداد هذه الخطبة التى ستنصب بسببها المشنقة بعد ستة أسابيع ؟ هل ترونه وهو يعرق دما وماء كى يحاصر رأس متهم فى أسوأ بند من بنود القانون ؟ وهل تبصرونه وهو « ينشر » رقبة انسان بائس بمنشار قانون اسىء صنعه ؟ ألم تلاحظوا كيف ينقع ثلاثة نصوص أو اربعة سامة فى فيض من العبارات البليغة ، كى يعبر بها ، ويستخرج منها بجهد جهيد موت انسان ؟ أفلا يحتمل أن يكون الجلاد قاعدا القرفصاء عند قدميه فى الظلام ، تحت مكتبه وهو جالس يكتب ، وأنه قد يكف عن الكتابة بين آن واخر ، ليقول له كما يقول السيد لكلبه : « اهدأ اهدأ ، فسوف تنال عظمتك ! » .

ومن ناحية اخرى ، فقد يكون رجل الادعاء هـذا فى حياته الخاصة رجلا شريفا ، وأبا عطوفا ، وابنا صالحا ، وزوجا مخلصا ، وصديقا وفيا .. الى غير ذلك ممـا

(١) اى سلة المقصلة التى يسقط فيها رأس المحكوم عليه عند قطعه .

تذكره العبارات الطيبة المنقوشة على لوحات القبور في مدافن « لاشيز » ..

فلنأمل اذن أن يأتي اليوم الذي يلغي فيه القانون هذه الوظائف المحزنة ، وجو حضارتنا وحده هو المسئول عن القضاء على عقوبة الاعدام في فترة معينة من الزمن .

ويغلب على ظننا في بعض الاحيان أن الذين يدافعون عن عقوبة الاعدام لم يفكروا فيها فيحسنوا التفكير . ولكن ، ضعوا اذن بعض الجرائم في الميزان ، فهذا القانون العنيف يخول للمجتمع الحق في أن يسلب من الانسان شيئا لم يمنحه اياه ، وهذه العقوبة انما هي أكثر العقوبات التي لا يمكن اصلاح نتائجها وأشدها استعصاء على الاصلاح !

ذلك أن أمامكم أمرين لا ثالث لهما :

فاما أن يكون الرجل الذي تقضون على حياته لا أسرة له ولا أهل ولا روابط في هذا العالم ، وفي هذه الحالة لا يكون قد تلقى تربية أو تعليما أو عناية ما ، بنفسه أو بقلبه .. فبأي حق اذن تقتلون هذا اليتيم البائس ؟ أتعاقبونه لانه كان يزحف في طفولته على أرض لاسند له فيها ولا مرشد ولا معين ؟ انكم تعاقبونه اذن على العزلة التي تركتموه يهيم فيها على وجهه ، وتجعلون من مصيبته هذه جريمة ، وهو الذي لم يعلمه أحد ماذا كان عليه أن يفعل ! انه رجل جاهل ، والخطأ ليس خطأه ولكنه خطأ القدر .. انكم تعاقبون بريئا !

واما أن هذا الرجل ذو أسرة . فهل تحسبون عندئذ أن الضربة التي تقطعون بها رقبته لا تصيب الا اياه ؟ وأن

أباه ، وأمه ، وأولاده لن يقطروا دما كذلك ؟ كلا ، فأنتم بقتله انما تقطعون رقبات أسرة بأسرها . فأنتم هنا كذلك تعاقبون الابرياء !

ان عقوبة الاعدام عقوبة شاذة عمياء ، على اى وجه نقلبها نجدها تصيب البرىء !

اسجنوا هذا الرجل ، هذا المذنب الذى له أسرة ؛ فسوف يستطيع وهو فى سجنه أن يتابع العمل من أجل ذويه ، اذ كيف يكون فى وسعه أن يعولهم وأن يجعلهم يعيشون وهو راقد فى قاع قبره ؟ ترى هل تفكرون دون أن تأخذكم الرجفة فيما سيئول اليه امر هؤلاء الاولاد الصغار ، والبنات الصغيرات الذين تنتزعون منهم والدهم ، أعنى لقمة العيش ! أم هل تعولون على هذه الاسرة لتزودوا بها الليمان بعد خمسة عشر عاما ؟ ... آه ! يا للابرياء المساكين !

عندما يصدر حكم بالاعدام على عبد رقيق فى المستعمرات ، فانهم يدفعون لصاحبه ومالكه تعويضا مقداره ألف فرنك ! ماذا أيها السادة ؟ انكم تعوضون خسارة السيد ولا تعوضون الاسرة شيئا ! وهنا أيضا بالله عليكم ، الا تنتزعون رجلا من بين ذويه أصحاب الحق فيه ؟ أو ليس هو ملكا لوالده ولزوجته ولابنائه الى حد يبلغ فى القداسة أكبر كثيرا من درجة ملكية السيد لعبده ؟ .

لقد سبق لنا أيها السادة أن اتهمنا قانونكم هذا بأنه اغتيال ، وهانحن أولاء نتهمه الآن بأنه سرقة .

وثمة شيء آخر : فهل فكرتم فى روح هذا الرجل ؟وهل تجرءون على ازهاقها بمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا

الاستخفاف ؟ فيما مضى ، على الاقل ، كان هناك شيء من الايمان فى قلوب الناس ، وفى اللحظة الحاسمة كانت نفحة الدين المنبثة فى الهواء تلين أكثر القلوب قسوة وصلابة ، فكان المحكوم عليه فى نفس الوقت تائبا يكفر عن ذنب قد ارتكبه ، وكان الدين يفتح أمامه عالما ، فى نفس اللحظة التى كان المجتمع فيها يغلق فى وجهه عالما آخر . كانت النفوس جميعا تثق بالله ، ولم تكن المشنقة الا حدا من حدود السماء ، أما الآن ، فما هو الامل الذى تضعونه فى مشنقة لا تؤمن بها الغالبية العظمى من الجماهير ؟

ليست هذه من غير شك الا « أسبابا عاطفية » كما يقول بعض الذين يزدرون العاطفة ولا يستمدون منطقهم الا من رءوسهم ، غير أنها فى نظرنا هى أفضل الاسباب ، ونحن غالبا ما نفضل الاسباب العاطفية على العقلية . ويجب علينا الا ننسى من جهة أخرى أن النوعين يتساندان على الدوام ، فكتاب « قانون الجرائم » (١) مأخوذ من كتاب « روح القوانين » (٢) ، و « مونتسكيو » هو الذى انجب « بيكاريا » .

ان المنطق معنا ، والعاطفة معنا ، والتجربة تؤكد وجهة نظرنا كذلك . ففى الدول النموذجية حيث الغيت عقوبة الاعدام ، أخذ مجموع الجرائم الكبرى يقل باطراد عاما بعد عام ، فأدخلوا هذا فى حسابكم .

ومع ذلك ، فاننا لا نطالب فى الوقت الحاضر بالغاء عقوبة الاعدام الغاء تاما وبطريقة فجائية على النحو

---

(١) تاليف (بيكاريا) .

(٢) تاليف (مونتسكيو)

الطائش الذى اتبعه مجلس النواب ، بل نريد ، على العكس ، أن نجرب كل المحاولات ، وأن نتخذ كافة الاحتياطات ، وأن نلزم فى هذا الحذر كل الحذر . ومن جهة أخرى ، فاننا لا نريد الغاء عقوبة الاعدام فحسب ، وانما نريد كذلك تعديلا شاملا لكل أنواع العقوبات من أولها الى آخرها ، من الحبس البسيط الى المقصلة ، مع ملاحظة أن الزمن يعتبر أحد العوامل التى تجب مراعاتها فى عمل كهذا ، حتى يتم على الوجه الاكمل . وفى نيتنا أن نكتب المزيد فى هذا الموضوع شارحين الطرق والافكار التى تبدو فى نظرنا عملية ممكنة التطبيق. ولكن، اذا استثنينا الغاء حكم الاعدام جزئيا فى حالات تزييف النقد ، والحريق ، والسرقة المصحوبة بظروف مشددة ، الى غير ذلك ، فاننا نطالب منذ الآن ، وفى جميع القضايا الكبيرة ، بأن يلتزم رئيس المحكمة بأن يسأل المحلفين هذا السؤال : هل ارتكب المذنب جريمته بدافع من العاطفة او بدافع المنفعة ؟ فاذا جاء رد المحلفين بأن « المتهم قد أرتكب ما ارتكبه بدافع العاطفة » فيجب الا يصدر عليه حكم بالاعدام .. فهذا كفيل على الاقل بأن يبعد عنا بعض احكام الاعدام التى تثير نفوسنا ، وكان ذلك خليقا بأن ينقذ حياة كل من « أولباخ » و « ديباكير » وهو خليق كذلك بأن ينقذ رقبة من يقف موقف « عطيل » (١) فى المستقبل .

ومن جهة أخرى ، فاننا يجب الا نخدع ، فمسألة عقوبة

(١) اشارة الى جريمة عطيل فى رواية شكسبير المعروفة عندما قتل زوجته بسبب الغيرة المتأججة .

الاعدام هذه تنضج يوما بعد يوم ، وسوف يحلها المجتمع بأسره ، كما نفعل ، قبل انقضاء وقت طويل . فليحذر علماء الجريمة المعاندون ، فقد أخذت أحكام الاعدام تتناقص منذ قرن من الزمان ، وأخذت تجنح تقريبا نحو شيء من اللين والحنان ، وهذا نذير شيخوخة واضمحلال : انه علامة من علامات الضعف ، علامة موت قريب . لقد انتهى زمن تعذيب المتهمين وربطهم على العجلة ، وولى عصر صلب المحكوم عليهم .. بل ان المقصلة ذاتها عبارة عن تقدم ! .. ان هذا لشيء عجيب ! لقد كان « السيد جيوتان » (١) انسانا خيرا حقا !

نعم .. ان هذه الآلة ذات الاسنان والتروس الرهيبة التي التهمت عددا ضخما من الرءوس – آلة«فارمناتشي» و « فوجلانس » و « دولانسكر » و « ايزاك لوازيل » و « أوبيد » و « ماشوه » – هذه الآلة قد بدأت تضمحل .. بدأت تهزل .. بدأت تموت !!

هاهي ذي ساحة الاعدام لا تريدها ، لان هذه الساحة تريد أن ترد لنفسها اعتبارها .. ان شاربة الدماء العجوز قد سلكت في شهر يوليو سلوكا حسنا (٢) ، فهي تريد منذ الآن أن تحيا حياة أفضل ، وأن تظل جديرة بصنيعها الاخير (٣) .. ان الحياء يعود اليها ، وهي التي كانت

---

(١) الدكتور (جيوتان) مخترع المقصلة وقد عرفت باسمه .

(٢) كناية عن أن المقصلة لم تقتل احدا في ذلك الشهر بعد أن صدر الامر بايقاف تنفيذ كل أحكام الاعدام الى أجل غير مسمى كما سبقت الاشارة الى ذلك – المترجم .

(٣) اى بعملها الصالح في شهر يوليو .

قد حلت محل المشانق من ثلاثة قرون ، فهى تخجل من مهنتها السابقة ، وتود أن تفقد اسمها البشع . انها تطلق الجلاد .. وتغسل الدم من فوق « بلاطها » .

وفى هذه الساعة ، تنفذ عقوبة الاعدام خارج باريس ! فلنقلها هنا اذن بصراحة ، فخروجها من باريس يعنى خروجها من المدنية .

ان جميع الاعراض فى صالحنا ، ويبدو كذلك أن هذه الآلة البشعة ، أو بالاحرى هذا الوحش المصـــــنوع من الخشب والحديد ، والذى هو تحفة الدكتور « جيوتان » يبدو أن هذه الآلة تغدر وتقاوم . اننا اذا نظرنا من زاوية معينة الى هذا العدد من أحكام الاعدام الرهيبة التى نفذت وسردنا تفاصيلها آنفا ، لوجدنا أنها تعتبر دلالات ممتازة ، فالمقصلة تتردد وتحجم وتقصر فى تأدية وظيفتها ، وهاهو ذا بناء عقوبة الاعدام العتيد العتيق بأسره قد أخــــذ يتفكك ويتداعى .

وسوف ترحل هذه الآلة البغيضة من فرنسا ، فنحن نقدر ذلك تقديرا ونعول عليه ، وهى سوف ترحل عرجاء ، باذن الله ، لأننا سنحاول جاهدين أن نوجه اليها ضربات قاصمة .

فلتذهب اذن عند قوم آخرين ، لتذهب عند شــعب همجى يقبل أن يستضيفها .

لقد كان البناء الاجتماعى يرتكز فيما مضى على ثلاث قواعد هى : القسيس ، والملك ، والجلاد . ومنذ زمــن بعيد ، ارتفع صوت يقول : « لقــــد ذهب ســـــلطان الاساقفة ! » ..

وفى السنوات الاخيرة صاح صوت آخر يقول : « ان الملوك ذهبوا ! » .. والآن ، حان الوقت ليرتفع صوت ثالث ويقول : « ان الجلاد راحل ! »

وهكذا ، يكون المجتمع القديم قد انهار حجرا بعد حجر ، وتكون العناية الالهية قد قوضت أركان الماضى بأسره .

ان الذين ندموا على تقلص نفوذ الدين ، استطعنا ان نقول لهم : ان الدين باق ، والذين يندمون على ذهاب الملوك نستطيع أن نقول لهم : ان الوطن باق . أما الذين سيندمون على ذهاب الجلاد فليس لدينا مانقوله لهم .

ولا يحسبن أحد أن النظام سوف يختفى باختفاء الجلاد فسوف لا تتداعى عمد المجتمع الجديد لان هذا المفتاح البشع المشئوم ينقصها ، وليست المدنية الا سلسلة من التغييرات المتتابعة ، فماذا أنتم واجدون عندئذ ؟

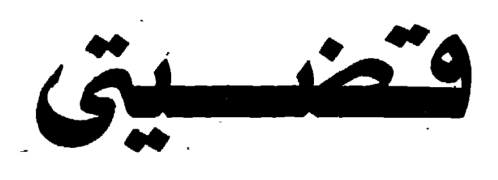
انكم ستشهدون تغيير العقوبات ، وسوف يدخل قانون المسيح الرحيم أخيرا فى اللوائح المعمول بها فى المحاكم ويشع من نوره عليها . اننا سننظر الى الجريمة على انها مرض ، وسوف يكون لهذا المرض أطباؤه الذين سيحتلون اماكن قضاتكم ، ومستشفياته التى ستحتل اماكن ليماناتكم .. ان الحرية والصحة ستجتمعان معا .

نعم ، اننا سنصب البلسم والزيت حيث كان يطبق الحديد والنار . وسوف نعالج هذا المرض بالرحمة والاحسان بعد ان كان يعالج بالغضب والانتقام .

وسوف يكون ذلك بسيطا ورائعا حقا .
فالاحسان يحل مكان الانتقام .
والرحمة تحل محل القتل .
وهذا كل مانهدف اليه .

فى ١٥ مارس عام ١٨٣٢

الفصل الاول :



فى سجن "بيستر"

محكوم على بالاعدام !

آه ! هاقد مضت على خمسة أسابيع وأنا أقيم وحدى مع هذه الفكرة ، وحدى دائما ، أتجمد رهبة لوجودها معى ، وأرزح تحت وطأتها على الدوام !

وقديما ، كنت رجلا كأى رجل آخر . وأقول «قديما» لان هذه الاسابيع الخمسة تبدو لى وكأنها دهر طويل ! كانت لدى فى كل يوم فكرة ، بل فى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ، وكانت نفسى الفنية الشـــابة حافلة بالنزوات والتصورات ، تتسلى بأن تسردها على واحدة بعد أخرى، بلا ترتيب وبلا نهاية ، وهى تطرز بالنقوش التى لا تنتهى هذا القماش الرفيع المتين الذى تنسجه الحياة .

كان رأسى وقتئذ عامرا بالفتيات الشابات ، وبملابس المطارنة البديعة ، وبالمعارك الرابحة ، والمســارح التى تغمرها الضوضاء والاضواء . وكان عامرا كذلك بالفتيات الصغيرات وبنزهات فى ظلام الليل الداجى تحت أغصان شجر الكستناء الطويلة . لقد كان فى خيالى عيد دائم

وكنت استطيع أن افكر فيما أريد في اى وقت .. فقد كنت حرا !

اما الآن فاني أسير . فجسمي مكبل بالحديد في زنزانة ، ونفسي سجينة في فكرة مروعة دامية لا ترحم ! ولم يعد لدى سوى فكرة واحدة ، سوى اقتناع واحد ويقين واحد : اني محكوم على بالاعدام !

ومهما فعلت ، فان هذه الفكرة الرهيبة هنا دائما ، الى جوارى ، وكأنها شبح جهنمي من الرصاص يقف غيورا بمفرده امامى انا البائس ، ويواجهني وجها لوجه ، فيطرد عنى كل تسلية ويهزنى هزا عنيفا بيدين فى مثل برودة الثلج كلما اردت أن أدير رأسى او أن اغمض عينى . ان هذه الفكرة المفزعة تتسلل الى بكل الطرق ، فى الوقت الذى تريد نفسي فيه ان تهرب منها ، وتمتزج كنغمة رهيبة بكل الالفاظ التى توجه الى ، وتلتصق بى فى أسوار زنزانتى الكئيبة ، وتطاردنى فى يقظتى ، وتتجسس على فى منامي المضطرب ، ثم تظهر مرة أخرى فى احلامى فى صورة سكين !

لقد استيقظت الآن فزعا بسببها وانا اقول فى نفسي : « انه ليس الا حلما ! » .. بحسنا ! فحتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت كى تنفتحا تماما لتريا هذه الفكرة المحتومة مكتوبة فى هذا الواقع المروع الذى يحيط بى على بلاط زنزانتى الرطب المبلل ، وفى ضوء مصباحى الليلى الخافت ، وفى نسيج ردائى الخشن الردىء ، وعلى وجه الحارس المظلم الذى كانت «زمزميته»

تلمع من خلال القضبان الحديدية .. حتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت لتريا كل ذلك ، فقد بدا لى أن صوتا قد همس فى أذنى يقول : « أنت محكوم عليك بالاعدام ! »

كان ذلك فى صبيحة يوم جميل من أيام شهر أغسطس، وكان قد مضى على موعد بدء نظر قضيتى ثلاثة أيام . كان اسمى وجريمتى يجمعان خلالها فى كل صباح جمعا غفيرا من المتفرجين ، كانوا يتهافتون على المقاعد فى قاعة الجلسة كما تتهافت الغربان على جثة عفنة ! ثلاثة أيام كانت استعراضات القضاة والشهود والمحامين ، وممثلى الاتهام باسم الملك ، تمر خلالها ثم تمر من أمامى ، فتثير السخرية تارة ، وتارة تكون دامية ، ولكنها كئيبة ومعتمة على الدوام .

ولم أستطع أن أنام فى الليلتين الاوليين من أثر القلق والرعب ، ولكنى نمت فى الليلة الثالثة من الضيق والكلل . وكنت قد تركت المحلفين وهم يتداولون فى منتصف الليل فأعادنى الحراس الى زنزانتى حيث سقطت من فورى على قشها فى سبات عميق ، فى سبات النسيان . فكانت هذه أول ساعة أصبت فيها شيئا من الراحة منذ عدة أيام .

وكنت لا ازال مستغرقا فى أعماق هذا السبات عندما اتى السجان ليوقظنى . وفى تلك المرة ، لم يكن وقع قدميه الثقيلتين بحذائه الغليظ ، ولا صليل رزمة المفاتيح التى كان يحملها دائما معه ، ولا قرقعة الاقفال

الخشان ، لم يكن هذا كله كافيا لايقاظى ، وانما كان عليه أن يستعين بصوته الجهورى الخشن النبرات لينتزعنى من نومى المحموم ، وأن يقبض على ذراعى ليهزنى بيده الغليظة وهو يقول لى فى ارهاب :

ــ قم اذن !

ففتحت عينى وانتفضت مذعورا لاجد نفسى جالسا على القش ! وفى تلك اللحظة ، رايت من خلال النافذة الضيقة المرتفعة فى زنزانتى ، قطعة السماء الوحيدة التى كـان يمكننى أن اراها من بعيد ، ورأيت هذا الضوء الاصـفر الذى يبدو شمسا للأعين ، التى ألفت ظلام السجون .. لشد ما أحب الشمس !

وتمتمت أقول للسجان :

ــ ان الطقس جميل !

فمكث الرجل صامتا لحظة دون أن يرد على بحرف ، وكأنه كان يسائل نفسه عما اذا كان هذا الذى أمامـه يستحق منه أن يقول له أية كلمة ، ثم غمغم يقول فجأة فى شىء من الجهد :

ــ هذا محتمل .

وبقيت بغير حركة ، وروحى نصف نائمة ، وفمى يبتسم وعيناى لا تتحولان عن هذا الشعاع الذهبى الرقيق الذى كان يزين السقف .

وعدت أكرر قائلا :

ــ هذا يوم جميل .

فاجابنى السجان قائلا فى حزم :

ـ نعم .. انهم ينتظرونك

فنقلتنى هذه الكلمات القليلة ، التى تشبه الخيط الذى يقطع طيران الحشرة ، فى عنف الى عالم الحقيقة والواقع وفجأة رأيت فى مثل وميض البرق قاعة محكمةالجنايات المعتمة ، وقفص الاتهام ، وثلاثة صفوف من الشهود تنطق وجوههم بالغباء ، والجنديين الواقفين عن يمينى وشمالى « والارواب » السوداء تتحرك هنـــا وهناك ، ورءوس المتفرجين تبدو كالنمل عند نهاية القاعة فى الظل ، وأعين هؤلاء المحلفين الاثنى عشر المثبتة على ، الذين ســـهروا بينما كنت نائما !

ونهضت من فوق القش ، وأسنانى تصطك ، ويداى ترتجفان ، ولا تعرفان أين تجدان ملابسى ، وكـــانت ساقاى متخاذلتين ، لا تقويان على حملى ، فتعثرت عنـــد أول خطوة خطوتها وكأنى حمال يحمل حملا فوق طاقته ، ومع ذلك فقد تبعت السجان .

وكان الجنديان فى انتظارى على باب الزنزانة .وماكدت أخرج منها حتى وضعا فى يدى قيدا حديديا له قفــل صغير معقد ، اقفلاه فى عناية ، فتركتهما يفعلان ، فقد كان قيدى آلة توضع فوق آلة .

***

واجتزنا فناء السجن الداخلى ، فبعث هواء الصـــباح المنعش فى أوصالى شيئا من النشـــاط ، ووجدت نفسى أرفع رأسى الى أعلى . كانت السماء صافية الاديم ، وكانت أشعة الشمس الدافئة التى تقطعها المداخن المرتفعة ترسم

مثلثات كبارا من الضوء من فوق جدران السجن المعتمة العالية . لقد كان الجو جميلا حقا .

وصعدنا سلما حلزونيا ثم مررنا خلال دهليز من بعده دهليز آخر ، ثم ثالث ، حتى انتهينا الى باب منخفض فتح على الفور ، فلفح وجهى هواء ساخن تختلط فيـــه الضوضاء . كان هذا هو جو انفاس المحتشدين فى قاعة محكمة الجنايات .

وما كدت أبدو حتى حدثت ضوضاء صـــادرة مـــن قعقعة الاسلحة المختلطة بأصوات الحاضرين ، وتحركت المقاعد فى جلبة عالية ، وفتحت الحواجز محدثة صريرا كئيبا . وكان يبدو لى وانا أعبر القاعة الطويلة بين كتلتين من الجماهير ، وصفين من الجنود ، أننى كنت المركز الذى ترتبط به الخيوط التى كانت تحرك كل تلك الوجـــوه المتيقظة المشرئبة نحوى .

ولاحظت فى تلك اللحظة انى لم اكن مكبلا بالحديد ، لكنى لم استطع أن أذكر أين أو متى كانوا قد نزعوا عنى قيدى !

وساد عندئذ صمت عميق . وكنت قد وصلت الى مكانى حينما سكنت الضوضاء الصادرة من الجمهور ، فسكتت ايضا الضوضاء التى كانت تدور مع أفكارى ، وفهمت من فورى فى وضوح مالم اكن اتصوره الا مشوشا غامضا منذ لحظات : أدركت أن اللحظة الحاسمة قـــد حانت وانى أحضرت الى هناك لسماع النطق بالحكم على .

وليشرح ذلك من يستطيعه منكم ، فان الطريقـــة التى اوحت الى بهذه الفكرة لم تبعث فى نفسى الرعب ! كانت

النوافذ مفتوحة على مصاريعها ، وضوضاء المدينة تصل مع الهواء من الخارج دون حائل . وكانت القاعة مضيئة كما لو كان يحتفل بعرس وكانت أشعة الشمس المرحة ترسم صورا لمصاريع النوافذ هنا وهناك ، تارة طويلة جدا على أرض القاعة ومكسورة تارة اخرى عند زوايا الجدران .

وكان القضاة جالسين في نهاية القاعة وقد ارتسمت على وجوههم علامات الرضا والامتنان ، وربما كان السبب فى ذلك هو سرورهم بأنهم كانوا على وشك الانتهاء . وكان انعكاس زجاج احدى النوافذ يسقط على وجه رئيس المحكمة ويضيئه بعض الشيء فيبدو عليه شيء من الطيبة والهدوء ، بينما أخذ أحد معاونى النيابة يتبادل حديثا يغلب عليه المرح مع سيدة جميلة ترتدى قبعة وردية اللون كان قد حاباها باجلاسها خلفه مباشرة ، وكان الرجل يتحدث اليها وهو يمسك بياقة روبه ويعبث بها .

وكان المحلفون وحدهم هم الذين تبدو على وجوههم آثار التعب الشديد ، ولكن هذا فيما يبدو كان سببه انهم قد سهروا الليل بأكمله ، وكان بعضهم يتثاءب ، ولم يكن فى مظهرهم مايدل على أنهم رجال كانوا قد قرروا لتوهم الحكم بالاعـــــدام ، ولم أقرأ فى وجوه هؤلاء البورجوازيين الطيبين الا رغبة كبرى فى النوم .

وكانت هناك أمامى نافذة مفتوحة على مصراعيها ،كنت أسمع من خلالها بائعات الزهور وهن يضحكن على رصيف نهر « السين » ، وعلى حافة ركن النافذة ادهشتنى رؤية

نبتة صغيرة صفراء يغمرها شعاع من الشمس وكانت تلعب مع الهواء فى ثغرة من ثغرات حجر الجدار .

فكيف يمكن أن تنبت فكرة كئيبة بين كثير من تلك الاحساسات الجميلة ؟ . لقد كان يغمرنى الهواء والشمس فكان يستحيل على أن افكر فى شيء آخر غير الحرية . أن الامل كان يشع فى نفسى كما يشع من حولى ضوء النهار ، وانتظرت النطق بالحكم على وأنا مطمئن كما ينتظر المرء الخلاص والحياة .

ووصل المحامى الموكل بالدفاع عنى فى خلال ذلك ، وكانوا فى انتظاره . وكان الرجل قد تناول غداء فاخرا فى شهية كبيرة ، وما كاد يصل الى مكانه حتى مال نحوى مبتسما وهو يقول :

ــ اننى آمل

فاجبته فى خفة وانا أبتسم ايضا :

ــ اليس كذلك ؟

فقال المحامى :

ــ نعم ، لست اعرف شيئا عن قرارهم بعد ، ولكنهم قد استبعدوا فكرة سبق الاصرار دون شك ، فلن تكون هناك حينئذ الا الاشغال الشاقة المؤبدة .

فاجبته قائلا فى سخط :

ــ ماهذا الذى تقول ياسيدى ؟ .. اننى أوثر الموت مائة مرة !

نعم .. الموت ! ومن ناحية اخرى ، فان صوتا داخليا لا اعرفه كان يكرر فى نفسى هامسا : « ما الخطر الذى

أتعرض له بقولى هذا ؟ هل سبق أن نطق من قبل بحكم الاعدام الا فى منتصف الليل على ضوء المشاعل ، وفى قاعة معتمة سوداء فى ليلة من الليالى الباردة ، ليالى الشتاء المطيرة ؟.. ولكن ... فى شهر أغسطس ، وفى الساعة الثامنة صباحا ، وفى يوم جميل كهذا ، ومع هؤلاء المحلفين الطيبين .. كلا ، هذا مستحيل ! وكانت عيناى ترتدان لتقعا على الزهرة الصفراء الجميلة وهى تتمايل فى الشمس .. »

وفجأة ، دعانى الى الوقوف رئيس المحكمة الذى لم يكن ينتظر سوى حضور المحامى ، فوقف الجنود شاكى السلاح ووقف جميع الحاضرين فى نفس اللحظة كما لو كان ذلك قد حدث بتأثير قوة كهربائية ! وكان ثمة وجه جامد لا تعبير فيه يجلس الى منضدة فى أسفل هيئة المحكمة ، وكان هذا على ما أظن كاتب الجلسة ، الذى بدأ الكلام فأخذ يتلو القرار الذى كان المحلفون قد نطقوا به فى غيبتى . ولم تكد كلماته تطرق أذنى حتى انبثق من كل أعضائى عرق بارد واستندت الى الجدار لأمنع نفسى من السقوط .

وقال رئيس المحكمة يسأل المحامى :

ــ هل لديك ما تقوله يا أستاذ خاصا بتطبيق العقوبة ؟

وكنت أستطيع أنا أن أقول الكثير ، غير أن ذهنى ظل خاويا لم يخطر به شىء ، وبقى لسانى معقودا وملتصقا بحلقى .

ونهض محامى الدفاع ففهمت أنه كان يحاول أن يخفف

قرار المحلفين ، بأن يستبدل بحكم الاعدام العقوبة الاخرى التى كنت قد أحسست بأن كرامتى قد جرحت حينما سمعته يتحدث عنها منذ لحظة كشىء يأمله .

ولابد أن سخطى كان شديدا بحيث ظهر خلال المشاعر الكثيرة التى كانت تتضارب فى خاطرى ، وأردت أن أكرر للمحامى فى صوت مرتفع ماكنت قد قلته له من قبل :

« انى أوثر الموت مائة مرة ! » ، غير أن أنفاسى تقطعت، ولم أستطع الا أن أوقفه بجذبه من ذراعه فى عنف وأنا أصيح فيه بقوة المحموم : « كلا ! »

وقاوم المدعى العام المحامى بكل قواه ، فكنت أستمع الى نضاله فى سرور ينطوى على الغفلة والغباء ! وخرج القضاة بعد لحظات ثم عادوا ثانية الى مقاعدهم ، وقرأ رئيس المحكمة نص الحكم الذى سبق أن حكم به على !

وقال جمهور الحاضرين : « محكوم عليه بالاعدام ! » .
وفى الوقت الذى كان الحراس يقودوننى فيه الى خارج قاعة الجلسة ، اندفع كل هذا الجمهور من خلفى فى دوى كأنه صوت بناء ينهار ، بينما كنت أسير متعثرا فى خطواتى كالثمل وقد تملكنى الذهول ! ان ثورة كانت قد انطلقت فى نفسى منذ لحظة ، وكنت أشعر حتى صدور الحكم بأننى أستنشق الهواء ، وبأن قلبى ينبض ، وبأنى أعيش فى نفس الوسط الذى يعيش فيه غيرى من الناس . ولكنى الآن كنت أميز فى وضوح حاجزا يفصل بينى وبين العالم ، ولم يكن يظهر لى شىء على نفس الصورة التى كان يبدو لى فيها من قبل : فهذه النوافذ العريضة

المضيئة ، وهذه الشمس الجميلة الحانية ، وهذه السماء الزرقاء النقية ، وهذه الزهرة الجميلة ، كل ذلك بدا فى عينى أبيض شاحبا بلون الكفن .. وهؤلاء الرجال والنساء والاطفال الذين كانوا يتزاحمون من حولى ويندفعون فى طريقى كانوا يتراءون لى كالاشباح !

فى العربة السوداء

وكانت هناك عربة قذرة سوداء مقفلة بقضبان من حديد تنتظرنى عند أسفل السلم .. وألقيت وأنا أصعد اليها نظرة عابرة على الميدان ، فرأيت المارة يعدون نحوها وهم يصيحون قائلين : « محكوم عليه بالاعدام ! » واستطعت أن أميز من خلال السحابة التى كان يبدو لى أنها تفصل بينى وبين الاشياء ، فتاتين شابتين كانتا تتابعانى بأعين نهمات ، فقالت صغراهما وهى تصفق بيديها : « حسنا ! سيكون تنفيذ الحكم فيه بعد ستة أسابيع ! »

أنا محكوم على بالاعدام !

حسنا ! ولم لا ؟ انى أذكر أننى قرأت ذلك فى كتاب من الكتب لم يكن به شيء حسن سوى هذه العبارة : « أن البشر جميعا محكوم عليهم بالاعدام ، وانما يختلف وقت تنفيذ الحكم ! » . فماذا الذى قد تغير كثيرا اذن فى موقفى ؟

كم من أناس قد ماتوا بينما كانوا يعدون أنفسهم لحياة طويلة منذ اللحظة التى نطق فيها بالحكم على ؟ وكم من شباب حر فى أوج الصحة قد سبقنى وكان يعتزم الذهاب فى اليوم المحتوم ليرى راسى وهو يهوى فى ساحة الاعدام!

وكم من هؤلاءالناس الذين يمشون ويستنشقون نسيم الحرية وهم يخرجون ويدخلون على هواهم ، كم من هؤلاء سوف يسبقنى كذلك الى عالم الموت !

ثم .. على أى شىء أندم فى الحياة ؟ أهو اليوم المظلم ؟ أم هو الخبز الاسود فى الزنزانة ، مع الطعام الهزيل الذى يلقى الى فى الدلو ، دلو المحكوم عليهم بالاعدام ؟ أم الغلظة والمعاملة الفظة اللتان يعاملنى بهما السجانون والحراس ، وانا الذى ربيت تربية مرهفة ناعمة ؟ أم هو حرمانى من رؤية أى مخلوق آدمى يعتقد أنى أستحق أن يبادلنى الحديث ؟ أم ان ارتجف بغير انقطاع مما فعلته ومما سيفعلونه ؟ أليس هذا تقريبا هو كل الخير الذى يستطيع الجلاد أن ينتزعه منى ؟

آ ! ولكن هذا لا يهم .. انه شىء فظيع !

نقلتنى العربة السوداء الرهيبة الى هنا ، فى سجن « بيستر » البشع ، وهو مبنى يبدو على مظهره بعض العظمة عند رؤيته من بعيد ، فهو يظهر فى الافق على جبهة تل ، ويحتفظ بشىء من روعته الملكية السابقة اذا نظرت اليه من بعيد ، ولكنه يصير كوخا حقيرا عندما تقترب منه ! فأبراجه التى سقطت تحت مستواها الاصلى تجرح بمنظرها العين ، ولست أدرى أى شىء حقير مخجل لطخ واجهاته الملكية بالقذارة ، اذ تبدو كأن جدرانها مصابة بالجذام ، ونوافذه لم يبق بها زجاج ولا مصاريع ، ولكنه كتل ضخمة من قضبان حديدية متقاطعة يلتصق بها هنا وهناك وجه شاحب يبدو عليه الشرود ، وجه لشخص محكوم عليه أو وجه لشخص مجنون !

انها الحياة من قرب !

العودة إلى بيستر

ما كدت أصل الى سجن « بيستر » حتى تلقفتنى ايد حديدية ، وضوعفت الاحتياطات فى الحال . فلا سكين مع الطعام ولا « شوكة » ، بل قميص المحكوم عليه فحسب ، وهو عبارة عن كيس من التيل الخشن ليس له كمان سجنت بداخله ذراعاى !

انهم كانوا مسئولين عن بقائى حيا ، وكنت قد استأنفت الحكم ، وهذا الاستئناف قد يستغرق من ستة اسابيع الى سبعة اسابيع غالية الثمن ، وكان من المهم أن يحتفظوا بى سليما معافى لساحة الاعدام !

وعوملت فى الايام الاولى بلطف كان يبدو لى رهيبا مفزعا ، فظرف السجان ورقته رائحة من روائح المشنقة ، ثم مالبثوا أن تغلبت عليهم العادة لحسن الحظ فعاملونى فى غلظة كما يعاملون غيرى من المساجين ، ولم يعودوا يميزوننى على غير المألوف منهم بأدبهم الذى كان يجعلنى أتصور الجلاد واقفا أمامى على الدوام . ولم يكن ذلك هو التحسن الوحيد الذى طرأ على موقفى ، بل ان شبابى ، ودعتى ، وعناية قسيس السجن بأمرى ، وبوجه خاص

بعض الكلمات اللاتينية التى كنت اوجهها الى السجان فلا يفهم من أمرها شيئا ، كل ذلك قد فتح لى باب النزهة مرة فى كل أسبوع مع المسجونين الآخرين ، وذهب بالقميص الخشن الغليظ الذى كان يشل حركتى . كما أعطيت كذلك مدادا وورقا وقلما ومصباحا بعد تردد ليس بالقصير .

وكانوا يطلقوننى في كل يوم أحد بعد القداس فى فناء السجن ساعة الفسحة حيث أتبادل الحديث مع المسجونين، وكان هذا بالنسبة الى شيئا ضروريا للغاية . حقا ان هؤلاء البائسين اناس طيبون ، وهم يقصون على وقائعهم وحيلهم ، وهى أمور ترسل فى الجسم رعدة قاسية ولكنى كنت أعلم انهم يفاخرون .

وكان هؤلاء المسجونون يعلموننى أن أتحدث بلغة السجون كما يقولون ، وهى لغة مكتملة النمو مشتقة من اللغة الجارية كنوع من الورم الخبيث ، أو كالسنط فى الجسد ، لبعض ألفاظها وقع عنيف وجمال مخيف ، وذلك مثل قولهم : « انه يمشى على العنب الاحمر » ، ويعنون به أن الدم فى طريقه . وقولهم : « يتزوج الارملة» ويعنون به أنه يشنق كما لو كان حبل المشنقة أرملة فقدت كل أزواجها السابقين المشنوقين !

ان رأس اللص له فى السجن اسمان : « السربون » عندما يفكر ويعقل وينصح بالجريمة ، و « المقطوع » عندما يقطعه الجلاد ! وفى بعض الاحيان ، تكون ألفاظ السجن هذه شبيهة بروح المسرحية الخفيفة المرحة

« الفودفيل » ، كقولهم : « شال من خيزران » « عروة
« الزبال » .. و (الكاذبة) و (اللسان) !

وفوق هذا ، ففى كل لحظة وفى كل مكان تسمع كلمات غريبة وعجيبة تتسم بالقبح والقذارة ، ولا ادرى من أين تخرج ، مثل : الدرع « الجلاد » ، و « الخازوق » « الموت » و (الصندرة) (ساحة الاعدام) ! .. الفاظ تبدو لى كالعناكب والأبراص ، حينما يسمعها المرء تترك فى نفسه الاثر الذى يحدثه الشيء القذر المغبر ، وكأنها كتلة من الخرق البالية التى تنفض امام عينيه .

ومهما يكن من شيء ، فان هؤلاء الرجال يرثون لحالي ، وهم وحدهم الذين يفعلون ذلك ، اذ أن السجانين والحراس — ولست أحقد عليهم — يتحدثون ويضحكون ، ويتكلمون عنى فى وجودى وكأننى شيء يمت الى عالم الجماد !

الفصل الثانى :

أيام لن تعود

مـــــذكـــــــراتى

وقلت فى نفسى :

لماذا لا أكتب مادامت لدى أدوات الكتابة ؟ ولكن ، ماذا أكتب ؟ اننى سجين بين اربعة جدران ضخمة من الحجر العارى البارد الحزين ، حيث لا حرية لخطواتى ولا أفــق يمتد أمام عينى ، ولا تسلية لى طول الوقت الا أن أتتبع بطريقة آلية مايجرى خارج زنزانتى من خلال كوة الباب المربعة الصغيرة البيضاء ، وما كانت تعكسه أمامى مباشرة على الحائط المظلم ، وكما كنت أقول منذ برهة ، فانى كنت وحدى وجها لوجه مع فكرة الجريمة والعقاب ، فــكرة القتل والموت ! فهل سيكون لدى ما أقوله وانا الذى صرت انسانا لا داعى لوجوده فى هذا العالم ؟ ومـــــاذا عساى أن أجد فى هذا الانسان الذابل الخاوى ؟

ولكن .. لم لا ؟.

اذا كان كل شىء من حولى يسير على وتيرة واحدة ، ولا لون له على الاطلاق ، أفلا تضطرم فى أعماق نفسى عاصفة عاتية ، وكفاح مستعر ، ومأساة دامية ؟ ان هذه الفكرة الثابتة التى تستحوذ على نفسى تتبدى أمامى فى

كل ساعة بل في كل لحظة في شكل جديد ، وهي تزداد كآبة وتلوثا بالدماء ساعة بعد ساعة كلما اقترب المصير المحتوم ! فلماذا لا احاول ان اقول لنفسي كل ما احس به، واقص عليها ما اكابده من مشاعر عنيفة ، بعضها يحاصرني فعلا وبعضها مجهول لا يزال ينتظرني في موقفي هذا الميئوس منه الذي أجد نفسي فيه الآن .

ان الموضوع غني مافي ذلك شك ، ومهما بدا لي ماتبقى من عمري قصيرا فسوف يكون في الهواجس والرعب والعذاب الاليم ، الذي يملؤه منذ هذه الساعة الى أن تحين ساعتي الاخيرة ، مايكفي لاستهلاك هذا القلم ونفاد هذا المداد كله . ومن جهة اخرى ، فان الوسيلة الوحيدة التي استطيع بها أن اخفف بعض الشيء من آلام هذه الهواجس هي أن الاحظها ثم أصفها ، فهذا خليق بأن يسري عني بعض التسرية .

وفوق هذا ، فان ما سأكتبه هكذا قد لا يكون عديم النفع . فهذه المذكرات التي تسجل آلامي ساعة فساعة ، ودقيقة فدقيقة ، وعذابا اثر عذاب — لو اني وجدت في نفسي القدرة على تدوينها حتى اللحظة التي سوف يستحيل على جثمانيا أن أتابع كتابتها — اذ أن قصة مشاعري هذه ستبقى حتما ناقصة بلا نهاية وان كانت كاملة من حيث طاقتي — هذه المذكرات الن تحمل في طياتها عظة كبيرة وعميقة ؟ الن يكون في هذا السجل المدون عن الفكر وهو يحتضر ، وعن الآلام التي تتزايد باستمرار . . هذا النوع من التشريح العقلي لانسان محكوم عليه بالموت

.. الن يكون فيه اكثر من درس لأولئك الذين يصدرون هذا الحكم ؟

نعم .. فقد تجعلهم قراءة هذه المذكرات أقل تسرعا ، وتحملهم على شيء من التروى فى المستقبل عندما يكون الامر متعلقا باسقاط راس يفكر ، راس انسان ، فيما يسمونه ميزان العدالة ! قد لا يكون هؤلاء التعساء فكروا قط فى هذا التتابع البطيء لالوان العذاب التى تنطوى عليه هذه الصيغة الموجزة التى ينطق بها فى استخفاف : « الحكم بالاعدام ! » ترى هل وقفوا قط مرة واحدة ، واحدة فحسب ، عند هذه الفكرة الاليمة ليروا ان فى هذا الانسان الذى يقطعون رقبته ذكاء كان قد اعتمد على الحياة ، وأن فيه روحا لم تكن قد تهيأت بعد للموت ؟

كلا ! انهم لا يرون فى هذا كله الاسكينا مثلثة الشكل تهوى راسيا على رقبة الشخص المحكوم عليه بالموت ، وهم يحسبون دون شك أنه لا شيء هناك بالنسبة اليه ، لا من قبل ذلك ولا من بعده !

ان هذه المذكرات سوف تظهر لهم أنهم مخطئون ، فقد يتاح لها أن تنشر فى يوم من الايام ، فتفتح أعينهم لحظات على آلام النفس التى لا يشك فيها أحد منهم . انهم يفخرون بقدرتهم على القتل دون أن يتألم الجسم تقريبا بسبب سرعة المقصلة فى انجاز مهمتها الدامية ، غير أن هذا ليس كل مافى الامر ، اذ ما قيمة الالم البدنى اذا قيس بآلام النفس ؟

اننا لنشمئز من هذه القوانين الموضوعة على هذه الصورة التى تتحرك انفسنا شفقة بها ، وسوف يأتى يوم

تكون فيه هذه المذكرات ، وهى الاسرار الاخيرة لانسان بائس ، قد أسهمت فى هذا المضمار .. اللهم الا اذا عبثت الريح بعد موتى بهذه الاوراق الملطخة بالوحل فى فناء السجن ، أو لصقها سجان على شكل نجوم فى نافذة مكسورة الزجاج فى حجرته فتتعفن هناك تحت قطرات المطر .

وسواء أكان ما اكتبه هنا يمكن أن يكون يوما ما نافعا لغيرى ، ام انه اوقف القاضى وهو يهم بالنطق بالحكم ، ام انقذ البائسين من ابرياء ومذنبين ، أنقذهم من الاحتضار الذى حكم به على .. فلماذا كل ذلك ؟.. وما فائدته ؟.. وما أهميته ؟ .. ماذا يهمنى أن تقطع رءوس أخرى بعد أن يكون رأسى قد قطع ؟.. هل أستطعت حقا أن افكر فى هذه الفكرة الجنونية ، فى ان اقذف بالمقصلة على الارض واهدمها بعد ان اكون قد صعدت عليها ؟ هل لى ان اسألكم قليلا : ماذا سيعود على من تحطيم المقصلة أن أذهب ضحية لها ؟

آه ! ان الشمس ، والربيع ، والحقول المملوءة بالازهار ، والطيور التى تستيقظ فى الصباح ، والغيوم ، والاشجار ، والطبيعة ، والحرية ، والحياة .. كل ذلك لم يعد لى منه شىء !

رباه ! .. انه أنا الذى يجب انقاذه ! هل صحيح ان هذا غير ممكن ؟ وانه يجب أن أموت غدا ، بل وربما اليوم ؟ .. هل صحيح أن الأمر هكذا ؟.. ياالهى ! ان هذه الفكرة الرهيبة لتدفعنى الى التفكير فى تحطيم رأسى على جدران زنزانتى .

والآن ، فلنعد ما تبقى لي :

مهلة مدتها ثلاثة أيام عقب النطق بالحكم لتقديم طلب الاستئناف الى محكمة النقض . وثمانية أيام من النسيان في نيابة الاستئناف ترسل بعدها المستندات — كما يقولون — الى مكتب الوزير . وخمسة عشر يوما من الانتظار لدى الوزير الذي لا يحس بوجود هذه الاوراق ولا يعلم من أمرها شيئا ، ومع ذلك فالمفروض أنه يحيلها بعد فحصها الى محكمة النقض ، حيث يتم ترتيبها وترقيمها وتسجيلها ، لان المقصلة لديها عمل كثير ، ويجب الا يمر بها كل انسان الا في دوره .. ثم خمسة عشر يوما للتأكد من أنه لم يحدث لك امتياز ما خارج حدود القوانين واللوائح .

واخيرا ، تنعقد المحكمة عادة في يوم خميس ، فترفض عشرين طلب استئناف دفعة واحدة ، ثم تعيدها الى الوزير الذي يرسلها الى النائب العام ، فيحيلها هذا الى الجلاد . ويستغرق هذا كله ثلاثة أيام .

وفي صباح اليوم الرابع ، يقول وكيل النائب العام لنفسه وهو يلبس ربطة عنقه : « ومع ذلك فيجب أن تنتهي هذه المسألة ! » . وعندئذ ، فان كان نائب كاتب المحكمة ليس مرتبطا بموعد للغداء مع بعض الاصدقاء يمنعه من ذلك ، فان الامر بالاعدام تحدد له دائما دقيقة للتنفيذ ، ثم يحرر ويبيض ويرسل الى الجهة المختصة .. فيسمع منذ فجر اليوم التالي صوت اقامة اخشاب المقصلة في ساحة الاعدام ، ويصيح المنادون العموميون

عند تقاطع الشوارع وفى الازقة فى صوت مرتفع مبحوح .

كل ذلك يتم فى ستة أسابيع . ان الفتاة الصغيرة كانت على حق ! ولكن هاهى ذى خمسة اسابيع على الاقل ، وربما ستة فلست أجرؤ على أن أعدها ، قد انقضت على فى هذا السجن ، سجن « بيستر » الحقير ، ويبدو لى أنه منذ ثلاثة أيام مضت كان اليوم يوم خميس .

***

لقد فرغت الآن من كتابة وصيتى !

ولكن .. ما فائدة ذلك ؟ لقد حكم على بدفع تعويض لن يكون كل ما أمتلكه كافيا لسداده . حقا ان المقصلة باهظة الثمن !

اننى اترك ورائى أما ، وزوجة ، وطفلة ! .. طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها حلوة وردية اللون ضعيفة البنيان ، عيناها واسعتان سوداوان وشعرها طويل كستنائى اللون ، وكانت سن ابنتى سنتين وشهرا واحدا عندما رايتها لآخر مرة .

وهكذا ، فسوف يكون هناك بعد موتى ثلاث نساء : واحدة منهن بغير ابن ، والثانية بغير زوج ، والثالثة بلا اب .. ثلاث يتيمات من انواع مختلفة .. ثلاث ارامل باسم القانون !

انى أوافق على أن أعاقب عقابا عادلا ولكن .. هؤلاء البريئات ماذا جنين ؟ وما ذنبهن ؟ ان هذا لايهم ، فهم يلوثون شرف هؤلاء النسوة الثلاث ويدمرون حياتهن .. انها العدالة !

وليس مافى الامر ان أمى العجوز المسكين تقلقنى، فسنها أربع وستون سنة وسوف تموت من أثر الصدمة ، ولو أنها عاشت من بعدى لبضعة أيام فياليتها تجد فى مدفأتها لآخر لحظة بعض الرماد الدافىء ، فهى لن تشكو ولن تقول شيئا .

وامر زوجتى كذلك لا يبعث فى نفسى القلق ، فهى معتلة الصحة ضعيفة النفس ، وسوف تموت هى الاخرى .. الا اذا أصابها مس من الجنون . انهم يقولون أن الجنون يطيل العمر ، ولكن عقلها لن يتألم عندئذ على الاقل ، ومن ثم فانها ستنام وتكون كأنها فى عداد الاموات .

أما ابنتى وفلذة كبدى ، طفلتى وصغيرتى « مـارى » المسكينة التى تضحك وتلعب وتغنى فى هـذه الساعة ولا تفكر فى شىء ، فانها هى التى تثير فى نفسى الالم !

فى الزنزانة

هذه هى زنزانتى :

ان مساحتها ثمانى أقدام مربعة ، ولها أربعة جدران سميكة من الحجر ، ترتكز بزاوية قائمة على أرضية من البلاط تعلو بمقدار درجة واحدة على مستوى الدهليز الخارجى . وهناك على يمين الداخل ، عند الباب ، نوع من التجويف يقلد فى سخرية صوان ملابس النساء الذى يوجد عادة داخل الجدران . انهم يلقون فيه بحزمة من القش من المفروض أن يستريح السجين عليها وأن ينام وهو يرتدى سروالا من التيل ، وسترة من القماش الرخيص لا يتغيران صيفا او شتاء .

وفوق راسى كسماء ، يرى المرء « قبوة » سوداء ــ هكذا يسمونها ــ تتدلى منها خيوط العنكبوت كأنها خرق بالية . وفيما عدا هذا ، فلا نوافذ هناك ، حتى ولا كوة صغيرة ، فلن تجد اللهم الا بابا عتيدا يطغى فيه الحديد على الخشب .

كلا ، كلا .. اننى مخطىء ، ففى وسط هذا الباب الى أعلى ، هناك فتحة مساحتها تسع بوصات مربعة ، تتخللها

طولا وعرضا شبكة من حديد على شكل صليب ، يستطيع السجان أن يغلقها أثناء الليل .

وفى خارج الزنزانة ، دهليز طويل نسبيا يضاء ويغير هواؤه عن طريق نوافذ عالية ضيقة فى أعلى الجدار ، ومقسم الى أقسام بفواصل مبنية ، ويتصل بعضها ببعض بسلسلة من الابواب المتينة غير المرتفعة . ويستعمل كل قسم من أقسام هذا الدهليز ، على نحو ما ، كمـــدخل لزنزانة شبيهة بزنزانتى ، وفى هذه الزنزانات يضـعون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة الذين يحكم عليهم مدير السجن بعقوبات تأديبية . أما الزنزانات الثلاث الاولى فمخصصة للمحكوم عليهم بالآعدام لانها قريبة من مركز المراقبة ، ومن ثم فهى أكثر ملاءمة للسجان .

هذه الزنزانات هى كل ماتبقى من قصر « بيستر » القديم كما بناه فى القرن الخـــامس عشر الكاردينال « وينشستر » وهو نفس الكاردينال الذى قضى باحراق « جان دارك » .. اننى سمعت هذا من فضوليين كـانوا قد حضروا منذ أيام ليرونى فى زنزانتى ، وكانوا ينظـرون الى من بعيد كما ينظر الناس الى الوحوش الضارية فى حدائق الحيوان . وقد حصل السجان يومئذ على خمسة فرنكات .

لقد نسيت أن أقول أن هناك جنديا مكلفا بالحراسة على باب زنزانتى ليلا ونهارا ، وأن عينى لا تستطيعان أن ترتفعا الى الفتحة المربعة بباب الزنزانة دون أن تلتقيـــا بعينيه المفتوحتين الشاخصتين الى على الدوام .

وفيما عدا هذا : فهم يفترضون أن الهواء وضوء النهار ينفذان الى هذا الصندوق المصنوع من الحجر .

وبما أن ضوء النهار لم يظهر بعد ، فماذا أفعل بالليل ؟

لقد خطرت ببالي فكرة ، فنهضت واقفا وأدنيت مصباحي من الجدران الاربعة ، فوجدتها مغطاة بالكتابة والرسوم والاشكال الغريبة ، وبأسماء يختلط بعضها ببعض ويمحو بعضها بعضا . ويبدو أن كل محكوم عليه قد أراد أن يترك وراءه أثرا ، هنا على الاقل . انها كتابات بالقلم، وبالطباشير ، وبالفحم ، وبها حروف سوداء وبيضاء ورمادية اللون محفورة في الاغلب حفرا عميقا في الحجر ورأيت هنا وهناك أحرفا بدأت معالمها تنطمس ، ويبدو أنها قد كتبت بالدم .

ولو أن نفسي كانت أكثر حرية مما هي فيه لاهتممت حقا بأمر هذا الكتاب الغريب المسطر أمام عيني صفحة صفحة على كل حجر من أحجار هذه الزنزانة ، ولكنت جعلت من هذه الشرائح من الافكار المبعثرة على الاحجار كتابا كاملا أعيد تأليفه ، وأن أجد مرة ثانية كل رجل وراء كل اسم ، وأن أعيد المعنى والحياة الى هذه الكلمات المحفورة المحطمة ، الى هذه العبارات المبعثرة المفككة ، الى هذه الالفاظ المبتورة التي بدت لي كأجساد بلا رءوس كالاشخاص الذين كتبوها .

ورأيت عند مستوى ارتفاع فراشي المصنوع من القش قلبين ملتهبين يخترقهما سهم ومكتوب فوقهما : « الحب مدى الحياة ! » يا للمسكين ! ماتت أمانيه في ريعان الشباب !

والى جوار هذا قبعة مثلثة الزوايا ، من تحتهـا وجه مرسوم بطريقة رديئة ومعه هذه الكلمات : « يحيـــــا الامبراطور .. « عام ١٨٢٤ » .

ورأيت قلوبا اخرى ملتهبة ومعها هذه العبارة الخاصة بحياة السجون : « اننى أحب وأعبد « ماتيو دنفان ـ جاك » .

وعلى الجدار المقابل لسريرى ، وقعت عيناى على هذا الاسم : « بابا فوان » ، وكان حرف الباء الاول كبـــيرا ومزركشا بنقوش عربية ومرسوما بعناية ، ومن تحـت هذا مقاطع من اغنية بذيئة . ثم على « قبعة الحرية » المحفورة فى الحجر بشكل عميق بعض الشىء ، وقد كتب من فوقها هذا الكلام : « الى الجمهورية ـ بوريس » .. انه كان أحد ضباط الصف الاربعة بمدينة « لاروشيل »! ياله من شاب مسكين ! ويا لكآبة ضروراتهم السياسية المزعومة ! فبسبب فكرة أو حلم أو مجرد خيال ، نرى هذه الحقيقة البشعة : المقصلة ! .. وانا الذى كنت أشكو .. أنا التعس الذى ارتكبت جريمة بمعنى الكلمة وارقت الدماء !

اننى لن اذهب فى بحثى الى ابعد من هذا ، فقد رأيت من فورى صورة رهيبة مروعة مرسومة باللون الابيض فى ركن الجدار : انها صورة هذه المقصلة التى ربمـا كانت تقام لى فى هذه اللحظة ! وكاد المصباح يسقط من يدى !

***

واندفعت عائدا لاجلس على القش وراسى بين ركبتى ،

ثم انقشع فزعى الصبيانى وأخذتنى من جديد الرغبة فى الاستطلاع ، ومتابعة قراءة ماهو مكتوب على جـدران الزنزانة .

انتزعت من جانب اسم « بابا فوان » نسيج عنكبوت ضخم مثقلا تماما بالغبار ، ومعلقا فى زاوية الجدار ، فرأيت تحته اربعة أسماء أو خمسة من الممكن أن تقـــرأ بسهولة من بين أسماء أخرى لم يبق منها سوى بقع على الجدار . أما الاسماء الواضحة فهى : « دوتان » عـام ١٨١٥ ــ « بولان » عام ١٨١٨ ــ « جان مارتان » ١٨٢١ ــ « كاستانج » عام ١٨٢٣ .

وما كدت أقرأ هذه الاسماء حتى انتابتنى ذكريات مظلمة أما « دوتان » هو الذى قطع أخاه أربا أربا ، وذهب ليلا الى باريس ليلقى برأسه فى نافورة وبجذعه فى المجارى ! و « بولان » هو الذى قتل زوجته ، و « جان مارتـان » هو الذى اطلق رصاص مسدسه على والده الشيخ وهو يفتح نافذة . أما « كاستانج » فهو ذلك الطبيب الذى قضى على صديقه وهو يعالجه فى مرضه الاخير ، الذى كان الطبيب نفسه سببا فيه ، وذلك بأن كان يعطيه السم على انه دواء . والى جانب هؤلاء « بابافوان » المجنـون الرهيب الذى كان يقتل الاطفال بطعنة من سكين فى الرأس !!

قلت فى نفسى : هاهم أولاء من أقاموا من قبلى ضيوفا فى هذه الزنزانة ! وأحسست برجفة من الحمى تسرى فى

كليتى ! هنا ، على نفس هذه « البلاطة » التى أجلس عليها جالت فى أذهان رجال الجريمة والدم هؤلاء ، أفكارهم الاخيرة .. لقد دارت خطواتهم الاخيرة حول هذا الجدار وفى هذا المربع الضيق ، كخطوات حيوان كاسر . لقد تتابع بعضهم فى اثر بعض على فترات متقاربة فى هذه الزنزانة حتى ليبدو لى أنها لم تخل أبدا من النزلاء ! لقد تركوا هذا المكان دافئا .. تركوه لى أنا ، وسوف أذهب بدورى لالحق بهم فى مقبرة « كلامار » حيث ينمو العشب بغزارة أيما غزارة !

لست اتنبأ بالغيب ، ولا أعتقد فى الخرافات ، ومن المحتمل أن هذه الافكار كانت تثير فى نفسى مزيدا من الحمى ، ولكن بدا لى فجاة وانا أحلم على هذه الصورة ، أن تلك الاسماء المشئومة كانت مكتوبة بالنار على الجدار الاسود ، ودوى فى أذنى رنين قوى أخذ يزداد عنفا وسرعة ، وامتلات عيناى بوهج احمر ! ثم بدا لى أن الزنزانة كانت مملوءة بالرجال ، برجال أشكالهم غريبة ، كانوا يحملون رءوسهم بأيديهم اليسرى وهم يمسكون بها من الفم ، لانها كانت رءوسا لا شعر فيها .. وكانوا جميعا يلوحون الى بقبضات أيديهم مهددين ماعدا قاتل أبيه !

وأطبقت عينى وقد تملكنى الهلع ، فرأيت عندئذ كل شىء فى وضوح أكثر ، وسواء أكان ما رايته حلما أم رؤيا ام حقيقة ، فقد كنت خليقا بأن اجن .. اولا انى احسست بشعور مفاجىء أيقظنى من هذا الكابوس فى

الوقت المناسب ، وكدت اقع على ظهرى عندما شعرت ببطن بارد ، وبأرجل صغيرة مكسوة بالزغب تزحف فوق قدمى العاريتين . كان هذا هو العنكبوت الذى كان فى طريقه الى الهرب بعد أن أزعجته .

ولقد ازال هذا العنكبوت الرؤيا من أمام ناظرى . ويالها من اشباح مرعبة ! كلا ، انها كانت دخانا ينبعث من مخى الخاوى المحموم ! كانت كابوسا على طريقة « ماكبث ! » فالموتى ميتون ، وخاصة هؤلاء . لقد اغلقت عليهم القبور جيدا بالأقفال ، وليس القبر سجنا يهرب منه الانسان . فكيف حدث اذن أنى خفت على هذا النحو ؟

ان باب القبر لا يفتح من الداخل قط .

مشـــهد رهـــيب

رايت فى هذه الايام الماضية شيئا بشعا !

كنا فى مطلع الفجر ، وكان السجن يضج بالاصوات ، وكان يسمع صوت اغلاق الابواب الثقيلة وفتحها ، وصرير المزاليج والاقفال الحديدية ، وصليل رزم المفاتيح التى يحتك بعضها ببعض فى أحزمة السجانين ، واهتزاز درجات السلم من أعلى الى أسفل تحت وقع خطوات مندفعة ، وأصوات ينادى بعضها بعضا ، ويرد بعضها على بعض من طرفى الدهاليز الطويلة ! وكان جيرانى فى الزنزانه ، وهم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، اكثر مرحا من المألوف . وكان يبدو على سجن « بيستر » بأسره أنه يضحك ويغنى ، وأنه يلهو ويرقص .

وبقيت وحدى صامتا وسط كل هذه الضوضاء ، ساكنا لا أبدى حراكا وسط هذه الحركة الدائبة . كنت أصغى فحسب ، أصغى فى يقظة وانتباه وقد تملكتنى الدهشة .

ومر أحد السجانين فخاطرت بندائه ، وسألته عما اذا كان هناك عيد فى السجن ، فأجابنى الرجل قائلا : « انه عيد اذا شئت ! فاليوم موعد تقييد المحكوم عليهم بالاشغال

الشاقة بالحديد ، أولئك الذين يجب أن يرحلوا غـدا الى سجن « طولون » أتريد أن تشاهد ذلك ؟ انه سوف يسليك » .

وكان هذا المنظر فى الواقع ــ مهما بلغ من بشاعته ــ فرصة طيبة لانسان سجين بمفرده فى زنزانة ، فقبلت هذه التسلية .

واتخذ السجان الاحتياطات المعتادة كى يطمئن مـن ناحيتى ، ثم اصطحبنى الى زنزانة صغيرة خالية ليس بها أثاث على الاطلاق ، ولها نافذة مسورة بقضبان من حديد ، ولكنها نافذة بمعنى الكلمة ، على قدر من الارتفاع يسمح للمرء بأن يتكىء على حافتها ، وأن يرى السماء من خلالها بالفعل .

وقال لى السجان : « حسنا .. من هنا سوف ترى وتسمع ، وسوف تكون وحدك فى مقصورتك هذه وكأنك ملك ! » .

ثم خرج الرجل بعد أن أغلق على باب الزنزانة بالمفاتيح والاقفال والمزاليج .

وكانت تلك النافذة تطل على فناء مربع الشكل ، فسيح الى حد معقول ، يحيط به من الجهات الاربع بناء كبير من الحجر مؤلف من ستة طوابق كأنه جدار ضخم . وليس ثمة ماهو أكثر زراية وعريا وأشد ايذاء للعين من هـذه الواجهة الرباعية ذات النوافذ العديدة المسورة بالحديد ، التى التصقت بها ــ من أسفل البناء الى أعلاه ــ مجموعة كبيرة من الوجوه الشاحبة الضامرة ، قد تكدس بعضـها فوق بعض كأنها أحجار فى جدار ، يحيط بها جميعا ــ

ان صح هذا التعبير ــ اطار من قضبان النوافذ الحديدية كان هؤلاء هم السجناء ، قد أخذوا يشاهدون هــــذا الحفل ، فى انتظار أدوارهم حين تحين ليصبحوا عم المثلين . ان المرء ليخيل اليه أنهم أرواح معذبة من وراء نوافذ من حديد تطل على جهنم .

كانوا ينظرون جميعا فى صمت الى الفناء الذى كــان لا يزال خاليا الى تلك اللحظة . انهم كانوا ينتظرون . وهنا وهناك ، كانت بعض الاعين الحية الثاقبة تلمع كأنها نقط من النار بين تلك الوجوه الحزينة المنطفئة .

ان « مربع السجون » ، الذى يحيط بذلك الفناء ليس مقفلا من جميع نواحيه ، فأحد أضلاعه الاربعة « الضلع الذى يطل على جهة الشرق » مقطوع عند وســطه تقريبا ولا يتصل بالضلع الذى يجاوره الا بسور من حديد ، يطل على فناء ثان أصغر مساحة من الفناء الاول ، ومحاط مثله بالجدران والابراج الصغيرة السوداء .

ومن حول الفناء الرئيسى ، توجد مقاعد من الحجــر ظهورها الى الجدار الضخم ، ويقوم فى وسطه عامود من الحديد مثنى من أعلى ليعلق به المصباح .

وما كادت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ظهرا ، حتى فتح على حين فجأة باب كبير مرتفع يكمن وراء تجويف فى البناء ، وظهرت عربة « كارو » يحرسها نفر من الجنود بدت عليهم القذارة والوجل ، يرتدون زيا أزرق ، وعلى أكتافهم شارات حمراء ، وسيور صفراء ، من التى تعلق فيها البنادق . ودخلت هذه العربة الفناء فى تثاقل محدثة

صوتا حديديا . كانت تلك هى عربة السجانين قد جاءوا ومعهم أغلال من حديد .

وفى تلك اللحظة عينها ، وكما لو كان الصوت الصادر من العربة قد أيقظ كل أصوات السجن ، ضج المتفرجون من النوافذ بصيحات المرح والاغانى ، وبالتهديد والسب والشتائم المختلطة بقهقهة عالية ، وضحكات سماعها يؤلم الاذان ، وهم الذين كانوا الى تلك اللحظة صامتين لا يتحركون ، كانت وجوههم تبدو كأنها وجوه الشياطين وقد بدت مكفهرة مكشرة عن انيابها ، وبرزت قبضات أيديهم من خلال قضبان النوافذ ، وارتفعت كل الاصوات ولمعت كل الاعين ، فروعتنى رؤية كل ذلك الشرر وهو يتطاير من خلال هذا الرماد .

ومع ذلك ، فقد شرع عمال السجن ، الذين كنت أميز من بينهم عددا من الفضوليين ، كانوا قد قدموا من باريس نظرا لما كان باديا عليهم من الرعب ونظافة الهندام ، وشرع عمال السجن هؤلاء فى تأدية عملهم فى هدوء ، فصعد احدهم فوق العربة وألقى الى رفاقه بالاغلال الحديدية، واطواق السفر ، ورزم السراويل المصنوعة من التيل الرخيص . ثم قسم العمال العمل فيما بينهم . فذهب فريق منهم الى ركن من أركان الفناء ليبسطوا فيه السلاسل الطويلة التى كانوا يسمونها فى لغتهم «الدوبارة» اما الاخرون فقد بسطوا الاقمشة والقمصان والسراويل على « البلاط » ، بينما كان أكثرهم فراسة يفحصون الاطواق الحديدية المخصصة لاقدام السجناء ، تحت

مراقبة قائدهم وهو شيخ بدين ، ثم يمتحنون صلابتها بحكها فى البلاط حتى يتطاير منها الشرر .

وكان هذا كله يجرى بينما كان السجناء يصفقون فى سخرية واستهزاء ، ولم يكن يطغى على أصواتهم الا ضحكات صاخبة صادرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين كان ذلك يعد من أجلهم ، وهم يقفون على مراى منا عند تقاطع السجن العتيق الذى يطل على الفناء الصغير .

وما أن تمت هذه الاستعدادات حتى جاء رجل فى ثياب موشاة بالفضة كانوا يدعونه « السيد المفتش » ، واعطى امرا الى مامور السجن . وما هى الا لحظة حتى لفظ بابان منخفضان أو ثلاثة عددا ضخما من الرجال دفعة واحدة ، وامتلأ الفناء بكتل كالسحاب من السجناء البشعين المهلهلين وهم يصيحون ويزأرون . كان هؤلاء هم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة !

وتضاعف الفرح فى النوافذ لدى دخول هؤلاء ، وحيا السجناء بعضهم — وهم الاسماء الكبيرة فى الليمان — بالتصفيق والتهليل ، فكان هؤلاء يتقبلون ذلك منهم فى نوع من التواضع الممزوج بالفخر ، وكان أكثرهم يلبسون فوق رءوسهم قبعات غريبة الشكل كانوا قد صنعوها بأيديهم من قش الزنزانة ، كى تلفت الانظار الى رءوسهم فى المدن التى سوف يمرون بها . وكان التصفيق لهؤلاء بالذات أكثر شدة وحماسا ، بل ان أحدهم بصفة خاصة — وهو شاب فى السابعة عشرة كان وجهه شبيها بوجه فتاة — قد اثار مظاهر الحماسة والانفعال وهو خارج من

زنزانته حيث احتجز منذ ثمانية أيام ، وكان قد صنع بنفسه من قش زنزانته رداء كان يغطيه من رأسه الى قدميه ، فدلف الى الفناء وهو يلف ويدور حول نفسه فى خفة لا تحاكيها الا خفة ثعبان ، فثارت بسببه عاصفة مجنونة من التصفيق ، ومن صيحات السرور . وكان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يردون على ذلك من ابراجهم ، فكان هذا التجاوب فى المشاعر وتبادل المرح بين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الراحلين لتنفيذ العقوبة وبين زملائهم الذين ينتظرون دورهم شيئا مرعبا حقا . ومهما كان المجتمع هنا يمثله السجانون والفضوليون الذين استولى عليهم الذعر ، فان الجريمة كانت تتحداه فى تلك اللحظة وجها لوجه ، وكانت تجعل من هذه العقوبة المفزعة عيدا عائليا .

وكلما وصل سجناء آخرون ، كانوا يدفعونهم بين صفين كثيفين من الحراس الى الفناء الصغير المحوط بالاسوار الحديدية حيث كان ينتظرهم الاطباء . وهناك ، بذل كل واحد منهم جهدا اخيرا ليتجنب السفر متعللا بعذر من الاعذار الصحية : فهو اما مريض بعينيه ، واما مقطوع اليد ، واما أنه يعرج بساقه ، لكن الاطباء كانوا يجدونهم فى الاغلب الاعم صالحين لليمان ، فكان كل منهم يرضخ عندئذ فى غير مبالاة ، متناسيا فى دقائق قليلة عجزه المزعوم الذى كان مصابا به طول حياته .

ثم فتح باب الفناء الصغير مرة اخرى واخذ أحد الحراس ينادى بأسماء السجناء مرتبة حسب الحروف الابجدية ، فخرج المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة عندئذ

واحدا واحدا ، وذهب كل منهم لينتظم واقفا فى الصف فى ركن الفناء الكبير الى جوار زميل له ، جمعته به صدفة الحرف الذى يبدأ اسمه به . وهكذا كان كل واحد منهم يرى نفسه امام نفسه ، وكان كل واحد منهم يحمل قيده بنفسه جنبا الى جنب مع شخص مجهول ، واذا شاءت المصادفة أن يجد أحدهم صديقا له فيهم ، فان القيد الحديدى كان يحول بينهما ويفصله عنه فصلا لا سبيل الى الفكاك منه ، فكان ذلك أبلغ الشقاء وأمره !

وبعد أن خرج نحو ثلاثين سجينا أقفل الباب كما كان ، ثم صفهم احد الجنود صفا بعصا فى يده ، والقى أمام كل واحد منهم بقميص وسترة وسروال من قماش رخيص ، ثم اشار بيده اشارة خاصة فشرعوا جميعا فى خلع ملابسهم ، غير أن حادثا غير منتظر وقع عندئذ ، وكأنه كان قد تعمد اختيار تلك اللحظة بالذات ليحيل هذا الأذلال الى عذاب .

كان الطقس الى تلك اللحظة جميلا نوعا ما ، ولئن كان نسيم شهر آكتوبر يشيع البرودة فى الجو ، فانه كان يشق من آن لاخر فى غيوم السماء الرمادية اللون ثغرة كان يسقط منها شعاع من الشمس . ولكن ماكاد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ينزعون من على اجسادهم أسمال السجن البالية ويتقدمون عراة ليفحصهم الحراس المتشككون على مرأى من أعين الفضوليين الغرباء الذين كانوا يدورون من حولهم ليفحصوا أكتافهم ، حتى اظلمت السماء فجأة وهطل وابل من أمطار الخريف التى تشبه

السيل ، فغمر الفناء المربع بالماء البارد واغرق رءوس السجناء الحاسرة وأوصالهم العارية وملابسهم التعسة الملقاة على الارض .

وفى طرفة عين ، كان مدخل الفناء قد خلا تماما من كل شخص لم يكن سجانا أو سجينا ، وهرع فضوليو باريس ليحتموا تحت مداخل الابواب .

ومع ذلك ، فقد استمر المطر ينهمر مدرارا ، ولم نكن نرى فى الفناء سوى المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة وقد وقفوا عراة يتصبب الماء من فوق جلودهم على أرض الفناء الغارقة فى الماء .. ان صمتا حزينا قد أعقب تحديهم الصاخب فوقفوا يرتجفون ، واخذت أسنانهم تصطك وسيقانهم الناحلة وركباتهم ذات العقد ترتعد فتصطدم الواحدة بالاخرى . وكان منظرهم يستوجب الشفقة حقا ، وهم يسترون أجزاء أجسادهم العارية الزرقاء بهذه القمصان المبتلة وتلك السترة والسراويل التى يقطر منها الماء . لقد كان العرى خيرا لهم !

ان واحدا منهم ، واحدا فقط ، وهو شيخ مسن ، كان قد احتفظ بشىء من المرح ، فصاح قائلا وهو يجفف جسمه بقميصه المبتل : « أن هذا لم يكن ضمن البرنامج! » ثم اغرق فى الضحك ، وهو يلوح بقبضة يده نحو السماء .

وبعد أن لبس السجناء ثياب السفر ، اقتادهم حراسهم فى مجموعات تضم عشرين أو ثلاثين شخصا الى ركن مظلل من الفناء حيث كانت القيود الممدودة على

الارض فى انتظارهم . وكانت تلك القيود عبارة عن سلاسل طويلة غليظة تقطعها أفقيا وعلى بعد قدمين بانتظام سلاسل أخرى قصيرة قد ربط فى طرفيها طوق من حديد مربع الشكل يفتح عن طريق « مفصلة » فى أحد جوانبه ، ويقفل من الجانب المقابل « ببرشمته » بالحديد ويظل هذا الطوق الحديدى حول رقبة السجين طول مدة الرحلة وعندما نشرت كل هذه السلاسل على الارض بدت لى كأنها هيكل عظمى لسمكة ضخمة .

واجلس السجناء فى الوحل على الارض الغارقة فى الماء وبعد أن قيست الاطواق على أعناقهم ، جاء حدادان من السجانين مزودان بسندانين متنقلين فبرشموا لهم تلك الاطواق « على البارد » بطرقها طرقا شديدا بمطرقة من حديد . فكانت هذه لحظة رهيبة اصفر لها وجه أكثر السجناء شجاعة ! لقد كانت كل ضربة من المطرقة على السندان المسنود الى كتف السجين من ناحية ظهره تجعل ذقن المسكين تقفز الى الامام ، وكانت أدنى حركة يمكن أن يأتى بها السجين من الامام الى الخلف كفيلة بأن تطيح بجمجمته كأنها قشرة « عين جمل ! »

وما أن تمت هذه العملية حتى وجم السجناء واظلمت وجوههم ، ولم يعد يسمع الا صليل السلاسل وصوت مكتوم كان يتردد بين حين وآخر ، صوت عصى السجانين على أجسام من يبدون تمنعا أو مقاومة .. لقد كان بعض هؤلاء السجناء يبكون ، وكان الشيوخ منهم يرتعدون وهم يعضون على نواجذهم ، ووقفت أنا فى نافذة الزنزانة

اطل على الفناء وانظر فى رعب الى كل تلك الصور المحزنة فى اطارها الحديدى .

وهكذا ، فان زيارة السجانين تلت زيارة الطبيب ؛ واعقب زيارة السجانين تركيب الاطواق الحديدية حول رقاب السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .. لقد كان مشهدا مؤلفا من ثلاثة فصول !

وظهر شعاع الشمس من جديد فبدأ كأنه قد اشعل كل هذه العقول ، اذ نهض السجناء معا دفعة واحدة ،كما لو كانوا قد تحركوا بفعل الحمى ، وتشابكت أيدى سجناء السلاسل الخمس الطويلة وانتظموا فجأة فى حلقة ضخمة حول عامود المصباح الذى يتوسط الفناء ، وأخذوا يدورون من حوله على نحو يتعب البصر وهم ينشدون احدى أغانى الليمان فى لغة عامية دارجة ، وفى نغمة تارة شاكية باكية ، وأخرى صاخبة مرحة .وكنت أسمع بين حين وآخر صيحات جافة وضحكات ممزقة لاهثة تمتزج بكلمات هذه الاغنية الغريبة ، ثم تلا ذلك تصفيق حاد مجنون ، بينما كانت القيود الحديدية تصلصل ويصطك بعضها ببعض فتحدث نغما كان بمثابة الموسيقى لتلك الاغنية ، وهى موسيقى كانت أشد خشونة من ضوضائهم ! ولو بحثت فى مخيلتى عن صورة للعفاريت فلن أستطيع أن أتخيلها أحسن ولا أسوأ من هذه الصورة !

ثم احضر الى الفناء طست كبير ، وقطع السجانون على السجناء رقصهم بضربات من عصيهم ، ثم ساقوهم الى هذا الطست حيث كان المرء يرى شيئا طافيا كالعشب —

لست أدرى ماهو – فى سائل ساخن كان يتصاعد منه البخار لست أدرى ماهو كذلك ، فأخذوا يأكلون .

وبعد أن فرغ السجناء من أكلهم ألقوا بما تبقى من طعامهم هذا ومن خبزهم الاسود على بلاط الفناء ثم عادوا الى الرقص والغناء من جديد ، ويبدو انهم يتركون لهم شيئا من هذه الحرية يوم يكبلون فى الاصفاد وكذلك فى الليلة التى تليها .

ومكثت ارقب هذا المشهد الغريب فى يقظة كبيرة ، واستطلاع منهوم ، وانفعال عميق ، حتى أنى نسيت نفسى تماما ! ان شعورا جارفا من الشفقة كان يجتاحنى فيمزق أحشائى ، وكانت ضحكاتهم تملأ عينى بالدموع .

وفجأة ، وخلال هذا الحلم العميق الذى كنت مستغرقا فيه رأيت الحلقة الضخمة تكف عن الصياح والدوران ، وساد صمت عميق ثم فجأة اتجهت أنظارهم الى النافذة التى كنت أشغلها ، وصاحوا جميعا ، وهم يشيرون الى بأصابعهم قائلين : « المحكوم عليه بالاعدام !.. المحكوم عليه بالاعدام ! » .. وقد غمرهم فى تلك اللحظة مرح مضاعف ..

وتصلبت فى مكانى متحجرا ! فقد كنت أجهل من أين عرفونى وكيف تعرفوا على !

وصاحوا بى قائلين ، وهم يطلقون ضحكات ساخرة بشعة : « عمت صباحا ! .. طاب مساؤك ! » .. ونظر الى واحد من بينهم ، وهو شاب يافع كان أصغر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدةسنا ، وكان وجهه خشنا

لامعا جامد الملامح ، نظر الى نظرة تفيض بالحسد ، وهو يقول : « انه لسعيد الحظ ! فسوف يمحى من العالم ! وداعا أيها الزميل ! »

لست بمستطيع أن أعبر عما كان يدور فى نفسى .. انى كنت فى الواقع زميلا لهم ، فساحة الاعدام هى شقيقة لليمان « طولون » ، بل انى كنت فى درك اسفل منهم ! .. انهم كانوا يشرفوننى ..

واجتاحتنى رجفة عاتية .. نعم ، انى زميل لهم ومن الممكن ان اصير — انا نفسى — بعد ايام مشهدا يمسلا عليهم ابصارهم !

وكنت قد بقيت فى النافذة بلا حراك وقد شلت أوصالى وتملكنى الذهول . ولكننى حينما رايت سجناء السلاسل الخمس الكبرى يتقدمون الى الامام ثم يندفعون نحوى وهم يوجهون الى كلمات ودية جهنمية ، وحينما سمعت ضجيج قيودهم الفظيع يختلط بصيحاتهم المجلجلة ، وبوقع خطواتهم تحت نافذتى عند أسفل الجدار ، خيل الى أن هذه الشرذمة من الشياطين كانت تتسلق البناء الى زنزانتى التعسة ، وأطلقت صيحة مروعة ثم اندفعت نحو الباب والقيت نفسى عليه بكل قواى كى احطمه ، لكننى لم اجد سبيلا الى الفرار ، فقد كان الباب مقفلا من الخارج بالمزلاج .. وعدت احاول اقتحام الباب ، وانا انادى واصرخ فى جنون ، فبدا لى وقتئذ انى كنت أسمع اصوات السجناء المخيفة تقترب منى أكثر فأكثر ، وظننت انى أرى رءوسهم المنكرة تبدو بسرعة على حافة نافذتى ، فصحت صيحة فزع اخرى مدوية ثم سقطت مغشيا على .

اللحـــن الحزيـــن

وعندما أفقت من غشيتي كان الليل قد أقبل ، ووجدت نفسي راقدا فوق « برش » ، وكان هناك مصباح ترتجف ذبالته قرب السقف مكنني من أن أرى « أبراشا » أخرى مرصوصة الى جوار « برشي » عن يمين ، وعن شمال ، فأدركت أنهم نقلوني الى مستشفى السجن .

وظللت مستيقظا لحظات ، ولكن بلا تفكير وبلا ذاكرة وقد أحسست بسعادة غامرة لأني نائم على سرير . وليس ثمة شك في أن سرير المستشفى هذا كان خليقا في أي ظرف آخر بأن يجعلني أفر منه شفقة واشمئزازا ، غير أني كنت قد أصبحت شخصا آخر .. كانت ملاءة هـذا السرير رمادية اللون خشنة الملمس ، وكان الغطاء ممزقا ، وكنت أشعر بقش الزنزانة من خلال تلك « المرتبة » .. ولكن هذا لم يكن يهم ! .. فقد كان في وسعي أن ابسط أطرافي كما يروق لي فوق هذه الملاءة الرخيصة وتحت هـذا الغطاء مهما بلغ من الرقة ، وكنت أحس رويدا رويدا بزوال هذا البرد المروع الذي كان ينفذ حتى نخـاع

العظام ، والذى كنت قد ألفته فى الزنزانة ، فاستسلمت مرة اخرى للنوم .

واستيقظت من نومى على صوت جلبة كبيرة ، وكان الوقت فجرا . كان الصوت يأتينى من الخارج ، وكـان سريرى بجوار النافذة ، فنهضت وجلست فى الفـراش لاستجلى مصدر هذا الصوت . .

كانت النافذة تطل على الفناء الكبير فى سجن «بيستر»، وكان هذا الفناء يعج بالناس حيث كان صفان من جنـود السجن القدامى الاشداء يجدان مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بممر مفتوح عبر الفناء بين هذه الكتل من الجماهير ،وبين هذين الصفين من الجنود كانت خمس عربات « كارو » محملة بالرجال تتقدم فى بطء وهى تتعثر عند كل «بلاطة» . . كان هؤلاء الرجال هم السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الذين تقرر رحيلهم .

كانت هذه العربات مكشوفة ، وكانت كل واحدة منها محملة بمجموعة من السجناء تربطهم احدى الســلاسل الطويلة الخمس ، وقد جلسوا على جانبيها واتكأ بعضهم على بعض ، تفصل بينهم السلسلة المشتركة التى كانت تمتد بطول العربة ، والتى كان يقف عند آخرها على قيد خطوة من سلمها جندى يشهر بندقية معدة للاطلاق . وكانت صلصلة الاصفاد الحديدية تسمع عند كل هزة من هزات العربة ، كما كانت رءوس السجناء ترى وهى تقفز وسيقانهم المعلقة تتأرجح هنا وهناك .

وكان ثمة رذاذ نافذ يثلج الهواء ويجعـــــل سراويل

السجناء الرمادية المصنوعة من التيل والتى كـــانت قد اسودت ، يجعلها تلتصق بركباتهم ، وكان ماء المطر يتصبب من لحاهم الطويلة ومن شعرهم القصير ويغمر وجوههم التى صارت بنفسجية اللون وكنت أراهم وهم يرتجفون وقد أخذت أسنانهم تصطك من البرد والغضب .

وكان هؤلاء السجناء من جهة أخرى عاجزين عن الحركة اذ أن المرء عندما يربط بسلسلة كهذه فانه لا يصبح الا جزءا من تلك الكتلة القبيحة التى يسمونها « الكردون » والتى تتحرك كأنها رجل واحد .. ان الذكاء لابد عندئذ أن ينمحى ، فطوق الليمان الملفوف حول العنق يخنق العقل ويحكم عليه بالموت ، أما الحيوان نفسه (1) فيجب الا تكون له حاجات أو شهية للطعام الا فى ســـاعات محددة .

وهكذا ، فان السجناء كانوا لايستطيعون حركة وقد أصبحوا شبه عراة ، ورءوسهم حاسرة وأرجلهم معلقة فى الهواء . كانوا يبذءون ، على هذا النحو ، سفرهم الذى يستغرق خمسة وعشرين يوما ، وهم محمولون على نفس العربات ويرتدون نفس الثياب ، تحت وهج الشـــمس المحرقة وتحت أمطار نوفمبر الباردة ، حتى ليبدو أن الناس كانوا يريدون أن تشاركهم السماء مناصفة القيـــام بعملهم كجلادين !

وكان قد نشب بين هذا الجمهور وبين العربات حوار رهيب : سب من ناحية ، وتحد من الناحية الاخرى ،

(1) يعنى الناحية الحيوانية فى السجين أى البدن ومطالبه .

وشكاوى وشتائم من الجانبين .. ولكن ماهى الا اشارة صدرت من القائد (١) حتى رأيت وابلا من ضربات العصى التى كان يحملها الجنود ينهال على العربات الخمس فيفرق أكتاف السجناء أو رءوسهم بلا تمييز ، فعاد كل شىء الى الهدوء ، ولكنه كان ذلك الهدوء الظاهرى الذى يسمونه نظاما ، اذ كانت أعين هؤلاء التعساء تفيض بالانتقام ، وكانت أيديهم تتقلص على ركبهم فى عنف ظاهر .

واختفت العربات « الكارو » الخمس ، التى كان يحرسها فرسان البوليس وجنود السجون المشاة . واحدة بعد أخرى تحت ذلك الباب المرتفع ذى « القبوة » ، باب سجن « بيستر » ، وتبعتها عربة سادسة تكدست عليها المواقد والاوانى النحاسية والسلاسل الاحتياطية (٢) .. وكان نفر من السجانين قد تأخروا قليلا فى القصف (٣) فخرجوا مسرعين ليلحقوا بالعربات .

ثم انفض الجمهور وتلاشى هذا المنظر كانه رؤيا أو خيال عابر ، وأخذت الجلبة التى كانت تصدر عن تلك العربات الثقيلة تتضاءل شيئا فشيئا ويضعف معها وقع سنابك الخيل على طريق « فونتينبلو » المرصوف ، وقرقعة السياط ، وصليل السلاسل ، وصيحات الجماهير الذين كانوا يتمنون للسجناء فى سفرهم كل المصائب والنكبات .

ومع ذلك ، فقد كان هذا بالنسبة اليهم مجرد بداية فحسب !

(١) الكابتن قائد حرس السجن .
(٢) سلاسل واطواق حديدية اضافية وقطع غيار للطوارىء .
(٣) (كانتين) السجن .

فماذا كان يقول لى المحامى اذن ؟ .. الاشغال الشاقة المؤبدة ! .. آه ! ان الموت خير عندى ألف مرة ! انى افضل المشنقة على الليمان ، والفناء على جهنم (١) ، واوثر أن أسلم رقبتى لسكين الدكتور « جيوتان » على أن أسلمها لطوق السجان !

آه ! الاشغال الشاقة المؤبدة ؟! .. رحماك أيتهـا السماء العادلة !

***

لم اكن مريضا لسوء الحظ ، واضطررت فى اليوم التالى الى الخروج من مستشفى السجن لتتلقفنى الزنزانة مرة ثانية .

اننى لست مريضا ! هذا حق ، فأنا شاب قـوى ، استمتع بصحة جيدة ويجرى الدم فى عروقى فى حرية ، وكل اعضاء جسمى تطيع سائر نزواتى .. أنا قوى الجسم والروح ، وتكوينى يمكننى من أن أعيش طويلا .. نعم ، ان هذا كله صحيح .. ومع ذلك ، فانى مصاب بمـرض آخر ، بمرض مميت من صنع يد الانسان .

فمنذ أن خرجت من مستشفى السجن تملكتنى فـكرة مؤلمة ، فكرة سوف تورثنى الجنون ! فقد خطر ببالى أنى ربما استطعت الهرب لو أنهم تركونى فى هذا المستشفى، فهؤلاء الاطباء والراهبات كان يبدو أنهم يعنون بأمرى .. اننى سوف أموت هكذا وأنا بعد شاب صغير السن ... سوف أموت مثل هذه الميتة الشنعاء !

---

(١) يعنى المؤلف عذاب الليمان والاشغال الشاقة المؤبدة .

لقد بدا لى أنهم كانوا يرثون لحالى لكثرة ما كـــانوا يحومون حولى ويتزاحمون الى جوار سريرى .. آه ! صمتا أيها التعس ! .. فهو مجرد حب استطلاع فحسب .. وفوق هذا ، فهؤلاء الاشخاص وان حاولوا انقـــاذى حقا من الحمى ، فليس فى استطاعتهم أن ينقذونى من حكم الاعدام ! .. ومع ذلك ، أفليس الامر يسيرا عليهم للغاية ؟ مجرد باب يترك مفتوحا ! ماذا يضيرهم لو أنهم فعلوا ذلك ؟

ولكن واحسرتاه ! لم تعد أمامى فرصة الآن ... ان طلب الاستئناف الذى تقدمت به سوف يرفض لان كل شىء قد سار طبقا لنص القانون ، فقد شهد الشـــهود شهادة كاملة ، وترافع المترافعون مرافعة جيدة ، وحكم القضاة حكما صحيحا ! اننى لا أعول على الاستئناف ، اللهم الا .. كلا ، كلا .. ان هذا ضرب من الجنون ! ولم يعد ثمة أمل ! فطلب استئناف الحكم ليس الا حبـــلا يمسك بتلابيبك وأنت معلق فوق الهوة فتســـمعه وهـــو يتآكل قليلا قليلا مع كل لحظة حتى ينقطع تماما .. انه كسكين المقصلة عندما تهوى على عنق المرء فى ســـتة أسابيع !

آه لو صـــدر عفو عنى ! .. عفو ؟! .. من ذا الذى سوف يصدره ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ .. من المحال أن يصدر العفو عنى ، كل ذلك عبرة للناس ، وضرب مثل .. كما يقولون :

لم تعد هناك أمامى سوى ثلاث خطوات أخطـوها ، ثلاث فحسب : سجن « بيستر » .. ثم ســـــجن

« الكونسيير جورى » .. واخيرا ، ساحة الاعدام !

***

وكنت قد جلست فى الشمس بجوار النافـذة خـلال الساعات القليلة التى قضيتها فى المستشفى ... ان الشمس قد عادت الى الظهور ، أو على الاقل ، كنـت أتلقى من أشعتها كل ماكانت تسمح لى به منها قضـبان النافذة الحديدية .

جلست هناك وقد وضعت راسى الثقيل المحموم بين يدى اللتين كانتا لا تقويان على حمله ، واسندت مرفقى الى ركبتى وقدمى الى قضبان مقعدى ، لان الانهـاك كان قد بلغ منى مبلغا جعلنى أنحنى وانثنى على نفسى كما لو كنت جسما لم تعد فى أوصاله عظام ولا فى لحمه عضلات .

وكانت رائحة السجن التى تزكم الانوف تخنقنى أكثر من اى وقت مضى ، وكانت أصوات كل هؤلاء السـجناء المختلطة بصليل سلاسلهم لا تزال تطن فى اذنى ، وكنت اقاسى كللا كبيرا فى سجن « بيستر » ، حتى أنه كـان يبدو لى أن الله فى عدله ورحمته سوف تأخذه الشـفقة بى فيرسل الى طائرا صغيرا على الاقل ليغرد هنا أمامى على حافة هذا السقف الاردوازى المنحدر .

ولست ادرى أن كان الله الرحيم هو الذى استجاب عندئذ لدعائى أو أنه الشيطان الرجيم ، فقد سمعت فى نفس اللحظة تقريبا صوتا يرتفع تحت نافذتى ولكنه لم يكن صوتا لطائر ، وأنما كان أجمل من ذلك بكثير .. كان صوتا نقيا ، صوتا نضرا شجيا لفتاة فى الخامسة عشرة ..

فرفعت رأسى فجأة كانسان أدركه الفزع ، واخـــذت استمع فى نهم الى الاغنية التى كانت ترددها الصبية فى نغم بطيء حزين كأنه هديل الحمام .. فجاءنى صوتها ينوح قائلا :

كان ذلك فى شارع « ماى » ..

حيث اعتدى على قهرا ثلاثة أشقياء ..

ثلاثة ملاعين هجموا على ..

ولم استطع أن أعبر عن مدى مرارة الصـــدمة التى احسست بها فى تلك اللحظة .. واستطرد الصوت يقول:

لقد هجموا على وطرحونى أرضا .

ومر شاب من حينا مصادفة .

فقلت له : اننى فى محنة ..

فبلغ ذلك لفتيان حينا الشجعان !

فقال لى : « انى هززت شجرة البلوط

ونزعت منها كثيرا من الاغصان »

فأوسعهم ضربا حتى تركونى

وفررت وحذائى ممزق ، وكذلك ملابسى

لسوف ارقص مع هذا الفتى فى يوم العيد

ولم يسبق لى أن سمعت هذه الاغنية من قبـل ، وكنت لا استطيع أن أسمع المزيد من كلماتها التى كانت تحمل بين طياتها شكوى مفهومة وغامضة معا .. كما غنت الفتـاة كذلك اغنية تقص شجارا وقع بين مجرم وبين رجـــال البوليس ، وتتحدث عن لص يقابل شخصا ويرسله الى زوجته بهذه الرسالة الرهيبة : « انى قتلت رجلا وقبض

على » ، واغنية اخرى (١) جاء بها : أن سيدة ذهبت الى قصر « فرساى » لتشكو مجرما الى الملك ، وأن صاحب الجلالة قد ثار لذلك ، وقال متوعدا المذنب انه : «سيجعله يرقص دون أن تكون هناك « أرضية » تحت قدميه ! »

كانت الصبية تردد كل تلك الاغانى فى نغمة حلوة تفيض بالرقة والحنان ، وفى صوت لم تسمع آذن امرىء قط أشجى ولا اعذب منه ! حتى اننى جمدت فى مكانى محطما مبهوتا تغمرنى الحسرة والاسف ! فقد كانت كل تلك الكلمات الفظيعة المنبعثة من هذا الفم النضر الجميل شيئا يبعث على الاشمئزاز حقا .. كانت تبدو وكأنها لعاب قوقعة فوق وردة يانعة ؟

وما أنا بمستطيع أن أصور ما كنت أشعر به وقتئذ ، لقد كنت مجروحا ، ومسرورا فى آن واحد ! ان لهجة الكهف والليمان ، هذه اللغة الدامية الفظة ذات السرنة الكئيبة والطابع العامى (٢) التى امتزجت بصوت فتاة يافعة فى فترة انتقال لطيفة بين صوت طفلة وصوت امرأة ، كل تلك الالفاظ رديئة الصياغة كانت الفتاة تغنيها ، وترتلها ، وتنظمها دررا ثمينة .

آه ! ما أشد عار السجن وشناعته ! ان فيه لسما يلطخ كل شيء . كل شيء فيه يذبل ، حتى أغنية فتاة لا تتجاوز الخمسة عشر ربيعا .. اذا عثرت فيه على طير

(١) ترجمنا مضمون هذه الاغنية بمعناها فحسب لتعذر نظمها فى ابيات موزونة ومقفاة كما وردت فى النص الفرنسى .

(٢) اللهجة الشائعة بين الدهماء والطبقات المنحطة أو الجاهلة.

وجدت جناحه ملطخا بالوحل .. وان قطفت به زهرة وشممتها ، تأذيت من رائحتها البغيضة .

آه لو كنت أستطيع الفرار ، لجريت عندئذ خلال الحقول بكل ما أوتيت من قوة وعزم !

كلا ، فليس ينبغى أن اجرى وقتئذ ، فذلك يلفت الانظار ويبعث على الريبة والشك ، بل أن الامر على العكس ، اذ يجب على أن أسير فى تؤدة وانا اغنى مرفوع الرأس .. يجب أن احاول جاهدا أن احصل على قميص عتيق مفتوح ازرق اللون وبه رسوم حمراء ، فهذا يحكم التنكر ، اذ أن كل بائعى الخضر فى الضواحى يلبسون مثل ذلك .

انى أعرف على مقربة من « أركوى » (١) أجمة من الاشجار بجوار مستنقع من المستنقعات حيث كنت اتردد مع رفاقى لصيد الضفادع فى يوم الخميس من كل أسبوع عندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية ، وسوف أختبىء هناك الى أن يهبط الظلام ، ثم أستأنف سيرى تحت جنح الليل كى أذهب الى « فانسين » .. كلا ، كلا .. فسوف يحول النهر هناك بينى وبين المضى قدما ، سوف أيمم اذن شطر « أرباجون » — وسوف يكون من الاوفق أن أتجه ناحية « سان جرمان » ، ثم أذهب الى « الهافر » (٢) وأستقل أية سفينة الى انجلترا — ولكن ما جدوى كل ذلك ؟ اذ لا أكاد أصل الى « لونجيمو » حتى يمر بى جندى من رجال البوليس ويطلب الى أن

(١) مكان فى ضواحى باريس .
(٢) ميناء فرنسى على بحر المانش .

ابرز بطاقتي الشخصية ! .. انني هالك لا محالة ! لقد ضعت !

آه ! يالي من حالم بائس ! على اذن أن أحطم الجدار اولا .. ان احطم الجدار الذي يسجنني وسمكه ثلاث اقدام ! ..

الموت ياالهي ! .. الموت !

عندما أفكر في أني أتيت الى هنا ، الى « بيستر » وانا غلام صغير لارى البئر الكبيرة .. والمجانين آه !

***

وفيما انا عاكف على كتابة هذا كله ذوى نور مصباحي وطلع الفجر .. ثم دقت ساعة الكنيسة الصغيرة تعلن السادسة .

ما معنى ذلك ؟ .. ان حارس زنزانتي النوبتجي دخل لتوه عندي وخلع قبعته ، ثم حياني معتذرا عما سببه لي من ازعاج ، وطلب مني أن أعين له ما أريده طعاما لفطوري ، طلب مني هذا ، وهو يحاول جاهدا أن يكسب نبرات صوته الغليظ الخشن مسحة من الرقة والظرف .

فاجتاحتني رجفة عاتية ، وهمس في أعماقي صوت يقول :

« ترى أيتم اليوم تنفيذ الحكم ؟ »

نعم .. انه اليوم !

لقد حضر مدير السجن بنفسه لزيارتي وسألني كيف يستطيع ان يرضيني وكيف يمكن أن يكون نافعا لي في اي شيء ، وعبر لي عن أمله في ألا تكون لدى أية شكوى منه

أو من مرءوسيه ، ثم سألنى فى اهتمام عن صحتى ، وعن الحال التى قضيت فيها الليل .. وخاطبنى بقوله : « ياسيدى » وهو يغادر الزنزانة !

انه اليوم !

ان هذا السجان لا يعتقد ان لدى شكوى منه أو من مرءوسيه .. انه على حق ، فسوف لا تنفعنى الشكوى .. انهم قد قاموا بواجبهم فحرسونى خير حراسة ، وفوق هذا ، فقد كانوا مؤدبين عند وصولى وعند رحيلى .. أفلا ينبغى اذن أن أكون راضيا مسرورا ؟

ان هذا السجان الطيب انما يمثل السجن مجسما ، بابتسامته الساذجة العذبة ، وكلماته الرقيقة اللطيفة ، وعينه التى تمتدح وتتجسس ، ويديه الضخمتين العريضتين .. ان سجن « بيستر » قد تقمص هذا الرجل .. كل شىء من حولى هو سجن بالنسبة الى ! انى أجد السجن فى جميع الصور والاشكال : أجده فى صورة الانسان كما أجده فى شكل القضبان أو فى المزاليج والاقفال .. فهذا الجدار سجن من الحجر ، وذاك الباب سجن من الخشب ، وهؤلاء الحراس سجن من لحم وعظم .. ان السجن كائن خفى رهيب شامل لا يتجزأ ، نصفه سكن ونصفه انسان ، وأنا فريسته ، وهو يحيطنى بمخالبه ويحتضننى بكل جوارحه وثناياه ، فهو يغلق على جدرانه المبنية من الجرانيت ، ويقفل على بأقفال من الحديد ، ويراقبنى بعينى السجان .

آه ! يالى من بائس . ماذا سيحدث لى ؟ ماذا سيفعلون بى ؟

الكـــاهـن

انني الآن هادىء ، فقد انتهى كل شيء ، انتهى تماما ..
لقد خرجت من دوامة القلق المرعبة التى كانت قـد
اقلقتني فيها زيارة الطبيب . ذلك انى اعترف بانى كنت
لا ازال آمل ، اما الان ، والحمد لله ، فلم يعد ثمة
امل لى .

وهذا هو ماحدث منذ لحظة :

حينما دقت الساعة معلنة السادسة والنصف ـ بل ان
ذلك كان فى الربع الاخير من هذا النصف ـ فتح باب
زنزانتى من جديد ودلف اليها شيخ اشيب الشعر ،
يرتدى « ردنجوتا » قاتم اللون . وفتح الرجل «الردنجوت»
قليلا فرايت ثيابه البيضاء ، « وياقته » الناصعة ،
لقد كان قسيسا .

لم يكن هذا القسيس واعظ السجن ، وهـذا امر
كئيب . وجلس الرجل قبالتى ، وقد ارتسمت على شفتيه
ابتسامة عريضة ، ثم هز راسه ورفع بصره الى السماء ،
اعنى الى السقف ، سقف الزنزانة ! .. لقد فهمت !

وقال لى رجل الدين :

ـ أانت على استعداد يابنى ؟

فاجبته قائلا فى صوت مختنق :

ـ لست مستعدا ولكننى « جاهز » !

ومع ذلك ، فقد غامت عيناى ، واضطرب بصرى ، ونضح من كل اعضاء جسمى عرق بارد غزير ، واحسست بصدغى ينتفخان ، وامتلأت اذناى بالطنين .

وكان الشيخ الطيب يتكلم ، بينما كنت اترنح على مقعدى كانسان نائم ، او هذا هو على الاقل مابدا لى فى تلك اللحظة ، واحسبنى اذكر انى رايت شفتيه تتحركان كما رايت بريق عينيه ، واهتزاز يديه .

وفتح باب الزنزانة مرة اخرى ، فاخرجنى صرير المزاليج من ذهولى وقطع على الرجل حديثه ، ثم دخل سيد لم اره من قبل ، يرتدى ثيابا سوداء ومعه مدير السجن . وقدم الرجل نفسه الى ، وحيانى فى احترام عميق . وكانت ترتسم على وجه الرجل مسحة من حزن « رسمى » مصطنع ، هو نفس الحزن الذى تراه على وجه اللحاد « الحانوتى » ومعاونيه ، وكان يمسك فى يده ورقة ملفوفة .

وقال لى الرجل وهو يبتسم ابتسامة مؤدبة :

ـ سيدى .. انى « محضر » من قبل محكمة باريس الملكية ، ويشرفنى أن احمل لك رسالة من قبل السيد النائب العام .

فاجبته قائلا بعد ان ذهب عنى اثر الهزة الاولى ، واستعدت حضور ذهنى كله :

ـ انه السيد النائب العام ذاته الذى طالب برأسى فى الحاح ، وانه لشرف كبير لى ياسيدى أن يكتب الى ، وآمل ان يثلج موتى صدره ويدخل على نفسه أبلغ السرور اذ يشق على أن اعتقد انه الح فى طلب موتى بحماس كبير فى الوقت الذى لن يهتم فيه بهذا الامر بعد الآن .

لقد قلت هذا كله وسكت لحظة ، ثم استطردت أقول فى صوت ثابت النبرات : « اقرأ ماعندك اذن ياسيدى ! »

فأخذ « المحضر » يقرأ على رسالة طويلة ، وهو يتفنى فى نهاية كل سطر ، ويتردد فى وسط كل كلمة . كان ذلك رفضا للطلب الذى تقدمت به لاستئناف الحكم . واضاف الرجل قائلا بعد أن فرغ من تلاوة رسالة النائب العام ، ودون أن يرفع بصره عن أوراقه المدموغة : « ان الحكم سينفذ اليوم فى ساحة الاعدام ، وسوف نرحل فى تمام الساعة السابعة والنصف الى سجن « لاكونسيير جورى » . هل لك أن تتفضل فتتبعنى ياسيدى العزيز ؟ »

وكنت لم أعد أنصت الى الرجل منذ وقت ليس بقصير وكان مدير السجن يتبادل الحديث مع القسيس ، بينما ظلت عينا « المحضر » مثبتتين على أوراقه ، وكنت أنا الى جوار الباب الذى كان لا يزال مواربا : آه ! أيها التعس ! هناك فى الدهليز أربعة حراس معهم بنادقهم !

وأعاد « المحضر » سؤاله على وهو ينظر الى فى هذه المرة ، فاجبته قائلا :

ـ سأتبعك ياسيدى فى اى وقت تريد . انى رهن اشارتك !

فحيانى قائلا وهو يتهيأ للانصراف :

ـ سوف اتشرف بالحضور لاصطحابك معى بعد نصف ساعة .

وانصرف الجميع عندئذ وتركونى وحدى .

***

يا الهى ! أما من وسيلة للفرار ؟ اية وسيلة كانت ؟ يجب ان أهرب . هذا لابد منه ، وفى الحال ! من الابواب: من النوافذ ، أو من خلال فتحات أخشاب السقف ، حتى لو كلفنى هذا أن اترك لحمى على هذه الالواح ! ياللغضب! يا للشياطين ! يا للعنة ! لسوف تلزمنى اشهرا باكملها لنقب هذا الجدار ، ان كانت هناك آلات جيدة ، مع انى لا أملك مسمارا واحدا ، ولم تعد أمامى حتى ساعة واحدة !

الفصل الثالث :

الطريق إلى الموت

فى سجن
«لاكونسييرجورى»

هاأنذا قد نقلت كما قال « المحضر » ، غير أن الرحلة جديرة بأن تروى .

كانت الساعة تدق السابعة والنصف عندما ظهر المحضر مرة أخرى على عتبة زنزانتى . وقال لى الرجل : « انى فى انتظارك ياسيدى » .

يا للأسف ! انه كان ينتظرنى حقا ، وكان معه آخرون!

فنهضت من مكانى وخطوت خطوة واحدة ، فبدا لى لحظتها أنى سأعجز عن أن أخطو خطوة أخرى لشدة ما كنت أشعر به من ثقل فى رأسى وخور فى ساقى ، ولكنى مع ذلك تمالكت نفسى ، وتابعت السير فى شىء من الارادة والثبات . والقيت نظرة أخيرة على سجن « بيستر » قبل أن أغادره ــ فقد كنت أحب زنزانتى هذه ــ ويؤسفنى أنى تركتها خالية ومفتوحة ، مما أكسبها مظهرا غريبا !

انها لن تظل هكذا طويلا على كل حال ، فقد كان حاملو مفاتيح السجن يقولون أنهم ينتظرون شخصا سوف ينزل فيها فى هذه الليلة ، وهو رجل محكوم عليه :

كانت محكمة الجنايات بصدد النظر في أمره في هذه الساعة .

ولحق بنا الواعظ فى نهاية الدهليز ، وكان الرجل قد فرغ للتو من تناول طعامه .

وعند خروجى من الزنزانة ، امسك مدير السجن بيدى فى عطف ، وشدد على الحراسة بأربعة جنود من حراس السجن القدامى .

وأمام باب مستشفى السجن ، صاح بى شيخ يحتضر قائلا : « الى اللقاء ! »

وبلغنا الفناء واستنشقت الهواء ، فأراحنى هذا بعض الشيء ولم نمش طويلا ، اذ كانت هناك عربة تجرها جياد قوية واقفة فى الفناء الاول .. آه ! انها نفس العربة التى كانت قد نقلتنى الى هنا . كانت من نوع العربات المستطيلة المكشوفة ، ومقسمة الى قسمين بقضبان من حديد ، تتقاطع على شكل شبكة شديدة الكثافة ، وكان لكل قسم من قسميها باب ، أحدهما فى مقدمة العربة ، والثانى فى مؤخرتها . وكانت العربة بأسرها شيئا بالغ القذارة ، اسود اللون حالكه ، ومغطى بالغبار ، الى حد ان عربة نقل الموتى كانت تبدو الى جوارها كأنها عربة لتتويج الملوك .

وقبل ان ادفن فى هذا القبر ذى العجلتين ، القيت نظرة على الفناء ، نظرة انسان يائس ، كان يأمل بها أن تتداعى من امامه الجدران . كان الفناء وهو مكان صغير مزروع بالاشجار ، كان ممتلئا بالمتفرجين اكثر مما كان يوم تكبيل

المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة بالاصفاد اذ كان الناس قد احتشدوا بسرعة مذهلة .

وكان مطر الخريف يتساقط وقتئذ كما حدث يوم رحيل السجناء المكبلين بالسلاسل ، وهو مطر دقيق بالغ البرودة لا يزال يهطل فى هذه الساعة التى اكتب فيها ، وسوف يستمر طول النهار دون شك ، وسوف يستمر كذلك حتى بعد أن أرحل عن هذه الدنيا .

وكانت الطرق مملوءة بالمياه « وبالمطبات » ، وكان الفناء غارقا فى الماء والوحل ، وخامرنى ساعتها شعور بالسرور لرؤية هذا الجمهور فى الوحل .

وصعدنا الى العربة ، فركب المحضر مع أحد الحراس فى القسم الامامى منها وركبت أنا مع القسيس وحارس آخر فى المؤخرة ، وكان معنا أربعة جنود على ظهور الخيل يحيطون بالعربة ، وهكذا كان هناك ثمانية رجال — اذا استثنينا سائق العربة — يحرسون رجلا واحدا .

وفيما كنت أهم بالصعود الى العربة رأيت امرأة عجوزا ذات عينين رماديتين كانت تقول : « انى افضل هذا كثيرا على السلاسل ! »

اننى افهم ذلك ، فهو منظر يحيط به المرء بنظرة واحدة ، يحيط به فى سهولة وسرعة اكثر مما يحيط بمنظر السلاسل ، وهو منظر جميل مثل هذا المنظر الاخير ، ولكنه اكثر منه راحة ، وليس فيه ما يسليك ، اذ انه ليس هناك سوى رجل واحد ، وعلى هذا الرجل وحده يقع من الكوارث ما يعادل الكوارث التى تقع على كل المحكوم

عليهم بالأشغال الشاقة مجتمعين ، غير أن الشقاء فيه ليس موزعا بين كثرة من الناس ، وانما هو مركز ، كالخمر المركزة تكون أكثر لذة للشاربين .

وتحركت العربة فند عنها صوت مكتوم وهى تمر من تحت قبوة الباب الكبير ، ثم خرجت الى عرض الشارع، فأغلق خلفها باب سجن « بيستر » الثقيل . وكنت أحس فى ذهول بأنى محموم كانسان فاقد الوعى ، لا يستطيع ان يتحرك أو يصيح ، ويشعر بأن أناسا يدفنونه ، وكان رنين الاجراس الصغيرة المعلقة فى رقاب الخيل يصل الى سمعى فى غير وضوح ، تلك الاجراس التى كانت تجلجل بطريقة منتظمة فى رقاب جياد العربة وكأنها مصابة « بالزغطة » ، وكانت عجلات العربة المغطاة بالحديد تتخبط على الطريق المرصوف ، او تحتك بصندوق العربة وهى تنتقل من « مطب » الى « مطب » ، محدثة صوتا يختلط بوقع سنابك الخيل التى تحيط بالعربة لحراستها ، وفرقعة السوط الذى يحمله السائق ، كل ذلك كان يبدو لى كأنه دوامة تحملنى وتلفنى فى طياتها .

ومن خلال قضبان نافذة صغيرة فى العربة كانت مفتوحة امامى ، كانت عيناى مثبتتين بصورة آلية على كلمات محفورة باحرف كبيرة فى الجدار فوق الباب الرئيسى لسجن « بيستر ! » « ملجأ الشيخوخة » . كنت اقول فى نفسى : عجبا ! يبدو أن هناك اناسا يشيخون هنا !

وكما يفعل المرء بين اليقظة والنوم ، اخذت اقلب هذه الفكرة على كل جوانبها فى نفسى الخاملة من الالم ، وفجأة،

تغير المنظر الذى كنت أراه من خلال تلك الطاقة الصغيرة في اللحظة التى انتقلت فيها العربة من الشارع العريض الى الطريق الرئيسى ، وأخذت أبراج كنيسة « نوتردام» تبدو لعيني باهتة زرقاء في ضباب باريس من خلال ذلك المنفذ الضيق ، فتغيرت كذلك وجهة نظرى على الفور . ذلك انى كنت قد أصبحت آلة مثل هذه العربة . واعقبت فكرة سجن « بيستر » فكرة أبراج « نوتردام » ، فقلت في نفسي وانا أبتسم فى غباء : أن الذين يكونون فى أعلى البرج حيث يوجد العلم سوف يرون مرور العربة على صورة أوضح .

واظن أن القسيس قد استأنف حديثه معى فى تلك اللحظة بالذات ، فتركته يتكلم وأنا أستمع اليه فى صبر، اذ كان يطن فى أذنى هدير عجلات العربة ، مختلطا بوقع سنابك الخيل ، وقرقعة السوط ، وكان هذا الصوت الاخير صوتا اضافيا .

وجلست انصت فى صمت الى وقع هذا الكلام الذى كان يطرق أذنى على وتيرة واحدة ، كأنه خرير ماء النافورة فقد كان كلامه يزيد خواطرى خمولا على خمول ، وتمر الفاظه من امامى متنوعة دائما ولكنها دائما نفس الشيء ، شأنها شأن الاشجار المرصوصة على جانبى الطريق العريض ، عندما هزنى فجأة صوت « المحضر » الموجز المتقطع ــ وكان جالسا فى المقدمة ــ اذ جاءنى يقول فى لهجة تكاد تفيض مرحا : « حسنا يا سيدى القسيس ! ماهو الجديد الذى تعرفه ؟ »

وكان الرجل وهو يقول ذلك ملتفتا نحو القسيس ؛

فلم يرد عليه هذا الاخير ، اذ كان يتحدث الى دون انقطاع، وكان صوت العربة يصم أذنيه عن السماع . فاستطرد « المحضر » قائلا وهو يرفع عقيرته في هذه المرة ، كي يعلو صوته على هدير العجلات : « حقا انها عربة جهنمية ! » وسكت لحظة قصيرة ثم أردف يقول : « انها « المطبات » دون شك ، هي التي تجعل أحدنا لا يسمع الآخر . ماذا كنت اريد أن أقول ؟ آه ! نعم ، قل لي ياسيدى القسيس لو تفضلت .. هل تعرف الخبر الجديد في باريس اليوم ؟ »

فانتفضت كما لو كان الرجل يتحدث عني ، بينما أجابه القسيس قائلا بعد أن سمعه أخيرا :

ـ كلا ، لم اجد متسعا من الوقت لقراءة صحف الصباح ، وسوف أرى ذلك في المساء . انني حينما أكون مشغولا هكذا طول اليوم ، أوصي البواب بأن يحتفظ لي بالصحف حتى اقرأها عند عودتي في المساء .

ـ أوه ! من المستحيل انك لا تعرف خبر باريس ! خبر هذا الصباح !

وهنا تدخلت في الحديث قائلا :

ـ أحسب اني اعرف هذا الخبر

فنظر الي الحاضر ثم قال :

ـ انت ! احقا ؟ اذن فما هو رأيك ؟

فقلت له :

ـ انك متحمس للاستطلاع !

فأجابني الرجل بقوله :

ـ لماذا ياسيدى ؟ ان لكل منا رايه السياسى ، وانا احترمك الى حد انى اعتقد أن ليس لك رأى فى هـــذا الموضوع . أما أنا فانى موافق تماما على اعادة تـــكوين الحرس الوطنى . لقد كنت جاويش سريتى وكان ذلك حقا شيئا لطيفا للغاية ..

فقاطعته قائلا :

ـ كنت أظن انك لا تعنى هذا الخبر .

ـ وأى خبر لديك اذن ؟ لقد كنت تقول انك تعرف الخبر .

ـ كنت أتحدث عن خبر آخر تهتم به باريس كذلك .

ولم يفهم الغبى ، غير أن حبه للاستطلاع تيقظ ، فقال فى لهفة :

ـ خبر جديد ؟ وانى لك أن تعرف هذه الاخبار بحق الشيطان ؟ ماهو هذا الخبر الذى لديك اذن يا سيدى العزيز ؟ أتعرف هذا الخبر يا سيدى القسيس ؟ هل انت أكثر منى دراية بهذه الاخبار ؟ انبئونى بهذا الخبر مـــن فضلكم . ما الذى حدث ؟ الا تفهموننى ؟ انى أحـــب الاخبار لانى اقصها على السيد رئيس المحكمة فهـــذا يسليه كثيرا .

واخذ المحضر يهذى بمئات من مثل هذا الهذيان وهو يلتفت نحو القسيس تارة والى تارة أخرى ، فكنت لا ارد عليه الا بهزة من كتفى ، فقال لى آخر الامر :-

ـ حسنا ! فيم تفكر اذن ؟

ـ افكر فى انى لن افكر بعد هذا المساء !

ــ آه ! أهو كذلك ؟ .. هيا ! انك حزين اكثر مما ينبغى . لقد كان السيد كاستانج (١) يتحدث رغم محنته .

وسكت الرجل لحظة ثم اضاف يقول : « لقد رافقت كذلك السيد « بابا فوان » (٢) ، وكان يرتدى قبعته الفاخرة ويدخن سيجارا . أما فتيان مدينة «لاروشيل»(٣) فقد كانوا لا يتحدثون الا فيما بينهم ولكنهم كانوا يتحدثون على أية حال .

وصمت المحضر لحظة اخرى ثم عاد يقول : انهم كانوا مجانين ! كانوا متحمسين للغاية ! وكان يبدو عليهم أنهم يحتقرون كل الناس . اما أنت ايها الشاب فانى أجدك مفكراً حقا .

فقلت له :

ــ أنا شاب ؟. انى اكبرك فى السن ؟ ان كل ربع ساعة يمر يجعلنى أشيخ بمقدار سنة !

فالتفت « المحضر » نحوى ونظر الى فى دهشة تنطوى على الغباء لبضع دقائق ثم شرع يضحك ضحكا ثقيلا وهو يقول :

ــ أوه ! عجبا ! أتريد أن تمزح ؟ أنت أكبر منى سنا وقد أكون فى سن جدك !

---

(١) مذنب سبقت الاشارة اليه فى الفصل التالى وهو مجنون رهيب أعدم لانه دس السم لصديق له كان يتولى علاجه .

(٢) مجنون رهيب كان يقتل الاطفال بضربة من سكين فى رءوسهم ، ورد ذكره فى نفس الفصل .

(٣) ضباط صف أربعة احدهم يدعى (بوريس) وقد أشرنا اليهم .

فاجبته قائلا فى جد ورزانة :

ـ انى لا ارغب فى المزاح .

وفتح الرجل علبة طباق كانت معه وهو يقول :

ـ خذ هذه ياسيدى العزيز ولا تغضب . خذ مضغة من الطباق ولا تحتفظ لى فى نفسك بأية موجدة على .

ـ لا تخش شيئا فلن يتسع الوقت أمامى للغضب عليك

وفى تلك اللحظة ، ارتطمت علبة الطباق بالقضبان التى كانت بينى وبينه فى عنف ، من جراء أحد « المطبـات » فسقطت مفتوحة من يده تحت قدمى الجندى فصـاح « المحضر » قائلا :

ـ يا لهذه القضبان اللعينة !

ثم التفت الى وهو يقول : « حسنا ! ألست شقيا ؟ هأنذا قد فقدت كل مامعى من طباق !

فأجبته قائلا وأنا أبتسم ابتسامة شاحبة :

ـ انى افقد أكثر مما تفقده أنت .

وحاول الرجل أن يجمع طباقه وهو يتمتم قائلا من بين اسنانه :

ـ أكثر مما أفقد ؟ هذا كلام يسهل قوله ! سوف أبقى بغير طباق حتى نبلغ باريس ! ان هذا لشىء رهيب !

وواساه الواعظ فى تلك اللحظة ببعض كلمات العزاء . ولست أدرى ما اذا كنت مفكرا مهموما ، ولكن بدا لى أن كلمات القسيس كان يتابع بها الوعظ الذى كان قـد وجه الى بدايته ، ورويدا رويدا سار الحديث بين القسيس

و « المحضر » ، فتركتهما يتحدثان معا وانصرفت الى خواطرى .

ولاشك فى انى كنت لا ازال مستغرقا فى التفكير حينما اقتربنا تماما من أبواب باريس ، ولكن خيل الى أن ضوضاء المدينة صارت أكثر من المألوف . وتوقفت العربة لحظة امام « كشك » الجمارك حيث قام بتفتيشهما موظفو جمرك البلدية ولو أن العربة كانت تحمل خروفا أو ثورا يساق الى المذبح لوجب ان تدفع من أجله مبلغا من المال ، غير أن الراس البشرى لا تدفع عنه رسوم جمركية فمررنا .

واجتزنا الضواحى ثم دخلت العربة مسرعة فى تلك الشوارع العتيقة المعقدة فى حى « سان مارسو » وحى « لاسيتى » التى تتلوى وتتقاطع كأنها آلاف الطرق فى مدينة النمل ، وكان ضجيج العربة قد أصبح فوق«بلاطها» عاليا متتابعا الى حد اننى لم أعد أسمع اى شىء آخر . وكنت كلما ألقيت نظرة من خلال الطاقة الصغيرة المربعة، بدا لى أن أمواجا من المارة كانت تتوقف لتنظر الى العربة المنكودة وأن شراذم من الصبية كانت تعدوا وراءها ، كما بدا لى أنى كنت أرى هنا وهناك ، من حين لآخر ، عند مفارق الطرق رجلا أو امرأة عجوزا فى ثياب مهلهلة ـ واحيانا كليهما معا ـ وهما يمسكان فى أيديهما برزمة من الورق المطبوع (١) كان المارة يتخطفونه ،ويفتحان

(١) سبقت الاشارة الى أن أحكام الاعدام واوقات تنفيذها كانت تطبع على أوراق تباع الواحدة منها لقاء جزء من المليم وصفه المؤلف فى موضع سابق بانه (صلدى) ملطخ بالدم .

قميهما كأنهما يصيحان صياحا عاليا .

وكانت الساعة تدق معلنة الثامنة والنصف فى بنساء المحكمة لحظة وصولنا الى فناء سجن « لاكوسيبرجورى» ان منظر هذا السلم الكبير ، وتلك الكنيسة الصغيرة السوداء ونوافذ « زنزانات » السجناء الكئيبة قد ارسل فى بدنى برودة الثلج ، وبدا لى فى اللحظة التى وقفت العربة فيها أخيرا أن ضربات قلبى على وشك أن تتوقف كذلك .

واستجمعت اطراف قواى الواهنة حينما فتح باب العربة فى مثل وميض البرق ، وقفزت خارج هذه الزنزانة المتحركة وتقدمت فى خطوات واسعة تحت قبوة السجن بين صفين من الجنود . آه ! هاهو ذا الجمهور قد تجمع سريعا فى طريقى .

***

وكنت أشعر بأنى أكاد أكون حرا وعلى سجيتى طيلة اللحظات التى اجتزت فيها دهاليز دار القضاء ، ولكن عزمى قد تخلى عنى عندما فتحوا أمامى أبوابا منخفضة وممرات داخلية وسلالم سرية ، ودهاليز أخرى طويلة مخنوقة ومكتومة لا يطرقها الا الذين يصدرون الاحكام أو تصدر عليهم الاحكام .

وكان « المحضر » فى رفقتى على الدوام ، اما القسيس فكان قد تركنى ليعود بعد ساعتين . ان الرجل كانت لديه مشاغله .

وقادونى الى مكتب المدير حيث أسلمنى المحضر اليه « يدا بيد » . لقد كان هناك تبادل ، اذ رجاه المدير أن

ينتظر لحظة قائلا له أن لديه صيدا سيكون معدا للتسليم على الفور كي ينقله مباشرة الى سجن « بيستر » في نفس العربة . فقلت لنفسي ان هذا الصيد هو دون شك ذلك المحكوم عليه الذي يجب أن ينام الليلة على حـزمة القش التي لم يتسع الوقت امامي لاستهنكها .

فقال « المحضر » للمدير : « حسنا ، سوف أنتظر لحظة ، وسنقوم بعمل المحضرين (١) معا ان كان هـذا ييسر الامور .

وفي انتظار ذلك ، وضعوني في مكتب صغير ملاصق لمكتب المدير ، حيث تركت وحدي وأوصدت الابواب على في احكام .

ولست أدري فيم كنت أفكر ولا كم من الوقت مضى على هناك ، عندماطرقت أذني ضحكة عنيفة مفاجئة ايقظتني من حلمي . فرفعت عيني وأنا أرتجف ، فعرفت أني لم أعد وحدي في هذه الزنزانة ، اذ كان معي رجل في نحـو الخامسة والخمسين من عمره ، متوسط القامة ، محدودب الظهر ، أشيب الراس بعض الشيء ، ووجهه حافـل بالتجاعيد . وكانت اعضاء الرجل قوية عريضة ، أمـا عيناه فرماديتا اللون ، بهما حور بسيط ، وتعلو شـفتيه ابتسامة مرة . وكانت هيئته تبعث على الاشـمئزاز ، بقذارته وثيابه المهلهلة التي لا تـكاد تستر الا نصف جسمه .

ويبدو ان الباب كان قد فتح ليزج بهذا الرجل الى داخل هذه الزنزانة الصغيرة ثم أغلق مرة ثانية دون أن

(١) يعنى محضرى التسليم والتسلم .

افطن الى ذلك . آه لو كان الموت يأتى هكذا !

وأمعن كل واحد منا النظر الى وجه الآخر لعدة ثوان وهو يمد فى ضحكته التى كانت كحشرجة المحتضر ، وانا نهب لمزيج من الدهشة والذعر .

فقلت له اخيرا :

ـ من أنت ؟

فأجابنى الرجل قائلا :

ـ هذا سؤال عجيب .. انا واحد منهم !

فأعدت عبارته متسائلا فى دهشة :

ـ واحد منهم ! مامعنى هذا الكلام ؟

ولاحظت ان هذا السؤال قد ضاعف مرحه .

فصاح قائلا وهو يضحك فى قهقهة مدوية :

ـ معناه ان السكين ستلعب براسى بعد ستة اسابيع كما ستداعب رأسك بعد ست ساعات .. ها ! ها ! ها ! يبدو انك قد فهمت الآن !

والواقع انى شعرت فى تلك اللحظة بأن الدماء تفيض من وجهى وبأن شعرى يقف فى راسى . لقد كان هذا الرجل هو خليفتى فى سجن « بيستر » الذى كانوا ينتظرونه هناك ، كان هو الرجل الذى صدر عليه اليوم حكم بالاعدام .

وصمت الرجل لحظة قصيرة ثم تابع حديثه فقال :

ـ ماذا تريد ؟ هذه هى قصتى ، قصتى انا : اننى ابن لرجل بائس اتعب « شارلو » (١) نفسه ذات يوم

---

(١) لفظة من اللفظات المستعملة فى لغة السجون ويقصد بها الجلاد . كما يقال عندنا (عشماوى) .

للأسف في ربط الحبل حول عنقه ، وكان ذلك في عهد المشنقة والحمد لله ، فلم أكد ابلغ السادسة من عمري حتى وجدت نفسي بلا أب ولا ام . وكنت في الصيف اتمرغ في التراب على قارعة الطريق كي يلقى الى بعضهم « صلديا » من خلال أبواب العربات . أما في الشتاء فكنت أسير حافي القدمين في الوحل وانا انفخ في يدي المحمرتين من شدة البرد ، وكانت فخذاي تطلان من خلال سروالي .

وبدات أستعمل يدي في سن التاسعة ، فكنت من حين لآخر أنشل جيبا أو أسرق معطفا ، وفي سن العاشرة كنت « نشالا » ، وما أن بلغت السابعة عشرة حتى صرت لصا ، فكنت أحطم اقفال الحوانيت واستعمل مفاتيح مقلدة . ثم قبض علي بعد أن بلغت سن الرشد حسب نص القانون فأرسلوني الى الاشغال الشاقة للتجديف على ظهر السفن . ان الليمان شيء شاق ؛ فالمرء ينام فيه على لوح من خشب ، ويشرب ماء صرفا ، ويأكل خبزا أسود ، ويجر وراءه كتلة سخيفة من الحديد لا فائدة منها ، ويتلقى ماتيسر من ضربات العصى وضربات الشمس . والى جانب هذا فانهم يقصون له شعره ، وأنا الذى كان لي شعر كستنائي جميل ! وعلى كل حال ، فهذا لايهم !

وقضيت مدة العقوبة ، خمسة عشر عاما انتزعت من عمري انتزاعا ! وكنت في الثانية والثلاثين عندما أعطوني ذات صباح أمرا بالافراج عني من الليمان ، مع سبعين فرنكا جمعتها لنفسي خلال خمسة عشر عاما من الاشغال الشاقة ، كنت أعمل خلالها ست عشرة ساعة في اليوم ،

وثلاثين يوما في الشهر ، واثني عشر شهرا في السنة . وكان هذا سواء لدى ، فقد كنت أريد بهذه السبعين فرنكا ان أصبح رجلا شريفا ، وكنت أنطوى تحت اسمالى البالية على مشاعر أكثر مما يوجد منها تحت ملابس قسيس ، ولكن .. فلتبارك الشياطين في صحيفة السوابق ! لقد كانت وثيقة الافراج عبارة عن ورقة صفراء مكتوب عليها : « .. أفرج عنه من الليمان » ، وكان لزاما على أن ابرز هذه الورقة حيثما ذهبت ، وأن اقدمها كل ثمانية أيام الى عمدة القرية التى كانوا يرغموننى على الاقامة فيها . يالها من تزكية جميلة (١) ! لقد كان الناس يخافون منى ، وكان الصبيان يفرون عندما يروننى ، وكانت الابواب توصد في وجهى اذا مررت ! ولم يشأ أحد أن يعطينى عملا ، فانفقت السبعين فرنكا على طعامى ، ثم كان على أن أعيش ، فأبديت ساعدى المفتولين هنا وهناك ، ساعدى اللذين يصلحان تماما للعمل ، ومع ذلك فقد أقفلت في وجهى كل الابواب . وعرضت أن اعمل اليوم بأكمله لقاء خمسة عشر مليما ، ثم بعشرة مليمات ، وأخيرا بخمسة ! ولكن دون جدوى ، فماذا أفعل ؟

وشعرت ذات يوم بجوع شديد ، فكسرت بمرفقى زجاجا في واجهة حانوت خباز وخطفت رغيفا ، واستطاع الخباز أن يمسك بتلابيبى ، فلم أتمكن من أكل الرغيف ، وحكم على بالاشغال الشاقة مدى الحياة في التجديف

(١) يقصد التزكية المسجلة في وثيقة الافراج عنه اذا جاء بها : أفرج عنه من الليمان حيث كان محكوما عليه بالاشغال الشاقة بالتجديف فوق ظهر المراكب ... (م)

على المراكب ، وختموا كتفي بثلاثة أحرف من نار ، وسوف اريك هذا ان أردت . انهم يسمون هذا النوع من العدالة : « عائدا الى الاجرام ! »

هاندا قد عدت الى الليمان ، وقد القوا بي في هذه المرة في ليمان « طولون » ، ووضعوني مع المجرمين العائدين الى الاجرام . وكان لزاما على أن أهرب ، ولتحقيق ذلك لم يكن أمامي الا أن أنقب ثلاثة جدران ، وان اقطع سلسلتين ، وكان معي مسمار في هذه المرة .

واستطعت ان أهرب ذات يوم فأطلقت مدافع الانذار . ذلك أننا معشر العائدين مثل كرادلة روما،ملابسنا حمراء، وتطلق لنا المدافع عند الرحيل . لقد أطلقوا مدافعهم جزافا وبلا نتيجة . وكنت في هذه المرة حرا بلا ورقة صفراء ، ولكن لم تكن لدى نقود كذلك .

وقابلت رفاقا كانوا قد قضوا مدة العقوبة أو فروا من السجن ، فعرض على رئيسهم ان اكون واحدا منهم ، وكانوا قطاع طرق يغتالون الناس . فوافقت واخذت اقتل لأعيش ، وكنا تارة نهاجم عربة نقل الركاب او البريد ، وأخرى نهاجم مسافرا يسير بمفرده ، وثالثة نهاجم تاجر ثيران يمتطي جوادا ، فكنا نسلب النقود ونترك الدابة أو العربة تهيم كيفما اتفق ، أما الرجل فكنا ندفنه تحت شجرة . ونحرص على الا تبرز قدماه ، ثم نرقص بعد ذلك فوق الحفرة التي دفناه فيها ، حتى لا تبدو الارض كأنها نبشت حديثا .

وهكذا شخت وأنا مختبىء في الاحراش ، أنام وأنا

التحف السماء وأطارد من غابة الى غابة ، غير أنى كنت حرا وملكا لنفسى على الاقل . ان لكل شىء نهاية ، وهى نهاية لا تختلف عن سواها .

وأطبق علينا البوليس ذات ليلة ، فهرب زملائى ، ولكننى وقعت ــ وأنا أكبرهم سنا ــ فى مخالب هــــذه القطط التى ترتدى قبعات موشاة بالاشرطة ، فساقونى الى هنا !

وكنت قد تدرجت فى كل درجات السجون عدا هــذه الدرجة ، فسواء سرقت منديلا أو قتلت نفسا ، فان الامر يستوى من الآن فصاعدا بالنسبة الى ، فقد كانت هناك العودة الثالثة الى الاجرام ، التى طبقت عقوبتها على فى هذه المرة ، ولم يعد أمامى الا أن أمر بالمقصلة !

لم تستغرق قضيتى وقتا طويلا ، اذ انى بدات اشيخ حقا ولم اعد اصلح لاى شىء ! ان والدى قد مات شــنقا وأنا سوف أموت بالمقصلة . تلك هى قصتى أيهـــا الزميل ! » .

وكنت قد مكثت طول الوقت مشدوها وأنا أصــغى اليه ، ثم عاد الرجل الى الضحك بصوت أعلى ممــا كان يفعل فى البداية ، وهم بأن يصافحنى فتراجعت مذعورا الى الوراء !

فقال الرجل عندئذ :

ــ يبدو عليك انك شجاع ايها الصديق ، فلا تــكن جبانا أمام الموت . اتفهمنى ؟ انها لحظة سيئة ستقضيها فى ساحة الاعدام ، ولكنها ستنتهى بسرعة ! لشد ما اريد ان أكون هناك لاريك كيف يسقط الجسد ! لست أرغب

بحق السماء في استئناف الحكم أن أرادوا أن يعدموني معك اليوم . أن نفس القسيس سيتولى أمرنا معا ، ولا يهمني أن أحصل علي مخلفاتك . هأنتذا ترى انني ولد طيب ، اليس كذلك ؟ قل لي اذن ، الا ترغب في صداقتي ؟

وخطا الى الامام خطوة ليقترب مني ، فقلت له وانا ادفعه بعيدا :

ـ شكرا لك ياسيدي .

ـ وما أن سمع الرجل اجابتي هذه ، حتى انفجر ضاحكا من جديد ثم قال :

ـ سيدي .. آه ! آه ! انك ماركيز ! انك الماركيز !

فقاطعته قائلا :

ـ ياصديقي ! انى بحاجة الى أن أخلو الى نفسي ، فدعني وشأني .

ودفعته جدية كلامي الى التفكير فجأة ، فهز رأسه الرمادي الذي يكاد يكون أصلع ، ثم حك بأظافره في صدره ذي الشعر الكث الذي كان يبدو من خلال قميصه المفتوح وتمتم قائلا من بين أسنانه :

ـ لقد فهمت . انك تفكر في القسيس !

وبعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول ، وقد شاعت في نبرات صوته رنة خجل :

ـ انت ماركيز وهذا حسن جدا ، ولكن لديك هنا « ردنجوتا » جميلا لن ينفعك في شيء ؟ وسوف يأخذه السجن منك ، فأعطني اياه فسوف أبيعه لاحصل على طباق .

فخلعت « الردنجوت » الذى كنت أرتديه ، وأعطيته اياه ، فأخذ يصفق بيديه فى مرح ، كأنه طفل صغير ، ولكنه حين راى أننى كنت أرتعد فى قميصى قال لى : «انك ترتجف ياسيدى من البرد ، خذ هذه والبسها فالمطر يتساقط وسوف تبتل ، ثم انه يلزمك أن تكون أكثر وقارا وأنت فوق العربة » .

قال هذا وهو يخلع سترته الخشنة المصنوعة من الصوف الرمادى ، ثم وضعها على كتفى وادخل ذراعى فى كميها ، فتركته يفعل ذلك دون اعتراض أو مقاومة .

وذهبت عندئذ لاتكىء على الجدار ، ولن أستطيع أن أصور الاثر الذى تركه هذا الرجل فى نفسى ، وكان قد أخذ يفحص « الردنجوت » الذى أعطيته اياه ، وتصدر عنه من لحظة الى أخرى صيحات تدل على السرور ، ثم أضاف يقول : « أن جيوبه جديدة تماما ! والياقة ليست بالية ! سوف أحصل فى مقابله على خمسة عشر فرنكا على الاقل .. يا للسعادة ! سيكون لدى طباق طيلة الاسابيع الستة الباقية لى على قيد الحياة ! »

وفتح الباب مرة أخرى . لقد جاءوا لاخذنا نحن الاثنين : انا الى الغرفة التى ينتظر فيها المحكوم عليهم بالاعدام ساعة التنفيذ ، وهو الى سجن « بيستر » . ووقف الرجل بين الجنود الذين كان عليهم أن يرافقوه ، وهو يقول لهم : « آه ! يا هؤلاء .. لا تخلطوا بيننا ، فقد تبادلنا ملابسنا أنا وهذا السيد . لا تأخذونى بدلا منه ، يا للشيطان ! ان هذا لم يعد يروق لى الآن ، وقد

اصبح معى ما أستطيع به أن احصل على الطباق ! » .

لقد أخذ منى هذا اللص العجوز « الزدنجوت » لاننى لم اهبه اليه فى الحقيقة ، ثم انه ترك لى سترته الكئيبة، هذه الخرقة البالية ، فكيف ستكون هيئتى اذن ؟

اننى لم اتركه يأخذ منى « الردنجوت » عن عدم اكتراث أو بداعى العطف عليه ، كلا ، ولكن لانه كان اكثر منى قوة ، ولو انى رفضت ماطلب لضربنى بقبضـــة يده الضخمة .

آه ! حسنا ! نعم ، أنه الاحسان ! لقد كنت ســاعتها افيض بالمشاعر السيئة ، وكنت اتوق لان اخنق هذا اللص العجوز بيدى ، أو أن اسحقه سحقا تحت قدمى !

انى لاشعر بقلبى يطفح بالغضب والمرارة ، واحسب أن مرارتى قد انفجرت ! حقا ان الموت يجعل الانسان شريرا غليظ القلب .

وقادونى الى زنزانة ليس فيها الا جدران اربعــة ، بنافذتها قضبان كثيرة من حديد وببابها عدد كبير مـــن المزاليج والاقفال وهذا أمر طبيعى .

فطلبت منضدة ومقعدا وادوات للكتابة ، فأحضروا لى ماطلبت . ثم طلبت فراشا فحدجنى السجان بنظـــرة تطل منها الدهشة وكأنه يقول : « وماجدوى ذلك ؟ » .

ومع ذلك ، فقد نصبوا لى سريرا حقيرا فى ركـــن الزنزانة ، ولكن جاء فى نفس الوقت حارس ليجلس معى فيما كانوا يسمونه « غرفتى » ! ترى هل يخافون أن أخنق نفسى بالفراش ؟

السـاعة الان العاشرة

آه يا ابنتى المسكينة ! سوف أموت بعد ست ساعات وسوف أكون شيئا قذرا يلقى به على مناضد مدرجات كلية الطب ! وسوف يشرح الراس فى جهة والجذع فى جهة أخرى ، ثم يلقى بما تبقى منى فى صندوق بمقبرة « كلاماو » .

هذا هو يا ابنتى ما سيفعله بأبيك هؤلاء الرجال الذين لا يكرهنى أحد منهم ، والذين يرثون لحالى جميعا ، والذين يستطيعون جميعا انقاذى . انهم سيقتلوننى فى الحال ، فهل تفهمين هذا يا « مارى » ؟ سيقتلوننى بكل برود ، وفى حفل رسمى لمصلحة المجتمع ! آه ! يا الهى العظيم !

مسكينة أنت يا صغيرتى ! ان والدك الذى كان يحبك حبا لا مزيد عليه ، والدك الذى كان يقبل رقبتك الصغيرة المعطرة ، ولا تكف يده عن مداعبة خصلات شعرك الحريرى ، والذى كان يأخذ وجهك الجميل المستدير فى يده ، وكان يطيب له أن تقفزى على ركبتيه ، والذى كان يجعلك فى المساء تضعين يديك لتصلى لله !

من ذا الذى سيفعل لك كل هذا يا « مارى » بعد الآن ؟ من ذا الذى سيحبك ؟ ان كافة الاطفال فى سنك سيكون لهم آباء الا أنت ياماری . كيف تفقدين يا ابنتى عيد رأس السنة ، والهدايا واللعب الجميلة ، والحلوى والقبلات ؟ كيف تفقدين أيتها اليتيمة البائسة عادة الاكل والشرب ؟

آه لو كان هؤلاء المحلفون قد رأوها على الاقل ، ابنتى

« ماری » هذه الصغيرة الجميلة ! اذن لفهموا انه يجب الا يقتل اب لطفلة عمرها ثلاثة أعوام !

وعندما تكبر ابنتى ، اذا قدر لها أن تكبر ، فماذا عسى أن يكون مصيرها ؟ ان اباها سيصبح ذكرى من ذكريات اهل باريس ! لسوف تحمر خجلا منى ومن اسمى ! انها ستكون محتقرة ، ينأى عنها الناس بجنوبهم ، وحقيرة وضيعة بسببى أنا ، أنا الذى أحبها بكل مافى قلبى من حنان . آه يا « ماری » ياطفلتى الصغيرة المحبوبة ! أحقا أحقا انك ستخجلين منى وتشعرين نحوى بالاشمئزاز ؟

انا .. يالى من بائس ! ويا للجريمة التى اقترفتها ، ويا للجريمة التى اتسبب فى أن يقترفها المجتمع !

آه ! أصحيح حقا اننى سأموت قبل نهاية هذا اليوم ؟ أحقا اننى انا هذا الرجل ؟ هذا الصوت المكتوم الصادر عن الصياح الذى اسمعه فى الخارج ، وهذا السيل المرح من الجماهير التى تسرع على أرصفة نهر « السين » وهؤلاء الجنود الذين يستعدون فى ثكناتهم ، وهذا القسيس بثيابه السوداء ، وهذا الرجل الاخر ذو اليدين الحمراوين ، هؤلاء جميعا هل هم من أجلى ؟ من أجلى انا الذى سأموت ! انا نفسى الذى استقر هنا حيا واتحرك واتنفس ، وأجلس أمام هذه المنضدة التى تشبه أية منضدة أخرى ، ويمكن أن تكون كذلك فى اى مكان آخر ! أنا كذلك ، هذا الشخص الذى المسه واشعر به ، والذى ثيابه هذه طياتها !؟

***

آه لو كنت أعلم كذلك كيف صنعت هذه المنضدة وكيف

صنع هذا المقعد ، وباية طريقة يموت المرء بهما ؟ لكن هذا شيء رهيب ، انى لا اعرفه . ان اسم هذا الشيء يثير الرعب فى النفوس ولست أفهم على الاطلاق كيف استطعت أن اكتب هذه الكلمة وان أنطق بها .

أن تجمع الحروف التى تكون هذه الكلمة ومظهرها وشكلها قد خلقت جميعا لتوقظ فكرة مرعبة ، وان الطبيب المنحوس الذى اخترع هذا الشيء كان اسمه مسطورا فى لوحة القدر ! انها صورة غير واضحة وكئيبة للغاية تلك التى ترتبط عندى مع هذه الكلمة المشئومة ، وكل حرف من حروفها يبدو لى . كأنه جزء من تلك الآلة الرهيبة التى اظل أهدم وأبنى اجزاءها الجهنمية فى نفسى دون انقطاع .

اننى لا أجرؤ على السؤال عنها ، غير ان من المرعب الا اعرف ماهى ، ولا كيف اتصرف وانا واقف عليها ، ويبدو لى أن بها مايشبه الارجوحة ، وانهم يجعلون المحكوم عليه ينام على بطنه . آه ! ان شعرى سوف يبيض لا محالة قبل أن يسقط راسى !

ومع ذلك فقد لمحتها ذات مرة .

كنت ذات يوم أمر فى عربة الى جوار ساحة الاعدام ، وكان ذلك فى نحو الساعة الحادية عشرة صباحا . وفجأة توقفت العربة عن المسير .

وكان هناك جمهور غفير يحيط بالساحة ، واخرجت راسى من نافذة العربة فرايت جموعا حاشدة تملأ المكان وتزحف على أرصفة نهر « السين » ، وكان الرجال

والنساء والاطفال يقفون فوق سور النهر الحجرى ، ومن فوق الرءوس كان فى وسع المرء أن يرى منصة حمراء من الخشب كان يعدها ثلاثة رجال ..

كان ثمة شخص محكوم عليه بالاعدام سوف ينفذ فيه الحكم فى نفس اليوم الذى كانوا يعدون فيه الالة .

واشحت بوجهى قبل ان ارى ، وفى تلك اللحظة سمعت امراة كانت تقف الى جوار العربة تقول لصبى : « عجبا ! انظر ! ان السكين لا تجيد القطع وسوف « يشحمون » المجرى حالا بقطعة من الشمع » .

ومن المحتمل اليوم أنهم يفعلون ذلك الآن ، فقد دقت الساعة الحادية عشرة منذ لحظة ، ولاشك فى انهم « يشحمون » المجرى الآن .

آه ! فى هذه المرة أيها التعس لن تستطيع أن تشيح بوجهك !

آه ! العفو العفو !

قد يصدر عنى العفو ، فالملك ليس غاضبا على . فليذهبوا اذن لاحضار محام . الى بالمحامى ، وبسرعة ! انى أقبل الاشغال الشاقة عن طيب خاطر ، والتجديف على السفن ، أقبل الاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات أو عشرين سنة ، بل مدى الحياة ، واقبل معها كى كتفى بالحديد الاحمر المحمى فى النار كما يشاءون .. ولكن، ليعتقوا رقبتى فحسب !

ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لا يزال يمشى ، ويروح ويغدو . انه يرى الشمس !

هـــذا القســيس

وجاء القسيس الواعظ

كان أبيض الشعر ، لطيف الشكل للغاية ، تبدو على ملامح وجهه علامات الطيبة والاحترام . كان فى الواقع رجلا ممتازا كريما ، فقد رأيته فى هذا الصــباح يفرغ مافى جيبه فى أيدى السجناء ، فلماذا لا يوجد فى صوته ما يؤثر او يدل على التأثر ؟ كيف يتفق أنه لم يقل لى بعد شيئا يؤثر فى تفكيرى أو يمس قلبى ؟

لقد كنت تائها فى هذا الصباح حتى أننى لم أكـــد أسمع ماقاله لى ، ومع ذلك فقد بدت لى كلماته عديمة النفع ، وبقيت غير متأثر بها . انها كانت تنزلق من فمــه كما ينزلق هذا المطر البارد على هذا الزجاج المثلج .

ومع ذلك فقد أراحنى مرأى الرجل بمجرد أن عاد الى جوارى ، فهو الذى لا يزال بالنسبة الى الانسان الوحيد بين هؤلاء الرجال . لقد قلت هذا فى نفسى وقد شعرت بظمأ شديد الى سماع اية كلمة طيبة مواسية .

وكنا جالسين هو على المقعد ، وانا على السرير ، فقال لى :

ـ يابني ..

واحسست في تلك اللحظة بأن كلمته هذه قد فتحت قلبي المغلق ، واستمر القسيس في حديثه قائلا : « أتؤمن بالله يابني ؟ » .

ـ نعم يا ابي .

ـ وهل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية البابوية الرومانية؟

ـ نعم في كثير من السرور .

وهنا استطرد الرجل يقول :

ـ يبدو عليك انك متشكك يابني .

ثم اخذ يتكلم فأطال الحديث ، وقال كلاما كثيرا . ولما ظن أخيرا انه قد انتهى من حديثه ، نهض ونظر الى لأول مرة منذ شرع يتكلم ثم سألني قائلا :

ـ حسنا ؟

فأكدت له اني قد استمعت اليه ، في شغف أولا ، ثم في انتباه ثانيا ، ثم في اخلاص ثالثا .

ثم نهضت بدوري وانا اجيبه قائلا :

ـ سيدي .. ارجوك أن تدعني وحدي .

ـ ومتى اعود ؟

ـ سوف اخبرك في الوقت المناسب .

فخرج الرجل عندئذ دون أن يبدو عليه اى اثر للغضب، غير انه كان يهز راسه كما لو كان يقول في نفسه : « انه غير مؤمن ! »

كلا .. فمهما انحدرت الى أسفل الدرك فانا لست

كذلك ، والله شهيد على أنى أؤمن به . ولكن ماذا قال لى هذا الشيخ ؟ انه لم يقل شيئا أحس به ، أو ألمس حنانه على أو يبكينى .

انه لم ينتزع من روحى شيئا ولم يخرج من قلبه شىء يصل الى قلبى ، شىء يصدر من القلب الى القلب ، بل على العكس ، لقد حدثنى عن أشياء أراها غامضة سطحية من الممكن ان تنطبق على كل شىء وعلى كل انسان ، عن أشياء هى أدنى الى البلاغة منها الى التعمق ، وسطحية فى حين أن الحاجة كانت ماسة الى البساطة . كان حديثه ضربا من الوعظ الوجدانى والتمجيد الدينى ، تتخلله من آن لآخر عبارة لاتينية ، أو نص للقديس « أوجستان » أو للقديس « جريجوار » لست أدرى أيهما ! ثم انه كان يبدو عليه انه يعيد تلاوة درس قد تلاه من قبل عشرين مرة ، أو أنه يراجع موضوعا يستخلصه من ذاكرته لكثرة معرفته به ، فلا تعبير فى نظرة عينيه ، ولا حرارة فى نبرات صوته ، ولا حركة معبرة من يديه .

وكيف يمكن ان يكون الامر على خلاف ذلك ؟ أو ليس هذا القسيس هو الواعظ الرسمى للسجن ؟ ان عمله ينحصر فى أن يواسى ويعظ ، وهو يعيش من عمله هذا . أن السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ومرضى السجن ، هم الذين يتبعونه ، وهو الذى يجعلهم يعترفون وهو الذى يساعدهم ، لان هذه هى وظيفته التى يؤديها لقد هرم هذا الرجل وهو يرافق الاخرين الى الموت والف

منذ زمن بعيد ماتقشعر له الابدان أن شعره الابيض لم يعد يقف فوق راسه ، فالليمان والمشنقة شيئان يراهما في كل يوم حتى اصبح لا يتاثر كثيرا لمرآهما وقد تكون لديه كراسة يخصص صفحة منها للمحكوم عليهم بالاشـــغال الشاقة ، واخرى للمحكوم عليهم بالاعدام . انهم يخطرونه في الليلة السابقة بانه سيكون لديه شخص ليواسيه في وقت كذا ، فيسألهم من اى نوع هو : أالشغال شاقة ام « اعدام » ؟ . . ثم يراجع الرجل صفحته ويحضر درسه، وهكذا يحدث أن هؤلاء الذين يذهبون الى ليمـــــــان « طولون » وأولئك الذين يذهبون الى ساحة الاعدام ، يصبحون جميعا لديه أفكارا مطروقة ، كما يصبح هــو عندهم فكرة مطروقة كذلك .

آه ! فليذهبوا اذن وليحضروا لى بدلا من ذلك واعظا شابا أو قسيـــسا شيخا كيفما اتفق من أول « ابرشية » تصادفهم ، ولينتزعوه من جلسته وهو الى جوار ناره يقرأ كتابه وليقولوا له : « هناك رجل سيموت حالا ، ويجب أن تكون انت من تواسيه ، يجب أن تكون الى جانبه حين يوثقون يديه ، وحين يقصون شعره وان تركب معه في العربة ومعك صليبك كى تحجب عنه منظر الجلاد ، وان تشاطره وعورة الطريق حتى يبلغ ساحة الاعدام ؛ وأن تجتاز معه هذا الجمع الغفير المروع شارب الدماء ، وان تقبله وهو يرقى الى المقصلة ، وان تظل واقفا هنـــاك حتى يفصل راسه عن جسده ، ويصبح رأسه هنـــــا وجسمه هناك .

فليحضروا الى اذن هذا القسيس وهو يرتجف ، وجسده بأسره يرتعد من قمة راسه الى اخمص قدمه ، وليلقوا بي بين ذراعيه وعلى ركبتيه . لسوف يبكي عندئذ ولسوف ابكي معه ، سوف يكون فصيحا بليغا ، فاشعر بالمواساة وأسكب مافي قلبي في قلبه ، وسوف يمسك على زمام نفسي وتنتقل الى قوة ايمانه .

ولكن .. من هو هذا الشيخ الطيب ، اين هو مني واين انا منه ؟ انني انسان شقي ، وظل من الظلال التي طالما راى كثيرا منها ، وواحد آخر يضيفه الى عدد أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام !

وقد اكون مخطئا بابعاده عني على هذا النحو ، فهو الرجل الصالح وانا الرجل الطالح ، ولكن الذنب ليس ذنبي للأسف ! وانما مرد ذلك لارائي كانسان محكوم عليه بالموت ، فالاراء كثيرا ما تفسد كل شيء وتجعله يذبل ! .

لقد احضروا الى طعاما منذ لحظة . لقد حسبوا انني لابد أن أكون في حاجة اليه . هاهي ذي مائدة رقيقة شهية ، عليها دجاجة فيما يبدو ، والوان اخرى كذلك .. حسنا ! لقد حاولت أن آكل ، ولكن الطعام سقط من فمي منذ أول لقمة تناولتها ، وقد بدا لي كريها مر المذاق !

حضر منذ لحظة رجل قبعته فوق راسه (١) ، فالقى علي نظرة عابرة ، ثم نصب سلما من الخشب واخذ يقيس أحجار الجدار من أسفل الى أعلى ، وهو يتكلم

(١) تقضي التقاليد الغربية بأن يرفع المرء القبعة عن راسه عندما يطل على قوم أو يحيي شخصا ما .

بصوت مرتفع للغاية ، ليقول تارة : « انه لكذلك » وليصيح تارة أخرى : « كلا ، ليس كذلك »

وسألت الحارس عمن يكون هذا الرجل ، فقال لى أنه يبدو أنه يعمل كمساعد مهندس فى السجن .

ومن ناحية أخرى ، فقد ثار حب الاستطلاع فى نفس هذا الموظف من ناحيتى ، فقد تبادل كلمات . كلها تلميح مع حامل مفاتيح السجن الذى كان فى رفقته ، ثم أنعم النظر فى لحظة ، وهو يهز رأسه فى غيرمبالاة ، واستأنف حديثه وهو يتابع قياس ابعاد الجدار بنفس اللهجة المرتفعة التى كان يتكلم بها من قبل .

وما أن فرغ الرجل من عمله حتى اقترب منى وهو يقول فى صوت جهورى : « يا صديقى العزيز .. سوف يكون هذا السجن بعد ستة أشهر أفضل من هذا بكثير » .

وكانت الحركة التى اتى بها وهو يقول ذلك كأنها تقول : « ولكنك للأسف لن تستمتع بهذا التحسين ! »

كان الرجل يبتسم تقريبا ، فخيل الى وقتئذ أننى كنت ارى اللحظة التى كان يوشك فيها أن يسخر منى برفق كما يمزح الناس مع عروس شابة فى ليلة الزفاف .

وقد تكفل الجندى الذى كان فى حراستى بالرد عليه، وكان حارسا عجوزا قد ابيض شعر راسه وهو فى حراسة السجناء ، فقال له : « سيدى لا يرفع المرء صوته هكذا فى حجرة ميت ! »

ورحل المهندس ، اما انا فبقيت هناك كحجر من الاحجار التى كان يقيس ابعادها !

وحدث لى بعد ذلك شىء يبعث على السخرية ، فقد جاءوا ليغيروا حارسى العجوز ، وأنا أنانى وغير معترف بالجميل ، فلم أصافحه حتى بلمسة يد ، وحل مكانه آخر وكان رجلا ذابل الجبين ، تشبه عيناه أعين البقر ووجهه جامد لا تعبير فيه .

ولم أكن من ناحيتى قد أعرت ذلك أى انتباه ، فقد كنت جالسا الى المنضدة وظهرى الى الباب ، وانا أحاول أن أرطب بيدى جبينى الملتهب ، وكانت خواطرى تثور فى نفسى .

وأحسست فجاة بضربة خفيفة على كتفى أدرت لها رأسى . كان هذا جندى الحراسة الجديد الذى كنت معه وحدى .

وهذه — تقريبا — هى الطريقة التى وجه بها الحديث الى :

قال لى الرجل :

— هل انت طيب القلب ايها المجرم ؟

— كلا !

وبدا لى أن سرعة اجابتى قد صدمته ، ومع ذلك فقد عاود حديثه قائلا فى تردد :

— ان المرء لا يكون مؤذيا لمجرد الرغبة فى الايذاء .

— ولم لا ؟ اذا لم يكن لديك سوى هذا الكلام فاتركنى وشأنى . ما الذى ترمى اليه ؟

— عفوا أيها المجرم ، لدى كلمتان ، كلمتان فحسب ، أريد أن أقولهما لك : اذا كنت تستطيع أن تسعد رجلا مسكينا دون أن يكلفك ذلك شيئا فهل تفعل ؟

فأجبته قائلا وانا أهز كتفى .

ــ هل انت قادم ياهذا من مستشفى المجانين ؟ انك تختار اناء غريبا لتستخرج منه السعادة ! انا ؟ .. انا اسعد شخصا ؟

فخفض الجندى من صوته وبدا عليه كأنه يخفى فى نفسه سرا ــ وان كان ذلك لايتفق مع وجهه الذى ينطق بالغباء ــ وهو يقول لى :

ــ نعم ايها المجرم .. نعم ، السعادة ، والثروة ! ان هذا كله سوف يأتينى منك . هذا هو مافى الامر . أنا جندى مسكين ، والخدمة ثقيلة ، واجرى ضئيل ، ولى جواد يخربنى ! غير اننى أقامر فى أوراق « اليانصيب » كى أوازن حياتى . ان المرء تلزمه صناعة ، ولا ينقصنى حتى الان كى اربح فى « اليانصيب » ، الا أن أحصل على الارقام الجيدة ، وأنا دائب البحث عنها فى كل مكان . انى ابحث عن أرقام مضمونة ولكنى اقع دائما على ارقـــام تجاورها ، أقامر على الرقم ٧٦ مثلا فيكسب الرقم ٧٧ ، ومهما اصطنعت من فراسة فانى لا أهتدى الى الرقــم الرابح .. اصبر قليلا من فضلك فقد أوشكت على الانتهاء ــ ولكن هذه فرصة طيبة بالنسبة الى ، اذ يبدو لى ــ عفوا أيها المجرم ــ انك ستعدم اليوم ، ومن المؤكد أن الاموات الذين تزهق أرواحهم على هذا النحو يرون أرقام « اليانصيب » الرابحة مقدما . عدنى أن تعود مساء غد ــ ولن يضيرك هذا فى شىء ــ لتعطينى ثلاثة ارقام ، ثلاثة ارقام رابحة اليس كذلك ؟ انى لا أخاف الاشباح فــكن

مطمئنا ، واليك عنواني : « ثكنات بوبانكور ، سلم رقم ١ ، عنبر رقم ٢٦ في نهاية الدهليز » وسوف تتعرف على فى غير عناء أليس كذلك ؟ ويمكنك أن تحضر حتى فى هذا المساء ان كان هذا يروق لك .

وكنت شديد الرغبة فى احتقار هذا الأحمق بعدم الرد عليه ، لولا أن ثار فى نفسى أمل جنونى ، ففى مثل الحالة اليائسة التى كنت فيها ، يعتقد المرء أحيانا أن فى وسعه أن يحطم سلسلة حديدية بشعرة .

فقلت له وأنا أمثل بقدر مايستطيع أن يمثل انسان يوشك أن يموت :

ـ اصغ الى .. انني أستطيع حقا أن أجعلك أغنى من الملك ، ان أجعلك تربح الملايين ، ولكن بشرط .

ففتح الرجل عينين يطل منهما الغباء وهو يقول :

ـ ماهو ؟ ماهو ؟ سوف أفعل كل شىء لارضائك أيها المجرم !

ـ أعدك بأربعة أرقام لا بثلاثة . أستبدل ملابسك بملابسى .

فصاح الحارس وهو يفك الازرار الاولى فى زيه العسكرى :

ـ لو كان الامر مقصورا على ذلك !

وكنت قد نهضت من مقعدى وأنا أرقب كل حركة من حركاته وقلبى ينتفض فى صدرى ، وكنت أتخيل الابواب وهى تفتح أمام زيى كحارس من حراس السجن ، وأتخيل الميدان ، والشارع ، ثم دار القضاء من وراء ظهرى !

ولكن الرجل التفت الى وهو يقول فى تردد : « آه

ياهذا ! لاشك فى انك لا تقصد بهذا طبعا الا أن تخرج من هنا ؟

فأدركت عندئذ أن كل شيء قد ضاع ، وبذلت مع ذلك جهدا أخيرا لا طائل تحته ، جهدا غير منطقى على الاطلاق فقلت له :

ـ انني أقصد هذا حقا ، ولكن ثراءك مضمون ..

فقاطعني الجندى قائلا :

آه ! حسنا ! كلا ، كلا .. عجبا ! فلكى تربح ارقامى يجب أن تكون أنت ميتا !

فجلست ثانية فى صمت وقد تملكنى يأس لم أشعر بمثله قط من قبل !

أيـــام صبـــاى

اغمضت عينى ، ووضعت يدى فوقهما ، محاولا ان انسى الحاضر فى الماضى ، وبينما انا أحلم ، عــادت إلى ذكريات طفولتى وشبابى ، واحدة اثر اخرى ، عــادت هادئة وحلوة ضاحكة كأنها جزر من الزهر على حافة هذه الهوة السحيقة من الافكار السوداء الغامضة التى كانت تغلى فى راسى .

هأنذا ارى نفسى مرة اخرى طفلا وتلميذا ضــاحكا نضرا ، العب واجرى واصيح مع اخوتى فى هذا الممــر الكبير الاخضر بتلك الحديقة غير المنسقة ، حيث انقضت سنوات حياتى الاولى ، والتى كانت فى الاصــل حديقــة للراهبات ، تطل عليها تلك القبة الرمادية الضــخمة ، قبة كنيسـة « لوفال دوجراس » .

وهأنذا هناك ايضا بعد ذلك باربع سنوات وكنت فتى يافعا عطوفا على الدوام . وكانت هناك فتاة شــابة فى الحديقة المنعزلة . كانت اسبانية صغيرة تدعى « بيبا »(١)

(١) Pepa (اسم التدليل) ، وآسمها الاصل كما ورد فى نفس الصفحة Pepita .

ذات عينين كبيرتين ، وشعر أسود طويل ، وبشرة سمراء ذهبية ، وشفتين قرمزيتين وخدين ورديين . وكـــانت هذه الاندلسية الجميلة لا تتجاوز الاربعة عشر ربيعا .

وكانت أمانا قد قالتا لنا أن نذهب لنجري معا : فجئنا للتنزه . لقد قيل لنا أن نلعب وهانحن أولاء نتبـــادل الحديث ، ونحن من سن واحدة ، ولكننا لسنا من جنس واحد (١) .

ومع ذلك ، فقد كنا ، منذ عام واحد مضى فحسب ، نلعب ونتصارع معا ، وكنت أتشاجر مع « بيبا » على أجمل تفاحة في شجرة التفاح ، وكنت أضربها من أجـل عش العصافير . انها كانت تبكي فكنت أقول لها : «حسنا فعلت ! » وكنا نذهب لنشكو معا الى أمينا اللتين كانتا تقولان بصوت مرتفع أننا كنا مخطئين ، ثم تقولان في صوت خفيض انا كنا على حق .

هاهي ذي الآن تتكيء على ذراعي وقد غمرني الفخـر وتملكني الانفعال . اننا نسير الهوينى ، ونتحدث بصوت خافت . هاهي ذي تترك منديلها يسقط فالتقطه لها . ان أيدينا ترتعش عندما تتلامس . وهي تتحدث الى عـن الطيور الصغيرة ، وعن النجم الذي نراه هناك ، وعـن غروب الشمس المحمرة من وراء الشجر ، أو عن صديقاتها في مدرسة الراهبات ، أو عن ثوبها وشرائطها الحريرية اننا كنا نتكلم في أمور بريئة ولكننا كنا نحمر منها خجلا . . ان الفتاة الصغيرة قد أصبحت شابة يافعة .

وفي ذاك المساء بالذات ــ وكان مساء ليلة من ليـــالي

(١) المقصود هنا انه ذكر وانها انثى .

الصيف ـ كنا جالسين تحت أشجار الكستناء فى نهاية الحديقة ، وبعد احدى فترات الصمت الطويلة التى كانت تتخلل نزهاتنا ، قالت لى « بيبا » : « هيا بنا نجر ! »

انني لازلت اراها وهى ترتدى ثيابها السوداء حدادا على وفاة جدتها . لقد مرت بخاطرها حينئذ فكرة من أفكار الطفولة ثم عادت « بيبا » لتصبح « بيبتا » مرة ثانية .

وقالت لى : « هيا بنا نستبق ! »

واخذت تعدو أمامى بقامتها الرشيقة ، وخصرها الدقيق ، وقدميها الصغيرتين اللتين كانتا ترفعان ثوبها الى منتصف ساقيها . وكنت أتبعها وهى تهرب أمامى ، وكان الهواء الذى يحدثه عدوها يرفع أحيانا قميصها الاسود فيتيح لى أن أرى ظهرها الاسمر النضر .

وكنت لا أستطيع مغالبة نفسى ، فلحقت بها بجانب البئر القديمة المتهدمة ، وامسكت بها من حزامها بحق انتصارى عليها فى السباق ، ثم أجلستها على العشب فلم تقاومنى ، وامتثلت وهى تلهث وتضحك ، بينما كنت جادا لا أكف عن النظر الى عينيها الحالمتين من خلال أهدابها الطويلة السوداء .

وقالت لى « بيبا » : « أجلس هنا ! فالدنيا لا تزال نهارا .. اجلس ولنقرأ شيئا ، أليس معك كتاب ؟ »

وكان معى يومئذ الجزء الثانى من كتاب « رحلات سبالازانى » ، ففتحته فى صفحة ما واقتربت منها فاسندت كتفها الى كتفى ، واخذنا نقرأ نفس الصفحة بصوت

منخفض ، كل واحد منا من ناحيته ، فكانت هى تضطر الى انتظارى قبل أن أقلب الصفحة ، فقد كانت روحها أكثر استيعابا من روحى وكانت تقول لى وأنا لم أكد أنتهى من قراءة السطور الاولى من الصفحة : « هل انتهيت ؟ » .

وكان رأسانا فى خلال ذلك يلتقيان ، وكان شعرنا يتشابك ، وأنفاسنا تمتزج رويدا رويدا وفجأة تلاقت شفاهنا ! .

ولما أردنا أن نتابع قراءتنا كانت النجوم تملأ السماء .. وقالت « بيبا » لوالدتها عندما عادت : « آه ! يا أماه ! آه يا أماه ! آه لو كنت تعلمين كم جرينا ! » .

أما أنا فلذت بالصمت .

وقالت لى والدتى : « انك لا تقول شيئا يابنى ! يبدو أنك حزين ! »

ولكنى لم أكن حزينا ! .. ان الجنة كانت فى قلبى ! لسوف أذكر هذه الامسية مدى حياتى !

طول حياتى !!

***

دقت الساعة منذ لحظة تعلن الواحدة . ولست أدرى أية ساعة تلك التى دقت فلم أعد أسمع جيدا دقات هذه الساعة ويبدو لى أن فى أذنى صوتا كصوت الارغن .. انها كانت أفكارى الاخيرة تدوى فى أذنى :

فى هذه اللحظة الحرجة بينما كنت أتأمل ذكرياتى ، وجدت جريمتى فيها بشعة للغاية للمرة الثانية ، ولكنى

أتمنى كذلك أن أندم أكثر من ذى قبل . لقد كنت أكثر ندما منى الآن قبل أن يصدر الحكم على ، ومنذ ذلك اليوم يبدو لى أن ليس هناك مكان فى نفسى الا لافكار الموت . ومع ذلك ، فانى راغب حقا فى أن أندم كثيرا .

وعندما حلمت دقيقة ووصلت فى حلمى الى ضربة المقصلة التى يجب أن تضع حدا لحياتى بعد ساعات ، اجتاحتنى رجفة كان هذا شىء جديد ! يالطفولتى الجميلة! ويا لشبابى الجميل ! انهما يبدوان لى الآن كقماش موشى بالذهب وأطرافه ملطخة بالدماء ، فبين ذلك العهد وبين الحاضر نهر من الدم ، دم الرجل الآخر .. ودمى أنا !

اذا قرأ الناس يوما قصتى هذه بعد كل تلك السنين من البراءة والسعادة ، فلن يصدقوا هذا العام البغيض الذى بدأ بجريمة وانتهى بالمقصلة : انه سيبدو شيئا يشوه بهجة هذه الحياة .

ومع ذلك ، فيا أيتها القوانين البائسة ، ويا أيها الرجال التعساء : انى لم أكن شريرا ولا قاسيا !

آه ! أأموت بعد بضع ساعات ، وأنا أفكر فى أننى كنت فى مثل هذا اليوم حرا طليقا ، وطاهرا نقيا منذ عام واحد ؟ وفى أننى كنت أتنزه نزهات الخريف .وأجول كما يروق لى وأسير تحت أوراق الخمائل ؟

فى هذه اللحظة بالذات ، هنالك الى جوارى ، فى هذه المنازل التى تحيط بدار القضاء وبساحة الاعدام ، كما هو الحال كذلك فى كل مكان فى باريس ، يوجد أناس يروحون ويغدون ويتبادلون الحديث ويضحكون ،ويطالعون

الصحف ويفكرون في أعمالهم ، وتجار يبيعون وفتيات شابات يعددن ثوب السهرة لحفل الليلة الراقص ؛وأمهات يلعبن مع أطفالهن !!

أذكر أني ذهبت يوما وأنا صبي لرؤية أبراج كنيسة « نوتردام » وكنت قد أصبحت شاردا بسبب صعود السلم الحلزوني المظلم ، وعبور الدهليز الدقيق الذي يربط بين البرجين ، وباريس تحت قدمي ، عندما دخلت القفص المصنوع من الحجر والخشب حيث يتدلى الناقوس الكبير ومعه الجلة ، وهون يزن الفا من الكيلوجرامات .

ولقد مشيت وأنا ارتجف فوق الالواح الخشبية غير المرتبطة تماما ببعضها ، وانظر من بعيد الى هذا الناقوس المعروف جيدا لاهل باريس واطفالها ، والاحظ في رعب ان المنحنيات المغطاة بالقرميد التي تحيط بالناقوس كانت في مستوى قدمي ، وكنت أرى في أثناء ذلك — وكأني طير طائر في الهواء — المارين بميدان كنيسة « نوتردام » وكأنهم النمل !

وفجاة ، دوى الناقوس الضخم فهز صوته الراعد الهواء ، وجعل البرج الثقيل يرتج ، وكانت « الارضية » الخشبية تقفز فوق العروق ، وكدت أقع على ظهري من جراء هذاالصوت ، فترنحت بعض الشيء واوشكت ان انزلق عن الاطار المنحدر المصنوع من القرميد ، فنمت فوق الالواح الخشبية من فرط الرعب وانا أحضنها بذراعي في عنف ولا أقوى على التنفس مع هذا الرنين الضخم الذي يجلجل في أذني ، وتحت عيني هذه الهوة السحيقة، وهذا الميدان العميق حيث كان يتقابل عدد كبير من المارة

الهادئين الآمنين الذين كنت احسدهم في تلك اللحظة على ماهم فيه .

حسنا ، انه ليبدو لي الآن انني لازلت في برج الناقوس الكبير بكنيسة « نوتردام » . ذلك اني اسمع في هذه الساعة نفس الدوي واحس بنفس الذهول ، فهناك شيء ما شبيه بدقات الاجراس يهز اعماق مخي ، ولم اعد المح من جولي هذه الحياة الممهدة الهادئة التي تركتها وراء ظهري ، والتي لايزال الاخرون يدرجون في طريقها ، لم اعد المحها الا من بعيد ، من بعيد جدا ، ومن خلال هوة سحيقة .

***

ان مبنى المحافظة مقبض كئيب !

فسقفه الخشن المدبب ، وبرجه الصغير ذو الشكل الغريب ، ومزولته الكبيرة البيضاء ، وطبقاته ذوات الاعمدة الصغيرة ، ونوافذه التي تعد بالمئات ، ودرجات سلاله التي تآكلت من الخطوات ، وقوسا البناء اللذان يحفان به من يمين ومن شمال ، كل هذا يجعله جاثما هناك ، كساحة الاعدام ، مظلما كئيبا تنهش الشيخوخة وجهه ، واسود جدا الى حد انه يبدو قاتما في الشمس!

وفي الايام التي يتم فيها تنفيذ احكام الاعدام ، تقذف ابوابه جميعا رجال الشرطة ويطل كل من في نوافذه على الشخص المحكوم عليه بالموت . وفي المساء تظل مزولته التي بينت لي الساعة مضيئة في واجهته المظلمة

الساعة الآن الواحدة والربع .

وهذا هو ما اشعر به الآن :

انى أقاسى صداعا شـديدا ، وبرودة مروعة فى كليتى ، وجبينى ملتهب ، وكلما وقفت أو انحنيت بدا لى أن هناك سائلا يجرى فى مخى فيجعله يضطرب فى غـلاف جمجمتى .

اننى أحس برجفة محمومة ، ومن وقت الى آخر يسقط القلم من يدى كما لو كانت تهزنى صدمات كهربائية .

ان عينى ملتهبتان كما لو كنت غارقا فى دخان واشـعر بألم هائل فى مرفقى .

لسوف اشفى بعد انقضاء ساعتين وخمس واربعين دقيقة !

انهم يقولون أن المقصلة لا شىء ، وان المرء لا يتألم ، وانها نهاية حلوة ، وان الموت بهذه الطريقة يكون مختصرا بسيطا آه ! اذن ما هذا الاحتضار الذى دام سـتة أسـابيع ؟ وما هذه الحشرجة التى دامت يوما بأكمله ؟ وماهى اذن آلام هذا اليوم الذى لن يعوض والذى يمر بسرعة بالغـة وفى بطء بالغ كذلك ؟ وماهو اذن هذا السلم من العذاب الذى ينتهى الى المشنقة ؟

وليس هذا كله ألما فى الظاهر !

أو ليست هى نفس التقلصات العنيفة حين يفرغ الدم قطرة قطرة ، وحين ينطفىء الذكاء فكرة بعد فكرة ؟

ثم انهم يقولون أن المرء لا يتألم من المقصلة ، فهل هم واثقون من ذلك ؟ ومن ذا الذى قال لهم هذا الكلام ؟ وهل حدث قط أن راسا مقطوعا وقف يقطر دما على حـافة السلة ليصيح فى الجمهور قائلا : « أن هذا لا يحدث ألما! »

هل حدث أن أمواتا ماتوا بهذه الطريقة ، عادوا ليقدموا

لهم الشكر وليقولوا لهم : « ان اختراعكم هذا اختراع عظيم ، وعليكم أن تستمروا في استعماله ! انه آلة جيدة ! » .

وهل هو « روبسبيير » الذي قال هذا أو « لويس السادس عشر ! »

كلا ! لا شيء من هذا ! ان الأمر ينتهي في أقـل من دقيقة ، بل في أقل من ثانية ! — فهل وضعوا انفسهم قط ، ولو في الخيال ، موضع الشخص الذي يكون هناك عندما تهوى السكين الثقيلة فتعض اللحم وتقطع العروق ، وتكسر مفاصل الرقبة وعظامها ؟

ولكن ماذا ؟ .. ماذا تقولون ؟ تقولون انها نصف ساعة! وان الالم يختصر ! .. فيا للهول !

من الغريب حقا انى لا أكف عن التفكير في الملك !

ومهما فعلت ومهما هززت رأسي ، فان هناك صوتا يتردد في أذني ويقول لي على الدوام : « هناك في نفس هذه المدينة ، في نفس هذه الساعة ، ولكن في قصر آخر (١) ، رجل لديه كذلك حراس على كل ابوابه ، وهو شخص فريد في نوعه بين أفراد الشعب من أمثالك مع هذا الفارق الوحيد ، وهو أنه مرتفع بقدر ما أنت منخفض . ان حياته كلها دقيقة فدقيقة ليست الا مجدا وعظمة وسرورا ومتعة ، وكل شيء من حوله عبارة عن حب واحترام وتبجيل . ان اكثر الاصوات ارتفاعا لتنخفض حينما تتحدث اليه وتنحني أمامه أكثر الجباه

(١) أى في قصر آخر غير هذا القصر الذى جعلوا منه سجنا ودارا للقضاء .

تيها وفخرا ، ولا تقع عيناه الا على الحرير والذهب ،وهو يرؤس فى هذه اللحظة اجتماعا من اجتماعات الوزراء فيقره الجميع على رايه ، أو أنه يفكر فى رحلة الصـــيد التى سيقوم بها غدا ، او فى حفل هذه الليلة الراقص ، وهـو على يقين من انه سيتم فى الساعة المحددة له ، ويترك للآخرين أمر تدبير ملذاته . حسنا ! ان هذا الرجل مثلك من لحم وعظم ! ــ ولكى تنهار المقصلة الرهيبة فى نفس اللحظة ويعاد اليك كل شىء : حياتك ، وحريتك ،وثروتك واسرتك ، يكفى منه أن يكتب بهذا القلم الحروف السبعة التى يتكون منها اسمه فى ذيل قصاصة من الورق ، أو تقابل عربته الملكية العربة التى ستحملك الى ســـــاحة الاعدام ! ــ وهو رجل طيب ، وقد لا يكون راغبا فى أكثر من هذا العمل الطيب ، ولكن هذا لن يحدث !

حسنا اذن ! لنكن شجعاء مع الموت . ولنقـابل هــذه الفكرة الرهيبة بشجاعة ، ولنواجهها وجها لوجه . لنسأل ماهو الموت ! ولنعرف ماذا يريده منا ، ولنقلب هـــذه الفكرة على جميع وجوهها ، ولنقرأ الغيب ، ولننظر مقدما فى القبر .

انه ليبدو لى أننى عندما ستغمض عيناى ، ســأرى ضوءا باهرا وهوة سحيقة من النور تعدو خلالها روحى الى مالا نهاية ، ويبدو لى ان السماء سوف تكون مضيئة من تلقاء نفسها ، وان النجوم ستكون فيها كأنها نقــط سوداوات ! نعم ، يبدو لى ان النجوم ستبدو كأنها نقط سوداوات على قماش ذهبى اللون ، بدلا من أن تـكون

كما تتراءى لاعين الاحياء ، قصاصات من ذهب على قطيفة سوداء .

أو قد تكون ويا لشقائى - هوة مروعة ، جدرانهـــا مبطنة بالظلمات ، أهوى فيها بلا توقف وانا أرى أشباحا تتحرك فى الظلام !

أو اننى قد أجد نفسي بعد أن استيقظ من ضربة المقصلة فوق مساحة ما مسطحة رطبة ، وانا أزحف فى الظلام ، وادور على نفسي مثل الراس الذى يتدحرج ، ويخيل الى أنه ستكون هناك ريح صرصر عاتية تدفعنى بلا هوادة ؛ فاصطدم هنا وهناك برءوس أخرى تتدحرج ، واننى سامر أحيانا فى طريقى بمستنقعات وجداول وأنهار بها سائل فاتر مجهول ، وأن كل شيء سيكون حالك السواد، وأن عينى حينما تتجهان فى دورانهما الى أعلى فلن تريا الا سماء مظلمة تضغط عليهما طبقاتها الكثيفة ، والا قبابا ؛ ضخمة من دخان أسود كالظلمات ، ترى فى النهاية على بعد سحيق ، وأن عينى سوف تريان كذلك شررا صغيرا أحمر يتطاير فى الظلام ، لا يلبث عندما يقترب منهما أن يتحول الى طيور من نار ، وستظل الحال على هذا النحو الى الابد .

وقد يحدث أحيانا فى مواقيت معينة أن يجتمع أولئك الذين ماتوا فى ساحة الاعدام خلال ليالى الشتاءالسوداوات فى الميدان الذى هو خاص بهم ، ولسوف يكون هـــذا الجمع جمهوراً شاحبا داميا ، ولن اتخلف عن أن أكـون بينهم ، ولن يكون هناك قمر وسوف نتحدث فى أصوات

خافتة . ان مبنى المحافظة سوف يكون هناك بواجهتـــه العتيقة ، وسقفه المزق ، ومزولته التى كانت لا ترحـم احدا . وسوف تكون فى الميدان مقصلة من جهنم يعـدم بها احد الشياطين جلادا ، وسوف يتم ذلك فى الساعة الرابعة صباحا ، وسوف نتجمهر بدورنا من حوله !

نعم ، قد يكون الامر كذلك . ولكن اذا عاد هؤلاء الموتى فعلى اية صورة يعودون ؟ وما الذى يحتفظون به مـــن اجسامهم الناقصة المشوهة ؟ وماذا سوف يختارون ؟ هل سيكون شبح كل منهم رأسا أم جذعا ؟

وا اسفاه ! ترى ماذا يفعل الموت بارواحنا ؟ وأى شكل يدعه لها ؟ وما الذى يأخذه منها أو يعطيها اياه ؟ وأين يضع الموت الروح ؟ وهل يجعل لها فى بعض الاحيان عينـين بشريتين كى تنظرا الى الارض وتبكيا ؟

آه ! الى بقسيس ! أريد قسيسا يعرف هـــذا ، ويحدثنى عنه ! أريد قسيسا وصليبا أقبله !

رباه ! انه دائما نفس القسيس ! (١) .

***

لقد رجوته ان يتركنى فأنام ، وألقيت بنفسى على السرير وكان دمى كله قد صعد فى الواقع الى رأسى ، فحملنى هذا على النوم . كانت هذه نومتى الاخيرة من هذا النوع !

ورأيت فى المنام ان الوقت كان ليلا ، وخيل الى أنى كنت فى مكتبى مع اثنين من أصدقائى أو ثلاثة ، لســت ادرى من هم على وجه التحقيق .

(١) يقصد نفس الكاهن الذى كان معه منذ قليل ، وقال عنه ان كلامه فاتر لا حرارة فيه ولا تأثير له .

وكانت زوجتى نائمة مع طفلتها فى الغرفة المجاورة .
وكنا نتحدث انا واصدقائى فى صوت خفيض ، وكان ما يدور بيننا من الحديث يبعث الخوف فى انفسنا .

وفجأة ، خيل الى انى اسمع صوتا ما فى الغرف الاخريات من المسكن ! كان صوتا خافتا غريبا غير واضح .

وكان أصدقائى قد سمعوا هذا الصوت كما سمعته ، فانصتنا جميعا : كان كأنه صوت قفل يفتح خلسة ، أو مزلاج يسحب فى صوت ضئيل .

وكان ثمة شىء يثلج أطرافنا : وهو أننا كنا خائفين . وحسبنا أن لصوصا قد تسللوا الى مسكنى فى هذه الساعة المتقدمة جدا من الليل ، فقررنا أن نذهب لنرى ما هنالك . فنهضت من فوق مقعدى ، وأخذت الشمعة فى يدى ، وتبعنى أصدقائى واحدا فى اثر الآخر .

واجتزنا غرفة النوم المجاورة ، وكانت زوجتى نائمة مع ابنتها ، ثم وصلنا الى غرفة الجلوس ، ولكن لم يكن هناك شىء كانت الصور مثبتة فى اطاراتها الذهبية من فوق الستائر الحمراوات ، غير أنه خيل الى أن الباب الذى بين غرفة الجلوس وبين غرفة المائدة ليس فى مكانه المألوف .

ودخلنا غرفة المائدة وطوفنا بها باحثين فاحصين ،وكنت أنا الذى يسير فى الطليعة . كان باب السلم مغلقا تماما وكذلك النوافذ . وعندما بلغت المدفأة رأيت أن صوان الملابس كان مفتوحا ، وأن بابه كان مشدودا الى زاوية الجدار ، كما لو كان المقصود هو اخفاء ذلك . فأدهشنى هذا ، واعتقدنا أن هناك شخصا ما وراء هذا الباب .

فامسكت هذا الباب بيدى كى أعيد اغلاقه ولـكنه قاومنى . فعجبت وجذبته بقوة هى أكبر من سابقتها ، وفجاة استجاب الباب ، واكتشفنا خلفه امراة عجـورا قصيرة القامة متدلية الذراعين ومغمضة العينين ، قـد وقفت بلا حراك كما لو كانت ملتصقة بركن الجدار !

كان ذلك منظرا مفزعا يقف له شعر راسى عندما أفكر فيه !

وقلت سائلا هذه العجوز : « ماذا تفعلين هنا ؟ »

فلم تحر جوابا ، وعدت أسألها قائلا : « من أنت ؟ »

فلم تجبنى كذلك ولم تبد حراكا وظلت مقفلة العينين .

وعندئذ قال لى أصدقائى : « انها دون شك شريـكة هؤلاء الذين تسللوا الى بيتك لاغراض شريرة ، ولابد انهم قد فروا حين سمعونا نقترب منهم ، ولم تتمكن هى من الهرب فاختبات هناك ! »

فسالت المراة من جديد ، ولكنها ظلت لا تتكلم ولاتتحرك ولا تنظر ! ودفعها أحدنا فوقعت على أرض الغرفة ، وقعت كتلة واحدة ، كأنها قطعة من الخشب أو شىء جامـد لا حياة فيه !

وهززناها من قدميها ، ثم أوقفها اثنان من بيننا ، وجعلاها تستند من جديد الى الجدار ، غير أنها لم تبـد ما يدل على انها على قيد الحياة ! فصرخنا فى أذنها ولكنها بقيت صامتة كأنها صماء !

ونفد صبرنا مع ذلك ، وكان رعبنا ممزوجا بالغضب ، فقال لى واحد من اصدقائى : « ضع الشمعة تحـت ذقنها ! »

فوضعت فتيلة الشمعة الموقدة تحت ذقنها ، وعندئذ فتحت المرأة عينا واحدة ، فتحتها قليلا ، فكانت عينا خاوية لا تنظر ، مخيفة لا حياة فيها !

فابعدت الشمعة عنها وقلت لها : « آه ! اخيرا ! هلا اجبتني ايتها الساحرة العجوز ؟ من تكونين ؟ »

وانطبقت عين المرأة بحركة تلقائية فقال الاخرون : «انها تبالغ كثيرا في هذه المرة ! أعد الشمعة مرة أخرى اذ يجب أن نحل عقدة لسانها !

فاعدت الشمعة تحت ذقن العجوز ، ففتحت عينيها في بطء ونظرت الينا جميعا واحدا بعد الاخر ، ثم انحنت فجأة ونفخت في الشمعة بنفس بارد ، وأحسست في نفس اللحظة بثلاث اسنان حادة تنغرس في يدي في الظلام !

واستيقظت عندئذ من نومي مذعورا وقد غمر جسمي عرق بارد . وكان القسيس الطيب جالسا عند اسفل سريري يتلو بعض الصلوات .

فسألته قائلا :

ــ هل نمت طويلا ؟

فاجابني بقوله :

ــ نمت ساعة يابني . لقد أحضروا لك ابنتك وهي هنا تنتظرك في الحجرة المجاورة ، ولم اشأ أن يوقظك أحد .

فضحكت قائلا :

ــ آه ! ابنتي ؟ لياتوني بابنتي !

مــــاري ابـــنتي

انها نضرة وردية اللون ذات عينين كبيرتين ، انها لجميلة حقا !

لقد البسوها ثوبا يلائمها تماما .

اخذتها ورفعتها بين ذراعى ، ثم اجلستها على ركبتى وقبلت شعرها .

وساءلت نفسى : ترى لماذا لم تحضر معها أمها ؟ الآن امها مريضة ، وكذلك جدتها ؟ حسنا !

كانت تنظر الى فى دهشة بادية ، بينما اخذت اداعبها ، واحضنها ، والتهمها بقبلاتى وهى تتركنى افعل كل ذلك ، غير انها كانت بين لحظة واخرى تلقى نظرة حائرة على خادمتها ، التى كانت تبكى فى ركن الغرفة .

واستطعت اخيرا ان اتكلم فقلت لها :

ــ « مارى ! » ياصغيرتى « مارى ! »

وكنت فى تلك اللحظة اضمها فى عنف فوق صــدرى المنتفخ بالدموع الملتهبة ، فصاحت صيحة صغيرة وقالت لى :

ـ آه ! انكَ تؤلمني ياسيديَ !

« سيدى ؟! » هاهو ذا عام تقريبا قد انقضى لم ترنى خلاله هذه الطفلة المسكينة ! لقد نسيتنى ، نسيت وجهى وكلامى ولهجتى ، ثم .. من ذا الذى يستطيع أن يعرفنىَ وانا بهذه اللحية ، وفى هذه الثياب ، وفى مثل هذا الشحوب ؟ آه ! أهكذا محيت سريعا من هذه الذاكرة ، وهى الذاكرة الوحيدة التى كنت أود ان اعيش فيها ! آه! أبمثل هذه السرعة لم اعد ابا ؟ انا الذى قضى على الا اسمع قط بعد الان هذه الكلمة : كلمة « بابا » ! هذه الكلمة التى هى من لغة الاطفال ، والتى تبلغ من العذوبة حدا لا يمكن أن تبقى معه فى ذاكرة الرجال !

ومع ذلك ، فقد كنت لا اتمنى الا أن اسمع هذه الكلمة من هذا الفم مرة أخرى ، مرة واحدة فحسب .. هذا هو كل ما كنت أريده فى مقابل الاربعين سنة التى سيأخذونها من عمرى !

قلت لها وانا آخذ بيديها الصغيرتين فى يدى :

ـ اصغى الى يا « مارى » .. الا تعرفيننى ؟

فنظرت الى بعينيها الجميلتين ثم اجابت قائلة :

ـ آه ! حسنا .. اننى لا اعرفكَ !

فعدت اكرر القول :

ـ انظرى الى جيدا .. كيف لا تعرفين من انا ؟

فقالت لى :

ـ بلى ، بلى .. انكَ سيدٌ

وا أسفاه ! هاهو ذا امرؤ لا يحب من أعماق قلبه الا مخلوقا واحدا فى هذا العالم ، يحبه بكل جوارحه ، ويجده أمامه ، وينظر اليه ، ويراه ويحدثه ويرد عليه .. ولكن هذا المخلوق لا يعرفه ، انني لا اريد عزاء الا منها ، فهى الانسان الوحيد الذى لا يعرف انى فى حاجة الى العزاء ، لانى اوشك ان اموت !

واستأنفت حديثى معها قائلا :

ــ الك اب يا « ماری ؟ »

ــ نعم ياسيدى .

ــ حسنا ، واين هو ؟

فرفعت الى عينين واسعتين تطل منهما الدهشة وقالت :

ــ الا تعلم الآن ؟ لقد مات ياسيدى !

وما ان قالت هذا حتى تصلبت ذراعاى على مارى نيول ما سمعته فصرخت ، وكادت تسقط منى على الارض ! بينما كنت اقول لها :

ــ مات ! أتعرفين يا « مارى » مامعنى انه مات ؟

فاجابتنى قائلة :

ــ نعم ياسيدى .. انه فى الارض وفى السماء .

ثم استطردت تقول من تلقاء نفسها : « انى أصلى من اجله صباحا ومساء وأنا على ركبتى ماما » .

فطبعت قبلة على جبينها وقلت لها :

ــ قولى لى صلاتك يا « مارى »

ــ لا استطيع ياسيدى . ان الصلاة شىء لا يقال

بالنهار . تعالَ عندنا في البيت هذا المساء وانا اقرأها لك .
وكان هذا حسبي لكنني قاطعتها قائلا :
ـ « ماري » انا والدك !
ـ آه !
فعدت اقول :
ـ اتحبين ان اكون والدك ؟
فأشاحت الطفلة عني بوجهها ثم قالت :
ـ كلا .. لقد كان والدي اجمل منك كثيرا !
فأخذت اغرقها بقبلاتي ودموعي ، فحاولت ان تفلت من بين ذراعي ، وهي تصيح قسائلة : « انك تؤلمني بلحيتك ! » .
وعندئذ اجلستها ثانية على ركبتي وانا احرسها بعيني ثم سألتها قائلا :
ـ أتعرفين القراءة يا « ماري » ؟
ـ نعم ، اعرفه جيدا ، ان والدتي تجعلني اقرأ حروفا اكتبها بنفسي .
فقلت لها وانا ارها ورقة كانت تمسك بها مجعدة في احدى يديها الصغيرتين :
ـ اريني كيف .. هيا اقرئي قليلا !
فهزت رأسها الجميل وقالت :
ـ حسبنا ! لست اعرف الا قراءة الحكايات .
فعدت اقول لها :
ـ استمري في المحاولة .. اريني .. اقرئي .
فنشرت الورقة واخذت تتهجى مشيرة بأصابعها :

ــ ح .. كَ .. حكَ .. م .. « حكم » (۱)

فانتزعت الورقة من بين يديها ، فقد كان ما تقرؤه هو نص الحكم الصادر على بالاعدام ، وكانت خادمتها قد اشترت هذه الورقة بنصف مليم ، أما أنا فقد كلفتنى غاليا !

ليست لدى كلمات استطيع بها ان اعبر عما كنت اقاسيه فى تلك اللحظة ! كان عنفى قد روعها واخافها وكانت تبكى تقريبا . وفجاة قالت لى : « أعد الى ورقتى اذن لالعب بها ! عجبا ! »

فارجعت الطفلة الى الخادمة وانا اقول :

ــ خذيها من هنا !

ثم تهالكت على مقعدى مكتئبا يائسا شارد اللب ! يجب عليهم أن يحضروا الان فلم أعد أتمسك باى شىء اذ انقطع آخر وتر من أوتار قلبى ، وصرت مهيئا لما سيفعلونه بى على الفور !

ان القسيس رجل طيب القلب ، وكذلك الجندى الحارس ، واحسب أن كل واحد منهما قد ذرف دمعة حينما قلت للخادمة : « خذيها من هنا ! »

لقد قضى الامر الآن ، فيجب على أن أتصلب فى أعماق نفسى ، وأن أفكر بثبات فى الجلاد ، وفى العربة ، والجنود والجمهور المحتشد على الجسر ، وفى المحتشدين على رصيف نهر السين ، وفى الذين يقفون أمام النوافذ ، وفيما سوف يعد خصيصا من أجلى فى تلك الساحة ،

---

(۱) Arret (حكم) : كانت هذه اول كلمة على الورقة التى بين يديها ، وكانت صورة من حكم الاعدام الصادر عليه .

ساحة الاعدام المظلمة التي يمكن أن ترصف بما هوى من الرءوس .

أحسب انه لا تزال أمامي ساعة كي آلف كل ذلك .

***

ان كل هذا الشعب سوف يضحك ويصفق . وبين كل هؤلاء الرجال الاحرار الذين لا يعرفهم الجلادون ، والذين يسرعون في مرح لمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام ، بين كل هذه الرءوس التي ستغطي الميدان ، هناك أكثر من رأس كتب عليه أن يتبع رأسي ان عاجلا أو آجلا الى السلة الحمراء ، وهناك أكثر من شخص من هؤلاء الذين يأتون من أجلي سوف يأتون في يوم من الايام من أجل أنفسهم!

فبالنسبة لهؤلاء الاشخاص المنحوسين ، هناك نقطة معينة في ساحة الاعدام ، هي عبارة عن مكان مشئوم ومركز جاذبية وفخ منصوب ، وهم يحومون حوله ويحومون الى أن يترددوا فيه !

ابنتي الصغيرة « ماري ! » ـ لقد أعادوها لتلعب .. انها تنظر الى الجمهور من خلال نافذة العربة التي تقلها ولم تعد تفكر في هذا « السيد ! »

قد يتاح لي كذلك بعض الوقت لاكتب لها بعض الصفحات حتى تقرأها في يوم من الايام ، وتبكي بعد خمسة عشر عاما بدلا من اليوم .

نعم ، يجب أن تعرف « ماري » قصتي مني وان تعرف السبب في أن الاسم الذي أتركه لها يقطر دما !

قصتي

كلمة من الناشر : لم نجد الى الآن الورقات الخاصة بهذا الفصل من الكتاب . وقد يكون المحكوم عليه بالاعدام لم يجد متسعا من الوقت لكتابتها كما ستبينه الصفحات التالية ، وكان الوقت قد ازف عندما خطرت له هذه الفكرة .

إلى ساحة الإعدام

من غرفة بدار المحافظة ! انني هنا الآن ! لقد تمت الرحلة البغيضة وهاهي ذي ساحة الاعدام ، وهاهو ذا الشعب الرهيب يضج بالصراخ تحت نافذتي وينتظرني وهو يضحك !

وقد حاولت جهدي أن اتشجع أو استجمع قواي ولكني كنت أحس دائما بأن قلبي يخونني ، وقد خانني اكثر ، وكاد يكف عن الخفقان عندما رأيت هاتين الذراعين الحمراوين . وفي نهايتهما هذا المثلث الاسود (١) ، تطالعني من فوق الرءوس وقد نصبت كلها لي بين مصباحين على رصيف النهر ، فطلبت أن أعترف اعترافا أخيرا ، فأحضروني الى هنا ، وذهبوا لاستدعاء أحد وكلاء النائب العام ، وهانذا أنتظره وسوف أكسب بهذا بعض الوقت !

وهذا ما حدث :

دقت الساعة ثلاث دقات ، عندما جاءوا ليخطروني بأن الوقت قد حان ، فارتجفت كما لو كنت افكر في شيء آخر

(١) ذراعا المقصلة وسكينها .

منذ ست ساعات أو منذ ستة اسابيع ، بل منذ ستة اشهر ، لقد كان لهذا فى نفسى وقع سيىء لم أكن انتظره .

وساقونى امامهم فاجتزت الدهاليز ونزلت السلالم ثم دفعونى بين نافذتين صغيرتين بالطابق الارضى فى غرفة ضيقة مظلمة سقفها به قباب ، ويصل اليها ضوء خافت من نور يوم معتم مطير . كان الضباب كثيفا ، وكان ثمة مقعد فى وسط الغرفة وامرونى بالجلوس فجلست .

وكان هناك ، عدا القسيس والحراس ، رجال يقفون الى جوار باب القاعة وبطول الجدران ، وكان هناك كذلك ثلاثة رجال آخرين .

كان اولهم — وهو اطولهم قامة واكبرهم سنا — بدينا ذا وجه أحمر ، ويرتدى « ردنجوتا » وقبعة غير منتظمة الشكل لها زوايا ثلاث . لقد كان هو !

نعم ، كان هو الجلاد بعينه ، خادم المقصلة ، وكان الرجلان الاخران خادمين له شخصيا !

وما ان جلست حتى اقترب منى الرجلان الاخران من الخلف وكأنهما قطان ، وفجأة ، احسست ببرودة الصلب تسرى فى راسى وصلصلة المقصات تدوى فى اذنى ، واخذ شعرى الذى كانوا يقصونه كيفما اتفق ، يتساقط خصلا على كتفى ، فكان الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان ينفضه فى رفق بيده الضخمة .

ومن حولى كان يدور الحديث فى صوت هامس .

وكانت تترامى الى اذنى من الخارج جلبة عظيمة كأنها رعد يتدفق مع الهواء ، فحسبت فى أول الامر انها صادرة

من النهر ، ولكنى مالبثت أن سمعت ضحكات عالية ، فأدركت ان تلك الجلبة كانت منبعثة من الجماهير .

وكان هناك شاب يقف الى جوار النافذة وقد أخذ يكتب بالقلم فوق حافظة أوراقه ، فسأل أحد الحراس قائلا :

ـ ما هذا الذى يفعلونه الان بالمحكوم عليه ؟

فأجابه الحارس بقوله :

ـ هذه زينة المحكوم عليه بالموت !

ففهمت عندئذ ان هذا سيظهر غدا فى الصحف .

وفجأة ، خلع لى أحد خادمى الجلاد سترتى ، واخذ الاخر يدى اللتين كانتا تتدليان الى جانبى وجذبهما وراء ظهرى ثم أحسست بالحبل وهو يلتف حول معصمى فى بطء . وفى نفس اللحظة كان الخادم الاول يفك ربطة عنقى لكن قميصى « الباتستا » وهو الخرقة الوحيدة التى تبقت لى مما كنت ارتديه فيما مضى ـ جعله يتردد لحظة ثم شرع الرجل فى قص « ياقته » .

فارتجفت لهذه الحيطة الرهيبة حينما مس المقص الصلب رقبتى ، وارتعد مرفقاى فى عنف ظاهر وند عنى أنين مكتوم ارتعشت له يدا « صبى » الجلاد .

وقال لى الرجل :

ـ سامحنى يا سيدى ! هل آلمتك ؟

ان هؤلاء الجلادين ذوو شعور رقيق للغاية .

وكان صراخ الجماهير يتزايد فى الخارج .

وعرض على الرجل البدين ذو الوجه الاحمر أن اشم منديلا مشبعا بالخل ، فقلت له بأعلى صوت استطعته :

« شكرا ، هذا لا جدوى منه فانى اشعر بانى فى حالة جيدة » .

وعندئذ انحنى أحدهم ، وقيد قدمى بحبل رفيع رقيق كان لا يتيح لى ان أخطو الا خطوات ضيقة للغاية ؛ ثم ربطوا هذا الحبل الاخير بحبل يدى .

ثم ألقى الرجل البدين بالسترة على كتفى وربط كميها معا من أسفل ذقنى . كان كل ما كان ينبغى أن يتم هنا قد انتهى .

وفى تلك اللحظة ، اقترب منى القسيس بصليبه وقال لى : « هيا يابنى » .

فأمسك بى خادما الجلاد من تحت ابطى فنهضت ومشيت . كانت خطواتى خائرة منهارة ، كما لو كانت كل ساق من ساقى لها ركبتان !

وفتح الباب الخارجى على مصراعيه فى تلك اللحظة ، فاندفع نحوى فجاة وانا فى الظلام ، صياح الجماهير الغاضب مختلطا بالهواء البارد والضوء الابيض . ورأيت فجاة ودفعة واحدة من خلال المطر وعبر النافذة الصغيرة المعتمة آلافا مؤلفة من الرءوس رءوس الشعب الذى تكدس بعضه الى جانب البعض فى غير نظام ، وهو يصيح من فوق سلم المحافظة الكبير . وكان هناك الى اليمين عند عتبة الباب تماما صف من فرسان البوليس على ظهور جيادهم التى لم يكن يبدو لى منها سوى صدورها وأقدامها الامامية من خلال الباب المنخفض ، وكانت هناك فى مواجهتى سرية من الجنود فى زى الميدان ، كما ظهرت الى اليسار مؤخرة عربة « كارو » كان يرتكز عليها

سلم غليظ خشن ! فكان هذا كله لوحة كئيبة تتمشى تماما مع باب السجن !

وكنت قد استطعت أن أحتفظ بشجاعتى حتى هذه اللحظة الرهيبة ، فخطوت ثلاث خطوات الى الامام ، وما كدت ابدو عند باب القاعة ، حتى علا صياح الجماهير قائلا : « هذا هو ! هذا هو ! هاهو ذا يخرج أخيرا ! »وكان أقربهم الى مكانى يصفقون ، ومهما أحب الشعب ملكا فلن يحتفى به مثل هذه الحفاوة .

وكانت العربة عربة « كارو » عادية يجرها جواد هزيل وكان سائقها يرتدى حلة زرقاء بها رسوم حمراء اللون شبيهة بثياب تجار الخضر حول سجن « بيستر » .

وصعد الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان الى العربة اولا ، وكان الصبية المتعلقون بالسور الحديدى يصيحون لمرآه قائلين : « أهلا وسهلا بالسيد شمشون » ثم تبعه الى العربة احد خادميه ، فعاد الصبية يصيحون من جديد : « مرحى ياماردى ! » وجلس الرجلان على مقعد العربة الامامى .

ثم حان دورى ، فصعدت الى العربة فى مظهر ثابت بعض الشىء . وفى تلك اللحظة قالت امرأة كانت تقف الى جوار الجنود : « انه على مايرام ! »

ومنحنى هذا الثناء المروع شيئا من الشجاعة ، وجاء القسيس ليجلس الى جوارى وكانوا قد اجلسونى على المقعد الخلفى وظهرى الى جواد العربة ، فارتجف بدنى لهذه اللفتة الاخيرة ! انهم يبدون انسانية فى مثل هذه الامور .

وأردت أن أنظر حولى . كان أمامى جنود ومن خلفى جنود ، ثم الجماهير .. نعم ، جماهير ثم جماهير ثم جماهير : لقد كان هناك بحر من الرءوس يغمر الميدان !

وكانت كوكبة من فرسان البوليس فى انتظارى عند باب سور المحافظة الحديدى . وأصدر الضابط أوامره ، فتحركت العربة مع الموكب كما لو كان صياح الجماهير قد دفعها الى الامام .

واجتزنا الباب الحديدى ، وما كادت العربة تنعطف فى اتجاه قنطرة « أو شانج » حتى انفجرت الضوضاء فى الميدان ، من الارض الى أسطح المنازل ، ورددتها القناطر وأرصفة نهر « السين » فى دوى كأنه زلزال يهز الارض هزا فى غير هوادة ولا رحمة !

وفى تلك اللحظة ، انضم البوليس ، الذى كان ينتظرنى الى قوة الحراسة .

وكانت آلاف الافواه تصيح معا ، تماما كما يحدث عند مرور الملك : اخلعوا قبعاتكم ! اخلعوا قبعاتكم ! » (١)

فضحكت أنا كذلك ضحكة كئيبة وقلت للقسيس : « هم القبعات .. وأنا الراس ! » (٢) .

واخذ الموكب يسير خطوة خطوة . وكان رصيف الزهور تنبعث منه روائح زكية ، وكان اليوم يوم السوق ، فتركت بائعات الزهور زهورهن من أجلى أنا .

وهناك فى مواجهتنا ، قبل البرج المربع الجاثم فى ركن دار المحافظة بقليل ، حانات كان الطابق الارضى منها يعج بالمتفرجين الذين ينعمون بأماكنهم الجميلة ، وكان أكثرهم

---

(١) لتحية الذاهب الى الموت عند مروره .

(٢) أى هم يخلعون قبعاتهم وانا سيخلع راسى !

من النساء ! لابد أن يكون هذا اليوم يوما طيبا بالنسبة لاصحاب الحانات ! فقد كانوا يؤجرون المناضد والمقاعد والمنصات والعربات « الكارو » ، وكان كل شيء مزدحما بالمتفرجين ، وكان بائعو الدماء البشرية يصيحون بملء أفواههم قائلين : « من ذا الذى يريد مكانا ؟ »

وتملكنى السخط على هذا الشعب ، وودت لو أصرخ فى الناس قائلا : « من منكم يريد مكانى ؟ »

ومع ذلك فقد أخذت العربة تتقدم ، وفى كل خطوة كانت تخطوها كان الجمهور ينفض من ورائها وكنت أرى بعينى الشاردتين أفواجا من الناس ، وهى تسارع الى التجمع فى مواضع أخرى أبعد الى الامام فى الطريق الذى يمضى فيه موكبى .

وحينما بدأنا نمر فوق قنطرة « أوشانج » ألقيت بطريق الصدفة نظرة ذات اليمين الى الوراء ، فاستقرت عيناى عند رصيف نهر السين من الضفة المقابلة على برج أسود منعزل قائم من وراء أسطح المنازل ، وكان هذا البرج مزدانا بالنقوش ، وكنت أرى فى قمته تمثالين لوحشين من الحجر فى جلسة جانبية . ولست أدرى ماذا دفعنى الى سؤال القسيس عن أمر هذا البرج .

فأجابنى الجلاد بقوله : « انه القديس جاك لابوشيرى»

ولست أدرى كيف كان لايفوتنى شيء مما كان يدور من حولى رغم الضباب ورغم المطر الدقيق الابيض الذى كان يملأ الهواء وكأنه خيوط نسيج العنكبوت ، وكانت كل واحدة من هذه التفاصيل تضيف الى نفسى عذابا فوق عذاب . ولست أجد من الكلمات ما استطيع به ان اعبر عما أشعر به من انفعالات .

وفي نحو منتصف قنطرة « أوشانج » العـريضة جدا والمزدحمة للغاية ، والتي كنا نسير فوقهـا فى صـعوبة بالغة ؛ تملكنى رعب عظيم وخشيت أن أغيب عن الوعى . ياله من غرور أخير ! فحرصت عندئذ على أن أعمـل على تشريد ذهنى حتى أصير كالاعمى الاصم فلا أرى شـيئا ولا أسمع شيئا عدا القسيس الذى كنت أسمع كلماته فى جهد جهيد تتخللها ضجة الشعب .

فتناولت الصليب وقبلته ثم قلت : « رحماك ياالهى !» وحاولت أن أفنى نفسى فى هذه الفكرة ، ولكن كل «مطب» تضطرب فيه العربة الصلبة كان يهزنى هزا عنيفا ، ثم احسسـت فجأة ببرودة شديدة ، اذ كان المطر قد نفـذ من ثيابى وغمر جلد رأسى من خلال شعرى الذى قصوه قصيرا .

وسألنى القسيس قائلا :

ـ أترتجف من البرد يابنى ؟

فأجبته بقولى :

ـ نعم .

وكنت للاسف لا ارتجف من البرد وحده !

وعند ناصية القنطرة أبدى بعض النساء عطفهن على لانى شاب حديث السن . ثم مضين قدما على طـــول الرصيف المشئوم ، فبدأت لا أرى شيئا ولا أسمع شيئا ! آه من كل هذه الاصوات وكل تلك الرءوس التي تطل من النوافذ والابواب وتحتشد أمام الحوانيت وفوق أعمـدة النور ، آه من كل هؤلاء المتفرجين النهمين القساة ، هذا

الجمهور الذى يعرفنى كله ولا أعرف شخصا واحدا منه ، هذا الطريق المرصوف والمسور بالوجوه البشرية !! انى كنت ثملا مذهولا متبلد الذهن ! ان كل هذه الانظار التى تتطلع اليك شيء لا يمكن احتماله !

لقد كنت أترنح اذن فوق المقعد ولم أعد القى بالا الى شيء ، حتى ولا الى القسيس أو الصليب . وفى غمرة الضجيج الذى يحيط بى ، صرت لا أميز صيحات الشفقة من صيحات السرور ، أو افرق بين الانات والضحكات ، ولا بين الاصوات والصخب ، فكل ذلك كان ضجيجا يدوى فى رأسى كما يدوى الصدى فى آلة من نحاس !

وكانت عيناى تقرآن لافتات الحوانيت بطريقة آلية ، وتملكنى مرة فضول عجيب لان أدير رأسى لانظر الى اى مكان كنت أسير . كان هذا تحديا أخيرا من العقل ، غير أن جسمى لم يستجب لهذا ولبث عنقى مشلولا كأنه مات مقدما !

لقد لمحت فحسب ، عن يسارى من الجانب بعيدا عن النهر ، برج كنيسة « نوتردام » الذى اذا نظر اليه من هذا الموضع ، فانه يحجب البرج الآخر ، هذا البرج الذى كان العلم مرفوعا عليه ، وكان به جمع غفير كان المفروض انه يرى موكبى فى وضوح .

وواصلت العربة المسير فأخذت تتقدم وتتقدم والحوانيت تمر ، واللافتات تتتابع مكتوبة أو مرسومة أو مطلية بالذهب وكان الجمهور يضحك ويضرب الوحل بالاقدام ، أما أنا فكنت اترك العنان لنفسى كما يترك الناس عنان أنفسهم للأحلام .

وفجأة ، انقطعت سلسلة الحوانيت التى كانت تشغل عينى عند ناصية ميدان وأصبح صياح الجماهير أشد قوة وعمقا وانتشارا ، وصار أكثر مرحا كذلك ، وتوقفت العربة عن المسير بغتة فكدت أنكفىء على وجهى فوق « أرضيتها » الخشبية ، فسندنى القسيس وهو يتمتم قائلا « تشجع يابنى ! » .

وجاءوا عندئذ بسلم عند مؤخرة العربة فقدم الى القسيس ذراعه فنزلت وخطوت خطوة واحدة ثم التفت الى ما ورائى لاخطو بعدها خطوة أخرى ، ولكنى لم أستطع ، اذ كنت قد رايت شيئا رهيبا بين عمودين من أعمدة النور فوق الرصيف .

آه ! لقد كانت هى الحقيقة !

فتوقفت كما لو كنت قد ترنحت من أثر الصدمة ، ثم صحت قائلا فى صوت مخنوق : « لدى اعتراف أخير أريد أن أفضى به ! » ولكنهم صعدوا بى الى هذا المكان .

وطلبت أن يتركونى كى أدون ارادتى الاخيرة ، ففكوا وثاق يدى ، ولكن الحبل هنا الى جوارى على أهبة الاستعداد ، وبقيته ملفوفة على قدمى !

الرجـــاء الأخـــير

لقد حضر منذ لحظة احد القضاة أو مأمور أو رجل من رجال القضاء لست أدرى أيهم . فطلبت اليه العفو عنى وأنا أضم يدى وازحف على ركبتى . فأجابنى الرجل قائلا وهو يبتسم ابتسامة مشئومة : « هل هذا هو كل ماتريد ان تقوله لى ؟ »

فعدت اكرر قولى : « العفو عنى ! العفو عنى ! أو خمس دقائق فحسب .. على سبيل الرحمة ! »

من يدرى ؟ فقد يصل أمر العفو ! ومن الشناعة حقا أن أموت هكذا وأنا فى مثل هذه السن ! وكثيرا ماراينا أمر العفو يأتى فى اللحظة الاخيرة وعمن يعفون ياسيدى اذا هم لم يعفوا عنى ؟

يا لهذا الجلاد البغيض ! لقد دنا من القاضى ليقول له ان تنفيذ الحكم يجب أن يتم فى ساعة محددة ، وأن هذه الساعة تقترب ، وانه كان مسئولا ، وليقول له فوق هذا أن السماء كانت تمطر ، وان ذلك كان خليقا بأن يجعل المقصلة تصدأ !

فصحت قائلا : « آه ! دقيقة اخرى على سبيل الرحمة! دقيقة واحدة انتظر فيها وصول العفو ! والا فانى سوف ادافع عن نفسي ! سوف اعض ! » .

فانصرف القاضي والجلاد ، وبقيت وحدى ! وحدى مع جنديين .

اوه ! يا للشعب الرهيب بصياحه الذى يشبه عـواء الضباع ! من يدرى ما اذا كنت افلت منه ؟ من يعلم ما اذا كنت اعتق ؟ او أن يصدر عفو عنى ؟ .. من المحال الا يصدر العفو عنى !

آه ! يا للتعساء ! يبدو لى انهم يصعدون السلم !..

الساعة الان الرابعة !

مهزلة بمناسبة مأساة

بقلم : فيكتور هيجو

الشخصيات

مدام دى بلانفال
الفارس
ارجاست
شاعر حزين
فيلسوف
سيد بدين
سيد نحيل
سيدات
خادم

المكان : فى الصالون

شاعر حزين يقرأ هذه الابيات من شعره :
وفى اليوم التالى ، كانت خطوات تعبر الغابة
وكان هناك كلب ينبح ويهيم على طول مجرى النهر
ولما حضرت الفتاة وهى تبكى
وعادت لتجلس وقلبها مملوء بالهواجس

على البرج القديم جداً فى القصر العتيق
سمعت « ايزور » الحزينة انين الامواج
ولكنها لم تعد تسمع الربابة بعد ذلك
ربابة القصصى « الشاعر » اللطيف !

كل المستمعين ـ « برافو » ! .. لطيف ! .. مدهش !
« ويصفقون فى نفس الوقت »

مدام دى بلانفال ـ هناك فى نهاية هذه القصيدة شىء غامض لا يمكن تعريفه ، شىء يسيل الدمع من العيون .

الشاعر الحزين ـ « فى تواضع » : ان الكارثة مقنعة ؟

الفارس ـ « وهو يهز رأسه » : ان كلمتى ربابة وعازف ربابة : رومانتيكيتان !

الشاعر الحزين ـ نعم ياسيدى ، ولكنها رومانتيكية معقولة ، رومانتيكية بمعنى الكلمة ـ ماذا تريد اذن ؟ يجب علينا أن نتساهل بعض الشىء .

ـ نتساهل .. نتساهل ! اننا بهذه الطريقة نفقد الذوق الفنى .. اننى لاعطى بامتنان كل الاشعار الرومانتيكية فى مقابل هذا الرباعى !

فى بلاد « باند » و « سيتير » .
اخطر « جانتيى برنار »
بأن فن الحب يجب فى يوم السبت
ان يتعشى عند فن الاعجاب .

هذا هو الشعر بمعنى الكلمة ! فن الحب الذى يتناول عشاءه يوم السبت عند فن الاعجاب ! حسنا ، حسنا ! ولكنه اليوم عبارة عن ربابة وعازف ربابة . لم يعد ثمة

شعر به تورية واستعارة .. آه ! لو كنت شاعرا لكتبت أشعارا مملوءة بالاستعارات .. ولكني لست شاعرا .. انا ..

الشاعر الحزين ــ ومع ذلك ، فالاشعار الحزينة والعاطفية ..

الفارس ــ اننا نريد ياسيدى أشعارا بها استعارة .. « ثم بصوت هامس الى مدام دى بلانفال » : ثم انه استعمل كلمة غير فرنسية !

شخص ما ــ « مخاطبا الشاعر الحزين » : لدى ملاحظة ياسيدى .. انك تقول : « القصر العتيق » ، فلماذا لا تقول : « القصر القوطى ؟ »

الشاعر الحزين ــ ان كلمة «قوطى» لاتقال في الاشعار.

شخص ما ــ آه ! هذا امر مختلف .

الشاعر الحزين ــ « متابعا حديثه » : أفهمني تماما ياسيدى .. يجب أن نحدد أهدافنا ، وانا لست من هؤلاء الذين يريدون اشاعة الفوضى والاضطراب فى الشعر الفرنسي والعودة به الى عصر مدرسة « رونسار » (١) ومدرسة « بريبوف » انني رومانتيكي ولكنى معتدل ؛ والامر عندي تماما كالانفعالات ، فانا أريدها حلوة رقيقة ، وحزينة حالمة ، ولكنى لا اريد ابدا دما وبشاعة . يجب تغطية الكوارث ، واني لاعرف أن هناك اناسا مجانين يشتط خيالهم ويهرف ، وهم .. عجبا ! هل قرأتن سيداتى الرواية الجديدة ؟

السيدات ــ اية رواية ؟

(١) شاعر رومانتيكي من شعراء القرن السادس عشر .

الشاعر الحزين ـ الرواية التى عنوانها : «آخريوم» . .

سيد بدين ـ كفى ياسيدى ! فأنا اعرف ما تريد ان تقول . . ان العنوان وحده يرهق اعصابى !

مدام دى بلانفال ـ وانا كذلك . . انه كتاب فظيع ، وهو عندى هنا .

السيدات ـ ارينا اياه . . ارينا اياه !

« يمر الكتاب من يد الى اخرى »

شخص ما ـ « يقرأ » : آخر يوم فى حياة شخص . . .

السيد البدين ـ رحماك ياسيدتى !

مدام دى بلانفال ـ حقا انه كتاب شنيع يسبب الكابوس ، ويجلب لقارئه المرض .

سيدة ـ « بصوت منخفض » : يجب ان اقرأ هذا الكتاب .

السيد البدين ـ من واجبنا أن نعترف بأن الاخلاق تتدهور من يوم الى يوم . يا الهى ! يالها من فكرة بشعة !. أوليس تحليل كل الالام البدنية ، وكافة أنواع العذاب النفسى التى يقاسيها رجل محكوم عليه بالاعدام يوم تنفيذ الحكم فيه ، واحدة بعد أخرى ، والتغلغل فيها ،والتنقيب عن جذورها وملابساتها . . او ليس هذا كله شيئا شنيعا ؟ أتفهمن سيداتى أنه قد وجد بالفعل كاتب تبنى هذه الفكرة وان ثمة جمهورا يقرأ لهذا الكاتب ؟

الفارس ـ هذا فى الواقع عمل ينطوى على أكبر قدر من الوقاحة !

مدام دى بلانفال ـ ومن هو مؤلفه ؟

السيد البدين ــ لم يكن اسم المؤلف مكتوبا على الطبعة الاولى .

الشاعر الحزين ــ انه هو بعينه الذى سبق له ان كتب روايتين أخريين .. أقسم بشرفى أنى نسيت عنوانيهما ! ان الرواية الاولى تبدأ فى المشرحة وتنتهى فى ساحة الاعدام ، وفى كل فصل من فصولها تجدون غولا ياكل طفلا .

السيد البدين ــ وهل قرات هذا ياسيدى ؟

الشاعر الحزين ــ نعم ياسيدى ، وحوادث هذه الرواية تقع فى « ايسلاندة » ..

السيد البدين ــ فى ايسلاندة ؟ ان هذا لشىء مخيف !

الشاعر الحزين ــ لقد كتب عدا هذا أشعارا غنائية والوانا عدة من القصائد لست أعرفها ، ولكن فيها الوحوش ذات الاجساد الزرقاء !

الفارس ــ « ضاحكا » : يا الهى ! لابد أن يكون هذا بيتا عنيفا من الشعر .

الشاعر الحزين ــ لقد نشر كذلك دراما مسرحية ــ انهم يسمون هذا دراما ــ ولقد جاء بها هذا البيت الجميل من الشعر :

غدا ، الخامس والعشرون من يونيو سنة الف وستمائة وسبع وخمسين ..

شخص ما ــ ياله من بيت من الشعر !

الشاعر الحزين ــ ان هذا يمكننا كتابته بالارقام .. انظرن سيداتى :

غدا ٢٥ يونيو ١٦٥٧

« يضحك ويضحك معه الآخرون »

الفارس ــ لقد أصبح الشعر الآن شيئا « خاصا »

السيد البدين ــ آه ! ان هذا الرجل لا يعــرف كيف يقرض الشعر فما هو اسمه ؟

الشاعر الحزين ــ انه اسم يصعب حفظه والنطق به .. وبه المقطع : «جو» .. شيء يشبه «فيزيجو» على ما أذكر ، وعلى كل حال فان فيه شيئا من « الاوستروجو » (١) .

يضحك

مدام دى بلانفال ــ انه رجل بغيض !

السيد البدين ــ بل رجل شنيع !

سيدة شابة ــ ان شخصا يعرفه قال لى ..

السيد البدين ــ أتعرفين شخصا يعرفه ؟

السيدة الشابة ــ نعم ، وهو يقول أنه رجل حــــلو الطباع ، بسيط ، يضحك وهو فى عزلته ، ويقضى أيامه فى اللعب مع أبنائه .

الشاعر الحزين ــ ويقضى لياليه يحلم بمؤلفاته المظلمة. هذا شيء فريد ! اليكم بيتا من الشعر نظمته بطريقـــة طبيعية للغاية :

« ولياليه يقضيها فى الحلم فى مؤلفاته المظلمة » .

وهو بيت مصقول حسن ، ولا تنقصه الا قافية بيت آخر .

آه ! .. هاهى ذى :

(١) قبائل البربر التى غزت الامبراطورية الرومانية . ووضح انالشاعر الحزين يلمح هنا الى اسم (فيكتور هيجو) .

« في الليل الحالك »

السيد البدين ـ كنت تقولين اذن يا سيدتى ان المؤلف المذكور له ابناء صغار .. ان هذا مستحيل ياسيدتى ، عندما يكتب المرء مثل هذا الكتاب ! .. اوه ! مثل هذه الرواية المفزعة ..

شخص ما ـ ولكن ، لاى هدف كتب هذه الرواية ؟

الشاعر الحزين ـ انى لى أن أعرف ؟

فيلسوف ـ يبدو انه كتبها بقصد الاسهام فى الغاء الاعدام .

السيد البدين ـ انى أقول لكم ان هذه الرواية شيء بشع !

الفارس ـ آه ! انى أرى ذلك .. انها اذن مبارزة مع الجلاد .

الشاعر الحزين ـ الواقع انه يحقد على المقصلة كل الحقد .

سيد نحيل ـ أستطيع أن أتصور ذلك ، فهى خطب اذن ؟

ـ كلا على الاطلاق أن هناك صفحتين على الاكثر عن نص عقوبة الاعدام ، أما الباقى كله فهو عبارة عن مشاعر .

الفيلسوف ـ هذا هو وجه الخطأ ، فالموضوع كان جديرا بالتأمل . ان « الدراما » أو الرواية لاتبرهن على شيء ، ثم انى قرات الكتاب ، وهو كتاب رديء .

الشاعر الحزين ـ بل وكريه ! هل هذا فن ؟ انه قد تخطى الحدود وحطم الزجاج ! وهناك كذلك هذا المجرم

.. آه لو كنت اعرفه ! ولكن .. كلا ! ماذا جنت يداه ؟ اننا لا نعرف عن ذلك شيئا ، وليس لاحد الحق فى أن يثير اهتمامى بانسان لا اعرفه .

السيد البدين – ليس من حق الكاتب أن يثير فى القارىء آلاما بدنية . اننى عندما اشاهد مسرحيات محزنة يحدث فيها قتل .. آه ! حسنا .. فذلك لا يؤثر فى نفسى ، ولكن هذه الرواية يقف لها شعر الراس ، انها تجعل جسمك يرتجف بأسره ، وتجعلك تحلم أحلاما فظيعة . لقد لازمت الفراش يومين بعد أن قرأتها .

الفيلسوف – زد على ذلك أنه كتاب بارد ومتكلف

الشاعر – أوه ! كتاب ! .. كتاب !

الفيلسوف – نعم ، وكما كنت تقول منذ لحظة ياسيدى انه كتاب لا يقوم على الفن الحقيقى ، الفن بمعنى الكلمة ! اننى لا اعنى بأمر افتراضى محض ، ولست ارى فى الرواية شخصية تتقمص شخصيتى . وفوق هذا ، فأسلوبه ليس بسيطا ولا واضحا ، انه ملىء بالكلمات العتيقة ، افليس هذا هو ماكنت تقوله ؟

الشاعر – بلا شك ، بلا شك ! يجب الا تكون هناك شخصيات .

الفيلسوف – ان الشخص المحكوم عليه لايثير الاهتمام .

الشاعر – وكيف يمكن أن يثير اهتمام القارىء ؟ انه ارتكب جرما ولا يشعر بندم ! لو اننى كنت المؤلف لفعلت عكس ذلك تماما ، لكنت قصصت قصة شخص المحكوم عليه ، فقلت انه مولود من ابوين شريفين وتلقى تربية

طيبة . وبعد هذا يأتى الحب ، والغيرة ، وجريمة لاتكون جريمة .. ثم يأتى دور الندم . نعم ، كثير من الندم . ولكن القوانين التى وضعها الانسان لا ترحم . فيجب اذن أن يموت . وهنا ، كنت أتحدث عن موضـــوعى الذى اعالجه : عقوبة الاعدام .

مدام دى بلانفال ـ آه ! آه !

الفيلسوف ـ عفوا ! ان الكتاب كما يفهمه الســـيد لا يبرهن على شىء ، فالخاص لا يكون حكما للعام .

الشاعر ـ حسنا ! هناك ماهو أفضل . لماذا لم يتخير المؤلف بطلا لروايته مثلا ، شخصية كشخصية مالزرب ، مالزرب الفاضل ؟ آخر يوم فى حياته وعذابه قبل اعدامه ؟ آه ! انه كان خليقا عندئذ بأن يكون منظرا جميلا نبيلا ! ولكنت بكيت وارتجفت من الانفعال ورغبت فى الصعود معه الى المقصلة !

الفيلسوف ـ أما أنا فلا !

الفارس ـ ولا أنا . الواقع أن السيد « مالزرب » الذى تتحدث عنه كان ثائرا .

الفيلسوف ـ ان شنق « مالزرب » لايبرهن على شىء ضد عقوبة الاعدام بوجه عام .

السيد البدين ـ عقوبة الاعدام ! ماجدوى الاهتمـــام بهذا الامر ؟ وفيم تعنيكم عقوبة الاعدام ؟ لابد أن يـكون هذا الكاتب من وضاعة الاصل بحيث يأتى ليثير فى أنفسنا بكتابه هذا كابوسا بشأن هذا الموضوع !

مدام دى بلانفال ـ ان الذين وضعوا القوانين لم يكونوا أطفالا .

الفيلسوف ــ آه ! ومع ذلك ، فعندما تعرض الامور فى صراحة . .

السيد النحيل ــ آه ! هذا هو ماينقص الكتاب تماما : الحقيقة والصراحة .

ماذا تريدون أن يعرفه شاعر عن مثل هذه الامور ؟ أيجب أن يكون المرء على الاقل وكيلا للنائب العام . عجبا ! انى قرات فى نص ذكرته احدى الصحف عن هذا الكتاب أن المحكوم عليه لا يقول شيئا عندما يقرءون عليه نص الحكم . حسنا ! اما أنا فقد رأيت شخصا محكوما عليه بالاعدام ووهو يصيح بقوة فى تلك اللحظة قائلا :

« هل ترون . . . ؟ »

الفيلسوف ــ هل تأذن . . . ؟

السيد النحيل ــ عجبا أيها السادة ! ان المقصلة وساحة الاعدام ذوق فاسد ، والدليل على هذا أنه كتاب يفسد الذوق ، ويجعل المرء عاجزا عن أن يشعر بانفعالات نقية طازجة وساذجة ! متى ينهض اذن أولئك الذين يدافعون عن الادب السليم ؟ اننى اود أن أكون عضوا فى الاكاديمية الفرنسية وقد يعطينى هذا الحق مرافعاتى كوكيل للنيابة . هذه هى حقيقة الامر ياسيد «ارجاست» ، فما رأيك فى كتاب « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام ؟ »

ارجاست ــ الحق ياسيدى أننى لم اقرأ هذا الكتاب ولن اقراه . لقد كنت أتعشى بالامس عند « مدام دى سينانج » ، وتحدثت الماركيزة « دى موريفال » بشأنه مع الذوق « دى ملكور » . ويقال أن هناك بعض شخصيات

ضد رجال القضاء ، وخاصة ضد الرئيس « داليمون » ، وكان الاب « دى فلوريكور » ساخطا كذلك ، ويبدو أن فى الكتاب فصلا يعارض فيه الدين بعض المعارضة وآخر ضد الملكية . آه لو كنت وكيلا للنائب العام !

الفارس ــ حسنا : وكيلا للنائب العام ! وماذا عن الدستور ؟ وعن حرية الصحافة ؟ ومع ذلك فسوف تقروننى على أن شاعرا يريد الغاء عقوبة الاعدام امر شنيع . آه ! فلو أن انسانا سولت له نفسه فى العهد البائد أن ينشر رواية ضد تعذيب المتهمين .. ! ولكنهم اصبحوا يستطيعون كتابة كل شيء منذ سقوط الباستيل ان الكتب تحدث ضررا بليغا .

السيد البدين ــ بليغا ! لقد كنا نعيش فى هدوء ولانفكر فى شيء . كان يقطع فى فرنسا رأس من حين لآخر هنا أو هناك او راسان على الاكثر فى كل أسبوع ، غير أن ذلك كله كان يتم فى هدوء وبلا فضائح . كانوا لا يقولون شيئا ، ولم يكن أحد يفكر فى الامر على الاطلاق ! وهذا كتاب .. كتاب يحدث لك صداعا أليما !

السيد النحيل ــ علينا أن نجد الوسيلة التى تجعل المحلفين يحكمون بالاعدام بعد قراءة هذا الكتاب .

ارجاسبت ــ انه يربك الضمائر .

مدام دى بلانفال ــ آه ! الكتب ! الكتب ! من كان يصدق ذلك عن رواية ؟

الشاعر ــ ليس ثمة شك فى أن الكتب كثيرا ما تكون سما لقلب النظام الاجتماعى .

السيد النحيل ــ دون أن نأخذ فى حسابنا اللغة التى

يحدث فيها السادة « الرومانتيك » ثورة كذلك .

الشاعر ـ علينا أن نميز أيها السادة ، فثمة «رومانتيك» « رومانتيك » .

السيد النحيل ـ الذوق الفاسد ! الذوق الفاسد !

ارجاست ـ انك لعلى حق . الذوق الفاسد !

السيد النحيل ـ ليس ثمة مايرد به على ذلك .

الفيلسوف ـ « وهو يتكىء على مقعد سيدة » : انهم يقولون هناك أشياء لم تعد تقال حتى فى شارع موفتار .

ارجاست ـ آه ! ياله من كتاب بغيض !

مدام دى برفال ـ أوه ! لا تلقوا به فى النار فهناك من تمتدحه .

الفارس ـ حدثينى عن زماننا الماضى . لشد ما فسد كل شىء منذ ذلك الحين : الذوق ، والاخلاق ! هل تذكرين زماننا يا « مدام دى بلانفال » ؟

مدام دى بلانفال ـ كلا ياسيدى . لست اذكره أبدا

الفارس ـ لقد كنا نحن الشعب أكثر لطفا واكثر مرحا وخفة روح ، وكانت الحفلات الجميلة تقام دائما ، وكانت تقرا الاشعار الجميلة . كان ذلك ساحرا للغاية . أهناك ماهو أروع من الشعر الذى كتبه السيد « دى لاهارب »

عن الحفل الراقص العظيم الذى اقامته مدام «لاماريشال دومايى» فى عام ١٧٠٠ وهو العام الذى أعدم فيه «داميان ؟» .

السيد البدين ــ « متنهدا » : ياله من زمن سعيد ! والآن صارت الاخلاق مروعة ، وكذلك الكتب . هذا البيت من الشعر الذى قاله بوالو (١) .

« ان سقوط الفنون يتبع تدهور الاخلاق »

الفيلسوف ــ « فى صوت منخفض موجها الحديث الى الشاعر » :

هل هناك عشاء فى هذا البيت ؟

الشاعر الحزين ــ نعم ، بعد قليل

السيد النحيل ــ والآن هم يريدون الغاء عقوبة الاعدام ويكتبون لهذا الغرض روايات قاسية فاسدة الذوق ولا اخلاق فيها مثل « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام » وغيرها مما لا اعرفه !

السيد البدين ــ عجبا ياعزيزى ! لنكف عن الكلام عن هذا الكتاب الشنيع . وبما اننا قد تقابلنا ، فقل لى

---

(١) شاعر فرنسى من شعراء القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر (١٦٣٦ ــ ١٧١١ م) .

ماذا ستفعل فى أمر ذلك الرجل الذى رفضنا طلب استئنافه للحكم الصادر عليه منذ ثلاثة أسابيع ؟

السيد النحيل ــ آه ! قليلا من الصبر ! أنا هنا فى عطلة ودعنى التقط انفاسى . وسوف أرى ذلك بعد عودتى الى العمل ، ومع ذلك فان تأخرت كثيرا فسوف اكتب الى من يقوم بعملى .

خادم ــ « يدخل » : سيدتى : ان العشاء قد أعد !

فهرس

صفحة

مقدمة 7

الفصل الاول : قضيتى

فى سجن « بيستر » 46
فى العربة السوداء 57
العودة الى « بيستر » 59

الفصل الثانى : أيام لن تعود

مذكراتى 64
فى الزنزانة 71
مشهد رهيب 78
اللحن الحزين 90
الكاهن 102

الفصل الثالث : الطريق الى الموت

فى سجن « لاكونسيير جورى » 108
هذا القسيس 132
أيام صباى 142
مارى ابنتى 157
الى ساحة الاعدام 164
الرجاء الاخير 174
مهزلة بمناسبة مأساة 177

رقم الايداع بدار الكتب : ٦٦٩٥ — ٨٤
الترقيم الدولى : ٢ — ١١٢ — ١١٨ — ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص٠ ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص. ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Miguel Maccul Cury. R. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع فى الخارج للعدد الممتازة ٥٠٠ مليم :

ســـوريا ٩٠٠ ق٠س ، لبنان ٩٠٠ق٠ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٨٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ م٠س ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠ سنت ، الصومال ٨٠ بني ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بني ، اسمرة ٦٠٠سنت ، اليمن الشـمالية ٧ ريال ، أديس أبابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠فرنكات ، لندن ١٠٠ بنى ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سـويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهـاجن ١٥كرونة ، اسـتوكهولم ١٥ كرونة ، كنـدا ٣٠٠ سـنت ، البرازيل ٤٠٠سنت ، نيويورك ٣٥٠ سـنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٤٠٠ فلس

هذا الكتاب

اذا كان فيكتور هيجو قد اشتهر اكثر ما اشتهر بمؤلفه الرحيم خيال البؤساء وحملته على النظم الاجتماعية التى كانت قائمة فى عصره ، فقد اشتهر كذلك بحملاته العنيفة ، وثوراته القاسية على الاوضاع القانونية • وقد ثار هيجو ثورة عنيفة على الحكم بالاعدام • وقد دفعه الى هذه الحملة نزعة انسانية نبيلة كان من اثرها ان اخرج هذا الكتاب الرائع (آخر ايام محكوم عليه بالاعدام) (Le dernier jour d'un condamné) الذى احدث ضجة عقلية بين الناس عامة ورجال القضاء خاصة • وقد جعل الكتاب على لسان احد المحكوم عليهم بالاعدام الذى شاء ان يسطر على القرطاس احاسيسه ومشاعره وما لاقاه من ضروب العسف والقسوة من رجال الشرطة • وهذه الصرخة المدوية التى سجلها هيجو فى كتابه دفعت كثيرا من الناس ان يطالبوا بالغاء الحكم بالاعدام •

ويسر سلسلة كتاب الهلال ان تعيد اليوم تقديم هذه التحفة الرائعة •

٥٠ قرشاً

